

(١٤٤٥)

الامتنان

معان ومسائل

في مصنفات التفسير

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٦هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

WWW.NSOOOS.COM

"١٣٧٤ - فألقى التهامي [منهما] بلطاته ... [وأحلط] هذا لا [أريم] مكانيا.

فمعنى السبات على هذا: النوم الممتد الغرق، وكان وجه **الامتنان** بأن لم يجعل نومنا تقويما وعزارا.

وهذا الجواب أولى، لأنه يقال: سبت الرجل بمعنى: قطع العمل واستراح، كما يقال: سبت إذا نام نوما طويلا.

(من المعصرات)

السحاب التي دنت أن تمطر، كالمعصرة التي دنت من الحيض. قال أبو النجم:

١٣٧٥ - جارية بسفوان دارها

١٣٧٦ - تمشي الهوينا مائلا خمارها." (١)

"الذين لا يكتبون. وكذلك كانت قريش. وروى منصور عن إبراهيم قال: الأمي الذي يقرأ ولا يكتب. وقد مضى في" البقرة" «١». (رسولا منهم) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم. وما من حي من العرب إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة وقد ولدوه. قال ابن إسحاق: إلا حي تغلب، فإن الله تعالى طهر نبيه صلى الله عليه وسلم منهم لنصرانيتهم فلم يجعل لهم عليه ولادة. وكان أميا لم يقرأ من كتاب ولم يتعلم صلى الله عليه وسلم. قال الماوردي: فإن قيل ما وجه **الامتنان** فإن بعث نبيا أميا؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها: لموافقته ما تقدمت به بشارة الأنبياء. الثاني: لمشاكلة حال لأحوالهم، فيكون أقرب إلى موافقتهم. الثالث: لينتفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعى إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها. قلت: وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوته. قوله تعالى: (يتلوا عليهم آياته) يعني القرآن (ويزكيهم) أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان، قاله ابن عباس. وقيل: يطهرهم من دنس الكفر والذنوب، قاله ابن جريج ومقاتل. وقال السدي: يأخذ زكاة أموالهم (ويعلمهم الكتاب) يعني القرآن (والحكمة) السنة، قاله الحسن. وقال ابن عباس: الكتاب الخط بالقلم، لأن الخط فشا في العرب بالشرع لما أمروا بتقييده بالخط. وقال مالك بن أنس: الحكمة الفقه في الدين. وقد مضى القول في هذا في" البقرة" «٢». (وإن كانوا من قبل) أي من قبله وقبل أن يرسل إليهم. (لفي ضلال مبين) أي في ذهاب عن الحق.

[سورة الجمعة (٦٢): آية ٣]

وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم (٣)

---

(١) باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن، النيسابوري، بيان الحق ١٦١٤/٣

قوله تعالى: (وآخرين منهم) هو عطف على الأميين أي بعث في الأميين وبعث في آخرين منهم. ويجوز أن يكون منصوبا بالعطف على الهاء والميم في يعلمهم ويزكيهم،

---

(١). راجع ج ٢ ص ٥ وص ١٣٦

(٢). راجع ج ٢ ص ٥ وص ١٣٦." [١]

"فإنه لا يستلزم عقلا (جعلها فراشا لمن قبلهم كما جعلت فراشا لهم) أو يجاب (بأنه من تغليب المخاطب على الغائب). أو بأن الآية خرجت مخرج **الامتنان** (بما هو مأوى المخاطبين) فامتن عليهم بخلقهم، ثم بخلق آبائهم الذين هم سبب فيهم، ثم جعل الأرض لهم فراشا (لأنها) سبب في دوام وجودهم ونعمة لهم، ولم، يحتج إلى ذكر كونها فراشا لمن قبلهم لأن **الامتنان** (إنما) هو لها، وإنما المخاطبون (الأحياء، ومن) قبلهم قد ماتوا وانتفى عنهم التكليف.

قال ابن عرفة: والأرض (كروية) والكرة الحقيقية لا يمكن أن (يوجد) فيها خط مستقيم بوجه حسبما برهن عليه إقليدس.

قال ابن الخطيب في الأربعين: لما استدل على بطلان الجوهر الفرد قال: إن الكرة الحقيقية إذا ما مست جزءا من الأرض فإن قلنا:

إن ذلك الجزء لا ينقسم فهو الجوهر الفرد وإن قلنا: إنه ينقسم لزم أن يكون في الكرة خط مستقيم وهو باطل.

قال ابن عرفة: فالصواب أن الكرة محددة (بكور) أخر (وضع عليها) (كما تأخذ) رطلا من شمع فتصنع من نصفه كرة وتأخذ (باقيه) تضعه على أجنابها (تسويها به) وكذا تعرض الأرض قال: (قبة أزين) في وسط الأرض.

وذكروا أنه لا يعيش هناك أحد لكثرة ما فيها من الحرارة.

قلت: وقال الشيخ عبد الخالق: والحكماء لما قاسوا الأرض اختلف عليهم وسطها الحقيقي لكن الاختلاف في مواضع قريب بعضها من بعض فبنوا عليه القبة على مواضع مسافتها ثلاثة أميال حتى

تحققوا أنها احتوت على وسط الأرض الحقيقي قال: ورأيت رجلا رجلا أعجميا أخبر أنه رآها وسمع فيها الأفلاك ودوي حركتها.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٨/ ٩٢

وأخبروا عن الحكيم (فيتاغوش) أنه أتى عليه وقت تروحن فيه وصعد إلى قريب السماء فسمع حس الأفلاك (قال): ويسمع أحسن من ذلك الحس فنزل (واستنبط صنعة الديباج) مما رأى في السماء والله أعلم.

وقبة (أزين) بينها وبين جبل سرنديب درجتان لأن عرضه درجتان في الإقليم الأول وهو عامر والدرج يقابله في الأميال مائة ميل على ما عليه الأكثرون وصححوه. وقيل: مائة وثمانية وقيل: ستة وستون. ومن يكن في القبة يظهر له القطبان محاذيين للأفق.." (١)

"قيل لابن عرفة: إن الفخر في المباحث المشرقية ذكر أن الأرض على الماء (وجهتها الموالية) للماء كروية وأعلاها مسطح ولولا ذلك لما استقرت على الماء والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ... ﴾

المراد بالرزق المباح فهو عند المعتزلة من مادة اللفظ على أصلهم وعندنا من (ناحية) أن الآية خرجت مخرج الامتنان والامتنان إنما يكون بالحلال (لا بالحرام).

قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾

أي وأنتم تعلمون الله.

قيل لابن عرفة: فيه دليل على أن كفرهم عناد؟

قال: لا. بل هم عارفون بالله لأنهم قالوا في الأصنام ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونآ إلى الله﴾ وهم جاهلون بما يبطل عبادتهم الأصنام للتقرب أو (نقول) (المعنى)

وأنتم تعلمون الآيات والدلائل التي تدلكم على عبادته، (لكنهم) لم يهتدوا (للعثور على الوجه) الذي منه يدل (الدليل إن كان ارتباط الدليل بالمدلول عقلا أو يقول: ءلموا الدليل، وعثروا على الوجه الذي منه يدل)، ولم يحصل لهم العلم بالمدلول بناء على ارتباط الدليل بالمدلول عادي.

قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب ... ﴾

قال ابن عرفة: لما تقدم الكلام معهم في الإيمان بتوحيد الله والإيمان بالرسالة عقب ذلك بما جرت به العادة (في المخاطبة) بالجدل، وهو (أنكم) وقع منكم شك في البرهان الذي أتاكم به الرسول دليلا على صحة رسالته فعارضوه، وهذا أحد أنواع الجدل وهو إما القدح في دليل الخصم، أو معارضته بدليل آخر.

(قيل): لابن عرفة: هم ادعوا أن القدح في الدليل فهلا عجزوا بذلك؟

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٦٩/١

فقال: (قد) نجد الخصم يدعي دعاوي (جملة) ويقدح في دعاوي خصمه، ولا يقبل منها شيا إلا ما يمكن أن يكون فيه شبهة.

قال: والأظهر أن الريب هو عدم الجزم بالشيء، فتناول الظن والشك والوهم، لأن الإيمان لا يحصل إلا بالجزم اليقيني، وما عداه كله ليس بإيمان.

قال: وعبر ب «إن» دون إذا لأن المراد (التنبيه) عن حالهم، وانها مذمومة شرعا فعبر عنها لما يقتضي عدم الوقوع وإن كانت واقعة.

وأورد الزمخشري أن نزل يقتضي التنجيم، وأنزل يقتضي الإنزال دفعة واحدة. وأجاب (عن ذلك) بأن المراد أنه نزل شيئا بعد شيء.." (١)

"قال الزمخشري: اللام للتعليل، وهو اعتزال. وقدره بعض المأخرين على مذهب أهل السنة بأنه مجاز والمراد بأن ذلك بحيث لو (صدر) من غيره لكان لأجل مصلحتكم (وانتفاعكم) وراعى في هذا الأمر المناسب الملائم للانسان.

قال ابن عرفة: وهذا هو تعليل أفعال الله، وفيه خلاف، وأما أحكامه فمعللة.

قال ابن عطية: واحتج بها من يقول: إن الأشياء على الإباحة و (قيه) ثلاث أقوال: ثالثها الوقف.

وقال الطيبي: لا حجة في ذلك إذ لعله خطاب المجموع بالمجموع ورده ابن عرفة بوجهين:

-

الأول: أنه إحداث قول لم يقل به أحد، وهو أن بعض الأشياء على الحظر أي المنع، وبعضها على الإباحة.

- الثاني: ان (المضمرات) كلية لا كل (فالخطاب) بالمجموع لكل واحدة لا للمجموع.

قال ابن عطية: ويرد على القائلين بلاباحة بكل حظر في القرآن وعلى القائلين بالحظر بكل إباحة في القرآن.

قال ابن عرفة: هذا (يلزمهم) ولهم أن يقولوا: إن الأشياء على الحظر ما لم يرد النص على الإباحة. ويقول: الآخرون على الإباحة ما لم (يقع) النص على الحظر.

قال ابن عرفة: والقول بالوقف هو مذهب المعتزلة وهو المختار عند أهل السنة لكن ديلنا نحن يعارض الدلائل السمعية. ودليل المعتزلة (شبهة) تعارض الدلائل العقلية.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٧٠/١

(قال ابن عرفة): وهذا إن كان مجرد الإنعام والامتنان بالأمر الدنيوي فالمخاطبون (ب «لكم») غير داخلين في عموم ما في الأرض، وإن أريد به الاعتبار (الديني) فهم داخلون قال تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾

قوله تعالى: ﴿ما في الأرض جميعا ... ﴾

قيل لابن عرفة: هذا معارض لقوله تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيهآ أقواتها في أربعة أيام سوآء للسآئلين﴾

قال ابن عرفة: خلق بعضها مجتمعا وبعضها (متفرقا) ووقع التنكير في هذه الآية (فما) خلق منها مجتمعا فهو أبلغ وأدل على كمال القدرة، لأن من قدر على أحداث أشياء مجتمعة في حالة واحدة (هو قادر على احداثها متفرقة شيئا بعد شيء من." (١)

"فقال: هذا يمكن لكن (الأثر) الذي أورده هنا أن الأرض خلقت كالفهر وعلاها الدخان فخلقت منه السماوات يرده ما ذكره الشيخ الزمخشري ونقله عن الحسن وللفخر في الأربعين في ذلك كلام طويل وليس فيه خبر صحيح.

قوله تعالى: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة ... ﴾

قال ابن عرفة: (﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ هذه لنا فيها وجه مناسبة لما قبلها) هو أنه لما قدم الامتنان عليهم بخلقهم وجعل الأرض لهم فراشا عقبه ببيان السبب فيهم وفي خلق أهلهم وهو آدم (صلى الله عليه وسلم).

وقرر الطيبي وجه المناسبة بأمرين إما أنه ترق فمن عليهم بأمرين خلقهم ثم خلق أباهم آدم عليه السلام. ورده ابن عرفة بأنه داخل في عموم قوله ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ قال: فما المناسبة إلا ما (قلناه).

قال أبو حيان: والظرفية لازمة لإذ، إن يضاف إليها زمان نحو يومئذ، ﴿بعد إذ هديتنا﴾ قال ابن عرفة: بل هو ظرف مطلقا إذ لا يمتنع إضافة الزمان وتكون من إضافة الأعم إلى الأخص أو الأخص إلى الأعم

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٩٠/١

أو يكون بينهما عموم وخصوص من وجه دون وجه كقولك: جئتك في أول ساعة من يوم الجمعة فأول أخص من ساعة.

وذكر أبو حيان في إعراب «إذ» ثمانية أقوال، رابعها أنه ظرف في موضع خبر المبتدأ (تقديره) ابتدأ خلقكم إذ قال ربك.

(ورده) ابن عرفة بأن زمن الابتداء ليس هو زمن هذه المقالة بل بعدها قال: فيكون الصواب أن تقديره (سبب) ابتداء خلقكم. قال: والأصح أن العامل فيها ﴿قالوا أتجعل﴾.

قال ابن عرفة: يرد عليه أن قولهم ذلك إنما كان جوابا عن قوله تعالى ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فليس مقارنا له بل هو بعده بلا شك إلا أن يقال: إن ما قارب الشيء (له) حكمه

وهذا مع قطع النظر عن الكلام القديم الأزلي لأنه يستحيل عليه الزمان ويستحيل نسبة (التقدم) والتأخر إليه.

ق ابن عطية: قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الجن قبل بني آدم (في الأرض) فأفسدوا، وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم قبيلا من الملائكة، فقتلت بعضهم وهربت باقيهم، وحصروهم إلى البحار، ورؤوس الجبال، وجعل آدم وذريته خليفة.." (١)

"قيل لابن عرفة: كيف فضل آدم عليهم مع أن الله علمه ولم يعلمهم، وما كان تقوم الحجة عليهم إلا لو علموا فلم يتعلموا وعلم آدم فتعلم؟

فقال في جوابه: هذا تفضيل من قبل ذات المعلم والتفضيل هنا وقع بالاختصاص من الله تعالى فقط قوله تعالى: ﴿إن كنتم صادقين﴾.

اقتضت الآية أن الثابت في نفس الأمور صدق ذلك وهو عدم صدقهم مع أنهم معصومون من الكذب وغيره.

وأجيب بأن الكذب عندنا هو الخبر غير المطابق لما في نفس الأمر سواء كان عمدا أو سهوا.

قال ابن عرفة: لا يحتاج إلى هذا (وكانوا يجيبون عن) السؤال بأن الأصل الذي (يعرض) فيه التصديق والتكذيب منتف عنهم فإنهم لا يجيبون بشيء، (فلم يعتقدوا) خبرا (حتى) يقال فيهم: إن اعتقادهم مخالف لما في نفس الأمر فيكون الإخبار عنه كذبا، أو موافقا فيكون الإخبار عنه صدقا (بوجه).

قوله تعالى: ﴿قالوا سبحانك ... ﴾

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٩٢/١

(أتى) (بالتنزيه) المقتضي لنفي ما (قد) يتوهم من (آن) الله تعالى طلب منهم الجواب عما علم أنهم جاهلون به والواحد (منا) إذا سأل صاحبه عن مسألة يعلم منه أنه (يجهلها) فإنه يتوهم فيه أنه إنما سأله اختبارا وتعجيزا له واستحقارا به.

فقالوا: ننزهك (عن) أن ينسبك أحد لمثل هذا ويتوهم فيك شيئا منه. وأيضا يكون التسبيح نفيا للشبهة العارضة في تكليف ما لا يطاق لأن مذهبنا جوازه، وأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. ومنعه المعتزلة لهذه الشبهة وهي حجة تكليف الله الخلق بما يعلم أنهم لا يقدرون عليه.

قيل لابن عرفة: لعل مراد الملائكة تنزيهه عن عدم العلم الثابت لهم؟

فقال: ما قلت لكم أنسب.

قوله تعالى: ﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾

قال ابن عرفة: الوصف بالحكيم إشارة إلى الوجه الذي اختص به (آدم) بالعلم دونهم فمعناه: أنت تضع الأشياء في محلها أو يكون المراد (الامتنان) بالعلم ودليل العلم وهو الحكمة لأن الأصوليين عدوها من أسباب العلم.." (١)

"الفقير (مال جليل).

وأما سورة إبراهيم فالامتنان فيها من موسى عليه السلام لأن أول الآية (﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾ فهي حكاية صدرت من موسى لقومه)، فناسب المبالغة بالعطف (فيها) المقتضي (للتعدد) والمغايرة لتكثر أسباب الامتنان.

قلت: وأجاب صاحب درة التنزيل بأن آية إبراهيم وقعت في خبر عطف على خبر آخر قبله وهو ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ فيبقى معنى العطف في «يذبحون» لأنه هو وما عطف عليه داخل في جملة معطوفة فالمقام مقام فصل وأما آية البقرة أخبر فيها بخبر واحد وهو إخباره عن (نفسه) بإنجائه بني إسرائيل فلذلك لم يعطف وأخبر في إبراهيم بخبرين معطوفين فلذلك عطف.

قلت: وأيضا فالجمل المتقدمة في البقرة طلبية وهي ﴿يابني إسرائيل اذكروا﴾ «واتقوا»، وجملة «يذبحون» خبرية فليست مشاكلة لها بخلاف في سورة إبراهيم فإنها كلها خبرية وقد نص ابن أبي الربيع على أن المشهور أنه لا يعطف الخبرية على الطلبية ولا العكس.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٩٧/١

وأجاب القاضي أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بأن هذه الآية مشتملة على استيفاء القصص، وسورة إبراهيم على إيجاز القصص، والأمران سائغان عند العرب قال شاعرهم:

يرمون (بالخطب) الطوال وتارة

(رمي) الملاحظ خيفة الرقباء

فذكر في البقرة سوء العذاب مجملا، (ثم) البينة (بذبح) الذكور وإحياء النساء لأن القصد الإطناب بدليل زياده ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ وأشار في السورة الأخرى بقوله: ﴿يسومونكم (سوء العذاب﴾) إلى جملة ما (امتحنوا) به من فرعون وقومه من استخدامهم وإذلالهم بالأعمال الشاقة وذبح الذكور واستحياء النساء ثم جرد منها (أعظمها) امتحانا، فعطفه لأنه مغاير لما قبله فقال: «ويذبحون» إشعارا (بشدة) الأمر فيه، وهو مما أجمل فيه، كما ورد في قوله تعالى:

﴿من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال﴾ خصصهما بالذكر إعلاما بمكانهما.

قال ابن عرفة: فإن قلت: لم قال هنا: «نجينا» وفي الأعراف (﴿أنجينا)﴾ فالجواب: بأن القصد هنا كثرة تعداد وجوه الإنعام (فيه) (فبدأ) ب ﴿يأيها الناس (اعبدوا) ربكم﴾ إلى آخرها

وكلها إنعام، ثم قال: ﴿يا بني إسرائيل﴾ فلما كان موضع تعداد النعم ناسب التضعيف في «نجيناكم» وأيضا فهو مناسب للتضعيف في «يذبحون» الأعراف إنما فيها." (١)

"قال ابن عرفة: والقرية إن أريد بها بيت المقدس فصيغة أفعل للطلب، وإن أريد بها (أريحا) فهي للاباحة.

قيل لابن عرفة: هذا أمر ورد عقب الحظر فهو للإباحة (مطلقا)؟

فقال: لم يرد عقب الحظر القولي، وإنما (ورد) عقب (الحظر) الجبري (المعلن) بالبقاء في أرض وعدم التمكن في الخروج عنها أربعين سنة ولم يقع هنالك نهي بالقول حتى يكون هذا أمر بعده.

قيل له: قد قال تعالى: ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة﴾ فقال: هذا إخبار عن واقع، لأنهم كلفوا بالبقاء فيها وعدم الخروج بل منعوا من ذلك فمقامهم ليس باختيارهم لأجل التكليف به، بل جبرا واضطرارا لأجل عدم قدرتهم على الخروج.

قال ابن عرفة: وعموم «حيث شئتم» مخصوص بالمساجد، (فإنه) يمتنع الأكل فيها.

قوله تعالى: ﴿وادخلوا الباب سجدا ... ﴾

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١١٢/١

أعيد لفظ «ادخلوا» (لأجل وصفهم) سجدا فليس بتكرار، والمراد بالسجود الركوع لتعذر الدخول حالة السجود أو يكون حالا مقدرة، فيكون الدخول سابقا على السجود.

واحتج ابن التلمساني على أن الواو لا تفيد ترتيبا بكون المقدم هنا مؤخرا في سورة الأعراف، فلو كانت الواو للترتيب للزم عليه: إما التنافي بين الآيتين، أو المجاز في أحدهما، وأجاب بأنه قصد تكليفهم ((بأن يقولوا: حطة (حال كونهم) قبل السجود وبعده، وأجاب أبو جعفر (الزبير) بأنه قصد تكليفهم)) بالجمع بين السجود والقول في حالة واحدة لأن كلا الأمرين حصل له وصف (الاهتمام) بالتقديم.

قوله تعالى: ﴿نغفر لكم خطاياكم ... ﴾

قال الفخر الرازي: يحتج بها على المعتزلة في قولهم: إن قبول التوبة واجب عقلا لأجل ما اشتملت عليه من أوصاف الامتنان بتعداد (النعم)، فغفران الخطايا نعمة وتفضل (لا انه) واجب لأجل التوبة.

ورده ابن عرفة: بأنهم يقولون: إن الامتنان بهذه النعمة سبب لطريق التوبة والخطايا مرتفعة بالتوبة.

قوله تعالى: ﴿وسنزيد المحسنين﴾

قال ابن عرفة: لما تضمن الكلام السابق حصول المغفرة لهؤلاء وعدم المؤاخذة بالذنب فقط من غير زيادة على ذلك أفاد هذا أن المحسنين لهم مع ذلك ثواب جزيل وعبر عنهم بالاسم تهييجا على الاتصاف بذلك وإشارة إلى (أن) الزيادة إنما هي لمن بالغ في الإحسان وحصل منه الحظ (الوافر) (لينالها) من حصل مطلقة وأدناه.

فإن قلت: لم قال هنا: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا﴾، وفي الأعراف ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه." (١)

"ابن عطية: وقال الحسن: عذابه/ أن يؤدي الدية فقط ويبقى (إثمه) إلى عذاب الآخرة.

قال ابن عرفة: هذا (شبه) ما قالوا في اليمين الغموس إنها أعظم من أن تكفر.

قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة ... ﴾.

ابن عرفة: فيه دليل لاهل السنة القائلين بأن لا حسن ولا قبح لأن الآية خرجت مخرج الامتنان بتعداد هذه النعم، فدل على أنها تفضل من الله تعالى، ولو كان القصاص واجبا في (العقل) لما حسن كونه نعمة، ولما صح الإتيان به لأن ذلك تحصيل الحاصل.

قال الأصوليون والبيانيون: وهذه أبلغ من قول العرب القتل أنفى للقتل.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١١٦/١

وقدره ابن مالك في المصباح بأربعة أوجه:

أحدهما: أن حروفها عشرة، وأسقط منها الياء من في (وألف) الوصل من «القصاص» لسقوطها في النطق وفي التفعيل أعني الأوزان (الشعرية)، وحروف «القتل أنفى للقتل» أربعة عشر.

الثاني: تنافر الحروف في المثل وتناسبها في الآية.

الثالث: لفظ الحياة محبوب، فالتصريح باسمها أولى من الكناية عنه بنفي القتل.

الرابع: صحة معناه لأن تنكير الحياة يفيد إما حياة عظيمة أو نوعا من الحياة إشارة لحسنه وغرابته، بخلاف المثل فإن معناه غير صحيح وحقيقته غير مرادة.

قال ابن عرفة: ويظهر لي بيان الرابع إما بأن القتل في المثل (مطلق) (يتناول) القتل عدوانا مع أنه غير مراد والآية صريحة في نفي ذلك.

قال (ابن عرفة): والآية أصوب من وجه آخر وهو أنها تقتضي المساواة في جميع الوجوه بخلاف المثل فليس فيه تنصيص على المساواة.

وذكر (الطبري) في تأليفه في البيان والجعبري في شرح الشاطبية الصغرى أن الآية تفضله من وجوه:

أحدها: (إيهامه) التناقض لمنافاة الشيء لنفسه أو العموم فيكون القتل ظلما أنفى للقتل قصاصا والمراد العكس بخلاف الآية فإنها صريحة في معناها من غير احتمال (شيء).

الثاني: عدول الآية عن التكرار وعن الإضمار، بخلاف المثل لأن تقديره كراهية القتل أنفى للقتل.

الثالث: سلامة ألفاظها عما يوحش السامع، وتخصيصها بالحياة المرغوب فيها وبعدها عن تكرار (قلقلة) القاف للضغط والشدة وتخصيصها بتكرار الصاد المستجلب (باستعلائها) وإطباقها مع الصفير للفصاحة.

الرابع: فيها الطباق المعنوي بين القصاص." (١)

"الكثير وتقرر في الوجود وفي الشرع أن الفساد أكثر من الصلاح.

قال الله عز وجل في سورة غافر: ﴿إن الساعة لأتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ قال ابن عرفة: والجواب أنه باعتبار الطلب لا باعتبار الوجود الخارجي فنبه بالآية على أن المطلوب تكثير الصلاح وتقليل الفساد حتى يكون في الوجود أكثر من الفساد.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢١٤/١

قيل لابن عرفة: أو إشارة إلى عموم علم الله تعالى ما قلتموه في السؤال إنما يكون في المخلوقين لقصورهم وعجز إدراكهم، فيكون تمييز القليل من الكثير أهون عليهم من العكس.

قلت: أو يجاب بأن الآية خرجت مخرج التخويف فالمناسب فيها تعلق العلم والقدرة بالمفسد ليميز من المصلح. انتهى.

قوله تعالى: ﴿ولو شآء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾.

قال ابن عرفة: وهي حجة لأهل السنة في قوله: إن تكليف ما لا يطاق جائز غير واقع.

قيل له: قد تقدم لكم أن الشرط يتركب من المحال؟

فقال: إن الآية خرجت مخرج التمدح بكمال قدرة الله تعالى والامتنان على خلقه بتيسير التكليف، والتمدح إنما يكون بالجائز.

وهذا نظير جواب الجزري المتقدم في ﴿ما ننسخ من آية.﴾

قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ... ﴾.

النكاح حقيقة في الوطء مجاز في العقد، وقيل حقيقة فيهما.

قال القاضي عياض في تنبيهاته: «النكاح لغة الجماع والضم، يقال: نكحت البر في الأرض ونكحت الحصاة خفاف الإبل، ثم استعمل في الوطء وهو في الشرع يطلق على لعقد لأنه بمعنى الجمع ومآله إلى الوطء.

قال الزمخشري في أساس البلاغة: ومن المجاز قولهم: نكحت الحصى خفاف الإبل: فظاهره أنه حقيقة في العقد مجاز في الوطء، إلا أن يراد المجاز في الإسناد. والنهي هنا للتحريم بدليل

ما عطف عليه وهو التحريم بلا خلاف، وإن كان ابن التلمساني أجاز عطف التحريم على المكروه وعكسه لكن الأغلب التساوي.

قيل لابن عرفة: ما أفاد قول الله تعالى» حتى يؤمن «مع أن النكاح (يستقل) بدونه؟

(فأجاب) هو أصرح في دوام الانتهاء بأن الأول مفهوم صفة وهو مفهوم غاية، والقائلون بإعمال مفهوم الغاية أكثر من القائلين بإعمال مفهوم الصفة.

قلت: أو يجاب بأنه لو لم يذكر لأوهم إباحة نكاحهن إن رجعن عن الإشراك إلى دين اليهود والنصارى فيكون في الآية حجة لما حكى ابن عطية عن ابن عباس والحسن ومالك فيما ذكره عنه ابن حبيب من أنه

عام فيهم وفي الكتابيات، ثم نسخت بقوله في المائدة: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ قوله تعالى: ﴿خير من مشركة ... ﴾.." (١)

"عادة، بخلاف نفخ الروح وإحياء الموتى، فلذلك أسنده إلى قدرة الله تعالى، وإن كان الجميع بقدرته جل وعز، ولما كان في سورة العقود في معرض تعداد النعم، **والامتنان** من الله تعالى على عيسى ناسب تقييد الجمع فيها، بقوله: (بإذني) زاد [ابن الزبير*] أن في آية المائدة إشارة إلى توبيخ النصارى في زعمهم (إن الله ثالث ثلاثة)، وأن عيسى ابن الله إلى غير ذلك، كما [يقول: أحدنا لغيره ألم أفعل لك كذا ألم أعطك كذا ويعدد عليه نعما ثم يقول: أفعل لك ذلك غيرى؟ *]، فإذا اعترف به العبد انقطعت حجة من ظن خلافه، فأعلم الله أن تلك الأمور بإذنه، وكرر ذلك تأكيد الدفع توهم حول، أو قوة لغير الله، قال: وآية آل عمران إنما هي بشارة لمريم، وإعلام بما منح ابنها عيسى فقط، فلذلك كرر لفظه: (بإذني) المائدة أربع مرات، وهنا مرتين.

قوله تعالى: (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم).

احتج بها ابن رشد على إبطال الحكم بعلم المنجمين؛ لأنه قال في كتابه الجامع الرابع من بيانه: إن المنجم [...] (١) الكل على أنه مصدق لها بالقول، وهو مشكل؛ لأن غيره من بني إسرائيل [مصدق لها موقن بها*].

ابن عرفة: والصواب عندي أنه مصدق لها بالفعل، ونظيره أن يخبرك إنسان بأن الأمير يدخل هذا راكبا على فرسه معمما بعمامته ملتحفا بردائه به، فيدخل هذا على تلك الصفة بالأمير مصدق لذلك الإنسان بالفعل، وكذلك بالتوراة تضمنت أنه يأتي بعدها رسول من عند الله اسمه عيسى تكون معجزاته إحياء الموتى، وإبراء الأكمة، والأبرص، والإخبار بالمغيبات، والحوادث، فيجيئه على هذه الصفة المقتضية لتصديقه لما في التوراة معجزة، وآية من جملة الآيات.

ابن عرفة: والصدق والتصديق بينهما عموم وخصوص من وجوه دون وجوه فقد يكون الكلام في نفس الأمر صدقا ولا مصدق له وقد يصدق به وهو كذب، فإن التصديق هنا بالفعل بحرف الجر، في قوله: (من التوراة) للتبعيض، وإن كان من القول هو لبيان الجنس لأنه صدق جميع التوراة.

ابن عرفة: والتصديق لما تضمنه التوراة من الإخبار.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢٦٦/١

وقوله: (ولأحل لكم (٥٠)

---

(١) النص في البيان والتحصيل هكذا:

"وروي عن النبي عليه السلام أنه قال: "من صدق كاهنا أو منجما أو عرافا فقد كفر بما أنزل الله على قلب محمد"، ويمكن أن يصادف في بعض الجمل وذلك من حبائل الشيطان، فلا ينبغي أن يغتر أحد بذلك ويجعله على صدقه دليلا فيما يقول، كما لا ينبغي أن يصدق المعالجون الذين يعالجون المجانين فيما يزعمون من إنهم إنما يعالجون بالقرآن، فلا يعلم الأمور الغائبة على وجوهها وتفاصيلها إلا علام الغيوب أو من اطلع عليها علام الغيوب من الأنبياء ليكون ذلك دليلا على صحة نبوته، قال الله عز وجل في كتابه حاكيا عن عيسى ابن مريم – صلى الله عليه وسلم –: (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) فادعاء معرفة ذلك والإخبار به على الوجه الذي يعرف ذلك الأنبياء ويخبر به تكذيبا لدلالتهم" اهـ." (١)

"ابن عرفة: قال بعضهم ولا تفرقوا تأسيس؛ لأن الأمر لا يقتضي التكرار ولا الدوام، فيصدق بفعله وفناها والنهي يقتضي الانتهاء دائما، وإن قلت: إن الوقت يقتضي التكرار فيكون فيه دليل على أن الأمر بالشيء ليس نهيا عن ضده.

وقال ابن عرفة: وهذا في الأحكام الاعتقادية.

ابن عرفة: وفيه ترجيح لقول الغبريني القائل بأن كل مجتهد في العقليات مصيب.

ابن عرفة: وإن قلنا: إنها في الأحكام الشرعية فيكون فيها دليل على ترجيح الاتفاق على الاختلاف، وأنه مهما أمكن رد أقوال العلماء إلى الآية نسق كان الأولى.

قوله تعالى: (واذكروا نعمت الله عليكم).

قال ابن عرفة: هذا كما يقال: يصدق تبين الأشياء، وذلك أن من أكل طعاما فأمرضه، ثم صح فانتهى من ذلك الطعام، واستحضر ما ناله من الألم، وعلم أنه إن أكله يعود له مرضه، فإنه يجتنبه ويترك شهوته، وكذلك هؤلاء الأوس والخزرج كان بينهم في زمن كفرهم تباغض وقال: بغي ف أنعم الله عليهم بالإسلام الرافع لذلك المثبت للمحبة وزوال البغض وتألفوا الكلمة فإذا استحضروا هذا ذكروه علموا أنه ضد الإسلام، وهو الكفر موجب لضد ذلك، وهو الشأن والبغضاء، فيكون ذلك سببا في ثبوتهم على دينهم وعدم تفرقهم.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣٥٩/١

ابن عرفة: (واذكروا) هو العامل في إذ عمل الفعل في المفعول، فيكون إذ بدلا من نعمة لأن اذكروا إنما يتعدى إلى مفعول، وقد أخذه.

قيل لابن عرفة: نقل بعضهم عن الشلوبين، أن إذ يكون تعليلا، وهو هنا مناسب فعلها للتعليل فقال: العلة غير المعلول، والنعمة هنا هي نفس التآلف بينهم، وذهاب العداوة.

قوله تعالى: (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها).

قال ابن عطية: إما عائد على (شفا) أو على (حفرة) أو على (النار).

ابن عرفة: والمعنى يرجح عوده على (شفا)؛ لأن الإنقاذ من الشيء يقتضي تقدم حصول فيه، وهم لم يحصلوا قط في النار، ولا في حفرها، ولكن في شفا الحفرة.

ابن عرفة: والآية تضمنت تذكريهم في الامتنان عليهم بأمرين ضروري ونظري، فالضروري (إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) لأنه أمر واقع." [١]

"والله متولي السرائر"، وحديث: "إذا أخطأ المجتهد فله أجر واحد وإن أصاب فله أجران".

قيل لابن عرفة: إن ابن المسيب حمله على الضلال في الظاهر، قال: لأن العصمة تأباه على سبيل الفرض مثل: (لئن أشركت ليحبطن عملك)، فقال ابن عرفة: الصواب تفسيره بما كان يكثر وقوعه منه؛ لأنه مستحيل عليه تعمد الإضلال، ابن عرفة: ووقع الامتنان عنا بنفس النعمة وبالتذكير بها اختصاصا له بذلك وتشريفا له.

قوله تعالى: (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة).

الكتاب: القرآن، والحكمة: فهمه والسنة.

قوله تعالى: (وعلمك ما لم تكن تعلم).

هذا من أدل دليل على أفضلية العلم وبها احتج الغزالي رحمه الله على فضل العلم، وقال في سورة العلق: (علم الإنسان ما لم يعلم) فهذه أبلغ؛ لاقتضائها نفي الشيء ونفي الغالبية له، فقولك: لم يكن زيد يعلم كذا أبلغ من قول: لم يعلم زيد كذا، فأفاد هذا النهي اختصاصا بذلك، وأن علمه شيئا ليس من عادة البشر علمه.

قوله تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم ... (١١٤)﴾

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣٩١/١

ابن عرفة: انظر هل الخير عند الشر وهو ما فيه مصلحة فيتناول المباح، أو هو ما لم يتضمن فيتناول المباح والظاهر الأول والقضية إن كانت في طعمة فليس فيها حصر والكثير، إما أن يكون أريد بها المجموع عكس ما أريد بالقليل في قوله: مررت بأرض قل ما تنبت البقل، أو ليس في (نجواهم) خيرا لوجد، وإما أن يكون على بابه فلا ينحصر قضية طعمه بل يعمها وغيرها وخص الصدقة بالذكر حديث: "والصدقة برهان" وخص الإصلاح لرجوعه إلى درء المفاسد؛ لأنه من باب تغيير المنكر فهو." (١)

"قال ابن عرفة: وفي الآية حذف التقابل؛ لأنه ذكر في قسم المؤمنين الحكم بثواب عملهم، ولم يذكر ما به يقع الثواب، وذكر في قسم الكافرين ما به يقع العذاب، ولم يذكر الحكم بتعذيبهم فالتقدير: لهم مغفرة وأجر عظيم وهم أصحاب الجنة، والتقدير في الثاني: لهم عذاب أليم وهم أصحاب الجحيم.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ... (١١)﴾

قدم هنا المجرور على المفعول به، ثم قال (فكف أيديهم عنكم) فقدم المفعول به على المجرور، فالجواب أن الآية خرجت مخرج التسلية للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم **والامتنان** على المؤمنين بأن الله تعالى لم يخذلهم ولم يمكن عدوهم منهم، وذكر مها جملتان: أحدهما محكية عن الكفار وهي مثبتة، فكان الأعم فيها تقديم الممنوع لا تقديم الممنوع منه.

قوله تعالى: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ... (١٢)﴾

ابن عرفة: قالوا: وقعت قضية بني إسرائيل في القرآن مكررة مرتين وثلاثة، لوجهين:

أحدهما: أنهم أهل كتاب فهم علماء وغيرهم بالنسبة إليهم عوام فكرر خطابهم؛ لأن خطاب العلماء يدخل في ضمنه العوام، قلت: واجتنابهم لأجل علمهم.

الثاني: إذا علم من خالفهم أنه يعلم صحة دعواه أوقع ذلك في نفسه انفعالا وتأثرا وتأسفا وحزنا بخلاف إذا لم يعلم منه ذلك وجهله وهؤلاء علماء وكتابهم أشمل على صحة رسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومخالفتهم للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والنصارى كانوا ببلد بعيد عنه. توقع في

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢/٥٥

نفسه حزنا وتأسفا، فجاءت الآية تسلية له، فإن قلت: هلا خوطب بها النصارى؛ لأنهم أهل كتاب أيضا، قلنا: اليهود أقرب لمحل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والنصارى كانوا ببلد بعيد عنه.

قوله تعالى: (ميثاق بني إسرائيل).

أضيف الميثاق هنا إلى من هو عليه، وقال قبله (اذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه) فأضاف الميثاق إلى من هو له.." (١)

"أي قادر على إعادتكم وحشركم، أو قادر على تنعيم من بشر فاهتدى، وتعذيب من أنذر فتعنت ولم ينزجر.

قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ... (٢٠)﴾

زاد هنا (يا قوم)، وفي سورة إبراهيم (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون) فأسقط هنالك يا قوم.

قال ابن عرفة: وسبب ذلك أن التكليف إن كان بأمر خفيف لم يقع فيه إطناب ولا تأكيد، وإن كان بأمر مشق أتى فيه بالنداء، كما إذا أراد الأب من ابنه أمرا مشقا، فإنه يقول له: يا ولدي، افعل كذا بخلاف ما إذا كلفه بأمر خفيف فإنه لا يناديه كذلك، قلت: وأجاب أبو جعفر بن الزبير بأنه اعتمد في الفائدة على تذكيرهم بأنواع النعم من جعل الأنبياء فيهم وجعلهم ملوكا، وإعطائهم ما لم يعط غيرهم، وكان ذلك تشريفا باعتناء الله بهم وتفضيلهم على من عاصرهم، فناسب نداء موسى لهم يا قوم فالإضافة إلى ضميرهم إشعارا بالقرب والمزية، ولما اقتصر في سورة إبراهيم على تذكيرهم فنجاتهم من آل فرعون، وما كان يتوهم فيمن ذبح ذكور أبنائهم، واستحيا بناتهم ولم يذكر منها شيء من هذا فناسب الاقتصار على خطاياهم دون النداء يا قوم.

قوله تعالى: (وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين).

قال ابن عرفة: إن أريد بالمؤتى الأنبياء فالعالمين عام في الناس كلهم، أي وأرسل إليكم من الأنبياء ما لم يرسله لأحد من العالمين، وإن أريد بالمؤتى المعجزات فالعالمين هم عالمون زمانهم؛ لأن معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم أعظم من معجزات موسى، وأتى بقوله (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) قال ابن عرفة: أتى به غير معطوف لمغايرة هذه الجملة لما قبلها، فالأول خبر وتذكير

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٩٧/٢

بنعم الله عليهم، وهذه تكليف وأمر لهم، وتقدير هذه الأرض إما في الدنيا بكثرة خيراتها ونعيمها، وإما في الآخرة بكثرة ثواب الأعمال فيها؛ لأن فيها بيت المقدس.

قوله تعالى: ﴿التي كتب الله لكم (٢١)﴾

تحريض وحث على دخولها بمعنى أنكم لا بد لكم من دخولها؛ لأن ذلك مقدر عليكم مكتوب في علم الله تعالى.

قوله تعالى: (ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) لما كانوا في مقام **الامتنان** بهذا فكانوا حاصلون فيه، فإن لم يمتثلوا صاروا كأنهم ارتدوا على أدبارهم.." (١)

"ويكون الثاني خبره بالتبعية [...] [والفرض*]، فقولك: اتخذت زيدا رفيقا؛ إن كان المراد بقرينة، [إذا سافرت*]، وقلت: اتخذت زيدا رفيقا كان السفر إما [بالفرض*]؛ لكونه رفيقا، إذا كان كذلك، لا أن مراده بقرينة مطلقا، وتارة يكون المقصود الأهم اتخاذ الرفيق زيدا، وكذلك ركبت فرسا وأعطيتها، تقول: أعطيت الفرس زيدا إلا إن قصدت إعطاءه [...] [وأردت **الامتنان*]** عليه بفرس [تحبه*]، قلت: أعطيت زيدا الفرس؛ وهذا بياني لا يراعى فيه كون الأول فاعلا في المعنى كما يقول النحويون: وهؤلاء لم يكن مقصدهم اتخاذ اللعب واللهو بوجه وإنما مقصدهم التدين والإيمان فصيروه لعبا ولهوا، فالمفعول الأول هو دينهم وإضافته إليهم إشارة إلى أن دينهم اللائق.

قوله تعالى: (وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت).

ابن عرفة: هذه موصولة بمعنى الذي أو مصدرية، قال: كان بعض الشيوخ يرجح كونها مصدرية؛ لأن التعليل بالموصوف أولى من التعليل بالذات.

قوله تعالى: (ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع).

الولي أخص من الشفيع فجاء على الأخص؛ لأن نفي الأخص [بالكسب*] وشرابهم الحميم وتعذيبهم العقاب الأليم بالكفر، وأجاب بأنه في غاية المناسبة؛ لأن الإبسال هو الجنس المطلق فعلق بالكسب المطلق المتناول بجميع المعاصي من الكفر وما دونه، وشراب الحميم العذاب الأليم؛ عذابه أخص فعلل بعقاب أخص وهو الكفر؛ ففيه أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢/١٠٥

قوله تعالى: ﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ... (٧١)﴾

قال ابن عرفة: هذا تلطف في العبارة؛ لأنهم لما أخبروا عنهم فعلوا فعلا قصدوا به تنقيص معبود النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله تعالى: (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) رد عليهم بما يوجب تنقيص معبودهم، وهذا تقسيم ومعاندة بين الشيء ولازم ضده؛ لأنه ليس المعنى ندعو من دون الله ما لا يحصل لنا نفعا ولا يدفع عنا ضرا.

ابن عرفة: وانظر هل هنا من باب السلب والإيجاب مثل: الحائط لا يبصر، أو من باب العدم والملكة مثل: زيد لا يبصر؛ والظاهر الأول أتدعو من دون الله ما ليس." (١)

"إن كان حالا من ضمير [لهم*] فيكون جوابا لمن استدل بها على إبطال الخبر بعمل الواحد والقياس، وإن لم يكن حالا منه، فيجاب عن ذلك بما قلناه.

قوله تعالى: ﴿هو أعلم ... (١١٧)﴾

ابن عرفة: هذا فعل من يقتضي المشاركة لكن باعتبار الحقيقة لا مشاركة، وباعتبار القسم المشاركة حاصلة.

قوله تعالى: (من يضل عن سبيله)

عبر هنا بالفعل، ثم قال (وهو أعلم بالمهتدين) فعبر بالاسم؛ لأنه لما كان الاهتداء مأمورا به مطلوبا تحصيله جعل كالأمر الثابت المحقق فعبر فيه بأخص أوصافه وهو الاسم الدال على ثبوته وتحققه، ولما كان الضلال منهيا عنه مطلوبا عدمه عبر فيه باللفظ الأعم الدال على المطلق على ضلال منه، فجعل على ما قالوا من استعمال الأعم في النفي؛ لأن نفيه يستلزم نفي الأخص في الثبوت؛ لأن ثبوته يستلزم ثبوت الأعم؛ لأنه إذا نهي عن مطلق ضلال فأحرى أن ينهي عن الحصة الثابت المحقق، وإذا أمر بالهداية الكاملة المحققة فأحرى أن يؤمر بما دونها.

قوله تعالى: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ... (١١٨)﴾

ذكره الزمخشري هنا للمشركين دليلا خطابيا وهو أنهم قالوا: أنتم تعبدون الله فحقكم أن تأكلوا الميتة؛ لأن أكلكم مما قتل الله أولى مما قتلتموه أنتم؛ لأن الشيء يشرف بفاعله فنزلت الآية، وهذا الأمر إما

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١٦٧/٢

للإباحة والامتنان إن لم يعتبر فيه قيده، وإما للندب أو الوجوب إن اعتبرناه؛ لأن التسمية إما مندوب إليها أو واجبة، فإن جعلناه مأمورا بالأكل كما أمر بالتسمية، كان الأكل واجبا، أو مندوبا، فلا يحل له إذا ذبح شاة أن يتركها؛ لأنها من باب إضاعة المال، ونظيره قولك: [ادخل المسجد*] فإن [اعتبرت قيده*] كنت قد أمرته بالدخول والصلاة، وإن لم يعتبر القيد، [فقد*] أمرته بالدخول فقط.

قوله تعالى: ﴿وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ... (١١٩)﴾. حمله ابن عطية بوجهين:

أحدهما: أنه نهى عن ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه وفي ضمنه الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله، بناء على أن النهي عن الشيء أمر بضده.." (١)

"وقال في الجملة: (فأولئك الذين خسروا أنفسهم)، فغير لفظ الفعل مع ذكر علة هذا الحكم.

قال ابن عرفة: وجوابه أن المراد حصول الكلام الثابت اللازم؛ والمراد في الآخر حصول مطلق الخسران فيتناول العاصي والكافر وهي في سورة قد أفلح (فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون) فقال: تلك فيها قرينة أخرجت العاصي من اللفظ، وهنا نقول إنه داخل، قال: وإنما علل حصول الخسران لهم بالظلم ولم يعلل حصول الفلاح للآخرين بالطاعة إشارة إلى أن الثواب على الطاعة محض تفضل من الله عز وجل وحساب الآخرين وخسرانهم معلل بظلمهم إشارة إلى أن ذلك عدل من الله تعالى لأجل كسبهم السيئات.

قوله تعالى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض ... (١٠)﴾

قال ابن عرفة: فائدة التقسيم تكون المخاطبين ظهرت عليهم مخائل الإنكار لأجل تماديهم على المعاصي وعدم تذكرهم واتعاظهم، وفيها سؤال وهو أن التمكين في الأرض أخص من وجود المعايش بأمة لـكل أحد إذ لا يستغني أحد عن القوت، والتمكين أخص مزيد في الأمراء والسلاطين، والامتنان الأهم أقوى وأعم فائدة فهلا قدم عليه، وأيضا فلأن المعايش أمر حاجي والتمكين في الأرض أمر تكميلي، فالأمر الحاجي أعم على التقوي من الأمر التكميلي، فالامتنان به أعظم منه، وأجيب بأنه قدم لأحد أمرين:

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١٨٦/٢

أحدهما: أنه يدل على المعايش دلالتين باللزوم والمطابقة، وقد تقدم نظيره غير ما مرة في عطف الأعم على الأخص بخلاف الخاص على العام والعكس فيهما (فاكهة ونخل ورمان).

الثاني: التمكين في الأرض لما كان خاصا بالبعض دون الكل وكانت المعايش أئمة صار نسبتها إليه نسبة الجزء إلى الكل والجزء قبل الكل فكذلك بدأ به في الآية.

قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ... (١١)﴾

الخلق راجع للقدرة والتصوير للإرادة وهي الكيفية الخاصة.

(ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس).

احتجوا به على أن إبليس من الملائكة.." (١)

"قال الفخر: اللام للصيرورة.

ابن عرفة: إن كان الإيراء معنويا فليست للصيرورة؛ لأنه غير مقصود قصد إبليس شيئا، ووجد خلافه.

قوله تعالى: (إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين).

فيها النظر إلى حالتي الإقبال والإدبار، وفيها إشارة إلى أنهما استشعرا حالة الموت إن أريد الخالدين بالإطلاق فيتناول الخلود في الجنة، فإن قلت: ظاهر الآية أن الملائكة أفضل من بني آدم، قلنا: باعتبار الوهم والاعتقاد لا في نفس الأمر، فإن قلت: هلا قيل: إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، أو يقال: إلا أن تكونا من الملائكة أو من الخالدين؟ قلنا: لأجل رءوس الآي.

قوله تعالى: ﴿فلما ذاقا الشجرة ... (٢٢)﴾

الذوق هنا أوائل الإحساس بالشيء.

قوله تعالى: (بدت لهما سوءاتهما).

الظاهر أنها كلية لا كل والمراد: بدت لكل واحد منهما سوأة صاحبه، ويحتمل أن يريد بدت لكل واحد منهما سوأة نفسه.

قوله تعالى: ﴿قال فيها تحيون ... (٢٥)﴾

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢/٢١٤

إن أريد مطلق الحياة فالمعنى فيها يدومون على الحياة أحياء، وإن أريد حياة خاصة فيكون الاستقبال على حاله.

قوله تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا ... (٢٦)﴾

قد للتحقيق ويبعد كونها للتوقع.

فإن قلت: الآية خرجت مخرج **الامتنان** عليهم، واللام للاختصاص أو للملك أو للتعليل أنسب من عطاء؛ لأن **الامتنان** عليهم أو لأجلهم أقوى بالمنزل عليهم، وأجيب بأنه إشارة إلى بعد المحل المنزل منه على المحل المنزل إليه، قال تعالى (وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) لاقتضائه العلو والارتفاع التام، وهذه الآية يعدها ابن التلمساني في شرح المعالم الفقهية مجاز إيقاع السبب برفع المسبب، وقدره بأن أنزلنا موضوع موضع أعطينا لباسا؛ لأن إنزال المنازل في إعطاء اللباس فنزل أنزلنا منزلة أعطينا، وتكون سببا غائبا؛ لأن اللباس سبب في الماء بمعنى أنه باعث عليه، كما أن الاستمكان من الحر والبرد سبب في بناء البيت مع أنه متأخر عنه.." (١)

"قال ابن عرفة: (وكلوا). إن قلنا: أن أصل الأشياء على الحصر فيكون الأمر في كلوا على الإباحة، وإن قلنا: أن أصل الأشياء على الإباحة فيكون الأمر به **الامتنان**.

قوله تعالى: (وقولوا حطة).

أخذوا منها مع آية البقرة أن الواو لا تفيد الترتيب، وأجاب ابن التلمساني: بأنا إذا قلنا: أن المراد بقوله (حطة). كلمة التوحيد فيكونوا أمروا بأن يقولوها قبل الدخول وبعده، قال ابن عرفة: وكذلك إذا لم يكن المراد بها كلمة التوحيد، فأجيب بأنها إن كانت كلمة التوحيد فيكون دوامها ضروريا وغيرها ليس بضروري.

قوله تعالى: (سنزيد المحسنين).

هو هنا بإسقاط الواو، وفي البقرة بالواو، وقال البيانيون: إن كان الفعل الثاني قريبا من معنى الأول جدا وبعيدا منه جدا أو دخلت الواو بينهما، وإن كانت منافاته له في حيز التوسط حذف الواو وهناك عبر بالدخول، وهو أعم من السكنى فقد ثبت لهم المعنى الأخص فحذفت الواو.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢/٢١٧

قوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا ... (١٦٢)﴾

ابن عطية: يدل معناه غير اللفظ دون أن يذهب بجميعه، وأبدل إذا ذهب به وجاء بلفظ آخر، فرد عليه أبو حيان، بقوله تعالى: (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن)، وبقوله (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات)، وبقوله (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها) قال ابن عرفة: هذا يقتضي كله تبديل الذات، وإنما حقه أن يرد عليه، بقوله تعالى: (ائت بقرآن غير هذا أو بدله) فإن التبديل هناك تغيير بعض اللفظ دون أن يذهب بالمعنى، قيل له: بنو إسرائيل غيروا اللفظ كله والمعنى لأنهم أمروا أن يقولوا حطة فدخلوا يزحفون على استاههم وقالوا: حبة في شعيرة.

قوله تعالى: ﴿واسألهم عن القرية ... (١٦٣)﴾

قال ابن عرفة: هذا مخالف لما يقول المنطقيون والنحويون من أن الطلب من الأعلى للأدنى يسمى أمرا، أو عكسه يسمى مسألة؛ فكان يقول على هذا: أو أمرهم بأن يخبروك بخبر القرية التي كانت حاضرة البحر.

قوله تعالى: (حيتانهم يوم سبتهم).." (١)

"قال الزمخشري: أنشأ آباءكم.

وقال الفخر: أنشأنا من المني، والمني من الدم، والدم من الأغذية، والأغذية من النبات، والنبات من الأرض. قال ابن عرفة: وهذا أحسن ولا يحتاج فيه إلى إضمار.

قوله تعالى: (واستعمركم).

إما بمعنى أنه أعمركم، وإما من العمر أي أبقاكم فيها، أو جعلكم معمرين غيركم أي [**قصور الجنة]، ورده بأنه ليس في هذا نعمة، والآية خرجت مخرج **الامتنان**.

قوله تعالى: (فاستغفروه ثم توبوا إليه).

عطف استغفروه بالفاء للسبب؛ أي استغفروه بسبب هذه النعم، وعطف توبوا بـ ثم لأن الاستغفار دعاء وطلب والتوبة فعل، والإنسان ما يحتاج في المطلب إلى ترو، وأما الفعل ولاسيما التوبة فإنه لا يقدم عليها حتى يتروى ويفكر.

قوله تعالى: (مرجوا قبل هذا).

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢/٢٦٢

قلت لابن عرفة: إن كان المراد به الزمن القريب من الحال فلا فائدة، فيدفع قوله (قد كنت)، وإن أراد البعيد فذلك مناقض لمعنى قد، فقال: أتى به ليفيد أنه في الحال غير مرجو.

قوله تعالى: (أرأيتم إن كنت).

قال ابن عرفة: وذلك أن الإنسان إذا حصلت له [...] يستحيل له [العلم الضروري*] الذي يستحيل زواله عقلا؛ بخلاف غير هذا، فإن الإنسان قد يكون يشرب الخمر ثم يتركه، ويكون يزني ثم يتوب، وصالح عليه السلام قال (إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته) قول يقال: كان الأصل أن يقول: إن كنت على بينة من ربي فيستحيل رجوعي عن ذلك؛ لأنه من الأمر الضروري الذي يستحيل زواله، فأجاب ابن عرفة: بأن الدليل البرهاني لا يخاطب به العوام، فأتى بالدليل الخطابي، لأنه هو الذي يفهمونه.

قوله تعالى: (لكم آية).

قال: آية حال، والحال من شرطها عند ابن عصفور الانتقال، وهذه ليست إلا آية، فأجاب بوجهين:." (١)

"أبو حيان: الضمير مذكر كما في قولهم أحسن الفتيان وأجمله، ورده ابن عرفة: بأن هذا المنزل وقع فيه الفتيان موقع تمييز مذكر أي أحسن فتى وأجمله، وأما الآية ليست كذلك.

قوله تعالى: (من بين فرث ودم).

أبو حيان: حال من ضمير (نسقيكم) أي خارجا (من بين فرث ودم)، وقيل: متعلق بنسقيكم المقدر أولا يتعلق مجروران بفعل واحد.

ابن عرفة: يجوز هنا لاختلاف معناها لأن من الأولى للتبعض، والثانية لابتداء الغاية، الزمخشري: إذا استقر [العلف*] في كرش البهيمة [طبخته*] [فكان أسفله فرثا، وأوسطه لبنا، وأعلاه دما*] والكبد [مسلطة*] على ذلك نفسه، فجرى الدم في العروق واللبن في الضروع [الثلاثة تقسمها، فتجرى الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث في الكرش، ورده ابن الخطيب: بأنا ما رأينا قط في كرش البهيمة المذكورة لبنا ولا [دما*]، أجاب ابن عرفة: بأن حالة الحياة بها زيادة إلا أن الميت إذا قطع منه لم يخرج منه دم بوجه، بخلاف النفي، ولذلك كان الفلاسفة مقرون [حرق الإنسان*] وهو حي لينظروا ما يتحرك في بطنه، ابن الخطيب: والصحيح أن الغذاء مطبخه الكرش مخرج أولا منه الأجزاء الكثيفة وهي الفرث ويبقى

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣٦٣/٢

دما فيطبخه ثانية فيخرج منه إلى الضروع الأجزاء اللطيفة وهي اللبن ويصير الباقي دما صرفا فيجعله في العروق، وإنما وقع الامتنان بلبن الأنعام المنفصل [عنها*] دون لبن المرأة المتصل [بها*] لأن تغذي الإنسان بلبن أمه حال منصوبة وعدم عقله ولبن الأنعام يتغذى به صغيرا وكبيرا ويدرك منفعته.

قوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل ... (٦٨)﴾

ابن عطية: الوحي إلقاء الموحي في خفاء أو الإنهاء إليه ويكون بمعنى الأمر ومنه أن ربك أوحى بها.

قوله تعالى: ﴿ثم كلي من كل الثمرات ... (٦٩)﴾

ابن عطية: هذا إخبار بإلجائها إلى الأكل.

ابن عرفة: يريد وأتى فيه بصيغة الأمر ومراد به الخبر مبالغة في قصدها ذلك كما اشترط في المأمور القصد إلى الامتثال، وقيل: إنه هو حقيقة أي ثم قال لها (كلي من كل الثمرات)، وقال ابن الخطيب: وبيتها الذي تصنعه مسدس، وقام البرهان في علم الهندسة على أنه أحسن [القوائم*] لأنه يفصل الزوايا ليس بها خلل خلاف المربع والمعين، وذلك الاتصال وعدمه لا يظهر إلا لمن قرأ ست مقالات من كتاب إقليدس." (١)

"وقال ابن عرفة: إنما [ألفينا*] مفهوم قوله تعالى: (فما استكانوا لربهم)؛ [أن*] نفي الاستكانة والتضرع يقتضي اتصافهم بالتكبر والتعنت، وعدم [...].، فإذا أنزل بهم العذاب الشديد لنفي عنهم ذلك التكبر والتجبر، واتصفوا بالذلة حيث لا ينفعهم ذلك.

قال الزمخشري: وأخذهم بالسنين حتى أكلوا العلهز.

ابن عرفة: هو الدم المخلط بالشعر، وقيل: إنه كبير.

قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار ... (٧٨)﴾

ابن عرفة: الإنشاء أخص من الإيجاد أن يكون تقدير بإيجاد بعض الأجزاء [وكلها*] هو، فإن قلت: لم أفرد السمع؟ قلت: أجاب الزمخشري: بأنه إما مصدر أو اسم [مختص*].

ابن عرفة: وعادتهم يجيبون: بأنه أفرده؛ لأنه مفرد، ومتعلقاته متعددة، والبصر متعدد بتعدد متعلقاته، فكل جهة لها إبصار خاص بها بخلاف السمع، فإنه سمع واحد يسمع به من كل جهة، وليس المراد

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣١/٣

الخارجة وهي الأذن، فالمراد بالسمع السماع لا الحاسة، بدليل قوله في المدونة فيمن ضرب رجلا بآلة حادة فأذهب سمعه، أن عليه الدية، مع أن أذنه لم تزل أذنه باقية؟ والعطف هنا ترق؛ لأن عدم الرؤية أشد من الصمم، قيل له: قد كان يعقوب وشعيب عليهما السلام: لا يبصران، ولم يكن أحد من الأنبياء عليهم السلام أصم بوجه، فقال: العمى طارئ عليهما وليس ابتدائيا بوجه، والمراد بالأفئدة هنا العقل؛ لأن الآية خرجت مخرج الامتنان بهذه النعم، ولا يكون الامتنان إلا بالعقل، لا بمجرد الفؤاد.

قوله تعالى: (قليلا ما تشكرون).

قال ابن عرفة: كانت الطلبة يقولون: يحتمل أن يزيد القدر المتحرى من الشكر هو قليل، ويحتمل أن يرد الشكر الأعم، فعلى الأول: من صدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولم يفعل الطاعات هو شاكر قليلا، وعلى الثاني: من وحد الله ولم يصدق بالنبي صلى الله عليه وسلم، هو شاكر مطلق شكر.

قوله تعالى: ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض ... (٧٩)﴾." (١)

"قال ابن عرفة: يحتمل أن يريد (ذرأكم في الأرض) [...]. ابن عرفة: بل المراد أفردكم فيها لئلا يلزم عليه التكرار، أي أقركم فيها بلا تناسل.

قوله تعالى: (وإليه تحشرون)،

تقديم المجرور إما للحصر أو لرءوس الآي أو للنشر.

فقوله تعالى: (وهو الذي يحيي ويميت .. (٨٠) .. ، في إسناد الإحياء والإماتة إلى الله تعالى، رد على الحكماء القائلين بالطبع والطبيعة، وفيه دليل على أن الموت أمر وجودي، لخروجها مخرج الامتنان، والامتنان إنما يقع بالموجود لا [بالمعدوم*]، أو؛ لأن الموت تفريق الأعضاء، والتفريق أمر وجودي.

قوله تعالى: (وله اختلاف الليل والنهار).

وانتقل من ذات الامتنان إلى الاستدلال بأمر خارجي عنه، وهو العالم العلوي.

قوله تعالى: ﴿بل قالوا ... (٨١)﴾ .. إضراب إبطال؛ لأن نتيجة ما تقدم الاعتبار والإنابة والخضوع، فأضرب عن ذلك، والإضراب عنه يستلزم فعل نقيضه، بل بمعني مسكون عنه محتملا لفعل النقيض ولعدم

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢١٢/٣

فعله، فقال: لم تفعلوه بل فعلوا نقيضه، والمثلية تقدم في الأصول هل هي بديهية أو نظيرية؟ والخلاف هل هي عملية، أو إضافية.

قوله تعالى: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها ... (٨٤)﴾

قال ابن عرفة: حذف المقول له، إما لكونه معلوما من السياق، أو لدلالة حال سيقولون عليه، قال: والآية دالة على وجود الله ووحدانيته، قال: ويستفاد منها أمران:

أحدهما: تقرير النعمة لنصب هذه المذكورات دليلا على وجود مالكهما ووحدانيته.

الثاني: نفي القدر عمن خالف وجحد، قال: وخصص الأول بالتذكير؛ لأن الإنسان في أول أحواله يتذكر الدليل ليعلم ماذا تقرر عنده، فإذا تقرر عنده العلم حصلت له التقوى، فالقدرة ناشئة عن التذكر فهي في ثاني رتبة، وبدأ أولا بالأمر الحسي القريب، الوجود منهم ثم بالحسي العلوي الأعظم خلقه، فالمعنوي في قوله تعالى: (قل من بيده ملكوت كل شيء ... (٨٨) .. ، فقرن الأول بالعلم، وحذفها من الثانية." (١)

"سورة الشعراء

قوله تعالى: ﴿ألم نربك فينا وليدا ... (١٨)﴾

قال ابن عرفة: إن قلت: ما وجه الربط بين هذه وبين قوله: (فينا)، قلت: أفاد الترتيب، تارة يكون للتعليم، وتارة يكون للاستخدام، فتربيته لنتخذه خديما فهذه نقمة، وتارة تكون نعمة، وهو أن يريه محبته وشفقته عليه، ولم يدخلها على ما بعد؛ لأنه يحنث عنه بالمخالفة، فإن قلت: ما أفاد قوله: (من عمرك)، دلنا: لفظ العمر نعمة؛ لأنه مأخوذ من العمرى المذكورة في الفقه، فإنها هبة المنافع، وذلك نعمة، فإن قلت: هلا قال: ولبثت فينا من عمرك أعواما، فهو داخل في باب النعمة **والامتنان**، قلت: لفظ العمر تغني عنه.

قوله تعالى: ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين (١٩)﴾

الظاهر أن الكفر فيه الإيمان، وحكى الآمدي وابن الحاجب عن المعتزلة امتناع اتصاف النبي بالكفر قبل النبوة وبعدها عقلا، وجوز عليهم ذلك أهل السنة عقلا، قالوا: لكنه لم يقع، وزعم فرعون أنه وقع، وهذا

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢١٣/٣

لا أذكره بمحضر العوام، وهكذا هنا فإن الله تعالى عاصم من يريد بنبوته من كل بدع، ومن بعض الصغائر، وهي صغائر [الخسة*] فما بال الكفر، وهذا على أصل مذهبه.

قوله تعالى: ﴿قال فعلتها إذا وأنا من الضالين (٢٠)﴾

قال سيبويه: (إذا) جواب وجزاء، قال ابن الصفار: فهم الشلوبين على أنه شرط وجواب، فأخذ الجزاء بمعنى الشرط، فقوله: إذا أكرمك، لمن قال: أنا أزورك، معناه: إن تزرني أكرمك، قال في هذه الآية معناه: إن كنت فعلتها فأنا ضال، فلزمه إثبات الضلال لموسى صلى الله على نبينا محمد وعليه وعلى آلهما وسلم، وأجاب: بأن المعنى قوله: (وأنت من الكافرين)، بالنعم فقال موسى عليه السلام: إن كنت كافرا بأنعمك فأنا ضال، أي جاهل بأن الوكزة تقتل القبطي، ورده ابن الصفار، بأن الكفر إذا ذكر مطلقا فهو ضد الإيمان، وإن أريد به [غيره*] قيد له، وكذلك إنما هو على هذا المعنى، ولو سلمناه ففيه عكس المعنى؛ لأنه إذا كان فعله ذلك كافرا بالنعمة عليه فليس من الضالين بل من المبين، وهذا [بناء*] على شرط وجواب، وقال: [لا يحتاج*] إلى هذا بل مراد سيبويه في (نعم) إنها عدة وتصديق، وذلك لا يجتمع فيه بل هي تصديق لما مضى عدة في المستقبل، فقولك: نعم لمن قال: فعلت كذا تصديق، ولمن قال: افعله عدة، وكذلك إذا قال: أنا أزورك، فيقول: إذا أكرمك فهو جواب وجزاء، وإذا." (١)

"قال ابن عرفة: وعادتهم يوردون سؤالا تقديره؛ أن تأثير الفعل تارة يكون بوقوع أثره في الفاعل، وتارة بوقوع أثره في المنفعل، ويمثلونه بحائط عليه بنيته فحدث فيه اختلاف، فذهاب الخلل منه إما بإعدامه وبنائه، وإما بتخفيف الثقل الذي عليه، فالأول: تأثير في الفاعل وهو [الحامل*] للثقل، والثاني: في المنفعل وهو المحمول.

قال: وتوهم بظاهر الأثر الحاصل في الشيء المفارق، فهلا قيل: فأقدرناه على الريح؛ لأنه يكون تأثيرا في الفاعل راجع إلى ذاته؛ وأما تسخير الريح فهو تأثير في المنفعل بأمر خارق لذات الفاعل؛ وهو سليمان عليه السلام، وكذلك أيضا [عمل الحديد*] في قصة داود، في قوله تعالى: (وألنا له الحديد)، ولم يقل: وأقدرناه على عمل الحديد، قال: والجواب: أن هداه [دعاه إلى الخالق بالتذكير بالنعمة*]، وهو أن الإنسان إذا أنعم عليه بصفة في غيره. فإنه يتوهم في كل وقت [زوالها*]، فهنا لو [وجدها*] باقية شكر الله على

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢٣٨/٣

دوامها، بخلاف ما إذا كانت صفة له ملازمة لبدنه، فإنه قد يثق بها [ويأبى*] الشكر عليها؛ ويقبل عن تذكر زوالها؛ فتذكر زوال النعمة المفارق للبدن أقرب من تذكر زوال النعمة المخالطة للبدن.

قوله تعالى: ﴿والشياطين كل بناء وغواص (٣٧)﴾

قال ابن عرفة: هذا من باب مطرنا السهل والجبل، فالمراد بالبناء: من يعمل منهم العمل المرتفع على الأرض، وبالغواص: من يعمل منهم العمل المنخفض في الأرض من حفر الآبار وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد (٣٨)﴾

وليس المعنى سخرنا له آخرين؛ بأن المقرن في الأصفاد غير مسخر للخدمة.

قوله تعالى: ﴿مسني الشيطان بنصب وعذاب (٤١)﴾

وقال تعالى في سورة الأنبياء (مسني الضر وأنت أرحم الراحمين)، فأجيب: أن آية الأنبياء أتت في معرض **الامتنان**؛ فذكر النعم لأن قبلها (ولقد آتينا إبراهيم رشده)، ثم قال تعالى (يا نار كوني بردا وسلاما)، ثم قال تعالى (ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه." [١]

"ابن عطية: كان سبب هذه الآية كذا وكذا، ثم قال: وحيث جعل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يده على يده، وقال: "هذه عن عثمان وهو خير من يد عثمان".

قال ابن عرفة: أراد بذلك إزالة النقص المتقدم بحق عثمان من كونه لم يحضر ولم يبايع، فمعناه أن بيعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عنه خير من بيعته هو لنفسه مباشرة.

فإن قلت: وإنما بايعوا على الموت وعثمان قد شاع عندهم حينئذ موته، فكيف يبايع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عنه على الموت وهو يعتقد أنه ميت؟

قلنا: قد يكون سبب البيعة [إثر سماعهم*] الخبر بموت عثمان، ثم في أثناء الأمر ورد [**يحيونه].

قوله تعالى: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها ... (٢١)﴾

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣/٣٧٤

فيها حجة على المجبرة القائلين: بأن العبد لا قدرة له ولا كسب لأجل نفي القدرة عنهم في هذه، فمفهومه ثبوت القدرة لهم على غيرها، وإلا فلا فائدة لتخصيص هذه بنفي القدرة، والمراد غنيمة أخرى أو نعمة أخرى.

ابن عرفة: أي غنيمة مغايرة الأولى، أو غنيمة مغايرة لها، أو سابقة عنها في الزمان، كقوله: [...].

قوله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ... (٢٤)﴾

قال ابن عرفة: يؤخذ منه أن القدم الإضافي متعلق به القدرة، وتقدم لنا مثله في قوله تعالى: (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) قيل [لا حجة فيه؛ لاحتمال*] أن يرجع إلى الإرادة، فقال: والإرادة مؤثرة؛ لأن من شأنها الاختصاص.

قيل له: الأشهر عندهم أنها غير مؤثرة، قال: وعادتهم يقولون: الآية خرجت مخرج الامتنان والنعمة في كف أيدي الكفار عن المسلمين ظاهرة، وأما كف أيدينا عنهم ففيه عكس النعمة، وأجيب: بأن المراد لازم ذلك وهو إسلامهم فبإسلامهم وانقيادهم [حصل*] كف أيدينا عنهم؛ لا بالعجز عن قتالهم.

* * *." (١)

"وقال بعضهم: إن هذه الآية تدل على أن الذرية [الملحقين بالآباء*] هم الذين آمنوا وماتوا على الإيمان وهم غير عاصين أو عاصين تائبين، وأما غير التائبين فإنهم لا يلحقون بآبائهم بل (كل امرئ بما كسب رهين).

فإن قلت: هل تدل الآية على الكسب الذي ينسبه أهل السنة للعبد؟ قلت: لا لأن الكسب هنا مما يذكرونه، فإن قلت: لم عدل عن صريح المطابقة فلم يقل بما عمل رهين، كما قال تعالى (وما ألتناهم من عملهم من شيء) فالجواب: أن العمل أعم والكسب أخص، [ولا يطلق إلا على عمل المكلف*]، ولما كان الأول اتصافا [وتقريرا لنعم الله*] وفضله على العبد ذكر العمل الذي هو أعم، إذ هو أبلغ في مقام الامتنان ولما كان الثاني في معرض التهديد علقه بالأخص.

قوله تعالى: ﴿ولحم مما يشتهون (٢٢)﴾

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٤/٣٥

جاء هذا مطلقا، وفي سورة الواقعة (ولحم طير)، فيحتمل هذا الإطلاق [أن*] يقيد بتلك، وفي ذكر الفاكهة، واللحم أنه جاء بأن طع ام الجنة إنما هو للتفكه، لأنه لا يطلب اللحم والفاكهة، إلا من شبع وأراد التفكه.

فإن قلت: هلا قيل: ممن يشتهى، فهو أعم وأبلغ، قلت: المراد حصول مرادهم في كل شيء.

قوله تعالى: ﴿يتنازعون فيها كأسا ... (٢٣)﴾

إن قلت: ذكر التنازع في شرب الخمر دون الأكل، قلت: لأن عادة [العرب بيسارة*] الأكل دون شرب الخمر، فذكر التنازع في الخمر المقتضي للاستنكار منها دون الطعام والماء جريا على المألوف، والتنازع أن يطلب كل واحد من صاحبه الكأس ليشرب منها، ثم لما كان التنازع قد يؤدي التشاجر بين النداء ما في الدنيا احترز منه، بقوله تعالى: (لا لغو فيها ولا تأثيم)، ولذا قيده إلى التنازع، بقوله: فيها دون ما قبله، فلم يقل: وأمددناهم فيها، إشارة إلى مخالفة حال الآخرة، لحال الدنيا، وأن التنازع السالم عن اللغو والقائم إنما هو في الجنة، وتنازعهم إنما هو في الخمر، لا في الكأس، فهو من باب تسمية المحل باسم الحال فيه.

قوله تعالى: ﴿وأقبل بعضهم ... (٢٥)﴾." (١)

"قوله تعالى: (فأحسن صوركم).

الزمخشري: جعلهم أحسن الحيوان [وأبهاه*]، ومن ذلك أنه خلق منتصبا قائما غير منكب، قال: فإن قلت: كم من [دميم*] مشوه الصورة سمج الخلقة، قلت: لا سماجة ثم، ولكن الحسن كغيره على مراتب فهم حسن وأحسن منه، والكل حسن بالنسبة إلى غيرهم من الحيوانات انتهى، يرد عليه هذا الجواب: بأن الدميم القبيح المنظر إن أطلق عليه أنه قبيح فالسؤال وارد، وإن قال: إنه حسن فباطل يصدق نقيضه عليه، وهو قبيح، وإنما الجواب: أن الحسن يطلق باعتبارين:

أحدهما: ضد القبيح، تقول: هو في ذاته حسن، أي ليس بقبيح.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٨٢/٤

الثاني: باعتبار وروده على وفق المراد، والخيال المتصور في الذهن، فتقول: أحسن فلان صورة أحدب أعرج أحسن، أي أنابها على نحو ما أريد منه فإتيان الصورة هو أن [يتخيل*] شيئا في ذهنه فيأتي به على نحو ما تخيل وما بذلك عليه.

قوله تعالى: [(وصوركم فأحسن صوركم) *]

[هذا*] هو المراد في الآية، أي صوركم على وفق ما أراد منكم، وهو حسن في نوعه، فصور الأعرج مثلا على أحسن صورته في نوعه، والأقطع والأشل كذلك، فإن قلت: يفوت معنى التفضيل في مزية الإنسان وتفضيله على غيره، والآية خرجت مخرج **الامتنان**، وهذا المعنى يشترك فيه الإنسان مع غيره؟ قلت: إنما اختص الإنسان بالذكر، لأنه أقرب إلى الفهم، قال تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون).

قوله تعالى: (وإليه المصير).

كالنتيجة لمن لا يخالف في المقدمتين، أي كما وافقتم وتحققتم أنه الذي خلقكم فصوركم، فتحققوا أنه يعيدكم بعد الموت، لأن بعض الناس أنكروا الإعادة، وفسره الزمخشري وابن عطية: بأن المراد: إليه مرجعكم فيجازيكم بالثواب والعقاب، فعليكم بشكره على نعمه والإيمان به.

قوله تعالى: ﴿يعلم ما في السماوات ... (٤)﴾

لما تقدم أنه خلق السماوات فأتقنها، والإتقان دليل على العلم، فناسب تعقيبه به، وأتى أولا بعلم الذوات ثم بعلم الصفات، وهي القول سره وعلانيته، ثم [بعلم*] المعاني وهو ما في الصدور، وهو الكلام النفسي، وعبر عن الأولين بالفعل، [وفي*] الثالث بالاسم." (١)

"قوله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا ... (٥)﴾

تأكيد هذه الجملة باعتبار المعطوف، لأن المعطوف عليه معلوم بالضرورة.

قوله تعالى: ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا ... لها شهيقا وهي تفور (٧)﴾

اقتضت هذه الآية سماعهم ذلك بعد الإلقاء في [النار*]، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا، وهذا يقتضي سماعهم ذلك قبل الإلقاء، فيجعل سماعهم ذلك قبل وبعد.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٤/٢٣٨

قوله تعالى: [وقالوا لو كنا نسمع ... (١٠)]، وعلقه على [نسمع*] دون سمعنا؛ لأن [نسمع*] أبلغ لإفادته التجرد، والماضي إنما يفيد مطلق الوقوع منه، ويؤخذ من الآية أن السمع أفضل من البصر، لأنهم حصروا ما يكونون به كما عبر في السمع والعقل، فلو كان البصر أفضل أو مساويا لذكروه، وما قيل: [أيهما*] أبلغ، هل قولك: زيد في أصحاب العلم، أو من أصحاب العلم.

قوله تعالى: ﴿بذنبهم ... (١١)﴾

لم يقل: [بكفرهم*] بالوصف الأعم، لأنهم إذا [اعترفوا*] على الأعم، فأحرى الأخص، وأفرده تنبيها على أن المراد من ذلك الأعم أخصه، وهو شيء واحد، وهو الكفر، ويكون ذلك الذنب تنبيها على دخول العصاة.

قوله تعالى: ﴿قولكم ... (١٣)﴾

[حقيقة القول*] الذي هو أعم؛ لإطلاقه على المفردات والمركبات، فيتناول ما دونه من باب أحرى، باعتبار الصدق، والعطف وصيغة أفعل للتسوية.

قوله تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق ... (١٤)﴾

الزمخشري: (من) لا يصح أن [تكون فاعلا*]، والمفعول محذوف؛ لأنه يكون المراد ألا يعلم الخالق، أي لا يتصف الخالق بالعلم، فلا يكون لقوله (وهو اللطيف الخبير)، فائدة (١)؛ فرده صاحب التقريب: بأنه من باب تقييد المطلق، أي لا يتصف بمطلق العلم من هو موصوف بعلم كل شيء، وأجاب الطيبي: بأن العلم هنا ليس مطلقا، بل المراد به أخصه، وهو علم السر، [هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا (١٥) *] (٢) الامتنان بكون الأرض ذلولا لا يتبادر منه للفهم الأمر [بالمشي*] فيها، ووقع الامتنان بنعمة الجلب والنفع.

---

(١) النص في الكشاف هكذا:

"فإن قلت: قدرت في ألا يعلم مفعولا على معنى:

ألا يعلم ذلك المذكور مما أضمر في القلب وأظهر باللسان من خلق، فهلا جعلته مثل قولهم: هو يعطى ويمنع، وهلا كان المعنى: ألا يكون عالما من هو خالق، لأن الخلق لا يصح إلا مع العلم؟

قلت: أبت ذلك الحال التي هي قوله وهو اللطيف الخبير لأنك لو قلت: ألا يكون عالما من هو خالق وهو اللطيف الخبير: لم يكن معنى صحيحا، لأن ألا يعلم معتمد على الحال.

والشيء لا يوقت بنفسه، فلا يقال: ألا يعلم وهو عالم، ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم بكل شيء". اهـ.

(٢) زيادة ضرورية.." (١)

"جمع المشارق، لأن مشارق الشمس والقمر متعددة لهما في كل يوم مشرق، وكذا سائر الكواكب لكل منها في [كل*] يوم مشرق لا يطلع منه إلا في مثله من عام آخر وفي سورة المزمل (رب المشرق والمغرب)، وفي الرحمن (رب المشرقين ورب المغربين) والتثنية باعتبار مبتدأ المشرق في الصيف ومنتهاه في الشتاء، والإفراد إما على إرادة المبدأ أو المنتهى، وهو أصوب، لأن منتهاه غايته، وغايته تدل على أن له مبتدأ، فإن قلت: هلا قال: فلا أقسم بمقدر المشارق أو خالقها؟ فالجواب: أنه عبر بلفظ الرب ليفيد نعمة **الامتنان** والرحمة في إحياء النبات والحيوان بانتقال الشمس في المشارق كل يوم، ليعم النفع بها كل قطر وإقليم.

قوله تعالى: ﴿وما نحن بمسبوقين (٤١)﴾

أي لا يسبقنا أحد لذلك، فإن قلت: تنفي المساواة، قلت: هي منفية بالدليل العقلي، لئلا يلزم عليه وجود مؤثر واحد بين مؤثرين، أعني مقدورين قادرين، فإن قلت: يكون الثاني معينا للأول، قلت: قد تقرر إبطال هذا في قول من فسر الكتب بأنه فعل فاعل [معين*].

قوله (حتى يلاقوا يومهم ... (٤٢) .. ، غاية للخوض لا للترك.

قوله (يوم يخرجون ... (٤٣) .. يحتمل أن يكون على حذف حرف العطف، مثل كيف أصبحت؟ كيف أمسيت؟ [...] إلى نصب الأولى تفسيره الخير؛ لأنه لا [يسرع*] أحد إلى الشر.

* * *." (٢)

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٤/٢٦١

(٢) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٤/٢٩٢

"١٦٨ - (كلوا. .). إما للامتنان إن قلنا: الأصل للإباحة وإلا فللإباحة، وهو أولى؛ لأنها حقيقة فيها على رأي بعض الأصوليين، وهي في الامتنان مجاز اتفاقا.

١٦٩ - (ما لا تعلمون). الفقيه يعلم أنه يجب عليه العمل بما ظنه، فقد قال: " على " الله ما يعلم.." (١)

"وخففه الباقون. قال مكي: ما لم يمت، فهو مشدد باتفاق لم يختلفوا فيه، ولم يختلفوا في تخفيف ما هو نعت لما فيه هاء التأنيث.

- (وترزق من تشاء). استدل بها المعتزلة. على أن الرزق إنما يطلق على الحلال؛ لأنها خرجت مخرج الامتنان، ولا يكون إلا بالحلال.

ويجاب بمنع كونها للامتنان، بل للإخبار بكمال قدرة الله تعالى، وأنه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

- (بغير حساب). أي: تفضلا منك.

فإن قلت: قوله: (من تشاء)، يدل على تخصيص الرزق بالبعض دون البعض، فما الجمع بينه، وبين قوله: (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) سبق تخريجها.

فالجواب: أن المشيئة هنا قيدت بقوله: (بغير حساب) فبعض الناس يرزقه الرزق الكثير، وبعضهم يقدر عليه رزقه كما قال: (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها. .).." (٢)

"(لقد من الله على المؤمنين) أي أحسن إليهم وتفضل عليهم، والمنة النعمة العظيمة، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثة الرسول (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) يعني من جنسهم عربيا مثلهم، ولد ببلدهم، ونشأ بينهم يعرفون نسبه، وقيل بشرا مثلهم، ووجه المنة على الأول أنهم يفقهون عنه ويفهمون كلامه، ولا يحتاجون إلى ترجمان، ومعناها على التاني أنهم يأنسون به بجامع البشرية، ولو كان ملكا لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنسية.

وقرىء من أنفسهم بفتح الفاء أي أشرفهم، لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل من قريش وقريش أفضل من العرب، والعرب أفضل من غيرهم.

---

(١) التقييد الكبير للبسيلي، البسيلي ص/٢٨١

(٢) التقييد الكبير للبسيلي، البسيلي ص/٤٩٥

ولعل وجه **الامتنان** على هذه القراءة أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له وأقرب إلى تصديقه، ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني فلا حاجة إلى هذا التخصيص، وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لا حاجة إلى التخصيص، لأن بني هاشم هم أنفس العرب والعجم في شرف الأصل وكرم النجار (١) ورفاعة المحتد.

ويدل على الوجه الأول قوله تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) وقوله (وإنه لذكر لك ولقومك).

وكان فيما خطب به أبو طالب حين زوج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خديجة بنت خويلد وقد حضر ذلك بنو هاشم ورؤساء مضر: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد، وعنصر مضر، وجعلنا سدنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا، وجعلنا الحكام على الناس. وإن ابنى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به فتى إلا رجح، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل.

---

(١) النجار بالضم والكسر الأصل والحسب اه منه.." [1]

"فيكون مباحا، وقيل التقدير أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلي الصيد أي الاصطياد في البر، وأكل صيده.

ومعنى عدم إحلالهم له تقرير حرمته عملا واعتقادا وهو شائع في الكتاب والسنة، ونصب غير على الحال من ضمير لكم، وعليه كلام الجمهور، وذهب إليه الزمخشري وتعقب وأجيب.

ومعنى هذا التقييد أي (وأنتم حرم) ظاهر عند من يخص بهيمة الأنعام بالحيوانات الوحشية البرية التي يحل أكلها، كأنه قال: أحل لكم صيد البر إلا في حال الإحرام، وأما على قول من يجعل الإضافة بيانية فالمعنى أحلت لكم بهيمة هي الأنعام حال تحريم الصيد عليكم بدخولكم في الإحرام لكونكم محتاجين إلى ذلك، فيكون المراد بهذا التقييد **الامتنان** عليهم بتحليل ما عدا ما هو محرم عليهم في تلك الحال.

والمراد بالحرم من هو محرم بالحج أو العمرة أو بهما، وسمي محرما لكونه يحرم عليه الصيد والطيب والنساء، وهكذا وجه تسمية الحرم حرما، والإحرام إحراما (إن الله يحكم ما يريد) من الأحكام المخالفة

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢/٣٦٩

لما كانت العرب تعتاده، فهو مالك الكل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا اعتراض عليه، لا ما يقوله المعتزلة من مراعاة المصالح، قاله أبو حيان (١).

---

(١) البيت للمضرب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى، وهو في " مجاز القرآن " ١/ ١٤٥ و " السمط ": ٢/ ٧٩١، و " الاقتضاب ": ٤٧٥، و " شرح أدب الكاتب " للجواليقي: ٤١١ و " القرطبي ": ٦/ ٣٦. قال البطليوسي: سمي المضرب، لأنه شبب بامرأة، فغار أخوها لذلك، فضربه بالسيف ضربات عديدة، ويروى لشبل بن الصامت المري وبعده.

قصدت بعيني شادن وتبسمت ... بعجفاء عن غر لهن غروب

وأراد بالغر: أسنانها، والغروب: جمع غرب، وهو حد الأسنان. وصف أن محبوبته لقيها وهو محرم ملب، فتورع عن الكلام معها ومعنى " ميئي ": ارجعي. و " الحرام ": المحرم. و " لبيب " ها هنا بمعنى: ملب وهو نادر، لأن فعيلا لا يستعمل بمعنى " مفعل " و " بعد " بمعنى: " مع " وقوله: " ميئي إليك " أمر بعد أمر على معنى التأكيد في إبعادها عن نفسه.." (١)

"إن لي خادما قال فأنت من الملوك، وقال مجاهد جعل لهم أزواجا وخدما وبيوتا (١).

وقد ثبت في الحديث الصحيح " من أصبح منكم معافى في جسده آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها " (٢) والظاهر أن المراد بالآية الملك الحقيقي، ولو كان بمعنى آخر لما كان للامتنان به كثير معنى.

فإن قلت: قد جعل غيرهم ملوكا كما جعلهم، قلت قد كثر الملوك فيهم كما كثر الأنبياء، فهذا وجه **الامتنان**.

(وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) أي من المن والسلوى والحجر والغمام وكثرة الأنبياء وكثرة الملوك وفلق البحر وإهلاك عدوكم وغير ذلك، والمراد عالمي زمانهم أو الأمم الخالية إلى زمانهم.

وقيل: إن الخطاب ههنا لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو عدول عن الظاهر لغير موجب والصواب ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أنه من كلام موسى لقومه، وخاطبهم بهذا الخطاب توطئة وتمهيدا لما بعده من أمره لهم بدخول الأرض المقدسة.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣/٣٢٥

(١) ابن كثير ٢/ ٣٦.

(٢) صحيح الجامع ٥٩١٨.." [1]

"(بإذني) لك بذلك وتيسيري له (فتنفخ فيها) أي في الهيئة المصورة (فتكون) هذه الهيئة (طيرا) متحركا حيا كسائر الطيور (بإذني) وكان الخلق لهذا الطير معجزة لعيسى أكرمه الله تعالى بها، وتقدم في آل عمران أنه كان صور لهم صورة الخفاش وكان ذلك بطلبهم فراجعه إن شئت.

(وتبريء الأكمه) أي تشفي الأعمى المطموس البصر (والأبرص) هو معروف ظاهر (بإذني) لك وتسهيله عليك وتيسيره لك، وقد تقدم تفسير هذا مطولا في آل عمران فلا نعيده (وإذ تخرج الموتى) من قبورهم أحياء فيكون ذلك آية لك عظيمة، قيل أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية، وتكرير (بإذني) هنا في المواضع الأربعة بعد أربع جمل للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه، وقال في آل عمران (بإذن الله) مرتين لأن هناك أخبار فناسب الإيجاز، وهنا مقام تذكير بالمنعمة **والامتنان** فناسب الإسهاب.

﴿وإذ كففت) معناه دفعت وصرفت ومنعت (بني إسرائيل) أي اليهود (عنك) حين هموا بقتلك (إذ جئتهم بالبينات) أي المعجزات الواضحات والدلالات الباهرات التي وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير وإبراء الأسقام والخبر بكثير من الغيوب، ولا أتى عيسى بهذه الدلالات البينات قصد اليهود بقتله فخلصه الله منهم ورفعه إلى السماء.

(فقال الذين كفروا منهم) أي من اليهود (إن هذا إلا سحر مبين) أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر بين، ولا عظم ذلك في صدورهم وابتهروا منه لم يقدروا على جحده بالكلية بل نسبوه إلى السحر.." [2]

"المقام للماضي لاستحضار الصورة الغريبة.

(ومن النخل) اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث قال تعالى: (كأنهم أعجاز نخل خاوية) وقال تعالى: (كأنهم أعجاز نخل منقعر).

(من طلعها قنوان) قرئ بكسر القاف وفتحها باعتبار إختلاف اللغتين لغة قيس ولغة أهل الحجاز، والطلع الكفري قبل أن ينشق عن الإغريض، والإغريض يسمى طلعا أيضا وهو ما يكون في قلب الطلع، والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فإذا شق عنه كيزانه يسمى عذقا، وهو

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣/٣٨٧

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/٨٤

القنو، وجمعه قنوان مثل صنو وصنوان، والفرق بين جمعه وتثنيته أن المثنى مكسور النون، والجمع على ما يقتضيه الإعراب، والقنو العذق، والمعنى أن القنوان أصله من الطلع والعذق هو عنقود النخل، وقيل القنوان الجمار أو العراجين.

(دانية) قريبة ينالها القائم والقاعد، وقال مجاهد: متدلية، وقال الضحاك: قصار ملتصقة بالأرض أي دانية في المجتنى لانحنائها بثقل حملها أو رقصر ساقها قال الزجاج: المعنى منها دانية ومنها بعيدة فحذف ومثله (سرابيل تقيكم الحر) وخص الدانية بالذكر لأن الغرض من الآية بيان القدر والامتنان وذلك فيما يقرب تناوله أكثر.

وقال ابن عباس: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض، وعنه قنوان الكبائس والدانية المنصوبة، وقال أيضا تهدل العذوق من الطلع، وذكر الطلع مع النخل لأنه طعام وإدام دون سائر الأكمام، وتقديم النبات لتقدم القوت على الفاكهة.

(وجنات) أي ولهم جنات، قاله النحاس وأجازه سيبويه والكسائي والفراء، وأما على النصب فالتقدير وأخرجنا به جنات أي بساتين كائنة (من." (١)

"خلقناكم من ظهر آدم ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق، قال النحاس وهذا أحسن الأقوال.

قال أبو السعود: وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المراد خلق آدم وتصويره إعطاء لمقام الامتنان حقه وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أن لهم حظا من خلقه وتصويره لأنهما من الأمور السارية إلى ذريته جميعا.

وقال القاري: نزل خلقه منزلة خلق الكل وتصويرهم لأنه أبو البشر، وقيل المعنى ولقد خلقنا الأرواح أولا ثم صورنا الأشباح.

(ثم) أي بعد إكمال خلقه، وفي السمين اختلف الناس في (ثم) في هذين الموضعين فمنهم من لم يلتزم فيها ترتيبا وجعلها بمنزلة الواو. ومنهم من قال هي للترتيب في الأخبار لا في الزمان، ولا طائل تحت هذا، ومنهم من قال هي للترتيب الزماني، وهذا هو موضوعها الأصلي ومنهم من قال الأولى للترتيب الزماني والثانية للترتيب الإخباري انتهى.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/٢٠٧

(قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) أي أمرناهم بذلك فامتثلوا الأمر (فسجدوا) أي فعلوا السجود بعد الأمر قبل دخول الجنة وكان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر، وأول من سجد جبريل، ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون.

(إلا إبليس) قيل الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس لأنه كان منفردا بينهم، أو كما قيل إن من الملائكة جنسا يقال لهم الجن وقيل غير ذلك، وقد تقدم تحقيقه في البقرة (لم يكن من الساجدين) جملة مبينة لما فهم من معنى الاستثناء ومن جعل الاستثناء منقطعا قال معناه لكن إبليس لم يكن من الساجدين لآدم عليه السلام.." (١)

"هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون (٦٧) قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون (٦٨) قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون (٦٩)

ثم ذكر سبحانه طرقا من آثار قدرته مع **الامتنان** على عباده ببعض نعمه فقال:." (٢)

"وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين (٦) وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (٧)

ثم أكد كونه عالما بكل المعلومات بما فيه غاية **الامتنان** ونهاية الإحسان فقال." (٣)

"قلت: والأول أظهر قال النسفي هي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فإن تصريح الياء فيها خطأ انتهى. وقرئ بالهمز على التشبيه بشمائل، وقد ذكر في الأعراف وهي شاذة وقراءة الجمهور بالياء لأنها في المفرد أصلية لأن مفرده معيشة من العيش فالياء أصلية والمد في المفرد لا يقلب همزا في الجمع إلا إذا كان زائدا في المفرد قاله في الجمل.

(ومن لستم له برازقين) عطف على معايش أو على محل لكم وهم المماليك والعبيد والخدم والدواب والأولاد الذين رازقهم في الحقيقة هو الله وإن ظن بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب، وهذا في غاية **الامتنان** والمعنى على الثاني وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش، وهم من تقدم ذكره

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٠٩/٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٩٦/٦

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٤٢/٦

ويدخل في ذلك الدواب على اختلاف أجناسها، وقيل أراد الوحش قاله منصور. وقال مجاهد: الأنعام، وقيل الطيور، ومنه قوله (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها).." (١)

"(خلق الإنسان) وهو اسم لجنس هذا النوع (من نطفة) أي من جماد يخرج من حيوان وهو المني فقلبه أطوارا إلى أن كملت صورته ونفخ فيه الروح وأخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار فعاش فيها ومن لابتداء الغاية وانتهاؤها محذوف كما قرره الكرخي والنطفة القطرة من الماء يقال نطف رأسه ماء أي قطر، وقيل هي الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل والمرأة جمعها نطف ونطاف ولا يستعمل للنطفة فعل من لفظها.

(فإذا هو) بعد خلقه على هذه الصفة (خصيم) كثير الخصومة والمجادلة والمعنى أنه كالمخاصم لله سبحانه في قدرته (مبين) ظاهر الخصومة وواضحها، وقيل يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل والمبين هو المفصح عما في ضميره بمنطقه ومثله قوله تعالى (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) قيل نزلت في أبى بن خلف والأولى أنها عامة في كل ما يقع من الخصومة في الدنيا ويوم القيامة فإنه لا اعتبار بخصوص السبب إذا اقتضى المقام العموم كما تقرر.

قال الكرخي أن هذه ذكرت لتقرير الاستدلال على وجود الصانع الحكيم لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في الغي والكفر.

ثم عقب ذكر خلق الإنسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع والامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها فقال." (٢)

"بالركوب يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها، قالوا ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الأنعام، فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل، قالوا ولو كان أكل الخيل جائزا لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب لأنه أعظم فائدة منه.

وقد ذهب إلى هذا مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم، وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم إلى حل لحوم الخيل، وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير، وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق، ولا حجة لأهل القول الأول في التعليل بقوله لتركبوها، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافي غيره، ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٥٨/٧

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٠٨/٧

وأيضا لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها عام خيبر، وقد قدمنا أن هذه السورة مكية.

والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل، فلو سلمنا أن في هذه الآية متمسكا للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال، ودافعة لهذا الاستدلال، وقد أوضح الشوكاني هذه المسألة في مؤلفاته بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره.

وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل أحاديث منها ما في الصحيحين وغيرهما من حديث أسماء قالت: نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا فأكلناه (١).

وأخرج أبو عبيد وابن شيبة والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن جابر قال: أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم

---

(١) مسلم ١٩٤٢ البخاري/٢٢٠٢.." (١)

"وأيسر نقص لنغص النعم على الإنسان وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل، فهو سبحانه يدبر بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك، فكيف يطيق حصر نعم الله عليه أو يقدر على إحصائها أو يتمكن من شكر أدناها.

يا ربنا هذه نواصينا بيدك خاضعة لعظم نعمك معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشيء منها لا تحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ولا نطيق التعبير بالشكر لك، فتجاوز عنا واغفر لنا واسبل ذيول سترك على عوراتنا فإنك إن لا تفعل ذلك نهلك بمجرد التقصير في شكر نعمك فكيف بما قد فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك والانتهاء عن مناهيك، وما أحسن ما قال من قال:

العفو يرجى من بني آدم ... فكيف لا يرجى من الرب

وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على إنسان مشيرا إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال (إن الله لغفور رحيم) أي كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه والقصور عن إحصائها والعجز عن القيام بأدناها. ومن رحمته إدامتها عليكم وإدرارها في كل لحظة وعند كل نفس تتنفسونه وحركة تتحركون بها اللهم إني أشكرك عدد ما شكرك وسيشكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان، فلقد خصصتني بنعم لم أرها على كثير من خلقك من إنسان وحيوان وإن رأيت منها شيئا على بعض

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢١٢/٧

خلقك لم أر عليه بقيتها فإني أطيق شكرك وكيف أستطيع تأدية أدنى شكر أدناها فكيف أستطيع أعلاها، فكيف أستطيع شكر نوع من أنواعها.

ثم بين لعباده أنه عالم بجميع ما يصدر منهم لا يخفى عليه خافية فقال." (١)

"المسافر قد يحتاج إلى من يأوي إليه في نزوله وإلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد نبه سبحانه على ذلك فقال:

(وجعل لكم من الجبال أكنانا) جمع كن وهو ما يستكن به من المطر وشدة الحر والبرد وفي المختار الكن السترة والجمع أكنان والأكنة الأغطية، وقال الكسائي كن الشيء ستره وبابه رد، وفي القاموس الكن بالكسر وقاء كل شيء وستره كالكنة والكنان كسرهما والكن البيت جمعه أكنان وأكنة وكنه كنا وكنونا وأكنه وكننه واكتنه ستره واستكن استتر كاكتن والكنة جناح يخرج من حائط أو سقيفة فوق باب الدار أو ظله هنالك أو مخدع انتهى.

وهي هنا الغيران والأسراب في الجبال ونحوه جعلها الله سبحانه عدة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها لأن الإنسان غني أو فقير فالغني يستصحب معه الخيام في سفره ليسكن فيها، وإليه الإشارة في الآية المتقدمة، والفقير يسكن في ظلال الأشجار والحيطان والك٥وف وإلى هذه الإشارة في هذه الآية وكانت بلاد العرب شديدة الحرارة وحاجتهم إلى الظلال وما يدفع شدة الحر وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعاني في معرض الامتنان عليهم بها لأن النعمة عليهم فيها ظاهرة.

(وجعل لكم سرابيل) جمع سربال وهي القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها، قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال (تقيكم الحر) أي تدفع عنكم ضرر الحر والبرد وهو ما عليه أكثر المفسرين من أنه من حذف المعطوف للعلم به.

قال الشهاب في الريحانة في الآية نكتة لطيفة لم ينبهوا عليها وهو أنه إنما اقتصر على الحر لأنه أهم هنا لما عرف من غلبة الحر على ديار العرب ثم إن ما يقي الحر يحصل به برودة في الهواء في الجملة فوقاية الحر إنما هي لتحصيل البرد، وهذا فيه من اللطف ما هو ألطف من النسيم، فلله در التنزيل فكم فيه من أسرار لا تتناهى انتهى، ونظيره بيدك الخير أي والشر لأن." (٢)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٢٤/٧

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٩٣/٧

"والمنة الخامسة قوله: (وقتلت نفسا) المراد بالنفس هنا نفس القبطي الذي وكزه موسى فقضى عليه واسمه (قاب قان) وكان طباخا لفرعون وكان قتله له خطأ وكان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، وقيل ثلاثين سنة (فنجيناك من الغم) أي الغم الحاصل معك من قتله خوفا من العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو منهما جميعا، وقيل من جهة فرعون لا من جهة قتله لأنه كان كافرا وأيضا قتله له كان خطأ، وقيل الغم هو القتل بلغة قريش وما أبعده هذا.

والمنة السادسة قوله: (وفتناك فتونا) الفتنة تكون بمعنى المحنة وبمعنى الأمر الشاق، وكل ما يبتلى به الإنسان، والفتون مصدر كالثبور والسكون والكفور أي اختبرناك اختبارا وابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز في حجزة، وبدور في بدرة أي خلصناك مرة بعد مرة مما وقعت فيه من المحن التي سبق ذكرها قبل أن نصطفيك لرسالتنا أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ثم إلقاءه في البحر في التابوت، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله؛ ثم تناوله الجمرة بدل الجوهر، ثم قتله القبطي وخروجه إلى مدين خائفا.

وقد أخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبن مردويه عن ابن عباس أثرا طويلا في تفسير هذه الآية فمن أحب استيفاء ذلك فلينظر في كتاب التفسير من سنن النسائي ولعل المقصود بذكر تنجيته من الغم الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو **الامتنان** عليه بصنع الله سبحانه وتقوية قلبه عند ملاقاة ما سيقع له من ذلك مع فرعون وبني إسرائيل.

والمنة السابعة قوله: (فلبثت سنين في أهل مدين) قال الفراء: تقدير الكلام وفتناك فتونا فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين ومثل هذا الحذف." (١)

"والعري يقابل الضحو، لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر، والظمأ حر الباطن والضحو حر الظاهر، فنفى عن ساكنها ذل الظاهر والباطن وحرهما، ذكره ابن لقيمة.

قال أبو السعود: وفصل الظمأ من الجوع مع تجانسهما وتقارنهما في الذكر عادة وكذا حال العري والضحو المتجانسين لتوقية مقام **الامتنان** حقه للإشارة إلى أن نفي كل واحد من تلك الأمور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال في الجمع بين العري والضحو ولزيادة التقرير بالتنبيه على أن نفي كل واحد من هذه الأمور مقصود بالذات مذكور بالأصالة لا أن

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٨/٢٣٢

نفي بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لبعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع كل من المتجانسين انتهى.." (١)

"(ليدخلنهم مدخلا يرضونه) مستأنفة أو بدل من جملة ليرزقنهم الله، قرئ مدخلا بفتح الميم وبضمها وهو اسم مكان أريد به الجنة أو مصدر ميمي مؤكد للفعل المذكور، وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة سبحان، وفي هذا من الامتنان عليهم والتبشير لهم ما لا يقادر قدره، فإن المدخل الذي يرضونه هو الأوفق لنفوسهم والأقرب إلى مطلبهم على أنهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وذلك هو الذي يرضونه وفوق الرضا.

(وإن الله لعليم) بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم. وقيل بأحوال من قضى نحبه مجاهدا، وآمال من مات وهو ينتظر معاهدا (حليم) عن تفريط المفرطين منهم بإمهال من قاتلهم معاندا لا يعاجلهم بالعقوبة.." (٢)

"(قل) لأهل مكة (أرأيتم)؟ أي أخبروني (إن جعل الله عليكم الليل سرمدا بإسكان الشمس تحت الأرض، أو بتحريكها حول الأفق الغائر، والسرمد هو الدائم المستمر، من السرد، وهو المتابعة والاطراد، فالميم زائدة كما في دلامص من الدلاص، ووزنه فعمل، وقيل: إن ميمه (١) أصلية، ووزنه فعلل لا فعمل، وهو الظاهر، بين لهم سبحانه أنه مهد لهم أسباب المعيشة ليقوموا بشكر النعمة، فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلا دائما لا نهار معه (إلى يوم القيامة) لم يتمكنوا من الحركة فيه، وطلب ما لا بد لهم منه مما يقوم به العيش من المطاعم، والمشارب، والملابس، ثم امتن عليهم فقال:

(من إله غير الله يأتيكم)؟ أي هل لكم من إله بزعمكم من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم (بضياء) أي بنور تطلبون فيه المعيشة، وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه وتصلح ثماركم، وتنمو عنده زرائعكم، وتعيش فيه دوابكم والجملة صفة أخرى لـ (إله) عليها يدور التبكيت والإلزام (أفلا تسمعون)؟ هذا الكلام سماع فهم، وقبول، وتدبر وتفكر، وهذا توبيخ لهم على أبلغ وجه، ثم لما فرغ الله من الامتنان عليهم بوجود النهار؛ امتن عليهم بوجود الليل فقال:

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٨٦/٨

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧٤/٩

(١) إذا كانت ميمه أصلية فيكون فعله الماضي على وزن مصدره سرمد يسرمد سرمدا.." [1]

"(وآية لهم) ارتفاع آية على أنها خبر مقدم والمبتدأ أنا حملنا أو العكس، أي علامة ودلالة، وقيل: معنى آية هنا العبرة، وقيل: النعمة، وقيل: النذارة، وقد اختلف في معنى.

(أنا حملنا ذريتهم) وإلى من يرجع الضمير لأن الضمير الأول وهو قوله: وآية لهم لأهل مكة أو لكفار العرب أو للكفار على الإطلاق الكائنين في عصر محمد صلى الله عليه وسلم، فقيل: الضمير يرجع إلى القرون الماضية، والمعنى: أن الله حمل ذرية القرون الماضية.

(في الفلك المشحون) فالضميران مختلفان، وهذا حكاه النحاس عن الأخفش، وقيل: الضميران لكفار مكة ونحوهم، والمعنى: أن الله حمل ذرياتهم من أولادهم وضعفائهم على الفلك فامتن الله عليهم بذلك، أي أنهم يحملونهم معهم في السفن إذا سافروا أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها، وإنما ذكر ذريتهم دونهم لأنه أبلغ في **الامتنان** عليه، وأبلغ في التعجب من قدرته، وقيل: الذرية الآباء والأجداد، والفلك: هو سفينة نوح أي أن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح.

قال الواحدي: والذرية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد، قال أبو." [2]

"(وإن نشأ نغرقهم) هذا من تمام الآية التي امتن الله بها عليهم ووجه **الامتنان** أنه لم يغرقهم في لجج البحار مع قدرته على ذلك، أولم يحرقهم بنار العجلات الدخانية الحادثة الآن، والضمير يرجع إلى أصحاب الذرية أو إلى الذرية أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال.

(فلا صريخ لهم) الصريخ: بمعنى المصرخ والمصرخ هو المغيث أي فلا مغيث لهم يغيثهم إن شئنا إغراقهم أو إحراقهم، وقيل هو المنعة وكما يطلق الصريخ على المغيث يطلق على الصارخ وهو المستغيث، فهو من الأضداد كما صرح به أهل اللغة، ويكون مصدرا بمعنى الإغاثة لأنه في الأصل بمعنى الصراخ، وهو صوت مخصوص وكل منهما صحيح هنا قاله الشهاب.

(ولا هم ينقذون) أي لا يخلصون ولا ينجون. يقال: أنقذه واستنقذه إذا خلصه من مكروه." [3]

"(وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) في هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة يأخذونها في أوقاتها التي قدر وقوعها فيها. وقيل: الإلتفات إلى الخطاب لتشريفهم

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٠/١٤٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١١/٢٩٨

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١١/٣٠٠

في مقام الامتنان، والخطاب لأهل الحديبية (فعجل لكم هذه) أي غنائم خيبر قاله مجاهد وغيره، وقيل: صلح الحديبية، وهي في جنب ما وعدهم الله به من الفتوحات، كالقليل من الكثير.

(وكف أيدي الناس عنكم) أي أيدي قريش يوم الحديبية بالصلح وقيل: أيدي أهل خيبر وأبصارهم عن قتالكم وقذف في قلوبهم الرعب، وقال ابن عباس: يعني أهل مكة أن يستحلوا حرم الله، ويستحل بكم وأنتم حرم وقال قتادة: كف أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية وخيبر ورجح هذا ابن جرير، قال: لأن كف أيدي الناس بالحديبية مذكور في قوله: وهو الذي كف أيديهم عنكم، وقيل: الناس يعني عيينة بن حصن الفزاري، وعوف بن مالك النضري، ومن كان معهما إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبي صلى الله عليه وسلم لهم.." (١)

"قال ابن عباس في الآية: لم يطمثهن لم يدن منهن، أو لم يدمهن، وفي الآية دليل على أن الجن يطمثون كما يطمث الإنس، فإن مقام الامتنان يقتضي ذلك إذ لو يطمثوا لم يحصل لهم الامتنان." (٢)

"أنزلناه عليك وثبتناك له وقويناك عليه، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الله سبحانه ثبته لما لا تثبت له الجبال الرواسي، وقيل الخطاب للأمة.

(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ، وينزجروا بالزواجر، وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن، ولا اتعظوا بمواعظه، ولا انزجروا بزواجره، ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته فقال:." (٣)

"كذلك، وقال النسفي: الأمي منسوب إلى أمة العرب لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرأون من بين الأمم، وقيل: بدأت الكتابة بالطائف وهم أخذوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من أهل الأنبار انتهى.

و" عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

(رسولا منهم) أي من أنفسهم ومن جنسهم ومن جملتهم، كما قوله: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) وما كان حي من أحياء العرب إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، فيهم قرابة، وقد والوه، ووجه الامتنان بكونه منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه، وقيل: أميا مثلهم وإنما كان

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٠٧/١٣

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٤٣/١٣

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٦٦/١٤

أميا لأن نعته في كتب الأنبياء النبي الأمي وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة بالكتابة على ما أتى به من الوحي، والحكمة، ولكون حاله مشاكلة لحال أمته الذين بعث فيهم، وذلك أقرب إلى صدقه، والاقتصار هنا في المبعوث إليهم على الأميين لا ينافي أنه مرسل إلى غيرهم لأن ذلك مستفاد من دليل آخر كقوله: (وما أرسلناك إلا كافة للناس).

(يتلو عليهم آياته) يعني القرآن مع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب. ولا تعلم ذلك من أحد والجملة حال أو نعت لـ (رسولا) وكذا قوله: (ويزكيهم) أي يطهرهم من دنس الكفر والذنوب قاله ابن جريج ومقاتل، وقيل: من الشرك وخبائث الجاهلية، وقال السدي: يأخذ زكاة أموالهم، وقيل: يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان، وقال الكرخي: يحملهم على ما يصيرون به أزكياء من حيث العقائد.

(ويعلمهم الكتاب والحكمة) الجملة صفة ثالثة لـ (رسولا)، والمراد." (١)

"(وآخرين منهم) مجرور عطفا على الأميين، أي بعثه في الأميين الذين على عهده، وبعثه في آخرين منهم، أو منصوب عطفا على الضمير المنصوب في يعلمهم، أي ويعلم آخرين، وكل من يعلم شريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى آخر الزمان، فرسول الله صلى الله عليه وسلم معلمه بالقوة لأنه أصل ذلك الخير العظيم، والفضل الجسيم، أو عطفا على مفعول يزكيهم أي يزكيهم ويزكي آخرين والمراد بالآخرين من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة، وقيل: المراد بهم من أسلم من غير العرب، وقال عكرمة: هم التابعون، وقال مجاهد: الناس كلهم وكذا قال ابن زيد والسدي.

(لما يلحقوا بهم) ذلك الوقت وسيلحقون بهم من بعد، وقيل: في السبق إلى الإسلام والشرف والدرجة وهذا النفي مستمر دائما لأن الصحابة لا يلحقهم ولا يساويهم في شأنهم أحد من التابعين، ولا ممن بعدهم، فالمنفي هنا غير متوقع الحصول، ولذلك لما ورد عليه أن لما تنفي ما هو متوقع الحصول، والمنفي هنا ليس كذلك، فسرها المحلي بلم التي منفيها أعم من أن يكون متوقع الحصول أولا فـ (لما) هنا ليست على بابها، والضمير في بهم ومنهم راجع إلى الأميين، وهذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتي بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة، وهو صلى الله عليه وسلم وإن كان مرسلا إلى جميع الثقلين فتخصيص العرب هنا لقصد الامتنان عليهم، وذلك لا ينافي عموم الرسالة ويجوز أن يراد بالآخرين العجم لأنهم." (٢)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٤/١٣٠

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٤/١٣١

"ويشهد له أيضا ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إنما هما نجد الخير ونجد الشر، فلا يكن نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ".

قال الشهاب لا يخفى أنه ذكره في سياق **الامتنان** والمراد **الامتنان** عليه بأن هداه وبين له الطريق فسلكها تارة وعدل عنها أخرى، فلا امتنان عليه بالشر ولذا جعله الإمام بمعنى قوله تعالى: (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) ووصف مكان الخير بالرفعة والنجدية ظاهر بخلاف الشر فإنه هبوط من ذروة الفطرة إلى حضيض الشقوة فهو على سبيل التغليب أو على توهم المخيلة أن فيه صعودا فتدبر انتهى.

قلت **الامتنان** بالهداية إلى سبيل الشر يصح بمعنى أن الله عرف الإنسان طريق الشر ليجتنبه وطريق الخير ليسلكه، ولو لم يعرفه سبيل الشر لما اجتنبه، والأشياء تعرف بأضدادها، **فالامتنان** بهدايته إليه ثابت عقلا. والمعنى بينا ووضحنا له أن سلوك الأول ينجي وأن سلوك الثاني يردي. وأن سلوك الأول ممدوح وأن سلوك الثاني مذموم، فالذي ذكره الشهاب تدفعه الأحاديث المرفوعة المتقدم ذكرها.." (١)

"ولم يقل نشرح صدرك تنبيها على أن منافع الرسالة عائدة عليه صلى الله عليه وآله وسلم كأنه يقول إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي، والمراد **بالامتنان** عليه صلى الله عليه وآله وسلم بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء وحفظ الوحي. وقد مضى القول في هذا عند تفسير قوله (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) قال ابن عباس في الآية شرح الله صدره للإسلام.

قرأ الجمهور نشرح بسكون الحاء بالجزم، وبفتحها قرأ أبو جعفر المنصور العباسي قال الزمخشري قالوا: لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها.

وقال ابن عطية أن الأصل ألم نشرحن بالنون الخفيفة ثم إبدالها ألفا ثم حذفها تخفيفا، وهذا مبني على جواز توكيد المجزوم بلم وهو قليل جدا، وخرجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم ويجزمون بلن، وهذه ما أظنها تصح. وإن صحت فليست من اللغات المعتبرة فإنها جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها.

وعلى كل حال فقراءة هذ الرجل مع شدة جوره ومزيد ظلمه وكثرة جبروته وقلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها.." (٢)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٤٤/١٥

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٩٠/١٥

"إخبار على وجه الامتنان وقيل معناه الوعد بأن من اتقى علمه الله وألهمه وهذا المعنى صحيح ولكن لفظ الآية لا يعطيه لأنه لو كان كذلك لجزم يعلمكم في جواب اتقوا وإن كنتم على سفر الآية لما أمر الله تعالى بكتب الدين جعل الرهن توثيقا للحق عوضا عن الكتابة حيث تتعذر الكتابة في السفر وقال الظاهرية لا يجوز الرهن إلا في السفر لظاهر الاية وأجازه مالك وغيره في الحضر لأن النبي صلى الله عليه وسلم رهن درعه بالمدينة فرهان مقبوضة يقتضي بينونة المرتهن بالرهن وأجمع العلماء على صحة قبض المرتهن وقبض وكيله وأجاز مالك والجمهور وضعه على يد عدل والقبض للرهن شرط في الصحة عند الشافعي وغيره لقوله تعالى مقبوضة وهو عند مالك شرط كمال لا صحة فإن أمن بعضكم بعضا الآية أي إن أمن صاحب الحق المديان لحسن ظنه به فليستغن عن الكتابة وعن الرهن فأمر أولا بالكتابة ثم بالرهن ثم بالائتمان فللدين ثلاثة أحوال ثم أمر المديان بأداء الأمانة ليكون عند ظن صاحبه به ولا تكتموا الشهادة محمول على الوجوب فإنه ... ٩٨." (١)

" ١٠٠ فلا يصح ما ذكره النحاة من اشتقاقهما ووزنهما وأنزل الفرقان يعني القرآن وإنما كرر ذكره ليصفه بأنه الفارق بين الحق والباطل ويحتمل ان يكون ذكره أولا على وجه الإثبات لإنزاله لقوله مصدقا لما بين يديه ثم ذكره ثانيا على وجه الامتنان بالهدى به كما قال في التوراة والانجيل هدى للناس فكأنه قال وأنزل الفرقان هدى للناس ثم حذف ذلك لدلالة الهدى الأول عليه فلما اختلف قصد الكلام في الموضعين لم يكن ذلك تكرارا وقيل الفرقان هنا كل ما فرق بين الحق والباطل من كتاب وغيره وقيل هو الزبور وهذا بعيد لا يخفى عليه شيء خبر عن إحاطة علم الله بجميع الأشياء على التفضيل وهذه صفة لم تكن لعيسى ولا لغيره ففي ذلك رد على النصارى هو الذي يصوركم برهان على إثبات علم الله المذكور قبل وفيه رد على النصارى لأن عيسى لا يقدر على التصوير بل كان مصورا كسائر بني آدم كيف يشاء من طول وقصر وحسن وقبح ولون وغير ذلك منه آيات محكمات المحكم من القرآن هو البين المعنى الثابت الحكم والمتشابه هو الذي يحتاج إلى التأويل أو يكون مستغلق المعنى كحروف الهجاء قال ابن عباس المحكمات الناسخات والحلال والحرام والمتشابهات المنسوخات والمقدم والمؤخر وهو تمثيل لما قلنا هن أم الكتاب أي عمدة ما فيه ومعظمه فأما الذين في قلوبهم زيغ نزلت في نصارى نجران فإنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أليس في كتابك أن عيسى كلمة الله وروح منه قال نعم قالوا فحسبنا إذا فهذا من المتشابه الذي اتبعوه وقيل نزلت في أبي ياسر بن أخطب اليهودي وأخيه حكيم ثم يدخل في ذلك كل كافر

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١/١٨٠

أو مبتدع أو جاهل يتبع المتشابه من القرآن ابتغاء الفتنة أي ليفتنوا به الناس وابتغاء تأويله أي يبتغون أن يتأولوه على ما تقتضي مذاهبهم أو يبتغون أن يصلوا من معرفة تأويله إلى ما لا يصل إليه مخلوق وما يعلم تأويله إلا الله إخبار بانفراد الله بعلم تأويل المتشابه." (١)

" ١٦٤ القمر سريع فإنه يقطع الفلك في شهر والبطيء لا يدرك السريع ولا الليل سابق النهار يعني أن كل واحد منهما جعل الله له وقتا موقتا واحدا معلوما لا يتعداه فلا يأتي الليل حتى ينفصل النهار كما لا يأتي النهار حتى ينفصل الليل ويحتمل أن يريد أن آية الليل وهي القمر لا تسبق آية النهار وهي الشمس أي لا تجتمع معه فيكون المعنى كالذي قيل في قوله لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر فحصل من ذلك أن الشمس لا تجتمع مع القمر وأن القمر لا يجتمع مع الشمس وكل في فلك يسبحون ذكر في الأنبياء وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون معنى المشحون المملوء والفلك هنا يحتمل أن يريد به جنس السفن أو سفينة نوح عليه السلام وأما الذرية فقيل إنه يعني الآباء الذين حملهم الله في سفينة نوح عليه السلام وسمى الآباء ذرية لأنها تناسلت منهم وأنكر ابن عطية ذلك وقال إنه يعني النساء وهذا بعيد وال أظهر أنه أراد بالفلك جنس السفن فيعني جنس بني آدم وإنما خص ذريتهم بالذكر لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة وإن أراد بالفلك سفينة نوح فيعني بالذرية من كان في السفينة وسماهم ذرية لأنهم ذرية آدم ونوح فالضمير في ذريتهم على هذا النوع بني آدم كأنه يقول الذرية منهم وخلقنا لهم من مثله ما يركبون إن أراد بالفلك سفينة نوح فيعني بقوله من مثله سائر السفن التي يركبها سائر الناس وإن أراد بالفلك جنس السفن فيعني بقوله من مثله الإبل وسائر المركوبات فتكون المماثلة على هذا في أنه مركوب لا غير والأول أظهر لقوله وإن نشأ نغرقهم ولا يتصور هذا في المركوبات غير السفن فلا صريخ لهم أي لا مغيث لهم ولا منقذ لهم من الغرق إلا رحمة منا قال الكسائي نصب رحمة على الاستثناء كأنه قال إلا أن نرحمهم وقال الزجاج نصب رحمة على المفعول من أجله كأنه قال إلا لأجل رحمتنا إياهم ومتاعا إلى حين يعني آجالهم." (٢)

"فأما قوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ ، ولم يذكر : (البرد) ، فقد قيل : لأن التنزيل كان بالأرض الحارة فهم يتخوفونه، وقيل : حذف الآخر للعلم به، ويقال : هذا من باب التنبيه؛ فإنه إذا امتن عليهم بما يقي الحر فالامتنان بما يقي البرد أعظم؛ لأن الحر أذي، والبرد بؤس، والبرد الشديد يقتل، والحر قل أن

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١/١٨٥

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢/٤١١

يقع فيه هكذا، فإن باب التنبيه والقياس كما يكون في خطاب الأحكام يكون في خطاب الآلاء وخطاب الوعد والوعيد، كما قلته في قوله : ﴿ وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم

أشد حرا ﴾ [التوبة : ٨١] مثله من يقول : لا تنفروا في البرد فإن جهنم أشد زمهريرا، (ومن اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله علي النار) ، فالوحل والثلج أعظم ونحو ذلك .

وفي الآية شرع لباس جنن الحرب؛ ولهذا قرن من قرن باب اللباس والتحلي بالصلاة؛ لأن للحرب لباسا مختصا مع اللباس المشترك، وطابق قولهم اللباس والتحلي قوله : ﴿ يحلون فيها من

". (١)

"وأيضا، فالمساكن لها منفعتان : إحداهما : السكون فيها لأجل الاستتار، فهي كلباس الزينة من هذا الوجه . والثاني : وقاية الأذي من الشمس والمطر والريح ونحو ذلك، فجمع الله الامتنان بهذين فقال : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ﴾ هذه بيوت المدر [المدر : القرى] ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴾ [النحل : ٨٠] هذه بيوت العمود ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ﴾ [النحل : ٨٠] ، يدخل فيه أهبة البيت من البسط والأوعية والأغطية ونحوها، وقال : ﴿ من بيوتكم سكنا ﴾ ، ولم يقل : من المدر بيوتا كما قال : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ﴾ ؛ لأن السكن بيان منفعة البيت، فبه تظهر النعمة، واتخاذ / البيوت من المدر معتاد، فالنعمة بظهور أثرها؛ بخلاف الأنعام، فإن الهداية إلي اتخاذ البيوت من جلودها أظهر من الهداية إلي نفس اتخاذ البيوت .

". (٢)

"طريقة التشبيه البليغ وبأن أخرج للناس ما فيه إقامة أود حياتهم باجتماع ماء السماء مع قوة الأرض وهو الثمار.

والمراد بالسماء هنا إطلاقها العرفي عند العرب وهو ما يبد وللناظر كالقبة الزرقاء وهو كرة الهواء المحيط بالأرض كما هو المراد في قوله ﴿أو كصيب من السماء﴾ [البقرة: ١٩] وهذا هو المراد الغالب إذا أطلق السماء بالإفراد دون الجمع.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٣٩١/٣

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٣٩٣/٣

ومعنى جعل الأرض فراشا أنها كالفراش في التمكن من الاستقرار والاضطجاع عليها وهو أخص أحوال الاستقرار. والمعني أنه جعلها متوسطة بين شدة الصخور بحيث تؤلم جلد الإنسان وبين رخاوة الحمأة بحيث يتزحزح الكائن فوقها ويسوخ فيها وتلك منة عظيمة.

وأما وجه شبه السماء بالبناء فهو أن الكرة الهوائية جعلها الله حاجزة بين الكرة الأرضية وبين الكرة الأثيرية. فهي كالبناء فيما يراد له البناء وهو الوقاية من الأضرار النازلة، فإن للكرة الهوائية دفعا لأضرار أظهرها دفع ضرر طغيان مياه البحار على الأرض ودفع أضرار بلوغ أهوية تندفع عن بعض الكواكب إلينا وتلطيفها حتى تختلط بالهواء أو صد الهواء إياها عنا مع ما في مشابهة الكرة الهوائية لهيئة القبة، والقبة بيت من أدم مقبب وتسمى بناء، والبناء في كلام العرب ما يرفع سمكه على الأرض للوقاية سواء كان من حجر أو من أدم أو من شعر، ومنه قولهم: بنى على امرأته إذا تزوج، لأن المتزوج يجعل بيتا يسكن فيه مع امرأته وقد اشتهر إطلاق البناء من أدم ولذلك سموا الأدم الذي تبنى منه القباب مبناة بفتح الميم وكسرها، وهذا كقوله في سورة الأنبياء [٣٢] ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا﴾ .

فإن قلت يقتضي كلامك هذا أن الامتنان بجعل السماء كالبناء لوقاية الناس من قبيل المعجزات العلمية التي أشرت إليها في المقدمة العاشرة وذلك لا يدركه إلا الأجيال التي حدثت بعد زمان النزول فماذا يكون حظ المسلمين وغيرهم الذين نزلت بينهم الآية ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ [الحشر: من الآية١٠] في عدة أجيال فإن أهل الجاهلية لم يكونوا يشعرون بأن للسماء خاصية البناء في الوقاية وغاية ما كانوا يتخيلونه أن السماء تشبه سقف القبة كما قالت الأعرابية حين سئلت عن معرفة النجوم: أيجهل أحد خرزات معلقة في سقفه. فتتمخض الآية لإفادة العبرة بذلك الخلق البديع إلا أنه ليس فيه حظ من الامتنان الذي أفاده قوله ﴿لكم﴾ فهل نخص تعلقه بفعل ﴿جعل﴾ المصرح به دون تعلقه بالفعل." (١)

"المطوي تحت واو العطف، أو بجعله متعلقا بقوله: ﴿فراشا﴾ فيكون قوله: ﴿والسماء بناء﴾ معطوفا على معمول فعل الجعل المجرد عن التقييد بالمتعلق.

قلت: هذا يفضي إلى التحكم في تعلق قوله: ﴿لكم﴾ تحكما لا يدل عليه دليل للسامع بل الوجه أن يجعل لكم متعلقا بفعل ﴿جعل﴾ ويكفي في الامتنان بخلق السماء إشعار السامعين لهذه الآية بأن في خلق السماء على تلك الصفة ما في إقامة البناء من الفوائد على الإجمال ليفرضه السامعون على مقدار قرائحهم وأفهامهم ثم يأتي تأويله في قابل الأجيال.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٢٦/١

وحذف ﴿لكم﴾ عند ذكر السماء إيجازا لأن ذكره في قوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا﴾ دليل عليه.

و ﴿جعل﴾ إن كانت بمعنى أوجد فحمل **الامتنان** هو إن كانتا على هذه الحالة وإن كانت بمعنى صير فهي دالة على أن الأرض والسماء قد انتقلتا من حال إلى حال حتى صارتا كما هما. وصار أظهر في معنى الانتقال من صفة إلى صفة وقواعد علم طبقات ال أرض الجيولوجيا تؤذن بهذا الوجه الثاني فيكون في الآية منتان وعبرتان في جعلهما على ما رأينا وفي الأطوار التي انتقلتا فيهما بقدرة الله تعالى وإذنه فيكون كقوله تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما﴾ إلى قوله ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون﴾ [الانبياء:٣٢]

وقد امتن الله وضرب العبرة بأقرب الأشياء وأظهرها لسائر الناس حاضرهم وباديهم وبأول الأشياء في شروط هذه الحياة. وفيهما أنفع الأشياء وهما الهواء والماء النابع من الأرض وفيهما كانت أول منافع البشر، وفي تخصيص الأرض والسماء بالذكر نكتة أخرى وهي التمهيد لما سيأتي من قوله ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ إلخ. وابتدأ بالأرض لأنها أول ما يخطر ببال المعتبر ثم بالسماء لأنه بعد أن ينظر لما بين يديه ينظر إلى ما يحيط به.

وقوله: ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به﴾ الخ هذا امتنان بما يلحق الإيجاد مما يحفظه من الاختلال وهو خلفه لما تتلفه الحرارة الغريزية والعمل العصبي والدماغي من القوة البدنية ليدوم قوام البدن بالغذاء وأصل الغذاء هو ما يخرج من الأرض وإنما تخرج الأرض النبات بنزول الماء عليها من السماء أي من السحاب والطبقات العليا.

واعلم أن كون الماء نازلا من السماء هو أن تكونه يكون في طبقات الجو من آثار." (١)

"البخار الذي في الجو فإن الجو ممتلئ دائما بالأبخرة الصاعدة إليه بواسطة حرارة الشمس من مياه البحار والأنهار ومن نداوة الأرض ومن النبات ولهذا نجد الإناء المملوء ماء فارغا بعد أيام إذا ترك مكشوفا للهواء فإذا بلغ البخار أقطار الجو العالية برد ببرودتها وخاصة في فصل الشتاء فإذا برد مال إلى التميع، فيصير سحابا ثم يمكث قليلا أو كثيرا بحسب التناسب بين برودة الطبقات الجوية والحرارة البخارية فإذا زادت البرودة عليه انقبض السحاب وثقل وتميع فتجتمع فيه الفقاقيع المائية وتثقل عليه فتنزل مطرا وهو ما أشار له قوله تعالى: ﴿وينشئ السحاب الثقال﴾ [الرعد: ١٢]. وكذلك إذا تعرض السحاب للريح الآتية من

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٢٧/١

جهة البحر وهي ريح ندية ارتفع الهواء إلى أعلى الجو فبرد فصار مائعا وربما كان السحاب قليلا فساقت إليه الريح سحابا آخر فانضم أحدهما للآخر ونزلا مطرا، ولهذا غلب المطر بعد هبوب الريح البحرية وفي الحديث إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة. ومن القواعد أن الحرارة وقلة الضغط يزيدان في صعود البخار وفي انبساطه والبرودة وكثرة الضغط يصيران البخار مائعا وقد جرب أن صعود البخار يزداد بقدر قرب الجهة من خط الاستواء وينقص بقدر بعده عنه وإلى بعض هذا يشير ما ورد في الحديث أن المطر ينزل من صخرة تحت العرش فإن العرش هو اسم لسماء من السماوات والصخرة تقريب لمكان ذي برودة وقد علمت أن المطر تنشئه البرودة فيتميع السحاب فكانت البرودة هي لقاح المطر.

و"من" التي في قوله: ﴿من الثمرات﴾ ليست للتبعيض إذ ليس التبعيض مناسبا لمقام **الامتنان** بل إما لبيان الرزق المخرج، وتقديم البيان على المبين شائع في كلام العرب، وإما زائدة لتأكيد تعلق الإخراج بالثمرات.

﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾

أتت الفاء لترتيب هاته الجملة على الكلام السابق وهو مترتب على الأمر بالعبادة ولا ناهية والفعل مجزوم وليست نافية حتى يكون الفعل منصوبا في جواب الأمر من قوله: ﴿اعبدوا ربكم﴾ . والمراد هنا تسببه الخاص وهو حصوله عن دليل يوجبه وهو أن الذي أمركم بعبادته هو المستحق للإفراد بها فهو أخص من مطلق ضد العبادة لأن العبادة عدم العبادة. ولكن لما كان الإشراك للمعبود في العبادة يشبه ترك العبادة جعل ترك الإشراك مساويا لنقيض العبادة لأن الإشراك ما هو إلا ترك لعبادة الله في أوقات تعظيم شركائهم.." (١)

"والأعضاء الرئيسية التي بها تدوم الدورة الدموية، والمراد بالمزاج التركيب الخاص المناسب مناسبة تليق بنوع ما من المركبات العنصرية وذلك التركيب يحصل من تعادل قوى وأجزاء بحسب ما اقتضته حالة الشيء المركب مع انبثاث الروح الحيواني، فباعتدال ذلك التركيب يكون النوع معتدلا ولكل صنف من ذلك النوع مزاج يخصه بزيادة تركيب، ولكل شخص من الصنف مزاج يخصه ويتكون ذلك المزاج على النظام الخاص تنبعث الحياة في ذي المزاج في إبان نفخ الروح فيه وهي المعبر عنها بالروح النفساني. وقد أشار إلى هذا التكوين حديث الترمذي عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٢٨/١

يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح" فأشار إلى حالات التكوين التي بها صار المزاج مزاجا مناسبا حتى انبعثت فيه الحياة، ثم بدوام انتظام ذلك المزاج تدوم الحياة وباختلاله تزول الحياة، وذلك الاختلال هو المعبر عنه بالفساد، ومن أعظم الاختلال فيه اختلال الروح الحيواني وهو الدم إذا اختلت دورته فعرض له فساد، وبعروض حالة توقف عمل المزاج وتعطل آثاره يصير الحي شبيها بالميت كحالة المغمى عليه وحالة العضو المفلوج، فإذا انقطع عمل المزاج فذلك الموت. فالموت عدم والحياة ملكة وكلاهما موجود مخلوق قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ [الملك: من الآية٢].

وليس المقصود من قوله: ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ **الامتنان** بل استدلال محض ذكر شيئا يعده الناس نعمة وشيئا لا يعدونه نعمة وهو الموتتان فلا يشكل وقوع قوله: ﴿أمواتا﴾ وقوله: ﴿ثم يميتكم﴾ في سياق الآية.

وأما قوله: ﴿ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ فذلك تفريع عن الاستدلال وليس هو بدليل إذ المشركون ينكرون الحياة الآخرة فهو إدماج وتعليم وليس باستدلال، أو يكون ما قام من الدلائل على أن هناك حياة ثانية قد قام مقام العلم بها وإن لم يحصل العلم فإن كل من علم وجود الخالق العدل الحكيم ورأي الناس لا يجرون على مقتضى أوامره ونواهيه فيرى المفسد في الأرض في نعمة والصالح في عناء علم أن عدل الله وحكمته ما كان ليضيع عمل عامل وأن هنالك حياة أحكم وأعدل من هذه الحياة تكون أحوال الناس فيها على قدر استحقاقهم وسمو حقائقهم.

وقوله: ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي يكون رجوعكم إليه، شبه الحضور للحساب برجوع السائر إلى منزله باعتبار أن الله خلق الخلق فكأنهم صدروا من حضرته فإذا أحياهم بعد." (١)

"الموت فكأنهم أرجعهم إليه وهذا إثبات للحشر والجزاء.

وتقديم المتعلق على عامله مفيد القصر وهو قصر حقيقي سيق للمخاطبين لإفادتهم ذلك إذ كانوا منكرين ذلك وفيه تأييس لهم من نفع أصنامهم إياهم إذ كان المشركون يحاجون المسلمين بأنه إن كان بعث وحشر فسيجدون الآلهة ينصرونهم.

و ﴿ترجعون﴾ بضم التاء وفتح الجيم في قراءة الجمهور، وقرأه يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم والقراءة الأولى على اعتبار أن الله أرجعهم وإن كانوا كارهين لأنهم أنكروا البعث والقراءة الثانية باعتبار وقوع الرجوع منهم بقطع النظر عن الاختيار أو الجبر.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧١/١

﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾ [البقرة:٢٩]

﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾

هذا إما استدلال ثان على شناعة كفرهم بالله تعالى وعلى أنه مما يقضى منه العجب فإن دلائل ربوبية الله ووحدانيته ظاهرة في خلق الإنسان وفي خلق جميع ما في الأرض فهو ارتقاء في الاستدلال بكثرة المخلوقات، وفصل الجملة السابقة يجوز أن يكون لمراعاة كمال الاتصال بين الجملتين لأن هذه كالنتيجة للدليل الأول لأن في خلق الأرض وجميع ما فيها وفي كون ذلك لمنفعة البشر إكمالا لإيجادهم المشار إليه بقوله: ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ [البقرة: من الآية٢٨] لأن فائدة الإيجاد لا تكمل إلا بإمداد الموجود بما فيه سلامته من آلام الحاجة إلى مقومات وجوده. ويجوز أن يكون ترك العطف لدفع أن يوهم العطف أن الدليل هو مجموع الأمرين فبترك العطف يعلم أن الدليل الأول مستقل بنفسه وفي الأول بعد وفي الثاني مخالفة الأصل لأن أصل الفصل أن لا يكون قطعا على أنه توهم لا يضير. وإما أن يكون قوله: ﴿هو الذي خلق﴾ امتنانا عليهم بالنعم لتسجيل أن إشراكهم كفران بالنعمة أدمج فيه الاستدلال على أنه خالق لما في الأرض من حيوان ونبات ومعادن استدلالا بما هو نعمة مشاهدة كما أشار إليه قوله: ﴿لكم﴾ فيكون الفصل بين الجملتين كما قرر آنفا، ولوم يلتفت إلى ما في هذه الجملة من مغايرة للجملة الأولى بالامتنان لأن ما أدمج فيها من الاستدلال رجح اعتبار الفصل.

والخلق تقدم تفسيره عند قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ [البقرة: ٢١]. والأرض اسم للعالم الكروي المشتمل على البر والبحر. الذي يعمره الإنسان." (١)

"خلق لأجلنا إلا أن خلقه لأجلنا لا يستلزم إباحة استعماله في كل ما يقصد منه بل خلق لنا في الجملة، على أن الامتنان يصدق إذا كان لكل من الناس بعض مما في العالم بمعنى أن الآية ذكرت أن المجموع للمجموع لا كل واحد لكل واحد كما أشار إليه البيضاوي لا سيما وقد خاطب الله بها قوما كافرين منكرا عليهم كفرهم فكيف يعلمون إباحة أو منعا، وإنما محل الموعظة هو ما خلقه الله من الأشياء التي لم يزل الناس ينتفعون بها من وجوه متعددة.

وذهب جماعة إلى أن أصل الأشياء الحظر ونقل عن بعض أهل الحديث وبعض المعتزلة فللمعتزلة الأقوال الثلاثة كما قال القرطبي. قال الحموي في شرح كتاب الأشباه لابن نجيم نقلا عن الإمام الرازي

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧٢/١

وإنما تظهر ثمرة المسألة في حكم الأشياء أيام الفترة قبل النبوة أي فيما ارتكبه الناس من تناول الشهوات ونحوها ولذلك كان الأصح أن الأمر موقوف وأنه لا وصف للأشياء يترتب من أجله عليه ، الثواب والعقاب.

وعندي أن هذا لا يحتاج العلماء إلى فرضه لأن أهل الفترة لا شرع لهم وليس لأفعالهم أحكام إلا في وجوب التوحيد عند قوم. وأما بعد ورود الشرع فقد أغنى الشرع عن ذلك فإن وجد فعل لم يدل عليه دليل من نص أو قياس أو استدلال صحيح فالصحيح أن أصل المضار التحريم والمنافع الحل وهذا الذي اختاره الإمام في المحصول فتصير للمسألة ثمرة باعتبار هذا النوع من الحوادث في الإسلام.

﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾

انتقال من الاستدلال بخلق الأرض وما فيها وهو مما علمه ضروري للناس، إلى الاستدلال بخلق ما هو أعظم من خلق الأرض وهو أيضا قد يغفل عن النظر في الاستدلال به على وجود الله، وذلك خلق السماوات، ويشبه أن يكون هذا الانتقال استطرادا لإكمال تنبيه الناس إلى عظيم القدرة.

وعطفت "ثم" جملة "استوى" على جملة ﴿خلق لكم﴾ . ولدلالة "ثم" على الترتيب والمهلة في عطف المفرد على المفرد كانت في عطف الجملة على الجملة للمهلة في الرتبة وهي مهلة تخييلية في الأصل تشير إلى أن المعطوف بثم أعرق في المعنى الذي تتضمنه الجملة المعطوف عليها حتى كأن العقل يتمهل في الوصول إليه بعد الكلام الأول فينتبه السامع لذلك كي لا يغفل عنه بما سمع من الكلام السابق، وشاع هذا الاستعمال حتى صار كالحقيقة، ويسمى ذلك بالترتيب الرتبي وبترتيب الإخبار بكسر الهمزة كقوله تعالى." (١)

"واعلم أن موقع الدليل بخلق آدم على الوحدانية هو أن خلق أصل النوع أمر مدرك بالضرورة لأن كل إنسان إذا لفت ذهنه إلى وجوده علم أنه وجود مسبوق بوجود أصل له بما يشاهد من نشأة الأبناء عن الآباء فيوقن أن لهذا النوع أصلا أول ينتهي إليه نشؤه، وإذ قد كانت العبرة بخلق ما في الأرض جميعا أدمجت فيها منة وهي قوله: ﴿لكم﴾ [البقرة:٢٩] المقتضية أن خلق ما في الأرض لأجلهم تهيأت أنفسهم لسماع قصة إيجاد منشأ الناس الذين خلقت الأرض لأجلهم ليحاط بما في ذلك من دلائل القدرة مع عظيم المنة وهي منة الخلق التي نشأت عنها فضائل جمة ومنة التفضيل ومنة خلافة الله في الأرض، فكان خلق أصلنا هو أبدع مظاهر إحيائنا الذي هو الأصل في خلق ما في الأرض لنا، فكانت المناسبة في الانتقال إلى

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧٦/١

التذكير به واضحة مع حسن التخلص إلى ذكره خبره العجيب، فإيراد واو العطف هنا لأجل إظهار استقلال هذه القصة في حد ذاتها في عظم شأنها.

و"إذ" من أسماء الزمان المبهمة تدل على زمان نسبة ماضية وقعت فيه نسبة أخرى ماضية قارنتها، ف"إذ" تحتاج إلى جملتين جملة أصلية وهي الدالة على المظروف وتلك هي التي تكون مع جميع الظروف، وجملة تبين الظرف ما هو، لأن "إذ" لما كانت مبهمة احتاجت لما يبين زمانها عن بقية الأزمنة، فلذلك لزمت إضافتها إلى الجمل أبدا، والأكثر في الكلام أن تكون إذ في محل ظرف لزمن الفعل فتكون في محل نصب على المفعول فيه، وقد تخرج "إذ" عن النصب على الظرفية إلى المفعولية كأسماء الزمان المتصرفة على ما ذهب إليه صاحب الكشاف وهو مختار ابن هشام خلافا لظاهر كلام الجمهور، فهي تصير ظرفا مبهما متصرفا، وقد يضاف إليها اسم زمان نحو يومئذ وساعتئذ فتجر بإضافة صورية ليكون ذكرها وسيلة إلى حذف الجملة المضافة هي إليها، وذلك أن "إذ" ملازمة للإضافة فإذا حذف جملتها علم السامع أن هنالك حذفا، فإذا أرادوا أن يحذفوا جملة مع اسم زمان غير "إذ" خافوا أن لا يهتدي السامع لشيء محذوف حتى يتطلب دليله فجعلوا إذ قرينة على إضافة وحذفوا الجملة لينبهوا السامع فيتطلب دليل المحذوف.

وهي في هذه الآية يجوز أن تكون ظرفا وكذلك أعربها الجمهور وجعلوها متعلقة بقوله: ﴿قالوا﴾ وهو يفضي إلى أن يكون المقصود من القصة قول الملائكة وذلك بعيد لأن المقصود من العبرة هو خطاب الله لهم وهو مبدأ العبرة وما تضمنته من تشريف آدم وتعليمه بعد **الامتنان** بإيجاد أصل نوع الناس الذي هو مناط العبرة من قوله: ﴿كيف تكفرون﴾ [البقرة: ٢٨] الآيات، ولأنه لا يتأتى في نظيرها وهو قوله الآتي: ﴿وإذ قلنا." (١)

"﴿أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ [النمل: من الآية٢٧] وقوله الذي ذكرناه آنفا ﴿أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ وهو دليل كنائي واستعمال بلاغي جرى عليه نظم الآية وإن لم يكن يومئذ جمع من الكافرين بل كان إبليس وحيدا في الكفر. وهذا منزع انتزعته من تتبع موارد مثل هذا التركيب في هاتين الخصوصيتين خصوصية زيادة "كان" وخصوصية إثبات الوصف لموصوف بعنوان أنه واحد من جماعة موصوفين به وسيجيء ذلك قريبا عند قوله تعالى ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ [البقرة: ٤٣]

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٨٢/١

وإذ لم يكن في زمن امتناع إبليس من السجود جمع من الكافرين كان قوله ﴿وكان من الكافرين﴾ جاريا على المتعارف في أمثال هذا الإخبار الكنائي.

وفي هذا العدول عن مقتضى الظاهر مراعاة لما تقتضيه حروف الفاصلة أيضا، وقد رتبت الأخبار الثلاثة في الذكر على حسب ترتيب مفهوماتها في الوجود وذلك هو الأصل في الإنشاء أن يكون ترتيب الكلام مطابقا لترتيب مدلولات جمله كقوله تعالى ﴿ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب﴾ [هود:٧٧] وقد أشرت إلى ذلك في كتابي أصول الإنشاء والخطابة.

[٣٥] ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾

عطف على ﴿قلنا للملائكة اسجدوا﴾ [البقرة: ٣٤] أي بعد أن انقضى ذلك قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وهذه تكرمة أكرم الله بها آدم بعد أن أكرمه بكرامة الإجلال من تلقاء الملائكة.

ونداء آدم قبل تخويله سكنى الجنة نداء تنويه بذكر اسمه بين الملأ الأعلى لأن نداءه يسترعي إسماع أهل الملأ الأعلى فيتطلعون لما سيخاطب به، وينتزع من هذه الآية أن العالم جدير بالإكرام بالعيش الهنيء، كما أخذ من التي قبلها أنه جدير بالتعظيم، والأمر بقوله ﴿اسكن﴾ مستعمل في الامتنان بالتمكين والتخويل وليس أمرا له بأن يسعى بنفسه لسكنى الجنة إذ لا قدرة له على ذلك السعي فلا يكلف به.

وضمير "أنت" واقع لأجل عطف ﴿وزوجك﴾ على الضمير المستتر في ﴿اسكن﴾ وهو استعمال العربية عند عطف اسم على ضمير متصل مرفوع المحل لا يكادون يتركونه، يقصدون بذلك زيادة إيضاح المعطوف فتحصل فائدة تقرير مدلول المعطوف لئلا يكون تابعة." (١)

"عقبه: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ [البقرة: ٨٥] فالفاعل والمفعول متغايران.

ومن الناس من حمل الأمر بقتل النفس هنا على معنى القتل المجازي وهو التذليل والقهر على نحو قول امرئ القيس في أعشار قلب مقتل وقوله خمر مقتلة أو مقتولة، أي مذللة سورتها بالماء. قال بجير بن زهير:

إن التي ناولتني فرددتها ... قتلت قتلت فهاتها لم تقتل١

وفيه بعد عن اللفظ بل مخالفة لغرض الامتنان لآت تذليل النفس وقهرها شريعة غير منسوخة.

(١) التحرير والتنوير، ٤١٣/١

والظلم هنا الجناية والمعصية على حد قوله ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان: ١٣]. والفاء في قوله: ﴿فتوبوا﴾ فاء التسبب لأن الظلم سبب في الأمر بالتوبة فالفاء لتفريغ الأمر على الخبر وليست هنا عاطفته عند الزمخشري وابن الحاجب إذ ليس بين الخبر والإنشاء ترتب في الوجود، ومن النحاة من لا يرى الفاء تخرج عن العطف وهو الجاري على عبارات الجمهور مثل صاحب مغنى اللبيب فيجعل ذلك عطف إنشاء على خبر ولا ضير في ذلك. وذكر التوبة تقدم في قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ [البقرة: ٣٧].

والفاء في قوله: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ ظاهرة في أن قتلهم أنفسهم بيان للتوبة المشروعة له فتكون الفاء للترتيب الذكري وهو عطف مفصل على مجمل كقوله تعالى: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾ [النساء: من الآية١٥٣] كما في مغنى اللبيب وهو يقتضي أنها تفيد الترتيب لا التعقيب. وأما صاحب الكشاف فقد جوز فيه وجهين أحدهما تأويل الفعل المعطوف عليه بالعزم على الفعل فيكون ما بعده مرتبا عليه ومعقبا وهذا الوجه لم يذكره صاحب المغنى وهذا لا يتأتى في قوله تعالى: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا﴾ . وثانيهما جعل التوبة المطلوبة شاملة لأقوال وأعمال آخرها قتلهم أنفسهم فتكون

–

١ ومن معنى القتل في التذليل جاء معنى مجازي آخر وهو إطلاق القتل على إتقان العمل لأن في الإتقان تذليلا للمصنوع من ذلك قولهم قتل اللسان علما، وفرى الدهر خبرة وقوله تعالى: ﴿وما قتلوه يقينا﴾ [النساء: ١٥٧] على وجه.." (١)

"مجاز لغير الترتب على أسلوب قولك: أنعمت عليه فكفر.

ولك أن تقول إن أصل معنى الفاء العاطفة الترتيب والتعقيب لا غير وهو المعنى الملازم لها في جميع مواقع استعمالها فإن الاطراد من علامات الحقيقة. وأما الترتب أي السببية فأمر عارض لها فهو من المجاز أو من مستتبعات التراكيب ألا ترى أنه يوجد تارة ويتخلف أخرى فإنه مفقود في عطف المفردات نحو جاء زيد فعمرو وفي كثير من عطف الجمل نحو قوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك﴾ [ق: ٢٢] فلذلك كان معنى السببية حيثما استفيد محتاجا إلى القرائن فإن لم تتطلب له علاقة قلت هو من مستتبعات تراكيب بقرينة المقام وإن تطلبت له علاقة–وهي لا تعوزك–قلت هو مجاز لأن أكثر

---

(١) التحرير والتنوير، ٤٨٧/١

الأمور الحاصلة عقب غيرها يكون موجب التعقيب فيها هو السببية ولو عرفا ولو ادعاء فليس خروج الفاء عن الترتب هو المجاز بل الأمر بالعكس.

ومما يدل على أن حقيقة الفاء العاطفة هو الترتيب والتعقيب فقط أن بعض البيانيين جعلوا قوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا﴾ [القصص: ٨] اللام فيه مستعارة لمعنى فاء التعقيب أي فكان لهم عدوا فجعلوا الفاء حقيقة في التعقيب ولو كانت للترتيب لساوت اللام فلم تستقم الاستعارة فيكون الوجه الحامل للزمخشري على تقدير المحذوف مقترنا بالفاء هو أنه رأى عطف الظلم على ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ وما بعده بالواو ولا يحسن لعدم الجهة الجامعة بين **الامتنان** والذم والمناسبة شرط في قبول الوصل بالواو بخلاف العطف بالفاء، فتعين إما تقدير ظلموا مستأنفا بدون عطف وظاهر أنه ليس هنالك معنى على الاستئناف وإما ربط ظلموا بعاطف سوى الواو وليس يصلح هنا غير الفاء لأن المعطوف حصل عقب المعطوف عليه فكان ذلك التعاقب في الخارج مغنيا عن الجهة الجامعة ولذلك كانت الفاء لا تستدعي قوة مناسبة كمناسبة الواو ولكن مناسبة في الخيال فقط وقد وجدت هنا لأن كون المعطوف حصل في الخارج عقب المعطوف عليه مما يجعله حاضرا في خيال الذي يتكلم عن المعطوف عليه، وأما قبح نحو قولك جاء زيد فصاح الديك فلقلة جدوى هذا الخبر ألا تراه يصير حسنا لو أردت بقولك فصاح الديك معنى التوقيت بالفجر فبهذا ظهر أنه لم يكن طريق لربط الظلم المقدر بالفعلين قبله إلا الفاء.

وفي ذلك الإخبار والربط والتصدي لبيانه مع غرابة هذا التعقيب تعريض بمذمتهم إذ قابلوا الإحسان بالكفران وفيه تعريض بغباوتهم إذ صدفوا عن الشكر كأنهم ينكون." (١)

"الاختصاص كقوله تعالى: ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ [هود:٩١] ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ [هود:٢٩] ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ [الأنعام:١٠٧] فالوجه أن تقديم المسند إليه على المسند المشتق لا يفيد بذاته التخصيص وقد يستفاد من بعض مواقعه معنى التخصيص بالقرائن، وليس في قوله تعالى: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ ما يفيد التخصيص ولا ما يدعو إليه.

[١٦٨، ١٦٩] ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾

استئناف ابتدائي هو كالخاتمة لتشويه أحوال أهل الشرك من أصول دينهم وفروعه التي ابتدأ الكلام فيها من قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة﴾ [البقرة:١٦١]

---

(١) التحرير والتنوير، ٤٩٤/١

الآية، إذ ذكر كفرهم إجمالا ثم أبطله بقوله: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ [البقرة:١٦٣] واستدل على أبطاله بقوله: ﴿إن في خلق السماوات والأرض﴾ [البقرة:١٦٤] الآيات ثم وصف كفرهم بقوله: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله﴾ [البقرة:١٦٥]، ووصف حالهم وحسراهم يوم القيامة، فوصف هنا بعض مساوئ دين أهل الشرك فيما حرموا على أنفسهم مما أخرج الله لهم من الأرض، وناسب ذكره هنا أنه وقع بعد ما تضمنه الاستدلال على وحدانية الله والامتنان عليهم بنعمته بقوله :﴿إن في خلق السماوات والأرض﴾ إلى قوله: ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة﴾ [البقرة:١٦٤] الآية، وهو تمهيد وتلخيص لما يعقبه من ذكر شرائع الإسلام في الأطعمة وغيرها التي ستأتي من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ [البقرة:١٧٢].

فالخطاب بيا أيها الناس موجه إلى المشركين كما هو شأن خطاب القرآن بيا أيها الناس.

والأمر في قوله: ﴿كلوا مما في الأرض﴾ مستعمل في التوبيخ على ترك ذلك وليس للوجوب ولا للإباحة، إذ ليس الكفار بأهل للخطاب بفروع الشريعة فقوله: ﴿كلوا﴾ تمهيد لقوله بعده ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾.

وقوله: ﴿حلالا طيبا﴾ تعريض بتحميقهم فيما اعتنوا به أنفسهم فحرموها من نعم طيبة افتراء على الله، وفيه إيماء إلى علة إباحته في الإسلام وتعليم للمسلمين بأوصاف الأفعال التي هي مناط الحل والتحريم.." (١)

"وجدتموهم لا يعقلون؛ لأنهم كالأنعام والصم والبكم الخ، وإن كان راجعا للأصنام فالاستنتاج للتنبيه على غباوة المشركين الذين عبدوها. ومجيء الضمير لهم بضمير العقلاء تهكم بالمشركين لأنهم جعلوا الأصنام في أعلى مراتب العقلاء كما تقدم.

[١٧٢] ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ اعتراض بخطاب المسلمين بالامتنان عليهم بإباحة ما في الأرض من الطيبات جرت إليه مناسبة الانتقال، فقد انتقل من توبيخ أهل الشرك على أن حرموا ما خلقه الله من الطيبات إلى تحذير المسلمين من مثل ذلك مع بيان ما حرم عليهم من المطعومات، وقد أعيد مضمون الجملة المتقدمة جملة ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض﴾ [البقرة:١٦٨] بمضمون جملة: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ليكون خطاب المسلمين مستقلا بنفسه، ولهذا كان الخطاب هنا بيا أيها الذين آمنوا، والكلام على الطيبات تقدم قريبا.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/١٠٠

وقوله: ﴿واشكروا لله﴾ معطوف على الأمر بأكل الطيبات الدال على الإباحة **والامتنان**، والأمر في ﴿اشكروا﴾ للوجوب لأن شكر المنعم واجب.

وتقدم وجه تعدية فعل الشكر بحرف اللام عند قوله تعالى: ﴿واشكروا لي﴾ [البقرة:١٥٢].

والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر لأن في الاسم الظاهر إشعارا بالإلهية فكأنه يومئ إلى ألا تشكر الأصنام؛ لأنها لم تخلق شيئا مما على الأرض باعتراف المشركين أنفسهم فلا تستحق شكرا. وهذا من جعل اللقب ذا مفهوم بالقرينة، إذ الضمير لا يصلح لذلك إلا في مواضع.

ولذلك جاء بالشرط فقال: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي اشكروه على ما رزقكم إن كنتم ممن يتصف بأنه لا يعبد إلا الله أي إن كنتم هذا الفريق وهذه سجيتكم، ومن شأن كان إذا جاءت وخبرها جملة مضارعية أن تدل على الاتصاف بالعنوان لا على الوقوع بالفعل مثل قوله: ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ [يوسف:٤٣] أي إن كان هذا العلم من صفاتكم، والمعنى إن كنتم لا تشركون معه في العبادة غيره فاشكروه وحده.

فالمراد بالعبادة هنا الاعتقاد بالإلهية والخضوع والاعتراف وليس المراد بها الطاعات الشرعية. وجواب الشرط محذوف أغنى عنه ما تقدمه من قوله: ﴿واشكروا﴾

[١٧٣] ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله." (١)

"والعدوان بين الأمة، وهي أيضا إيماء إلى حد الضرورة وهي الحاجة التي يشعر عندها من لم يكن دأبه البغي والغدوان بأنه سيبغي ويعتدى وهذا تحديد منضبط، فإن الناس متفاوتون في تحمل الجوع ولتفاوت الأمزجة في مقاومته، ومن الفقهاء من يحدد الضرورة بخشية الهلاك ومرادهم الإفضاء إلى الموت والمرض وإلا فإن حالة الإشراف على الموت لا ينفع عندها الأكل، فعلم أن نفي الإثم عن المضطر فيما يتناوله من هذه المحرمات منوط بحالة الاضطرار، فإذا تناول ما أزال به الضرورة فقد عاد التحريم كما كان، فالجائع يأكل من هاته المحرمات إن لم يجد غيرها أكلا يغنيه عن الجوع وإذا خاف أن تستمر به الحاجة كمن توسط فلاة في سفر أن يتزود من بعض هاته الأشياء حتى إن استغنى عنها طرحها، لأنه لا يدري هل يتفق له وجدانها مرة أخرى،

ومن عجب الخلاف بين الفقهاء أن ينسب إلى أبي حنيفة والشافعي أن المضطر لا يشبع ولا يتزود خلافا لمالك في ذلك والظاهر أنه خلاف لفظي والله تعالى يقول: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ في معرض **الامتنان** فكيف يأمر الجائع بالبقاء على بعض جوعه ويأمر السائر بالإلقاء بنفسه إلى التهلكة إن لم يتزود،

(١) التحرير والتنوير، ١١٣/٢

وقد فسر قوله: ﴿غير باغ ولا عاد﴾ بتفاسير أخرى: فمن الشافعي أنه غير الباغي والعادي على الإمام لا عاص بسفره فلا رخصة له فلا يجوز له أكل ذلك عند الاضطرار فأجاب المالكية: بأن عصيانه بالسفر لا يقتضي أن يؤمر بمعصية أكبر وهي إتلاف نفسه بترك أكل ما ذكر وهو إلجاء مكين.

ومما اختلفوا في قياسه على ضرورة الجوع ضرورة التداوي، فقيل لا يتداوى بهاته المحرمات ولا بشيء مما حرم الله كالخمر وهذا قول مالك والجمهور، ولم يزل الناس يستشكلونه لاتحاد العلة وهي حفظ الحياة، وعندي أن وجهه أن تحقق العلة فيه منتف إذ لم يبلغ العلم بخصائص الأدوية ظن نفعها كلها إلا ما جرب منها، وكم من أغلاط كانت للمتطببين في خصائص الدواء، ونقل الفخر عن بعضهم إباحة تناول المحرمات في الأدوية، وعندي أنه إذا وقع قوة ظن الأطباء الثقات بنفع الدواء المحرم من مرض عظيم وتعينه أو غلب ذلك في التجربة فالجواز قياسا على أكل المضطر وإلا فلا١.

_

١ انظر "حاشية ابن عابدين"٤/١١٣-٢١٥"، "حاشية الدسوقي"٤/٣٥٣-٣٥٤"، "الفوكه الدواني""٢/٤٤١"، "حواشي الشرواني وابن قاسم على "التحفة""٩/١٧٠" "قليوبي وعميرة" "٣/٢٠٣"، "كشاف القناع" "٢/٧٦، ٦/١١٦، ٢٠٠"، "الإنصاف" "٢/٤٦٣-٤٧٤"ن "الفروع" "٢/١٦٥" وما بعدها.." (١)

"وقرأ أبو جعفر: ﴿فمن اضطر﴾ بكسر الطاء، لأن أصله اضطرر براءين أولاهما مكسورة فلما أريد إدغام الراء الأولى في الثانية نقلت حركتها إلى الطاء بعد طرح حركة الطاء.

وقوله: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ تذييل قصد به **الامتنان**، أي إن الله موصوف بهذين الوصفين فلا جرم أن يغفر للمضطر أكل الميتة لأنه رحيم بالناس، فالمغفرة هنا بمعنى التجاوز عما تمكن المؤاخذة عليه لا بمعنى تجاوز الذنب، ونحوه قوله صلى الله عليه وسلم في رؤيا القليب: "وفي نزعه ضعف والله يغفر له". ومعنى الآية: أن رفع الإثم عن المضطر حكم يناسب من اتصف بالمغفرة والرحمة.

[١٧٤] ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾

عود إلى محاجة أهل الكتاب لاحق بقوله تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ [البقرة:١٥٩] بمناسبة قوله: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم﴾ [البقرة:١٧٣] تحذيرا للمسلمين مما أحدثه

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/١٢٠

اليهود في دينهم من تحريم بعض ما أحل الله لهم، وتحليل بعض ما حرم الله عليهم؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا التوسيع والتضييق تركوا أن يقرؤوا من كتابهم ما غيروا العمل بأحكامه كما قال تعالى: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا﴾ [الأنعام:٩١] كما فعلوا في ترك قراءة حكم رجم الزاني في التوراة حين دعا النبي صلى الله عليه وسلم أحد اليهود ليقرأ ذلك الحكم من التوراة فوضع اليهودي يده على الكلام الوارد في ذلك كما أخرجه البخاري في كتاب الحدود ولجريانه على مناسبة إباحة ما أبيح من المأكولات جاء قوله هنا: ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ [البقرة:١٧٤] لقصد المشاكلة.

وفي هذا تهيئة للتخلص إلى ابتداء شرائع الإسلام؛ فإن هذا الكلام فيه إبطال لما شرعه أهل الكتاب في دينهم فكون التخلص ملونا بلوني الغرض السابق والغرض اللاحق.

وعدل عن تعريفهم بغير الوصول إلى الموصول لما في الصلة من الإيماء إلى سبب الخير وعلته نحو قوله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [غافر:٦٠].

والقول في الكتمان تقدم عند قوله تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات." (١)

"ولا يشربونها لقصد التقوى لقلة هذا القصد من شربها.

وفي سفر اللاويين من التوراة "وكلم الله هارون قائلا: خمرا ومسكرا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لكي لا تموتوا. فرضا دهريا في أجيالكم. وللتمييز بين المقدس والمحلل وبين النجس والطاهر".

وشيوع شرب الخمر في الجاهلية معلوم لمن علم أدبهم وتاريخهم فقد كانت الخمر قوام أود حياتهم، وقصارى لذاتهم ومسرة زمانهم وملهى أوقاتهم، قال طرفة:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة ... كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وعن أنس بن مالك: "حرمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر". فلا جرم أن جاء الإسلام في تحريمها بطريقة التدريج فأقر حقبة إباحة شربها وحسبكم في هذا الامتنان بذلك في قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا﴾ [النحل:٦٧] على تفسير من فسر السكر بالخمر، وقيل السكر: هو النبيذ غير المسكر، والأظهر التفسير الأول.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢١/٢

وآية سورة النحل نزلت بمكة، واتفق أهل الأثر على أن تحريم الخمر وقع في المدينة بعد غزوة الأحزاب بأيام، أي في آخر سنة أربع أو سنة خمس على الخلاف في عام غزوة الأحزاب. والصحيح الأول، فقد امتن الله على الناس بأن اتخذوا سكرا من الثمرات التي خلقها لهم، ثم إن الله لم يهمل رحمته بالناس حتى في حملهم على مصالحهم فجاءهم ذي ذلك بالتدريج، فقيل: إن آية سورة البقرة هذه هي أول آية آذنت بما في الخمر من علة التحريم، وأن سبب نزولها ما تقدم، فيكون وصفها بما فيها من الإثم والمنفعة تنبيها لهم، إذ كانوا لا يذكرون إلا محاسنها فيكون تهيئة لهم إلى ما سيرد من التحريم، قال البغوي: إنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تقدم في تحريم الخمر" أي ابتدأ يهيء تحريمها يقال: تقدمت إليك في كذا أي عرضت عليك، وفي "تفسير ابن كثير": أنها ممهدة لتحريم الخمر على البنات ولم تكن مصرحة بل معرضة أي معرضة بالكف عن شربها تنزها.

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية: نزلت قبل آية سورة النساء وقبل آية سورة المائدة، وهذا رأي عمر بن الخطاب كما روى أبو داود، وروى أيضا عن ابن عباس أنه رأى أن آية المائدة نسخت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء:٤٣] ونسخت آية ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾، ونسب لابن عمر والشعبي." (١)

"وجوه هذه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة:١٤٣].

أو الإشارة راجعة إلى البيان الواقع في قوله تعالى: ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ [البقرة:٢١٩] إلى قوله: ﴿العفو﴾، وقرن اسم الإشارة بعلامة البعد تعظيما لشأن المشار إليه لكماله في البيان، إذ هو بيان للحكم مع بيان علته حتى تتلقاه الأمة بطيب نفس، وحتى يلحقوا به نظائره، وبيان لقاعدة الإنفاق بما لا يشذ عن أحد من المنفقين، ولكون الكاف لم يقصد بها الخطاب بل مجرد البعد الاعتباري للتعظيم لم يؤت بها على مقتضى الظاهر من خطاب الجماعة قلم يقل كذلكم على نحو قوله: ﴿يبين الله لكم﴾.

واللام في ﴿لكم﴾ للتعليل والأجل وهو امتنان وتشريف بهذه الفضيلة لإشعاره بأن البيان على هذا الأسلوب مما اختصت به هاته الأمة ليتلقوا التكاليف على بصيرة بمنزلة الموعظة التي تلقي إلى كامل العقل موضحة بالعواقب، لأن الله أراد لهاته الأمة أن يكون علماؤها مشرعين.وبين فائدة هذا البيان على هذا الأسلوب بقوله: ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ أي ليحصل للأمة تفكر وعلم في أمور الدنيا وأمور الآخرة، لأن التفكر مظروف في الدنيا ﴿والآخرة﴾، فتقدير المضاف لازم بقرينة قوله والآخرة إذ لا معنى

(١) التحرير والتنوير، ٣٢٢/٢

لوقوع التفكر يوم القيامة فلو اقتصر على بيان الحظر والوجوب والثواب والعقاب لكان بيانا للتفكر في أمور الآخرة خاصة ولو اقتصر على بيان المنافع والمضار بأن قيل: قل فيهما نفع وضر لكان بيانا للتفكر في أمور الدنيا خاصة، ولكن ذكر المصالح والمفاسد والثواب والعقاب تذكير بمصلحتي الدارين، وفي هذا تنويه بشأن إصلاح أمور الأمة في الدنيا، ووقع في كلام لعلي بن أبي طالب وقد ذم رجل الدنيا عنده قال له الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها ومهبط وحي الله ومصلى ملائكته ومسجد أنبيائه فمن ذا الذي يذمها وقد آذنت بينها ،الخ. ولا يخفى أن الذي يصلح للتفكر هو الحكم المنوط بالعلة وهو حكم الخمر والميسر ثم ما نشأ عنه قوله: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾.

ويجوز أن يكون الإشارة بقوله: ﴿كذلك﴾ لكون الإنفاق من العفو وهو ضعيف، لأن ذلك البيان لا يظهر فيه كمال **الامتنان** حتى يجعل نموذجا لجليل البيانات الإلهية وحتى يكون محل كمال **الامتنان** وحتى تكون غايته التفكر في الدنيا والآخرة، ولا يعجبكم كونه أقرب لاسم الإشارة، لأن التعلق بمثل هاته الأمور اللفظية في نكت الإعجاز إضاعة للألباب وتعلق بالقشور.." (١)

"الميل إلى مفاسد كثيرة، ولأن طبع النفوس الشريرة ألا تراعي مضرة غيرها، بخلاف النفوس الصالحة، فالنفوس الشريرة أعمد إلى انتهاك حرمات غيرها، ولأن الأعمال الفاسدة أسرع في حصول آثارها، وانتشارها، فالقليل منها يأتي على الكثير من الصالحات، فلا جرم لولا دفاع الناس بأن يدافع صالحهم المفسدين، لأسرع ذلك في فساد حالهم، ولعم الفساد أمورهم في أسرع وقت.

وأعظم مظاهر هذا الدفاع هو الحروب؛ فبالحرب الحائرة يطلب المحارب غصب منافع غيره، وبالحرب العادلة ينتصف المحق من المبطل، ولأجلها تتألف العصبيات والدعوات إلى الحق، والإنحاء على الظالمين، وهزم الكافرين.

ثم إن دفاع الناس بعضهم بعضا يصد المفسد عن محاولة الفساد، ونفس شعور المفسد يتأهب غيره لدفاعه بصده عن اقتحام مفاسد جمة.

ومعنى فساد الأرض: إما فساد الجامعة البشرية. كما دل عليه تعليق الدفاع بالناس، أي لفسد أهل الأرض، وإما فساد جميع ما يقبل الفساد، فيكون في الآية احتباك، والتقدير: ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض وبقية الموجودات بعضها ببعض لفسدت الأرض: أي من على الأرض ولفسد الناس.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٣٣٥

والآية مسوقة مساق **الامتنان**، فلذلك قال تعالى: ﴿لفسدت الأرض﴾ لأنا لا نحب فساد الأرض: إذ في فسادها بمعنى فساد ما عليها اختلال نظامنا، وذهاب أسباب سعادتنا، ولذلك عقبه بقوله: ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ فهو استدراك مما تضمنته "لولا" من تقدير انتفاء الدفاع؛ لأن أصل "لولا" "لو" مع "لا" النافية: أي لو كان انتفاء الدفاع موجودا لفسدت الأرض وهذا الاستدراك في هذه الآية أدل دليل على تركيب "لولا" من "لو" و"لا": إذ لا يتم الاستدراك على قوله: ﴿لفسدت الأرض﴾ لأن فساد الأرض غير واقع بعد فرض وجود الدفاع، إن قلنا "لولا" حرف امتناع لوجود.

وعلق الفضل بالعالمين كلهم لأن هذه المنة لا تختص.

[٢٥٢] ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾

الإشارة إلى ما تضمنته القصص الماضية وما فيها من العبر، ولكن الحكم العالية في قوله: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ [البقرة:٢٥١]، وقد نزلها منزلة المشاهد لوضوحها وبيانها وجعلت آيات لأنها دلائل على عظم تصرف الله تعالى وعلى سعة علمه.." (١)

"وقوله ﴿نزل عليك الكتاب﴾ خبر عن اسم الجلالة. والخبر هنا مستعمل في **الامتنان**، أو هو تعريض ونكاية بأهل الكتاب: الذين أنكروا ذلك. وجيء بالمسند فعلا لإفادة تقوية الخبر، أو للدلالة مع ذلك على الاختصاص: أي الله لا غيره نزل عليك الكتاب إبطالا لقول المشركين: إن القرآن من كلام الشيطان، أو من طرائق الكهانة، أو يعلمه بشر.

والتضعيف في ﴿نزل﴾ للتعدية فهو يساوي الهمز في أنزل، وإنما التضعيف يؤذن بقوة الفعل في كيفيته أو كميته، في الفعل المتعدي بغير التضعيف، من أجل أنهم قد أتوا ببعض الأفعال المتعدية، للدلالة على ذلك، كقولهم: فسر وفسر، وفرق وفرق، وكسر وكسر، كما أتوا بأفعال قاصرة بصيغة المضاعفة، دون تعدية للدلالة على قوة الفعل، كما قالوا: مات وموت وصاح وصيح. فإما إذا صار التضعيف للتعدية فلا أوقن بأنه يدل على تقوية الفعل، إلا أن يقال: إن العدول عن التعدية بالهمز، إلى التعدية بالتضعيف، بقصد ما عهد في التضعيف من تقوية معنى الفعل، فيكون قوله ﴿نزل عليك الكتاب﴾ أهم من قوله ﴿وأنزل التوراة﴾ على عظم شأن نزول القرآن، وقد بينت ذلك مستوفى في المقدمة الأولى من هذا التفسير، ووقع في "الكشاف" ، هنا وفي مواضع متعددة، أن قال: إن نزل يد على التنجيم وإن أنزل يدل على أن الكتابين أنزلا جملة واحدة وهذا لا علاقة له بمعنى التقوية المدعى للفعل المضاعف، إلا أن يعني أن نزل مستعمل

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٤٨٠

في لازم التكثير، وهو التوزيع ورده أبو حيان بقول تعالى ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ [الفرقان:٣٢] نزل عليك القرءان جملة واحدة فجمع بين التضعيف وقوله ﴿جملة واحدة﴾ . وأزيد أن التوراة والإنجيل نزلا مفرقين كشأن كل ما ينزل على الرسل في مدة الرسالة، وهو الحق؛ إذ لا يعرف أن كتابا نزل على رسوله دفعة واحدة. والكتاب: القرآن. والباء في قوله ﴿بالحق﴾ للملابسة، ومعنى ملابسته للحق اشتماله عليه في جميع ما يشتمل عليه من المعاني قال تعالى ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ [الإسراء:١٠٥].

ومعنى ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ أنه مصدق للكتب السابقة له، وجعل السابق بين يديه: لأنه يجيء قبله. فكأنه يمشي أمامه.

والتوراة اسم للكتاب المنزل على موسى عليه السلام. وهو اسم عبراني أصلة طورا بمعنى الهدي، والظاهر أنه اسم للألواح التي فيها الكلمات العشر التي نزلت على موسى عليه السلام في جبل الطور؛ لأنها أصل الشريعة التي جاءت في كتب موسى، فأطلق ذلك." (١)

"تعلم بأن الله جاعل لها مخرجا وأنه لا يخزيها.

وقوله: ﴿وما كنت لديهم﴾ إيماء إلى خلو كتبهم عن بعض ذلك، وإلا لقال: وما كنت تتلو كتبهم مثل وما كنت تتلو من قبله من كتاب أي إنك تخبرهم عن أحوالهم كأنك كنت لديهم.

وقوله: ﴿إذ يلقون أقلامهم﴾ وهي الأقلام التي يكتبون بها التوراة كانوا يقترعون بها في المشكلات: بأن يكتبوا عليها أسماء المقترعين أو أسماء الأشياء المقترع عليها، والناس يصيرون إلى القرعة عند انعدام ما يرجح الحق، فكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام وجعل اليهود الاقتراع بالأقلام التي يكتبون بها التوراة في المدارس رجاء أن تكون بركتها مرشدة إلى ما هو الخير. وليس هذا من شعار الإسلام وليس لإعمال القرعة في الإسلام إلا مواضع تمييز الحقوق المتساوية من كل الجهات وتفصيله في الفقه. وأشارت الآية إلى أنهم تنازعوا في كفالة مريم حين ولدتها أمها حنة، إذ كانت يتيمة كما تقدم فحصل من هذا الامتنان إعلام بأن كفالة زكريا مريم كانت بعد الاستقسام وفيه تنبيه على تنافسهم في كفالتهم.

﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ [٤٥] ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين﴾ [٤٦].

---

(١) التحرير والتنوير، ٣/٩

بدل اشتمال من جملة ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك﴾ [آل عمران: ٤٢] قصد منه التكرير لتكميل المقول بعد الجمل المعترضة. ولكونه بدلا لم يعطف على إذ قالت الأول. وتقدم الكلام على يبشرك.

والكلمة مراد بها كلمة التكوين وهي تعلق القدرة التنجيزي كما في حديث خلق الإنسان من قوله "ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله" الخ.

ووصف عيسى بكلمة مراد به كلمة خاصة مخالفة للمعتاد في تكوين الجنين أي بدون الأسباب المعتادة.

وقوله: ﴿منه﴾ من للابتداء المجازي أي بدون واسطة أسباب النسل المعتادة وقد دل على ذلك قوله: ﴿إذا قضى أمرا﴾ [البقرة: ١١٧].." (١)

"وتوارثوا خره أبا عن جد من نزول الحجر الأسود من السماء على أبي قبيس بمرأى إبراهيم، ولعله حجر كوكبي. ومنها تيسير الرزق لساكنيه مع قحولة أرضه، وملوحة مائه.

وقوله: ﴿مقام إبراهيم﴾ أصل المقام أنه مفعل من القيام، والقيام يطلق على المعنى الشائع وهو ضد القعود، ويطلق على خصوص القيام للصلاة والدعاء، فعلى الوجه الثاني فرفع مقام على انه خبر لضمير محذوف يعود على ﴿للذي ببكة﴾ ، أي هو مقام إبراهيم: أي البيت الذي ببكة. وحذف المسند إليه هنا جاء على الحذف الذي سماه علماء المعاني، التابعين لاصطلاح السكاكي، بالحذف للاستعمال الجاري على تركه، وذلك في الرفع على المدحن أو الذم، أو الترحم، بعد أن يجري على المسند إليه من الأوصاف قبل ذلك ما يبين المراد منه كقول أبي الطمحان القيني:

فإن بني لأم بن عمرو أرومة ... سمت فوق صعب لا تنال مراقبه

نجوم سماء كلما انقض كوكب ... بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

هذا هو الوجه في موقع قوله تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ .

وقد عبر عن المسجد الحرام بأنه مقام إبراهيم أي محل قيامه للصلاة والطواف قال تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ [البقرة: ١٢٥] ويدل لذلك قوله زيد بن عمرو بن نفيل:

عذت بما عاذ به إبراهيم ... مستقبل الكعبة وهو قائم

(١) التحرير والتنوير، ٩٦/٣

وعلى الوجه الأول يكون المراد الحجر الذي فيه أثر قدمي إبراهيم عليه السلام في الصخرة التي ارتقى عليها ليرفع جدران الكعبة، وبذلك فسر الزجاج، وتبعه على ذلك الزمخشري، وأجاب الزمخشري عما يعترض به من لزوم تبين الجمع بالمفرد بأن هذا المفرد في قوة جماعة من الآيات، لأن أثر القدم في الصخرة آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانه بعض الصخر دون بعض آية، وأنا أقول: إنه آيات لدلالته على نبوة إبراهيم بمعجزة له وعلى علم الله وقدرته، وان بقاء ذلك الأثر مع تلاشي آثار كثيرة في طيلة القرون آية أيضا.

وقوله: ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ عطف على مزايا البيت وفضائله من الأمن فيه على العموم، وامتنان بما تقرر في ماضي العصور، فهو خبر لفظا مستعمل في الامتنان، فان الأمن فيه قد تقرر واطرد، وهذا الامتنان كما امتن الله على الناس بأنه خلق لهم أسماعا." (١)

"أي ولم يذكر الثلث الثالث.

وهو تنظير ضعيف لأن بيت جرير ظهر منه الثلث الثالث، فهم الصميم، بخلاف الآية فان بقية الآيات لم يعرف. ويجوز أن نجعل قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ الخ متضمنا الثالثة من الآيات البينات.

﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾

حكم أعقب به الامتنان: لما في هذا الحكم من التنويه بشأن البيت فلذلك حسن عطفه. والتقدير: مباركا، وهدى، وواجبا حجه. فهو عطف على الأحوال.

والحج تقدم عند قوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ في سورة البقرة [١٩٧]، وفيه لغتان فتح الحاء وكسرها ولم يقرأ في جميع مواقعه في القرآن بكسر الحاء إلا في هذه الآية: قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر بكسر الحاء.

ويتجه أن تكون هذه الآية هي التي فرض بها الحج على المسلمين، وقد استدل بها علماؤنا على فرضية الحج، فما كان يقع من حج النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قبل نزولها، فإنما كان تقربا إلى الله، واستصحابا للحنفية. وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم حج مرتين بمكة قبل الهجرة ووقف مع الناس، فأما أيجاب الحج في الشريعة الإسلامية فلا دليل على وقوعه إلا هذه الآية وقد تمالأ علماء الإسلام على الاستدلال بها على وجوب الحج، فلا يعد ما وقع من الحج قبل نزولها، وبعد البعثة إلا تحنثا وتقربا،

---

(١) التحرير والتنوير، ٣/١٦٣

وقد صح أنها نزلت سنة ثلاث من الهجرة، عقب غزوة أحد، فيكون الحج فرض يومئذ. وذكر القرطبي الاختلاف في وقت فرضية الحج على ثلاثة أقوال: فقيل: سنة خمس، وقيل: سنة خمس، وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة تسع، ولم يعز الأقوال إلى أصحابها، سوى أنه ذكر عن ابن هشام، عن أبي عبيد الواقدي أنه فرض عام الخندق، بعد انصراف الأحزاب، وكان انصرافهم آخر سنة خمس. قال ابن إسحاق: وولي تلك الحجة المشركون. وفي مقدمات ابن رشد ما يقتضي أن الشافعي يقول: ان الحج وجب سنة تسع، وأظهر من هذه الأقوال قول رابع تمالأ عليه الفقهاء وهو أن دليل وجوب قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ . وقد استدل الشافعي بها على ان وجوبه على التراخي، فيكون وجوبه على المسلمين قد تقرر سنة ثلاث، وأصبح المسالمون منذ يومئذ محصرين عن أداء هذه الفريضة إلى أن فتح الله مكة ووقعت حجة سنة تسع.." (١)

"الذين دخلوا في الإسلام إخوانا وأولياء بعضهم لبعض، لا يصدهم عن ذلك اختلاف أنساب، ولا تباعد مواطن، ولقد حاولت حكماؤهم وأولو الرأي منهم التأليف بينهم، وإصلاح ذات بينهم، بأفانين الدعاية من خطابة وجاه وشعر١ فلم يصلوا إلى ما ابتغوا حتى ألف الله بين قلوبهم بالإسلام فصاروا بذلك التأليف بمنزلة الأخوان.

والخوان جمع الأخ، مثل الأخوة، وقيل: يختص الأخوان بالأخ المجازي والأخوة بالأخ الحقيقي، ولي بصحيح قال تعالى: ﴿أو بيوت إخوانكم﴾ [النور: ٦١] وقال: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ١٠] وليس يصح أن يكون للمعنى المجازي صيغة خاصة في الجمع أو المفرد وإلا لبطل كون اللفظ مجازا وصار مشتركا، لكن للاستعمال أن يغلب إطلاق إحدى الصيغتين الموضوعتين لمعنى واحد فيغلبها في المعنى المجازي والأخرى في الحقيقي.

وقد امتن الله عليهم بتغيير أحوالهم من أشنع حالة إلى أحسنها: فحالة كانوا عليها هي حارة العداوة والتفاني والتقاتل، وحالة أصبحوا عليها وهبي حالة الأخوة ولا يدرك الفرق بين الحالين إلا من كانوا في السوأى فأصبحوا في الحسنى، والناس إذا كانوا في حالة بؤس وضنك واعتادوها صار الشقاء دأبهم، وذلت له نفوسهم فلم يشعروا بما هم فيه، ولا يتفطنوا لوخيم عواقبه، حتى إذا هيئ لهم الصلاح، وأخذ يتطرق إليهم استفاقوا من شقوتهم، وعلموا سوء حالتهم، ولأجل هذا المعنى جمعت لهم هذه الآية في **الامتنان** بين ذكر الحالتين وما بينهما فقالت: ﴿إذ كنتم أعداء فألف بين ق٢لوبكم فأصبحتم بنعمته

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦٦/٣

-
العم من بطن واحد أعداء متغابين على المواريث والسؤدد قال أرطأة بن سهية الذبياني من شعراء الأموية:

ونحن بنو عم على ذات بيننا

زرابي فيها بعضه وتنافس

١ مثل خطاب شيوخ بني سعد لامرىء القيس حين عزم على قتالهم أخذا بثأره.

ومثل توسط هرم بن سنان والحارث بن عوف.

وقال زهير:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم

الأبيات.

وقال النابغة:

ألا يا ليتني والمرء ميت

الأبيات.." (١)

"إخوانا﴾ .

وقوله: ﴿بنعمته﴾ الباء فيه للملابسة بمعنى مع أي أصبحتم إخوانا مصاحبين نعمة الله وهي نعمة الأخوة، كقول الفضل بن عباس بن عتبة اللهبي:

كلله نية في بغض صاحبه ... بنعمة الله نقليكم وتقلونا

وقوله: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ عطف على ﴿كنتم أعداء﴾ فهو نعمة أخرى وهي نعمة الإنقاذ من حالة أخرى بئيسة وهي حالة الإشراف على المهلكات.

والشفا مثل الشفة هو حرف القليب وطرفه، وألف مبدله واو. وأما واو شفة فقد حذفت وعوضت عنها الهاء مثل سنة وعزة إلا أنهم لم يجمعوه على شفوات ولا على شفتين بل قالوا شفاه كأنهم اعتدوا بالهاء كالأصل.

فأرى أن شفا حفرة النار هنا تمثيل لحالهم في الجاهلية حين كانوا على وشك الهلاك والتفاني الذي عبر عنه زهير بقوله:

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٦/٣

تفانوا ودقوا بينهم منشم

بحال قوم بلغ بهم المشي إلى شفا حفير من النار كالأخدود فليس بينهم وبين الهلاك السريع التام إلا خطوة قصيرة، واختيار الحالة المشبه بها هنا لأن النار أشد المهلكات إهلاكا، وأسرعها، وهذا هو المناسب في حمل الآية ليكون **الامتنان** بنعمتين محسوستين هما: نعمة الأخوة بعد العداوة، ونعمة السلامة بعد الخطر، كما قال أبو الطيب:

نجاة من البأساء بعد وقوع

والإنقاذ من حالتين شنيعتين. وقال جمهور المفسرين: أراد نار جهنم وعلى قولهم هذا يكون قوة ﴿شفا حفرة﴾ مستعارا للاقتراب استعارة المحسوس للمعقول. والنار حقيقة، ويبعد هذا المحمل قوله تعالى ﴿حفرة﴾ إذ ليست جهنم حفرة بل عالم عظيم للعذاب. ورد في الحديث "فإذا هي مطوية كطي البئر وإذا لها قرنان" ولكن ذلك رؤيا جاءت على وجه التمثيل وإلا فهي لا يحيط بها النظر. ويكون **الامتنان** على هذا امتنانا عليهم بالإيمان بعد الكفر وهم ليقينهم بدخول الكفرة النار علموا أنهم كانوا على شفاها. وقيل: أراد نار الحرب وهو بعيد جدا لأن نار الحرب لا توقد في حفرة بل توقد في العلياء ليراها من كان بعيدا كما قال الحارث:." (١)

"ومعنى ﴿يسارعون في الخيرات﴾ يسارعون إليها أي يرغبون في الاستكثار منها. والمسارعة مستعارة للاستكثار من الفعل، والمبادرة إليه، تشبيها للاستكثار والاعتناء بالسير السريع لبلوغ المطلوب. وفي للظرفيه المجازية، وهي تخييلية تؤذن بتشبيه الخيرات بطريق يسير فيه السائرون، ولهؤلاء مزية السرعة في قطعه. ولك أن تجعل مجموع المركب من قوله: ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ تمثيلا لحال مبادرتهم وحرصهم على فعل الخيرات بحال السائر الراغب في البلوغ إلى قصده يسرع في سيره. وسيأتي نظيره عند قوله تعالى: ﴿لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ في سورة العقود [١٧٦].

والإشارة بأولئك إلى الأمة القائمة الموصوفة بتلك الأوصاف. وموقع أسم الإشارة التنبيه على أنهم استحقوا الوصف المذكور بعد أسم الإشارة بسبب ما سبق أسم الإشارة من الأوصاف.

﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ [١١٥].

تذييل للجمل المفتتحة بقوله تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ [آل عمران: ١١٣] إلى قوله تعالى: ﴿من الصالحين﴾ [آل عمران: ١١٤]. وقرأ الجمهور: تفعلوا بالفوقيه فهو وعد للحاضرين، ويعلم

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٧/٣

منه ان الصالحين السابقين مثلهم، بقرينة مقام **الامتنان**، ووقوعه عقب ذكرهم، فكأنه قيل: وما تفعلوا من خير ويفعلوا. ويجوز أن يكون التفاتا لخطاب أهل الكتاب. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف بياء الغيبه عائدا إلى أمة قائمة.

والكفر: ضد الشكر أي هو إنكار وصول النعمة الواصلة. قال عنترة:

نبئت عمرا غير شاكر نعمتي ... والكفر مخبشة لنفس المنعم

وقال تعالى: ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ وأصل الشكر والكفر أن يتعديا إلى واحد، ويكون مفعولهما النعمة كما في البيت. وقد يجعل مفعولهما المنعم على التوسع في حذف حرف الجر، لأن الأصل شكرت له وكفرت له. قال النابغة:

شكرت لك النعمى

وقد جمع بين الاستعمالين قوله تعالى: ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة: ١٥٢] وقد عدي ﴿تكفروه﴾ إلى مفعولين: أحدهما نائب الفاعل، لأن الفاعل ضمن معنى الحرمان. والضمير المنصوب عائد إلى خير بتأويل خير بجزاء فعل الخير على طريقة الاستخدام. وأطلق الكفر هنا على ترك جزاء فعل الخير، تشبيها لفعل الخير بالنعمة. كأن." (١)

"ومتعلق فعلها أعني ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ . والفاء للتفريع والفاء تقع في الجملة المعترضة على الأصح، خلافا لمن منع ذلك من النحويين.. فأنه لما ذكرهم بتلك المنة العظيمة ذكرهم بأنها سبب للشكر فأمرهم بالشكر بملازمة التقوى تأدبا بنسبة قوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧٠].

ومن الشكر على ذلك النصر أن يثبتوا في قتال العدو، وامتثال أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وأن لا تفل حدتهم هزيمة يوم أحد.

وظرف ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ زماني وهو متعلق بنصركم لأن الوعد بنصره الملائكة والمؤمنين كان يوم بدر لا يوم أحد. هذا قول جمهور المفسرين.

وخص هذا الوقت بالذكر لأنه كان وقت ظهور هذه المعجزة وهذه النعمة، فكان جديرا بالتذكير **والامتنان**.

والمعنى: إذ تعد المؤمنين بإمداد الله بالملائكة، فما كان قول النبي صلى الله عليه وسلم لهم تلك المقالة إلا بوعد أوحاه الله إليه أن يقوله.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣/١٩٦

والاستفهام في قوله: ﴿ألن يكفيكم﴾ تقريري، والتقريري يكثر أن يورد على النفي، كما قدمنا بيانه عند قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ في سورة البقرة [٢٤٣].

وإنما جيء في النفي بحرف لن الذي يفيد تأكيد النفي للإشعار بأنهم كانوا يوم بدر لقلتهم، وضعفهم، مع كثرة عدوهم، وشوكته، كالآيسين من كفاية هذا المدد من الملائكة، فأوقع الاستفهام التقريري على ذلك ليكون تلقينا لمن يخالج نفسه اليأس من كفاية ذلك العدد من الملائكة، بأن يصرح بما في نفسه، والمقصود من ذلك لازمة، وهذا إثبات أن ذلك العدد كاف.

ولأجل كون الاستفهام غير حقيقي كان جوابه من قبل السائل بقوله: ﴿بلى﴾ لأنه مما لاتسع المماراة فيه كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ في سورة الأنعام [١٩]، فكان بلى إبطالا للنفي، وإثباتا لكون ذلك العدد كافيا، وهو من تمام مقالة النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين.

وقد جاء في سورة الأنفال عند ذكره وقعة بدر أن الله وعدهم بمدد من الملائكة عدده ألف بقوله: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من." (١)

"عند الله العزيز الحكيم[١٢٦] ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين[١٢٧] ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ [١٢٨].

يجوز أن تكون جملة ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة في قوله: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ [البقرة: ١٢٣] والمعنى لقد نصركم الله ببدر حين تقول للمؤمنين ما وعدك الله به في حال أن الله ما جعل ذلك الوعد إلا بشرى لكم وإلا فإنه وعدكم النصر كما في قوله تعالى: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ [الأنفال: ٧٠] الآية.

ويجوز أن يكون الواو للعطف عطف الإخبار على التذكير **والامتنان**. وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار للتنويه بهذه العناية من الله بهم، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

وضمير النصب في قوله: ﴿جعله﴾ عائد إلى الإمداد المستفاد من ﴿يمددكم﴾ أو إلى الوعد المستفاد من قوله: ﴿إن تصبروا وتتقوا﴾ [آل عمران: ١٢٥] الآية.

والاستثناء مفرغ. و ﴿بشرى﴾ مفعول ثان لجعله أي ما جعل الله الإمداد والوعد به إلا أنه بشرى، أي جعله بشرى، ولم يجعله غير ذلك.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣/٢٠٧

ولكم متعلق ببشرى. وفائدة التصريح به مع ظهور أن البشرى إليهم هي الدلالة على تكريمه الله تعالى إياهم بأن بشرهم بشرى لأجلهم كما في التصريح بذلك في قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: ١].

والبشرى اسم لمصدر بشر كالرجعي، والبشرى خبر بحصول ما فيه نفع ومسرة للمخبر به، فإن الله لما وعدهم بالنصر أيقنوا به فكان في تبيين سببه وهو الإمداد بالملائكة طمأنة لنفوسهم لأن النفوس تركن إلى الصور المألوفة.

والطمأنة والطمأنينة: السكون وعدم الاضطراب، واستعيرت هنا ليقين النفس بحصول الأمر تشبيها للعلم الثابت النفس أي عدم اضطرابها، وتقدمن عند قوله تعالى: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ في سورة البقرة [٢٦٠].

وعطف ﴿ولتطمئن﴾ على ﴿بشرى﴾ فكان داخلا في حيز الاستثناء فيكون استثناء من علل، أي ما جعل الله لأجل أن تطمئن قلوبكم به.." (١)

"الشهوات﴾ [النساء:٢٧]، أي الاسترسال على ما كانوا عليه في الجاهلية، فأعقب ذلك ببيان أن في ذلك بيانا وهدى. حتى لا تكون شريعة هذه الأمة دون شرائع الأمم التي قبلها، بل تفوقها في انتظام أحوالها، فكان هذا كالاعتذار على ما ذكر من المحرمات. فقوله ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ تعليل لتفصيل الأحكام في مواقع الشبهات كي لا يضلوا كما ضل من قبلهم، ففيه أن هذه الشريعة أهدى مما قبلها.

وقوله ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ بيان لقصد إلحاق هذه الأمة بمزايا الأمم التي قبلها.

والإرادة: القصد والعزم على العمل، وتطلق على الصفة الإلهية التي تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه. **والامتنان** بما شرعه الله للمسلمين من توضيح الأحكام قد حصلت إرادته فيما مضى، وإنما عبر بصيغة المضارع هنا للدلالة على تجدد البيان واستمراره، فإن هذه التشريعات دائمة مستمرة تكون بيانا للمخاطبين ولمن جاء بعدهم، وللدلالة على أن الله يبقي بعدها بيانا متعاقبا.

وقوله ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ انتصب فعل يبين بأن المصدرية محذوفة، والمصدر المنسبك مفعول يريد، أي يريد الله البيان لكم والهدى والتوبة، فكان أصل الاستعمال ذكر أن المصدرية، ولذلك فاللام هنا لتوكيد معنى الفعل الذي قبلها، وقد شاعت زيادة هذه اللام بعد مادة الإرادة وبعد مادة الأمر معاقبة لأن المصدرية. تقول، أريد أن تفعل وأريد لتفعل، وقال تعالى ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ [التوبة:٣٢]

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١١/٣

وقال ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ [الصف:٨] وقال ﴿وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ [غافر:٦٦] وقال ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ [الشورى:١٥] فإذا جاؤوا باللام أشبهت لام التعليل فقدروا أن بعد اللام المؤكدة كما قدروها بعد لام كي لأنها أشبهتها في الصورة، ولذلك قال القراء: اللام نائبة عن أن المصدرية. وإلى هذه الطريقة مال صاحب الكشاف.

وقال سيبويه: هي لام التعليل أي لام كي، وأن ما بعدها علة، ومفعول الفعل الذي قبلها محذوف يقدر بالقرينة، أي يريد الله التحليل والتحريم ليبين، ومنهم من قرر قول سيبويه بأن المفعول المحذوف دل عليه التعليل المذكور فيقدر: يريد الله البيان ليبين، فيكون الكلام مبالغة بجعل العلة نفس المعلل.

وقال الخليل، وسيبويه في رواية عنه: اللام ظرف مستقر هو خبر عن الفعل السابق،." (١)

"الناس: إن الواو في رد السلام تفيد معنى الزيادة فلو كان المسلم بلغ غاية التحية أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإذا قال الراد وعليكم السلام الخ، كان قد ردها بأحسن منها بزيادة الواو، وهذا وهم.

ومعنى ردوها ردوا مثلها، وهذا كقولهم: عندي درهم ونصفه، لظهور تعذر رد ذات التحية، وقوله تعالى ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها﴾ [النساء:١٧٦] فعاد ضمير وهو وهاء يرثها إلى اللفظين لا إلى الذاتين، ودل الأمر على وجوب رد السلام، ولا دلالة في الآية على حكم الابتداء بالسلام، فذلك ثابت بالسنة للترغيب فيه. وقد ذكروا أن العرب كانوا لا يقدمون اسم المسلم عليه المجرور بعلى في ابتداء السلام إلا في الرثاء، في مثل قول عبدة بن الطيب:

عليك سلام الله قيس بن عاصم

...

ورحمته ما شاء أن يترحما

وفي قول الشماخ:

عليك سلام من أمير وباركت

...

يد الله في ذاك الأديم الممزق

---

(١) التحرير والتنوير، ٤/٩٦

يرثي عثمان بن عفان أو عمر بن الخطاب. روى أبو داود أن جابر بن سليم سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: عليك السلام يا رسول الله، فقال له "إن عليك السلام تحية الموتى، قل، السلام عليك" .

والتذييل بقوله ﴿إن الله كان على كل شيء حسيبا﴾ لقصد **الامتنان** بهذه التعليمات النافعة.

والحسيب: العليم وهو صفة مشبهة: من حسب بكسر السين الذي هو من أفعال القلب، فحول إلى فعل بضم عينه لما أريد به أن العلم وصف ذاتي له، وبذلك نقصت تعديته فاقتصر على مفعول واحد، ثم ضمن معنى المحصي فعدي إليه بعلى. ويجوز كونه من أمثلة المبالغة. قيل: الحسيب هنا بمعنى المحاسب، كالإكيل والشريب. فعلى كلامهم يكون التذييل وعدا بالجزاء على قدر فضل رد السلام، أو بالجزاء السيئ على ترك الرد من أصله. وقد أكد وصف الله بحسيب بمؤكدين: حرف إن وفعل كان الدال على أن ذلك وصف مقرر أزلي.

[٨٧] ﴿الله لا إله إلا ہو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا﴾ .." (١)

"الحرام، وقد أشرنا إلى ذلك آنفا؛فالضمير والمفاعلة في ﴿تعاونوا﴾ للمسلمين،أي ليعن بعضكم بعضا على البر والتقوى.وفائدة التعاون تيسير العمل،وتوفير المصالح، وإظهار الاتحاد والتناصر،حتى يصبح ذلك خلقا للأمة.وهذا قبل نزول قوله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة:٢٨]

وقوله :﴿ولا تعاونوا على الأثم والعدوان﴾ تأكيد لمضمون ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ لأن الأمر بالشيء، وإن كان يتضمن النهي عن ضده،فالاهتمام بحكم الضد يقتضي النهي عنه بخصوصه.والمقصود أنه يجب أن يصد بعضكم بعضا عن ظلم قوم لكم نحوهم شنآن.

وقوله ﴿واتقوا الله﴾ الآية تذييل.وقوله ﴿شديد العقاب﴾ تعريض بالتهديد.

[٣]﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الأسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾

---

(١) التحرير والتنوير، ٤/٢٠٨

﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب﴾

استئناف بياني ناشئ عن قوله ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾[المائدة: ١] فهو بيان لما ليس بحلال من الأنعام.

ومعنى تحريم هذه المذكورات تحريم أكلها،لأنه المقصود من مجموع هذه المذكورات هنا،وهي أحوال من أحوال الأنعام تقتضي تحريم أكلها.وأدمج فيها نوع من الحيوان ليس من أنواع الأنعام وهو الخنزير،لاستيعاب محرمات الحيوان.وهذا الاستيعاب دليل لإباحة ما سوى ذلك،إلا ما ورد في السنة من تحريم الحمر الأهلية،على اختلاف بين العلماء في معنى تحريمها،والظاهر أنه تحريم منظور فيه إلى حالة لا إلى الصنف.وألحق مالك بها الخيل والبغال قياسا،وهو من قياس الأدون،ولقول الله تعالى إذ ذكرها في معرض **الامتنان** ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ [النحل:٨]." (١)

"تأتي عقبها،وهو ما رواه الطبري عن ابن زيد وجمع،ونسبه ابن عطية إلى عمر بن الخطاب وهو الأصح.

ف﴿اليوم﴾يجوز أن يراد به اليوم الحاضر،وهو يوم نزول الآية،وهو إن أريد به يوم فتح مكة،فلا جرم أن ذلك اليوم كان أبهج أيام الإسلام،وظهر فيه من قوة الدين،بين ظهراني من بقي على الشرك، ما أيأسهم من تقهقر أمر الإسلام،ولا شك أن قلوب جميع العرب كانت متعلقة بمكة وموسم الحج ومناسكه:التي كانت فيها حياتهم الاجتماعية والتجارية والدينية والأدبية،وقوام شؤونهم،وتعارفهم، وفصل نزاعهم،فلا جرم أن يكون انفراد المسلمين بتلك المواطن قاطعا لبقية آمالهم:من بقاء دين الشرك، ومن محاولة الفت في عضد الإسلام.فذلك اليوم على الحقيقة:يوم تمام اليأس وانقطاع الرجاء، وقد كانوا قبل ذلك يعاودهم الرجاء تارة.فقد قال أبو سفيان يوم أحد:"اعل هبل وقال لنا العزى ولا عزى لكم".وقال صفوان بن أمية أو أخوه،يوم هوازن،حين انكشف المسلمون وظنها هزيمة للمسلمين: "ألا بطل السحر اليوم".

وكان نزول هذه الآية يوم حجة الوداع مع الآية التي بعدها،كما يؤيده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته يومئذ في قول كثير من أصحاب السير: "أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا ولكنه قد رضي منكم بما دون ذلك فيما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على أنفسكم".

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٠/٥

و ﴿اليوم﴾ يجوز أن يراد به يوم معين،جدير **بالامتنان** بزمانه،ويجوز أن يجعل"اليوم"بمعنى الآن،أي زمان الحال، الصادق بطائفة من الزمان،رسخ اليأس،في خلالها،في قلوب أهل الشرك بعد أن خامر نفوسهم التردد في ذلك،فإن العرب يطلقون"اليوم"على زمن الحال،و"الأمس"على الماضي،و"الغد"على المستقبل.قال زهير:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عمي

يريد باليوم زمان الحال، وبالأمس ما مضى، وبالغد ما يستقبل،ومنه قول زياد الأعجم:

رأيتك أمس خير بني م‌ع‌د ... وأنت اليوم خير منك أمس

وأنت غدا تزيد الخير خيرا ... كذاك تزيد سادة عبد شمس

وفعل﴿يئس﴾يتعدى بـ"من"إلى الشيء الذي كان مرجوا من قبل،وذلك هو القرينة." (١)

"عن ضبط الحلال،لأنه مما تتوجه النفوس إلى الإحاطة به،وإلى معرفة ما عسى أن يكون قد حرم عليهم من غير ما عدد لهم في الآيات السابقة،وقد بينا في مواضع مما تقدم منها قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ في سورة البقرة[١٨٩]:أن صيغة ﴿يسألونك﴾ في القرآن تحتمل الأمرين.فعلى الوجه الأول يكون الجواب قد حصل ببيان المحرمات أولا ثم ببيان الحلال،أو ببيان الحلال فقط،إذا كان بيان المحرمات سابقا على السؤال،وعلى الوجه الثاني قد قصد الاهتمام ببيان الحلال بوجه جامع، فعنون الاهتمام به بإيراده بصيغة السؤال المناسب لتقدم ذكره.

و ﴿الطيبات ﴾ صفة لمحذوف معلوم من السياق،أي الأطعمة الطيبة،وهي الموصوفة بالطيب،أي التي طابت.وأصل معنى الطيب معنى الطهارة والزكاء والوقع الحسن في النفس عاجلا وآجلا،فالشيء المستلذ إذا كان وخما لا يسمى طيبا:لأنه يعقب ألما أو ضرا،ولذلك كان طيب كل شيء أن يكون من أحسن نوعه وأنفعه.وقد أطلق الطيب على المباح شرعا؛لأن إباحة الشرع الشيء علامة على حسنه وسلامته من المضرة،قال تعالى :﴿كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ [البقرة:١٦٨]والمراد بالطيبات في قوله: ﴿أحل لكم الطيبات﴾ معناها اللغوي ليصح إسناد فعل ﴿أحل﴾ إليها.وقد تقدم شيء من معنى الطيب عند قوله تعالى:﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾في سورة البقرة[١٦٨] ويجيء شيء منه عند قوله تعالى :﴿والبلد الطيب﴾ في سورة الأعراف[٥٨].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٩/٥

و ﴿الطيبات﴾ وصف للأطعمة قرن به حكم التحليل،فدل على أن الطيب علة التحليل،وأفاد أن الحرام ضده وهو الخبائث،كما قال في آية الأعراف،في ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقد اختلف أقوال السلف في ضبط وصف الطيبات؛فعن مالك:"الطيبات الحلال"،ويتعين أن يكون مراده أن الحل هو المؤذن بتحقق وصف الطيب في الطعام المباح،لأن الوصف الطيب قد يخفى،فأخذ مالك بعلامته وهي الحل كيلا يكون قوله :﴿الطيبات﴾ حوالة على ما لا ينضبط بين الناس مثل الاستلذاذ، فيتعين، إذن،أن يكون قوله: ﴿أحل لكم الطيبات﴾ غير مراد منه ضبط الحلال،بل أريد به الامتنان والإعلام بأن ما أحله الله لهم فهو طيب،إبطالا لما اعتقدوه في زمن الشرك:من تحريم ما لا موجب لتحريمه،وتحليل ما هو خبيث.ويدل لذلك تكرر ذكر الطيبات مع ذكر الحلال في القرآن، مثل." (١)

"و ﴿مكلبين﴾ حال من ضمير ﴿علمتم﴾ مبينة لنوع التعليم وهو تعليم المكلب،والمكلب - بكسر اللام - بصيغة اسم الفاعل معلم الكلاب،يقال:مكلب، ويقال:كلاب.

ف ﴿مكلبين﴾ وصف مشتق من الاسم الجامد اشتق من اسم الكلب جريا على الغالب في صيد الجوارح،ولذلك فوقوعه حالا من ضمير ﴿علمتم﴾ ليس مخصصا للعموم الذي أفاده قوله :﴿وما علمتم﴾ فهذا العموم يشمل غير الكلاب من فهود وبزاة.وخالف في ذلك ابن عمر، حكى عنه ابن المنذر أنه قصر إباحة أكل ما قتله الجارح على صيد الكلاب لقوله تعالى :﴿مكلبين﴾ قال:فأما ما يصاد به من البزاة وغيرها من الطير فما أدركت ذكاته فذكه فهو لك حلال وإلا فلا تطعمه.وهذا أيضا قول الضحاك والسدي.

فأما الكلاب فلا خلاف في إباحة عموم صيد المعلمات منها،إلا ما شذ من قول الحسن وقتادة والنخعي بكراهة صيد الكلب الأسود البهيم،أي علم السواد،محتجين بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "الكلب الأسود شيطان". أخرجه مسلم،وهو احتجاج ضعيف،مع أن النبي عليه السلام سماه كلبا،وهل يشك أحد أن معنى كونه شيطانا أنه مظنة للعقر وسوء الطبع.على أن مورد الحديث في أنه يقطع الصلاة إذا مر بين يدي المصلي.على أن ذلك متأول.وعن احمد بن حنبل:"ما أعرف أحدا يرخص فيه""أي في أكل صيده"إذا كان بهيما،وبه قال إسحق ابن راهوية،وكيف يصنع بجمهور الفقهاء.

وقوله :﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾. حال ثانية،قصد بها الامتنان والعبرة والمواهب التي أودعها الله في الإنسان، إذ جعله معلما بالجبلة من يوم قال: ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ [البقرة:٣٣]،والمواهب

---

(١) التحرير والتنوير، ٥/٣٧

التي أودعها الله في بعض الحيوان،إذ جعله قابلا للتعلم.فباعتبار كون مفاد هذه الحال هو مفاد عاملها تتنزل منزلة الحال المؤكدة،وباعتبار كونها تضمنت معنى **الامتنان** فهي مؤسسة.قال صاحب الكشاف:"وفي تكرير الحال فائدة أن على كل آخذ علما أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علما وأنحرهم دراية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل،فكم من آخذ عن غير متقن قد ضيع أيامه وعض عند لقاء النحارير أنامله".اهـ.

والفاء في قوله: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ فاء الفصيحة في قوله: ﴿وما علمتم من الجوارح﴾ إن جعلت"ما"من قوله: ﴿وما علمتم﴾ موصولة،فإن جعلتها شرطية فالفاء رابطة للجواب.." (١)

"النقص فلا جرم أن يكون عالما بما في السماوات، لأن السماوات إما أن تكون مساوية للأرض في أنه تعالى ليس بمستقر فيها، ولا هي أقرب إليه من الأرض، كما هو الاعتقاد الخاص، فثبت له العلم بما في السماوات بقياس المساواة؛ وإما أن يكون تعالى في أرفع المكان وأشرف العوالم، فيكون علمه بما في السماوات أحرى من علمه بما في الأرض، لأنا أقرب إليه وهو بها أعنى، فيتم الاستدلال للفريقين.

وأما دلالة ذلك على أنه بكل شيء عليم فلأن فيما ثبت من هذا العلم الذي تقرر من علمه بما في السماوات وما في الأرض أنواعا من المعلومات جليلة ودقيقة؛ فالعلم بها قبل وقوعها لا محالة، فلو لم يكن يعلم جميع الأشياء لم يخل من جهل بعضها، فيكون ذلك الجهل معطلا لعلمه بكثير مما يتوقف تدبيره على العلم بذلك المجهول فهو ما دبر جعل الكعبة قياما وما نشأ عن ذلك إلا عن عموم علمه بالأشياء ولولا عمومه ما تم تدبير ذلك المقدر.

[٩٨-٩٩] ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾.

استئناف ابتدائي وتذييل لما سبق من حظر الصيد للمحرم وإباحة صيد البحر **والامتنان** بما جعل للكعبة من النعم عليهم ليطمئنوا لما في تشريع تلك الأحكام من تضييق على تصرفاتهم ليعلموا أن ذلك في صلاحهم، فذيل بالتذكير بأن الله منهم بالمرصاد يجازي كل صانع بما صنع من خير أو شر.وافتتاح الجملة بـ ﴿اعلموا﴾ للاهتمام بمضمونها كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه﴾ في سورة البقرة[٢٢٣].وقد استوفى قوله: ﴿أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ أقسام معاملته تعالى فهو

---

(١) التحرير والتنوير، ٥/٤٠

شديد العقاب لمن خالف أحكامه وغفور لمن تاب وعمل صالحا.وافتتاح الجملة بلفظ﴿اعلموا﴾ للاهتمام بالخبر كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ في سورة البقرة[٢٢٣]

وجملة ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ معترضة ذيل بها التعريض بالوعيد والوعد.ومضمونها إعذار الناس لأن الرسول قد بلغ إليهم ما أراد الله منهم فلا عذر لهم في التقصير، والمنة لله ولرسوله فيما أرشدهم إليه من خير.

والقصر ليس بحقيقي لأن على الرسول أمورا أخر غير البلاغ مثل التعبد لله تعالى،." (١)

"يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾ فقال:"أعوذ بسبحات وجهك الكريم".

ومعنى ﴿كتب﴾ تعلقت إرادته،بأن جعل رحمته الموصوف بها بالذات متعلقة تعلقا عاما مطردا بالنسبة إلى المخلوقات وإن كان خاصا بالنسبة إلى الأزمان والجهات.فلما كان ذلك مطردا شبهت إرادته بالإلزام،فاستعير لها فعل"كتب"الذي هو حقيقة في الإيجاب، والقرينة هي مقام الإلهية،أو جعل ذلك على نفسه لأن أحدا لا يلزم نفسه بشيء إلا اختيارا وإلا فان غيره يلزمه.والمقصود أن ذلك لا يتخلف كالأمر الواجب المكتوب، فإنهم كانوا إذا أرادوا تأكيد وعد أو عهد كتبوه،كما قال الحارث بن حلزة:

واذكروا حلف ذي المجاز ... وما قدم فيه العهود ولا كفلاء

حذر الجور والتطاخي وهل ... ينقض ما في المهارق الأهواء

فالرحمة هنا مصدر،أي كتب على نفسه أن يرحم، وليس المراد الصفة،أي كتب على نفسه الاتصاف بالرحمة، أي بكونه رحيما،لأن الرحمة صفة ذاتية لله تعالى واجبة له، والواجب العقلي لا تتعلق به الإرادة، إلا إذا جعلنا ﴿كتب﴾ مستعملا في تمجز آخر،وهو تشبيه الوجوب الذاتي بالأمر المحتم المفروض،والقرينة هي هي إلا أن المعنى الأول أظهر في **الامتنان،**وفي المقصود من شمول الرحمة للعبيد المعرضين عن حق شكره والمشركين له في ملكه غيره.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال:"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتابا فوضعه عنده فوق العرش"إن رحمتي سبقت غضبي".

وجملة ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ واقعة موقع النتيجة من الدليل والمسبب من السبب،فإنه لما أبطلت أهلية أصنامهم للإلهية ومحضت وحدانية الله بالإلهية بطلت إحالتهم البعث بشبهة تفرق أجزاء الأجساد أو انعدامها.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢٧/٥

ولام القسم ونون التوكيد أفادا تحقيق الوعيد.والمراد بالجمع استقصاء متفرق جميع الناس أفرادا وأجزاءا متفرقة.وتعديته بـ ﴿إلى﴾ لتضمينه معنى السوق.وقد تقدم القول في نظيره عند قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ في سورة النساء[٨٧].

وضمير الخطاب في قوله: ﴿ليجمعنكم﴾ مراد به خصوص المحجوجين من." (١)

"ويجوز أن يكون إنشاء الله تعالى ثناء على نفسه، تعريضا **بالامتنان** على الرسول والمسلمين.

واللام في ﴿الحمد﴾ للجنس، أي وجنس الحمد كله الذي منه الحمد على نعمة إهلاك الظالمين.

وفي ذلك كله تنبيه على أنه يحق الحمد لله عند هلاك الظلمة، لأن هلاكهم صلاح للناس، والصلاح أعظم النعم، وشكر النعمة واجب.وهذ الحمد شكر لأنه مقابل نعمة.وإنما كان هلاكهم صلاحا لأن الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة، فإذا تغير الحق والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم فإذا هلك الظالمون عاد العدل، وهو ميزان قوام العالم.

أخرج أحمد بن حنبل عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾

[٤٦] ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾

استئناف ابتدائي عاد به إلى الجدال معهم في إشراكهم بالله تعالى بعد أن انصرف الكلام عنه بخصوصه من قوله تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ [الأنعام: ١٩] وما تفنن عقب ذلك من إثبات البعث وإثبات صدق الرسول وذكر القوارع والوعيد إلى قوله: ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة﴾ [الأنعام: ٤٠] الآيات.وتكرير الأمر بالقول للواحد الذي تقدم آنفا عند قوله تعالى: ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله﴾ [الأنعام: ٤٠] الآية.

والرؤية قلبية متعدية إلى مفعولين، وليس هذا من قبيل الاستعمال المتقدم آنفا في قوله تعالى: ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة﴾ [الأنعام: ٤٠] الآية.

---

(١) التحرير والتنوير، ٦/٣٣

واختلاف القراء في ﴿أرأيتم﴾ كاختلافهم في مثله من قوله تعالى: ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله﴾ [الأنعام: ٤٠] الآية.." (١)

"صفاته في ضمن دليل وحدانيته.وفي هذا تقريب للبعث بعد الموت.

فقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم﴾ صيغة قصر لتعريف جزأي الجملة، أي هو الذي يتوفى الأنفس دون الأصنام فإنها لا تملك موتا ولا حياة.

والخطاب موجه إلى المشركين كما يقتضيه السياق السابق من قوله: ﴿لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ [الأنعام: ٥٨] واللاحق من قوله: ﴿ثم أنتم تشركون﴾ [الأنعام: ٦٤] ويقتضيه طريق القصر.ولما كان هذا الحال غير خاص بالمشركين علم منه أن الناس فيه سواء.

والتوفي حقيقته الإماتة، لأنه حقيقة في قبض الشيء مستوفى.وإطلاقه على النوم مجاز لشبه النوم بالموت في انقطاع الإدراك والعمل.إلا ترى قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾ [الزمر: ٤٢] .وقد تقدم تفصيله عند قوله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك﴾ في سورة آل عمران[٥٥] .

والمراد بقوله: ﴿يتوفاكم﴾ ينيمكم بقرينة قوله: ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ ، أي في النهار، فأراد بالوفاة هنا النوم على التشبيه.وفائدته أنه تقريب لكيفية البعث يوم القيامة، ولذا استعير البعث للإفاقة من النوم ليتم التقريب في قوله: ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ .

ومعنى ﴿جرحتم﴾ كسبتم، وأصل الجرح تمزيق جلد الحي بشيء محدد مثل السكين والسيف والظفر والناب.وتقدم في قوله: ﴿والجروح قصاص﴾ في سورة العقود[٤٥] .وأطلق على كلاب الصيد وبزاته ونحوها اسم الجوارح لأنها تجرح الصيد ليمسكه الصائد.قال تعالى: ﴿وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ [٤] وتقدم في سورة العقود.كما سموها كواسب، كقول لبيد:

غضفا كواسب ما يمن طعامها

فصار لفظ الجوارح مرادفا للكواسب؛ وشاع ذلك فأطلق على الكسب اسم الجرح، وهو المراد هنا.وقال تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [الجاثية: ٢١] .

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠٣/٦

وجملة ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ معترضة لقصد **الامتنان** بنعمة الإمهال، أي ولولا فضله لما بعثكم في النهار مع علمه بأنكم تكتسبون في النهار عبادة غيره ويكتسب بعضكم بعض ما نهاهم عنه كالمؤمنين.." (١)

"ويشمل هداهم ما كان منه راجعا إلى أصول الشرائع، وما كان منه راجعا إلى زكاء النفس وحسن الخلق.وأما ما كان منه تفاريع عن ذلك وأحكاما جزئية من كل ما أبلغه الله إياه بالوحي ولم يأمره باتباعه في الإسلام ولا بين له نسخه، فقد اختلف علماؤنا في أن الشرائع الإلهية السابقة هل تعتبر أحكامها من شريعة الإسلام إذا أبلغها الله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يجعل في شريعته ما ينسخها.

وأرى أن أصل الاستدلال لهذا أن الله تعالى إذا ذكر في كتابه أو أوحى إلى رسوله عليه الصلاةوالسلام حكاية حكم من الشرائع السابقة في مقام التنويه بذلك **والامتنان** ولم يقارنه ما يدل على أنه شرع للتشديد على أصحابه عقوبة لهم، ولا ما يدل على عدم العمل به، فإن ذلك يدل على أن الله تعالى يريد من ا لمسلمين العمل بمثله إذا لم يكن من أحكام الإسلام ما يخالفه ولا من أصوله ما يأباه، مثل أصل التيسير ولا يقتضي القياس على حكم إسلامي ما يناقض حكما من شرائع من قبلنا.ولا حجة في الآيات التي فيها أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباع من قبله مثل هذه الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ [النحل: ١٢٣]ومثل قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ [الشورى: ١٣]، لأن المقصود من ذلك أصول الديانة وأسس التشريع التي لا تختلف فيها الشرائع، فمن استدل بقوله تعالى: ﴿فبهداهم اقتده﴾ فاستدلاله ضعيف.قال الغزالي في المستصفى: "أراد بالهدى التوحيد ودلالة الأدلة العقلية على الواحدانية والصفات لأنه تعالى أمره بالاقتداء بهداهم فلو كان المراد بالهدى شرائعهم لكان أمرا بشرائع مختلفة وناسخة ومنسوخة فدل أنه أراد الهدى المشترك بين جميعهم"اهـ.ومعنى هذا أن الآية لا تقوم حجة على المخالف فلا مانع من أن يكون فيها استئناس لمن رأى حجية شرع من قبلنا على الصفات التي ذكرتها آنفا.وفي صحيح البخاري في تفسير سورة "ص"عن العوام قال: "سألت مجاهدا عن سجدة ص فقال: سألت ابن عباس: "من أين سجدت؟"أي من أي دليل أخذت أن تسجد في هذه الآية، يريد أنها حكاية عن سجود داود وليس فيها صيغة أمر السجود"فقال: "أوما تقرأ ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فكان داود ممن أمر نبيكم أن يقتدي به فسجدها داود فسجدها رسول الله".

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤٠/٦

والمذاهب في هذه المسألة أربعة: المذهب الأول: مذهب مالك فيما حكاه ابن بكير وعبد الوهاب القرافي ونسبوه إلى أكثر أصحاب مالك: أن شرائع من قبلنا تكون." (١)

"ثم على هذا القول تكون قراءة ﴿تجعلونه قراطيس﴾ بالفوقيةجارية على الظاهر، وقراءته بالتحية من قبيل الالتفات.ونكتته أنهم لما أخبر عنهم بهذا الفعل الشنيع جعلوا كالغائبين عن مقام الخطاب.

والمخاطب بقوله: ﴿وعلمتم﴾ على هذا الوجه هم اليهود، فتكون الجملة حالا من ضمير ﴿تجعلونه﴾ ، أي تجعلونه قراطيس تخفون بعضها في حال أن الله علمكم على لسان محمد ما لم تكونوا تعلمون، ويكون ذلك من تمام الكلام المعترض به.

ويجيء على قراءة ﴿يجعلونه قراطيس﴾ بالتحتية . أن يكون الرجوع إلى الخطاب بعد الغيبة التفاتا أيضا.وحسنه أنه لما أخبر عنهم بشيء حسن عاد إلى مقام الخطاب، أو لأن مقام الخطاب أنسب **بالامتنان**.

واعلم أن نظم الآية صالح للرد على كلا الفريقين مراعاة لمقتضى الروايتين.فعلى الرواية الأولى فواو الجماعة في"قدروا . وقالوا"عائدة إلى ما عاد إليه إشارة هؤلاء، وعلى الرواية الثانية فالواو واو الجماعة مستعملة في واحد معين على طريقة التعريض بشخص من باب: "ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله"، وذلك من قبيل عود الضمير على غير مذكور اعتمادا على أنه مستحضر في ذهن السامع.

وقوله: ﴿قل الله﴾ جواب الاستفهام التقريري.وقد تولى السائل الجواب لنفسه بنفسه لأن المسؤول لا يسعه إلا أن يجيب بذلك لأنه لا يقدر أن يكابر، على ما قررته في تفسير قوله تعالى: ﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله﴾ في هذه السورة[١٢].

والمعنى قل الله أنزل الكتاب على موسى.وإذا كان ﴿وعلمتم ما لم تعلموا﴾ معطوفا على جملة ﴿أنزل﴾ كان الجواب شاملا له، أي الله علمكم ما لم تعلموا فيكون جوابا عن الفعل المسند إلى المجهول بفعل مسند إلى المعلوم على حد قول ضرار بن نهشل أو الحارث النهشلي يرثي أخاه يزيد:

ليبك يزيد ضارع لخصومة ... ومختبط مما تطيح الطوائح

كأنه سئل من يبكيه فقال: ضارع.

---

(١) التحرير والتنوير، ٦/٢٠٧

وعطف ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ بثم للدلالة على الترتيب الرتبي، أي أنهم لا تنجع فيهم الحجج والأدلة فتركهم وخوضهم بعد التبليغ هو الاولى ولكن الاحتجاج عليهم لتبكيتهم وقطع معاذيرهم.." (١)

"والنجوم جمع نجم، وهو الكوكب، أي الجسم الكروي المضيء في الأفق ليلا الذي يبدو للعين صغيرا، فليس القمر بنجم.

و ﴿جعل﴾ هنا بمعنى خلق، فيتعدى إلى مفعول واحد و ﴿لكم﴾ .متعلق بـ ﴿جعل﴾ ، والضمير للبشر كلهم، فلام ﴿لكم﴾ للعلة.

وقوله: ﴿لتهتدوا بها﴾ علة ثانية لـ ﴿جعل﴾ فاللام للعلة أيضا، وقد دلت الأولى على قصد الامتنان، فلذلك دخلت على ما يدل على الضمير الدال على الذوات، كقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: ١]،واللام الثانية دلت على حكمة الجعل وسبب الامتنان وهو ذلك النفع العظيم.ولما كان الاهتداء من جملة أحوال المخاطبين كان موقع قوله: ﴿لتهتدوا﴾ قريبا من موقع بدل الاشتمال بإعادة العامل، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا﴾ في سورة المائدة[١١٤].

والمراد بالظلمات: الظلمة الشديدة، فصيغة الجمع مستعملة في القوة.وقد تقدم أن الشائع أن يقال: ظلمات، ولا يقال: ظلمة. عند قوله تعالى: ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ في سورة البقرة[١٧].

وإضافة ﴿ظلمات﴾ إلى ﴿البر والبحر﴾ على معنى"في"لأن الظلمات واقعة في هذين المكانين، أي لتهتدوا بها في السير في الظلمات.ومن ينفي الإضافة على معنى"في"يجعلها إضافة على معنى اللام لأدنى ملابسة كما في"الكوكب الخرقاء"١.والإضافة لأدنى ملابسة، إما مجاز لغوي مبنى على المشابهة، فهو استعارة على ما هو ظاهر كلام "المفتاح"في مبحث البلاغة والفصاحة إذ جعل في قوله تعالى: ﴿يا أرض ابلعي ماءك﴾ [هود: ٤٤]"إضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيها لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك"أهـ.فاستعمل فيه الإضافة التي هي على معنى لام الملك فهو استعارة تبعية؛ وإما مجاز عقلي على رأي التفتزاني في موضع آخر إذ قال في "كوكب الخرقاء": "حقيقة الإضافة اللامية الاختصاص الكامل، فالإضافة لأدنى ملابسة تكون مجازا حكميا".ولعل التفتز ا ني يرى الاختلاف في المجاز باختلاف قرب الإضافة لأدنى ملابسة من معنى الاختصاص وبعدها منه كما يظهر الفرق بين المثالين، على أن قولهم: لأدنى ملابسة،

---

(١) التحرير والتنوير، ٦/٢١٥

-

١ في قول الشاعر الذي لم يعرف اسمه :

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحرة

سهيل أذاعت غزلها في القرائب." [١]

"على جملة ﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ [الأنعام: ١٤٠] تذكيرا بمنة الله تعالى على الناس بما أنشأ لهم في الأرض مما ينفعهم، فبعد أن بين سوء تصرف المشركين فيما من به على الناس كلهم مع تسفيه آرائهم في تحريم بعضها على أنفسهم، عطف عليه المنة بذلك استنز إلا بهم إلى إدراك الحق والرجوع عن الغي، ولذلك أعيد في هذه الآية غالب ما ذكر في نظيرتها المتقدمة في قوله: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ [الأنعام: ٩٩] لأن المقصود من الآية الأولى الاستدلال على أنه الصانع، وأنه المنفرد بالخلق، فكيف يشركون به غيره. ولذلك ذيلها بقوله: ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ [الأنعام: ٩٩]، وعطف عليها قوله: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ [الأنعام: ١٠٠] الآيات.

والمقصود من هذه: الامتنان وإبطال ما ينافي الامتنان ولذلك ذيلت هذه بقوله ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾.

والكلام كوجه إلى المؤمنين والمشركين، لأنه اعتبار وامتنان، وللمؤمنين الحظ العظيم من ذلك، ولذلك أعقب بالأمر بأداء حق الله في ذلك بقوله: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ إذ لا يصلح ذلك الخطاب للمشركين.

وتعريف المسند يفيد الاختصاص، أي هو الذي أنشأ لا غيره، والمقصود من هذا الحصر إبطال أن يكون لغيره حظ فيها، لإبطال ما جعلوه من الحرث والأنعام من نصيب أصنامهم مع أن الله أنشأه.

والإنشاء: الإيجاد والخلق، قال تعالى ﴿إنا أنشأناهن إنشاء﴾ [الواقعة:٣٥] أي نساء الجنة.

والجنات هي المكان من الأرض النابت فيه شجر كثير بحيث يجن أي يستر الكائن فيه، وقد تقدم عند قوله ﴿كمثل جنة بربوة﴾ [البقرة: ٢٦٥] في سورة البقرة. وإنشاؤها إنباتها وتيسير ذلك بإعطائها ما يعينها على النماء، ودفع ما يفسدها أو يقطع نبتها، كقوله ﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ [الواقعة:٦٤].

---

(١) التحرير والتنوير، ٦/٢٣٥

والمعروشات: المرفوعات. يقال: عرش الكرمة إذا رفعها على أعمدة ليكون نماؤها في ارتفاع لا على وجه الأرض، لأن ذلك أجود لعنبها إذ لم يكن ملقى على وجه." (١)

"والذرة ولكنا نكلفكم ما تظنون أنه عدل ووفاء. والمقصود من هذا الاحتراس أن لا يترك الناس التعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة، فيفضي ذلك إلى تعطيل منافع جمة. وقد عدل في هذا الاحتراس عن طريق الغيبة الذي بني عليه المقول ابتداء من قوله: ﴿ما حرم ربكم عليكم﴾ [الأنعام: ١٥١] لما في من الاحتراس من الامتنان، فتولى الله خطاب الناس فيه بطريق التكلم مباشرة زيادة بالمنة، وتصديقا للمبلغ، فالوصاية بإيفاء الكيل والميزان راجعة إلى حفظ مال المشتري من مظنة الإضاعة، لأن حالة الكيل والوزن حالة غفلة للمشتري، إذ البائع هو الذي بيده المكيال أو الميزان، ولأن المشتري لرغبته في تحصيل المكيل أو الموزون قد يتحمل التطفف، فأوصي البائع بإيفاء الكيل والميزان. وهذا الأمر يدل بفحوى الخطاب على وجوب حفظ المال فيما هو أشد من التطفف، فإن التطفف إن هو إلا مخالسة قدر يسير المبيع، وهو الذي لا يظهر حين التقدير فأكل ما هو أكثر من ذلك من المال أولى بالحفظ، وتجنب الاعتداء عليه.

ويجوز أن تكون جملة: ﴿لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ تذييلا للجمل التي قبلها، تسجيلا عليهم بأن جميع ما دعوا إليه هو في طاقتهم ومكنتهم. وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ في آخر سورة البقرة [٢٨٦].

﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾

هذا جامع كل المعاملات بين الناس بواسطة الكلام وهي الشهادة، والقضاء، والتعديل، والتجريح، والمشاورة، والصلح بين الناس، والأخبار المخبرة عن صفات الأشياء في المعاملات: من صفات المبيعات، والمؤجرات، والعيوب، وفي الوعود، والوصايا، والأيمان، وكذلك المدائح والشتائم كالقذف، فكل ذلك داخل فيما يصدر عن القول.

والعدل في ذلك أن لا يكون في القول شيء من الاعتداء على الحقوق: بإبطالها، أو إخفائها، مثل كتمان عيوب المبيع، وادعاء العيوب في الأشياء السليمة، والكذب في الأثمان، كأن يقول التاجر: أعطيت في هذه السلعة كذا، لثمن لم يعطه، أو أن لم يعطه، أو أن هذه السلعة قامت علي بكذا. ومنه التزام الصدق في التعديل والتجريح وإبداء النصيحة في المشاورة، وقول الحق في الصلح. وأما الشهادة والقضاء فأمر

---

(١) التحرير والتنوير، ٧/٨٨

العدل فيهما ظاهر، وإذا وعد القائل لا يخلف، وإذا أوصى لا يظلم أصحاب حقوق الميراث، ولا يحلف على." (١)

"عويف القواني:

خبر أتاني عن عيينة موجع ... كادت عليه تصدع الأكياد

أي هو كتاب عظيم تنويها بشأنه فصار التنكير في معنى التوصيف.

وإما لأنه أريد بالتنكير التعجيب من شأن هذا الكتاب في جميع ما حف به من البلاغة والفصاحة والإعجاز والإرشاد، وكونه نازلا على رجل أمي.

وقوله: ﴿أنزل إليك﴾ يجوز أن يكون صفة لـ ﴿كتاب﴾ فيكون مسوغا ثانيا للابتداء بالنكرة ويجوز أن يكون هو الخبر فيجوز أن يكون المقصود من الأخبار تذكير المنكرين والمكابرين، لأن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يعلمون أنه أنزل من عند الله، فلا يحتاجون إلى الإخبار به، فالخبر مستعمل في التعريض بتغليط المشركين والمكابرين والقاصدين إغاظة الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض، ويجوز أن يكون المقصود من الخبر الامتنان والتذكير بالنعمة، فيكون الخبر مستعملا في الامتنان على طريقة المجاز المرسل المركب.

ويجوز أن يجعل الخبر هو قوله: ﴿أنزل إليك﴾ مع ما انضم إليه من التفريع والتعليل، أي هو كتاب أنزل إليك فكن منشرح الصدر به، فإنه أنزل إليك لتنذر به الكافرين وتذكر المؤمنين، والمقصود: تسمين نفس النبي صلى الله عليه وسلم، وإغاظة الكافرين، وتأنيس المؤمنين، أي: هو كتاب أنزل لفائدة، وقد حصلت الفائدة فلا يكن في صدرك حرج إن كذبوا. وبهذه الاعتبارات وبعدم منافاة بعضها لبعض يحمل الكلام على إرادة جميعها وذلك من مطالع السور العجيبة البيان.

ومن المفسرين من قدروا مبتدأ محذوفا، وجعلوا ﴿كتاب﴾ خبرا عنه، أي هذا كتاب، أي أن المشار إليه القرآن الحاضر في الذهن، أو المشار إليه السورة أطلق عليها كتاب، ومنهم من جعل ﴿كتاب﴾ خبرا عن كلمة ﴿المص﴾ [الأعراف:١] وكل ذلك بمعزل عن متانة المعنى.

وصيغ فعل: ﴿أنزل﴾ بصيغة النائب عن الفاعل اختصارا، للعلم بفاعل الإنزال، لأن الذي ينزل الكتب على الرسل هو الله تعالى، ولما في مادة الإنزال من الإشعار بأنه من الوحي لملائكة العوالم السماوية.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢٤/٧

والفاء في قوله: ﴿فلا يكن في صدرك﴾ اعتراضية إذ الجملة معترضة بين فعل ﴿أنزل﴾ ومتعلقة وهو ﴿لتنذر به﴾ ، فإن الاعتراض يكون مقترنا بالفاء كما يكون مقترنا." (١)

"في محل الفاعل بقليلا فهي حال سببية.

وفي التعقيب بهذه الآية لآية: ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ [الأعراف: ٤] إيماء إلى إن إهمال شكر النعمة يعرض صاحبها لزوالها، وهو ما دل عليه قوله: ﴿أهلكناها﴾ .

[١٣،١١] ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾.

عطف على جملة: ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ [الأعراف: ١٠] تذكيرا بنعمة إيجاد النوع، وهي نعمة عناية، لأن الوجود أشرف من العدم، بقطع النظر عما قد يعرض للموجود من الأكدار والمتاعب، وبنعمة تفضيله على النوع بأن أمر الملائكة بالسجود لأصله، وأدمج في هذا **الامتنان** تنبيه وإيقاظ إلى عداوة الشيطان لنوع الإنسان من القدم، ليكون ذلك تمهيدا للتحذير من وسوسه وتضليله، وإغراء بالإقلاع عما أوقع فيه الناس من الشرك والضلالة، وهو غرض السورة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ [الأعراف: ٢٧] وما قلاه من الآيات، فلذلك كان هذا بمنزلة الاستدلال وسط في خلال الموعظة.

والخطاب للناس كلهم، والمقصود منه المشركون، لأنهم الغرض في هذه السورة.

وتأكيد الخبر باللام و قد للوجه الذي تقدم في قوله: ﴿ولقد خلقناكم﴾ ، وتعديه فعلي الخلق والتصوير إلى ضمير المخاطبين، لما كان على معنى خلق النوع الذي هم من أفراد تعين أن يكون المعنى: خلقنا أصلكم ثم صورنا، وهو آدم، كما أفصح عنه قوله: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ .

والخلق الإيجاد وإبراز الشيء إلى الوجود، وهذا الإطلاق هو المراد منه عند إسناده إلى الله تعالى أو وصف الله به.

والتنوير جعل الشيء صورة، والصورة الشكل الذي يشكل به الجسم كما يشكل الطين بصورة نوع من الأنواع.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠/٨

وعطفت جملة ﴿صورناكم﴾ بحرف "ثم" الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة." [1]

"الخلق، لأن التصوير حالة كمال في الخلق بأن كان الإنسان على الصورة الإنسانية المتقنة حسنا وشرفا، بما فيها من مشاعر الإدراك والتدبير، سواء كان التصوير مقارنا للخلق كما في خلق آدم، أم كان بعد الخلق بمدة، كما في تصوير الأجنة من عظام ولحم وعصب وعروق ومشاعر، كقوله تعالى: ﴿فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما﴾ [المؤمنون: ١٤].

وتعدية فعلي "خلقنا" و"صورنا" إلى ضمير الخطاب ينتظم في سلك ما عاد إليه الضمير قبله في قوله: ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ [الأعراف: ١٠] الآية فالخطاب للناس كلهم توطئة لقوله فيما يأتي: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ [الأعراف: ٢٧] والمقصود بالخصوص منه المشركون لأنهم الذين سول لهم الشيطان كفران هذه النعم لقوله تعالى عقب ذلك: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾ [الأعراف: ٢٨] وقوله فيما تقدم: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون﴾ [لأعراف:٣].

وأما تعلق فعلى الخلق والتصوير بضمير المخاطبين فمراد منه أصل نوعهم الأول وهو آدم بقرينة تعقيبه بقوله: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ فنزل خلق أصل نوعهم منزلة خلق أفراد النوع الذين منهم المخاطبون لأن المقصود التذكير بنعمة الإيجاد ليشكروا موجدهم ونظيره قوله تعالى: ﴿إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية﴾ [الحاقة:١١] أي حملنا أصولكم وهم الذين كانوا مع نوح وتناسل منهم الناس بعد الطوفان، لأن المقصود **الامتنان** على المخاطبين بإنجاء أصولهم الذين تناسلوا منهم، ويجوز أن يؤول فعلا الخلق والتصوير بمعنى إرادة حصول ذلك، كقوله تعالى، حكاية عن كلام الملائكة مع إبراهيم: ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ [الذريات:٣٥] أي أردنا إخراج من كان فيها، فإن هذا الكلام وقع قبل أمر لوط ومن آمن به بالخروج من القرية.

ودل قوله: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ على أن المخلوق والمصور هو آدم، ومعنى الكلام خلقنا أصلكم وصورناه فبز موجودا معينا مسمى بآدم، فإن التسمية طريق لتعين المسمى، ثم أظهرنا فضله وبديع صنعنا فيه فقلنا للملائكة اسجدوا له فوقع إيجاز بديع في نسج الكلام.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨/٨

و"ثم" في قوله: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ عاطفة الجملة على الجملة فهي مقيدة للتراخي الرتبي لا للتراخي الزماني وذلك أن مضمون الجملة المعطوفة هنا أرقى رتبة." (١)

"كما في وقل النابغة:

قعودا لدى أبياتهم يثمدونهم ... رمى الله في تلك الأكف الكوانع

أي ملازمين أبياتا لغيرهم يرد الجلوس، إذ قد يكونون يسألون واقفين، وماشين، ووجه الكناية هو أن ملازمة المكان تستلزم الإعياء من الوقوف عنده، فيقعد الملازم طلبا للراحة، ومن ثم أطلق على المستجير اسم القعيد، ومن إطلاق القعيد على الملازم قوله تعالى: ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ [ق:١٧] أي ملازم إذ الملك لا يوصف بقعود ولا قيام.

ولما ضمن فعل: ﴿لأقعدن﴾ معنى الملازمة انتصب ﴿صراطك﴾ على المفعولية. أو على تقدير فعل تضمنه معنى لأقعدن تقديره: فامنعن صراطك أو فأقطعن عنهم صراطك، واللام في لهم للأجل كقوله: ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ [التوبة: ٥].

وإضافة الصراط إلى اسم الجلالة على تقدير اللام أي الصراط الذي هو لك أي الذي جعلته طريقا لك، والطريق لله هو العمل الذي يحصل به ما يرضي الله بامتثال أمره، وهو فعل الخيرات، وترك السيئات، فالكلام تحصيل هيئة العازمين على فعل الخير، وعزمهم عليه، وتعرض الشيطان لهم بالمنع من فعله، بهيئة الساعي في طريق إلى مقصد ينفعه وسعيه إذا اعترضه في طريقه قاطع طريق منعه من المرور فيه.

والضمير في ﴿لهم﴾ ضمير الإنس الذين دل عليهم مقام المحاورة، التي اختصرت هنا اختصارا دعا إليه الاقتصار على المقصود منها، وهو **الامتنان** بنعمة الخلق، والتحذير من كيد عدو الجنس، فتفضيل المحاورة مشعر بأن الله لما خلق آدم خاطب أهل الملأ الأعلى بأنه خلقه ليعمر به وبنسله الأرض، كما أنبأ بذلك قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠]، فالأرض مخلوقة يومئذ، وخلق الله آدم ليعمرها بذريته وعلم إبليس ذلك من إخبار الله تعالى الملائكة، فحكى الله من كلامه ما به الحاجة هنا: وهو قوله ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ الآية وقد دلت آية سورة الحجر على أن إبليس ذكر في محاورته ما دل على أنه يريد إغواء أهل الأرض في قوله تعالى: ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠] فإن كان آدم قد خلق في الجنة في السماء ثم أهبط إلى الأرض فإن علم إبليس بأن آدم يصير إلى الأرض قد

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٩/٨

حصل من إخبار الله تعالى بأن يجعل في الأرض خليفة، فعلم أنه صائر إلى الأرض بعد حين وإن كان آدم قد خلق في الجنة." (١)

"وقرأه ابن كثير، وعاصم، وحمزة، وأبو عمرو، ويعقوب، وخلف: برفع: ﴿لباس التقوى﴾ على أن الجملة معطوفة على جملة ﴿قد أنزلنا عليكم لباسا﴾ ، فيجوز أن يكون المراد بلباس التقوى مثل ما يرد به في قراءة النصب. ويجوز أن يكون المراد بالتقوى تقوى الله وخشيته، وأطلق عليها. اللباس إما بتخييل التقوى بلباس يلبس، وإما بتشبيه ملازمة تقوى الله بملازمة اللابس لباسه، كقوله تعالى: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ [البقرة: ١٨٧] مع ما يحسن هذا الإطلاق من المشاكلة.

وهذا المعنى الرفع أليق به. ويكون استطرادا للتحريض على تقوى الله، فإنها خير للناس من منافع الزينة، واسم الإشارة على هذه القراءة لتعظيم المشار إليه.

وجملة: ﴿ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ استئناف ثان على قراءة: ﴿لباس التقوى﴾ بالنصب بأن استأنف. بعد **الامتنان** بأصناف اللباس، استئنافين يؤذنان بعظيم النعمة: الأول بأن اللباس خير للناس، والثاني بأن اللباس آية من آيات الله تدل على علمه ولطفه، وتدل على وجوده، وفيها آية أخرى وهي الدلالة على علم الله تعالى بأن ستكون أمة يغلب عليها الضلال فيكونون في حجهم عراة، فلذلك أكد الوصاية به. والمشار إليه، بالإشارة التي في الجملة الثانية، عين المشار إليه بالإشارة التي في الجملة الأولى وللاهتمام بكلتا الجملتين جعلت الثانية مستقلة غير معطوفة.

وعلى قراءة رفع: ﴿لباس التقوى﴾ تكون جملة: ﴿ذلك من آيات الله﴾ استئنافا واحدا والإشارة التي في الجملة الثانية عائدة إلى المذكور قبل من أصناف اللباس حتى المجازي على تفسير لباس التقوى بالمجازي.

وضمير الغيبة في: ﴿لعلهم يذكرون﴾ التفات أي جعل الله ذلك آية لعلكم تتذكرون عظيم قدرة الله تعالى وانفراده بالخلق والتقدير واللطف، وفي هذا الالتفات تعريض بمن لم يتذكر من بني آدم فكأنه غائب عن حضرة الخطاب، على أن ضمائر الغيبة، في مثل هذا المقام في القرآن، كثيرا ما يقصد بها مشركو العرب.

[٢٧] ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧/٨

أعيد خطاب بني آدم، فهذا النداء تكملة للآي قبله، بني على التحذير من متابعة." [(١)]

"شيء وفعل ضده يأمر بضده فيحصل الغرضان من أمره.

وإقامة الوجوه تمثيل لكمال الإقبال على عبادة الله تعالى، في مواضع عبادته، بحال المتهيئ لمشاهدة أمر مهم حين يوجه وجهه إلى صوبه، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فلذلك التوجه المحض يطلق عليه إقامة لأنه جعل الوجه قائما، أي غير متغاض ولا متوان في التوجه، وهو في إطلاق القيام على القوة في الفعل كما يقال: قامت السوق، وقامت الصلاة، وقد تقدم في أول سورة البقرة[٣] عند قوله: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا﴾ [الروم: ٣٠] فالمعنى أن الله أمر بإقامة الوجوه عند المساجد، لأن ذلك هو تعظيم المعبود ومكان العبادة. ولم يأمر بتعظيمه ولا تعظيم مساجده بما سوى ذلك مثل التعري، وإشراك الله بغيره في العبادة مناف لها أيضا، وهذا كما ورد في الحديث: " المصلي يناجي ربه فلا يبصقن قبل وجهه" فالنهي عن التعري مقصود هنا لشمول اللفظ إي١هـ، ولدلالة السياق عليه بتكرير **الامتنان** والأمر باللباس: ابتداء من قوله: ﴿ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما﴾ [الأعراف: ٢٠] إلى هنا.

ومعنى: ﴿عند كل مسجد﴾ عند كل مكان متخذ لعبادة الله تعالى، واسم المسجد منقول في الإسلام للمكان المعين المحدود المتخذ للصلاة وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد﴾ في سورة العقود [٢]، فالشعائر التي يوقعون فيها أعمالا من الحج كلها مساجد، ولم يكن لهم مساجد غير شعائر الحج، فذكر المساجد في الآية يعين أن المراد إقامة الوجوه عند التوجه إلى الله في الحج بأن لا يشركوا مع الله في ذلك غيره من أصنامهم بالنية، كما كانوا وضعوا هبل على سطح الكعبة ليكون الطواف بالكعبة لله ولهبل، ووضعوا اسافا ونائلة على الصفا والمروة ليكون السعي لله ولهما. وكان فريق منهم يهلون إلى مناة عند المشلل، فالأمر بإقامة الوجوه عند المساجد كلها أمر بالتزام التوحيد وكمال الحال في شعائر الحج كلها، فهذه مناسبة عطف قوله: ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ عقب إنكار أن يأمر الله بالفحشاء من أحوالهم، وإثبات أنه أمر بالقسط مما يضادها. وهذا الأمر وإن كان المقصود به المشركين لأنهم المتصفون بضده، فالمؤمنين منه حظ الدوام عليه، كما كان للمشركين حظ الإعراض عنه والتفريط فيه.

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٩/٨

والدعاء في قوله ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ بمعنى العبادة أي اعبدوه كقوله: ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ [لأعراف: ١٩٤]. والإخلاص تمحيض الشيء من مخالطة." (١)

"والأمر تبارك الله رب العالمين﴾.

جاءت أغراض هذه السورة متناسبة متماسكة. فإنها ابتدئت بذكر القرآن والأمر باتباعه ونبذ ما يصد عنه وهو اتباع الشرك، ثم التذكير بالأمم التي أعرضت عن طاعة رسل الله. ثم الاستدلال على وحدانية الله، والامتنان بخلق الأرض والتمكين منها، وبخلق أصل البشر وخلقهم، وخلل ذلك بالتذكير بعداوة الشيطان لأصل البشر وللبشر في قوله: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ [لأعراف: ١٦]. وانتقل من ذلك إلى التنديد على المشركين فيما اتبعوا فيه تسويل الشيطان من قوله: ﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾ [الأعراف: ٢٨]، ثم بتذكيرهم بالعهد الذي أخذه الله على البشر في قوله: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم﴾ [الأعراف: ٣٥] الآية. وبأن المشركين ظلموا بنكث العهد بقوله: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته﴾ [الأعراف: ٣٧] وتوعدهم وذكرهم أحوال أهل الآخرة، وعقب ذلك عاد إلى ذكر القرآن بقوله: ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم﴾ [الأعراف: ٥٢] وأنهاه بالتذييل بقوله: ﴿قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ [لأعراف: ٥٣].

فلا جرم تهيأت الأسماع والقلوب لتلقي الحجة على أن الله إله واحد، وأن آلهة المشركين ضلال وباطل، ثم لبيان عظيم قدرته ومجده فلذلك استؤنف بجملة ﴿إن ربكم الله﴾ الآية، استئنافا ابتدائيا عاد به التذكير إلى صدر السورة في قوله: ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ ، فكان ما في صدر السورة بمنزلة المطلوب المنطقي، وكان ما بعده بمنزلة البرهان، وكان قوله: ﴿إن ربكم الله﴾ بمنزلة النتيجة للبرهان، والنتيجة مساوية للمطلوب الا أنها تؤخذ أوضح وأشد تفصيلا.

فالخطاب موجه إلى المشركين ابتداء، ولذلك كان للتأكيد بحرف "إن" موقعه لرد إنكار المشركين انفراد الله بالربوبية، وإذ كان ما اشتملت عليه هذه الآية يزيد المسلمين بصيرة بعظم مجد الله وسعة ملكه، ويزيدهم ذكرى بدلائل قدرته، كان الخطاب صالحا لتناول المسلمين، لصلاحية ضمير الخطاب لذلك، ولا يكون حرف "إن" بالنسبة إليهم سدى، لأنه يفيد الاهتمام بالخبر، لأن فيه حظا للفريقين، ولأن بعض ما اشتمل عليه "ما" هو بالمؤمنين أعلق مثل ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾ [الأعراف: ٥٥] وقوله: ﴿إن رحمت

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٨/٨

الله قريب من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦] وبعضه بالكافرين أنسب مثل قوله ﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ [الأعراف: ٥٧].." (١)

"ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾.

جملة ﴿وهو الذي يرسل الرياح﴾ عطف على جملة: ﴿يغشي الليل النهار﴾ [الأعراف: ٥٤] وقد حصلت المناسبة بين آخر الجمل المعترضة وبين الجملة المعترض بينها وبين ما عطفت عليه بأنه لما ذكر قرب رحمته من المحسنين ذكر بعضا من رحمته العامة وهو المطر. فذكر إرسال الرياح هو المقصود الأهم لأنه دليل على عظم القدرة والتدبير، ولذلك جعلناه معطوفا على جملة: ﴿يغشي الليل النهار﴾ [الأعراف: ٥٤] أو على جملة :﴿ألا له الخلق والأمر﴾ [الأعراف: ٥٤]. وذكر بعض الأحوال المقارنة لإرسال الرياح يحصل منه إدماج الامتنان في الاستدلال وذلك لا يقتضي أن الرياح لا ترسل إلا للتبشير بالمطر، ولا أن المطر لا ينزل إلا عقب إرسال الرياح، إذ ليس المقصود تعليم حوادث الجو، وإذ ليس في الكلام ما يقتضي انحصار الملازمة وفيه تعريض ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم ونذارة المشركين بالقحط والجوع كقوله: ﴿وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾ [الجن:١٦] وقوله ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ [الدخان: ١٠].

وأطلق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة، فإرسال الرياح هبوبها من المكان الذي تهب فيه ووصولها، وحسن هذه الاستعارة أن الريح مسخرة إلى المكان الذي يريد الله هبوبها فيه فشبهت بالعاقل المرسل إلى جهة ما، ومن بدائع هذه الاستعارة أن الريح لا تفارق كرة الهواء كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ الآية في سورة البقرة [١٦٤]، فتصريف الرياح من جهة إلى جهة أشبه بالإرسال منه بالإيجاد. والرياح: جمع ريح، وقد تقدم في سورة البقرة.

وقرأ الجمهور ﴿الرياح﴾ بصيغة الجمع وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف: الريح بصيغة المفرد باعتبار الجنس، فهو مساو لقراءة الجمع، قال ابن عطية: من قرأ بصيغة الجمع فقراءته أسعد، لأن الرياح حيثما وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، كقوله: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ [الحجر: ٢٢] وأكثر ذكر الريح المفردة أن تكون مقترنة بالعذاب كقوله: ﴿ريح فيها عذاب أليم﴾ [الاحقاف: ٢٤] ونحو ذلك. ومن

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢٢/٨

قرأ بالإفراد فتقييدها بالنشر يزيل الاشتراك أي الإيهام. والتحقيق أن التعبير بصيغة الجمع قد يراد به تعدد المهاب أو حصول الفترات في الهبوب، وأن الإفراد قد يراد به أنها مدفوعة دفعة." (١)

"ومحل الامتنان هو أن جعل منازلهم قسمين: قسم صالح للبناء فيه، وقسم صالح لنحت البيوت، قيل: كانوا يسكنون في الصيف القصور، وفي الشتاء البيوت المنحوتة في الجبال.

وتفريع الأمر بذكر آلاء الله على قوله: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ تفريع الأعم على الأخص، لأنه أمرهم بذكر نعمتين، ثم أمرهم بذكر جميع النعم التي لا يحصونها، فكان هذا بمنزلة التذييل.

وفعل: ﴿واذكروا﴾ مشتق من المصدر، الذي هو بضم الذال، وهو التذكر بالعقل والنظر النفساني، وتذكر آلاء يبعث على الشكر والطاعة وترك الفساد، فلذلك عطف نهيهم عن الفساد في الأرض على الأمر بذكر آلاء الله.

﴿ولا تعثوا﴾ معناه ولا تفسدوا، يقال: عثى كرضي، وهذا الأفصح، ولذلك جاء في الآية بفتح الثاء حين أسند إلى واو الجماعة، ويقال عثا يعثو من باب سما عثوا وهي لغة دون الأولى، وقال كراع، كأنه مقلوب عاث. والعثي والعثو كله بمعنى أفسد أشد ال إفساد.

و ﴿مفسدين﴾ حال مؤكدة لمعنى ﴿تعثوا﴾ وهو وإن كان أعم من المؤكد فإن التأكيد يحصل ببعض معنى المؤكد.

[٧٦,٧٥] ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾.

عدل الملأ الذين استكبروا عن مجادلة صالح عليه السلام إلى اختبار تصلب الذين آمنوا به في إيمانهم، ومحاولة إلقاء الشك في نفوسهم، ولما كان خطابهم للمؤمنين مقصودا به إفساد دعوة صالح عليه السلام كان خطابهم بمنزلة المحاورة مع صالح عليه السلام، فلذلك فصلت جملة حكاية قولهم على طريقة فصل جمل حكاية المحاورات، كما قدمناه غير مرة آنفا وفيما مضى.

وتقدم تفسير الملأ قريبا.

ووصفهم بالذين استكبروا هنا لتفظيع كبرهم وتعاظمهم على عامة قومهم واستذلالهم." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣٧/٨

(٢) التحرير والتنوير، ١٧١/٨

"كالحاضرة المشاهدة الصالحة لأن يشار إليها، فجاء اسم الإشارة لزيادة إحضارها في أذهان السامعين من قوم محمد صلى الله عليه وسلم، ليعتبروا حالهم بحال أهل القرى، فيروا أنهم سواء فيفيئوا إلى الحق.

وجملة ﴿تلك القرى﴾ مستأنفة استئناف الفذلكة لما قبلها من القصص من قوله: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ [الأعراف: ٥٩] ثم قوله تعالى ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ [الأعراف: ٩٤] الآية.

و ﴿القرى﴾ يجوز أن يكون خبرا عن اسم الإشارة لأن استحضار القرى في الذهن بحيث صارت كالمشاهد للسامع، فكانت الإشارة إليها إشارة عبرة بحالها، وذلك مفيد للمقصود من الإخبار عنها باسمها لمن لا يجهل الخبر كقوله تعالى: ﴿هذا ما كنزتم لانفسكم﴾ [التوبة: ٣٥] أي هذا الذي تشاهدونه تكوون به هو كنزكم، وهم قد علموا أنه كنزهم، وإنما أريد من الإخبار بأنه كنزهم إظهار خطإ فعلهم. ويجوز أن يكون القرى بيانا لاسم الإشارة.

وجملة ﴿نقص عليك من أنبائها﴾ إما حال من ﴿القرى﴾ على الوجه الأول.

وفائدة هذه الحال **الامتنان** بذكر قصصها، والاستدلال على نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ علمه الله من علم الأولين ما لم يسبق له علمه، والوعد بالزيادة من ذلك، لما دل عليه قوله: ﴿نقص﴾ من التجدد والاستمرار، والتعريض بالمعرضين عن الاتعاظ بأخبارها.

وإما خبر عن اسم الإشارة على الوجه الثاني في محمل قوله: ﴿القرى﴾ .

و"من" تبعيضية لأن لها أنباء غير ما ذكر هنا مما ذكر بعضه في آيات أخرى وطوى ذكر بعضه لعدم الحاجة إليه في التبليغ.

والأنباء: الأخبار، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ في سورة الأنعام [٣٤].

والمراد بالقرى وضمير أنبائها: أهلها. كما دل عليه الضمير في قوله: ﴿رسلهم﴾ .

وجملة ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ عطف على جملة ﴿تلك القرى﴾ لمناسبة ما في كلتا الجملتين بقصد التنظير بحال المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وجمع "البينات" يشير إلى تكرر البينات مع كل رسول، والبينات: الدلائل الدالة." (١)

"في سورة الأنعام [١٦٣].

---

(١) التحرير والتنوير، ٨/٢١٧

والمراد بالمؤمنين من كان الإيمان وصفهم ولقبهم، أي الإيمان بالله وصفاته كما يليق به، فالإيمان مستعمل في معناه اللقبي، ولذلك شبه الوصف بأفعال السجايا فلم يذكر له متعلق، ومن ذهب من المفسرين يقدر له متعلقا فقد خرج عن نهج المعنى.

وفصلت جملة ﴿قال يا موسى﴾ لوقوع القول في طريق المحاورة والمجاوبة، والنداء للتأنيس وإزالة الروع.

وتأكيد الخبر في قوله: ﴿إني اصطفيتك﴾ للاهتمام به إذ ليس محلا للانكار.

والاصطفاء افتعال مبالغة في الاصفاء وهو مشتق من الصفو، وهو الخلوص مما يكدر، وتقدم عند قوله تعالى ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا﴾ في سورة آل عمران [٣٣]، وضمن اصطفيتك معنى الإيثار والتفضيل فعدي بعلى.

والمراد بالناس: جميع الناس، أي الموجودين في زمنه، فالاستغراق في ﴿الناس﴾ عرفي أي هو مفضل على الناس يومئذ لأنه رسول، ولتفضيله بمزية الكلام وقد يقال إن موسى أفضل جميع الناس الذين مضوا يومئذ، وعلى الاحتمالين: فهو أفضل من أخيه هارون لأن موسى أرسل بشريعة عظيمة، وكلمه الله، وهارون أرسله الله معاونا لموسى ولم يكلمه الله، ولذلك قال: ﴿برسالاتي وبكلامي﴾ وما ورد في الحديث من النهي عن التفضيل بين الأنبياء محمول على التفضيل الذي لا يستند لدليل صريح، أو على جعل التفضيل بين الأنبياء شغلا للناس في نواديهم بدون مقتض معتبر للخوض في ذلك.وهذا امتنان من الله وتعريف.

ثم فرع على ذلك قوله: ﴿فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ والأول تفريع على الإرسال والتكليم، والثاني تفريع على **الامتنان**، وما صدق ﴿ما آتيتك﴾ قيل هو الشريعة والرسالة، فالإيتاء مجاز أطلق على التعليم والإرشاد، والأخذ مجاز في التلقي والحفظ، والأظهر ان يكون ﴿ما آتيتك﴾ إعطاء الألواح بقرينة قوله: ﴿وكتبنا له في الألواح﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقد فسر بذلك، فالإيتاء حقيقة، والأخذ كذلك، وهذا أليق بنظم الكلام مع قوله: ﴿فخذها بقوة﴾ [الأعراف: ١٤٥] ويحصل به أخذ الرسالة والكلام وزيادة.

والإخبار عن ﴿وكن﴾ بقوله: ﴿من الشاكرين﴾ أبلغ من ان يقال كن شاكرا كما تقدم في قوله ﴿قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين﴾ في سورة الأنعام [٥٦].." (١)

"﴿وما أدراك ما العقبة فك رقبة﴾ إلى قوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ [البلد: ١٢، ١٧].ولئلا يظن أن الإشراك لخطورته لا تنجي منه التوبة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧٨/٨

وإما أن يراد بالإيمان إيمان خاص، وهو الإيمان بإخلاص، فيشمل عمل الواجبات.

والخطاب في قوله: ﴿إن ربك﴾ لمحمد صلى الله عليه وسلم على الوجه الأظهر، أو لموسى على جعل قوله: ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ مقولا من الله لموسى.

وفي تعريف المسند إليه بالإضافة توسل إلى تشريف المضاف إليه بأنه مربوب لله تعالى، وفي ذكر وصف الربوبية هنا تمهيد لوصف الرحمة.

وتأكيد الخبر بان ولام التوكيد وصيغتي المبالغة في ﴿غفور رحيم﴾ لمزيد الاهتمام به ترغيب للعصاة في التوبة، وطردا للقنوط من نفوسهم، وإن عظمت ذنوبهم، فلا يحسبوا تحديد التوبة بحد إذا تجاوزته الذنوب بالكثرة أو العظم لم تقبل منه توبة.

وضمير ﴿من بعدها﴾ الثاني مبالغة في الامتنان بقبول توبتهم بعد التملي من السيئات.

وحذف متعلق ﴿غفور رحيم﴾ لظهوره من السياق، والتقدير: لغفور رحيم لهم، أو لكل من عمل سيئة وتاب منها.

[١٥٤] ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾.

نظم هذا الكلام مثل نظم قوله: ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ [الأعراف: ١٤٩] وقوله: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان﴾ [الأعراف: ١٥٠]، أي: ثم سكت عن موسى الغضب ولما سكت عنه أخذ الألواح وهذه الجملة عطف على جملة ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان﴾ [الأعراف: ١٥٠].

والسكوت مستعار لذهاب الغضب عنه شبه ثوران الغضب في نفس موسى المنشئ خواطر العقوبة لأخيه ولقومه وإلقاء الألواح حتى انكسرت، بكلام شخص يغريه بذلك، وحسن هذا التشبيه أن الغضبان يجيش في نفسه حديث للنفس يدفعه إلى أفعال يطفئ بها ثوران غضبه، فإذا سكن غضبه وهدأت نفسه كان ذلك بمنزلة سكوت المغري، فلذلك أطلق عليه السكوت، وهذا يستلزم تشبيه الغضب بالناطق المغري على طريقة المكنية." (١)

"وقدم في سورة البقرة قوله: ﴿وادخلوا الباب سجدا﴾ على قوله: ﴿وقولوا حطة﴾ [البقرة: ٥٨] وعكس هنا وهو اختلاف في الإخبار لمجرد التفنن، فان كلا القولين واقع قدم أو أخر.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٠٣/٨

وذكر في البقرة [٥٨] ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾ ولم يذكر وصف رغدا هنا وإنما حكي في سورة البقرة لان زيادة المنة ادخل في تقوية التوبيخ.

وجملة ﴿وسنزيد المحسنين﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لان قوله: ﴿تغفر لكم﴾ في مقام **الامتنان** بإعطاء نعم كثيرة مما يثير سؤال سائل يقول: وهل الغفران هو قصارى جزائهم؟ فأجيب بأن بعده زيادة الأجر على الإحسان، أي على الامتثال.

وفي نظير هذه الآية من سورة البقرة ذكرت جملة ﴿وسنزيد المحسنين﴾ معطوفة بالواو على تقدير: قلنا لهم ذلك وقلنا لهم سنزيد المحسنين، فالواو هنالك لحكاية الاقوال، فهي من الحكاية لا من المحكي أي قلنا وقلنا سنزيد.

وقرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب ﴿تغفر﴾ بمثناة فوقية مبنيا للمجهول، و ﴿خطيئاتكم﴾ بصيغة جمع السلامة للمؤنث وقرأه ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿نغفر﴾ بالنون مبنيا للفاعل وخطيئاتكم بصيغة جمع المؤنث السالم أيضا وقرأه أبو عمرو ﴿نغفر﴾ بالنون و ﴿خطاياكم﴾ بصيغة جمع التكسير، مثل آية البقرة، وقرأ ابن عامر: ﴿تغفر﴾ بالفوقية وخطيئتكم بالإفراد.

والاختلاف بينها وبين آية البقرة في قراءة نافع ومن وافقه: تفنن في حكاية القصة.

[١٦٣] ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ .

غير أسلوب الخبر عن بني إسرائيل هنا: فابتدئ ذكر هذه القصة بطلب أن يسال سائل بني إسرائيل الحاضرين عنها، فنعلم من ذلك أن لهذه القصص الآتية شأنا غير شأن القصص الماضية، ولا أحسب ذلك إلا من أجل أن هذه القصة ليست مما كتب في توراة اليهود ولا في كتب أنبيائهم. ولكنها مما كان مرويا عن أحبارهم، ولذلك افتتحت بالأمر بسؤالهم عنها، لإشعار يهود العصر النبوي بأن الله أطلع نبيه عليه الصلاة والسلام عليها،." (١)

"وهو كانوا يكتمونها، وذلك أن الحوادث التي تكون مواعظ للامة فيما اجترحته من المخالفات والمعاصي تبقي لها عقب الموعظة أثرا قد تعير الأمة به، ولكن ذلك التعبير لا يؤبه به في جانب ما يحصل من النفع لها بالموعظة، فالأمة في خويصتها لا يهتم قادتها ونصحاؤها إلا بإصلاح الحال، وان كان في ذكر بعض تلك الأحوال غضاضة عندها وامتعاض، فإذا جاء حكم التاريخ العام بين الأمم تناولت الأمم

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٢٦/٨

أحوال تلك الأمة بالحكم لها وعليها، فبقيت حوادث فلتاتها مغمزا عليها ومعرة تعير بها.وكذلك كان شأن اليهود لما أضاعوا ملكهم ووطنهم وجاوروا أمما أخرى فأصبحوا يكتمون عن أولئك الجيرة مساوي تاريخهم، حتى أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم فعلمه من أحوالهم ما فيه معجزة لأسلافهم، وما بقي معرة لاخلافهم، وذلك تحد لهم، ووخز على سوء تلقيهم الدعوة المحمدية بالمكر والحسد.

فالسؤال هنا في معنى التقرير لتقريع بني إسرائيل وتوبيخهم وعد سوابق عصيانهم، أي ليس عصيانهم إياك ببدع فان ذلك شنشنة قديمة فيهم، وليس سؤال الاستفادة لان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اعلم بذلك من جانب ربه تعالى.وهو نظير همزة الاستفهام التقريري فوزان ﴿واسألهم عن القرية﴾ وزان: أعدوتم في السبت، فان السؤال في كلام العرب على نوعين اشهرهما أن يسأل السائل عما لا يعلمه ليعلمه، والآخر أن يسأل على وجه التقرير حين يكون السائل يعلم حصول المسؤول عنه، ويعلم المسؤول أن السائل عالم وانه إنما سأله ليقرره.

وجملة ﴿واسألهم﴾ عطف على جملة ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية﴾ [الأعراف: ١٦١] واقعة معترضة بين قصص **الامتنان** وقصص الانتقام الآتية في قوله: ﴿وقطعناهم﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ومناسبة الانتقال إلى هذه القصة أن في كلتا القصتين حديثا يتعلق بأهل قرية من قرى بني إسرائيل.

وتقدم ذكر القرية عند قوله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ الآية من سورة البقرة [٦٥].

وهذه القرية قيل أيلة وهي المسماة اليوم العقبة وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر قرب شبه جزيرة طورسينا، وهي مبدأ أرض الشام من جهة مصر، وكانت من مملكة إسرائيل في زمان داود عليه السلام، ووصفت بأنها حاضرة البحر بمعنى الاتصال بالبحر والقرب منه، لان الحضور يستلزم القرب، وكانت أيلة متصلة بخليج من البحر." (١)

"رجعوا من اسر الآشوريين.والمراد بإرث الكتاب إعادة مزاولتهم التوراة التي أخرجها إليهم عزرا المعروف عند أهل الإسلام باسم عزيز، ويكون أخذهم عرض الأدنى اخذ بعض الخلف لا جميعه، لان صدر ذلك الخلف كانوا تائبين وفيهم أنبياء وصالحون.

وإن كان المراد من تقطيعهم في الأرض أمما تكثيرهم **والامتنان** عليهم، كان قوله: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ تفريعا على جميع القصص المتقدمة التي هي قصص أسلافهم، فيكون المراد بالخلف من نشأ من

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٢٧/٨

ذرية أولئك اليهود بعد زوال الأمة وتفرقها، منهم الذين كانوا عند ظهور الإسلام وهم اليهود الذين كانوا بالمدينة وإلى هذا المعنى في "الخلف" نحا المفسرون.

والخلف بسكون اللام من يأتي بعد غيره سابقه في مكان أو عمل أو نسل، يبينه المقام أو القرينة، ولا يغلب فيمن يخلف في أمر سيء، قاله النضر بن شميل، خلافا لكثير من أهل اللغة إذ قالوا: الأكثر استعمال الخلف بسكون اللام فيمن يخلف في الشر، وبفتح اللام فيمن يخلف في الخير، وقال البصريون: يجوز التحريك والإسكان في الرديء وأما الحسن فبالتحريك فقط.

وهو مصدر أريد به اسم الفاعل أي خالف، والخلف مأخوذ من الخلف ضد القدام لأن من يجيء بعد قوم فكأنه جاء من ورائهم، ولا حد لآخر الخلف، بل يكون تحديده بالقرائن، فلا ينحصر في جيل ولا في قرن، بل قد يكون الخلف ممتدا.قال تعالى بعد ذكر الأنبياء: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ [مريم: ٥٩] فيشمل من خلفهم من ذرياتهم من العرب واليهود وغيرهم، فانه ذكر من أسلافهم إدريس وهو جد نوح.

و ﴿ورثوا﴾ مجاز في القيام مقام الغير كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها﴾ في هذه السورة [٤٣] وقوله فيها: ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ [الأعراف: ١٠٠].فهو بمعنى الخلفية، والمعنى: فخلف من بعدهم خلف في إرث الكتاب، وهذا يجري على كلا القولين في تخصيص الخلف لأنه بيان للفعل لا لاسم الخلف.

وجملة ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ حال من ضمير ﴿ورثوا﴾ ، والمقصود هو ذم الخلف بأنهم يأخذون عرض الأدنى ويقولون سيغفر لنا، ومهد لذلك بأنهم ورثوا الكتاب ليدل على انهم يفعلون ذلك عن علم لا عن جهل، وذلك أشد مذمة كما قال تعالى:." (١)

"ولفظ ﴿نفس واحدة﴾ وحده يحتمل المعنيين، لأن في كلا الخلقين امتنانا، وفي كليهما اعتبارا واتعاظا.

وقد جعل كثير من المفسرين النفس الواحدة آدم وبعض المحققين منهم جعلوا الأب لكل أحد، وهو المأثور عن الحسن، وقتادة، ومشى عليه الفخر، والبيضاوي وابن كثير، والاصم، وابن المنير، والجباءي.

ووصفت النفس بواحدة على أسلوب الإدماج بين العبرة والموعظة، لأن كونها واحدة أدعى للاعتبار إذ ينسل من الواحدة أبناء كثيرون حتى ربما صارت النفس الواحدة قبيلة أو أمة ففي هذا الوصف تذكير

(١) التحرير والتنوير، ٣٣٩/٨

بهذه الحالة العجيبة الدالة على عظم القدرة وسعة العلم حيث بثه من نفس واحدة رجالا كثيرا ونساء، وقد تقدم القول في ذلك في طالعة سورة النساء.

والذي يظهر لي أن في الكلام استخداما في ضميري ﴿تغشاها﴾ وما بعده إلى قوله : ﴿فيما آتاهما﴾ وبهذا يجمع تفسير الآية بين كلا الرأيين.

و"من" في قوله: ﴿نفس واحدة﴾ ابتدائية.

وعبر في جانب الأنثى بفعل جعل، لأن المقصود جعل الأنثى زوجا للذكر، لا الإخبار عن كون الله خلقها، لأن ذلك قد علم من قوله: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ .

و"من" في قوله: ﴿وجعل منها﴾ للتبعيض، والمراد: من نوعها، وقوله: ﴿منها﴾ صفة لـ ﴿زوجها﴾ قدمت على الموصوف للاهتمام **بالامتنان** بان جعل الزوج وهو الانثى من نوع ذكرها وهذه الحكمة مطردة في كل زوجين من الحيوان.

وقوله: ﴿ليسكن إليها﴾ تعليل لما أفادته "من" التبعيضية.

والسكون مجاز في الاطمئنان والتأنس أي: جعل من نوع الرجل زوجه ليألفها ولا يجفو قربها، ففي ذلك منة الإيناس بها، وكثرة ممارستها لينساق إلى غشيانها، فلو جعل الله التناسل حاصلا بغير داعي الشهوة لكانت نفس الرجل غير حريصة على الاستكثار من نسله، ولو جعله حاصلا بحالة ألم لكانت نفس الرجل مقلة منه، بحيث لا تنصرف إليه إلا للاضطرار بعد التأمل والتردد، كما ينصرف إلى شرب الدواء ونحوه المعقبة منافع، وفرع عنه بفاء التعقيب ما يحدث عن بعض سكون الزوج إلى زوجه وهو الغشيان.." (١)

"بتجسيم المجردات فيراهم من أكرمه الله برؤيهم، وأما بإراءة الله الناس ما ليس من شانه أن يرى عادة.

[١٠] ﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾.

عطف على ﴿أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ [الأنفال: ٩] فالضمير المنصوب في قوله: ﴿جعله﴾ عائد إلى القول الذي تضمنه ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم﴾ [الأنفال: ٧] أي ما جعل جوابكم بهذا الكلام إلا ليبشركم، وإلا فقد كان يكفيكم أن يضمن لكم النصر دون أن يبين أنه بإمداد من الملائكة.

وفائدة التبشير بإمداد الملائكة أن يوم بدر كان في أول يوم لقي فيه المسلمون عدوا قويا وجيشا عديدا، فبشرهم الله بكيفية النصر الذي ضمه لهم بأنه بجيش من الملائكة، لأن النفوس أميل إلى

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٨٤/٨

المحسوسات، فالنصر معنى من المعاني يدق إدراكه وسكون النفس لتصوره بخلاف الصور المحسوسة من تصوير مدد الملائكة ورؤية أشكال بعضهم.

وتقدم القول في نظير هذه الآية في سورة آل عمران إلا لتعرض لما بين الآيتين من اختلاف في ترتيب النظم وذلك في ثلاثة أمور:

أحدها: أنه قال في آل عمران [١٢٦] ﴿إلا بشرى لكم﴾ وحذف ﴿لكم﴾ هنا دفعا لتكرير لفظه لسبق كلمة ﴿لكم﴾ قريبا في قوله: ﴿فاستجاب لكم﴾ [الأنفال: ٩] فعلم السامع أن البشرى لهم، فأغنت ﴿لكم﴾ الأولى، بلفظها ومعناها، عن ذكر ﴿لكم﴾ مرة ثانية، ولأن آية آل عمران سيقت مساق **الامتنان** والتذكير بنعمة النصر في حين القلة والضعف، فكان تقييد ﴿بشرى﴾ بأنها لأجلهم زيادة في المنة أي: جعل الله ذلك بشرى لأجلكم كقوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: ١] وأما آية الأنفال فهي مسوقة مساق العتاب على كراهية الخروج إلى بدر في أول الأمر، وعلى اختيار أن تكون الطائفة التي تلاقيهم غير ذات الشوكة، فجرد ﴿بشرى﴾ عن أن يعلق به ﴿لكم﴾ إذ كانت البشرى للنبي صلى الله عليه وسلم ومن لم يترددوا من المسلمين، وقد تقدم ذلك في آل عمران.

ثانيها: تقديم المجرور هنا في قوله: ﴿به قلوبكم﴾ وهو يفيد الاختصاص، فيكون المعنى: ولتطمئن به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطائفة ذات الشوكة وقناعتهم بغنم العروض التي كانت مع العير، فعرض لهم." (١)

"إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

والإرهاب جعل الغير راهبا، أي خائفا، فإن العدو إذا علم استعداد عدوه لقتاله خافه، ولم يجرأ عليه، فكان ذلك هناء للمسلمين وأمنا من أن يغزوهم أعداؤهم، فيكون الغزو بأيديهم: يغزون الأعداء متى أرادوا، وكان الحال أوفق لهم، وأيضا ذا رهبوهم تجنبوا إعانة الأعداء عليهم.

والمراد ب ﴿آخرين من دونهم﴾ أعداء لا يعرفون المسلمون بالتعيين ولا بالإجمال، وهم من كان يضمر للمسلمين عداوة وكيدا، ويتربص بهم الدوائر، مثل بعض القبائل. فقوله: ﴿لا تعلمونهم﴾ أي لم تكونوا تعلمونهم قبل هذا الإعلام، وقد علمتموهم الآن إجمالا، أو أريد: لا تعلمونهم بالتفصيل ولكنكم تعلمون وجودهم إجمالا مثل المنافقين، فالعلم بمعنى المعرفة ولهذا نصب مفعولا واحدا.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٤/٩

وقوله: ﴿من دونهم﴾ مؤذن بأنهم قبائل من العرب كانوا ينتظرون ما تنكشف عنه عاقبة المشركين من أهل مكة من حربهم مع المسلمين، فقد كان ذلك دأب كثير من القبائل كما ورد في السيرة، ولذلك ذكر ﴿من دونهم﴾ بمعنى: من جهات أخرى، لأن أصل ﴿دون﴾ أنها للمكان المخالف، وهذا أولى من حمله على مطلق المغايرة التي هي من إطلاقات كلمة "دون" لأن ذلك المعنى قد أغنى عنه وصفهم ب" ﴿آخرين﴾.

وجملة ﴿الله يعلمهم﴾ تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين، فالخبر مستعمل في معناه الكنائي، وهو تعقبهم والإغراء بهم، وتعريض بالامتنان على المسلمين بأنهم بمحل عناية الله فهو يحصي أعداءهم وينبههم إليهم.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي: للتقوي، أي تحقيق الخبر وتأكيده، والمقصود تأكيد لازم معناه، أما أصل المعنى فلا يحتاج إلى التأكيد إذ لا ينكره أحد، وأما حمل التقديم هنا على إرادة الاختصاص فلا يحسن للاستغناء عن طريق القصر بجملة النفي في قوله: ﴿لا تعلمونهم﴾ فلو قيل: ويعلمهم الله لحصل معنى القصر من مجموع الجملتين.

و إذ قد كان إعداد القوة يستدعي إنفاقا، وكانت النفوس شحيحة بالمال، تكفل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه، فقال ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾. فسبيل الله هو الجهاد لإعلاء كلمته.." (١)

"الناس في الجاهلية، فكانت سبب التقاتل بين القبائل، بعضها مع بعض، وبين بطون القبيلة الواحدة. وأقوالهم في ذلك كثيرة. ومنها قول الفضل بن العباس اللهبي:

مهلا بني عمنا مهلا موالينا ... لاتنبشوا بيننا ما كان مدفونا

الله يعلم أنا لا نحبكمو ... ولا نلومكمو أن لا تحبونا

فلما آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم انقلبت البغضاء بينهم مودة، كما قال تعالى: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ [آل عمران : ١٠٣]، وما كان ذلك التآلف والتحاب إلا بتقدير الله تعالى فإنه لم يحصل من قبل بوشائج الأنساب، ولا بدعوات ذوي الألباب.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤٦/٩

ولذلك استأنف بعد قوله: ﴿وألف بين قلوبهم﴾ قوله: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم﴾ استئنافا ناشئا عن مساق الامتنان بهذا الائتلاف، فهو بياني، أي: لو حاولت تأليفهم ببذل المال العظيم ما حصل التآلف بينهم.

فقوله: ﴿ما في الأرض جميعا﴾ مبالغة حسنة لوقوعها مع حرف "لو" الدال على عدم الوقوع. وأما ترتب الجزاء على الشرط فلا مبالغة فيه، فكان التأليف بينهم من آيات هذا الدين، لما نظم الله من ألفتهم، وأماط عنهم من التباغض. ومن أعظم مشاهد ذلك ما حدث بين الأوس والخزرج من الإحن قبل الإسلام مما نشأت عنه حرب بعاث بينهم، ثم أصبحوا بعد حين إخوانا أنصارا لله تعالى، وأزال الله من قلوبهم البغضاء بينهم.

و ﴿جميعا﴾ منصوبا على الحال من ﴿ما في الأرض﴾ وهو اسم على وزن فعيل بمعنى مجتمع، وسيأتي بيانه عند قوله تعالى: ﴿فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون﴾ في سورة هود[٥٥].

وموقع الاستدراك في قوله: ﴿ولكن الله ألف بينهم﴾ لأجل ما يتوهم من تعذر التأليف بينهم في قوله: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم﴾ أي ولكن تكوين الله يلين به الصلب ويحصل به المتعذر.

والخطاب في ﴿أنفقت﴾ و ﴿ألفت﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم باعتبار أنه أول من دعا إلى الله. وإذ كان هذا التكوين صنعا عجيبا ذيل الله الخبر عنه بقوله: ﴿إنه عزيز حكيم﴾ أي قوي القدرة فلا يعجزه شيء، محكم التكوين فهو يكون المتعذر، ويجعله كالأمر المسنون المألوف.." (١)

"التأكيد ب"إن" لمجرد الاهتمام بالخبر باعتبار جعله دليلا على بديع صنع الله تعالى .

[٦٤] ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾.

استئناف ابتدائي بالإقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بأوامر وتعاليم عظيمة، مهد لقبولها وتسهيلها بما مضى من التذكير بعجيب صنع الله والامتنان بعنايته برسوله والمؤمنين، وإظهار أن النجاح والخير في طاعته وطاعة الله، من أول السورة إلى هنا، فموقع هذه الآية بعد التي قبلها كامل الاتساق والانتظام، فإنه لما أخبره بأنه حسبه وكافيه، وبين ذلك بأنه أيده بنصره فيما مضى وبالمؤمنين، فقد صار للمؤمنين حظ في كفاية الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فلا جرم أنتج ذلك أن حسبه الله والمؤمنون، فكانت جملة: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ كالفذلكة للجملة التي قبلها.

---

(١) التحرير والتنوير، ٩/١٥٢

وتخصيص النبي بهذه الكفاية لتشريف مقامه بأن الله يكفي الأمة لأجله.

والقول في وقوع "حسب" مسندا إليه هنا كالقول في قوله آنفا ﴿فإن حسبك الله﴾ [الأنفال: ٦٢].

وفي عطف ﴿المؤمنين﴾ على اسم الجلالة هنا: تنويه بشأن كفاية الله النبي صلى الله عليه وسلم بهم، إلا أن الكفاية مختلفة وهذا من عموم المشترك لا من إطلاق المشترك على معنيين، فهو كقوله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾.

وقيل يجعل ﴿ومن اتبعك﴾ مفعولا معه لقوله: ﴿حسبك﴾ بناء على قول البصريين أنه لا يعطف على الضمير المجرور اسم ظاهر، أو يجعل معطوفا على رأي الكوفيين المجوزين لمثل هذا العطف. وعلى هذا التقدير يكون التنويه بالمؤمنين في جعلهم مع النبي صلى الله عليه وسلم في هذا التشريف، والتفسير الأول أولى وأرشق.

وقد روي عن ابن عباس: أن قوله: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ نزلت يوم أسلم عمر بن الخطاب. فتكون مكية، وبقيت مقروءة غير مندرجة في سورة، ثم وقعت في هذا الموضع بإذن من النبي صلى الله عليه وسلم لكونه أنسب لها.

وعن النقاش نزلت هذه الآية بالبيداء في بدر، قبل ابتداء القتال، فيكون نزولها متقدما على أول سورة ثم جعل في هذا الموضع من السورة.

والتناسب بينها وبين الآية التي بعدها ظاهر مع اتفاقهم على أن الآية التي بعدها." (١)

"فنزل قوله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا﴾ وعلى هذا الوجه قد سمي مال الفداء غنيمة تسمية بالاسم اللغوي دون الاسم الشرعي لأن الغنيمة في اصطلاح الشرع هي ما افتكه المسلمون من مال العدو بالإيجاف عليهم.

والوجه الثاني: يظهر لي أن التفريع ناشئ على التحذير من العود إلى مثل ذلك في المستقبل وأن المعنى فاكتفوا بما تغنمونه ولا تفادوا الأسرى إلى أن تثخنوا في الأرض. وهذا هو المناسب لإطلاق اسم الغنيمة هنا إذ لا ينبغي صرفه عن معناه الشرعي.

ولما تضمن قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ [الأنفال: ٦٨] امتنانا عليهم بأنه صرف عنهم بأس العدو، فرع على الامتنان الإذن لهم بأن ينتفعوا بمال الفداء في مصالحهم، ويتوسعوا به في نفقاتهم، دون نكد ولا غصة، فإنهم استغنوا به مع الأمن من ضر العدو بفضل الله. فتلك نعمة لم يشبها أذى.

---

(١) التحرير والتنوير، ٩/١٥٣

وعبر عن الانتفاع الهنيء بالأكل: لأن الأكل أقوى كيفيات الانتفاع بالشيء. فإن الآكل ينعم بلذاذة المأكول وبدفع ألم الجوع عن نفسه ودفع الألم لذاذة ويكسبه الأكل قوة وصحة - والصحة مع القوة لذاذة أيضا -.

والأمر في ﴿كلوا﴾ مستعمل في المنة ولا يحمل على الإباحة هنا: لأن إباحة المغانم مقررة من قبل يوم بدر، وليكون قوله: ﴿حلالا﴾ حالا موئسة لا مؤكدة لمعنى الإباحة.

و ﴿غنمتم﴾ بمعنى فاديتم لأن الفداء عوض عن الأسرى والأسرى من المغانم.

والطيب: النفيس في نوعه، أي حلالا من خير الحلال.

وذيل ذلك بالأمر بالتقوى: لأن التقوى شكر الله على ما أنعم من دفع العذاب عنهم.

وجملة: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ تعليل للأمر بالتقوى، وتنبيه على أن التقوى شكر على النعمة، فحرف التأكيد للاهتمام، وهو مغن غناء فاء التفريع كقول بشار:

إن ذاك النجاح في التبكير ... وقد تقدم ذكره غير مرة.

وهذه القضية إحدى قضايا جاء فيها القرآن مؤيدا لرأي عمر بن الخطاب. فقد روى." (١)

"وضرب المثل بالأمم الماضية.

وذكر الذين اتخذوا مسجد الضرار عن سوء نية، وفضل مسجد قباء ومسجد الرسول بالمدينة.

وانتقل إلى وصف حالة الأعراب من محسنهم ومسيئهم ومهاجرهم ومتخلفهم. وقوبلت صفات أهل الكفر والنفاق بأضدادها صفات المسلمين وذكر ما أعد لهم من الخير.

وذكر في خلال ذلك فضل أبي بكر. وفضل المهاجرين والأنصار.

والتحريض على الصدقة والتوبة والعمل الصالح.

والجهاد وأنه فرض على الكفاية. والتذكير بنصر الله المؤمنين يوم حنين بعد يأسهم.

والتنويه بغزوة تبوك وجيشها.

والذين تاب الله عليهم من المتخلفين عنها.

والامتنان على المسلمين بأن أرسل فيهم رسولا منهم جبله على صفات فيها كل خير لهم.

وشرع الزكاة ومصارفها والأمر بالفقه في الدين ونشر دعوة الدين. اعلم أنه قد ترك الصحابة الذين كتبوا المصحف كتابة البسملة قبل سورة براءة كما نبهت عليه عند الكلام على سورة الفاتحة. فجعلوا سورة براءة

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦٥/٩

عقب سورة الأنفال بدون بسملة بينهما، وتردد العلماء في توجيه ذلك. وأوضح الأقوال ما رواه الترمذي والنسائي، عن ابن عباس، قال: قلت لعثمان: "ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمان الرحيم. فقال عثمان: إن رسول الله كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول ضعوا هذه في السورة التي فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيها بقصتها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها فظننت أنها منها فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمان الرحيم".

ونشأ من هذا قول آخر: وهو أن كتبة المصاحف في زمن عثمان اختلفوا في الأنفال. وبراءة، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان، فتركوا فرجة فصلا بينهما مراعاة." (١)

"والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

هذا استئناف ابتدائي أيضا، فضمير (هو) عائد إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿إن ربكم الله﴾ [يونس: ٣]. وهذا استدلال آخر على انفراده تعالى بالتصرف في المخلوقات، وهذا لون آخر من الاستدلال على الإلهية ممزوج **بالامتنان** على المحجوجين به لأن الدليل السابق كان متضمنا لعظيم أمر الخلق وسعة العلم والقدرة بذكر أشياء ليس للمخاطبين حظ في التمتع بها. وهذا الدليل قد تضمن أشياء يأخذ المخاطبون بحظ عظيم من التمتع بها وهو خلق الشمس والقمر على صورتهما وتقدير تنقلاتهما تقديرا مضبوطا ألهم الله البشر للانتفاع به في شؤون كثير من شؤون حياتهم.

فجعل الشمس ضياء لانتفاع الناس بضيائها في مشاهدة ما تهمهم مشاهدته بما به قوام أعمال حياتهم في أوقات أشغالهم. وجعل القمر نورا للانتفاع بنوره انتفاعا مناسبا للحاجة التي قد تعرض إلى طلب رؤية الأشياء في وقت الظلمة وهو الليل. ولذلك جعل نوره أضعف لينفع به بقدر ضرورة المنتفع، فمن لم يضطر إلى الانتفاع به لا يشعر بنوره ولا يصرفه ذلك عن سكونه الذي جعل ظلام الليل لحصوله، ولو جعلت الشمس دائمة الظهور للناس لاستووا في استدامة الانتفاع بضيائها فيشغلهم ذلك عن السكون الذي يستجدون به ما فتر من قواهم العصبية التي بها نشاطهم وكمال حياتهم.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠/١٠

والضياء: النور الساطع القوي، لأنه يضيء للرائي. وهو اسم مشتق من الضوء، وهو النور الذي يوضح الأشياء، فالضياء أقوى من الضوء. وياء: (ضياء) منقلبة عن الواو لوقوع الواو إثر كسرة الضاد فقلبت ياء للتخفيف.

والنور: الشعاع، وهو مشتق من اسم النار، وهو أعم من الضياء، يصدق على الشعاع الضعيف والشعاع القوي، فضياء الشمس نور ونور القمر ليس بضياء. هذا هو الأصل في إطلاق هذه الأسماء، ولكن يكثر في كلام العرب إطلاق بعض هذه الكلمات في موضع بعض آخر بحيث يعسر انضباطه. ولما جعل النور في مقابلة الضياء تعين أن المراد به نور ما.

وقوله: ﴿ضياء﴾ و ﴿نورا﴾ حالان مشيران إلى الحكمة والنعمة في خلقهما. والتقدير: جعل الأشياء على مقدار عند صنعها.

والضمير المنصوب في (قدره) إما عائد إلى النور فتكون المنازل بمعنى المراتب،." (١)

"والمعنى: ولو يعجل الله للناس الشر كما يجعل لهم الخير كثيرا، فقوله: ﴿استعجالهم﴾ مصدر مضاف إلى مفعوله لا إلى فاعله، وفاعل الاستعجال هو الله تعالى كما دل عليه قوله: ﴿ولو يعجل الله﴾ .

والباء في قوله: ﴿بالخير﴾ لتأكيد اللصوق، كالتي في قوله تعالى: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ [المائدة: ٦]. وأصله: استعجالهم الخير، فدلت المبالغة بالسين والتاء وتأكيد اللصوق على **الامتنان** بأن الخير لهم كثير ومكين. وقد كثر اقتران مفعول فعل الاستعجال بهذه الباء ولم ينبهوا عليه في مواقعه المتعددة. وسيجيء في النحل.

وقد جعل جواب (لو) قوله: ﴿لقضي إليهم أجلهم﴾ ، وشأن جواب (لو) أن يكون في حيز الامتناع، أي وذلك ممتنع لأن الله قدر لآجال انقراضهم ميقاتا معينا ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ [الحجر: ٥].

والقضاء: التقدير.

والأجل: المدة المعينة لبقاء قوم. والمعنى: لقضي إليهم حلول أجلهم. ولما ضمن: (قضي) معنى بلغ ووصل عدي ب(إلى). فهذا وجه تفسير الآية وسر نظمها ولا يلتفت إلى غيره في فهمها. وهذا المعنى مثل معنى: ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ في سورة الأنعام [٥٨].

---

(١) التحرير والتنوير، ١١/١٩

وجملة: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ الخ مفرعة على جملة: ﴿ولو يعجل الله للناس﴾ إلى آخرها.

وقرأ الجمهور ﴿لقضي﴾ بالبناء للنائب ورفع ﴿أجلهم﴾ على أنه نائب الفاعل. وقرأه ابن عامر ويعقوب بفتح القاف والضاد ونصب ﴿أجلهم﴾ على أن في (قضى) ضميرا عائدا إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر﴾ الخ.

وجملة: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ مفرعة على جملة (لو) وجوابها المفيدة انتفاء أن يعجل الله للناس الشر بانتفاء لازمه وهو بلوغ أجلهم إليهم، أي فإذا انتفى التعجيل فنحن نذر الذين لا يرجون لقاءنا يعمهون، أي نتركهم في مدة تأخير العذاب عنهم متلبسين بطغيانهم، أي فرط تكبرهم وتعاظمهم.

والعمة: عدم البصر. وإنما لم ينصب الفعل بعد الفاء لأن النصب يكون في جواب النفي المحض، وأما النفي المستفاد من (لو) فحاصل بالتضمن، ولان شأن جواب النفي." (١)

"[٢٢، ٢٣] ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ .

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾

هذه الجملة بدل اشمال من جملة: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ [يونس: ٢١] إلى آخرها لأن البغي في الأرض اشتمل عليه المكر في آيات الله. والمقصود من هذه الجملة هو قوله: ﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض﴾ وما سواه تمهيد وإدماج للامتنان. أعقب التهديد على كفران النعمة بذكر بعض نعم الله عليهم ثم ضراء تعقب النعمة للابتلاء والتذكير بخالقهم، ثم كيف تفرج عنهم رحمة بهم فيكفر فريق منهم كلتا النعمتين ولا يتذكر، فكان المقصود أن في ذلك أعظم الآيات على الوحدانية فكيف يقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ [يونس: ٢٠] وفي كل شيء له آية، وفي كل ذلك امتنان عليهم بالنعمة وتسجيل لكفرانها ولتوارد الآيات عليهم ولكيلا يغتروا بالإمهال فيحسبوه رضى بكفرهم أو عجزا عن أخذهم، وهذا موقع رشيق جد الرشاقة لهذه الآية القرآنية.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١/١١

وإسناد التسيير إلى الله تعالى باعتبار أنه سببه لأنه خالق إلهام التفكير وقوى الحركة العقلية والجسدية، فالإسناد مجاز عقلي، فالقصر المفاد من جملة: ﴿هو الذي يسيركم﴾ قصر ادعائي. والكلام مستعمل في الامتنان والتعريض بإخلالهم بواجب الشكر.

و ﴿حتى﴾ ابتدائية، وهي غاية للتسيير في البحار خاصة. وإنما كانت غاية باعتبار ما عطف على مدخولها من قوله: ﴿دعوا الله﴾ إلى قوله: ﴿بغير الحق﴾ ، والمغيا هم ما في قوله: ﴿يسيركم﴾ من المنة المؤذنة بأنه تسيير رفق ملائم للناس، فكان ما بعد "حتى" ومعطوفاتها نهاية ذلك الرفق، لأن تلك الحالة التي بعد "حتى" ينتهي عندها السير المنعم به ويدخلون في حالة البأساء والضراء، وهذا النظم نسج بديع في أفانين الكلام.

ومن بديع الأسلوب في الآية أنها لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر." (١)

"الله ولدا﴾ [يونس: ٦٨] جاءت مجيء الاستدلال على فساد ظنهم وخرصهم بشواهد خلق الليل والنهار المشاهد في كل يوم من العمر مرتين وهم في غفلة عن دلالته، وهو خلق نظام النهار والليل.

وكيف كان النهار وقتا ينتشر فيه النور فيناسب المشاهدة لاحتياج الناس في حركات أعمالهم إلى إحساس البصر الذي به تتبين ذوات الأشياء وأحوالها لتناول، الصالح منها في العمل ونبذ غير الصالح للعمل.

وكيف كان الليل وقتا تغشاه الظلمة فكان مناسبا للسكون لاحتياج الناس فيه إلى الراحة من تعب الأعمال التي كدحوا لها في النهار. فكانت الظلمة باعثة الناس على الراحة ومحددة لهم إبانها بحيث يستوي في ذلك الفطن والغافل.

ولما قابل السكون في جانب الليل بالإبصار في جانب النهار، والليل والنهار ضدان دل ذلك على أن علة السكون عدم الإبصار وأن الإبصار يقتضي الحركة فكان في الكلام احتباك.

ووصف النهار بمبصر مجاز عقلي للمبالغة في حصول الإبصار فيه حتى جعل النهار هو المبصر. والمراد: مبصرا فيه الناس.

ومن لطائف المناسبة أن النور الذي هو كيفية زمن النهار شيء وجودي فكان زمانه حقيقيا بأن يوصف بأوصاف العقلاء، بخلاف الليل فان ظلمته عدمية فاقتصر في العبرة به على ذكر الفائدة الحاصلة فيه وهي أن يسكنوا فيه.

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٤/١١

وفي قوله: ﴿هو الذي جعل لكم الليل﴾ طريق من طرق القصر وهو تعريف المسند والمسند إليه. وهو هنا قصر حقيقي وليس إضافيا كما توهمه بعض الكاتبين إذ جعله قصر تعيين، وهم معترفون به لا يستطيعون دفع هذا الاستدلال، فالمقصود الاستدلال على انفراده تعالى بخصائص الإلهية التي منها الخلق والتقدير، وأن آلهتهم انتفت عنها خصائص الالهية، وقد حصل مع الاستدلال امتنان على الناس بجعل الليل والنهار على هذا النظام. وهذا **الامتنان** مستفاد من قوله: ﴿جعل لكم﴾ ومن تعليل خلق الليل بعلة سكون الناس فيه، وخلق النهار بعلة إبصار الناس، وكل الناس يعلمون ما في سكون الليل من نعمة وما في إبصارهم بالنهار من نعمة كذلك، فان في العمل بالنهار نعما جمة من تحصيل رغبات، ومشاهدة محبوبات، وتحصيل أموال وأقوات، وأن في السكون بالليل نعما جمة من." (١)

"استجمام القوى المنهوكة والإخلاد إلى محادثة الأهل والأولاد، على أن في اختلاف الأحوال، ما يدفع عن المرء الملال.

وفي إدماج الاستدلال **بالامتنان** تعريض بأن الذين جعلوا لله شركاء جمعوا وصمتين هما: وصمة مخالفة الحق، ووصمة كفران النعمة.

وجملة: ﴿إن في ذلك لآيات﴾ مستأنفة. والآيات: الدلائل الدالة على وحدانية الله تعالى بالإلهية، فان النظام الذي نشأ عنه الليل والنهار مشتمل على دقائق كثيرة من العلم والحكمة والقدرة وإتقان الصنع.

فمن تلك الآيات: خلق الشمس، وخلق الأرض، وخلق النور في الشمس وخلق الظلمة في الأرض، ووصول شعاع الشمس إلى الأرض، ودوران الأرض كل يوم بحيث يكون نصف كرتها مواجها للشعاع ونصفها الآخر محجوبا عن الشعاع وخلق الإنسان، وجعل نظام مزاجه العصبي متأثرا بالشعاع نشاطا، وبالظلمة فتورا، وخلق حاسة البصر، وجعلها مقترنة بتأثر الضوء؛ وجعل نظام العمل مرتبطا بحاسة البصر؛ وخلق نظام المزاج الإنساني مشملا على قوى قابلة للقوة والضعف ثم مدفوعا إلى استعمال قواه بقصد وبغير قصد بسبب نشاطه العصبي، ثم فاقدا بالعمل نصيبا من قواه محتاجا إلى الاعتياض بقوى تخلفها بالسكون والفتور الذي يلجئه إلى تطلب الراحة. وأية آيات أعظم من هذه، وأية منة على الإنسان أعظم من إيداع لله فيه دواعي تسوقه إلى صلاحه وصلاح نوعه بداع من نفسه.

ووصف ﴿قوم﴾ بأنهم ﴿يسمعون﴾ إشارة إلى أن تلك الآيات والدلائل تنهض دلالتها للعقول بالتأمل فيها، وأن توجه التفكير إلى دلائلها غير محتاج إلا إلى التنبيه عليها ولفته إليها، فلما كان سماع تذكير الله

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣١/١١

بها هو الأصل الأصيل في استخراج دلالتها أو تفريع مدلولاتها على تفاوت الأذهان في الفطنة وترتيب الأدلة جعل آيات دلالتها حاصلة للذين يسمعون.

ويجوز أن يكون المراد يسمعون تفاصيل تلك الدلائل في تضاعيف سور القرآن. وعلى كلا الاحتمالين فالوصف بالسمع تعريض بأن الذين لم يهتدوا بها ولا تفطنوا لدلالتها بمنزلة الصم، كقوله تعالى: ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي﴾ .

[٦٨] ﴿قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في." (١)

"فلا كاشف له إلا هو﴾ في الأنعام[١٧].

وذكر ﴿منا﴾ مع ﴿يمسهم﴾ لمقابلة قوله في ضده ﴿بسلام منا﴾ ليعلموا أن ما يصيب الأمة من الأحوال الزائدة على المعتاد في الخير والشر هو إعلام من الله بالرضى أو الغضب لئلا يحسبوا ذلك من سنة ترتب المسببات العادية على أسبابها، إذ من حق الناس أن يتبصروا في الحوادث ويتوسموا في جريان أحوالهم على مراد الله تعالى منهم ويعلموا أن الله يخاطبهم بدلالة الكائنات عند انقطاع خطابه إياهم على ألسنة الرسل، فإن الرسل يبينون لهم طرق الدلالة ويكلون إليهم النظر في وضع المدلولات عند دلالاتها. ومثاله ما هنا فقد بين لهم على لسان نوح عليه السلام أنه يمتع أمما ثم يمسهم عذاب أليم بما يصنعون.

[٤٩] ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ .

استئناف أريد منه الامتنان على النبيء - صلى الله عليه وسلم - والموعظة والتسلية.

فالامتنان من قوله: ﴿ما كنت تعلمها﴾ .

والموعظة من قوله: ﴿فاصبر﴾ إلخ.

والتسلية من قوله: ﴿إن العاقبة للمتقين﴾ .

والإشارة ب ﴿تلك﴾ إلى ما تقدم من خبر نوح عليه السلام، وتأنيث اسم الإشارة بتأويل أن المشار إليه القصة.

والأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر. وأنباء الغيب الأخبار المغيبة عن الناس أو عن فريق منهم. فهذه الأنباء مغيبة بالنسبة إلى العرب كلهم لعدم علمهم بأكثر من مجملاتها، وهي أنه قد كان في الزمن الغابر نبي يقال له: نوح عليه السلام أصاب قومه طوفان، وما عدا ذلك فهو غيب كما أشار إليه قوله: ﴿ما كنت تعلمها

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣٢/١١

أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ ، فإنهم لم ينكروا ذلك ولم يدعوا علمه. على أن فيها ما هو غيب بالنسبة إلى جميع الأمم مثل قصة ابن نوح الرابع وعصيانه أباه وإصابته بالغرق، ومثل كلام الرب مع نوح – عليه السلام – عند هبوطه من السفينة، ومثل سخرية قومه به وهو يصنع الفلك، وما دار بين نوح – عليه السلام – وقومه من المحاورة، فإن ذلك كله مما لم يذكر في كتب أهل الكتاب.." (١)

"﴿وإليه متاب﴾ [سورة الرعد: ٣٠]، فقد قال مقاتل وابن جريج: نزلت في صلح الحديبية كما سيأتي عند تفسيرها.

ومعانيها جارية على أسلوب معاني القرآن المكي من الاستدلال على الوحدانية وتفريع المشركين وتهديدهم. والأسباب التي أثارت القول بأنها مدنية أخبار واهية، وسنذكرها في مواضعها من هذا التفسير ولا مانع من أن تكون مكية. ومن آياتها نزلت بالمدينة وألحقت بها، فإن ذلك في بعض سور القرآن، فالذين قالوا: هي مكية لم يذكروا موقعها من ترتيب المكيات سوى أنهم ذكروها بعد سورة يوسف وذكروا بعدها سورة إبراهيم.

والذين جعلوها مدنية عدوها في النزول بعد سورة القتال وقبل سورة الرحمان وعدوها سابعة وتسعين في عداد النزول. وإذ قد كانت سورة القتال نزلت عام الحديبية أو عام الفتح تكون سورة الرعد بعدها.

وعدت آياتها ثلاثا وأربعين من الكوفيين وأربعا وأربعين في عدد المدنيين وخمسا وأربعين عند الشام.

مقاصدها

أقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أوحي إليه من إفراد الله بالإلهية والبعث وإبطال أقوال المكذبين فلذلك تكررت حكاية أقوالهم خمس مرات موزعة على السورة بدءا ونهاية.

ومهد لذلك بالتنويه بالقرآن وأنه منزل من الله، والاستدلال على تفرده تعالى بالإلهية بدلائل خلق العالمين ونظامهما الدال على انفراده بتمام العلم والقدرة وإدماج الامتنان لما في ذلك من النعم على الناس.

ثم انتقل إلى أقوال أهل الشرك ومزاعمهم في إنكار البعث.

وتهديدهم أن يحل بهم ما حل بأمثالهم.

والتذكير بنعم الله على الناس.

وإثبات أن الله هو المستحق للعبادة دون آلهتهم.

---

(١) التحرير والتنوير، ١١/٢٧٥

وأن الله العالم بالخفايا وأن الأصنام لا تعلم شيئا ولا تنعم بنعمة.." (١)

"بسم الله الرحمن الرحيم

سورة إبراهيم

أضيفت هذه السورة إلى اسم إبراهيم – عليه السلام – فكان ذلك اسما لها لا يعرف لها غيره. ولم أقف على إطلاق هذا الاسم عليها في كلام النبيء – صلى الله عليه وسلم – ولا في كلام أصحابه في خبر مقبول.

ووجه تسميتها بهذا وإن كان ذكر إبراهيم – عليه السلام – جرى في كثير من السور أنها من السور ذوات ﴿ألر﴾. وقد ميز بعضها عن بعض بالإضافة إلى أسماء الأنبياء – عليهم السلام – التي جاءت قصصهم فيها، أو إلى مكان بعثة بعضهم وهي سورة الحجر، ولذلك لم تضف سورة الرعد إلى مثل ذلك لأنها متميزة بفاتحتها بزيادة حرف ميم على ألف ولام وراء.

وهي مكية كلها عند الجمهور. وعن قتادة إلا آيتي ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا﴾ إلى قوله: ﴿وبئس القرار﴾ [سورة إبراهيم: ٢٨]، وقيل: إلى قوله: ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ [سورة إبراهيم: ٣٠]. نزل ذلك في المشركين في قضية بدر. وليس ذلك إلا توهما كما ستعرفه.

نزلت هذه السور بعد سورة الشورى وقبل سورة الأنبياء. وقد عدت السبعين في ترتيب السور في النزول.

وعدت آياتها أربعا وخمسين عند المدنين وخمسين عند أهل الشام، وإحدى وخمسين عند أهل البصرة. واثنتين وخمسين عند أهل الكوفة.

واشتملت من الأغراض على أنها ابتدأت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن، وبالتنويه بشأنه، وأنه أنزل لإخراج الناس من الضلالة. **والامتنان** بأن جعله بلسان العرب. وتمجيد الله." (٢)

"تقدم الكلام على الحروف المقطعة في فاتحة سورة البقرة وعلى نظير هذه الحروف في سورة يونس.

﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾.

الكلام على تركيب ﴿الر كتاب أنزلناه إليك﴾ [سورة الأعراف: ١-٢] كالكلام على قوله تعالى: ﴿ألمص كتاب أنزلناه إليك﴾ عدا هذه الآية ذكر فيها فاعل الإنزال وهو معلوم من مادة الإنزال المشعرة بأنه

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢/١٣٤

(٢) التحرير والتنوير، ١٢/٢١٣

وارد من قبل العالم العلوي،فللعلم بمنزلة حذف الفاعل في آية سورة الأعراف، وهو مقتضى الظاهر والإيجاز، ولكنه ذكرها هنا لأن المقام مقام الامتنان على الناس المستفاد من التعليل بقوله: ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ ، ومن ذكر صفة الربوبية بقوله: ﴿بإذن ربهم﴾ ، بخلاف آية سورة الأعراف فإنها في مقام الطمأنة والتصبير للنبي عليه الصلاة والسلام المنزل إليه الكتاب، فكان التعرض لذكر المنزل إليه والاقتصار عليه أهم في ذلك المقام مع ما فيه من قضاء حق الإيجاز.

أما التعرض للمنزل إليه هنا فللتنويه بشأنه، وليجعل له حظ في هذه المنة وهو حظ الوساطة، كما دل عليه قوله: ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ ، ولما فيه من غم المعاندين والمبغضين للنبي صلى الله عليه وسلم.

ولأجل هذا المقصد وقع إظهار صفات فاعل الإنزال ثلاث مرات في قوله: ﴿بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾ بعد أن كان المقام للإضمار تبعا لقوله: ﴿أنزلناه﴾.

وإسناد الإخراج إلى النبي عليه الصلاة والسلام لأنه يبلغ هذا الكتاب المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان وإظهار فساد الشرك والكفر، وهو مع التبليغ يبين للناس ويقرب إليهم معاني الكتاب بتفسيره وتبيينه، ثم بما يبنيه عليه من المواعظ والنذر والبشارة. وإذا قد أسند الإخراج إليه في سياق تعليل إنزال الكتاب إليه علم أن إخراجه إياهم من الظلمات بسبب هذا الكتاب المنزل، أي بما يشتمل عليه من معاني الهداية.

وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات دل على أن الهداية هي مراد الله تعالى من الناس، وأنه لم يتركهم في ضلالهم، فمن اهتدى فبإرشاد الله ومن ضل فبإرشاد الضال هوى على دلائل الإرشاد، وأمر الله لا يكون إلا لحكم ومصالح بعضها أكبر من بعض.." (١)

"وتسخير الشمس والقمر: خلقهما بأحوال ناسبت انتفاع البشر بضيائهما، وضبط أوقاتهم بسيرهما.

ومعنى ﴿دائبين﴾ دائبين على حالات لا تختلف إذ لو اختلفت لم يستطع البشر ضبطها فوقعوا في حيرة وشك.

والفلك: جمع لفظه كلفظ مفرده. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ في سورة البقرة[١٦٤].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١٥/١٢

ومعنى ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ أعطاكم بعضا من جميع مرغوباتكم الخارجة عن اكتسابكم بحيث شانكم فيها أن تسألوا الله إياها، وذلك مثل توالد الأنعام، وإخراج الثمار والحب، ودفع العوادي عن جميع ذلك: كدفع الأمراض عن الأنعام، ودفع الجوائح عن الثمار والحب.

فجملة ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ نعيم بعد خصوص، فهي بمنزلة التذييل لما قبلها لحكم يعلمها الله ولا يعلمونها ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾ [سورة الشورى: ٢٧]، وأن الإنعام والامتنان يكون بمقدار البذل لا بمقدار الحرمان. وبهذا يتبين تفسير الآية.

وجملة ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ تأكيد للتذييل وزيادة في التعميم، تنبيها على أن ما آتاهم الله كثير منه معلوم وكثير منه لا يحيطون بعلمه او لا يتذكرونه عند إرادة تعداد النعم.

فمعنى ﴿إن تعدوا﴾ إن تحاولوا العد وتأخذوا فيه. وذلك مثل النعم المعتاد بها التي ينسى الناس أنها من النعم، كنعمة النفس، ونعمة الحواس، ونعمة هضم الطعام والشراب، ونعمة الدورة الدموية، ونعمة الصحة، وللفخر هنا تقرير نفيس فأنظره.

والإحصاء: ضبط العدد، وهو مشتق من الحصا اسما للعدد، وهو منقول من الحصى، وهو صغار الحجارة لأنهم كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للغلط.

وجملة ﴿إن الأنسان لظلوم كفار﴾ تأكيد لمعنى الاستفهام الإنكاري المستعمل في تحقيق تبديل النعمة كفرا، فلذلك فصلت عنها.

والمراد بـ ﴿الأنسان﴾ صنف منه، وهو المتصف بمضمون الجملة المؤكدة وتأكيدها." (١)

"فالإنسان هو المشرك، مثل الذي في قوله تعالى: ﴿ويقول الأنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا﴾ [سورة الشورى: ٦٦]، وهو استعمال كثير في القرآن.

وصيغتا المبالغة في ﴿ظلوم كفار﴾ اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها إذ أعرضوا عن عبادة المنعم وعبدوا ما لا يغني عنهم شيئا، فأما المؤمنون فلا يجحدون نعم الله ولا يعبدون غيره.

[٣٥، ٣٦] ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٥٩/١٢

عطف على جملة ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا﴾ [سورة إبراهيم: ٢٨] فإنهم كما بدلوا نعمة الله كفرا أهملوا الشكر على ما بوأهم الله من النعم بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم – عليه السلام – وبدلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداء بأسلافهم من أهل الضلالة، وبدلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفرا بمفيض تلك النعم.

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض﴾ بأن انتقل من ذكر النعم العامة للناس التي يدخل تحت منتها أهل مكة بحكم العموم إلى ذكر النعم التي خص الله بها أهل مكة. وغير الأسلوب في **الامتنان** بها إلى أسلوب الحكاية عن إبراهيم لإدماج التنويه بإبراهيم – عليه السلام – والتعريض بذريته من المشركين.

و"إذا" اسم زمان ماض منصوب على المفعولية لفعل محذوف شائع الحذف في أمثاله، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، زيادة في التعجيب من شأن المشركين الذي مر في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا﴾ ، فموقع العبرة من الحالين واحد.

و ﴿رب﴾ منادى محذوف منه حرف النداء. وأصله "ربي"، حذفت ياء المتكلم تخفيفا، وهو كثير في المنادى المضاف إلى الياء.

والبلد: المكان المعين من الأرض، ويطلق على القرية. والتعريف في ﴿البلد﴾ تعريف العهد لأنه معهود بالحضور. و ﴿البلد﴾ بدل من اسم الإشارة.

وحكاية دعائه بدون بيان البلد إبهام يرد بعده البيان بقوله: ﴿عند بيتك المحرم﴾." (١)

"ولدوا، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده".

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان في أيام الجاهلية من المؤذين للنبي صلى الله عليه وسلم:

دعاني داع غير نفسي وردني ... إلى الله من أطردته كل مطرد

يعني بالداعي النبي صلى الله عليه وسلم.

وتلك هي نكتة ذكر وصف ﴿الخالق﴾ دون غيره من الأسماء الحسنى.

والعدول إلى ﴿إن ربك﴾ دون "إن الله" للإشارة إلى أن الذي هو ربه ومدبر أمره لا يأمره إلا بما فيه صلاحه ولا يقدر إلا ما فيه خيره.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦٠/١٢

[٨٧] ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم﴾

اعتراض بين جملة ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ وجملة ﴿لا تمدن عينيك﴾ [الحجر:٨٨] الآية.

أتبع التسلية والوعد بالمنة ليذكر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالنعمة العظيمة فيطمئن بأنه كما أحسن إليه بالنعم الحاصلة فهو منجزه الوعود الصادقة.

وفي هذا **الامتنان** تعريض بالرد على المكذبين. وهو ناظر إلى قوله: ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وإنا له لحافظون﴾ [سورة الحجر:٩].

فالجملة عطف على الجمل السابقة عطف الغرض على الغرض والقصة على القصة. وهذا افتتاح غرض من التنويه بالقرآن والتحقير لعيش المشركين.

وإيتاء القرآن: أي إعطاؤه، وهو تنزيله عليه والوحي به إليه.

وأوثر فعل ﴿آتيناك﴾ دون "أوحينا" أو "أنزلنا" لأن الإعطاء أظهر في الإكرام والمنة.

وجعل ﴿القرآن﴾ معطوفا على ﴿سبعا من المثاني﴾ يشعر بأن السبع المثاني من القرآن. وذلك ما درج عليه جمهور المفسرين ودل عليه الحديث الآتي.

وقد وصف القرآن في سورة الزمر [٢٣] بالمثاني في قوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني﴾، فتعين أن السبع هي أشياء تجري تسميتها على التأنيث لأنها." (١)

"وما في أطوار الإنسان وأحواله من العبر.

وخصت النحل وثمراتها بالذكر لوفرة منافعها والاعتبار بإلهامها إلى تدبير بيوتها وإفراز شهدها.

والتنويه بالقرآن وتنزيهه عن اقتراب الشيطان، وإبطال افترائهم على القرآن.

والاستدلال على إمكان البعث وأنه تكوين كتكوين الموجودات.

والتحذير مما حل بالأمم التي أشركت بالله وكذبت رسله عليهم السلام عذاب الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة. وقابل ذلك بضده من نعيم المتقين المصدقين والصابرين على أذى المشركين والذين هاجروا في الله وظلموا.

والتحذير من الارتداد عن الإسلام، والترخيص لمن أكره على الكفر في التقية من المكرهين.

والأمر بأصول من الشريعة؛ من تأصيل العدل، والإحسان، والمواساة، والوفاء بالعهد، وإبطال الفحشاء والمنكر والبغي، ونقض العهود، وما على ذلك من جزاء بالخير في الدنيا والآخرة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٣/١٣

وأدمج في ذلك ما فيها من العبر والدلائل، **والامتنان** على الناس بما في ذلك من المنافع الطيبات المنتظمة، والمحاسن، وحسن المناظر، ومعرفة الأوقات، وعلامات السير في البر والبحر، ومن ضرب الأمثال.

ومقابلة الأعمال بأضدادها.

والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.

والإنذار بعواقب كفران النعمة.

ثم عرض لهم بالدعوة إلى التوبة ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ [سورة النحل:١١٩] الخ....

وملاك طرائق دعوة الإسلام ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة﴾ [سورة النحل:١٢٥].

وتثبيت الرسول – عليه الصلاة والسلام – ووعده بتأييد الله إياه.

[١] ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.." (١)

"والخصيم من صيغ المبالغة، أي كثير الخصام.

و ﴿مبين﴾ خبر ثان عن ضمير ﴿فإذا هو﴾، أي فإذا هو متكلم مفصح عما في ضميره ومراده بالحق أو بالباطل والمنطبق بأنواع الحجة حتى السفسطة.

والمراد: الخصام في إثبات الشركاء، وإبطال الوحدانية، وتكذيب من يدعون إلى التوحيد، كما دل عليه قوله تعالى في سورة يس [٧٧،٧٨]: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾.

والإنسان بحرف" إذا "المفاجأة استعارة تبعية. استعير الحرف الدال على معنى المفاجأة لمعنى ترتب الشيء على غير ما يظن أن يترتب عليه. وهذا معنى لم يوضع له حرف. ولا مفاجأة بالحقيقة هنا لأن الله لم يفاجأه ذلك ولا فجأ أحدا، ولكن المعنى أنه بحيث لو تدبر الناظر في خلق الإنسان لترقب منه الاعتراف بوحدانية خالقه وبقدرته على إعادة خلقه، فإذا سمع منه الإشراك والمجادلة في إبطال الوحدانية وفي إنكار البعث كان كمن فجأه ذلك. ولما كان حرف المفاجأة يدل على حصول الفجأة للمتكلم به تعين أن تكون المفاجأة استعارة تبعية.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/٧٦

فإقحام حرف المفاجأة جعل الكلام مفهما أمرين هما: التعجيب من تطور الإنسان من أمهن حالة إلى أبدع حالة وهي حالة الخصومة والإبانة الناشئتين عن التفكير والتعقل، والدلالة على كفرانه النعمة وصرفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعم عليه. فالجملة في حد ذاتها تنويه، وبضميمة حرف المفاجأة أدمجت مع التنويه التعجيب. ولو قيل: فهو خصيم أو فكان خصيما لم يحصل هذا المعنى البليغ.

[٥-٧] ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾

يجوز أن يعطف ﴿والأنعام﴾ عطف المفرد على المفرد عطفا على ﴿الإنسان﴾ [سورة النحل:٤]، أي خلق الإنسان من نطفة والأنعام، وهي أيضا مخلوقة من نطفة، فيحصل اعتبار بهذا التكوين العجيب لشبهه بتكوين الإنسان، وتكون جملة ﴿خلقها﴾ بمتعلقاتها مستأنفة، فيحصل بذلك الامتنان." (١)

"ويجوز أن يكون عطف الجملة على الجملة، فيكون نصب ﴿الأنعام﴾ بفعل ضمر يفسره المذكور بعده على طريقة الاستغلال. والتقدير: وخلق الأنعام خلقها. فيكون الكلام مفيدا للتأكيد لقصد تقوية الحكم اهتماما بما في الأنعام من الفوائد؛ فيكون امتنانا على المخاطبين، وتعريضا بهم، فإنهم كفروا نعمة الله بخلقها فجعلوا من نتاجها لشركائهم وجعلوا لله نصيبا. وأي كفران أعظم من أن يتقرب بالمخلوقات إلى غير من خلقها. وليس في الكلام حصر على كلا التقديرين.

وجملة ﴿لكم فيها دفء﴾ في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿خلقها﴾ على كلا التقديرين؛ إلا أن الوجه الأول تمام مقابلة لقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ [سورة النحل:٤] من حيث حصول الاعتبار ابتداء ثم التعريض بالكفران ثانيا، بخلاف الوجه الثاني فإن صريحه الامتنان ويحصل الاعتبار بطريق الكناية من الاهتمام.

والمقصود من الاستدلال هو قوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها﴾ وما بعده إدماج للامتنان.

و ﴿الأنعام﴾: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز. وتقدم في سورة الأنعام. وأشهر الأنعام عند العرب الإبل، ولذلك يغلب أن يطلق لفظ الأنعام عندهم على الإبل.

والخطاب صالح لشمول المشركين، وهم المقصود ابتداء من الاستدلال، وأن يشمل جميع الناس ولا سيما فيما تضمنه الكلام من الامتنان.

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٢/١٣

وفيه التفات من طريق الغيبة الذي في قوله تعالى: ﴿عما يشركون﴾ [سورة النحل:٣] باعتبار بعض المخاطبين.

والدفء – بكسر الدال – اسم لما يتدفأ به كالملء والحمل. وهو الثياب المنسوجة من أوبار الأنعام وأصوافها وأشعارها تتخذ منها الخيام والملابس.

فلما كانت تلك مادة النسج جعل المنسوج كأنه مظروف في الأنعام.

وخص الدفء بالذكر من بين عموم المنافع للعناية به.

وعطف ﴿منافع﴾ على ﴿دفء﴾ من عطف العام على الخاص لأن أمر الدفء قلما تستحضره الخواطر.." (١)

"وقد أفاد ﴿وتحمل أثقالكم﴾ معنى تحملكم وتبلغكم، بطريقة الكناية القريبة من التصريح. ولذلك عقب بقوله تعالى: ﴿لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾.

وجملة ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ صفة لـ ﴿بلد﴾، وهي مفيدة معنى البعد، لأن بلوغ المسافر إلى بلد بمشقة هو من شان البلد البعيد، أي لا تبلغونه بدون الأنعام الحاملة أثقالكم.

والشق – بكسر الشين – في قراءة الجمهور: المشقة. والباء للملابسة. والمشقة: التعب الشديد.

وما بعد أداة الاستثناء مستثنى من أحوال لضمير المخاطبين.

وقرأ أبو جعفر ﴿إلا بشق الأنفس﴾ – بفتح الشين – وهو لغة في الشق المكسور الشين.

وقد نفت الجملة أن يكونوا بالغيه إلا بمشقة، فأفاد ظاهرها أنهم كانوا يبلغونه بدون الرواحل بمشقة وليس مقصودا، إذ كان الحمل على الأنعام مقارنا للأسفار بالانتقال إلى البلاد البعيدة، بل المراد: لم تكونوا بالغيه لولا الإبل أو بدون الإبل، فحذف لقرينة السياق.

وجملة ﴿إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ تعليل لجملة ﴿والأنعام خلقها﴾ ، أي خلقها لهذه المنافع لأنه رؤوف رحيم بكم.

[٨] ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾

و ﴿الخيل﴾ معطوف على ﴿والأنعام خلقها﴾ [سورة النحل:٥] فالتقدير: وخلق الخيل.

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٣/١٣

والقول في مناط الاستدلال وما بعده من **الامتنان** والعبرة في كل كالقول فيما تقدم من قوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء﴾ الآية.

والفعل المحذوف يتعلق به ﴿لتركبوها وزينة﴾ ، أي خلقها الله لتكونا مراكب للبشر، ولولا ذلك لم تكن في وجودها فائدة لعمران العالم.." (١)

"وعطف ﴿وزينة﴾ بالنصب عطفا على شبه الجملة في ﴿لتركبوها﴾، فجنب قرنه بلام التعليل من أجل توفر شرط انتصابه على المفعولية لأجله، لأن فاعله وفاعل عامله واحد، فإن عامله فعل ﴿خلق﴾ في قوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها﴾ إلى قوله تعالى: ﴿والخيل والبغال﴾ فذلك كله مفعول به لفعل ﴿خلقها﴾.

ولا مرية في أن فاعل جعلها زينة هو الله تعالى، لأن المقصود أنها في ذاتها زينة، أي خلقها تزين الأرض، أو زين بها الأرض، كقوله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ [سورة الملك:٥].

وهذا النصب أوضح دليل على أن المفعول لأجله منصوب على تقدير لام التعليل.

وهذا واقع موقع **الامتنان** فكان مقتصرا على ما ينتفع به المخاطبون الأولون في عادتهم.

وقد اقتصر على منة الركوب على الخيل والبغال والحمير والزينة، ولم يذكر الحمل عليها كما قال في شأن الأنعام: ﴿وتحمل أثقالكم﴾ ، لأنهم لم تكن من عادتهم الحمل على الخيل والبءال والحمير، فإن الخيل كانت تركب للغزو وللصيد، والبغال تركب للمشي والغزو، والحمير تركب للتنقل في القرى وشبهها.

وفي حديث البخاري عن ابن عباس في حجة الوداع أنه قال:"جئت على حمار أتان ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس" الحديث.

وكان أبو سيارة يجيز بالناس من عرفة في الجاهلية على حمار وقال فيه:

خلوا السبيل عن أبي سياره ... وعن مواليه بني فزاره

حتى يجيز راكبا حماره ... مستقبل الكعبة يدعو جاره

فلا يتعلق **الامتنان** بنعمة غير مستعملة عند النعم عليهم، وإن كان الشيء المنعم به قد تكون له منافع لا يقصدها المخاطبون مثل الحرث بالإبل والخيل والبغال والحمير، وهو مما يفعله المسلمون ولا يعرف منكر عليهم.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/٨٥

أو منافع لم يتفطن لها المخاطبون مثل ما ظهر من منافع الأدوية في الحيوان مما لم يكن معروفا للناس من قبل، فيدخل كل ذلك في عموم قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ في سورة البقرة. فإنه عموم في الذوات يستلزم عموم." (١)

"بالمؤمنين، فالظاهر أنه غير مقصود من سياق الامتنان العام للناس المتوسل به إلى إقامة الحجة على كافري النعمة.

فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها إيماء إلى أن الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه وتسمى بسكلات، وأرتال السكك الحديدية، والسيارات المسيرة بمصفى النفط وتسمى أطوموبيل، ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفى في الهواء. فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها.

وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرجوا في سلم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأن الكل من نعمته.

[٩] ﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين﴾

جملة معترضة. اقتضت اعتراضها مناسبة الامتنان بنعمة تيسير الأسفار بالرواحل والخيل والبغال والحمير.

فلما ذكرت نعمة تيسير السبيل الموصلة إلى المقاصد الجثمانية ارتقي إلى التذكير بسبيل الوصول إلى المقاصد الروحانية وهو سبيل الهدى، فكان تعهد الله بهذه السبيل نعمة أعظم من تيسير المسالك الجثمانية لأن سبيل الهدى تحصل به السعادة الأبدية. وهذا السبيل هي موهبة العقل الإنساني الفارق بين الحق والباطل، وإرسال الرسل لدعوة الناس إلى الحق، وتذكيرهم بما يغفلون عنه، وإرشادهم إلى ما لا تصل إليه عقولهم أو تصل إليه بمشقة على خطر من التورط في بنيات الطريق.

فالسبيل: مجاز لما يأتيه الناس من الأعمال من حيث هي موصلة إلى دار الثواب أو دار العقاب، كما في قوله: ﴿قل هذه سبيلي﴾ [يوسف:١٠٨]. ويزيد هذه المناسبة بيانا لما شرحت دلائل التوحيد

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/٨٦

ناسب التنبيه على أن ذلك طريق للهدى، وإزالة للعذر، وأن من بين الطرق التي يسلكها الناس طريق ضلال وجور.

وقد استعير لتعهد الله بتبيين سبيل الهدى حرف ﴿على﴾ المستعار كثيرا في القرآن وكلام العرب لمعنى التعهد، كقوله تعالى: ﴿إن علينا للهدى﴾. شبه التزام هذا البيان." (١)

"بالتذكير بالنعمة، كما دل عليه قوله: ﴿لكم﴾ على وزان ما تقدم في قوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء﴾ [النحل:٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها﴾ [النحل:٨] الآية.

وأسند الإنبات إلى الله لأنه الملهم لأسبابه والخالق لأصوله تنبيها للناس على دفع غرورهم بقدرة أنفسهم، ولذلك قال: ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ لكثرة ما تحت ذلك من الدقائق.

وذكر الزرع والزيتون وما معهما تقدم غير مرة في سورة الأنعام.

والتفكير تقدم عند قوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ في سورة الأنعام [٥٠].

وإقحام لفظ "قوم" للدلالة على أن التفكير من سجاياهم، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ في سورة البقرة [١٦٤].

﴿ومن كل الثمرات﴾ عطف على ﴿الزرع والزيتون﴾، أي وينبت لكم به من الثمرات مما لم يذكر هنا.

والتعريف تعريف الجنس. والمراد: أجناس ثمرات الأرض التي ينبتها الماء، ولكل قوم من الناس ثمرات أرضهم وجوهم. و ﴿من﴾ تبعيضية قصد منها تنويع الامتنان على كل قوم بما نالهم من نعم الثمرات. وإنما لم تدخل على الزرع وما عطف عليه لأنها من الثمرات التي تنبت في كل مكان.

وجملة ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ تذييل.

والآية: الدلالة على أنه تعالى المبدع الحكيم. وتلك هي إنبات أصناف مختلفة من ماء واحد، كما قال: ﴿يسقى بماء واحد﴾ في سورة الرعد [٤].

ونيطت دلالة هذه بوصف التفكير لأنها دلالة خفية لحصولها بالتدريج. وهو تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بما في ذلك من دلالة على تفرد الله بالإلهية بأنهم قوم لا يتفكرون.

وقرا الجمهور ﴿ينبت﴾ بياء الغيبة. وقرأه أبو بكر عن عاصم بنون العظمة.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٩/١٣

(٢) التحرير والتنوير، ٩٢/١٣

"[١٢] ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾

آيات أخرى على دقيق صنع الله تعالى وعلمه ممزوجة بامتنان.

وتقدم ما يفسر هذه الآية في صدر سورة يونس. وتسخير هذه الأشياء تقدم عند قوله تعالى: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر﴾ في أوائل سورة الأعراف [٥٤] وفي أوائل سورة الرعد وفي سورة إبراهيم.

وهذا انتقال للاستدلال بإتقان الصنع على وحدانية الصانع وعلمه. وإدماج بين الاستدلال **والامتنان**. ونيطت الدلالات بوصف العقل لأن أصل العقل كاف في الاستدلال بها على الوحدانية والقدرة، إذ هي دلائل بينة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة.

وتقدم وجه إقحام لفظ "قوم" آنفا، وأن الجملة تذييل.

وقرأ الجمهور جميع هذه الأسماء منصوبة على المفعولية لفعل"سخر". وقرأ ابن عامر ﴿والشمس والقمر والنجوم﴾ بالرفع على الابتداء ورفع ﴿مسخرات﴾ على أنه خبر عنها. فنكتة اختلاف الإعراب الإشارة إلى الفرق بين التسخيرين. وقرأ حفص برفع ﴿النجوم﴾ ﴿مسخرات﴾. ونكتة اختلاف الأسلوب الفرق بين التسخيرين من حيث إن الأول واضح والآخر خفي لقلة من يرقب حركات النجوم.

والمراد بأمره أمر التكوين للنظام الشمسي المعروف.

وقد أبدى الفخر في كتاب "درة التنزيل" وجها للفرق بين إفراد آية في المرة الأولى والثالثة وبين جمع آيات في المرة الثانية: بان ما ذكر أول وثالثا يرجع إلى ما نجم من الأرض، فجميعه آية واحدة تابعة لخلق الأرض وما تحتويه "أي وهو كله ذو حالة واحدة وهي حالة النبات في الأرض في الأول وحالة واحدة وهي حالة الذرء في التناسل في الحيوان في الآية الثالثة" وأما ما ذكر في المرة الثانية فإنه راجع إلى اختلاف أحوال الشمس والقمر والكواكب، وفي كل واحد منها نظام يخصه ودلائل تخالف دلائل غيره، فكان ما ذكر في ذلك مجموع آيات "أي لأن بعضه أعراض كالليل والنهار وبعضها أجرام لها أنظمة مختلفة ودلالات متعددة".

[١٣] ﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم." (١)

"يذكرون﴾

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٣/١٣

عطف على ﴿الليل والنهار﴾ [سورة النحل: ١٢]، أي وسخر لكم ما ذرأ لكم في الأرض. وهو دليل على دقيق الصنع والحكمة لقوله تعالى: ﴿مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون﴾. وأومئ إلى ما فيه من منة بقوله ﴿لكم﴾.

والذرء: الخلق بالتناسل والتولد بالحمل والتفريخ، فليس الإنبات ذرءا، وهو شامل للأنعام والكراع "وقد مضت المنة به" ولغيرها مثل كلاب الصيد والحراسة، وجوارح الصيد، والطيور، والوحوش المأكولة، ومن الشجر والنبات.

وزيد هنا وصف اختلاف ألوانه وهو زيادة للتعجيب ولا دخل له في الامتنان، فهو كقوله تعالى: ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ في سورة الرعد [٤]، وقوله تعالى: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سودومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾ في سورة فاطر [٢٧]. وبذلك صار هذا آية مستقلة فلذلك ذيله بجملة ﴿إن في ذلك لآية لقوم يذكرون﴾، ولكون مﺤل الاستدلال هو اختلاف الألوان مع اتحاد أصل الذرء أفردت الآية في قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية﴾.

والألوان: جمع لون. وهو كيفية لسطوح الأجسام مدركة بالبصر تنشأ من امتزاج بعض العناصر بالسطح بأصل الخلقة أو بصبغها بعنصر ذي لون معروف. وتنشأ من اختلاط عنصرين فاكثر ألوان غير متناهية. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾ في سورة البقرة [٦٩].

ونيط الاستدلال باختلاف الألوان بوصف التذكر لأنه استدلال يحصل بمجرد تذكر الألوان المختلفة إذ هي مشهورة.

وإقحام لفظ "قوم" وكون الجملة تذييلا تقدم آنفا.

وأبدى الفخر في"درة التنزيل" وجها لاختلاف الأوصاف في قوله تعالى: ﴿لقوم يتفكرون﴾ [سورة النحل:١١] وقوله: ﴿لقوم يعقلون﴾ [سورة النحل:١٢] وقوله: ﴿لقوم يذكرون﴾: بأن ذلك لمراعاة اختلاف شدة الحاجة إلى قوة التأمل بدلالة المخلوقات الناجمة عن الأرض يحتاج إلى التفكير، وهو إعمال المؤدى إلى العلم. ودلالة ما ذرأه في الأرض من الحيوان محتاجة إلى مزيد تأمل في التفكير للاستدلال على اختلاف أحوالها وتناسلها وفوائدها، فكانت بحاجة إلى التذكير، وهو التفكر مع تذكر أجناسها." (١)

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٤/١٣

"واختلاف خصائصها. وأما دلالة تسخير الليل والنهار والعوالم العلوية فلأنها أدق وأحوج إلى التعمق. عبر عن المستدلين عليها بأنهم يعقلون، والتعقل هو أعلى أحوال الاستدلال اه.

[١٤] ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾

القول في هذا الاستدلال وإدماج **الامتنان** فيه كالقول فيما سبق.

وتقدم الكلام على تسخير الفلك في البحر وتسخير الأنهار في أثناء سورة إبراهيم.

ومن تسخير البحر خلقه على هيئة يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخرة لحيل الصائدين. وزيد في **الامتنان** أن لحم صيده طري.

و "من" ابتدائية، أي تأكلوا لحما طريا صادرا من البحر.

والطري: ضد اليابس. والمصدر: الطراوة. وفعله: طرو، بوزن خشن.

والحلية: ما يتحلى به الناس، أي يتزينون. وتقدم في قوله تعالى: ﴿ابتغاء حلية﴾ في سورة الرعد [١٧]. وذلك اللؤلؤ والمرجان؛ فاللؤلؤ يوجد في بعض البحار مثل الخليج الفارسي، والمرجان؛ يوجد في جميع البحار ويكثر ويقل. وسيأتي الكلام على اللؤلؤ في سورة الحج، وفي سورة الرحمان. ويأتي الكلام على المرجان في سورة الرحمان.

والاستخراج: كثرة الإخراج، فالسين والتاء للتأكيد مثل: استجاب لمعنى أجاب.

واللبس: جعل الثوب والعمامة والمصوغ على الجسد. يقال: لبس التاج، ولبس الخاتم، ولبس القميص. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿قد أنزلنا عليكم لباسا﴾ في سورة الأعراف [٢٦].

وإسناد لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور تغليب، وإلا فإن غالب الحلية يلبسها النساء عدا الخواتيم وحلية السيوف.

وجملة ﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ معترضة بين الجمل المتعاطفة مع إمكان العطف." (١)

"لقصد مخالفة الأسلوب للتعجيب من تسخير السير في البحر باستحضار الحالة العجيبة بواسطة فعل الرؤية. وهو يستعمل في التعجيب كثيرا بصيغ كثيرة نحو: ولو ترى، و أرأيت، وماذا ترى. واجتلاب فعل الرؤية في أمثاله يفيد الحث على معرفة ذلك. فهذا النظم للكلام لإفادة هذا المعنى ولولاها لكان الكلام هكذا: وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وتبتغوا من فضله في فلك مواخر.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/٩٥

وعطف ﴿ولتبتغوا﴾ على ﴿وتستخرجوا﴾ ليكون من جملة النعم التي نشأت عن حكمة تسخير البحر. ولم يجعل علة لمخر الفلك كما جعل في سورة فاطر [١٢] ﴿وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله﴾ لأن تلك لم تصدر بمنة تسخير البحر بل جاءت في غرض آخر.

وأعيد حرف التعليل في قوله تعالى: ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ لأجل البعد بسبب الجملة المعترضة.

والابتغاء من فضل الله: التجارة كما عبر عنها بذلك في قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ في سورة البقرة [١٩٨].

وعطف ﴿ولعلكم تشكرون﴾ على بقية العلل لأنه من الحكم التي سخر الله بها البحر للناس حملا لهم على الاعتراف لله بالعبودية ونبذهم إشراك غير به فيها. وهو تعريض بالذين أشركوا.

[١٥،١٦] ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾

انتقال إلى الاستدلال **والامتنان** بما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف بالإنسان. وهذه المخلوقات لما كانت مجعولة كالتكملة للأرض وموضوعة على ظاهر سطحها عبر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض. ولعل خلقها كان متأخرا عن خلق الأرض، إذ لعل الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار. وأما السبل والعلامات فتأخر وجودها ظاهر، فصار خلق هذه الأربعة شبيها بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه.

ولعل أصل تكوين الجبال كان من شظايا رمت بها الكواكب فصادفت سطح." (١)

"والأرض بالحق﴾ [سورة النحل:٣] وثبتت المنة وحق الشكر، فرع على ذلك هاتان الجملتان لتكونا كالنتيجتين للأدلة السابقة إنكارا على المشركين فالاستفهام عن المساواة إنكاري، أي لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق. فالكاف للمماثلة، وهي مورد الإنكار حيث جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله تعالى. ومن مضمون الصلتين يعرف أي الموصولين أولى بالإلهية فيظهر مورد الإنكار.

وحين كان المراد بمن لا يخلق الأصنام كان إطلاق "من" الغالبة في العاقل مشاكلة لقوله: ﴿أفمن يخلق﴾.

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٦/١٣

وفرع على إنكار التسوية استفهام عن عدم التذكر في انتفائها. فالاستفهام في قوله: ﴿فلا تذكرون﴾ مستعمل في الإنكار على انتفاء التذكر، وذلك يختلف باختلاف المخاطبين. فهو إنكار على إعراض المشركين عن التذكر في ذلك.

وجملة ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ عطف على جملة ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾. وهي كالتكملة لها لأنها نتيجة لما تضمنته تلك الأدلة من **الامتنان** كما تقدم. وهي بمنزلة التذييل للامتنان لأن فيها عموما يشمل النعم المذكورة وغيرها.

وهذا كلام جامع للتنبيه على وفرة نعم الله تعالى على الناس بحيث لا يستطيع عدها العادون، وإذا كانت كذلك فقد حصل التنبيه إلى كثرتها بمعرفة أصولها وما يحويها من العوالم.

وفي هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم، وتغليظ التهديد لهم. وتقدم نظيرها في سورة إبراهيم.

وجملة ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ استئناف عقب به تغليظ الكفر والتهديد عليه تنبيها على تمكنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك، ويتأهبوا للشكر بما يطيقون، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون.

وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هنالك ﴿وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الأنسان لظلوم كفار﴾ [سورة ابراهيم:٣٤] لأن تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا﴾ [سورة ابراهيم:٢٨] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله.

وأما هذه الآية فقد جاءت خطابا للفريقين كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها." (١)

"وتفرع على هاتين الجملتين التوبيخ على تقواهم غيره، وذلك أنهم كانوا يتقون إله الشر ويتقربون إليه ليأمنوا شره

[٥٣-٥٤] ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ عطف خبر على خبر. وهو انتقال من الاستدلال بمصنوعات الله الكائنة في ذات الإنسان وفيما يحيط به من الموجودات إلى الاستدلال بما ساق الله من النعم؛ فمن الناس معرضون

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/٩٩

عن التدبر فيها وعن شكرها وهم الكافرون، فكان في الأدلة الماضية القصد إلى الاستدلال ابتداء متبوعا **بالامتنان**.

وتغير الأسلوب هنا فصار المقصود الأول هو **الامتنان** بالنعم مدمجا فيه الاعتبار بالخلق. فالخطاب موجه إلى الأمة كلها، ولذلك جاء عقبه قوله تعالى: ﴿إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾.

وابتدئ بالنعم على وجه العموم إجمالا ثم ذكرت مهمات منها.

والخطاب موجه إلى المشركين تذكيرا لهم بأن الله هو ربهم لا غيره لأنه هو المنعم.

وموقع قوله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ هنا أنه لما أبطل في الآية السابقة وجود إلهين اثنين "أحدهما فعله الخير والآخر فعله الشر" أعقبه هنا بأن الخير والضر من تصرفات الله تعالى، وهو يعطي النعمة وهو كاشف الضر.

والباء للملابسة، أي ما لابسكم واستقر عندكم، و ﴿من نعمة﴾ لبيان إبهام ﴿ما﴾ الموصولة.

و "من" في قوله تعالى:ل ﴿فمن الله﴾ ابتدائية، أي واصلة إليكم من الله، أي من عطاء الله، لأن النعمة لا تصدر عن ذات الله ولكن عن صفة قدرته أو عن صفة فعله عند مثبتي صفات الأفعال. ولما كان" ما بكم من نعمة "مفيدا للعموم كان الإخبار عنه بأنه من عند الله مغنيا عن الإتيان بصيغة قصر.

و ﴿ثم﴾ في قوله تعالى: ﴿ثم إذا مسكم الضر﴾ للتراخي الرتبي كما هو شانها الغالب في عطفها الجمل، لأن اللجأ إلى الله عند حصول الضر أعجب إخبارا من الإخبار." (١)

"ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ [لنجم: من الآية٢٣]، وضمير ﴿يعلمون﴾ عائد إلى معاد ضمير ﴿يجعلون﴾.

ووصف النصب بأنه ﴿مما رزقناهم﴾ لتشنيع ظلمهم إذ تركوا المنعم فلم يتقربوا إليه بما يرضيه في أموالهم مما أمرهم بالإنفاق فيه كإعطاء المحتاج، وأنفقوا ذلك في التقرب إلى أشياء موهومة لم ترزقهم شيئا.

ثم وجه الخطاب إليهم على طريقة الالتفات لقصد التهديد. ولا مانع من الالتفات هنا لعدم وجود فاء التفريع كما في قوله تعالى: ﴿فتمتعوا﴾ [النحل: ٥٥]

وتصدير جملة التهديد والوعيد بالقسم لتحقيقه، إذ السؤال الموعود به يكون يوم البعث وهم ينكرونه فناسب أن يؤكد.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤٢/١٣

والقسم بالتاء يختص بما يكون المقسم عليه أمرا عجيبا ومستغربا، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ [يوسف: ٧٣]. وسيأتي في قوله تعالى: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ [الانبياء: ٥٧]. فالإتيان في القسم هنا بحرف التاء مؤذن بأنهم يسألون سؤالا عجيبا بمقدار غرابة الجرم المسؤول عنه.

والسؤال كناية عما يترتب عليه من العقاب، لأن عقاب العادل يكون في العرف عقب سؤال المجرم عما اقترفه إذ لعل له ما يدفع به نفسه، فأجرى الله أمر الحساب يوم البعث على ذلك السنن الشريف. والتعبير عنه ب ﴿كنتم تفترون﴾ كناية عن استحقاقهم العقاب لأن الكذب على الله جريمة.

والإتيان بفعل الكون وبالمضارع للدلالة على أن الافتراء كان من شأنهم، وكان متجددا ومستمرا منهم، فهو أبلغ من أن يقال: عما تفترون، وعما افتريتم.

[٥٧] ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾

عطف على جملة ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم﴾.

هذا استدلال بنعمة الله عليهم بالبنين والبنات، وهي نعمة النسل، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي ما يشتهون مما رزقناهم من الذرية.

وأدمج في هذا الاستدلال وهذا الامتنان ذكر ضرب شنيع من ضروب كفرهم، وهو." [١]

"عاد الكلام إلى تعداد نعم جمة ومعها ما فيها من العبر أيضا جمعا عجيبا بين الاستدلال ووصلا للكلام المفارق عند قوله تعالى: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ [النحل:١٦]، كما علمته فيما تقدم. فكان ذكر إنزال الماء في الآية السابقة مسوقا مساق الاستدلال، وهو هنا مسوق مساق الامتنان بنعمة إحياء الأرض بعد موتها بالماء النازل من السماء.

وبهذا الاعتبار خالفت هذه النعمة النعمة المذكورة في قوله سابقا ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر﴾ [النحل:١٠]

باختلاف الغرض الأولي، فهو هنالك الاستدلال بتكوين الماء وهنا الامتنان.

وبناء الجملة على المسند الفعلي لإفادة التخصيص، أي الله لا غيره أنزل من السماء ماء. وذلك في معنى قوله تعالى: ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ [الروم:٤٠]. وإظهار اسم الجلالة دون الإضمار الذي هو مقتضى الظاهر لقصد التنويه بالخبر إذ افتتح بهذا السم، ولأن دلالة الاسم العلم

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤٦/١٣

أوضح وأصرح. فهو مقتضى مقام تحقيق الانفراد بالخلق والإنعام دون غيره من شركائهم، لأن المشركين يقرون بأن الله هو فاعل هذه الأشياء.

وإحياء الأرض: إخراج ما فيه الحياة، وهو الكلأ والشجر. وموتها ضد ذلك، فتعدية فعل "أحيا" إلى الأرض تعدية مجازية. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ في سورة البقرة [١٦٤]وتقدم وجه العبرة في آية نزول المطر هنالك.

وجملة ﴿إن في ذلك لآية﴾ مستأنفة. والتأكيد ب ﴿إن﴾ ولام الابتداء لأن من لم يهتد بذلك إلى الوحدانية ينكرون أن القوم الذين يسمعون ذلك قد علموا دلالته على الوحدانية. أي ينكرون صلاحية ذلك للاستدلال.

والإتيان باسم الإشارة دون الضمير ليكون محل الآية جميع المذكورات من إنزال المطر وإحياء الأرض به وموتها من قبل الإحياء.

والكلام في "قوم يسمعون" كالكلام في قوله آنفا: ﴿لقوم يؤمنون﴾ [النحل:٦٤].

والسمع: هنا مستعمل في لازم معناه على سبيل الكناية، وهو سماع التدبر." (١)

"ووجود ﴿من﴾ في صدر الكلام يدل على تقدير فعل يدل عليه الفعل الذي في الجملة قبلها وهو ﴿نسقيكم﴾ [سورة النحل:٦٦]. فالتقدير: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب. وليس متعلقا ب ﴿تتخذون﴾، كما دل على ذلك وجود "من" الثانية في قوله: ﴿تتخذون منه سكرا﴾ المانع من اعتبار تعلق ﴿من ثمرات النخيل﴾ ب ﴿تتخذون﴾ ، فإن نظم الكلام يدل على قصد المتكلم ولا يصح جعله متعلقا ب ﴿تتخذون﴾ مقدما عليه، لأنه يبعد المعنى عن **الامتنان** بلطف الله تعالى إذ جعل نفسه الساقي للناس.

وهذا عطف منه على منة، لآن ﴿نسقيكم﴾ وقع بيانا لجملة ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾

ومفاد فعل ﴿نسقيكم﴾ مفاد **الامتنان** لآن السقي مزية. وكلتا العبرتين في السقي. والمناسبة أن كلتيها ماء وأن كلتيها يضغط باليد، وقد أطلق العرب الحلب على عصير الخمر والنبيذ، قال حسان يذكر الخمر الممزوجة والخالصة:

كلتاهما حلب العصير فعاطني ... بزجاجة أرخاهما للمفصل

ويشير إلى كونهما عبرتين من نوع متقارب جعل التذييل بقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية﴾ عقب ذكر السقيين دون أن يذيل سقي الألبان بكونه آية، فالعبرة في خلق الثمار صالحة للعصر والاختمار، ومشتملة

(١) التحرير والتنوير، ١٥٩/١٣

على منافع للناس ولذات. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾. فهذا مرتبط بما تقدم من العبرة بخلق النبات والثمرات من قوله تعالى: ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل﴾ [النحل:١١] الآية.

وجملة ﴿تتخذون منه سكرا﴾ الخ في موضع الحال.

و "من" في الموضعين ابتدائية، فالأولى متعلقة بفعل ﴿نسقيكم﴾ المقدر، والثانية متعلقة بفعل ﴿تتخذون﴾. وليست الثانية تبعيضية، لأن السكر ليس بعض الثمرات، فمعنى الابتداء ينتظم كلا الحرفين.

والسكر - بفتحتين -: الشراب المسكر.

وهذا امتنان بما فيه لذتهم المرغوبة لديهم والمتفشية فيهم "وذلك قبل تحريم الخمر لأن هذه الآية مكية وتحريم الخمر نزل بالمدينة" **فالامتنان** حينئذ بمباح.

والرزق: الطعام، ووصف بـ ﴿حسنا﴾ لما فيه من المنافع، وذلك التمر والعنب." (١)

"ومن الدليل على القضاء وكونه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ولذلك أسند التفضيل في الرزق إلى الله تعالى لأن أسبابه خارجة عن إحاطة عقول البشر، والحكيم لا يستفزه ذلك بعكس قول ابن الراوندي:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

وهذا الحكم دل على ضعف قائله في حقيقة العلم فكيف بالتحريرية وتفيد وراء الاستدلال معنى **الامتنان** لاقتضائها حصول الرزق للجميع.

فجملة ﴿والله فضل بعضكم على بعض﴾ مقدمة للدليل ومنة من الممن لأن التفضيل في الرزق يقتضي الإنعام بأصل الرزق.

وليست الجملة مناط الاستدلال. إنما الاستدلال في التمثيل من قوله تعالى: ﴿فما الذين فضلوا برادي رزقهم﴾ الآية.

والقول في جعل المسند إليه اسم الجلالة وبناء المسند الفعلي عليه كالقول في قوله تعالى: ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم﴾. والمعنى: الله لا غيره رزقكم جميعا وفضل بعضكم على بعض في الرزق ولا يسعكم إلا الإقرار بذلك له.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦٣/١٣

وقد تم الاستدلال عند قوله تعالى: ﴿والله فضل بعضكم على بعض﴾ بطريقة الإيجاز، كما قيل: لمحة دالة.

وفرع على هذه الجملة تفريع بالفاء على وجه الإدماج قوله تعالى: ﴿فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء﴾. وهو إدماج جاء على وجه التمثيل لتبيان ضلال أهل الشرك حين سووا بعض المخلوقات بالخالق فأشركوها في الإلهية فسادا في تفكيرهم. وذلك مثل ما كانوا يقولون في تلبية الحج "لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك". فمثل بطلان عقيدة الإشراك بالله بعض مخلوقاته بحالة أهل النعمة المرزوقين، لأنهم لا يرضون أن يشركوا عبيدهم معهم في فضل رزقهم فكيف يسوون بالله عبيده في صفته العظمى وهي الإلهية.

ورشاقة هذا الاستدلال أن الحالتين المشبهتين والمشبه بهما حالتا مولى وعبد، كما قال تعالى: ﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما." [(١)]

"رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ [الروم:٢٨].

والغرض من التمثيل تشنيع مقالتهم واستحالة صدقها بحسب العرف، ثم زيادة التشنيع بأنهم رضوا لله ما يرضونه لأنفسهم، كقوله تعالى: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ إلى قوله: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ [النحل:٥٧-٦٠].

وقرينة التمثيل والمقصد منه دلالة المقام.

وقوله تعالى: ﴿فما الذين فضلوا﴾ نفي. و "ما" نافية. والباء في ﴿برادي رزقهم﴾ الباء التي تزاد في خبر النفي ب "ما" و "ليس".

والراد: المعطي. كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "والخمس مردود عليكم"، أي فما هم بمعطين رزقهم لعبيدهم إعطاء مشاطرة بحيث يسوونهم بهم، أي فما ذلك بواقع.

وإسناد الملك إلى اليمين مجاز عقلي، لأن اليمين سبب وهمي للملك، لأن سبب الملك إما أسر وهو أثر للقتال بالسيف الذي تمسكه اليد اليمنى، وإما شراء ودفع الثمن يكون باليد اليمنى عرفا، فهي سبب وهمي ناشئ عن العادة.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٢/١٣

وفرعت جملة ﴿فهم فيه سواء﴾ على جملة ﴿فما الذين فضلوا برادي رزقهم﴾، أي لا يشاطرون عبيدهم رزقهم فيستووا فيه، أي لا يقع ذلك فيقع هذا، فموقع هذه الجملة الاسمية شبيه بموقع الفعل بعد فاء السببية في جواب النفي.

وأما جملة ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ فصالحة لأن تكون مفرعة على جمل ﴿والله فضل بعضكم على بعض﴾ باعتبار ما تضمنته من الامتنان، أي تفضل الله عليكم جميعا بالرزق أفبنعمة الله تجحدون، استفهاما مستعملا في التوبيخ، بحيث أشركوا مع الذي أنعم عليهم آلهة لا حظ لها في الإنعام عليهم. وذلك جحود النعمة كقوله تعالى: ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له﴾ [العنكبوت:١٧]. وتكون جملة ﴿فما الذين فضلوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فهم فيه سواء﴾ معترضة بين الجملتين.

وعلى هذا الوجه يكون في ﴿يجحدون﴾ على قراءة الجمهور بالتحتية ا لتفات من الخطاب إلى الغيبة. ونكتته أنهم لما كان المقصود من الاستدلال المشركين فكانوا موضع التوبيخ ناسب أن يعرض عن خطابهم وينالهم المقصود من التوبيخ بالتعريض كقول:." (١)

"آل عمران، أو المطعومات والمشروبات اللذيذة الصالحة. وقد تقدم ذكر الطيبات عند قوله تعالى: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ في سورة العقود [٥]، وذكر الطيب في قوله تعالى: ﴿كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ في سورة البقرة [١٦٨].

وفرع على هذه الحجة والمنة استفهام توبيخ على إيمانهم بالباطل البين، فتفريع التوبيخ عليه واضح الاتجاه.

والباطل: ضد الحق لأن ما لا يحق لا يعبد بحق. وتقديم المجرور في قوله تعالى: ﴿أفبالباطل﴾ على متعلقه للاهتمام بالتعريف بباطلهم.

والالتفات عن الخطاب السابق إلى الغيبية في قوله تعالى: ﴿أفبالباطل﴾ يجري الكلام فيه على نحو ما تقدم في قوله تعالى: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾.

وقوله تعالى: ﴿و بنعمت الله هم يكفرون﴾ عطف على جملة التوبيخ، وهو توبيخ متوجه على ما تضمنه قوله تعالى: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من الامتنان بذلك الخلق و ا لرزق بعد كونهما دليلا على انفراد الله بالإلهية.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٣/١٣

وتقديم المجرور في قوله تعالى: ﴿بنعمت الله هم يكفرون﴾ على عامله للاهتمام.

وضمير الغيبة في قوله تعالى: ﴿هم يكفرون﴾ ضمير فصل لتأكيد الحكم بكفرانهم النعمة لأن كفران النعمة أخفى من الإيمان بالباطل، لأن الكفران يتعلق بحالات القلب، فاجتمع في الجملة تأكيدان: التأكيد الذي أفاده التقديم، والتأكيد الذي أفاده ضمير الفصل.

والإتيان بالمضارع في ﴿يؤمنون﴾ و ﴿يكفرون﴾ للدلالة على التجدد والتكرير.

وفي الجمع بين ﴿يؤمنون﴾ و ﴿يكفرون﴾ محسن بديع الطباق.

[٧٣] ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون﴾.

عطف على جملتي التوبيخ وهو مزيد من التوبيخ فإن الجملتين المعطوف عليها أفادتها توبيخا على إيمانهم بالآلهة الباطل وكفرانهم بنعمة المعبود الحق.." (١)

"وبيوت: يجوز فيه ضم الموحدة وكسرها، وهو جمع بيت. وضم الموحدة هو القياس لأنه على وزن فعول، وهو مطرد في جمع فعل - بفتح الفاء وسكون العين -. وأما لغة كسر الباء فلمناسبة وقوع الياء التحتية بعد الموحدة المضمونة، لأن الانتقال من حركة الضم إلى النطق بالياء ثقيل. وقال الزجاج: أكثر النحويين لا يعرفون الكسر "أي لا يعرفونه لغة" وبين أبو علي جوازه. وتقدم في سورة البقرة.

وبالكسر قرأ الجمهور. وقرأها بالضم أبو عمرو وورش عن نافع و حفص عن عاصم.

والبيت: مكان يجعل له بناء وفسطاط يحيط به يعين مكانه ليتخذه جاعله مفرا يأوي إليه ويستكن به من الحر و القر. وقد يكون محيطه من حجر وطين ويسمى جدارا، أو من أخشاب أو قصب أو غير ذلك وتسمى أيضا الأخصاص. ويوضع فوق محيطه غطاء ساتر من أعلاه يسمى السقف، يتخذ من أعواد ويطين عليها، وهذه بيوت أهل المدن والقرى.

وقد يكون المحيط بالبيت متخذا من أديم مدبوغ ويسمى القبة، أو من أثواب تنسج من وبر أو شعر أو صوف ويسمى الخيمة أو الخباء، وكلها يكون بشكل قريب من الهرمي تلتقي شقتاه أو شققه من أعلاه معتمدة على عمود وتنحدر منه متسعة على شكل مخروط. وهذه بيوت الأعراب في البوادي أهل الإبل والغنم يتخذونها لأنها أسعد لهم في انتجاعهم، فينقلونها معهم إذا انتقلوا يتتبعون مواقع الكلأ لإنعامهم والكمأة لعيشهم. وقد تقدم ذكر البيت عند قوله تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ في سورة البقرة [١٢٥].

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٧/١٣

و ﴿جعل﴾ هنا بمعنى أوجد، فتتعدى إلى مفعول واحد.

والسكن: اسم بمعنى المسكون. والسكنى: مصدر سكن فلان البيت. إذا جعله مقرا له، وهو مشتق من السكون، أي القرار.

وانتصب قوله تعالى: ﴿سكنا﴾ على المفعولية لـ ﴿جعل﴾.

وقوله: ﴿من بيوتكم﴾ بيان للسكن، فتكون ﴿من﴾ بيانية، أو تجعل ابتدائية ويكون الكلام من قبيل التجريد بتنزيل البيوت منزلة شيء آخر غير السكن، كقولهم: لئن لقيت فلانا لتقين منه بحرا. وأصل التركيب: والله جعل لكم بيوتكم سكنا.

وقيل: إن ﴿سكنا﴾ مصدر وهو قول ضعيف، وعليه فيكون **الامتنان** بالإلهام الذي." [١]

"لـ ﴿توفى﴾ ، وهو على حذف مضاف تقديره: جزاء ما علمت، أي من ثواب أو عقاب، وإظهار كل نفس في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلة فتجري مجرى المثل.

والظلم: الاعتدال على الحق. وأطلق هنا على مجاوزة الحد المعين للجزاء في الشر والإجحاف عنه الخير، لأن الله لما عين الجزاء على الشر ووعد بالجزاء على الخير صار ذلك كالحق لكل فريق. والعلم بمراتب هذا التحديد مفوض لله تعالى: ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾ [سورة الكهف: ٤٩].

وضميرا ﴿وهم لا يظلمون﴾ عائدان إلى كل نفس بحسب المعنى. لأن ﴿كل نفس﴾ يدل على جمع من النفوس.

وزيادة هذه الجملة للتصريح بمفهوم ﴿وتوفى كل نفس ما عملت﴾، لأن توفية الجزاء على العمل تستلزم كون تلك التوفية عدلا، فصرح بهذا اللازم بطريقة نفي ضده وهو نفي الظلم عنهم، وللتنبيه على أن العدل من صفات الله تعالى. وحصل مع ذلك تأكيد المعنى الأول.

[١١٢] ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾.

عطف عظة على عظه. والمعطوف عليها هي جمل **الامتنان** بنعم الله تعالى عليهم في قوله:

﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ [النحل: ٥٣] وما اتصل بها إلى قوله: ﴿يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون﴾ [النحل:٨٣]. فانتقل الكلام بعد ذلك بتهديد من قوله:

﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا﴾ [سورة النحل:٨٤].

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/١٩١

فبعد أن توعدهم بقوارع الوعيد بقوله: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ [سورة النحل: ١٠٤] وقوله: ﴿فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ [سورة النحل: ١٠٦] إلى قوله: ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ [سورة النحل:١٠٩]. عاد الكلام إلى تهديدهم بعذاب في الدنيا بأن جعلهم مضرب مثل لقرية عذبت عذاب الدنيا، أو جعلهم مثلا وعظة لمن يأتي بمثل ما أتوا به من إنكار نعمة الله.

ويجوز أن يكون المعطوف عليها جملة ﴿يوم تأتي كل نفس﴾ [سورة النحل: ١١١]." [١]

"أم كان بروحه في رؤيا هي مشاهدة روحانية كاملة ورؤيا الأنبياء حق. والجمهور قالوا: هو إسراء بالجسد في اليقظة، وقالت عائشة ومعاوية والحسن البصري وابن إسحاق رضي الله عنهم أنه إسراء بروحه في المنام ورؤيا الأنبياء وحي.

واستدل الجمهور بان **الامتنان** في الآية وتكذيب قريش بذلك دليلان على أنه ما كان الإخبار به إلا على أنه بالجسد. واتفق الجميع على أن قريشا استوصفوا من النبي صلى الله عليه وسلم علامات في بيت المقدس وفي طريقه فوصفها لهم كما هي، ووصف لهم عيرا لقريش قافلة في طريق معين ويوم معين فوجدوه كما وصف لهم.

ففي "صحيح البخاري" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بينما أنا في المسجد الحرام بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل..." إلى آخر الحديث. وهذا أصح وأوضح مما روي في حديث آخر أن الإسراء كان من بيته أو كان من بيت أم هاني بنت أبي طالب أو من شعب أبي طالب.

والتحقيق حمل ذلك على أنه إسراء آخر، وهو الوارد في حديث المعراج إلى السماوات وهو غير المراد في هذه الآية. فالنبي صلى الله عليه وسلم كرامتان: أولاهما الإسراء وهو المذكور هنا، والأخرى المعراج وهو المذكور في حديث الصحيحين مطولا وأحاديث غيره. وقد قيل: إنه هو المشار إليه في سورة النجم.

[٢] ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا﴾ [الإسراء:٢] ﴿سبحان الذي أسرى﴾ [الإسراء: من الآية١]

عطف على جملة ﴿سبحان الذي أسرى﴾ [الإسراء:١]الخ فهي ابتدائية. والتقدير: الله أسرى بعبده محمد وآتى موسى الكتاب. فهما مئتان عظيمتان على جزء عظيم من البشر. وهو انتقال إلى غرض آخر

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/٢٤٤

لمناسبة ذكر المسجد الأقصى، فإن أطوار المسجد الأقصى تمثل ما تطور به حال بني إسرائيل في جامعتهم من أطوار الصلاح والفساد، والنهوض والركود، ليعتبر بذلك المسلمون فيقتدوا أو يحذروا.

ولمناسبة قوله: ﴿لنريه من آي ا تنا﴾ [الإسراء:١]ولمناسبة قوله فإن من آيات الله التي أوتيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم آية القرآن، فكان ذلك في قوة أن يقال: وآتيناه القرآن وآتينا موسى الكتاب أي التوراة ،كما يشهد به قوله بعد ذلك ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء:٩]أي للطريقة التي هي أقوم من طريقة التوراة وإن كان كلاهما هدى، على ما في حالة." (١)

"و(ثم) تفيد التراخي الرتبي والتراخي الزمني معا.

والرد: الإرجاع. وجيء بفعل ﴿رددنا﴾ ماضيا جريا على الغالب في جواب(إذا) كما جاء شرطها فعلا ماضيا في قوله: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا﴾ [الإسراء:٥] أي إذا يجيء يبعث.

والكرة: الرجعة إلى المكان الذي ذهب منه.

فقوله: ﴿عليهم﴾ ظرف مستقر هو حال من ﴿الكرة﴾ ، لأن رجوع بني إسرائيل إلى أورشليم كان يتغلب ملك فارس على ملك بابل.

وذلك أن بني إسرائيل بعد أن قضوا نيفا وأربعين سنة في أسر البابليين وتابوا إلى الله وندموا على ما فرط منهم سلط الله ملوك فارس على ملوك بابل الأشورين، فإن الملك كورش ملك فارس حارب البابليين وهزمهم فضعف سلطانهم، ثم نزل بهم داريوس ملك فارس وفتح بابل سنة ٥٣٨ قبل المسيح، وأذن لليهود في سنة ٥٣٠ قبل المسيح أن يرجعوا إلى أورشليم ويجددوا دولتهم. وذلك نصر انتصروه على البابليين إذ كانوا أعوانا للفرس عليهم.

والوعد بهذا النصر ورد أيضا في كتاب أشعيا في الإصحاحات: العاشر، والحادي عشر، والثاني عشر، وغيرها، وفي كتاب أرميا في الإصحاح الثامن والعشرين والإصحاح التاسع والعشرين.

وقوله: ﴿وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا﴾

هو من جملة المقضي الموعود به. ووقع في الإصحاح التاسع والعشرين من كتاب أرميا"هكذا قال الرب إله إسرائيل لكل الذي سبيته من أورشليم إلى بابل: ابنوا بيوتا واسكنوا، واغرسوا جنات، وكلوا ثمرها، خذوا نساء ولدوا بنين وبنات، وأكثروا هناك ولا تقلوا".

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤/٢٠

و ﴿نفيرا﴾ تمييز (لأكثر) فهو تبيين لجهة الأكثرية، والنفير. اسم جمع للجماعة التي تنفر مع المرء من قومه وعشيرته، ومنه قول أبي جهل:"لا في العير ولا في النفير".

والتفضيل في(أكثر) تفضيل على أنفسهم، أي جعلناكم أكثر مما كنتم قبل الجلاء، وهو المناسب لمقام **الامتنان**. وقال جمع من المفسرين: أكثر نفيرا من أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم، أي أفنى معظم البابليين في الحروب مع الفرس حتى صار عدد بني إسرائيل في بلاد الأسر أكثر من عدد البابليين.." (١)

"وجيء بالجملة الاسمية لدلالتها على الدوام والثبات.

وبتعريف طرفيها للدلالة على الانحصار، أي ربكم هو الذي يزجي لكم الفلك لا غيره ممن تعبدونه باطلا وهو الذي لا يزال يفعل ذلك لكم.

وجيء بالصلة فعلا مضارعا للدلالة على تكرر ذلك وتحدده. فحصلت في هذه الجملة على إيجازها معان جمة خصوصية. وفي ذلك حد الإعجاز.

ويزجي: يسوق سوقا بطيئا. شبه تسخير الفلك للسير في الماء بإزجاء الدابة المثقلة بالحمل.

والفلك هنا جمع لا مفرد. والبحر: الماء الكثير فيشمل الأنهار كالفرات والدجلة، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿والفلك التي تجري في البحر﴾ في سورة البقرة[١٦٤].

والابتغاء: الطلب. والفضل: الرزق، أي للتجارة. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ في سورة البقرة[١٩٨]. وهذا امتنان على الناس كلهم مناسب لعموم الدعوة، لأن أهل مكة ما كانوا ينتفعون بركوب البحر وإنما ينتفع بذلك عرب ا ليمن وعرب العراق والناس غيرهم.

وجملة ﴿إنه كان بكم رحيما﴾ تعليل وتنبيه لموقع **الامتنان** ليرفضوا عبادة غيره مما لا أثر له في هذه المنة.

[٦٧] ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الأنسان كفورا﴾

بعد أن ألزمهم الحجة على حق إلهية الله تعالى بما هو من خصائص صنعه باعترافهم، أعقبه بدليل آخر من أحوالهم المتضمنة إقرارهم بانفراده بالتصرف ثم بالتعجيب من مناقضة أنفسهم عند زوال اضطرارهم.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧/١٤

فجملة ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ خبر مستعمل في التقرير وإلزام الحجة إذ لا يخبر أحد عن فعله إخبارا حقيقيا.

وجملة ﴿فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾ خبر مستعمل في التعجيب والتوبيخ.

وضر البحر: هو الإشراف على الغرق، لأنه يزعج النفوس خوفا، فهو ضر لها.." (١)

"والتكريم: جعله كريما، أي نفيسا غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته، فإن جميع الحيوان لا يعرف النظافة ولا اللباس ولا ترفيه المضجع والمأكل ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب ولا الاستعداد لما ينفعه ودفع ما يضره ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها والقبائح فيسترها ويدفعها، بله الخلو عن المعارف والصنائع وعن قبول التطور في أساليب حياته وحضارته. وقد مثل ابن عباس للتكريم بأن الإنسان يأكل بأصابعه، يريد أنه لا ينتهش الطعام بفمه بل يرفعه إلى فيه بيده ولا يكرع في الماء بل يرفعه إلى فيه بيده، فإن رفع الطعام بمغرفة والشراب بقدح فذلك من زيادة التكريم وهو تناول باليد.

والحمل: الوضع على المركب من الرواحل. فالراكب محمول على المركوب. وأصله في ركوب البر، وذلك بان سخر لهم الرواحل وألهمهم استعمالها.

وأما الحمل في البحر فهو الحصول في داخل السفينة. وإطلاق الحمل على ذلك الحصول استعارة من الحمل على الراحلة وشاعت حتى صارت كالحقيقة،قال تعالى: ﴿إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية﴾ [الحاقة:١١].ومعنى حمل الله الناس في البحر: إلهامه إياهم استعمال السفن والقلوع والمجاذيف، فجعل تيسير ذلك كالحمل.

وأما الرزق من الطيبات فلأن الله تعالى ألهم الإنسان أن يطعم ما يشاء مما يروق له، وجعل في الطعوم أمارات على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من الطعومات أكثر جدا مما يتناوله غيره من الحيوان الذي لا يأكل إلا أشياء اعتادها، على أن أقرب الحيوان إلى الإنسية والحضارة أكثرها اتساعا في تناول الطعوم.

وأما التفضيل على كثير من المخلوقات، فالمراد به التفضيل المشاهد لأنه موضع **الامتنان**. وذلك الذي جماعه تمكين الإنسان من التسلط على جميع المخلوقات الأرضية برأيه وحيلته، وكفى بذلك تفضيلا على البقية.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢٦/١٤

والفرق بين التفضيل والتكريم بالعموم و الخصوص؛ فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته، والتفضيل منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره، على أنه فضله بالعقل الذي به استصلاح شؤونه ودفع الأضرار عنه وبأنواع المعارف والعلوم. هذا هو التفضيل المراد.

وأما نسبة التفاضل بين نوع الإنسان وأنواع من الموجودات الخفي عنا كالملائكة والجن فليست هنا وإنما تعرف بأدلة توقيفية من قبل الشريعة.فلا تفرض هنا." (١)

"المتكلمين: إنها من الجواهر المجردة. وهو غير بعيد عن قول بعضهم: هي من الأجسام اللطيفة والأرواح حادثة عند المتكلمين من المسلمين وهو قول أرسطاليس. وقال قدماء الفلاسفة: هي قديمة. وذلك قريب من مرادهم في القول بقدم العالم. ومعنى كونها حادثة أنها مخلوقة لله تعالى. فقيل: الأرواح مخلوقة قبل خلق الأبدان التي تنفخ فيها. وهو الأصح الجاري على ظواهر كلام النبي صلى الله عليه وسلم فهي موجودة من الأزل كوجود الملائكة والشياطين، وقيل: تخلق عند إرادة إيجاد الحياة في البدن الذي توضع فيه واتفقوا على أن الأرواح باقية بعد فناء أجسادها وأنها تحضر يوم الحساب.

[٨٦] [٨٧] ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا﴾ [الإسراء:٨٧]

هذا متصل بقوله: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء﴾ [الإسراء:٨٢]الآية أفضت إليه المناسبة فإنه لما تضمن قوله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ [الإسراء:٨٥]تلقين كلمة علم جامعة، وتضمن أن الأمة أوتيت علما ومنعت علما. وأن علم النبوءة من أعظم ما أوتيته، أعقب ذلك بالتنبيه إلى الشكر على نعمة العلم دفعا لغرور النفس، لأن العلم بالأشياء يكسبها إعجابا بتميزها عمن دونها فيه. فأوقظت إلى أن الذي منح العلم قادر على سلبه، وخوطب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم لأن علمه أعظم علم، فإذا كان وجود علمه خاضعا لمشيئة الله فما الظن بعلم غيره، تعريضا لبقية العلماء. فالكلام صريحة تحذير، وهو كناية عن **الامتنان** كما دل عليه قوله بعده ﴿إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا﴾ وتعريض بتحذير أهل العلم.

واللام موطئة للقسم المحذوف قبل الشرط.

وجملة ﴿لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ جواب القسم. وهو دليل جواب الشرط ومغن عنه.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣١/١٤

و ﴿لنذهبن بالذي أوحينا﴾ بمعنى لنذهبنه، أي عنك، وهو أبلغ من نذهبه كما تقدم في قوله: ﴿الذي أسرى بعبده﴾ [الإسراء:١]

وما صدق الموصول القرآن.

و(ثم)للترتيب الرتبي، لأن نفي الطمع في استرجاع المسلوب أشد على النفس من." (١)

"سلبه، فذكره أدخل في التنبيه على الشكر والتحذير من الغرور.

والوكيل: من يوكل إليه المهم. والمراد به هنا المدافع عنك والشفيع لك. ولما فيه من معنى الغلبة عدي ب(على). ولما فيه من معنى التعهد والمطالبة عدي إلى المردود بالباء. أي متعهدا بالذي أوحينا إليك. ومعنى التعهد: به التعهد باسترجاعه، لأنه في مقابلة قوله: ﴿لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ ، ولأن التعهد لا يكون بذات شيء بل بحال من أحواله فجرى، الكلام على الإيجاز.

وذكر هنا ﴿وكيلا﴾ وفي الآية قبلها ﴿نصيرا﴾ لأن معنى هذه على فرض سلب نعمة الاصطفاء، فالمطالبة بإرجاع النعمة شفاعة ووكالة عنه، وأما الآية قبلها فهي في فرض إلحاق عقوبة به. فمدافعة تلك العقوبة أو الثأر بها نصر.

والاستثناء في قوله: ﴿إلا رحمة من ربك﴾ منقطع فحرف الاستثناء فيه بمعنى الاستدراك. وهو استدراك على ما اقتضاه فعل الشرط من توقع ذلك، أي لكن رحمة من ربك نفت مشيئة الذهاب بالذي أوحينا إليك فهو باق غير مذهوب به.

وهذا إيماء إلى بقاء القرآن وحفظه، قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر:٩].

وموقع ﴿إن فضله كان عليك كبيرا﴾ موقع التعليل للاستثناء المنقطع، أي لكن رحمة من ربك منعت تعلق المشيئة بإذهاب الذي أوحينا إليك، لأن فضله كان عليك كبيرا فلا يحرمك فضل الذي أوحاه إليك.

وزيادة فعل(كان)لتوكيد الجملة زيادة على توكيدها بحرف التوكيد المستعمل في معنى التعليل والتفريع.

[٨٨] ﴿قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾

استئناف للزيادة في **الامتنان**. وهو استئناف بياني لمضمون جملة ﴿إن فضله كان عليك كبيرا﴾ [الإسراء]. وافتتاحه ب(قل)للاهتمام به. وهذا تنويه بشرف القرآن فكان هذا التنويه امتنانا على الذين آمنوا

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥٨/١٤

به وهم الذين كان لهم شفاء ورحمة، وتحديا بالعجز على الإتيان بمثله للذين أعرضوا عنه وهم الذين لا يزيدهم إلا خسارا.

واللام موطئة للقسم.." (١)

"سواه من الكلام، مدمجا في ذلك النعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بما في القرآن من كل مثل. وذكرت هنا ناحية من نواحي إعجازه، وهي ما اشتمل عليه من أنواع الأمثال.وتقدم ذكر المثل عند قوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما﴾ في سورة البقرة[١٢٦]. ويجوز أن يراد بالمثل الحال، أي من كل حال حسن من المعاني يجدر أن يمثل به ويشبه ما يزاد بيانه في نوعه.

فجملة ﴿ولقد صرفنا﴾ معطوفة على جملة ﴿قل لئن اجتمعت الأنس والجن﴾ مشاركة لها في حكمها المتقدم بيانه زيادة في **الامتنان** والتعجيز.

وتأكيدها بلام القسم وحرف التحقيق لرد أفكار المشركين أنه من عند الله، فمورد التأكيد هو فعل ﴿صرفنا﴾ الدال على أنه من عند الله.

والتصريف تقدم آنفا عند قوله تعالى: ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا﴾ [الإسراء:٤١].

وزيد في هذه الآية قيد﴿للناس﴾دون الآية السابقة لأن هذه الآية واردة في مقام التحدي والإعجاز، فكان الناس مقصودين به قصدا أصليا مؤمنهم وكافرهم بخلاف الآية المتقدمة فإنها في مقام توبيخ المشركين خاصة فكانوا معلومين كما تقدم.

ووجه تقديم أحد المتعلقين بفعل ﴿صرفنا﴾ على الآخر: أن ذكر الناس أهم في هذا المقام لأجل كون الكلام مسوقا لتحديهم والحجة عليهم، وإن كان ذكر القرآن أهم بالأصالة، إلا أن الاعتبارات الطارئة تقدم في الكلام البليغ على الاعتبارات الأصلية، لأن الاعتبارات الأصلية لتقررها في النفوس تصير متعارفة فتكون الاعتبارات الطارئة أعز منالا. ومن هذا باب تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر. والأظهر كون التعريف في ﴿الناس﴾ للعموم كما يقتضيه قوله: ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفورا﴾ .

وذكر في هذه الآية متعلق التصريف بقوله: ﴿من كل مثل﴾ بخلاف الآية السابقة، لأن ذكر ذلك أدخل في الإعجاز، فإن كثرة أغراض الكلام أشد تعجيزا لمن يروم معارضته عن أن يأتي بمثله، إذ قد يقدر بليغ من البلغاء على غرض من الأغراض ولا يقدر على غرض آخر، فعجزهم عن معارضة سورة من القرآن

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥٩/١٤

مع كثرة أغراضه عجز بين من جهتين، لأنهم عجزوا عن الإتيان بمثله ولو في بعض الأغراض، كما أشار إليه قوله تعالى في سورة البقرة[٢٣] ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ فإن(من)للتبعيض وتنوين(مثل)للتعظيم." (١)

"﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الأنفاق وكان الأنسان قتورا﴾ اعتراض ناشئ عن بعض مقترحاتهم التي توهموا عدم حصولها دليلا على انتفاء إرسال بشير، فالكلام استئناف لتكملة رد شبهاتهم. وهذا رد لما تضمنه قولهم ﴿حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ إلى قوله ﴿تفجيرا﴾ [الإسراء: من الآية٩١) وقولهم ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ [الإسراء: من الآية٩٣] من تعذر حصول ذلك لعظيم قيمته.

ومعنى الرد: أن هذا ليس بعظيم في جانب خزائن رحمة الله لو شاء أن يظهره لكم.

وأدمج في هذا الرد بيان ما فيهم من البخل عن الإنفاق في سبيل الخير. وأدمج في ذلك أيضا تذكيرهم بأن الله أعطاهم من خزائن رحمته فكفروا نعمته وشكروا الأصنام التي لا نعمة لها. ويصلح لأن يكون هذا خطابا للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم كل على قدر نصيبه.

وشأن (و)أن يليها الفعل ماضيا في الأكثر أو مضارعا في اعتبارات، فهي مختصة بالدخول على الأفعال، فإذا أوقعوا الاسم بعدها في الكلام وأخروا الفعل عنه فإنما يفعلون ذلك لقصد بليغ: إما لقصد التقوي والتأكيد للإشعار بأن ذكر الفعل بعد الأداة ثم ذكر فاعله ثم ذكر الفعل مرة ثانية تأكيد وتقوية؛ مثل قوله ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾ [التوبة: من الآية٦] وإما للانتقال من التقوي إلى الاختصاص، بناء على أنه ما قدم الفاعل من مكانه إلا لقصد طريق غير مطروق. وهذا الاعتبار هو الذي يتعين التخريج عليه في هذه الآية ونحوها من الكلام البليغ، ومنه قول عمر لأبي عبيدة "لو غيرك قالها" .

والمعنى: لو أنتم أخصصتم بملك خزائن رحمة الله دون الله لما أنفقتم على الفقراء شيئا. وذلك أشد في التقريع وفي الامتنان بتخييل أن إنعام غيره كالعدم.

وكلا الاعتبارين لا يناكد اختصاص لو بالأفعال للاكتفاء بوقوع الفعل في حيزها غير موال إياها وموالاته إياها أمر أغلبي، ولكن لا يجوز أن يقال: لو أنت عالم لبذذت الأقران.

واختير الفعل المضارع لأن المقصود فرض أن يملكوا ذلك في المستقبل.

و ﴿لأمسكتم﴾ هنا منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول، لأن المقصود: إذن لاتصفتم." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦١/١٤

(٢) التحرير والتنوير، ١٧٥/١٤

"زينة الدنيا لعلهم يشكرونه، وأنهم بطروا النعمة، فأن الله يسلب عنه النعمة فتصير بلادهم قاحلة. وهذا تعريض بأن سيحل بهم قحط السنين السبع التي سأل الله رسول الله ربه أن يجعلها على المشركين كسنين يوسف عليه السلام.

ولهذا اتصال بقوله: ﴿لينذر بأسا شديدا من لدنه﴾ [الكهف: ٢].

وموقع ﴿إن﴾ صدر هذه الجملة موقع التعليل للتسلية التي تضمنها قوله تعالى ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ [الكهف: ٢].

ويحصل من ذلك تذكير بعضهم قدرة الله تعالى، وخاصة ما كان منها إيجادا للأشياء وأضدادها من حياة الأرض وموتها المماثل لحياة الناس وموتهم، والمماثل للحياة المعنوية والموت المعنوي من إيمان وكفر، ونعمة ونقمة، كلها عبر لمن يعتبر بالتغير ويأخذ إلى الانتقال من حال إلى حال فلا يثق بقوته وبطشه، ليقيس الأشياء بأشباهها نفسه على معيار الفضائل وحسنى العواقب.

وأوثر الاستدلال بحال الأرض التي عليها الناس لأنها أقرب إلى حسهم وتعلقهم، كما قال تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾ [لغاشية: ١٧-٢٠] وقال: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ [الذريات:٢٠]

وقد جاء نظم هذا الكلام على أسلوب الإعجاز في جمع معان كثيرة يصلح اللفظ لها من مختلف الأعراض المقصودة، فإن الإخبار عن خلق ما على الأرض زينة يجمع **الامتنان** على الناس والتذكير ببديع صنع الله إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبه النفوس من الزينة والزخرف. **والامتنان** بمثل هذا كثير، مثل قوله: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ [النحل: ٦]، وقال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث﴾ [آل عمران: ١٤]

ولا تكون الأشياء زينة إلا وهي مبثوثة فيها الحياة التي بها نماؤها وازدهارها. وهذه الزينة مستمرة على وجه الأرض منذ رآها الإنسان، واستمرارها باستمرار أنواعها وإن كان الزوال يعرض لأشخاصها فتخلفها أشخاص أخرى من نوعها. فيتضمن هذا امتنانا ببث الحياة في الموجودات الأرضية.." (١)

"الآتي: ﴿هل تعلم له سميا﴾ [مريم: من الآية٦٥] أي لا مثيل لله تعالى في أسمائه. وهذا أظهر في الثناء على يحيى **والامتنان** على أبيه. والمعنى: أنه لم يجيء قبل يحيى من الأنبياء من اجتمع له ما اجتمع

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥/١٧

ليحيى فإنه أعطى النبوءة وهو صبي، قال تعالى: ﴿وآتيناه الحكم صبيا﴾ [مريم: من الآية١٢]. وجعل حصورا ليكون غير مشقوق عليه في عصمته عن الحرام، ولئلا تكون له مشقة في الجمع بين حقوق العبادة وحقوق الزوجة، وولد لأبيه بعد الشيخوخة ولأمه بعد العقر. وبعث مبشرا برسالة عيسى عليه السلام، ولم يكن هو رسولا، وجعل اسمه العلم مبتكرا غير سابق من قلبه. وهذه مزايا وفضائل وهبت له ولأبيه، وهي لا تقتضي أنه أفضل الأنبياء لأن الأفضلية تكون بمجموع فضائل لا ببعضها وإن جلت، ولذلك قيل المزية لا تقتضي الأفضلية وهي كلمة صدق.

وجملة ﴿قال رب﴾ جواب للبشارة.

و ﴿أنى﴾ استفهام مستعمل في التعجب. والتعجب مكنى به عن الشكر، فهو اعتراف بأنها عطية عزيزة غير مألوفة لأنه لا يجوز أن يسأل الله أن يهب له ولدا ثم يتعجب من استجابة الله له. ويجوز أن يكون قد ظن الله يهب له ولدا من امرأة أخرى بأن يأذنه بتزوج امرأة غير عاقر، وتقدم القول في نظير هذه الآية في سورة آل عمران.

وجملة ﴿وكانت امرأتي عاقرا﴾ حال من ياء التكلم وكرر ذلك مع قوله في دعائه ﴿وكانت امرأتي عاقرا﴾ . وهو يقتضي أن زكريا كان يظن أن عدم الولادة بسبب عقر امرأته، وكان الناس يحسبون ذلك إذا لم يكن بالرجل عنة ولا خصاء ولا اعتراض، لأنهم يحسبون الإنعاض والإنزال هما سبب الحمل إن لم تكن بالمرأة عاهة العقر. وهذا خطأ فإن عدم الولادة يكون إما لعلة بالمرأة في رحمها أو لعلة في ماء الرجل يكون غير صالح لنماء البويضات التي تبرزها رحم المرأة.

و ﴿من﴾ في قوله: ﴿من الكبر عتيا﴾ للابتداء، وهو مجاز في معنى التعليل.

والكبر: كثرة سني العمر. لأنه يقارنه ظهور قلة النشاط واختلال نظام الجسم.

و ﴿عتيا﴾ مفعول ﴿بلغت﴾

والبلوغ: مجاز في حلول الإنسان. وجعل نفسه هنا بالغا الكبر وفي آية آل عمران قال ﴿وقد بلغني الكبر﴾ [آل عمران: من الآية٤٠] لأن البلوغ لما كان مجازا في حصول الوصف صح أن يسند إلى الوصف وإلى الموصوف.." (١)

"المصادفة، فيكون غير ملائم أو في ملاءمته خلل، قال النابغة:

فريع قلبي وكانت نظرة عرضت

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤/١٦

يوما وتوفيق أقدار لأقدار

أي موافقة ما كنت أرغبه.

فقوله: ﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾ يفيد أن ما حصل لموسى من الأحوال كان مقدرا من الله تقديرا مناسبا متدرجا، بحيث تكون أعماله وأحواله قد قدرها الله وحددها تحيدا منظما لأجل اصطفائه وما أراد الله من إرساله، فالقدر هنا كناية عن العناية بتدبير إجراء أحواله على ما يسفر عن عاقبة الخير.

فهذا تقدير خاص، وهو العناية بتدرج أحواله إلى أن بلغ الموضع الذي كلمه الله منه.

وليس المراد القدر العام الذي قدره الله لتكوين جميع الكائنات، فإن ذلك لا يشعر بمزية لموسى عليه السلام. وقد انتبه إلى هذا المعنى جرير بذوقه السليم فقال في مدح عمر بن عبد العزيز:

أتى الخلافة إذ كانت له قدرا

كما أتى ربه موسى على قدر

ومن هنا ختم الامتنان بما هو الفذلكة، وذلك جملة ﴿وا صطنعتك لنفسي﴾ الذي هو بمنزلة رد العجز على الصدر على قوله ﴿ولتصنع على عيني * إذ تمشي أختك﴾ الآية، وهو تخلص بديع إلى الغرض المقصود وهو الخطاب بأعمال الرسالة المبتدأ من قوله: ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾ ومن قوله: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه: ٢٤].

والاصطناع: صنع الشيء باعتناء: واللام للأجل، أي لأجل نفسي. والكلام تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئا لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه.

[٤٢] ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري﴾ .

رجوع إلى المقصد بعد المحاورة، فالجملة بيان لجملة ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ ، أو هي استئناف بياني لأن قوله: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ [طه: ٤١] يؤذن بأنه اختاره وأعده لأمر عظيم، لأن الحكيم لا يتخذ شيئا لنفسه إلا مريدا جعله مظهرا لحكمته، فيترقب لمخاطب تعيينها، وقد أمره هنا بالذهاب إلى فرعون وأن يذهب أخوه معه. ومعنى." (١)

"[١١٣-١١٤] ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا * فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما﴾

(١) التحرير والتنوير، ١٢٢/١٦

عطف على جملة ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾ [طه: ٩٩]، والغرض واحد، وهو التنويه بالقرآن. فابتدئ بالتنويه به جزئيا بالتنويه بقصصه، ثم عطف عليه التنويه به كليا على طريقة تشبه التذييل لما في قوله: ﴿أنزلناه قرآنا عربيا﴾ من معنى عموم ما فيه.

والإشارة بـ ﴿كذلك﴾ نحو الإشارة في قوله ﴿كذلك نقص عليك﴾ ، أي كما سمعته لا يبين بأوضح من ذلك.

و ﴿قرآنا﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿أنزلناه﴾ ، وقرآن تسمية بالمصدر. والمراد المقروء، أي المتلو، وصار القرآن علما بالغلبة على الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بألفاظ معينة متعبدا بتلاوتها يعجز الإتيان بمثل سورة منها. وسمي قرآنا لأنه نظم على أسلوب تسهل تلاوته. ولوحظ هنا المعنى الاستقاقي قبل الغلبة وهو ما تفيده مادة قرأ من يسر تلاوته؛ وما ذلك إلا لفصاحة تأليفه وتناسب حروفه. والتنكير يفيد الكمال، أي أكمل ما يقرأ.

و ﴿عربيا﴾ صفة ﴿قرآنا﴾ . وهذا وصف يفيد المدح، لأن اللغة العربية أبلغ اللغات وأحسنها فصاحة وانسجاما. وفيه تعريض **بالامتنان** على العرب، وتحميق للمشركين منهم حيث أعرضوا عنه وكذبوا به، قال تعالى: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ [الانبياء:١٠]

والتصريف: التنويع والتفنين. وقد تقدم عند قوله تعالى أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون في سورة الأنعام، وقوله: ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا﴾ في سورة الإسراء: [٤١].

وذكر الوعيد هنا للتهديد، ولمناسبة قوله قبله: ﴿وقد خاب من حمل ظلما﴾ [طه: ١١١].

والتقوى: الخوف. وهي تستعمل كناية عن الطاعة لله، أي فعلنا ذلك رجاء أن يؤمنوا ويطيعوا. والذكر هنا بمعنى التذكر، أي فعلنا ذلك رجاء أن يؤمنوا ويطيعوا. والذكر هنا بمعنى التذكر، أي يحدث لهم القرآن تذكرا ونظرا فيما يحق عليهم أن يختاروه لأنفسهم.." (١)

"والفجاج: جمع فج. والفج: الطريق الواسع.

والسبل: جمع سبيل، وهو: الطريق مطلقا.

وجملة: ﴿لعلهم يهتدون﴾ مستأنفة إنشاء رجاء اهتداء المشركين إلى وحدانية الله فإن هذه الدلائل مشاهدة لهم واضحة الدلالة. ويجوز أن يراد بالاهتداء في السير، أي جعلنا سبلا واضحة غير محجوبة

---

(١) التحرير والتنوير، ١٨٧/١٦

بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم، فتكون هذه منة أخرى وهو تدبير الله الأشياء على نحو ما يلائم الإنسان ويصلح أحواله.

فقوله تعالى: ﴿لعلهم يهتدون﴾ من الكلام الموجه.

[٣٢] ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون﴾

لما ذكر الاعتبار بخلق الأرض وما فيها ناسب بحكم الطباق ذكر خلق السماء عقبه، إلا أن حالة خلق الأرض فيها منافع للناس. فعقب ذكرها **بالامتنان** بقوله تعالى: ﴿أن تميد بهم﴾ وبقوله تعالى: ﴿لعلهم يهتدون﴾.

وأما حال خلق السماء فلا تظهر فيه منفعة فلم يذكر بعده امتنان، ولكنه ذكر إعراضهم عن التدبر في آيات خلق السماء الدالة على الحكمة البالغة فعقب بقوله تعالى: ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ . فأدمج في خلال ذلك منة وهي حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض فتهلك الناس أو تفسد الأرض فتعطل منافعها، فذلك إدماج للمنة في خلال الغرض المقصود الذي لا مندوحة عن العبرة به.

والسقف، حقيقته: غطاء فضاء البيت الموضوع على جدرانه، ولا يقال السقف على غطاء الخباء والخيمة، وأطلق السقف على السماء على طريقة التشبيه البليغ، أي جعلناها كالسقف لأن السماء ليست موضوعة على عمد من الأرض، قال تعالى: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها﴾ وقد تقدم في أول سورة الرعد.

وجملة: ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ في موضع الحال. وآيات السماء ما تشتمل عليه السماء من الشمس والقمر والكواكب والشهب وسيرها وشروقها وغروبها وظهورها وغيبتها، وابتناء ذلك على حساب قويم وترتيب عجيب، وكلها دلائل على الحكمة البالغة فلذلك سماها آيات. وكذلك ما يبدو لنا من جهة السماء مثل السحاب والبرق والرعد.." (١)

"ولكل مولود مدة معينة عند الله لبقائه في رحم أمه قبل وضعه. والأكثر استكمال تسعة أشهر وتسعة أيام، وقد يكون الوضع أسرع من تلك المدة لعارض، وكل معين في علم الله تعالى. وتقدم في قوله تعالى: ﴿إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ في سورة البقرة.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧/٤٣

وعطف جملة: ﴿ثم نخرجكم طفلا﴾ بحرف "ثم" للدلالة على التراخي الرتبي فإن إخراج الجنين هو المقصود، وقوله: ﴿طفلا﴾ حال من ضمير ﴿نخرجكم﴾ أي حال كونكم أطفالا. وإنما أفرد ﴿طفلا﴾ لأن المقصود به الجنس فهو بمنزلة الجمع.

وجملة: ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ مرتبطة بجملة ﴿ثم نخرجكم طفلا﴾ ارتباط العلة بالمعلول، واللام للتعليل، والمعلل فعل ﴿نخرجكم طفلا﴾.

وإذا قد كانت بين الطفل وحال بلوغ الأشد أطوار كثيرة علم أن بلوغ الأشد هو العلة الكاملة لحكمة إخراج الطفل. وقد أشير إلى ما قبل بلوغ الأشد وما بعده قوله: ﴿ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ وحرف "ثم" في قوله: ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ تأكيد لمثله في قوله: ﴿ثم نخرجكم طفلا﴾ هذا ما ظهر لي في اتصال هذه الجملة بما قبلها وللمفسرين توجيهات غير سالمة من التعقب ذكرها الآلوسي.

وإنما جعل بلوغ الأشد علة لأنه أقوى أطوار الإنسان وأجلى مظاهر مواهبه في الجسم والعقل وهو الجانب الأهم كما أومأ إلي ذلك قوله بعد هذا ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئا﴾ فجعل "الأشد" كأنه الغاية المقصودة من تطويره.والأشد: سن الفتوة واستجماع القوى. وقد تقدم في سورة يوسف ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما﴾.

ووقع في سورة المؤمن ﴿ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا﴾ . فعطف طور الشيخوخة على طور الأشد باعتبار أن الشيخوخة مقصد للأحياء لحبهم التعمير. وتلك الآية وردت مورد **الامتنان** فذكر فيها الطور الذي يتملى المرء فيه بالحياة. ولم يذكر في آية سورة الحج لأنها وردت مورد الاستدلال على الإحياء بعد العدم فلم يذكر فيها من الاضمحلال، ولأن المخاطبين بها فريق معين من المشركين كانوا في طور الأشد، وقد نبهوا عقب ذلك إلى أن منهم نفرا يردون إلى أرذل العمر، وهو طور الشيخوخة بقوله: ﴿ومنكم من يرد إلى." (١)

"التأذين بالحج فآل إلى كونه علة في التأذين بالحج.

ومعنى ﴿ليشهدوا﴾ ليحضروا منافع لهم، أي ليحضروا فيحصلوا منافع لهم إذ يحصل كل واحد ما فيه نفعه. وأهم المنافع ما وعدهم الله على لسان إبراهيم عليه السلام من الثواب. فكنى بشهود المنافع عن نيلها. ولا يعرف ما وعدهم الله على ذلك بالتعيين. وأعظم ذلك اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد ليتلقى بعضهم عن بعض ما به كمال إيمانه.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤٦/١٧

وتنكير ﴿منافع﴾ للتعظيم المراد منه الكثرة وهي المصالح الدينية والدنيوية لأن في مجمع الحج فوائد جمة للناس: لأفرادهم من الثواب والمغفرة لكل حاج. ولمجتمعهم لأن في الاجتماع صلاحا في الدنيا بالتعارف والتعامل.

وخص من المنافع أن يذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام. وذلك هو النحر والذبح للهدايا. وهو مجمل في الواجبة والمتطوع بها. وقد بينته شريعة إبراهيم من قبل بما لم يبلغ إلينا. وبينه الإسلام بما فيه شفاء.

وحرف ﴿على﴾ متعلق بـ ﴿يذكروا﴾. وهو للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى الملابسة والمصاحبة، أي على الأنعام. وهو على تقدير مضاف، أي عند نحر بهيمة الأنعام أو ذبحها.

و"ما" موصولة، و ﴿من بهيمة الأنعام﴾ بيان لمدلول "ما". والمعنى: ليذكروا اسم الله على بهيمة الأنعام. وأدمج في هذا الحكم **الامتنان** بأن الله رزقهم تلك الأنعام. وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق بالإخلاص لله في العبادة وإطعام المحاويج من عباد الله من لحومها. وفي ذلك سد لحاجة الفقراء بتزويدهم ما يكفيهم لعامهم. ولذلك فرع عليه ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ .

فالأمر بالأكل منها يحتمل أن يكون أمر وجوب في شريعة إبراهيم عليه السلام فيكون الخطاب في قوله: ﴿فكلوا﴾ لإبراهيم ومن معه.

وقد عدل عن الغيبة الواقعة في ضمائر ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ ، إلى الخطاب بذلك في قوله: ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس﴾ الخ. على طريقة الالتفات أو على تقدير قول محذوف مأمور به إبراهيم عليه السلام.." (١)

"الأرض﴾ وتقديم المجرور للدلالة على القصر. أي له ذلك لا لغيره من أصنامكم، إن جعلت القصر إضافيا، أو لعدم الاعتداد بغنى غيره ومحموديته إن جعلت القصر ادعائيا.

ونبه بوصف الغنى على أنه غير مفتقر إلى غيره، وهو معنى الغنى في صفاته تعالى أنه عدم الافتقار بذاته وصفاته لا إلى محل ولا إلى مخصص بالوجود دون العدم والعكس تنبيها على أن افتقار الأصنام إلى من يصنعها ومن ينقلها من مكان إلى آخر ومن ينفض عنها القتام والقذر دليل على انتفاء الإلهية عنها.

وأما وصف ﴿الحميد﴾ بمعنى المحمود كثيرا، فذكره لمزاوجة وصف الغنى لأن الغني مفيض على الناس فهم يحمدونه.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٨/١٧

وفي ضمير الفصل إفادة أنه المختص بوصف الغنى دون الأصنام وبأنه المختص بالمحمودية فإن العرب لم يكونوا يوجهون الحمد لغير الله تعالى. وأكد الحصر بحرف التوكيد وبلام الابتداء تحقيقا لنسبة القصر إلى المقصور كقول عمرو بن معد يكرب "إني أنا الموت". وهذا التأكيد لتنزيل تحققهم اختصاصه بالغنى أو المحمودية منزلة الشك أو الإنكار لأنهم لم يجروا على موجب علمهم حين عبدوا غيره وإنما يعبد من وصفه الغنى.

[٦٥] ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾

هذا من نسق التذكير بنعم الله واقع موقع قوله: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾، فهو من عداد **الامتنان** والاستدلال، فكان كالتكرير لغرض، ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف. وهذا تذكير بنعمة تسخير الحيوان وغيره. وفيه إدماج الاستدلال على انفراده بالتسخير. والتقدير: فهو الرب الحق.

وجملة: ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ مستأنفة كجملة: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾.

والخطاب هنا والاستفهام كلاهما كما في الآية السابقة.

والتسخير: تسهيل الانتفاع بدون مانع وهو يؤذن بصعوبة الانتفاع لولا ذلك التسخير. وأصله تسهيل الانتفاع بما فيه إرادة التمنع مثل تسخير الخادم وتسهيل استخدام الحيوان الداجن من الخيل، والإبل. والبقر، والغنم ونحوها، بان جعل الله فيها طبع." (١)

"المنظم المنوط بما قدره الله كما أشار إليه قوله: ﴿إلا بإذنه﴾ ، أي تقديره.

ولفظ ﴿السماء﴾ في قوله: ﴿ويمسك السماء﴾ يجوز أن يكون بمعنى ما قابل الأرض في اصطلاح الناس فيكون كلا شاملا للعوالم العلوية كلها التي لا نحيط بها علما كالكواكب السيارة وما الله أعلم به وما يكشفه للناس في متعاقب الأزمان.

ويكون وقوعها على الأرض بمعنى الخرور والسقوط فيكون المعنى أن الله بتدبير علمه وقدرته جعل للسماء نظاما يمنعها من الخرور على الأرض، فيكون قوله: ﴿ويمسك السماء﴾ امتنانا على الناس بالسلامة مما يفسد حياتهم، ويكون قوله: ﴿إلا بإذنه﴾ احتراسا جمعا بين **الامتنان** والتخويف، ويكون الناس شاكرين

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣١/١٧

مستزيدين من النعم خائفين من غضب ربهم أن يأذن لبعض السماء بالوقوع على الأرض. وقد أشكل الاستثناء بقوله: ﴿إلا بإذنه﴾ فقيل في دفع الإشكال: إن معناه إلا يوم القيامة بأذن الله لها في الوقوع على الأرض. ولكن لم يرد في الآثار أنه يقع سقوط السماء وإنما ورد تشقق السماء وانفطارها. وفيما جعلنا ذلك احتراسا دفع للإشكال لأن الاحتراس أمر فرضي فلا يقتضي الاستثناء وقوع المستثنى.

ويجوز أن يكون لفظ ﴿السماء﴾ بمعنى المطر، كقول معاوية بن مالك:

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

وقول زيد بن خالد الجهني في حديث الموطأ : "صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية على إثر سماء كانت من الليل" ، فيكون معنى الآية: أن الله بتقديره جعل لنزول المطر على الأرض مقادير قدر أسبابها، وأنه لو استمر نزول المطر على الأرض لتضرر الناس فكان في إمساك نزوله باطراد منه على الناس، وكان تقدير نزوله عند تكوين الله إياه منة أيضا. فيكون هذا مشتملا على ذكر نعمتين: نعمة الغيث، ونعمة السلامة من طغيان المياه.

ويجوز أن يكون لفظ السماء قد أطلق على جميع الموجودات العلوية التي يشملها لفظ ﴿السماء﴾ الذي هو ما علا الأرض فأطلق على ما يحويه، كما أطلق لفظ الأرض على سكانها في قوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ . فالله يمسك ما في السماوات من الشهب ومن كريات الأثير والزمهرير عن اختراق كرة الهواء. ويمسك ما فيها من القوى كالمطر والبرد والثلج والصواعق من الوقوع على." (١)

"الأرض والتحك بها إلا بإذن الله فيما اعتاد الناس إذنه به من وقوع المطر والثلج والصواعق والشهب وما لم يعتادوه من تساقط الكواكب. فيكون موقع ﴿ويمسك السماء﴾ بعد قوله تعالى: ﴿والفلك تجري في البحر بأمره﴾ كموقع قوله تعالى: ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه﴾ في سورة الجاثية.

ويكون في قوله: ﴿إلا بإذنه﴾ إدماجا بين **الامتنان** والتخويف: فإن من الإذن بالوقوع على الأرض ما هو مرغوب للناس، ومنه ما هو مكروه. وهذا المحمل الثالث أجمع لما في المحملين الآخرين وأوجز، فهو لذلك أنسب بالإعجاز.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٣/١٧

والاستثناء في قوله: ﴿إلا بإذنه﴾ استثناء من عموم متعلقات فعل ﴿يمسك﴾ وملابسات مفعوله وهو كلمة ﴿السماء﴾ على اختلاف محامله، أي يمنع ما في السماء من الوقوع على الأرض في جميع أحواله إلا وقوعا ملابسا لإذن من الله. هذا ما ظهر لي في معنى الآية.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يعود قوله: ﴿إلا بإذنه﴾ على الإمساك لأن الكلام يقتضي بغير عمد أي يدل بدلالة الاقتضاء على تقدير هذا المتعلق أخذا من قوله تعالى: ﴿بغير عمد ترونها﴾ ونحوه فكأنه أراد: إلا بإذنه فيمسكها اهـ. يريد أن حرف الاستثناء قرينة على المحذوف.

والإذن. حقيقته: قول يطلب به فعل شيء. واستعير هنا للمشيئة والتكوين، وهما متعلق الإرادة والقدرة.

وقد استوعبت الآية العوالم الثلاثة: البر، والبحر، والجو.

وموقع جملة: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ موقع التعليل للتسخير والإمساك باعتبار الاستثناء لأن في جميع ذلك رأفة بالناس بتيسير منافعهم الذي في ضمنه دفع الضر عنهم.

والرؤوف: صيغة مبالغة من الرأفة أو صفة مشبهة. وهي صفة تقتضي صرف الضر.

والرحيم: وصف من الرحمة. وهي صفة تقتضي النفع لمحتاجه. وقد تتعاقب الصفتان، والجمع بينهما يفيد ما تختص به كل صفة منهما ويؤكد ما تجتمعان عليه.." (١)

"الأموال. وإطلاق الزكاة على الصدقة مشهور في القرآن. قال تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ [فصلت:٦,٧] وهي من سورة مكية بالاتفاق، وقال: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾ [مريم: ٥٤,٥٥] ولم تكن زكاة النصب مشروعة في زمن إسماعيل.

وهي السورة السادسة والسبعون في عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة ﴿الطور﴾ وقبل سورة ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ .

وآياتها مائة وسبع عشرة في عد الجمهور. وعدها أهل الكوفة مائة وثمان عشرة، فالجمهور عدوا ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ آية، وأهل الكوفة عدوا ﴿أولئك هم الوارثون﴾ [المؤمنون: ١٠,١١] آية وما بعدها آية أخرى، كما يؤخذ من كلام أبي بكر ابن العربي في العارضة في الحديث الذي سنذكره عقب تفسير قوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧/٢٣٤

أغراض السورة

هذه السورة تدور آيها حول محور تحقيق الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه.

فكان افتتاحها بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك.

وأعقب ذلك بوصف خلق الإنسان أصله ونسله الدال على تفرد الله تعالى بالإلهية لتفرده بخلق الإنسان ونشأته ليبتدئ الناظر بالاعتبار في تكوين ذاته ثم بعدمه بعد الحياة. ودلالة ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات وأن الله لم يخلق الخلق سدى ولعبا.

وانتقل إلى الاعتبار بخلق السماوات ودلالته على حكمة الله تعالى.

وإلى الاعتبار والامتنان بمصنوعات الله تعالى التي أصلها الماء الذي به حياة ما في هذا العالم من الحيوان والنبات وما في ذلك من دقائق الصنع، وما في الأنعام من المنافع ومنها الحمل.

ومن تسخير المنافع للناس وما أوتيه الإنسان من آلات الفكر والنظر. وورد ذكر الحمل على الفلك فكان منه تخلص إلى بعثه نوح وحدث الطوفان.." (١)

"الخامس والعشرون: أن جهة الذهاب به ليست معينة بأنها السفل أي ما دل عليه لفظ غورا.

السادس والعشرون: أن الإيعاد هنا بما لم يبتلوا به قط بما هنالك.

السابع والعشرون: أن الموعد به هنا إن وقع فهم هالكون البتة.

الثامن والعشرون: أنه لم يبق هنا لهم متشبث ولو ضعيفا في تأميل امتناع الموعد به وهناك حيث أسند الإصباح غورا إلى الماء، ومعلوم أن الماء لا يصبح غورا بنفسه كما هو تحقيق مذهب الحكيم أيضا احتمل أن يتوهم الشرطية مع صدقها ممتنعة المقدم فيأمنوا وقوعه.

التاسع والعشرون: أن الموعد به هنا يحتمل في بادئ النظر وقوعه حالا بخلافه هناك فإن المستقبل متعين لوقوعه لمكان أن. وظاهر أن التهديد لمحتمل الوقوع في الحال أهول، ومتعين الوقوع في الاستقبال أهون.

الثلاثون: أن ما هنا لا يحتمل غير الإيعاد بخلاف ما هناك فأنه يحتمل ولو علم بعد أن يكون المراد به الامتنان بأنه: إن أصبح ماؤكم غورا فلا يأتيكم بماء معين سوى الله تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٨/٦

وأنا أقول: عني هؤلاء النحارير ببيان التفاوت بين الآيتين ولم يتعرض أحدهم للكشف عن وجه وتوفير الخصائص في هذه الآية دون الآية الأخرى مما يوازنها، وليس ذلك لخلو الآية عن نكت الإعجاز ولا عجز الناظرين عن استخراج أمثالها؛ ولكن ما يبين من الخصائص البلاغية في القرآن ليس يريد من يبينه أن ما لاح له ووفق إليه هو قصارى ما أودعه الله في نظم القرآن من الخصائص والمعاني ولكن مبلغ ماصا دف لوحه للناظر المتدبر، والعلماء متفاوتون في الكشف عنه على قدر القرائح والفهوم فقد يفاض على أحد من إدراك الخصائص البلاغية في بعض الآيات ولا يفاض عليه مثله أو على مثله في غيرها. وإنما يقصد أهل المعاني بإفاضة القول في بعض الآيات أن تكون نموذجا لاستخراج أمثال تلك الخصائص في آيات اخرى. كما فعل السكاكي في بيان خصائص قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ الآية من مبحث الفصاحة والبلاغة من المفتاح، وأنه قال في منتهى كلامه ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت لأن المقصود لم يكن إلا الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي." (١)

"المعاني والبيان.

وقد نقول: إن آية سورة المؤمنين قصد منها الإنذار والتهديد بسلب تلك النعمة العظيمة، وأما آية سورة الملك فالقصد منها الاعتبار بقدرة الله تعالى على سلبها، فاختلاف المقامين له أثر في اختلاف المقتضيات فكانت آية سورة المؤمنين آثر بوفرة الخصائص المناسبة لمقام الإنذار والتهديد دون تعطيل لاستخراج خصائص فيها لعلنا نلم بها حين نصل إليها.

على أن سورة الملك نزلت عقب نزول سورة المؤمنين وقد يتداخل نزول بعضها مع نزول بعض سورة المؤمنين، فلما أشبعت آية سورة المؤمنين بالخصوصيات التي اقتضاها المقام اكتفي عن مثلها في نظيرتها من سورة الملك فسلك في الثانية مسلك الإيجاز لقرب العهد بنظيرها.

وإنشاء الجنات من صنع الله تعالى أول إنبات الجنات في الأرض ومن بعد ذلك أنبتت الجنات بغرس البشر وذلك أيضا من صنع الله بما أودع في العقول من معرفة الغرس والزرع والسقي وتفجير المياه واجتلابها من بعد، فكل هذا الإنشاء من الله تعالى.

والجنة: المكان ذو الشجر. وأكثر إطلاقه على ما كان فيه نخل وكرم. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿كمثل جنة بربوة﴾ الآية في سورة البقرة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧/١٨

وما ذكر هنا من أصناف الشجر الثلاثة هو أكرم الشجر وأنفعه ثمرا وهو النخيل والأعناب والزيتون، وتقدم الكلام على النخيل والأعناب والزيتون في سورة النحل.

والفواكه: جمع فاكهة، وهي الطعام الذي يتفكه بأكله، أي يتلذذ بطعمه من غير قصد القوت، فإن قصد به القوت قيل له طعام. فمن الأطعمة ما هو فاكهة وطعام كالتمر والعنب لأنه يؤكل رطبا ويابسا، ومنها ما هو فاكهة وليس بطعام كاللوز والكمثرى، ومنها ما هو طعام غير فاكهة كالزيتون، ولذلك أخر ذكر شجرة الزيتون عن ذكر أخويها لأنه أريد الامتنان بما في ثمرتهما من التفكه والقوت فتكون منة بالحاجي والتحسيني.

ووصف الفواكه بكثيرة باعتبار اختلاف الأصناف كالبسر والرطب وال تمر، وكالزيت والعنب والرطب، وأيضا باعتبار كثرة إثمار هذين الشجرين.

﴿وشجرة﴾ عطف على ﴿جنات﴾ أي وأخرجنا لكم به شجرة تخرج من طور سيناء." (١)

"ويجوز أن يكون معنى ﴿تخرج﴾ تظهر وتعرف، فيكون أول اهتداء الناس إلى منافع هذه الشجرة وانتقالهم إياها كان من الزيتون الذي بطور سيناء. وهذا كما نسمي الديك الرومي في بلدنا بالديك الهندي لأن الناس عرفوه من بلاد الهند، وكما تسمى بعض السيوف في بلاد العرب بالمشرفية لأنها عرفت من مشارف الشام، وبعض الرماح الخطية لأنها ترد إلى بلاد العرب من مرفأ يقال له: الخط، وبعض السيوف بالمهند لأنه يجلب من الهند، وقد كان الزيت يجلب إلى بلاد العرب من الشام ومن فلسطين.

وأياما كان فليس القصد من ذكر أنها تخرج من طور سيناء إلا التنبيه على أنه منبتها الأصلي وإلا فإن الامتنان بها لم يكن موجها يومئذ لسكان طور سيناء. وما كان هذا التنبيه إلا للتنويه بشرف منبتها وكرم الموطن الذي ظهرت فيه، ولم تزل شجرة الزيتون مشهورة بالبركة بين الناس. ورأيت في لسان العرب عن الأصمعي عن عبد الملك بن صالح: أن كل زيتونة بفلسطين من غرس أمم يقال لهم اليونانيون ١ هـ. والظاهر أنه يعني به زيتون زمانهم الذي أخلفوا به أشجارا قديمة بادت.

وفي أساطير اليونان ميثولوجيا أن منيرفا ونبتون الربين في اعتقاد اليونان تنازعا في تعيين أحدهما ليضع اسما لمدينة بناها ككرابيسفحكمت الأرباب بينهما بأن هذا الشرف لا يناله إلا من يصنع أنفع الأشياء. فأما نبتون فأوجد فرسا بحريا عظيم القوة، وأما مينيرفا فصنعت شجرة الزيتون بثمرتها، فحكم الأرباب لها

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨/١٨

بأنها أحق، فلذلك وضعوا للمدينة اسم اثينا الذي هو اسم منيرفا. وزعموا أن هيركول لما رجع من بعض غزواته جاء معه بأغصان من الزيتون فغرسها في جبل أولمبوس وهو مسكن آلهتهم في زعمهم.

فقد كان زيت الزيتون مستعملا عند اليونان من عهد هوميروس إذ ذكر في الإلياذة أن أخيل سكب زيتا على شلو فطر قليوس وشلو هكتور.

وكان الزيت نادرا في معظم بلاد العرب إذ كان يجلب إلى بلاد العرب من الشام.

وقد ضرب الله بزيت الزيتونة مثلا لنوره في قوله: ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾ .

والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿تخرج من طور سيناء﴾ لاستحضار الصورة العجيبة المهمة التي كونت بها تلك الشجرة في أول تكوينها حتى كأن السامع يبصرها خارجة." (١)

"دليلا على انفراد الله تعالى بالخلق وتمام القدرة وسعة العلم. والأنعام تقدم أنها الإبل في غالب عرف العرب.

وجملة ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ بيان لجملة ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ فلذلك لم تعطف لأنها في موقع المعطوف عطف البيان.

والعبرة حاصلة من تكوين ما في بطونها من الألبان الدال عليه ﴿نسقيكم﴾ . وأما ﴿نسقيكم﴾ بمجرده فهو منة. وقد تقدم نظير هذه الآية مفصلا في سورة النحل.

وجملة ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ وما بعدها معطوفة على جملة ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ فإن فيه بقية بيان العبرة وكذلك الجمل بعده. وهذه المنافع هي الأصواف والأوبار والأشعار والنتاج.

وأما الأكل منها فهو عبرة أيضا إذ أعدها الله صالحة لتغذية البشر بلحومها لذيذة الطعم، وألهم إلى طريقة شيها وصلقها وطبخها، وفي ذلك منة عظيمة ظاهرة.

وكذلك القول في معنى ﴿وعليها... تحملون﴾ فإن في ذلك عبرة بإعداد الله تعالى إياها لذلك وفي ذلك منة ظاهرة. والحمل صادق بالركوب وبحمل الأثقال.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بفتح النون، وقرأه الباقون عدا أبا جعفر بضم النون يقال: سقاه وأسقاه بمعنى، وقرأه أبو جعفر بتاء التأنيث مفتوحة على أن الضمير للأنعام.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١/١٨

وعطف ﴿وعلى الفلك﴾ إدماج وتهيئة للتخلص إلى قصة نوح.

[٢٥,٢٣] ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾ .

لما كان الاستدلال والامتنان اللذان تقدما موجهين إلى المشركين الذين كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم واعتلوا لذلك بأنهم لا يؤمنون برسالة بشر مثلهم وسألوا إنزال ملائكة ووسموا الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنون، فلما شابهوا بذلك قوم نوح ومن جاء بعدهم ناسب." (١)

"أن يضرب لهم بقوم نوح مثل تحذيرا مما أصاب قوم نوح من العذاب. وقد جرى في أثناء الاستدلال والامتنان ذكر الحمل في الفلك فكان ذلك مناسبة للانتقال فحصل بذلك حسن التخلص، فيعتبر ذلك قصص الرسل إما استطرادا في خلال الاستدلال على الوحدانية، وإما انتقالا كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار﴾ .

وتصدير الجملة بلام القسم تأكيد للمضمون التهديدي من القصة، فالمعنى تأكيد الإرسال إلى نوح وما عقب به ذلك.

وعطف مقالة نوح على جملة إرساله بفاء التعقيب لإفادة أدائه رسالة ربه بالفور من أمره وهو شأن الامتثال.

وأمره قومه بأن يعبدوا الله يقتضي أنهم كانوا معرضين عن عبادة الله بأن أقبلوا على عبادة أصنامهم ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر حتى أهملوا عبادة الله ونسوها. وكذلك حكيت دعوة نوح قومه في أكثر الآيات بصيغة أمر بأصل عبادة الله دون الأمر بقصر عبادتهم على الله مع الدلالة على أنهم ما كانوا ينكرون وجود الله ولذلك عقب كلامه بقوله: ﴿ما لكم من إله غيره﴾ .

ويدل على هذا قولهم ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ فهم مثبتون لوجود الله. فجملة ﴿ما لكم من إله غيره﴾ في موقع التعليل للأمر بعبادته وهو تعليل أخص من المعلل، وهو أوقع لما فيه من الإيجاز لاقتضائه معنى: اعبدوا الله وحده. فالمعنى: اعبدوا الله الذي تركتم عبادته وهو إلهكم دون غيره فلا يستحق غيره العبادة فلا تعبدوا أصنامكم معه.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٣/١٨

و ﴿غيره﴾ نعت ل ﴿إله﴾ قرأه الجمهور بالرفع على اعتبار محل المنعوت ب غير لأن المنعوت مجرور بحرف جر زائد. وقرأه الكسائي بالجر على اعتبار اللفظ المجرور بالحرف الزائد.

وفرع على الأمر بإفراده بالعبادة استفهام إنكار على عدم اتقائهم عذاب الله تعالى. وقد خولفت في حكاية جواب الملإ من قومه الطريقة المألوفة في القرآن في حكاية المحاورات وهي ترك العطف التي جرى عليها قوله: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ في سورة البقرة. فعطف هنا جواب الملإ من قومه بالفاء لوجهين:." (١)

"والمراد بالعذاب الشديد عذاب مستقبل. والأرجح: أن المراد به عذاب السيف يوم بدر. وعن مجاهد: أنه عذاب الجوع.

وقيل: عذاب الآخرة. وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الباب حقيقة وهو باب من أبواب جهنم كقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ .

والإبلاس: شدة اليأس من النجاة. قال: أبلس، إذا ذل ويئس من التخلص، وهو ملازم للهمزة ولم يذكروا له فعلا مجردا. فالظاهر أنه مشتق من البلاس كسحاب وهو المسح، وأن أصل أبلس صار ذا بلاس. وكان شعار من زهدوا في النعيم. يقال: لبس المسوح، إذا ترهب.

وهنا انتهت الجمل المعترضة المبتدأة بجملة: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ وما تفرع عليها من قوله: ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾ إلى قوله: ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ .

[٧٨] ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾

هذا رجوع إلى غرض الاستدلال على انفراد الله تعالى بصفات الإلهية والامتنان بما منح الناس من نعمة لعلهم يشكرون بتخصيصه بالعبادة، وذلك قد انتقل عنه من قوله: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ فانتقل إلى الاعتبار بآية فلك نوح عليه السلام فأتبع بالاعتبار بقصص أقوام الرسل عقب قوله تعالى: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ فالجملة إما معطوفة على جملة ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ والغرض واحد وما بينهما انتقالات.

وإما مستأنفة رجوعا إلى غرض الاستدلال والامتنان وقد تقدمت الإشارة إلى هذا عند قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٤/١٨

وفي هذا الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ثم الرجوع إلى الغرض تجديد لنشاط الذهن وتحريك للإصغاء إلى الكلام وهو من أساليب كلام العرب في خطبهم وطوالهم. وسماه السكاكي: قرى الأرواح، وجعله من آثار كرم العرب.

وقوله: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع﴾ تذكير بواحدانية الله تعالى.

والأظهر أن يكون ضمير الجلالة مسندا واسم الموصول مسندا إليه لأنهم علموا أن." (١)

"حكم متعلق بالمستقبل لأنه مضارع في حيز الشرط، وهو صريح في أنه عفو عن إكراه.

والذي يشتمل عليه هذا الخبر جانبان: جانب المكرهين وجانب المكرهات بفتح الراء، فأما جانب المكرهين فلا يخطر بالبال أن الله غفور رحيم لهم بعد أن نهاهم عن الإكراه إذ ليس لمثل هذا التبشير نظير في القرآن.

وأما الإماء المكرهات فإن الله غفور رحيم لهن. وقد قرأ بهذا المقدر عبد الله بن مسعود وابن عباس فيما يروى عنهما وعن الحسن أنه كان يقول غفور رحيم لهن والله. وجعلوا فائدة هذا الخبر أن الله عذر المكرهات لأجل الإكراه، وأنه من قبيل قوله: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ . وعلى هذا فهو تعريض بالوعيد للذين يكرهون الإماء على البغاء.

ومن المفسرين من قدر المحذوف ضمير من الشرطية، أي غفور رحيم له، وتأولوا ذلك بأنه بعد أن يقلع ويتوب وهو تأويل بعيد.

وقوله: ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ دليل جواب الشرط إذ حذف الجواب إيجازا واستغنى عن ذكره بذكر علته التي تشمله وغيره. والتقدير: فلا إثم عليهن فإن الله غفور رحيم لأمثالهن ممن أكره على فعل جريمة.

والفاء رابطة الجواب.

وحرف إن في هذا المقام يفيد التعليل ويغني غناء لام التعلل.

[٣٤] ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾

ذيلت الأحكام والمواعظ التي سبقت بإثبات نفعها وجدواها لما اشتملت عليه مما ينفع الناس ويقيم عمود جماعتهم ويميز الحق من الباطل ويزيل من الأذهان اشتباه الصواب بالخطأ فيعلم الناس طرق النظر الصائب والتفكير الصحيح، وذلك تنبيه لما تستحقه من التدبر فيها ولنعمة الله على الأمة بإنزالها ليشكروا الله حق شكره.

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٤/١٨

ووصف هذه الآيات المنزلة بثلاث صفات كما وصف السورة في طالعتها بثلاث صفات. والمقصد من الأوصاف في الموضعين هو **الامتنان** فكان هذا يشبه رد العجز على الصدر، فجملة ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ مستأنفة استئناف التذييل وكان مقتضى." (١)

"الذين خلوا من قبلكم. وحذف المضاف في مثل هذا طريقة فصيحة، قال النابغة:

وقد خفت حتى ماتزيد مخافتي ... على وعل في ذي المطارة عاقل

أراد على مخافة وعل.

و ﴿الذين خلوا من قبلكم﴾ هم الأمم الذين سبقوا المسلمين، وأراد: من أمثال صالحي الذي خلوا من قبلكم.

وهذا المثل هو قصة الإفك النظيرة لقصة يوسف وقصة مريم في تقول البهتان على الصالحين البراء.

والموعظة: كلام أو حالة يعرف منها المرء مواقع الزلل فينتهي عن اقتراف أمثالها. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿فأعرض عنهم وعظهم﴾ في سورة النساء وقوله: ﴿موعظة وتفصيلا لكل شيء﴾ في سورة الأعراف.

ومواعظ هذه الآيات من أول السورة كثيرة كقوله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين وقوله: ﴿لولا إذ سمعتموه﴾ الآيات، وقوله: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا﴾ .

والمتقون: الذين يتقون، أي يتجنبون ما نهوا عنه.

[٣٥] ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾

﴿الله نور السماوات والأرض﴾

أتبع منة الهداية الخاصة في أحكام خاصة المفادة من قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ الآية **بالامتنان** بأن الله هو مكون أصول الهداية العامة والمعارف الحق للناس كلهم بإرسال رسوله بالهدى ودين الحق، مع ما في هذا **الامتنان** من الإعلام بعظمة الله تعالى ومجده وعموم علمه وقدرته.

والذي يظهر لي أن جملة: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ معترضة بين الجملة التي." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ١٨٢/١٨

(٢) التحرير والتنوير، ١٨٤/١٨

"والدابة: ما دب على وجه الأرض، أي مشى. وغلب هنا الإنسان فأتي بضمير العقلاء مرادا به الإنسان وغيره مرتين.

وتنكير ماء لإرادة النوعية تنبيها على اختلاف صفات الماء لكل نوع من الدواب إذ المقصود تنبيه الناس إلى اختلاف النطف للزيادة في الاعتبار.

وهذا بخلاف قوله: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ إذ قصد ثمة إلى أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من جنس الماء وهو جنس واحد اختلفت أنواعه، فتعريف الجنس هناك إشارة إلى ما يعرفه الناس إجمالا ويعهدونه من أن الحيوان كله مخلوق من نطف أصوله. وهذا مناط الفرق بين التنكير كما هنا وبين تعريف الجنس كما في آية ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ .

ومن ابتدائية متعلقة بخلق.

ورتب ذكر الأجناس في حال المشي على ترتيب قوة دلالتها على عظم القدرة لأن الماشي بلا آلة مشي متمكنة أعجب من الماشي على رجلين، وهذا المشي زحفا. أطلق المشي على الزحف بالبطن للمشاكلة مع بقية الأنواع. وليس في الآية ما يقتضي حصر المشي في هذه الأحوال الثلاثة لأن المقصود الاعتبار بالغالب المشاهد.

وجملة ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ زيادة في العبرة، أي يتجدد خلق الله ما يشاء أن يخلقه مما علمتم وما لم تعلموا، فهي جملة مستأنفة.

وجملة: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ تعليل وتذييل. ووقع فيه إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار ليكون كاملا مستقلا بذاته لأن شأن التذييل أن يكون كالمثل.

[٤٦] ﴿لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾

تذييل للدلائل والعبر السالفة وهو نتيجة الاستدلال ولذلك ختم بقوله: ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ ، أي إن لم يهتد بتلك الآيات أهل الضلالة فذلك لأن الله لم يهدهم لأنه يهدي من يشاء. والمراد بالآيات هنا آيات القرآن كما يقتضيه فعل ﴿أنزلنا﴾ ولذلك لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها بعكس قوله السابق: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ .

ولما كان المقصود من هذا إقامة الحجة دون الامتنان لم يقيد إنزال الآيات بأنه إلى." (١)

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١٣/١٨

"قوله: ﴿والذين لم يبلغوا الحلم﴾ ليعلم أن الأطفال إذ بلغوا الحلم تغير حكمهم في الاستئذان إلى حكم استئذان الرجال الذي في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم﴾ الآيات، فالمراد بقوله: ﴿الذين من قبلهم﴾ فيما ذكر من الآية السابقة أو الذين كانوا يستأذنون من قبلهم وهم كانوا رجالا قبل أن يبلغ أولئك الأطفال مبلغ الرجال.

وقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾ القول فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفا، وهو تأكيد له بالتكرير لمزيد الاهتمام **والامتنان**. وإنما أضيفت الآيات هنا لضمير الجلالة تقننا ولتقوية تأكيد معنى كمال التبيين الحاصل من قوله: ﴿كذلك﴾ . وتأكيد معنى الوصفين العليم الحكيم، أي هي آيات من لدن من هذه صفاته ومن تلك صفات بيانه.

[٦٠] ﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم﴾

هذه الآية مخصصة لقوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ إلى قوله: ﴿على عورات النساء﴾ .

ومناسبة هذا التخصيص هنا أنه وقع بعد فرض الاستئذان في الأوقات التي يضع الرجال والنساء فيها ثيابهم عن أجسادهم، فعطف الكلام إلى نوع من وضع الثياب عن لابسها وهو وضع النساء القواعد بعض ثيابهن عنهن فاستثني من عموم النساء النساء المتقدمات في السن بحيث بلغن إبان الإياس من المحيض فرخص لهن أن لا يضربن بخمرهن على جيوبهن، وأن لا يدنين عليهن من جلابيبهن. فعن ابن مسعود وابن عباس: الثياب الجلباب، أي الرداء والمقنعة التي فوق الخمار. وقال السدي: يجوز لهن وضع الخمار أيضا.

والقواعد: جمع قاعد بدون هاء تأنيث مثل: حامل وحائض لأنه وصف نقل لمعنى خاص بالنساء وهو القعود عن الولادة وعن المحيض. استعير القعود لعدم القدرة لأن القعود يمنع الوصول إلى المرغوب وإنما رغبة المرأة في الولد والحيض من سبب الولادة فلما استعير لذلك وغلب في الاستعمال صار وصف قاعد بهذا المعنى خاصا بالمؤنث فلم تلحقه هاء التأنيث لانتفاء الداعي إلى الهاء من التفرقة بين المذكر والمؤنث وقد بينه قوله:." (١)

"وهي السورة الثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يس وقبل سورة فاطر، وعدد آياتها سبع وسبعون باتفاق أهل العدد.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٧/١٨

أغراض هذه السورة

واشتملت هذه السورة على الابتداء بتحميد الله تعالى وإنشاء الثناء عليه، ووصفه بصفات الإلهية والوحدانية فيها.

وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن، وجلال منزله، وما فيه من الهدى، وتعريض **بالامتنان** على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك، والتنويه بشأن النبي صلى الله عليه وسلم.

وأقيمت هذه السورة على ثلاث دعائم:

الأولى: إثبات أن القرآن منزل من عند الله، والتنويه بالرسول المنزل عليه صلى الله عليه وسلم، ودلائل صدقه، ورفعة شأنه عن أن تكون له حظوظ الدنيا، وأنه على طريقة غيره من الرسل، ومن ذلك تلقى قومه دعوته بالتكذيب.

الدعامة الثانية: إثبات البعث والجزاء، والإنذار بالجزاء في الآخرة، والتبشير بالثواب فيها للصالحين، وإنذار المشركين بسوء حظهم يومئذ، وتكون لهم الندامة على تكذيبهم الرسول وعلى إشراكهم واتباع أئمة كفرهم.

الدعامة الثالثة: الاستدلال على وحدانية الله، وتفرده بالخلق، وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو شريك، وإبطال إلهية الأصنام، وإبطال ما زعموه من بنوة الملائكة لله تعالى.

وافتتحت في آيات كل دعامة من هذه الثلاث بجملة "تبارك الذي" الخ.

قال الطيبي: مدار هذه السورة على كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة استهلالها ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ [الفرقان: ١] .

وذكر بدائع من صنعه تعالى جمعا بين الاستدلال والتذكير.

وأعقب ذلك بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوته ومقاومته الكافرين.

وضرب الأمثال للحالين ببعثة الرسل السابقين وما لقوا من أقوامهم مثل قوم موسى وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط.." (١)

---

(١) التحرير والتنوير، ٦/١٩

"كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ [سبأ: ٢٨] لأن المقام هنا لتهديد المشركين إذ كذبوا بالقرآن وبالرسول عليه الصلاة والسلام. فكان مقتضيا لذكر النذارة دون البشارة، وفي ذلك اكتفاء لأن البشارة تخطر ببال السامع عند ذكر النذارة. وسيجيء ﴿وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا﴾ في هذه السورة [٥٦].

وفي هذه الآية جمع بين التنويه بشأن القرآن وأنه منزل من الله وتنويه بشأن النبي عليه الصلاة والسلام ورفعة منزلته عند الله وعموم رسالته.

[٢] ﴿الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾ .

أجريت على اسم الله تعالى هذه الصفات الأربع بطريق تعريف الموصولية لأن بعض الصلات معروف عند المخاطبين اتصاف الله به وهما الصفتان الأولى والرابعة؛ وإذا قد كانتا معلومتين كانت الصلتان الأخريان المذكورتان معهما في حكم المعروف لأنهما أجريتا على من عرف بالصلتين الأولى والرابعة فإن المشركين ما كانوا يمترون في أن الله هو مالك السماوات والأرض ولا في أن الله هو خالق كل شيء كما في قوله ﴿قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله﴾ الآيات من سورة المؤمنين، ولكنهم يثبتون لله ولدا وشريكا في الملك.

ومن بديع النظم أن جعل الوصفان المختلف فيهما معهم متوسطين بين الوصفين اللذين لا مرية فيهما حتى يكون الوصفان المسلمين كالدليل أولا والنتيجة آخرا، فإن الذي له ملك السماوات والأرض لا يليق به أن يتخذ ولدا ولا أن يتخذ شريكا لأن ملكه العظيم يقتضي غناه المطلق فيقتضي أن يكون اتخاذه ولدا وشريكا عبثا إذ لا غاية له، وإذا كانت أفعال العقلاء تصان عن العبث فكيف بأفعال أحكم الحكماء تعالى وتقدس.

فقوله ﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ بدل من ﴿الذي نزل الفرقان﴾ .

وإعادة اسم الموصول لاختلاف الغرض من الصلتين لأن الصلة الأولى في غرض **الامتنان** بتنزيل القرآن للهدى، والصلة الثانية في غرض اتصاف الله تعالى بالوحدانية.

وفي الملك إيماء إلى أن الاشتراك في الملك ينافي حقيقة الملك التامة التي لا يليق به غيرها.." [١]

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٩

"انتصبت الأسماء الأربعة بفعل محذوف دل عليه ﴿تبرنا﴾ . وفي تقديمها تشويق إلى معرفة ما سيخبر به عنها. ويجوز أن تكون هذه الأسماء منصوبة بالعطف على ضمير النصب من قوله ﴿فدمرناهم تدميرا﴾ [الفرقان: ٣٦].

وتنوين ﴿وعادا وثمودا﴾ مع أن المراد **الامتنان**. فأما تنوين ﴿عادا﴾ فهو وجه وجيه لأنه اسم عري عن علامة التأنيث وغير زائد على ثلاثة أحرف فحقه الصرف. وأما صرف ﴿ثمودا﴾ في قراءة الجمهور فعلى اعتبار اسم الأب، والأظهر عندي أن تنوينه للمزاوجة مع ﴿عادا﴾ كما قال تعالى ﴿سلاسلا وأغلالا وسعيرا﴾ [الإنسان: ٤].

وقرأه حمزة وحفص ويعقوب بغير تنوين على ما يقتضيه ظاهر اسم الأمة من التأنيث المعنوي. وتقدم ذكر عاد في سورة الأعراف.

وأما أصحاب الرس فقد اختلف المفسرون في تعيينهم واتفقوا على أن الرس بئر عظيمة أو حفير كبير. ولما كان اسما لنوع من أماكن الأرض أطلقه العرب على أماكن كثيرة في بلاد العرب.

قال زهير:

بكرن بكورا واستحرن بسحرة

...

فهن ووادي الرس كاليد للفم

وسموا بالرس ما عرفوه من بلاد فارس، وإضافة ﴿أصحاب﴾ إلى ﴿الرس﴾ إما لأنهم أصابهم الخسف في رس، وإما لأنهم نازلون على رس، وإما لأنهم احتفروا رسا، كما سمي أصحاب الأخدود الذين خدوه وأضرموه. والأكثر على أنه من بلاد اليمامة ويسمى "فلجا"١.

واختلف في المعنى من ﴿أصحاب الرس﴾ في هذه الآية فقيل هم قوم من بقايا ثمود. وقال السهيلي: هم قوم كانوا في عدن أرسل إليهم حنظلة بن صفوان رسولا. وكانت العنقاء هي طائر أعظم ما يكون من الطير "سميت العنقاء لطول عنقها" وكانت تسكن في جبل يقال له "فتح"٢، وكانت تنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد

---

١ فلج بفتحتين. وقال ياقوت: بفتح فسكون اسم بلد، ويقال: بطن فلج من همى ضرية.

٢ وهو أول الدهناء بفاء أخت القاف ومثناة فوقية بعدها معجمة، وقيل حاء معملة: جبل أو قرية لأهل الرس ل‍م يذكره ياقوت، وذكر فتاح وقال: جمع فتح وقال: أرض بالدهناء ذات رمال.." (١)

"تحريضا على النظر، ومن جاحد ينكر عليه إهماله النظر، ومن موفق يحث على زيادة النظر.

والرؤية بصرية، وقد ضمن الفعل معنى النظر فعدي إلى المرئي بحرف "إلى". والمد: بسط الشيء المنقبض المتداخل يقال: مد الحبل ومد يده، ويطلق المد على الزيادة في الشيء وهو استعارة شائعة، وهو هنا الزيادة في مقدار الظل.

ثم إذا كان المقصود بفعل الرؤية حالة من أحوال الذات تصح رؤيتها فلك تعدية الفعل إلى الحالة كقوله تعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ [الفيل: ١] ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا﴾ [نوح: ١٥]، وصح تعديته إلى اسم الذات مقيدة بالحالة المقصودة بحال أو ظرف صلة نحو ﴿أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت﴾ [الغاشية: ١٧] ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ [البقرة: ٢٥٨] ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

والفرق بين التعديتين أن الأولى يقصد منها العناية بالحالة لا بصاحبها؛ فالمقصود من آية سورة الفيل: **الامتنان** على أهل مكة بما حل بالذين انتهكوا حرمتها من الاستئصال، والمقصود من آية سورة الغاشية العبرة بكيفية خلقه الإبل لما تشتمل عليه من عجيب المنافع، وكذلك الآيتان الأخيرتان، وإذ قد كان المقام هنا مقام إثبات الوحدانية والإلهية الحق لله تعالى، أوثر تعلق الرؤية باسم الذات ابتداء ثم مجيء الحال بعد ذلك مجيئا كمجيء بدل الاشتمال بعد ذكر المبدل منه.

وأما قوله في سورة [نوح ١٥] ﴿ألم تروا كيف خلق الله﴾ دون أن يقال: ألم تروا ربكم كيف خلق، لأن قومه كانوا متصلبين في الكفر وكان قد جادلهم في الله غير مرة فعلم أنه إن ابتدأهم بالدعوة إلى النظر في الوحدانية جعلوا أصابعهم في آذانهم فلم يسمعوا إليه فبادأهم باستدعاء النظر إلى كيفية الخلق.

وعلى كل فإن ﴿كيف﴾ هنا مجردة عن الاستفهام وهي اسم دال على الكيفية فهي في محل بدل الاشتمال من ﴿ربك﴾ ، والتقدير: ألم تر إلى ربك إلى هيئة مده الظل. وقد تقدم ذكر خروج "كيف" عن الاستفهام عند قوله تعالى ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ في سورة آل عمران، فإنه لا يخلو النهار من وجود الظل.

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٢/١٩

وفي وجود الظل دقائق من أحوال النظام الشمسي فإن الظل مقدار محدد من الظلمة." (١)

"يفصح المفسرون عن معنى هذه الجملة إفصاحا شافيا.

والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله ﴿ثم جعلنا﴾ لأن ضمير المتكلم أدخل في **الامتنان** من ضمير الغائب فهو مشعر بأن هذا الجعل نعمة وهي نعمة النور الذي به تمييز أحوال المرئيات وعليه فقوله ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ ارتقاء في المنة.

والدليل: المرشد إلى الطريق والهادي إليه، فجعل امتداد الظل لاختلاف مقاديره كامتداد الطريق وعلامات مقادير مثل صوى الطريق، وجعلت الشمس من حيث كانت سببا في ظهور مقادير الظل كالهادي إلى مراحل، بطريقة التشبيه البليغ، فكما أن الهادي يخبر السائر أين ينزل من الطريق، كذلك الشمس بتسببها في مقادير امتداد الظل تعرف المستدل بالظل بأوقات أعماله ليشرع فيها.

وتعدية ﴿دليلا﴾ بحرف "على" تفيد أن دلالة الشمس على الظل هنا دلالة تنبيه على شيء قد يخفى كقول الشاعر:

إلا علي دليل١.

وشمل هذا حالتي المد والقبض.

وجملة ﴿ثم قبضناه إلينا﴾ الخ عطف على جملة ﴿مد الظل﴾ ، أو على جملة ﴿جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ لأن قبض الظل من آثار جعل الشمس دليلا على الظل.

و ﴿ثم﴾ الثانية مثل الأولى مفيدة التراخي الرتبي، لأن مضمون جملة ﴿ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾ أهم في الاعتبار بمضمونها من مضمون ﴿جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ ، إذ في قبض دلالة من دلالة الشمس هي عكس دلالتها على امتداده فكانت أعجب إذ هي عمل ضد للعمل الأول، وصدور الضدين من السبب الواحد أعجب من صدور أحدهما السابق في الذكر.

والقبض: ضد المد فهو مستعمل في معنى النقص، أي نقصنا امتداده، والقبض هنا استعارة للنقص. وتعديته بقوله ﴿إلينا﴾ تخييل، شبه الظل بحبل أو ثوب طواه صاحبه بعد أن بسطه على طريقة المكنية، وحرف "إلى" ومجروره تخييل.

_

١ أوله:

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٦٣

إلى الله أشكو أنني لست ماشيا

...

ولا جائيا إلى على دليل

أي: رقيب يدل علي.." (١)

"وأنسب المعاني بمقام الامتنان هو معنى الراحة وإن كان في كلا المعنيين اعتبار بدقيق صنع الله تعالى. وفسر الزمخشري السبات بالنوم على طريقة التشبيه البليغ ناظرا في ذلك إلى مقابلته بقوله ﴿وجعل النهار نشورا﴾ .

وإعادة فعل ﴿جعل﴾ في قوله ﴿وجعل النهار نشورا﴾ دون أن يعاد في قوله ﴿والنوم سباتا﴾ مشعرة بأنه تنبيه إلى أنه جعل مخالف لجعل الليل لباسا. وذلك أنه أخبر عنه بقوله ﴿نشورا﴾ ، والنشور: بعث الأموات، وهو إدماج للتذكير بالبعث وتعريض بالاستدلال على من أحالوه، بتقريبه بالهبوب في النهار. وفي هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصبح "الحمد لله الذي أحيانا بعد إذ أماتنا وإليه النشور".

والنشور: الحياة بعد الموت، وتقدم قريبا عند قوله تعالى ﴿بل كانوا لا يرجون نشورا﴾ [الفرقان: ٤٠]. وهو هنا يحتمل عنيين أن يكون مرادا به البروز والانتشار فيكون ضد اللباس في قوله ﴿وهو الذي جع‍ل لكم الليل لباسا﴾ فيكون الإخبار به عن النهار حقيقيا، والمنة في أن النهار ينتشر فيه الناس لحوائجهم واكتسابهم. ويحتمل أن يكون مرادا به بعث الأجساد بعد موتها فيكون الإخبار على طريقة التشبيه البليغ.

[٤٨ - ٥٠] ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا﴾ .

استدلال على الانفراد بالخلق وامتنان بتكوين الرياح والأسحبة والمطر. ومناسبة الانتقال من حيث ما في الاستدلال الذي قبله من ذكر حال النشور والامتنان به فانتقل إلى ما في الرياح من النشور بذكر وصفها بأنها نشر على قرأه الجمهور، أو لكونها كذلك في الواقع على قراءة عاصم. ومردود الاستدلال قصر إرسال الرياح وما عطف عليه على الله تعالى إبطالا لا دعاء الشركاء له في الإلهية بنفي الشركة في التصرف في هذه الكائنات وذلك ما لا ينكره المشركون كما تقدم مثله في قوله ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباسا﴾ الخ...

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٥/١٩

وأطلق على تكوين الرياح فعل ﴿أرسل﴾ الذي هو حقيقته في بعث شيء وتوجيهه، لأن حركة الرياح تشبه السير. وقد شاع استعمال الإرسال في إطلاق العنان لخيل السباق.

وهذا استدلال بدقيق خلق الله في تكوين الرياح، فالعامة يعتبرون بما هو داخل تحت." (١)

"مشاهدتهم من ذلك، والخاصة يدركون كيفية حدوث الرياح وهبوبها واختلافها، وذلك ناشىء عن التقاء حرارة جانب من الجو ببرودة جانب آخر. ثم إن الرياح بهبوبها حارة مرة وباردة أخرى تكون الأسحبة وتؤذن بالمطر فلذلك وصفت بأنها: نشر بين يدي المطر.

قرأ الجمهور ﴿أرسل الرياح﴾ بصيغة الجمع. وقرأ ابن كثير ﴿الريح﴾ بصيغة الإفراد على معنى الجنس. والقرأتان متحدتان في المعنى، ولكن غلب جمع الريح في ريح الخير وإفراد الريح في ريح العذاب قاله ابن عطية. وتقدم في قوله تعالى ﴿وتصريف الرياح﴾ في سورة البقرة.

وقرأ الجمهور ﴿بشرا﴾ بنون في أوله وبضمتين جمع نشور كرسول ورسل. وقرأ ابن عامر بضم فسكون على تخفيف الحركة. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح النون وسكون الشين على أنه من الوصف بالمصدر، وكلها من النشر وهو البسط كما ينشر الثوب المطوي لأن الرياح تنشر السحاب. وقرأ عاصم بباء موحدة وسكون الشين جمع بشور من التبشير لأنها تبشر بالمطر. وتقدم قوله ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾ في سورة [الأعراف: ٥٧].

والالتفات من الغيبة إلى المتكلم في قوله ﴿وأنزلنا – لنحيي – ونسقيه – ولقد صرفناه﴾ للداعي الذي قدمناه في قوله آنفا ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ [الفرقان: ٤٥ – ٤٦].

والمراد بـ ﴿رحمته﴾ المطر لأنه رحمة للناس والحيوان بما ينبته من الشجر والمرعى.

وجملة ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهورا﴾ عطف على جملة ﴿أرسل الرياح﴾ الخ، فهي داخلة في حيز القصر، أي وهو الذي أنزل من السماء ماء طهور. وضمير ﴿وأنزلنا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم لأن التكلم أليق بمقام **الامتنان**. وتقدم معنى إنزال الماء من السماء عند قوله ﴿أو كصيب من السماء﴾ في سورة [البقرة: ١٩].

والطهور بفتح الطاء من أمثلة المبالغة في الوصف بالمصدر كما يقال: رجل صبور. وماء المطر بالغ منتهى الطهارة إذ لم يختلط به شيء يكدره أو يقذره وهو في علم الكيمياء أنقى المياه لخلوه عن جميع الجراثيم فهو الصافي حقا. والمعنى: أن الماء النازل من السماء هو بالغ نهاية الطهارة في جنسه من المياه

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٨/١٩

ووصف الماء بالطهور يقتضي أنه مطهر لغيره إذ العدول عن صيغة فاعل إلى صيغة فعول لزيادة معنى في الوصف، فاقتضاؤه في." (١)

"هذه الآية أنه مطهر لغيره اقتضاء التزامي ليكون مستكملا وصف الطهارة القاصرة والمتعدية، فيكون ذكر هذا الوصف إدماجا لمنة في أثناء المنن المقصودة، كقوله تعالى ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾ [الأنفال: ١١] وصف الطهارة الذاتية وتطهيره، فيكون هذا الوصف إدماجا ولولا ذلك لكان الأحق بمقام الامتنان وصف الماء بالصفاء أو نحو ذلك.

والبلدة: الأرض. ووصفها بالحياة والموت مجازان للري والجفاف لأن ري الأرض ينشأ عنه النبات وهو يشبه الحي وجفاف الأرض يجف به النبات فيشبه الميت.

ولماء المطر خاصية الإحياء لكل أرض لأنه لخلوه من الجراثيم ومن بعض الأجزاء المعدنية والترابية التي تشتمل عليها مياه العيون ومياه الأنهار والأودية كان صالحا بكل أرض وبكل نبات على اختلاف طباع الأرضين والمنابت.

والبلدة: البلد. والبلد يذكر ويؤنث مثل كثير من أسماء أجناس البقاع كما قالوا: دار ودارة. ووصفت البلدة بميت، وهو وصف مذكر لتأويل ﴿بلدة﴾ بمعنى مكان لقصد التخفيف. وقال في "الكشاف" ما معناه: إنه لما دل على المبالغة في الاتصاف بالموت ولم يكن جاريا على أمثلة المبالغة نزل منزلة الاسم الجاد "أي فلم يغير". وأحسن من هذا أنه أريد به اسم الميت، ووصف البلدة به وصف على معنى التشبيه البليغ.

وفي قوله ﴿لنحيي به بلدة ميتا﴾ إيماء إلى تقريب إمكان البعث.

﴿ونسقيه﴾ بضم النون مضارع أسقى مثل الذي بفتح النون فقيل هما لغتان يقال: أسقى وسقى. قال تعالى ﴿قالتا لا نسقي﴾ [القصص: ٢٣] بفتح النون. وقيل: سقى: أعطى الشراب، وأسقى: هيأ الماء للشرب. وهذا القول أسد لأن الفروق بين معاني الألفاظ من محاسن اللغة فيكون المعنى هيأناه لشرب الأنعام والأناسي فكل من احتاج للشرب شرب منه سواء من شرب ومن لم يشرب.

و ﴿أنعاما﴾ مفعول ثان لـ ﴿ونسقيه﴾ . وقوله ﴿مما خلقنا﴾ حال من ﴿أنعاما وأناسي﴾ . و"من" تبعيضية. و"ما" موصولة، أي بعض ماخلقناه، والموصول للإيماء إلى علة الخبر، أي نسقيهم لأنهم مخلوقات. ففائدة هذا الحال الإشارة إلى رحمة الله بها لأنها خلقه. وفيه إشارة إلى أن أنواعا أخرى من

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٩/١٩

الخلائق تسقى بماء السماء، ولكن الاقتصار على ذكر الأنعام والأناسي لأنهما موقع المنة؛ فالأنعام بها صلاح حال البادين." (١)

"اسم الرحمن.

وقرأ الجمهور ﴿تأمرنا﴾ بتاء الخطاب. وقرأه حمزة والكسائي بياء الغيبة على أن قولهم ذلك يقولونه بينهم ولا يشافهون به النبي صلى الله عليه وسلم.

والضمير المستتر في ﴿زادهم﴾ عائد إلى القول المأخوذ من ﴿وإذا قيل لهم﴾ . والنفور: الفرار من الشيء. وأطلق هنا على لازمه وهو البعد. وإسناد زيادة النفور إلى القول لأنه سبب تلك الزيادة فهم كانوا أصحاب نفور من سجود لله فلما أمروا بالسجود للرحمان زادوا بعدا من الإيمان، وهذا كقوله في سورة نوح ﴿فلم يزدهم دعائي إلا فرارا﴾ .

وهذا موضع سجدة من سجود القرآن بالاتفاق. ووجه السجود هنا إظهار مخالفة المشركين إذ أبوا السجود للرحمن، فلما حكي إباؤهم من السجود للرحمان في معرض التعجيب من شأنهم عزز ذلك بالعمل بخلافهم فسجد النبي صلى الله عليه وسلم هنا مخالفا لهم مخالفة بالفعل مبالغة في مخالفته لهم بعد أن أبطل كفرهم بقوله ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ الآيات الثلاث. وسن الرسول عليه السلام السجود في هذا الموضع.

[٦١] ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾ .

استئناف ابتدائي جعل تمهيدا لقوله ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾ الآيات التي هي محصول الدعامة الثالثة من الدعائم الثلاث التي أقيم عليها بناء هذه السورة، وافتتحت كل دعامة منها بـ ﴿تبارك الذي...﴾ الخ كما تقدم في صدر السورة. وافتتح ذلك بإنشاء الثناء على الله بالبركة والخير لما جعله للخلق من المنافع. وتقدم ﴿تبارك﴾ أول السورة وفي قوله ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ في [الأعراف: ٥٤].

والبروج: منازل مرور الشمس فيما يرى الراصدون. وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا﴾ في أول [سورة الحجر: ١٦].

والامتنان بها لأن الناس يوقتون بها أزمانهم.

---

(١) التحرير والتنوير، ٧٠/١٩

وقرأ الجمهور ﴿سراجا﴾ بصيغة المفرد. والسراج: الشمس كقوله ﴿وجعل الشمس سراجا﴾ في [سورة نوح: ١٦]. ومناسبة ذلك لما يرد بعده من قوله ﴿وهو الذي جعل." [١]

"الليل والنهار خلفة....﴾ [الفرقان: ٦٢]

وقرأ حمزة والكسائي ﴿سراجا﴾ بضم السين والراء جمع سراج فيشمل مع الشمس النجوم، فيكون امتنانا بحسن منظرها للناس كقوله ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ [الملك: ٥]. **والامتنان** بمحاسن المخلوقات وارد في القرآن قال تعالى ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ [النحل: ٦].

والكلام جار على التشبيه البليغ لأن حقيقة السراج: المصباح الزاهر الضياء. والمقصود: أنه جعل الشمس مزيلة للظلمة كالسراج، أو خلق النجوم كالسراج في التلألؤ وحسن المنظر.

ودلالة خلق البروج والشمس والقمر على عظيم القدرة دلالة بينة للعاقل، وكذلك دلالته على دقيق الصنع ونظامه بحيث لا يختل ولا يختلف حتى تسنى للناس رصد أحوالها وإناطة حسابهم بها.

[٦٢] ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ .

الاستدلال هذا بما في الليل والنهار من اختلاف الحال بين ظلمة ونور، وبرد وحر، مما يكون بعضه أليق ببعض الناس من بعض ببعض آخر، وهذا مخالف للاستدلال الذي في قوله ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا﴾ [الفرقان: ٤٧]، فهذه دلالة أخرى والحكم في المخلوقات كثيرة.

والقصر هنا قصر حقيقي وليس إضافيا فلذلك لا يراد به الرد على المشركين بخلاف صيغ القصر السابقة من قوله ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباسا﴾ إلى قوله ﴿وكان ربك قديرا﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٤٧].

والخلفة بكسر الخاء وسكون اللام: اسم لما يخلف غيره في بعض ما يصلح له. صيغ هذا الاسم على زنة فعلة لأنه في الأصل ذو خلفة، أي صاحب حالة خلف فيها غيره ثم شاع استعماله فصار اسما، قال زهير:

بها العين والآرام يمشين خلفة

...

وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٨٤

أي يمشي سرب ويخلفه سرب آخر ثم يتعاقب هكذا. فالمعنى: جعل الليل خلفة." (١)

"و ﴿من﴾ تبعيضية. ومورد التكثير الذي أفادته ﴿كم﴾ هو كثرة الإنبات في أمكنة كثيرة، ومورد الشمول المفاد من ﴿كل﴾ هو أنواع النبات وأصنافه وفي الأمرين دلالة على دقيق الصنع. واستغني بذكر أبعاض كل زوج عن ذكر مميز ﴿كم﴾ لأنه قد علم من التبعيض.

والزوج: النوع، وشاع إطلاق الزوج على النوع في غير الحيوان قال تعالى: ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ على أحد احتمالين تقدما في سورة الرعد: [٣]، وتقدم قوله تعالى: ﴿فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ في طه [٥٣].

والكريم: النفيس من نوعه قال تعالى: ﴿ورزق كريم﴾ في الأنفال [٤]، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿مروا كراما﴾ في سورة الفرقان [٧٢]. وهذا من إدماج **الامتنان** في ضمن الاستدلال لأن الاستدلال على بديع الصنع يحصل بالنظر في إنبات الكريم وغيره. ففي الاستدلال بإنبات الكريم من ذلك وفاء بغرض **الامتنان** مع عدم فوات الاستدلال. وأيضا فنظر الناس في الأنواع الكريمة أنفذ وأشهر لأنه يبتدئ بطلب المنفعة منها والإعجاب بها فإذا تطلبها وقع في الاستدلال فيكون الاقتصار على الاستدلال بها في الآية من قبيل التذكير للمشركين بما هم ممارسون له وراغبون فيه.

والمشار إليه بـ ﴿ذلك﴾ هو المذكور من الأرض، وإنبات الله الأزواج فيها، وما في تلك الأزواج من منافع وبهجة.

والتأكيد بحرف ﴿إن﴾ لتنزيل المتحدث عنهم منزلة من ينكر دلالة ذلك الإنبات وصفاته على ثبوت الوحدانية التي هي باعث تكذيبهم الرسول لما دعاهم إلى إثباتها، وإفراد "آية" لإرادة الجنس، أو لأن في المذكور عدة أشياء في كل واحد منها آية فيكون على التوزيع.

وجملة ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ عطف على جملة ﴿إن في ذلك لآية﴾ إخبار عنهم بأنهم مصرون على الكفر بعد هذا الدليل الواضح، وضمير ﴿أكثرهم﴾ عائد إلى معلوم من المقام كما عاد الضمير الذي في قوله ﴿أن يكونوا مؤمنين﴾ ، وهم مشركو أهل مكة وهذا تحد لهم كقوله ﴿ولن تفعلوا﴾ .

وأسند نفي الإيمان إلى أكثرهم لأن قليلا منهم يؤمنون حينئذ أو بعد ذلك.

و ﴿كان﴾ هنا مقحمة للتأكيد على رأي سيبويه والمحققين.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٨٥

(٢) التحرير والتنوير، ١٩/١١٧

"مضاف، أي من خوفكم. والضمير لفرعون وقومه الذين ائتمروا على قتل موسى، كما قال تعالى ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ [القصص: ٢٠]. والحكم: الحكمة والعلم، وأراد بها النبوءة وهي الدرجة الأولى حين كلمه ربه. ثم قال ﴿وجعلني من المرسلين﴾ أي بعد أن أظهر له المعجزة وقال له ﴿إني اصطفيتك على الناس﴾ [الأعراف: ١٤٤] أرسله بقوله ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه: ٢٤].

ثم عاد إلى أول الكلام فكر على امتنانه عليه بالتربية فأبطاه وأبى أن يسميه نعمة، فقوله ﴿وتلك نعمة﴾ إشارة إلى النعمة التي اقتضاها **الامتنان** في كلام فرعون إذ **الامتنان** لا يكون إلا بنعمة.

ثم إن جعلت جملة ﴿أن عبدت﴾ بيانا لاسم الإشارة كان ذلك لزيادة تقرير المعنى مع ما فيه من قلب مقصود فرعون وهو على حد قوله تعالى ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ [الحجرك ٦٦] إذ قوله ﴿أن دابر هؤلاء﴾ بيانا لقوله ﴿ذلك الأمر﴾ .

ويجوز أن يكون ﴿أن عبدت﴾ في محل نصب على نزع الخافض وهو لام التعليل والتقدير: لأن عبدت بني إسرائيل.

وقيل الكلام استفهام بحذف الهمزة وهو استفهام إنكار. ومعنى ﴿عبدت﴾ ذللت، يقال: عبد كما يقال: أعبد بهمزة التعدية. أنشد أيمة اللغة:

حتام يعبدني قومي وقد كثرت

...

فيهم آباعر ما شاءوا وعبدان

وكلام موسى على التقادير الثلاثة نقض لامتنان فرعون بقلب النعمة نقمة بتذكيره أن نعمة تربيته ما كانت إلا بسبب إذلال بني إسرائيل إذ أمر فرعون باستئصال أطفال بني إسرائيل الذي تسبب عليه إلقاء أم موسى بطفلها في اليم حيث عثرت عليه امرأة فرعون ومن معها من حاشيتها وكانوا قد علموا أنه من أطفال إسرائيل بسمات وجهه ولون جلده، ولذلك قالت امرأة فرعون ﴿قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ [القصص: ٩]. وفيه أن الإحسان إليه مع الإساءة إلى قومه ل ا يزيد إحسانا ولا منة.

[٢٣، ٢٤] ﴿قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ .." (١)

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢٩/١٩

"وأيا ما كان فالمقصود توبيخهم على الإشراك مع وضوح دلالية خلق السماوات والأرض وما ينزل من السماء إلى الأرض من الماء.

ولما كانت تلك الدلالة أوضح الدلالات المحسوسة الدالة على انفراد الله بالخلق وصف الذين أشركوا مع الله غيره بأنهم في إشراكهم معرضون إعراض مكابرة عدولا عن الحق الواضح قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان: ٢٥].

والإخبار عنهم بالمضارع لإفادة أنهم مستمرون على شركهم لم يستنيروا بدليل العقل ولا أقلعوا بعد التذكير بالدلائل. وفي الإخبار عنهم بأنهم قوم إيماء إلى تمكن صفة العدول عن الحق منهم حتى كأنها من مقومات قوميتهم كما تقدم غير مرة.

[٦١] ﴿أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ﴿أم﴾ للإضراب الانتقالي مثل أختها السابقة. وهذا انتقال من الاستدلال المشوب بال امتنان إلى الاستدلال المجرد بدلائل قدرته وعلمه بأن خلق المخلوقات العظيمة وبتدبيره نظامها حتى لا يطغى بعضها على بعض فيختل نظام الجميع.

ولأجل كون الغرض من هذا الاستدلال إثبات عظم القدرة وحكمة الصنع لم يجيء خلاله بخطاب للمشركين كما جاء في قوله في الآية قبلها ﴿وأنزل لكم من السماء ماء﴾ [النمل: ٦٠] الآية، وإن كان هذا الصنع العجيب لا يخلو من لطف بالمخلوقات أراده خالقها، ولكن ذلك غير مقصود بالقصد الأول من سوق الدليل هنا.

والقرار: مصدر قر، إذا ثبت وسكن. ووصف الأرض به للمغالبة، أي ذات قرار. والمعنى جعل الأرض ثابتة قارة غير مضطربة. وهذا تدبير عجيب ولا يدرك تمام هذا الصنع العجيب إلا عند العلم بأن هذه الأرض سابحة في الهواء متحركة في كل لحظة وهي مع ذلك قارة فيما يبدو لسكانها فهذا تدبير أعجب، وفيه مع ذلك رحمة ونعمة، ولولا قرارها لكان الناس عليها متزلزلين مضطربين ولكانت أشغ الهم معنتة لهم.

ومع جعلها قرارا شق فيها الأنهار فجعلها خلالها. وخلال الشيء: منفرج ما بين أجزائه. والأنهار تشق الأرض في أخاديد فتجري خلالها الأرض.." (١)

"[٦٣] ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨٧/١٩

﴿بل﴾ لإضراب الانتقال من نوع دلائل التصرف في أحوال عامة الناس إلى دلائل التصرف في أحوال المسافرين منهم في البر والبحر فإنهم أدرى بهذه الأحوال وأقدر لما في خلالها من النعمة **والامتنان**.

ذكر الهداية في ظلمات الليل في البر والبحر. وإضافة الظلمات إلى البر والبحر على معنى ﴿في﴾ . والهدى في هذه الظلمات بسير النجوم كما قال تعالى ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ . فالله الهادي للسير في تلك الظلمات بأن خلق النجوم على نظام صالح للهداية في ذلك، وبأن ركب في الناس مدارك للمعرفة بإرصاد سيرها وصعودها وهبوطها، وهداهم أيضا بمهاب الرياح، وخولهم معرفة اختلافها بإحساس جفافها ورطوبتها، وحرارتها وبردها.

وبهذه المناسبة أدمج **الامتنان** بفوائد الرياح في إثارة السحاب الذي به المطر وهو المعني برحمة الله. وإرساله الرياح هو خلق أسباب تكونها.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿نشرا﴾ بضمتين وبالنون وقرأه ابن عامر بضم فسكون. وقرأ عاصم ﴿بشرا﴾ بالموحدة وبسكون الشين مع التنوين. وقرأه حمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين. وقد تقدم في سورة الفرقان: ٤٨] ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾ ، وتقدم في [سورة الأعراف: ٥٧] ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾ ، وتوجيه هذه القراءات هنالك.

وذيل هذا الدليل بتنزيه الله تعالى عن إشراكهم معه آلهة لأن هذا خاتمة الاستدلال عليهم بما لا ينازعون في أنه من تصرف الله فجيء بعده بالتنزيه عن الشرك كله وذلك تصريح بما أشارت إليه التذييلات السابقة.

[٦٤] ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ هذا انتقال إلى الاستدلال بتصرف الله تعالى بالحياة الأولى والثانية وبإعطاء المدد لدوام الحياة الأولى مدة مقدرة. وفيه تذكير بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد. والاستفهام." (١)

"جعل الليل سكنا. وفيه دلالية على أن لا إحالة ولا استبعاد في البعث بعد الموت، وأنه نظير بعث اليقظة بعد النوم، وفي جليل تلك الآيات ودقيقها عدة آيات فهذا وجه جعل ذلك آيات ولم يجعل آيتين.

ومعنى ﴿لقوم يؤمنون﴾ لناس شأنهم الإيمان والاعتراف بالحجة ولذلك جعل الإيمان صفة جارية على ﴿قوم﴾ لما قلناه غير مرة من أن إناطة الحكم بلفظ ﴿قوم﴾ يومئ إلى أن ذلك الحكم متمكن منهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم ومنه قوله تعالى ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٩١/١٩

يفرقون﴾ ، أي الفرق من مقومات قوميتهم فكيف يكونون منكم وأنتم لا تفرقون، أي في ذلك آيات لمن من شعارهم التدبر والاتصاف، أي فهؤلاء ليسوا بتلك المثابة.

ولكون الإيمان مقصودا به أنه مرجو منهم جيء فيه بصيغة المضارع إذ ليس المقصود أن في ذلك آيات للذين آمنوا لأن ذلك حاصل بالفحوى والأولوية، فصار المعنى: أن في ذلك لآيات للمؤمنين ولمن يرجى منهم الإيمان عند النظر في الأدلة. وقريب من هذا المعنى قوله تعالى ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ [التكوير: ٢٧ – ٢٨]. ولهذا خولف بين ما هنا وبين ما في [سورة يونس: ٦٧] إذ قال ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ لأن آية يونس مسوقة مساق الاستدلال والامتنان فخاطب بها جميع الناس من مؤمن وكافر فجاءت بصيغة الخطاب، وجعلت دلالتها لكل من يسمع أدلة القرآن فمنهم مهتد وضال ولذلك جيء فيها بفعل ﴿يسمعون﴾ المؤذن بالامتثال والإقبال على طلب الهدى.

وأما هذه الآية فمسوقة مساق التعجيب والتوبيخ فجعل ما فيها آيات لمن الإيمان من شأنهم ليفيد بمفهومهم أنه لا تحصل منه دلالة لمن ليس من شأنهم الإنصاف والاعتراف ولذلك أوثر فيه فعل ﴿يؤمنون﴾ .

وجاء ما في الليل من الخصوصية بصيغة التعليل باللام بقوله ﴿ليسكنوا فيه﴾ ، وما في النهار بصيغة مفعول الجعل بقوله ﴿مبصرا﴾ تفننا، ولما يفيده ﴿مبصرا﴾ من المبالغة. والمعنى على التعليل والمفعول واحد في المآل. وبهذا قال في الكشاف "التقابل مراعي من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف" أي ففي الآية احتباك إذ المعنى: جعلنا الليل مظلما ليسكنوا فيه والنهار مبصرا لينتشروا فيه.

واعلم أن ما قرر هنا يأتي في آية سورة يونس عدا ما هو من وجوه الفروق البلاغية." (١)

"الله فلا تسمع أحدا من المشركين يقول: الحمد للعزى، مثلا.

فاللام في ﴿له﴾ للملك، أي لا يملك الحمد غيره، وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص وهو اختصاص حقيقي.

تعريف ﴿الحمد﴾ تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي له كل حمد.

و ﴿الأولى﴾ هي الدنيا وتخصيص الحمد به في الدنيا اختصاص لجنس الحمد به لأن حمد غيره مجاز كما تقدم في أول الفاتحة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١٥/١٩

وأما الحمد في الآخرة فهو ما في قوله ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ . واختصاص الجنس به في الآخرة حقيقة.

وقوله ﴿وله الحكم﴾ اللام فيه أيضا للملك. والتقديم للاختصاص أيضا. والحكم: القضاء وهو تعيين نفع أو ضر للغير. وحذف المتعلق بالحكم لدلالة قوله ﴿في الأولى والآخرة﴾ عليه، أي له الحكم في الدارين. والاختصاص مستعمل في حقيقته ومجازه لأن الحكم في الدنيا يثبت لغير الله على المجاز، وأما الحكم في الآخرة فمقصود على الله. وفي هذا إبطال لتصرف آلهة المشركين فيما يزعمونه من تصرفاتها وإبطال لشفاعتها التي يزعمونها في قولهم ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ أي في الآخرة إن كان ما زعمتم من البعث.

وأما جملة ﴿وإليه ترجعون﴾ فمسوقة مساق التخصيص بعد التعميم، فبعد أن أثبت لله كل حمد وكل حكم، أي أنكم ترجعون إليه في الآخرة فتمجدونه ويجري عليكم حكمه. والمقصود بهذا إلزامهم بإثبات البعث.

وتقديم المجرور في ﴿وإليه ترجعون﴾ للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بالانتهاء إليه أي إلى حكمه.

﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾

انتقال من الاستدلال على انفراده تعالى بالإلهية بصفات ذاته إلى الاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته، وفي ضمن هذا الاستدلال إدماج الامتنان على الناس وللتعويض." (١)

"وعن الخليل بن أحمد١ العلم معرفتان مجتمعتان، ففي قولك: عرفت زيدا قائما، يكون (قائما) حالا من (زيدا)، وفي قولك: علمت زيدا قائما، يكون (قائما) مفعولا ثانيا لـ(لعلمت) اهـ. يريد أن فعل (عرف) يدل على إدراك واحد وهو إدراك الذات، وفعل (علم) يدل على إدراكين هما إدراك الذات وإدراك ثبوت حكم لها، على نحو ما قاله أهل المنطق في التصور والتصديق، فلذلك لم يرد في الكتاب والسنة إسناد فعل المعرفة إلى الله فكيف يسند إليه ما يؤول بمعناها.

وجملة ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ تذييل لجملة ﴿إن الله يعلم﴾ لأن الجملة على كلا المعنيين في معاني ﴿ما﴾ تدل على أن الذي بين حقارة حال الأصنام واختلال عقول عابديها فلم يعبأ بفضحها وكشفها بما

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٠/٩٨

يسوءها مع وفرة أتباعها ومع أوهام أنها لا يمسها أحد بسوء إلا كانت ألبا عليه؛ فلو كان للأصنام حظ في الإلهية لما سلم من ضرها من يحقرها كقوله تعالى ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا﴾ [الإسراء: ٤٢] كما تقدم، وأنه لما فضح عقول عبادها لم يخشهم على أوليائه بله ذاته، فهو عزيز لا يغلب، وحكيم لا تنطلي عليه الأوهام والسفاسط بخلاف حال هاتيك وأولئك.

وقرأ الجمهور ﴿تدعون﴾ بالفوقية على طريق الالتفات. وقرأه أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتحتية.

[٤٣] ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾

بعد أن بين الله لهم فساد معتقدهم في الأصنام، وأعقبه بتوقيفهم على جهلهم بذلك، نعى عليهم هنا أنهم ليسوا بأهل لتفهم تلك الدلائل التي قربت إليهم بطريقة التمثيل، فاسم الإشارة يبينه الاسم المبدل منه وهو ﴿الأمثال﴾ .

والإشارة إلى حاضر في الأذهان فإن كل من سمع القرآن حصل في ذهنه بعض تلك الأمثال. واسم الإشارة للتنويه بالأمثال المضروبة في القرآن التي منها هذا المثل بالعنكبوت.

وجملة ﴿نضربها للناس﴾ خبر عن اسم الإشارة. وهذه الجملة الخبرية مستعملة في الامتنان والطول لأن في ضرب الأمثال تقريبا لفهم الأمور الدقيقة. قال الزمخشري:

–

١ نقله عنه أبو بكر بن العربي في كتاب (العواصم من القواصم).." (١)

"والكريم: النفيس في نوعه، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿إني ألقي إلي كتاب كريم﴾ في سورة النمل [٢٩].

وقد أدمج في أثناء دلائل صفة الحكمة الامتنان بما في ذلك من منافع للخلق بقوله: ﴿ان تميد بكم وبث فيها من كل دابة﴾ فإن من الدواب المبثوثة ما ينتفع به الناس من أكل لحوم أوانسها ووحوشها والانتفاع بألبانها وأصوافها وجلودها وقرونها وأسنانها والحمل عليها والتجمل بها في مرابطها وغدوها ورواحها، ثم من نعمة منافع النبات من الحب والثمر والكلأ والكمأة. وإذ كانت البحار من جملة الأرض فقد شمل الانتفاع بدواب البحر فالله كما أبدع الصنع أسبغ النعمة فأرانا آثار الحكمة والرحمة.

وجملة ﴿هذا خلق الله﴾ إلى آخرها نتيجة الاستدلال بخلق السماء والأرض والجبال والدواب وإنزال المطر. واسم الإشارة إلى ما تضمنه قوله: ﴿خلق السماوات﴾ إلى قوله: ﴿من كل زوج كريم﴾ . والإتيان به

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٥/٢٠

مفردا بتأويل المذكور والانتقال من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿خلق الله﴾ التفاتا لزيادة التصريح بأن الخطاب وارد من جانب الله بقرينة قوله: ﴿هذا خلق الله﴾ . وكذلك يكون الانتقال من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿ماذا خلق الذين من دونه﴾ التفاتا لمراعاة العود إلى الغيبة في قوله: ﴿خلق الله﴾ . ويجوز أن تكون الرؤية من قوله: ﴿فأروني﴾ علمية، أي فأنبئوني، والفعل معلقا عن العمل بالاستفهام بـ ﴿ماذا﴾ . فيتعين أن يكون ﴿فأروني﴾ تهكما لأنهم لا يمكن لهم أن يكافحوا الله زيادة على كون الأمر مستعملا في التعجيز، لكن التهكم أسبق للقطع بأنهم لا يتمكنون من مكافحة الله قبل أن يقطعوا بعجزهم عن تعيين مخلوق خلقه من دون الله قطعا نظريا.

وصوغ أمر التعجيز من مادة الرؤية البصرية أشد في التعجيز لاقتضائها الاقتناع منهم بأن يحضروا شيئا يدعون أن آلهتهم خلقته. وهذا كقول حطائط بن يعقر النهشلي١ وقيل حاتم الطائي:

أريني جوادا مات هزلا٢ لعلني ... أرى ما تزين أو بخيلا مخلدا

أي: أحضرني جوادا مات من الهزال وأرينيه لعلي أرى مثل ما رأيته.

والعرب يقصدون في مثل هذا الغرض الرؤية البصرية، ولذلك يكثر أن يقول: ما

ـ

١ حطائط بضم الحاء: القصير.

٢ هزلا بفتح الهاء: الهزال.." (١)

"لونا وألينها تربة وأكثرها عشبا. وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس، وإذا أردت قضاء حاجتك فأبعد المذهب عن الأرض. وإذا ارتحلت فصل ركعتين ثم ودع الأرض التي حللت بها وسلم على أهلها فإن لكل بقعة أهلا من الملائكة، وإن استطعت أن لا تأكل طعاما حتى تبتدئ فتتصدق منه فافعل. وعليك بقراءة كتاب الله -لعله يعني الزبور- ما دمت راكبا، وعليك بالتسبيح ما دمت عاملا عملا، وعليك بالدعاء ما دمت خاليا. وإياك والسير في أول الليل إلى آخره. وإياك ورفع الصوت في مسيرك. فقد استقصينا ما وجدنا من حكمة لقمان مما يقارب سبعين حكمة.

[٢٠، ٢١] ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾.

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٤/٢١

﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾.

رجوع إلى تعداد دلائل الوحدانية وما صحب ذلك من منة على الخلق، فالكلام استئناف ابتدائي عن الكلام السابق ورجوع إلى ما سلف في أول السورة في قوله تعالى: ﴿خلق السماوات بغير عمد﴾ [لقمان: ١٠] فإنه بعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض والحيوان والأمطار عاد هنا الاستدلال **والامتنان** بأن سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض. وقد مضى الكلام على هذا التسخير في تفسير قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض﴾ الآيات من سورة إبراهيم [٣٢]، وكذلك في سورة النحل [٣].

ومعنى ﴿سخر لكم﴾ لأجلكم لأن من جملة ذلك التسخير ما هو منافع لنا من الأمطار والرياح ونور الشمس والقمر ومواقيت البروج والمنازل والاتجاه بها. والخطاب في ﴿ألم تروا﴾ يجوز أن يكون لجميع الناس مؤمنهم ومشركهم لأنه امتنان، ويجوز أن يكون لخصوص المشركين باعتبار أنه استدلال.

والاستفهام في ﴿ألم تروا﴾ تقرير أو إنكار لعدم الرؤية بتنزيلهم منزلة من لم يروا آثار ذلك التسخير لعدم انتفاعهم بها في إثبات الوحدانية. والرؤية بصرية. ورؤية التسخير رؤية آثاره ودلائله. ويجوز أن تكون الرؤية علمية كذلك، والخطاب للمشركين كما في قوله: ﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها﴾ .." (١)

"نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير [٣٤]﴾ كان من جملة غرورهم في نفي البعث أنهم يجعلون عدم إعلام الناس بتعيين وقته أمارة على أنه غير واقع، قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ [يونس: ٤٨] وقال: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ [الشورى: ١٧، ١٨]، فلما جرى في الآيات قبلها ذكر يوم القيامة أعقبت بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا الله.

فجملة ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لوقوعها جوابا عن سؤال مقدر في نفوس الناس. والجمل الأربع التي بعدها إدماج لجمع نظائرها تعليما للأمة. وقال الواحدي والبغوي: إن رجلا من محارب حصفة من أهل البادية سماه في "الكشاف" الحارث بن عمرو وقع في "تفسير القرطبي" وفي "أسباب النزول" للواحدي تسميته الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبيء صلى الله عليه وسلم فقال: متى الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وتركت امرأتي حبلى فما تلد؟ وماذا اكسب غدا؟ وبأي أرض أموت؟، فنزلت هذه الآية، ولا يدري سند هذا. ونسب إلى عكرمة ومقاتل، ولو صح لم يكن منافيا لاعتبار هذه الجملة استئنافا بيانيا فإنه مقتضى السياق.

---

(١) التحرير والتنوير، ١١٦/٢١

وقد أفاد التأكيد بحرف ﴿إن﴾ تحقيق علم الله تعالى بوقت الساعة وذلك يتضمن تأكيد وقوعها. وفي كلمة ﴿عنده﴾ إشارة إلى اختصاصه تعالى بذلك العلم لأن العندية شأنها الاستئثار. وتقديم ﴿عند﴾ وهو ظرف مسند على المسند إليه يفيد التخصص بالقرينة الدالة على أنه ليس مراد به مجرد التقوي.

وجملة ﴿وينزل الغيث﴾ عطف على جملة الخبر. والتقدير: وإن الله ينزل الغيث، فيفيد التخصيص بتنزيل الغيث. والمقصود أيضا عنده علم وقت نزول الغيث وليس المقصود مجرد الإخبار بأنه ينزل الغيث لأن ذلك ليس مما ينكرونه ولكن نظمت الجملة بأسلوب الفعل المضارع ليحصل مع الدلالة على الاستئثار بالعلم به الامتنان بذلك المعلوم الذي هو نعمة.

وفي اختيار الفعل المضارع إفادة أنه يجدد إنزال الغيث المرة بعد المرة عند احتياج الأرض. ولا التفات إلى من قدروا: ﴿ينزل الغيث﴾ ، بتقدير "أن" المصدرية على طريقة قول طرفة:." (١)

"والمهين: الشيء الممتهن الذي لا يعبأ به. والغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبار بنظام التكوين إذ جعل الله تكوين هذا الجنس المكتمل التركيب العجيب الآثار من نوع ماء مهراق لا يعبأ به ولا يصان.

والتسوية: التقويم، قال تعالى ﴿لقد خلقنا الأنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: ٤]. والضمير المنصوب في ﴿سواه﴾ عائد إلى ﴿نسله﴾ لأنه أقرب مذكور ولأنه ظاهر العطف بـ ﴿ثم﴾ وإن كان آدم قد سوي ونفخ فيه من الروح، قال تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [ص: ٧٢]. وذكر التسوية ونفخ الروح في جانب النسل يؤذن بأن أصله كذلك، فالكلام إيجاز.

وإضافة الروح إلى ضمير الجلالة للتنويه بذلك السر العجيب الذي لا يعلم تكوينه إلا هو تعالى، فالإضافة تفيد أنه من أشد المخلوقات اختصاصا بالله تعالى وإلا فالمخلوقات كلها لله.

والنفخ: تمثيل لسريان اللطيفة الروحانية في الكثيفة الجسدية مع سرعة الإيداع، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ في سورة الحجر [٢٩].

والانتقال من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وجعل لكم﴾ التفات لأن المخاطبين من أفراد الناس وجعل السمع والأبصار والأفئدة للناس كلهم غير خاص بالمخاطبين فلما انتهض الاستدلال على عظيم القدرة وإتقان المراد من المصنوعات المتحدث عنهم بطريقة الغيبة الشامل للمخاطبين وغيرهم ناسب أن يلتفت إلى الحاضرين بنقل الكلام إلى الخطاب لأنه آثر بالامتنان وأسعد بما يرد بعده من التعريض بالتوبيخ

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣٥/٢١

في قوله: ﴿قليلا ما تشكرون﴾ . والامتنان بقوى الحواس وقوى العقل أقوى من الامتنان بالخلق وتسويته لأن الانتفاع بالحواس والإدراك متكرر متجدد فهو محسوس بخلاف التكوين والتقويم فهو محتاج إلى النظر في آثاره.

والعدول عن أن يقال: وجعلكم سامعين مبصرين عالمين إلى ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ لأن ذلك أعرق في الفصاحة، ولما تؤذن به اللام من زيادة المنة في هذا الجعل إذ كان جعلا لفائدتهم ولأجلهم، ولما في تعليق الأجناس من السمع والأبصار والأفئدة بفعل الجعل من الروعة والجلال في تمكن التصرف، ولأن كلمة ﴿الأفئدة﴾ أجمع من كلمة عاقلين لأن الفؤاد يشمل الحواس الباطنة كلها والعقل بعض منها." (١)

"الفزغ والهلع حتى كأنها لاضطرابها تتجاوز مقارها وترتفع طالبة الخروج من الصدور فإذا بلغت الحناجر لم تستطع تجاوزها من الضيق؛ فشبهت هيئة قلب الهلوع المرعود بهيئة قلب $ تجاوز موضعه وذهب متصاعدا طالبا الخروج، فالمشبه القلب نفسه باعتبار اختلاف الهيئتين. وليس الكلام على الحقيقة فإن القلوب لا تتجاوز مكانها، وقريب منه قولهم: تنفس الصعداء، وبلغت الروح التراقي.

وجملة ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ يجوز أن تكون عطفا على جملة ﴿زاغت الأبصار﴾ ، ويجوز أن يكون الواو للحال وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدد تلك الظنون بتجدد أسبابها كناية عن طول مدة هذا البلاء.

وفي صيغة المضارع معنى التعجيب من ظنونهم لإدماج العتاب بالامتنان فإن شدة الهلع الذي أزاغ الأبصار وجعل القلوب بمثل حالة أن تبلغ الحناجر، دل على أنهم أشفقوا من أن يهزموا لما رأوا من قوة الأحزاب وضيق الحصار أو خافوا طول مدة الحرب وفناء الأنفس، أو أشفقوا من أن تكون من الهزيمة جراءة للمشركين على المسلمين، أو نحو ذلك من أنواع الظنون وتفاوت درجات أهلها.

والمؤمن وإن كان يثق بوعد ربه لكنه لا يأمن غضبه من جراء تقصيره، ويخشى أن يكون النصر مرجأ إلى زمن آخر، فإن ما في علم الله وحكمته لا يحاط به.

وحذف مفعولا ﴿تظنون﴾ بدون وجود دليل يدل على تقديرهما فهو حذف لتنزيل الفعل منزلة اللازم، ويسمى هذا الحرف عند النحاة الحذف اقتصارا، أي: للاقتصار على نسبة فعل الظن لفاعله، والمقصود من هذا التنزيل أن تذهب نفس السامع كل مذهب ممكن، وهو حذف مستعمل كثيرا في الكلام الفصيح

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥١/٢١

وعلى جوازه أكثر النحويين ومنه قوله تعالى: ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ [النجم: ٣٥﴾ وقوله: ﴿وظننتم ظن السوء﴾ [الفتح: ١٢]، وقول المثل: من يسمع يخل، ومنعه سيبويه والأخفش.

وضمن ﴿تظنون﴾ معنى تلحقون فعدي بالباء فالباء للملابسة. قال سيبويه: قولهم: ظننت به، معناه: جعلته موضع ظني. وليست الباء هنا بمنزلتها في ﴿كفى بالله حسيبا﴾ [النساء: ٦]، أي: ليست زائدة، ومجرورها معمول للفعل قبلها كأنك قلت: ظننت في الدار، ومثله: شككت فيه، أي: فالباء عنده بمعنى "في". والوجه أنها للملابسة كقول دريد بن الصمة:

فقلت لهم: ظنوا بألفي مدجج ... سراتهم في الفارسي المسرد

وسيأتي تفصيل ذلك عند قوله تعالى: ﴿فما ظنكم برب العالمين﴾ في سورة الصافات [٨٧].." [(١)]

"وعندي: أن الآية امتنان وتذكير بنعمة على النبيء صلى الله عليه وسلم. وتأخذ من الامتنان الإباحة ويؤخذ من ظاهر قوله: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ [الأحزاب: ٥٢] الاقتصار على اللاتي في عصمته منهن وقت نزول الآية ولتكون هذه الآية تمهيدا لقوله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ الخ.

وسيجيء ما لنا في معنى قوله: ﴿من بعد﴾ وما لنا في موقع قوله: ﴿إن أراد النبيء أن يستنكحها﴾

.

ومعنى ﴿أحللنا لك﴾ الإباحة له، ولذلك جاءت مقابلته بقوله عقب تعداد المحللات له ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ .

وإضافة أزواج إلى ضمير النبيء صلى الله عليه وسلم تفيد أنهن الأزواج اللاتي في عصمته فيكون الكلام إخبارا لتقرير تشريع سابق ومسوقا مساق الامتنان،ثم هو تمهيد لما سيتلوه من التشريع الخاص بالنبيء صلى الله عليه وسلم من قوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ إلى قوله: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾ [الأحزاب: ٥٢]. وهذا هو الوجه عندي في تفسير هذه الآية.

وحكى أبن الفرس عن الضحاك وابن زيد أن المعنى بقوله: ﴿أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أن الله احل أن يتزوج كل امرأة يصدقها مهرها فأباح له كل النساء،وهذا بعيد ن مقتضى إضافة أزواج إلى ضميره. وعن التعبير ب ﴿آتيت أجورهن﴾ بصيغة المضي. وأختلف أهل التأويل في محمل هذا الوجه مع قوله تعالى في آخر الآية: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ فقال قوم: هذه ناسخة لقوله: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ ولو تقدمت عليها في النلاوة. وقال آخرون: هي منسوخة بقوله: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١/٢٠٥

و ﴿اللاتي آتيت أجورهن﴾ صفه لـ ﴿أزواجك﴾ ، أي وهن النسوة اللاتي تزوجتهن على حكم النكاح الذي يعم الأمة فالماضي في قوله: ﴿آتيت أجورهن﴾ مستعمل في حقيقته. وهؤلاء فيهن من هن من قراباته وهن القرشيات منهن: عائشة، وحفصة، وسودة، وأم سلمة، وأم حبيبة، وفيهن من لسن كذلك وهن جويرية من بني المصطفى، وميمونة بنت الحارث من بني هلال، وزينب أم المساكين من بني هلال، وكانت يومئذ متوفاة، وصفية بنت حيي الإسرائيلية.

وعطف على هؤلاء نسوة أخر وهن ثلاث أصناف:." (١)

"سيروا بينها.

وكانوا يسيرون غدوا وعشيا فيسيرون الصباح ثم تعترضهم قرية فيريحون فيها ويقيلون، ويسيرون المساء فتعرضهم قرية يبيتون بها. فمعنى قوله: ﴿سيروا فيها ليالي وأياما﴾ سيروا كيف شئتم.

وتقديم الليالي على الأيام بها في مقام **الامتنان** لأن المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار لأن الليل تعترضهم فيه القطاع والسباع.

[١٩] ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور [١٩]﴾.

الفاء من قوله: ﴿فقالوا ربنا﴾ لتعقيب قولهم هذا أثر إتمام النعمة عليهم باقتراب المدن وتيسير الأسفار، والتعقيب في كل شيء بحسبه فلما تمت النعمة بطروها فحلت بهم أسباب سلبها عنهم.

ومن أكبر أسباب زوال النعمة كفرانها. قال الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري: "من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها".

والأظهر عندي أن يكون هذا القول قالوه جوابا عن مواعظ أنبيائهم والصالحين منهم حين ينهونهم عن الشرك فهم يعظونهم بأن الله أنعم عليهم بتلك الرفاهية فهم يجيبون بهذا القول إفحاما لدعاة الخير منهم على نحو قول كفار قريش: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: ٣٢]، قبل هذا "فأعرضوا فإن الإعراض يقتضي دعوة لشيء" ويفيد هذا المعنى قوة ﴿وظلموا أنفسهم﴾ عقب حكاية قولهم لفأنه أما معطوف على جملة: ﴿فقالوا﴾ ، أي فأعقبوا ذلك بكفران النعمة وبالإشراك فإن ظلم النفس أطلق كثيرا على الإشراك في القرآن وما الإشراك إلا أعظم كفران نعمة الخالق.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١/٢٩٠

ويجوز أن تكون جملة: ﴿وظلموا أنفسهم﴾ في موضع الحال، والواو واو الحال، أي قالوا ذلك وقد ظلموا أنفسهم بالشرك فكان قولهم مقارنا للإشراك.

وعلى الاعتبارين فإن العقاب إنما كان مسببا بسببين كما هو صريح قوله: ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين﴾ إلى قوله: ﴿إلا الكفور﴾ [سبأ: ١٦،." [(١)]

"لأنه المقصود من الاستدلال بأفانين الدلائل على دقيق صنع الله تعالى.

وفي "الكشاف": ضرب البحرين العذب والمالح مثلا للمؤمن والكافر، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه ﴿ومن كل تأكلون لحما طريا﴾ .

والبحر في كلام العرب: اسم للماء الكثير القار في سعة، فالفرات والدجلة بحران عذبان وبحر خليج العجم ملح. وتقدم ذكر البحرين عند قوله تعالى: ﴿وهو الذي مرج البحرين﴾ في سورة الفرقان [٥٣] وقد اتحدا في إخراج الحيتان والحلية، أي اللؤلؤ والمرجان، وهما يوجد أجودهما في بحر العجم حيث مصب النهرين ولماء النهرين العذب واختلاطه بماء البحر المالح أثر في جودة اللؤلؤ كما بيناه فيما تقدم في سورة النحل، فقوله: ﴿ومن كل تأكلون لحما طريا﴾ كلية، وقوله: ﴿وتستخرجون حلية﴾ كل لا كلية لأن من مجموعها تستخرجون حلية. وكلمة ﴿كل﴾ صالحة للمعنيين، فعطف ﴿وتستخرجون﴾ من استعمال المشترك في معنييه.

فالاختلاف بين البحرين بالعذوبة والملوحة دليل على دقيق صنع الله. والتخالف في بعض مستخرجاتهما والتماثل في بعضها دليل أخر على دقيق الصنع وهذا من أفانين الاستدلال.

والعذب: الحول حلاوة مقبولة في الذوق.

والملح بكسر الميم: الشيء الموصوف بالملوحة بذاته لا بإلقاء ملح فيه، فأما الشيء الذي يلقى فيه الملح حتى يكتسب ملوحة فإنما يقال له: مالح، ولا يقال: ملح.

ومعنى ﴿سائغ شرابه﴾ أن شربه لا يكلف النفس كراهة، وهو مشتق من الإساغة وهي استطاعة ابتلاع المشروب دون غصة ولا كره. قال عبد الله بن يعرب:

فساغ لي الشراب وكنت قبلا ... أكاد أغص بالماء الحميم

والأجاج: الشديد الملوحة، وتقدم ذكر البحر في قوله تعالى: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ في سورة الأنعام [٥٩]، وبقية الآية تقدم نظيره في أول سورة النحل.

---

(١) التحرير والتنوير، ٤٣/٢٢

وتقديم الظرف في قوله: ﴿فيه مواخر﴾ على عكس آية سورة النحل، لأن هذه ا لآية مسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى في المخلوقات وأدمج فيه **الامتنان**." (١)

"بقوله: ﴿تأكلون... وتستخرجون حلية﴾ وقوله: ﴿لتبتغوا من فضله﴾ فكان المقصد الأول من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع فهو الأهم هنا. ولما كان طفو الفلك على الماء حتى لا يغرق فيه أظهر في الاستدلال على عظيم الصنع من الذي ذكر من النعمة **والامتنان** قدم ما يدل عليه وهو الظرفية في البحر. والمخر في البحر آية صنع الله أيضا بخلق وسائل ذلك والإلهام له، إلا أن خطور السفر من ذلك الوصف أو ما يتبادر إلى الفهم فأخر هنا لأنه من مستتبعات الغرض لا من مقصده فهو يستتبع نعمة تيسير الأسفار لقطع المسافات التي لو قطعت بسير القوافل لطالب مدة الأسفار.

ومن هنا يلمع بارق الفرق بين هذه الآية وآية سورة النحل في كون فعل ﴿لتبتغوا﴾ غير معطوف بالواو هنا ومعطوفا نظيره في آية النحل لأن الابتغاء علق هنا بـ ﴿مواخر﴾ إيقافا على الغرض من تقديم الظرف، وفي آية النحل ذكر المخر في عداد **الامتنان** لأن به تيسير ا لأسفار، ثم فصل بين ﴿مواخر﴾ وعلته بظرف ﴿فيه﴾ ، فصارما يومئ إليه الظرف فصلا بغرض أدمج إدماجا وهو الاستدلال على عظيم الصنع بطفو الفلك على الماء، فلما أريد الانتقال منه إلى غرض أخر وهو العود إلى **الامتنان** بالمخر لنعمة التجارة في البحر عطف المغاير في الغرض.

[١٣، ١٤] ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير [١٣] إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير [١٤]﴾.

﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾.

استدلال عليهم بما في مظاهر السماوات من الدلائل على بديع صنع الله في أعظم المخلوقات ليتذكروا بذلك أنه الإله الواحد.

وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة لقمان، سوى أن ہ ذه الآية جاء فيها ﴿كل يجري لأجل﴾ فعدي فعل ﴿يجري﴾ باللام وجيء في آية سورة لقمان تعدية فعل ﴿يجري﴾ بحرف ﴿إلى﴾ ، فقيل اللام

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/١٣٦

تكون بمعنى ﴿إلى﴾ في الدلالة على الانتهاء، فالمخالفة بين الآيتين تفنن في النظم. وهذا أباه الزمخشري في سورة لقمان وردة أغلظ رد فقال:." (١)

"أخرى.

مدمجا في آياته الامتنان بالنعمة التي تتضمنها تلك الآيات.

ورامزا إلى دلالة تلك الآيات والنعم على تفرد خالقها ومنعمها بالوحدانية إيقاظا لهم.

ثم تذكيرهم بأعظم حادثة حدثت على المكذبين للرسل والمتمسكين بالأصنام من الذين أرسل إليهم نوح نذيرا، فهلك من كذب، ونجا من آمن.

ثم سيقت دلائل التوحيد المشوبة بالامتنان للتذكير بواجب الشكر على النعم بالتقوى والإحسان وترقب الجزاء.

والإقلاع عن الشرك والاستهزاء بالرسول واستعجال وعيد العذاب.

وحذروا من حلوله بغتة حين يفوت التدارك.

وذكروا بما عهد الله إليهم مما أودعه في الفطرة من الفطنة.

والاستدلال على عداوة الشيطان للإنسان.

واتباع دعاة الخير.

ثم رد العجز على الصدر فعاد إلى تنزيه القرآن عن أن يكون مفترى صادرا من شاعر بتخيلات الشعراء.

وسلى الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يحزنه قولهم وأن لهم بالله أسوة إذ خلقهم فعطلوا قدرته عن إيجادهم مرة ثانية ولكنهم راجعون إليه.

فقامت السورة على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه من إثبات الرسالة، ومعجزة القرآن، وما يعتبر في صفات الأنبياء وإثبات القدر، وعلم الله، الحشر، والتوحيد، وشكر المنعم، وهذه أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، ومنها تتفرع الشريعة. وإثبات الجزاء على الخير والشر مع إدماج الأدلة من الآفاق والأنفس بتفنن عجيب، فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمى "قلب القرآن" لأن من تقاسيمها تتشعب شرايين القرآن كله، وإلى وتينها ينصب مجراها.

قال الغزالي: إن ذلك لأن الإيمان صحته باعتراف بالحشر، والحشر مقرر في هذه." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣٧/٢٢

(٢) التحرير والتنوير، ١٩٣/٢٢

"رماني بذنب كنت منه ووالدي ... بريئا ومن أجل الطوي رماني١

فلم يقل: بريئين، للعلم بأن والده مثله.

ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ في قواه ﴿وما عملته أيديهم﴾ موصولة معطوفة على ﴿ثمره﴾ ، أي ليأكلوا من ثمر ما عملته أيديهم، فيكون إدماجا للإرشاد إلى إقامة الجناة بالخدمة والسقي والتعهد ليكون ذلك أوفر لأغلالها. وضمير ﴿عملته﴾ على هذا عائد إلى اسم الموصول. ويجوز أن يكون ﴿ما﴾ نافية والضمير عائد إلى ما ذكر من الحب والنخيل والأعناب. والمعنى: أن ذلك لم يخلقوه. وهذا أوفر في **الامتنان** وأنسب بسياق الآية مساق الاستدلال. وقرأ الجمهور ﴿وما عملته﴾ بإثبات هاء الضمير عائدا إلى المذكور من الحب والنخيل والأعناب. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف ﴿وما عملت﴾ بدون هاء، وكذلك هو مرسوم في المصحف الكوفي وهو جار على حذف المفعول إن كان معلوما. ويجوز أن يكون من حذف المفعول لإرادة العموم. والتقدير: وما عملت أيديهم شيئا من ذلك. وكلا الحذفين شائع.

وفرع عليه استفهام الإنكار لعدم شكرهم بأن اتخذوا للذي أوجد هذا الصنع العجيب أندادا. وجيء بالمضارع مبالغة في كفرهم بأن الله حقيق بأن يكرروا شكره فكيف يستمرون على الإشراك به.

[٣٦] ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون [٣٦]﴾.

اعتراض بين جملة ﴿وآية لهم الأرض﴾ [يس: ٣٣] وجملة ﴿وآية لهم الليل﴾ [يس: ٣٧]، أثاره ذكر إحياء الأرض وإخراج الحب والشجر منها فإن ذلك أحوالا وإبداعا عجيبا يذكر بتعظيم مودع تلك الصنائع بحكمته وذلك تضمن الاستدلال بخلق الأزواج على طريقة الإدماج. و ﴿سبحان﴾ هنا لإنشاء تنزيه الله تعالى عن أحوال المشركين تنزيها عن كل ما لا يليق بإلهيته وأعظمه الإشراك به وهو المقصود هنا. وإجراء الموصول على الذات العلية للإيماء إلى وجه إنشاء التنزيه والتعظيم. وقد مضى الكلام على ﴿سبحان﴾ في سورة البقرة وغيرها.

و ﴿الأزواج﴾ : جمع زوج وهو يطلق على كل من الذكر والأنثى من الحيوان، ويطلق

ـ

١ نازعه ناس من قشير في بئر لدى الحاكم فقال القشيري للأزرق: هو لص ابن لص ليغري به الحاكم، ونسب بعضهم هذا إلى البيت للفرزدق، ولا يصح.." (١)

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢٦/٢٢

"في المسجد عند غروب الشمس فسألته أو قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها فذلك مستقر لها ومستقرها تحت العرش فذلك قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾.

وهذا تمثيل وتقريب لسير اليومي الذي يبتدئ بشروقها على بعض الكرة الأرضية وينتهي بغروبها على بعض الكرة الأرضية، في خطوط دقيقة، وبتكرر طلوعها وغروبها تتكون السنة الشمسية.

وقد جعل الموضع الذي ينتهي إليه سيرها هو المعبر عنه بتحت العرش وهو سمت معين لا قبل للناس بمعرفته، وهو منتهى مسافة سيرها اليومي، وعنده ينقطع سيرها في إبان انقطاعه وذلك حين تطلع من مغربها، أي حين ينقطع سير الأرض حول شعاعها لأن حركة الأجرام التابعة لنظامها تنقطع تبعا لانقطاع حركتها هي وذلك نهاية بقاء هذا العلم الدنيوي.

واللام في قوله: ﴿لها﴾ لام الاختصاص وهو صفة ﴿لمستقر﴾ . وعدل عن إضافة مستقر لضمير الشمس المغنية عن إظهار اللام إلى الإتيان باللام ليتأتى تنكير "مستقر" تنكيرا مشعرا بتعظيم ذلك المستقر.

وكلام النبي صلى الله عليه وسلم هذا تمثيل لحال الغروب والشروق اليوميين. وجعل سجود الشمس تمثيلا لتسخرها لتسخير الله إياها كما جعل القول تمثيلا له في آية ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١].

واعلم أن قوله: ﴿لمستقر لها﴾ إدماج للتعليم في التذكير وليس من آية الشمس للناس لأن الناس لا يشعرون به فهو كقوله تعالى: ﴿ليقضى أجل مسمى﴾ [الأنعام: ٦٠] عقب **الامتنان** بقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم﴾ [الأنعام: ٦٠].

والإشارة بـ ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ إلى المذكور: إما من قوله: ﴿والشمس." (١)

"وتعدية: ﴿حملنا﴾ إلى الذريات تعدية على المفعولية المجازية وهو مجاز عقلي فإن المجاز العقلي لا يختص بالإسناد بل يكون المجاز في التعليق فإن المحمول أصول الذريات لا الذريات وأصولها ملابسة لها.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣١/٢٢

ولما كانت ذريات المخاطبين مما أراد الله بقاءه في الأرض حين أمر نوحا بصنع الفلك لإنجاء الأنواع وأمره بحمل أزواج من الناس هم الذين تولد منهم البشر بعد الطوفان نزل البشر كله منزلة محمولين في الفلك المشحون في ومن نوح، وذكر الذريات يقتضي أن أصولهم محمولون بطريق الكناية إيجازا في الكلام، وأن أنفسهم محمولون كذلك كأنه قيل: إنا حملنا أصولهم وحملناهم وحملنا ذرياتهم، إذ لولا نجاة الأصول ما جاءت الذريات، وكانت الحكمة في حمل الأصول بقاء الذريات فكانت النعمة شاملة للكل، وهذا كالامتنان في قوله: ﴿إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

وضمير ﴿ذريتهم﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿لهم﴾ أي العباد المراد بهم المشركون من أهل مكة لكنهم لوحظوا هنا بعنوان كونهم من جملة البشر، فالمعنى: آية لهم أنا حملنا ذريات البشر في سفينة نوح وذلك حين أمر الله نوحا بأن يحمل فيها أهله والذين آمنوا من قومه لبقاء ذريات البشر فكان ذلك حملا لذرياتهم ما تسلسلت كما تقدم آنفا.

هذا هو تأويل هذه الآية قال القرطبي: وهي من أشكل ما في السورة، وقال ابن عطية: "قد خلط بعض الناس حتى قالوا: الذرية تطلق على الآباء وهذا لا يعرف من اللغة" وتقدم قوله: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ في سورة الأعراف [١٧٢].

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ذريتهم﴾ بلفظ الجمع. وقرأه الباقون بدون ألف بصيغة اسم الجمع، والمعنى واحد. وقد فهم من دلالة قوله: ﴿أنا حملنا ذريتهم﴾ صريحا وكناية أن هذه الآية مستمرة لكل ناظر إذ يشهدون أسفارهم وأسفار أمثالهم في البحر وخاصة سكان الشطوط والسواحل مثل أهل جدة وأهل ينبع إذ يسافرون إلى بلاد اليمن وبلاد الحبشة فيفهم منه: أنا حملنا ونحمل وسنحمل أسلافهم وأنفسهم وذرياتهم. وقد وصف طرفة السفن في معلقته.

وجملة: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ معترضة في خلال آية البحر اقتضتها مراعاة النظير تذكيرا بنعمة خلق الإبل صالة للأسفار فحكيت آية الإلهام بصنع الفلك من." (١)

"حيا فيزداد حياة بامتثال الذكر فيفوز ومن كان ميتا فلا ينتفع بالإنذار فيحق عليه القول، كما قال تعالى: في أول السورة ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾ [يس: ١١]، فجمع له بين الإنذار ابتداء والبشارة آخرا.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٧/٢٢

و ﴿القول﴾ : هو الكلام الذي جاء بوعيد من لم ينتفعوا بإنذار الرسول صلى الله عليه وسلم.

والمراد بالكافرين: المستمرون على كفرهم وإلا فإن الإنذار ورد للناس أول ما ورد وكلهم من الكافرين.

وفي ذكر الإنذار عود إلى ما ابتدئت به السورة من قوله: ﴿لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم﴾ [يس: ٦] فهو كرد العجز على الصدر، وبذلك تم مجال الاستدلال عليهم وإبطال شبههم وتخلص إلى الامتنان الآتي فغي قوله: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما﴾ [يس: ٧١] إلى قوله: ﴿أفلا يشكرون﴾ [يس: ٣٥].

[٧١- ٧٣] ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون [٧١] وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون [٧٢] ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون [٧٣]﴾.

بعد أن انقضى إبطال معاقد شرك المشركين أحد الكلام يتطرق غرض تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم وكيف قابلوها بكفران النعمة وأعرضوا عن شكر المنعم وعبادته واتخذوا لعبادتهم آلة زعما بأنها تنفعهم وتدفع عنهم وأدمج في التذكير بأن الأنعام مخلوقة بقدرة الله. فالجملة معطوفة عطف الغرض على الغرض.

والاستفهام: إنكار وتعجيب من عدم رؤيتهم شواهد النعمة، فإن كانت الرؤية قلبية كان الإنكار جاريا على مقتضى الظاهر، وإن كانت الرؤية بصرية فالإنكار على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل مشاهدتهم تلك المذكورات منزلة عدم الرؤية لعدم جريهم على مقتضى العلم بتلك المشاهدات الذي ينشأ عن رؤيتها ورؤية أحوالها، وعلى الاحتمالين فجملة الفعل المنسبك بالمصدر سادة مسد المفعولين للرؤية القلبية، أو المصدر المنسبك منها مفعول للرؤية البصرية.

وفي خلال هذا الامتنان إدماج شيء من دلائل الانفراد بالتصرف في الخلق المبطلة لإشراكهم إياه غيره في العبادة وذلك في قوله: ﴿أنا خلقنا﴾ وقوله: ﴿مما عملت أيدينا﴾ وقوله: ﴿وذللناها﴾ وقوله: ﴿ولهم فيها منافع ومشارب﴾ ، لأن معناه: أودعنا لهم في." (١)

"أضراعها ألبانا يشربونها وفي أبدانها أوبارا وأشعارا ينتفعون بها.

وقوله: ﴿لهم﴾ هو محل الامتنان، أي لأجلهم، فإن جميع النافع التي على الأرض خلقها الله لأجل الإنسان بها تكرمة له، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ في سورة البقرة [٢٩].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧١/٢٢

واستعير عمل الأيدي الذي هو المتعارف في الصنع إلى إيجاد أصول الأجناس بدون سابق منشأ من توالد أو نحوه فأسند ذلك إلى أيدي الله تعالى لظهور أن تلك الأصول لم تتولد عن سبب كقوله: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ [الذريات: ٤٧]، فـ"من" في قوله: ﴿مما عملت﴾ ابتدائية لأن الأنعام التي لهم متولدة من أصول حتى تنتهي إلى أصولها الأصلية التي خلقها الله كما خلق آدم، فعبر عن ذلك الخلق بأنه بيد الله استعارة تمثيلية لتقريب شأن الخلق الخفي البديع مثل قوله: ﴿لما خلقت بيدي﴾ [ص: ٧٥]. وقرينة هذه الاستعارة ما تقر من أن ليس كمثله شيء وأنه لا يشبه المخلوقات، فذلك من العقائد القطعية في الإسلام. فأما الذين رأوا الإمساك عن تأويل أمثال هذه الاستعارات فسموها المتشابه وإنما أرادوا أننا لم نصل إلى حقيقة ما نعبر عنه بالكنه، وأما الذين تأولوها بطريقة المجاز فهم معترفون بأن تأويلها تقريب وإساغة لغصص العبارة. فأما الذين أثبتوا وصف الله تعالى بظواهرها فباعثهم فرط الخشية، وكان للسلف في ذلك عذر لا يسع أهل العصور التي فشا فيها الإلحاد والكفر فهم عن إقناع السائلين بمعزل، وقلم التطويل في ذلك معزل.

والأنعام: الإبل والبقر والغنم والمعز. وفرع على خلقها للناس أنهم لها مالكون قادرون على استعمالها فيما يشاءون لأن الملك هو أنواع التصرف. قال الربيع بن ضبع الفزاري من شعراء الجاهلية المعمرين:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا ... أملك رأس البعير إن نفرا

وهذا إدماج للامتنان في أثناء التذكير.

وتقديم ﴿لها﴾ على ﴿مالكون﴾ الذي هو متعلقه لزيادة استحضار الأنعام عند السامعين قبل سماع متعلقه ليقع كلاهما أمكن وقع بالتقديم وبالتشويق، وقضى بذلك أيضا رعي الفاصلة.

وعدل عن أن يقال: فهم مالكوها، إلى ﴿فهم لها مالكون﴾ ليأتي التنكير فيفيد بتعظيم المالكين للأنعام الكناية عن تعظيم الملك، أي بكثرة الانتفاع وهو ما أشار إليه." (١)

"تفصيلا وإجمالا قوله تعالى: ﴿وذللناها لهم﴾ إلى قوله: ﴿ولهم فيها منافع ومشارب﴾ . وأن إضافة الوصف المشبه الفعل وإن كانت لا تكسب المضاف تعريفا لكنها لا تنسلخ منها خصائص التنكير مثل التنوين. وجيء بالجملة الاسمية لإفادة ثبات هذا الملك ودوامه.

والتذليل: جعل الشيء ذليلا، والذليل ضد العزيز وهو الذي لا يدفع عن نفسه ما يكرهه. ومعنى تذليل الأنعام خلق مهانتها للإنسان في جبلتها بحيث لا تقدم على مدافعة ما يريد منها فإنها ذات قوات يدفع

(١) التحرير والتنوير، ٢٧٢/٢٢

بعضها بعضا عن نفسه بها فإذا زجرها الإنسان أو أمرها ذلت له وطاعت مع كراهيتها ما يريده منها، من سير أو حمل أو حلب أو أخذ نسل أو ذبح. وقد أشار إلى ذلك قوله: ﴿فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾.

والركوب بفتح الراء: المركوب مثل الحلوب وهو فعول بمعنى مفعول، فلذلك يطابق موصوفه يقال: بعير ركوب وناقة حلوبة.

و ﴿من﴾ تبعيضية، أي وبعضها غير ذلك مثل الحرث والقتال كما قال: ﴿ولهم فيها منافع ومشارب﴾ والمشارب: جمع مشرب، وهو مصدر ميمي بمعنى: الشرب، أريد به المفعول، أي مشروبات.

وتقديم المجرورين بـ"من" على ما حقهما أن يتأخرا عنهما للوجه الذي ذكر في قوله: ﴿فهم لها مالكون﴾.

وفرع على التذكير **والامتنان** قوله: ﴿أفلا يشكرون﴾ استفهاما تعجيبيا لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم العدة فلذلك جيء بالمضارع المفيد للتجديد والاستمرار لأن تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين، وإذ قد عجب من عدم تكريرهم الشكر كانت إفادة التعجيب من عدم الشكر من أصله بالفحوى ولذلك أعقبه بقوله: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة﴾ [يس: ٧٤].

[٧٤، ٧٥] ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون [٧٤] لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون [٧٥]﴾.

عطف على جملة: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما﴾ [يس: ٧١]، أي ألم يروا دلائل الوحدانية ولم يتأملوا جلائل النعمة، واتخذوا آلهة من دون الله المنعم والمنفرد بالخلق. ولك أن تجعله عطفا على الجملتين المفرعتين، والمقصود من الإخبار." (١)

"معان مرادة من الآية فيما نرى،على أن في هذين الوصفين إيماء إلى أن القرآن معجز ببلاغة لفظه وإعجازه العلمي،إذا اشتمل على علوم لم يكن للناس علم بها كما بيناه في المقدمة العاشرة.

وفي وصف ﴿الحكيم﴾ إيماء إلى أنه أنزله بالحكمة وهي الشريعة ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ [البقرة:٢٦٩].وفي هذا إرشاد إلى وجوب التدبر في معاني هذا الكتاب ليتوصل بذلك التدبر إلى العلم بأنه حق من عند الله،قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [فصلت:٥٣].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧٣/٢٢

ومعنى ﴿العزيز الحكيم﴾ في صفات الله تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ في سورة البقرة[٢٦٩].

وافتتاح جملة ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ بحرف "إن" مراعى فيه ما استعمل فيه الخبر من الامتنان.فيحمل حرف "إن" على الاهتمام بالخبر.وما أريد به من التعريض بالذين أنكروا أن يكون منزلا من الله فيحمل حرف "إن" على التأكيد استعمالا للمشترك في معنييه.ولما في هذه الآية من زيادة الإعلان بصدق النبي المنزل عليه الكتاب جدير بالتأكيد لأن دليل صدقه ليس في ذاته بل هو قائم بالإعجاز الذي في القرآن وبغيره من المعجزات،فكان مقتضى التأكيد موجودا بخلاف مقتضى الحال في قوله: ﴿تنزيل الكتاب من الله﴾ .

فجملة ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب﴾ تتنزل منزلة البيان لجملة ﴿تنزيل الكتاب من الله﴾ . وإعادة لفظ ﴿الكتاب﴾ للتنويه بشأنه جريا على خلاف مقتضى الظاهر بالإظهار في مقام الإضمار.وتعدية ﴿أنزلنا﴾ بحرف الانتهاء تقدم في قوله: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ في أول البقرة[٤].

والباء في ﴿بالحق﴾ للملابسة،وهي ظرف مستقر حالا من ﴿الكتاب﴾ ،أي أنزلنا إليك القرآن ملابسا للحق في جميع معانيه ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ [فصلت:٤٢].

وفرع على المعنى الصريح من قوله: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أن أمر بأن يعبد الله مخلصا له العبادة.وفي هذا التفريع تعريض بما يناسب المعنى التعريضي في المفرع عليه وهو أن المعرض بهم أن يعبدوا الله مخلصين له الدين عليهم أن يدبروا في المعنى المعرض به.." (١)

"الوحدانية له يبطل الشريك في الإلهية على تفاوت مراتبه،وإثبات ﴿القهار﴾ يبطل ما زعموه من أن أولياءهم تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم.

والقهر:الغلبة،أي هو شديد الغلبة لكل شيء لا يغلبه شيء ولا يصرفه عن إرادته.

[٥] ﴿خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار﴾

﴿خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾

(١) التحرير والتنوير، ٨/٢٤

هذه الجملة بيان لجملة ﴿هو الله الواحد القهار﴾ [الزمر:٤]فإن خلق هذه العوالم والتصرف فيها على شدتها وعظمتها يبين معنى الوحدانية ومعنى القهارية،فتكون جملة ﴿هو الله الواحد القهار﴾ ذات إتصالين:اتصال بجملة ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدا﴾ [الزمر:٤]كاتصال التذييل،واتصال بجملة ﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾ اتصال التمهيد.

وقد انتقل من الاستدلال باقتضاء حقيقة الإلهية نفي الشريك إلى الاستدلال بخلق السماوات والأرض على أنه المنفرد بالخلق إذ لا يستطيع شركاؤهم خلق العوالم.

والباء في ﴿بالحق﴾ للملابسة،أي خلقها خلقا ملابسا للحق وهو هنا ضد العبث،أي خلقهما خلقا ملابسا للحكمة والصواب والنفع لا يشوب خلقهما عبث ولا اختلال قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق﴾ [الدخان:٣٨،٣٩].

وجملة ﴿يكور الليل﴾ بيان ثان وهو كتعداد الجمل في مقام الاستدلال أو **الامتنان**.وأوثر المضارع في هذه الجملة للدلالة على تجدد ذلك وتكرره،أو لاستحضار حالة التكوير تبعا لاستحضار آثارها فإن حالة تكوير الله على النهار غير مشاهدة وإنما المشاهد أثرها وتجدد الأثر يدل على تجدد التأثير.

والتكوير حقيقته:اللف واللي،يقال:كور العمامة على رأسه إذا لواها ولفها،ومثلت به هنا هيئة غشيان الليل على النهار في جزء من سطح الأرض وعكس ذلك على." (١)

"انتقال إلى الاستدلال بخلق الناس وهو الخلق العجيب.وأدمج فيه الاستدلال بخلق أصلهم وهو نفس واحدة تشعب منها عدد عظيم وبخلق زوج آدم ليتقوم ناموس التناسل.والجملة يجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير الجلالة،ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا تكريرا للاستدلال.

والخطاب للمشركين بدليل قوله بعده: ﴿فأنى تصرفون﴾ ،وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب،ونكتته أنه لما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم عنهم بطريق الغيبة أقبل على خطابهم ليجمع في توجيه الاستدلال إليهم بين طريقي التعريض والتصريح.وتقدم نظير هذه الجملة في سورة الأعراف،إلا أن في هذه الجملة عطف قوله: ﴿جعل منها زوجها﴾ بحرف ﴿ثم﴾ الدال على التراخي الرتبي لأن مساقها الاستدلال على الوحدانية وإبطال الشريك بمراتبه،فكان خلق آدم دليلا على عظيم قدرته تعالى وخلق زوجه من نفسه دليلا أخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته.فعطف بحرف ﴿ثم﴾ الدال على عطف الجمل على التراخي الرتبي إشارة إلى استقلال الجملة المعطوفة بها بالدلالة مثل الجملة المعطوفة هي عليها،فكان خلق زوج آدم منه

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٢٤

أدل على عظيم القدرة من خلق الناس من تلك النفس الواحدة ومن زوجها لأنه خلق لم تجر به عادة فكان ذلك الخلق أجلب لعجب السامع من خلق الناس فجيء له بحرف التراخي المستعمل في تراخي المنزلة لا في تراخي الزمن لأن زمن خلق زوج آدم سابق على خلق الناس.فأما آية الأعراف فمساقها مساق **الامتنان** على الناس بنعمة الإيجاد،فذكر الأصلان للناس معطوفا أحدهما على الآخر بحرف التشريك في الحكم الذي هو الكون أصلا لخلق الناس.

وقد تضمنت الآية ثلاث دلائل على عظم القدرة خلق الناس من ذكر وأنثى بالأصالة وخلق الذكر الأول بالإدماج وخلق الأنثى بالأصالة أيضا.

﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾

استدلال بما خلقه الله تعالى من الأنعام عطف على الاستدلال بخلق الإنسان لأن المخاطبين بالقرآن يومئذ قوام حياتهم بالأنعام ولا تخلو الأمم يومئذ من الحاجة إلى الأنعام ولم تزل الحاجة إلى الأنعام حافة بالبشر في قوام حياتهم.

وهذا اعتراض بين جملة ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ وبين ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم﴾ لمناسبة أزواج الأنعام لزوج النفس الواحدة.

وأدمج في هذا الاستدلال امتنان بما فيها من المنافع للناس لما دل عليه قوله:." (١)

"وتقديم ﴿لكم﴾ على مفعول ﴿ينزل﴾ وهو ﴿رزقا﴾ لكمال **الامتنان** بأن جعل تنزيل الرزق لأجل الناس ولو أخر المجرور لصار صفة لـ ﴿رزقا﴾ فلا يفيد أن التنزيل لأجل المخاطبين بل يفيد أن الرزق صالح للمخاطبين وبين المعنيين بون بعيد، فكان تقديم المجرور في الترتيب على مفعول الفعل على خلاف مقتضى الظاهر لأن حق المفعول أن يتقدم على غيره من متعلقات الفعل وإنما خولف الظاهر لهذه النكتة.

وجعل تنزيل الرزق لأجل المخاطبين وهم المؤمنين إشارة إلى أن الله أراد كرامتهم ابتداء وأن انتفاع غيرهم بالرزق انتفاع بالتبع لهم لأنهم الذين بمحل الرضى من الله تعالى.

وتثار من هذه الآية مسألة الاختلاف بين الأشعرية مع الماتريدي ومع المعتزلة في أن الكافر منعم عليه أو لا؟، فعن الأشعري أن الكافر غير منعم عليه في الدنيا ولا في الدين ولا في الآخرة، وقال القاضي أبو بكر الباقلاني والماتريدي: "هو منعم عليه نعمة دنيوية، لا دينية ولا أخروية"، وقالت المعتزلة: "هو

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/٢٤

منعم عليه نعمة دنيوية ودينية لا أخروية"، فأما الأشعري فلم يعتبر بظاهر الملاذ التي تحصل للكافر في الحياة فإنما ذلك إملاء واستدراج لأن مآلها العذاب المؤلم فلا تستحق اسم النعمة.

وأنا أقول: لو استدل له بأنها حاصلة لهم تبعا فهي لذائذ وليست نعما لأن النعمة لذة أريد منها نفع من وصلت إليه كما أشرت إليه آنفا.

وأما الباقلاني فراعى ظاهر الملاذ فلم يمنع أن تكون نعما وإن كانت عواقبها آلاما، وآيات القرآن شاهدة لقوله. وأما المعتزلة فزادوا فزعموا أن الكافر منعم عليه دينا، وأرادوا بذلك أن الله مكن الكافر من نعمة القدرة على النظر المؤدي إلى معرفة الله وواجب صفاته. والذي استقر عليه رأي المحققين من المتكلمين أن هذا الخلاف لفظي لأنه غير ناظر إلى حقيقة حالة الكافر في الدنيا والدين، وإنما نظر كل شق من أهل الخلاف إلى ما حف بأحوال الكافر في تلك النعمة فرجع إلى الخلاف في الألفاظ المصطلح عليها ومدلولاتها في حقائق المقصود منها.

[١٤] ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾ [غافر: ١٤]

تفريع على ما شاهدوا من الآيات وما أفيض عليهم من الرزق، وعلى أنهم المرجوون للتذكير، أي إذ كنتم بهذه الدرجة فادعوا الله مخلصين، ففي الفاء معنى الفصيحة كما تقدم في قوله: ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ [غافر: ١٣].." (١)

"﴿لكم﴾ واقتضاه التذييل بقوله: ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ . وأدمج في التذكير بالنعمة استدلال على انفراده تعالى بالتصرف بالخلق، والتدبير الذي هو ملازم حقيقة الإلهية.

وابتدئ الاستدلال بدلائل الأكوان العلوية وآثارها الواصلة إلى الأكوان السفلية، وهي مظهر النعمة بالليل والنهار فهما تكوينان عظيمان دالان على عظيم قدرة مكونهما ومنظمهما وجاعلهما متعاقبين، فنيطت بهما أكثر مصالح هذا العالم ومصالح أهله، فمن مصالح العالم حصول التعادل بين الضياء والظلمة، والحرارة والبرودة لتكون الأرض لائقة بمصالح من عليها فتنبت الكلأ وتنضج الثمار، ومن مصالح سكان العالم سكون الإنسان والحيوان في الليل لاسترداد النشاط العصبي الذي يعييه عمل الحواس والجسد في النهار، فيعود النشاط إلى المجموع العصبي في الجسد كله وإلى الحواس، ولولا ظلمة الليل لكان النوم غير كامل فكان عود النشاط بطيئا وواهنا ولعاد على القوة العصبية بالانحطاط والاضمحلال في أقرب وقت فلم يتمتع

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦٤/٢٤

الإنسان بعمر طويل. ومنها انتشار الناس ولحيوان في النهار وتبين الذوات بالضياء، وبذلك تتم المساعي للناس في أعمالهم التي بها انتظام أمر المجتمع من المدن والبوادي، والحضر والسفر، فإن الإنسان مدني بالطبع، وكادح للعمل والاكتساب، فحاجته للضياء ضرورية ولولا الضياء لكانت تصرفات الناس مضطربة مختبطة.

وللتنويه بشأن إبصار الناس في الضياء وكثرة الفوائد الحاصلة لهم من ذلك أسند الإبصار إلى النهار على طريقة المجاز العقلي لقوة الملابسة بين الأفعال وزمانها، فأسند إبصار الناس إلى نفس النهار لأنه سبب بعضه وسبب كمال بعض آخر. فأما نعمة السكون في الليل فهي نعمة واحدة هي رجوع النشاط.

وفي ذكر الليل تذكير بآية عظيمة من المخلوقات وهي الشمس التي ينشأ الليل من احتجاب أشعتها عن نصف الكرة الأرضية وينشأ النهار من انتشار شعاعها على النصف المقابل من الكرة الأرضية، ولكن لما كان المقصد الأول من هذه الآية الامتنان ذكر الليل والنهار دون الشمس، وقد ذكرت الشمس في آيات أخرى كان الغرض الأهم منها الدلالة على عظيم القدرة والوحدانية كقوله: ﴿والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [الأنعام: ٩٦].

ودلت مقابلة تعليل إيجاد الليل بعلة سكون الناس فيه، بإسناد الإبصار إلى ذات." (١)

"والموصول وصلته يجوز أن يكون صفة لاسم الجلالة فيكون الخبر قوله: ﴿ذلكم الله ربكم﴾ وهو أولى لأن المقصود إثبات إلهيته وحده بدليل ما هو مشاهد من إتقان صنعه الممزوج بنعمته. ويجوز أن يكون الموصول خبرا فيكون الخبر مستعملا في الامتنان والاعتبار. ولما كان المقصود الأول من هذه الآية الامتنان كما دل عليه قوله: ﴿لكم﴾ قدمت الأرض على السماء لأن الانتفاع بها محسوس وذكرت السماء بعدها كما يستحضر الشيء بضده مع قصد إيداع دلائل علم الهيئة لمن فيهم استعداد للنظر فيها وتتبع أحوالها على تفاوت المدارك وتعاقب الأجيال واتساع العلوم.

والقرار أصله، مصدر قر، إذا سكن. وهو هنا من صفات الأرض لأنه في حكم الخبر عن الأرض، فالمعنى يحتمل: أنه جعلها قارة غير مائدة ولا مضطربة فلم تكن مثل كرة الهواء مضطربة متحركة ولو لم تكن قارة لكان الناس في عناء من اضطرابها وتزلزلها، وقد يفضي ذلك بأكثرهم إلى اله لاك وهذا في معنى قوله: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾ في سورة الأنبياء[٣١].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٠/٢٤

ويحتمل أن المعنى جعل الأرض ذات قرار، أي قرار لكم، أي جعلها مستقرا لكم كقوله تعالى: ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ [المؤمنون: ٥٠]أي خلقها على كيفية تلائم الاستقرار عليها بأن جعلها يابسة غير سائلة ولو شاء لجعل سطح الأرض سيالا كالزئبق أو كالعجل فلا يزال الإنسان سائخا فيها يطفو تارة ويسيخ أخرى فلا يكاد يبقى على تلك الحالة، وذلك كوسط سبخة "التاكمرت"١ المسماة "شط الجريد" الفاصل بين "نفطة" و "نفزاوة" من الجنوب التونسي فإن فيها مسافات إذا مشت فيها القوافل ساخت في الأرض فلا يعثر عليها ولذلك لا تسير فيها القوافل إلا بهداة عارفين بمسالك السير في علامات منصوبة، فكانت خلقه الأرض دالة على عظيم قدرة الله وعلى دقيق حكمته وعلى رحمته بالإنسان والحيوان المعمور بهما وجه الأرض.

والبناء: ما يرفع سمكه على الأرض للاتقاء من الحر والبرد والمطر والدواب. ووصف السماء بالبناء جار على طريقة التشبيه البليغ، وتقدم الكلام مستوفي عند قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء﴾ في سورة البقرة[٢٢].

﴿وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات﴾

_

١ التاكمرت كلمة بلغة البربر بمعنى السبخة.." (١)

"﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠]فيكون العدول عن أن يقول: أن اعبد الذين تعبدون، تفننا. و"من" في قوله: ﴿من ربي﴾ ابتدائية، وجعل المجرور بـ"من" وصف "رب" مضافا إلى ضمير المتكلم دون أن يجعل مجرورها ضميرا يعود على اسم الجلالة إظهارا في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر لتربية المهابة في نفوس المعرض بهم ليعلموا أن هذا النهي ومجيء البينات هو من جانب سيده وسيدهم فما يسعهم إلا أن يطيعوه ولذلك عززه بإضافة الرب إلى الجميع في قوله: ﴿وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ أي ربكم ورب غيركم فلا منصرف لكم عن طاعته.

والإسلام: الانقياد بالقول والعمل، وفعله متعد، وكثر حذف مفعوله فنزل منزلة اللازم، فأصله: أسلم نفسه أو ذاته أو وجهه كما صرح به في نحو قوله تعالى: ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾، ومن استعماله كاللازم قوله تعالى: ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾ في سورة آل عمران[٢٠]وقوله تعالى: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ في سورة البقرة[١٣١]، وكذلك هو هنا.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٤/٢٤

[٦٧] ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون﴾

استئناف رابع بعد استئناف جملة ﴿هو الحي﴾ [غافر: ٦٥]وما تفرع عليها، وكلها ناشئ بعضه عن بغض. وهذا **الامتنان** بنعمة الإيجاد وهو نعمة لأن الموجود شرف والمعدوم لا عناية به. وأدمج فيه الاستدلال على الإبداع. وتقدم الكلام على أطوار خلق الإنسان في سورة الحج، وتقدم الكلام على بعضه في سورة فاطر.

والطفل: اسم يصدق على الواحد والاثنين والجمع، للمذكر والمؤنث قال تعالى: ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ [النور: ٣١]وقد يطابق فيقال: طفل وطفلان وأطفال.

واللامات في قوله: ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ وما عطف عليه بـ"ثم" متعلقات بمحذوف تقديره: ثم يبقيكم، أو ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم، وهي لامات التعليل مستعملة في معنى إلى لأن الغاية المقدرة من الله تشبه العلة فيما يفضي إليها، وتقدم نظيره في سورة الحج.

وقوله: ﴿ولتبلغوا أجلا مسمى﴾ عطف على ﴿لتكونوا شيوخا﴾ أي للشيخوخة غاية." (١)

"فمعنى ﴿يحيي﴾ يوجد المخلوق حيا. ومعنى ﴿يميت﴾ أنه يعدم الحياة عن الذي كان حيا، وهذا هو محل العبرة. وأما إمكان الإحياء بعد الإماتة فمدلول بدلالة قياس التمثيل العقلي وليس هو صريح الآية. والمقصود: **الامتنان** بالحياة تبعا لقوله قبل هذا: ﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾ إلى قوله: ﴿ثم يخرجكم طفلا﴾ [غافر: ٦٧].

وفي قوله: ﴿يحيي ويميت﴾ المحسن البديعي المسمى الطباق. وفرع على هذا الخبر إخبار بأنه إذا أراد أمرا من أمور التكوين من إحياء أو إماتة أو غيرهما فإنه يقدر على فعله دون تردد ولا معالجة، بل بمجرد تعلق قدرته بالمقدور وذلك التعلق هو توجيه قدرته للإيجاد أو الإعدام. فالفاء من قوله: ﴿فإذا قضى﴾ فاء تفريغ الإخبار بما بعدها على الإخبار بما قبلها.

وقول ﴿كن﴾ تمثيل لتعلق القدرة بالمقدور بلا تأخير ولا عدة ولا معاناة وعلاج بحال من يريد إذن غيره بعمل فلا يزيد على أن يوجه إليه أمرا فإن صدور القول عن القائل أسرع أعمال الإنسان وأيسر وقد اختير لتقريب وقد اختير لتقريب ذلك أخصر فعل وهو ﴿كن﴾ المركب من حرفين متحرك وساكن.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤/٢٤٠

[٦٩-٧٢] ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون﴾

بنيت هذه السورة على إبطال جدل الذين يجادلون في آيات الله جدال التكذيب والتورك كما تقدم في أول السورة إذ كان من أولها قوله: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾ [غافر: ٤]وتكرر ذلك خمس مرات فيها، فنبه على إبطال جدالهم في مناسبات الإبطال كلها إذ ابتدئ بإبطاله على الإجمال عقب الآيات الثلاث من أولها بقوله: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾ [غافر: ٤]ثم بإبطاله بقوله: ﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله﴾ [غافر: ٣٥]، ثم بقوله: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر﴾ [غافر: ٥٦]ثم بقوله: ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون﴾ .

وذلك كله إيماء إلى أن الباعث لهم على المجادلة في آيات الله هو ما اشتمل عليه القرآن من إبطال الشرك فلذلك أعقب كل طريقة من طرائق إبطال شركهم بالإنحاء على جدالهم في آيات الله، فجملة ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله﴾ مستأنفة للتعجيب." (١)

"سنين حتى أكلوا الميتة، وآية السيف يوم بدر إذ استأصل صناديد المكذبين من أهل الطائف، وآية الأحزاب التي قال عنها: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها﴾ [الأحزاب: ٩]ثم قال: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

وفي إيثار ﴿قضي بالحق﴾ بالذكر دون غيره من نحو: ظهر الحق، أو تبين الصدق، ترشيح لما في قوله: ﴿أمر الله﴾ من التعريض بأنه أمر انتصاف من المكذبين. ولذلك عطف عليه ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ أي خسر الذين جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.

والخسران: مستعار لحصول الضر لمن أراد النافع، كخسارة التاجر الذي أراد الربح فذهب رأس ماله، وقد تقدم معناه غير مرة، منها قول تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ في أوائل سورة البقرة[١٦].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤/٢٤٢

و ﴿هنالك﴾ أصله اسم إشارة إلى المكان، واستعير هنا للإشارة إلي الزمان المعبر عنه بـ"إذا" في قوله: ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ .

وفي هذه الاستعارة نكتة بديعية وهي الإيماء إلى أن المبطلين من قريش ستأتيهم الآية في مكان من الأرض وهو مكان بدر وغيره من مواقع إعمال السيف فيهم فكانت آيات محمد صلى الله عليه وسلم حجة على معانديه أقوى من الآيات السماوية نحو الصواعق أو الريح، وعن الآيات الأرضية نحو الغرق والخسف لأنها كانت مع مشاركتهم ومداخلتهم حتى يكون انغلابهم أقطع لحجتهم وأخزى لهم نظير آية عصا موسى مع عصي السحرة.

[٧٩.٨٠] ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾

انتقال من الامتنان على الناس بما سخر لأجلهم من نظام العوالم العليا والسفلى، وبما منحهم من الإيجاد وتطوره وما في ذلك من الألطاف بهم وما أدمج فيه من الاستدلال على انفراده تعالى بالتصرف فكيف ينصرف عن عبادته الذين أشركوا به آلهة أخرى، إلى الامتنان بما سخر لهم من الإبل لمنافعهم الجمة خاصة وعامة، فالجملة استئناف سادس.." (١)

"والقول في افتتاحها كالقول في افتتاح نظائرها السابقة باسم الجلالة أو بضميره.

والأنعام: الإبل، والغنم، والمعز، والبقر. والمراد هنا: الإبل خاصة لقوله: ﴿ولتبلغوا عليها حاجة﴾ وقوله: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ وكانت الإبل غالب مكاسبهم.

والجعل: الوضع والتكمين والتهيئة، فيحمل في كل مقام على ما يناسبه وفائدة الامتنان استدلال على دقيق الصنع وبليغ الحكمة كما دل عليه قوله: ﴿ويريكم آياته﴾ [غافر: ٨١]أي في ذلك كله.

واللام في ﴿لكم﴾ لام التعليل، أي لأجلكم وهو امتنان مجمل يشمل بالتأمل كل ما في الإبل لهم من منافع وهم يعلمونها إذا تذكروها وعدوها. ثم فصل ذلك الإجمال بعض التفصيل بذكر المهم من النعم التي في الإبل بقوله: ﴿لتركبوا منها﴾ إلى ﴿تحملون﴾ . فاللام في ﴿لتركبوا منها﴾ لام كي وهي متعلقة بـ ﴿جعل﴾ أي لركوبكم.

و"من" في الموضعين هنا للتبعيض وهي صفة لمحذوف يدل عليه "من" أي بعضا منها، وهو ما أعد للأسفار من الرواحل. ويتعلق حرف "من" بـ ﴿تركبوا﴾ ، وتعلق "من" التبعيضية بالفعل تعلق ضعيف وهو

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤/٢٥٣

الذي دعا التفتزاني إلى القول بأن "من" في مثله اسم بمعنى بعض، وتقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ في سورة البقرة[٨].

وأريد بالركوب هنا الركوب للراحة من تعب الرجلين في الحاجة القريبة بقرينة مقابلته بقوله: ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم﴾ .

وجملة ﴿ومنها تأكلون﴾ في موضع الحال من ﴿الأنعام﴾ ، أو عطف على المعنى من جملة ﴿لتركبوا منها﴾ لأنها في قوة أن يقال: تكبون منها، على وجه الاستئناف لبيان الإجمال الذي في ﴿جعل لكم الأنعام﴾ ، وعلى الاعتبارين فهي في حيز ما دخلت عليه لام كي فمعناها: ولتأكلوا منها.

وجملة ﴿ولكم فيها منافع﴾ عطف على جملة ﴿ومنها تأكلون﴾ ، والمعنى أيضا على اعتبار التعليل كأنه قيل: ولتجتنبوا منافعها المجعولة لكم وإنما غير أسلوب التعليل تفننا في الكلام وتنشيطا للسامع لئلا يتكرر حرف التعليل تكرارات كثيرة.." (١)

"والمنافع: جمع منفعة، وهي مفعلة من النفع، وهي: الشيء الذي ينتفع به، أي يستصلح به.

فالمنافع في هذه الآية أريد بها ما قابل منافع أكل لحومها في قوله: ﴿ومنها تأكلون﴾ مثل الانتفاع بأورباها وألبانها وأثمانها وأعواضها في الديات والمهور، وكذلك الانتفاع بجلودها باتخاذها وغيرها وبالجلوس عليها، وكذلك الانتفاع بجمال مرآها في العيون في المسرح والمراح، والمنافع شاملة للركوب الذي في قوله: ﴿لتركبوا منها﴾ ، فذكر المنافع بعد ﴿لتركبوا منها﴾ تعميم بعد تخصيص كقوله تعالى: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨]بعد قوله: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها﴾ [طه: ١٨]، فذكر هنا الشائع المطروق عندهم ثم ذكر مثيلة في الشيوع وهو الأكل منها، ثم عاد إلى عموم المنافع، ثم خص من المنافع الأسفار فإن اشتداد الحاجة إلى الأنعام فيها تجعل الانتفاع بركوبها للسفر في محل الاهتمام. ولما كانت المنافع ليست منحصرة في أجزاء الأنعام جيء في متعلقها بحرف "في" دون "من" لأن "في" للظرفية المجازية بقرينة السياق فتشمل كل ما يعد كالشيء المحوي في الأنعام، كقول سبرة بن عمرو الفقعسي من شعراء الحماسة يذكر ما أخذه من الإبل في دية قريب:

نحابي بها أكفاءنا ونهينها ... ونشرب في أثمانها ونقامر

وأنبأ فعل ﴿لتبلغوا﴾ أن الحاجة التي في الصدور حاجة في مكان بعيد يطلبها صاحبها. والحاجة: النية والعزيمة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٥٤/٢٤

والصدور أطلق على العقول اتباعا للمتعارف الشائع كما يطلق القلوب على العقول.

وأعقب الامتنان بالأنعام بالامتنان بالفلك لمناسبة قوله: ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم﴾ فقال: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ ، وهو انتقال من الامتنان بجعل الأنعام، إلى الامتنان بنعمة الركوب في الفلك في البحار والأنهار فالمقصود هو قوله: ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ . وأما قوله: ﴿وعليها﴾ فهو تمهيد له وهو اعتراض بالواو الاعتراضية تكريرا للمنة، على أنه قد يشمل حمل الأثقال على الإبل كقوله تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم﴾ [النحل: ٧]فيكون إسناد الحمل إلى ضمير الناس تغليبا.

ووجه الامتنان بالفلك أنه امتنان بما ركب الله في الإنسان من تدبير والذكاء الذي توصل به إلى المخترعات النافعة بحسب مختلف العصور والأجيال، كما تقدم في سورة البقرة[١٦٤]عند قوله تعالى: ﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ الآيات، وبينا هنالك أن العرب كانوا يركبون البحر الأحمر في التجارة ويركبون الأنهار أيضا قال." (١)

"النابغة يصف الفرات:

يظل من خوفه الملاح معتصما ... بالخيزرانة بعد الأين والنجد

والجمع بين السفر بالإبل والسفر بالفلك جمع لطيف، فإن الإبل سفائن البر، وقديما سموها بذلك، قاله الزمخشري في تفسير سورة المؤمن.

وإنما قال: ﴿وعلى الفلك﴾ ولم يقل: وفي الفلك، كما قال: ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ [العنكبوت: ٦٥] لمزاوجة والمشاكلة مع ﴿وعليها﴾ ، وإنما أعيد حرف "على" في الفلك لأنها هي المقصودة بالذكر وكان ذكر ﴿وعليها﴾ كالتوطئة لها فجاءت على مثالها.

وتقديم المجرورات في قوله: ﴿ومنها يأكلون﴾ وقوله: ﴿وعليها وعلى الفلك﴾ لرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بما هو المقصود في السياق. وتقديم ﴿لكم﴾ على ﴿الأنعام﴾ مع أن المفعول أشد اتصالا بفعله من المجرور لقصد الاهتمام بالمنعم عليهم.

وأما تقديم المجرورين في قوله: ﴿ولكم فيها منافع﴾ فللاهتمام بالمنعم عليهم والمنعم بها لأنه الغرض الأول من قوله: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام﴾ .

[٨١] ﴿ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون﴾

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤/٢٥٥

عطف على جملة ﴿لكم الأنعام﴾ [غافر: ٧٩]أي الله الذي يريكم آياته. وهذا انتقال من متعدد الامتنان بما تقدم من قوله: ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ [غافر: ٦١] ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارا﴾ [غافر: ٦٤] ﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾ [غافر: ٦٧] ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام﴾ [غافر: ٧٩]، فإن تلك ذكرت في معرض الامتنان تذكيرا بالشكر، فنبه هنا على أن في تلك المنن آيات دالة على ما يجب لله من الوحدانية والقدرة والحكمة.

ولذلك كان قوله: ﴿ويريكم آياته﴾ مفيدا مفاد التذليل لما في قوله: ﴿آياته﴾ من العموم لأن الجمع المعرف بالإضافة من صيغ العموم، أي يريكم آياته في النعم المذكورات وغيرها من كل ما يدل على وجوب توحيده وتصديق رسله ونبذ المكابرة فيما يأتونهم به من آيات صدقهم.

وقد جيء في جانب إراءة الآيات بالفعل المضارع لدلالته على التجدد لأن الإنسان كلما انتفع بشيء من النعم علم ما في ذلك من دلالة على وحدانية خالقها وقدرته." (١)

"تعالى لما كذبت رسله وجحدت آياته ونعمه.

وحصل بذلك تكرير الإنكار الذي في قوله قبل هذا: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة﴾ [غافر: ٢١]الآية، فكان ما تقدم انتقالا عقب آيات الإنذار والتهديد، وكان هذا انتقالا عقب آيات الامتنان والاستدلال، وفي كلا الانتقالين تذكير وتهديد ووعيد. وهو يشير إلى أنهم إن لم يكونوا ممن تزعهم النعم عن كفران مسديها كشأن أهل النفوس الكريمة فليكونوا ممن يرعهم الخوف من البطش كشأن أهل النفوس اللئيمة فليضعوا أنفسهم حيث يختارون من إحدى الخطتين.

والقول في قوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿وآثارا في الأرض﴾ مثل القول في نظيره السابق في هذه السورة، وخولف في عطف جملة ﴿أفلم يسيروا﴾ بين هذه الآية فعطفت بالفاء للتفريغ لوقوعها بعدما يصلح لأن يفرع عنه إنكار عدم النظر في عاقبة الذين من قبلهم بخلاف نظيرها الذي قبلها فقد وقع بعد إنذارهم بيوم الآزفة.

وجملة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ معترضة والفاء للتفريغ على قوله: ﴿كانوا أكثر منهم﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾ [ص: ٥٧]وقول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره ... مني بمنزلة المحب المكرم

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٥٦/٢٤

وفائدة هذا الاعتراض التعجيل بإفادة أن كثرتهم وقوتهم وحصونهم وجناتهم لم تغن عنهم من بأس الله شيئا.

وجملة ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ الآية مفرعة على جملة ﴿كانوا أكثر منهم﴾ أي كانوا كذلك إلى أن جاءتهم رسل الله إليهم بالبينات فلم يصدقوهم فرأوا بأسنا. وجعلها في "الكشاف" جارية مجرى البيان ولتفسير لقوله: ﴿فما أغنى عنهم﴾ ، وما سلكته أنا أحسن وموقع الفاء يؤيده.

وأما في "لما" من معنى التوقيت أفادت معنى أن الله لم يغير ما بهم من النعم العظمى حتى كذبوا رسله.

وجواب "لما" جملة ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ وما عطف عليها.

واعلم أن المفسرين ذهبوا في تفسير هذه الآية طرائق قددا ذكر بعضها الطبري عن بعض سلف المفسرين. وأنهاها "صاحب الكشاف" إلى ست، ومال صاحب "الكشاف" إلى." (١)

"قول المعري:

وإن شئت فازعم أن من فوق هرها ... عبيدك واستشهد إلهك يشهد

وتضمن كلامهم قياسا استثنائيا تركيبه: لو شاء ربنا أن يرسل رسولا لأرسل ملائكة ينزلهم من السماء لكنه لم ينزل إلينا ملائكة فهو لم يشأ أن يرسل إلينا رسولا. وهذا إيماء إلى تكذيبهم الرسل ولهذا فرعوا عليه قولهم ﴿ فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي جاحدون رسالتكم وهو أيضا كناية عن التكذيب.

[١٥,١٦] ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون﴾

بعد ن حكي عن عاد وثمود ما اشترك فيه **الامتنان** من المكابرة والإصرار على الكفر فصل هنا بعض ما اختصت به كل أمة منهما من صورة الكفر، وذكر من ذلك ما له مناسبة لما حل بكل أمة منهما من العذاب.

والفاء تفريع على جملة ﴿قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ [فصلت:١٤] المقتضية أنهم رفضوا دعوة رسوليهم ولم يقبلوا إرشادهما واستدلالهما.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤/٢٥٨

و ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ في سورة البقرة [٢٦] والمعنى: فأما عاد فمنعهم قبول الهدى استكبارهم.

والاستكبار: المبالغة في الكبر، أي التعاظم واحتقار الناس، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل: استجاب، والتعريف في ﴿الأرض﴾ للعهد، أي أرضهم المعهودة. وإنما ذكر من مساويهم الاستكبار لأن تكبرهم هو الذي صرفهم عن اتباع رسولهم وعن توقع عقاب الله.

وقوله ﴿بغير الحق﴾ زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإن الاستكبار لا يكون بحق إذ لا مبرر للكبر بوجه من الوجوه لأن جميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال والسلطان والقوة وغير ذلك لا تبلغ الإنسان مبلغ الخلو عن النقص وليس للضعيف الناقص حق في." (١)

"النعمة لأنه لو جعل أحد الزوجين من نوع آخر لفات نعيم الأنس، وأما زعم العرب في الجاهلية أن الرجل قد يتزوج جنية أو غولا فذلك من التكاذيب وتخيلات بعضهم، وربما عرض لبعض الناس خبال في العقل خاص بذلك فتخيل ذلك وتحدث به فراج عن كل أبله.

وقوله ﴿ومن الأنعام أزواجا﴾ عطف على ﴿أزواجا﴾ الأول فهو كمفعول ل ﴿جعل﴾ والتقدير: وجعل من الأنعام أزواجا، أي جعل منها أزواجا بعضها لبعض. وفائدة ذكر أزواج الأنعام دون أزواج الوحش: أن في أنواع الأنعام فائدة لحياة الإنسان لأنها تعيش معه ولا تنفر منه، وينتفع بألبانها، وأصوافها، ولحومها، ونسلها، وعملها من حمل وحرث، فبجعلها أزواجا حصل معظم نفعها للإنسان.

والذرء: بث الخلق وتكثيره، ففيه معنى توالي الطبقات على مر الزمان إذ لا منفعة للناس من أزواج الأنعام باعتبارها أزواجا سوى ما يحصل من نسلها.

وضمير الخطاب في قوله ﴿يذرؤكم﴾ للمخاطبين بقوله ﴿جعل لكم﴾ ومراد شموله لجعل أزواج من الأنعام المتقدم ذكره لأن ذكر أزواج الأنعام لم يكن هملا بل مرادا منه زيادة المنة فإن ذرء نسل الإنسان نعمة للناس وذرء نسل الأنعام نعمة أخرى للناس، ولذلك اكتفى بذكر الأزواج في جانب الأنعام عن ذكر الذرء إذ لا منفعة للناس في تزاوج الأنعام سوى ما يحصل من نسلها. وإذ كان الضمير ضمير جماعة العقلاء وكان ضمير خطاب في حين أن الأنعام ليست عقلاء ولا مخاطبة، فقد جاء في ذلك الضمير تغليب العقلاء إذ لم يذكر ضمير صالح للعقلاء وغيرهم كأن يقال: يذراك بكسر الكاف على تأويل إرادة خطاب الجماعة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨/٢٥

وجاء فيه تغليب الخطاب على الغيبة، فقد جاء فيه تغليبان. وهو تغليب دقيق إذ اجتمع في لفظ واحد نوعان من التغليب كما أشار إليه الكشاف والسكاكي في مبحث التغليب من المفتاح.

وضمير ﴿فيه﴾ عائد إلى الجعل المفهوم من قوله ﴿جعل لكم﴾ أي في الجعل المذكور على حد قوله ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ [المائدة: ٨].

وجيء بالمضارع في ﴿يذرؤكم﴾ لإفادة التجدد والتجدد أنسب **بالامتنان**.

وحرف "في" مستعار لمعنى السببية تشبيها للسبب بالظرف في احتوائه على مسبباته." (١)

"وجملة ﴿إنه بكل شيء عليم﴾ استئناف بياني هو كالعلة لقوله ﴿لمن يشاء﴾ أي أن مشيئته جارية على حسب علمه بما يناسب أحوال المرزوقين من بسط أو قدر.

وبيان هذا في قوله الآتي ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ [الشورى: ٢٧] ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ [الشورى: ١٣] انتقال من **الامتنان** بالنعم الجثمانية إلى **الامتنان** بالنعمة الروحية بطريق الإقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للتنويه بدين الإسلام وللتعريض بالكفار الذين أعرضوا عنه. فالجملة ابتدائية.

ومعنى ﴿شرع﴾ أوضح وبين لكم مسالك ما كلفكم به. وأصل ﴿شرع﴾ جعل طريقا واسعة، وكثر إطلاقه على سن القوانين والأديان فسمي الدين شريعة. فشرع هنا مستعار للتبيين كما في قوله ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ [الشورى: ٢١]، وتقدم في قوله تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ في سورة العقود.[٤٨]

والتعريف في ﴿الدين﴾ تعريف الجنس، وهو يعم الأديان الإلهية السابقة. و ﴿من﴾ للتبعيض. والتوصية: الأمر بشيء مع تحريض على إيقاعه والعمل به. ومعنى كونه شرع للمسلمين من الدين ما وصى به نوحا أن الإسلام دين مثل ما أمر به نوحا وحضه عليه. فقوله ﴿ما وصى به نوحا﴾ مقدر فيه مضاف، أي مثل ما وصى به نوحا، أو هو بتقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ مبالغة في شدة المماثلة حتى صار المثل كأنه عين مثله. وهذا تقدير شائع كقول ورقة بن نوفل هذا هو الناموس الذي أنزل على عيسى.

---

(١) التحرير والتنوير، ١١٤/٢٥

والمراد: المماثلة في أصول الدين مما يجب لله تعالى من الصفات، وفي أصول الشريعة من كليات التشريع، وأعظمها توحيد الله، ثم ما بعده من الكليات الخمس." (١)

"وذكر صفتي ﴿الولي الحميد﴾ دون غيرهما لمناسبتهما للإغاثة لأن الولي يحسن إلى مواليه والحميد يعطي ما يحمد عليه. ووصف حميد فعيل بمعنى مفعول. وذكر المهدوي تفسير ﴿وينشر رحمته﴾ بطلوع الشمس بعد المطر.

[٢٩] ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾

لما كان إنزال الغيث جامعا بين كونه نعمة وكونه آية دالة على بديع صنع الله تعالى وعظيم قدرته المقتضية انفراده بالإلهية، انتقل من ذكره إلى ذكر آيات دالة على انفراد الله تعالى بالإلهية وهي آية خلق العوالم العظيمة وما فيها مما هو مشاهد للناس دون قصد **الامتنان**. وهذا الانتقال استطراد واعتراض بين الأغراض التي سياق الآيات فيها.

والآيات: جمع آية، وهي العلامة والدليل على سيء. والسياق دال على أن المراد آيات الإلهية. والسماوات: العوالم العليا غير المشاهدة لنا والكواكب وما تجاوز الأرض من الجو. والأرض: الكرة التي عليها الحيوان والنبات. والبث: وضع الأشياء في أمكنة كثيرة.

والدابة: ما يدب على الأرض، أي يمشي فيشمل الطير لأن الطير يمشي إذا نزل وهو مما أريد في قوله هنا ﴿فيهما﴾ أي في الأرض وفي السماء، أي بعض ما يسمى بالسماء وهو الجو وهو ما يلوح للناظر مثل قبة زرقاء على الأرض في النهار، قال تعالى ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء﴾ [النحل: ٧٩] فإطلاق الدابة على الطير باعتبار أن الطير يدب على الأرض كثيرا لالتقاط الحب وغير ذلك وأما الموجودات التي في السماوات العلى من الملائكة والأرواح فلا يطلق عليها اسم دابة. ويجوز أن تكون في بعض السماوات موجودات تدب فيها فإن الكواكب من السماوات. والعلماء يترددون في إثبات سكان في الكواكب، وجوز بعض العلماء المتأخرين أن في كوكب المريخ سكانا، وقال تعالى ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل: ٨]، على أنه قد يكون المراد من الظرفية في قوله ﴿فيهما﴾ ظرفية المجموع لا الجميع، أي ما بث في مجموع الأرض والسماء من دابة، فالدابة إنما هي على الأرض، ولما ذكرت الأرض والسماء مقترنتين

(١) التحرير والتنوير، ٢٥/١١٨

وجاء ذكر الدواب جعلت الدواب مظروفة فيهما لأن الأرض محوطة بالسماوات ومتخيلة منها كالمظروف في ظرفه، والمظروف في ظرف مظروف في ظرف مظروفه كما قال تعالى." (١)

"وذكرت صلتان فيهما دلالة عل الانفراد بالقدرة العظيمة. وعلى النعمة عليهم، ولذلك أقحم لفظ ﴿لكم﴾ في الموضعين ولم يقل: الذي جعل الأرض مهادا وجعل فيها سبلا كما في قوله ﴿ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا﴾ [النبأ: ٦،٧] لأن ذلك مقام الاستدلال على منكري البعث، فسيق لهم الاستدلال بإنشاء المخلوقات العظيمة التي لا تعد إعادة خلق الإنسان بالنسبة إليها شيئا عجيبا.

ولم يكرر اسم الموصول في قوله ﴿وجعل لكم فيها سبلا﴾ لأن الصلتين تجتمعان في الجامع الخيالي إذ كلتاهما من أحوال الأرض فجعلهما كجعل واحد. وضمائر الخطاب الأحد عشر الواقعة في الآيات الأربع من قوله ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدا﴾ إلى قوله ﴿مقرنين﴾ ليست من قبيل الالتفات بل هي جارية على مقتضى الظاهر.

والمهاد: اسم لشيء يمهد، أي يوطأ ويسهل لما يحل فيه، وتقدم في قوله ﴿هم من جهنم مهاد﴾ في سورة الأعراف.[٤١] ووجه الامتنان أنه جعل ظاهر الأرض منبسطا وذلك الانبساط لنفع البشر الساكنين عليها. وهذا لا ينافي أن جسم الأرض كروي كما هو ظاهر لأن كرويتها ليست منفعة للناس. وقرأ عاصم ﴿مهدا﴾ بدون ألف بعد الهاء وهو مراد به المهاد.

والسبل: جمع سبيل، وهو الطريق، ويطلق السبيل على وسيلة الشيء كقوله ﴿يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ [الشورى: من الآية٤٤]. ويصح إرادة المعنيين هنا لأن في الأرض طرقا يمكن سلوكها، وهي السهول وسفوح الجبال وشعابها، أي لم يجعل الأرض كلها جبالا فيعسر على الماشين سلوكها، بل جعل فيها سبلا سهلة وجعل جبالا لحكمة أخرى ولأن الأرض صالحة لاتخاذ طرق مطروقة سابلة.

ومعنى جعل الله تلك الطرق بهذا المعنى: أنه جعل للناس معرفة السير في الأرض واتباع بعضهم آثار بعض حتى تتعبد الطرق لهم وتتسهل ويعلم السائر، أي تلك السبل يوصله إلى مقصده.

وفي تيسير وسائل السير في الأرض لطف عظيم لأن به تيسير التجمع والتعارف واجتلاب المنافع والاستعانة على دفع الغوائل والأضرار والسير في الأرض قريبا أو بعيدا من أكبر مظاهر المدنية الإنسانية،

(١) التحرير والتنوير، ١٥٨/٢٥

ولأن الله جعل في الأرض معايش الناس من النبات والثمر وورق الشجر والكمأة والفقع وهي وسائل العيش فهي سبل مجازية. وتقدم نظير." (١)

"هذه الآية في سورة طه.

والاهتداء: مطاوع هداه فاهتدى. والهداية حقيقتها: الدلالة على المكان المقصود، ومنه سمي الدال على الطرائق هاديا، وتطلق على تعريف الحقائق المطلوبة ومنه ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ [المائدة: ٤٤]. والمقصود هنا المعنى الثاني، أي رجاء حصول علمكم بوحدانية الله وبما يجب له، وتقدم في ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة:٦].

ومعنى الرجاء المستفاد من "لعل" استعارة تمثيلية تبعية، مثل حال من كانت وسائل الشيء حاضرة لديه بحال من يرجى لحصول المتوسل إليه.

[١١] ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون﴾

انتقل من الاستدلال **والامتنان** بخلق الأرض إلى الاستدلال **والامتنان** بخلق وسائل العيش فيها، وهو ماء المطر الذي به تنبت الأرض ما يصلح لاقتيات الناس.

وأعيد اسم الموصول للاهتمام بهذه الصلة اهتماما يجعلها مستقلة فلا يخطر حضورها بالبال عند حظور الصلتين اللتين قبلها فلا جامع بينها وبينهما في الجامع الخيالي. وتقدم الكلام على نظيره في سورة الرعد وغيرها فاعيد اسم الموصول لأن مصداقه هو فاعل جميعها.

والإنشاء: الإحياء كما في قوله ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ [عبس:٢٢]

وعن ابن عباس أنه أنكر على من قرأ ﴿كيف ننشزها﴾ [البقرة: ٢٥٩] بفتح النون وضم الشين وتلا ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ [عبس:٢٢] فأصل الهمزة فيه للتعدية وفعله المجرد نشر بمعنى حيي، يقال: نشر الميت، برفع الميت قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا

...

يا عجبا للميت الناشر

وأصل النشر بسط ما كان مطويا وتفرعت من ذلك معاني الإعادة والانتشار.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١٩/٢٥

والنشر هنا مجاز لأن الإحياء للأرض مجاز، وزاده حسنا هنا أن يكون مقدمة لقوله ﴿كذلك تخرجون﴾

وضمير ﴿فأنشرنا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم. والميت ضد الحي.

ووصف البلدة به مجاز شائع قال تعالى ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾ [يس: ٣٣].." (١)

"وإنما وصفت البلدة وهي مؤنث بالميت وهو مذكر لكونه على زنة الوصف الذي أصله مصدر نحو: عدل وزور فحسن تجريده من علامة التأنيث على أن الموصوف مجازي التأنيث.

وجملة ﴿كذلك تخرجون﴾ معترضة بين المتعاطفين وهو استطراد بالاستدلال على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من إثبات البعث، بمناسبة الاستدلال على تفرد الله بالإلهية بدلائل في بعضها دلالة على إمكان البعث وإبطال إحالتهم إياه.

والإشارة بذلك إلى الانتشار المأخوذ من ﴿فأنشرنا﴾ ، أي مثل ذلك الانتشار تخرجون من الأرض بعد فنائكم، ووجه الشبه هو إحداث الحي بعد موته.

والمقصود من التشبيه إظهار إمكان المشبه كقول أبي الطيب:

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال

وقرأ الجمهور ﴿تخرجون﴾ بالبناء للنائب. وقرأه حمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر ﴿تخرجون﴾ بالبناء للفاعل والمعنى واحد.

﴿والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾

هذا الانتقال من الاستدلال **والامتنان** بخلق وسائل الحياة إلى الاستدلال بخلق وسائل الاكتساب لصلاح المعاش، وذكر منها وسائل الإنتاج وأتبعها بوسائل الاكتساب بالأسفار للتجارة.

وإعادة اسم الموصول لما تقدم في نظيره آنفا.

والأزواج: جمع زوج، وهو كل ما يصير به الواحد ثانيا، فيطلق على كل منهما أنه زوج للآخر مثل الشفع. وغلب الزوج على الذكر وأنثاه من الحيوان، ومنه ﴿ثمانية أزواج﴾ في سورة الأنعام[١٤٣]، وتوسع فيه فأطلق الزوج على الصنف ومنه قوله ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ [الرعد: ٣] وكلا الإطلاقين يصح أن يراد هنا، وفي أزواج الأنعام منافع بألبانها وأصوافها وأشعارها ولحومها ونتاجها.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢٠/٢٥

ولما كان المتبادر من الأزواج بادئ النظر أزواج الأنعام وكان من أهمها عندهم الرواحل عطف عليها ما هو منها وسائل للتنقل برا وأدمج معها وسائل السفر بحرا. فقال ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ فالمراد ب ﴿ما تركبون﴾ بالنسبة إلى الأنعام." (١)

"صور جميلة إكمالا للنعمة. و﴿الأنفس﴾ فاعل ﴿تلذ﴾ وحذف المفعول لظهوره من المقام.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ﴿ما تشتهيه﴾ بهاء ضمير عائد إلى ﴿ما﴾ الموصولة وكذلك هو مرسوم في مصحف المدينة ومصحف الشام، وقرأه الباقون ﴿ما تشتهي﴾ بحذف هاء الضمير، وكذلك رسم في مصحف مكة ومصحف البصرة ومصحف الكوفة. والمروي عن عاصم قارئ الكوفة روايتان: إحداهما أخذ بها حفص والأخرى أخذ بها أبو بكر. وحذف العائد المتصل المنصوب بفعل أو وصف من صلة الموصول كثير في الكلام.

وقوله ﴿وأنتم فيها خالدون﴾ بشارة لهم بعدم انقطاع الحبرة وسعة الرزق ونيل الشهوات، وجيء فيه بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات تأكيدا لحقيقة الخلود لدفع توهم أن يراد به طول المدة فحسب.

وتقديم المجرور للاهتمام، وعطف على بعض ما يقال لهم مقول آخر قصد منه التنويه بالجنة وبالمؤمنين إذ أعطوها بسبب أعمالهم الصالحة، فأشير إلى الجنة باسم إشارة البعيد تعظيما لشأنها وإلا فإنها حاضرة نصب أعينهم.

وجملة ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها﴾ الآية تذييل للقول. واسم الإشارة مبتدأ و ﴿الجنة﴾ خبره، أي تلك التي ترونها هي الجنة التي سمعتم بها ووعدتم بدخولها.

وجملة ﴿التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ صفة للجنة.

واستعير ﴿أورثتموها﴾ لمعنى: أعطيتموها دون غيركم، بتشبيه إعطاء الله المؤمنين دون غيرهم نعيم الجنة بإعطاء الحاكم مال الميت لوارثه دون غيره من القرابة لأنه أولى به وآثر بنيله.

والباء في ﴿بما كنتم تعملون﴾ للسببية وهي سببية بجعل الله ووعده، ودل قوله ﴿كنتم تعملون﴾ على أن عملهم الذي استحقوا به الجنة أمر كائن متقرر، وأن عملهم ذلك متكرر متجدد، أي غير منقطع إلى وفاتهم.

وجملة ﴿لكم فيها فاكهة﴾ صفة ثانية للجنة. والفاكهة: الثمار رطبها ويابسها، وهي من أحسن ما يستلذ من المآكل، وطعومها معروفة لكل سامع.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢١/٢٥

ووجه تكرير الامتنان بنعيم المأكل والمشرب في الجنة: أن ذلك من النعيم الذي لا تختلف الطباع البشرية في استلذاذه، ولذلك قال ﴿منها تأكلون﴾ كقوله تعالى ﴿كلوا من." (١)

"[١٣] ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾

﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه﴾

هذا تعميم بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أولا ثم التعميم ثانيا. و ﴿ما في السماوات وما في الأرض﴾ عام مخصوص بما تحصل للناس فائدة من وجوده: كالشمس للضياء، والمطر للشراب، أو من بعض أحواله: كالكواكب للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، والشجر للاستظلال، والأنعام للركوب والحرث ونحو ذلك. وأما ما في السماوات والأرض مما لا يفيد الناس فغير مراد مثل الملائكة في السماء والأهوية المنحبسة في باطن الأرض التي يأتي منها الزلزال.

وانتصب ﴿جميعا﴾ على الحال من ﴿ ما في السماوات وما في الأرض﴾ وتنوينه تنوين عوض عن المضاف إليه، أي جميع ذلك مثل تنوين "كل" في قوله ﴿كلا هدينا﴾ [الأنعام: ٨٤].

و"من" ابتدائية، أي جميع ذلك من عند الله ليس لغيره فيه أدنى شركة. وموقع قوله ﴿منه﴾ موقع الحال من المضاف إليه المحذوف المعوض عنه التنوين أو من ضمير ﴿جميعا﴾ لأنه في معنى مجموعا.

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾

أي في ذلك المذكور من تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض دلائل على تفرد الله بالإلهية فهي وإن كانت مننا يحق أن يشكرها الناس فأنها أيضا دلائل إذا تفكر فيها المنعم عليهم اهتدوا بها، فحصلت لهم منها ملائمات جسمانية ومعارف نفسانية، وبهذا الاعتبار كانت في عداد الآيات المذكورة قبلها من قوله ﴿إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين﴾ [الجاثية:٣] وإنما أخرت عنها لأنها ذكرت في معرض الامتنان بأنها نعم، ثم عقبت بالتنبيه على أنها أيضا دلائل على تفرد الله بالخلق.

وأوثر التفكر بالذكر في آخر صفات المستدلين بالآيات، لأن الفكر هو منبع الإيمان والإيقان والعلم المتقدمة في قوله ﴿لآيات للمؤمنين﴾ [الجاثية:٣]﴿آيات لقوم يوقنون﴾ [الجاثية: ٤] ﴿آيات لقوم يعقلون﴾ [الجاثية: ٥]." (٢)

"منه إذ السماء قريبة فوقهم لا يكلفهم النظر فيها إلا رفع رؤوسهم.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٥/٢٩٠

(٢) التحرير والتنوير، ٢٥/٣٥٧

و ﴿كيف﴾ اسم جامد مبني معناه: حالة، وأكثر ما يرد في الكلام للسؤال عن الحالة فيكون خبرا قبل ما لا يستغني عنه مثل: كيف أنت؟ وحالا قبل ما يستغنى عنه نحو: كيف جاء؟ ومفعولا مطلقا نحو ﴿كيف فعل ربك﴾ [الفجر: من الآية٦]، ومفعولا به نحو قوله تعالى ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ [الاسراء: من الآية٢١]. وهي هنا بدل من ﴿فوقهم﴾ فتكون حالا في المعنى. والتقدير: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم هيئة بنينا إياها، وتكون جملة ﴿بنيناها﴾ مبينة ل﴿كيف﴾.

وأطلق البناء على خلق العلويات بجامع الارتفاع. والمراد ب ﴿السماء﴾ هنا ما تراه العين من كرة الهواء التي تبدو كالقبة وتسمى الجو.

والتزيين جعل الشيء زينا، أي حسنا أي تحسين منظرها للرائي بما يبدو فيها من الشمس نهارا والقمر والنجوم ليلا. واقتصر على آية تزيين السماء دون تفصيل ما في الكواكب المزينة بها من الآيات لأن التزيين يشترك في إدراكه جميع الذين يشاهدونه وللجمع بين الاستدلال **والامتنان** بنعمة التمكين من مشاهدة المرائي الحسنة كما قال تعالى ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ [النحل:٦] في شأن خلق الأنعام في سورة النحل.

ثم يتفاوت الناس في إدراك ما في خلق الكواكب والشمس والقمر ونظامها من دلائل على مقدار تفاوت علومهم وعقولهم.

والآية صالحة لإفهام جميع الطبقات.

وجملة ﴿وما لها من فروج﴾ عطف على جملتي ﴿كيف بنيناها وزيناها﴾ فهي حال ثالثة في المعنى.

والفروج: جمع فرج، وهو الخرق، أي يشاهدونها كأنها كرة متصلة الأجزاء ليس بين أجزائها تفاوت يبدو كالخرق ولا تباعد يفصل بعضها عن بعض فيكون خرقا في قبتها.

وهذا من عجيب الصنع إذ يكون جسم عظيم كجسم كرة الهواء الجوي مصنوعا كالمفروغ في قالب. وهذا مشاهد لجميع طبقات الناس على تفاوت مداركهم ثم هم يتفاوتون في إدراك ما في هذا الصنع من عجائب التئام كرة الجو المحيط بالأرض.

ولو كان في أديم ما يسمى بالسماء تخالف من أجزائه لظهرت فيه فروج وانخفاض وارتفاع. ونظير هذه الآية قوله في سورة الملك ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقا﴾ إلى." (١)

"قوله ﴿هل ترى من فطور﴾ [الملك: ٣].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٨/٢٦

[٧] ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾

عطف على جملة ﴿أفلم ينظروا﴾ [ق: ٦] عطف الخبر على الاستفهام الإنكاري وهو في معنى الإخبار. والتقدير: ومددنا الأرض.

ولما كانت أحوال الأرض نصب أعين الناس وهي أقرب إليهم من أحوال السماء لأنها تلوح للأنظار دون تكلف لم يؤت في لفت أنظارهم إلى دلالتها باستفهام إنكاري تنزيلا لهم منزلة من نظر في أحوال الأرض فلم يكونوا بحاجة إلى إعادة الأخبار بأحوال الأرض تذكيرا لهم.

وانتصب ﴿الأرض﴾ ب ﴿مددناها﴾ على طريقة الاشتغال.

والمد: البسط، أي بسطنا الأرض فلم تكن مجموع نتوءات إذ لو كانت كذلك لكان المشي عليها مرهقا.

والمراد: بسط سطح الأرض وليس المراد وصف حجم الأرض لأن ذلك لا تدركه المشاهدة ولم ينظر فيه المخاطبون نظر التأمل فيستدل عليهم بما لا يعلمونه فلا يعتبر في سياق الاستدلال على الىقدرة على خلق الأمور العظيمة، ولا في سياق **الامتنان** بما في ذلك الدليل من نعمة فلا علاقة لهذه الآية بقضية كروية الأرض.

والإبقاء: تمثيل لتكوين أجسام بارزة على الأرض متباعد بعضها عن بعض لأن حقيقة الإلقاء: رمي شيء من اليد إلى الأرض، وهذا استدلال بخلقة الجبال كقوله ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ [الغاشية:١٩]. و﴿فيها﴾ ظرف مستقر وصف ل ﴿رواسي﴾ قدم على موصوفه فصار حالا، ويجوز أن يكون ظرفا لغوا متعلقا ب ﴿ألقينا﴾ .

ورواسي: جمع راس على غير قياس مثل: فوارس وعواذل. والرسو: الثبات والقرار.

وفائدة هذا الوصف زيادة التنبيه إلى بديع خلق الله إذ جعل الجبال متداخلة مع الأرض ولم تكن موضوعة عليها وضعا كما توضع الخيمة لأنها لو كانت كذلك لتزلزلت وسقطت وأهلكت ما حواليها. وقد قال في سورة الأنبياء [٣١] ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾ أي دفع أن تميد هي، أي الجبال بكم، أي ملصقة بكم في ميدها، وهنالك وجه آخر مضى في سورة الأنبياء.." (١)

"والزوج: النوع من الحيوان والثمار والنبات، وتقدم في قوله تعالى ﴿فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ في سورة طه. [٥٣] والمعنى: وأنبتنا في الأرض أصناف النبات وأنواعه.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٩/٢٦

وقوله ﴿من كل زوج﴾ يظهر أن حرف ﴿من﴾ فيه مزيد للتوكيد. وزيادة ﴿من﴾ في غير النفي نادرة، أي أقل من زيادتها في النفي، ولكن زيادتها في الإثبات واردة في الكلام الفصيح، فأجاز القياس عليه نحاة الكوفة والأخفش وأبو علي الفارسي وابن جني، ومنه قوله تعالى ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ [النور: ٤٣] إن المعنى: ينزل من السماء جبالا فيها برد، وقد تقدم ذلك في قوله تعالى ﴿ومن النخل من طلعها﴾ في سورة الأنعام.[٩٩]

فالمقصود من التوكيد بحرف ﴿من﴾ تنزيلهم منزلة من ينكر أن الله أنبت ما على الأرض من أنواع حين ادعوا استحالة إخراج الناس من الأرض، ولذلك جيء بالتوكيد في هذه الآية لأن الكلام فيها على المشركين ولم يؤت بالتوكيد في آية سورة طه. وليست ﴿من﴾ هنا للتبعيض إذ ليس المعنى عليه.

فكلمة ﴿كل﴾ مستعملة في معنى الكثرة كما تقدم في قوله تعالى ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ في سورة الأنعام،[٢٥] وقوله فيها ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ [الأنعام: ٧٠]، وهذا كقوله تعالى ﴿فأنبتنا به فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ في سورة طه.[٥٣]

وفائدة التكثير هنا التعريض بهم لقلة تدبيرهم إذ عموا عن دلائل كثيرة واضحة بين أيديهم.

والبهيج يجوز أن يكون صفة مشبهة، يقال: بهج بضم الهاء، إذا حسن في أعين الناظرين، فالبهيج بمعنى الفاعل كما دل عليه قوله تعالى ﴿فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾ [النمل: ٦٠]

ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول، أي منبهج به على الحذف والإيصال، أي يسر به الناظر، يقال: بهجه من باب منع، إذا سره، ومنه الابتهاج المسرة.

وهذا الوصف يفيد ذكره تقوية الاستدلال على دقة صنع الله تعالى. وإدماج الامتنان." (١)

"والحبك: بضمتين جمع حباك ككتاب وكتب ومثال ومثل، أو جمع حبيكة مثل طريقة وطرق، وهي مشتقة من الحبك بفتح فسكون وهو إجادة النسج وإتقان الصنع. فيجوز أن يكون المراد بحبك السماء نجومها لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب المحبوك المتقن. وروي عن الحسن وسعيد بن جبير وقيل الحبك: طرائق المجرة التي تبدو ليلا في قبة الجو.

وقيل: طرائق السحاب. وفسر الحبك بإتقان الخلق. روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة. وهذا يقتضي أنهم جعلوا الحبك مصدرا أو اسم مصدر، ولعله من النادر: وإجراء هذا الوصف على السماء إدماج أدمج به الاستدلال على قدرة الله تعالى مع الامتنان بحسن المرأى.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦/٢٤٠

واعلم أن رواية رويت عن الحسن البصري أنه قرأ ﴿الحبك﴾ بكسر الحاء وضم الباء وهي غير جارية على لغة من لغات العرب. وجعل بعض أئمة اللغة الحبك شاذا فالظن أن راويها أخطأ لأن وزن فعل بكسر الفاء وضم العين وزن مهمل في لغة العرب كلهم لشدة ثقل الانتقال من الكسر إلى الضم مما سلمت منه اللغة العربية. ووجهت هذه القراءة بأنها من تداخل اللغات وهو توجيه ضعيف لأن إعمال تداخل اللغتين إنما يقبل إذا لم يفض الى زنة مهجورة لأنها إذا هجرت بالأصالة فهجرها في التداخل أجدر ووجهها أبو حيان باتباع حركة الحاء لحركة تاء ﴿ذات﴾ وهو أضعف من توجيه تداخل اللغتين فلا جدوى في التكلف.

والقول المختلف: المتناقض الذي يخالف بعضه بعضا فيقتضي بعضه إبطال بعض الذي هم فيه هو جميع أقوالهم والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك أقوالهم في دين الإشراك فإنها مختلفة مضطربة متناقضة فقالوا القرآن: سحر وشعر، وقالوا ﴿أساطير الأولين اكتتبها﴾ [الفرقان: ٥]، وقالوا ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾ [ص: ٧] وقالوا ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ [لأنفال: ٣١] وقالوا: مرة ﴿وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾ [فصلت: ٥] وغير ذلك، وقالوا: وحي الشياطين.

وقالوا في الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالا: شاعر، ساحر، مجنون، كاهن، يعلمه بشر، بعد أن كانوا يلقبونه الأمين. وقالوا في أصول شركهم بتعدد الآلهة مع اعترافهم بأن الله خالق كل شيء وقالوا ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله﴾ [الزمر: ٣] ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ [لأعراف: ٢٨].." (١)

"وأكد الخبر بحرف "إن" لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر سعة قدرة الله تعالى إذ أحالوا إعادة المخلوقات بعد بلاها.

[٤٨] ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ .

القول في تقديم ﴿الأرض﴾ على عامله وفي مجيء طريقة الاشتغال كالقول في ﴿والسماء بنيناها﴾ [الذريات: ٤٧]. وكذلك القول في الاستدلال بذلك على إمكان البعث.

من دقائق فخر الدين: أن ذكر الأمم الأربع للإشارة إلى أن الله عذبهم بما هو من أسباب وجودهم، وهو التراب والماء والهواء والنار، وهي عناصر الوجود، فأهلك قوم لوط بالحجارة وهي من طين، وأهلك قوم فرعون بالماء، وأهلك عادا بالريح وهو هواء، وأهلك ثمودا بالنار.

واستغنى هنا عن إعادة ﴿بأيد﴾ [الذريات: ٤٧] لدلالة ما قبله عليه.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠/٢٧

والفرش: بسط الثوب ونحوه للجلوس والاضطجاع، وفي ﴿فرشناها﴾ استعارة تبعية، شبه تكوين الله الأرض على حالة البسط بفرش البساط ونحوه.

وفي هذا الفرش دلالة على قدرة الله وحكمته إذ جعل الأرض مبسوطة لما أراد أن يجعل على سطحها أنواع الحيوان يمشي عليها ويتوسدها ويضطجع عليها ولو لم تكن كذلك لكانت محدودبة تؤلم الماشي بلة المتوسد والمضطجع.

ولما كان في فرشها إرادة جعلها مهدا لمن عليها من الإنسان اتبع ﴿فرشناها﴾ بتفريع ثناء الله على نفسه على إجادة تمهيدها تذكيرا بعظمته ونعمته، أي فنعم الماهدون نحن.

وصيغة الجمع في قوله: ﴿الماهدون﴾ للتعظيم مثل ضمير الجمع في [١٠٠٠] وروعي في وصف خلق الأرض ما يبدو للناس من سطحها لأنه الذي يهم الناس في الاستدلال على قدرة الله وفي **الامتنان** عليه بما في لطفهم والرفق بهم. دون تعرض إلى تكويرها إذ لا يبلغون إلى إدراكه، كما روعي في ذكر السماء ما يبدو من قبة أجواءها دون بحث عن ترامي أطرافها وتعدد عوالمها لمثل ذلك. ولذلك اتبع الاعتراض بالتذييل بقوله : ﴿فنعم الماهدون﴾ المراد منه تلقين الناس الثناء على الله فيما صنع رهم فيها من منة

–

١ كلمة غير واضحة في المطبوعة.." (١)

"يتساءل عن حال أضدادهم وهم الفريق الذين صدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم فما جاء به القرآن وخاصة إذ كانوا السامعون المؤمنين وعادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير وعكسه، والجملة معترضة بين ما قبلها وجملة ﴿أم يقولون شاعر﴾ [الطور: ٣٠].

وتأكيد الخبر ب "إن" للاهتمام به. وتنكير ﴿إن المتقين في جنات﴾ لتعظيم، أي في أية جنات وأي نعيم.

وجمع ﴿جنات﴾ تقدم في سورة الذاريات.

والفاكه: وصف من فكه كفرح، إذا طابت نفسه وسر.

وقرأ الجمهور ﴿فاكهين﴾ بصيغة اسم الفاعل، وقرأه أبو جعفر ﴿فكهين﴾ بدون ألف.

والباء في ﴿بما آتاهم ربهم﴾ للسببية والمعنى:أن ربهم أرضاهم بما يحبون.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧/٢٧

واستحضار الجلالة بوصف ﴿ربهم﴾ للإشارة إلى عظيم ما آتاهم إذ العطاء يناسب حال المعطي، وفي إضافة ﴿رب﴾ إلى ضميرهم تقريب لهم وتعظيم وجملة ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾ [الطور:١٨] في موضع الحال، والواو حالية، أو عاطفة علي ﴿فاكهين﴾ الذي هو حال، والتقدير: وقد وقاهم ربهم عذاب الجحيم، وهو حال من المتقين. والمقصود من ذكر هذه الحالة: إ ظهار التباين بين حال المتقين وحال المكذبين زيادة في **الامتنان** فإن النعمة تزداد حسن وقع في النفس عند ملاحظة ضدها.

وفيه أيضا أن وقايتهم عذاب الجحيم عدل، لأنهم لم يقترفوا ما يوجب العقاب. وأما ما أعطوه من النعيم فذلك فضل من الله وإكرام منه لهم.

وفي قوله ﴿ربهم﴾ ما تقدم قبيله.

وجملة ﴿كلوا واشربوا﴾ إلى آخرها مقول قول محذوف في موضع الحال أيضا،تقديره: يقال: لهم، أو مقولا لهم. وهذا القول مقابل ما يقال للمكذبين ﴿اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ [الطور١٦:].

وحذف مفعول ﴿كلوا واشربوا﴾ لإفادة النعيم، أي كلوا ما يؤكل واشربوا كل ما يشرب، وهو عموم عرفي، أي مما تشتهون.

و ﴿هنيئا﴾ اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول وقع وصفا لمصدرين لفعلي ﴿كلوا." (١)

"والواسع: الكثير المغفرة، استعيرت السعة لكثرة الشمول لأن المكان الواسع يمكن أن يحتوي على العدد الكثير ممن يحل فيه قال تعالى ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما﴾ وتقدم في سورة غافر [٧].

﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتمجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ .

الخطاب للمؤمنين، ووقوعه عقب قوله ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ ينبئ عن اتصال معناه بمعنى ذلك فهو غير موجه لليهود كما في أسباب النزول للواحدي وغيره. وأصله لعبد الله بن لهيعة عن ثابت بن حارث الأنصاري. قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير يقولون: هو صديق، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد" ، فأنزل الله هذه الآية. وعبد الله بن لهيعة ضعفه ابن معين وتركه وكيع ويحيى القطان وابن مهدي. وقال الذهبي: العمل على تضعيفه، قلت: لعل أحد رواة هذا الحديث لم يضبط

---

(١) التحرير و التنوير، ٦٠/٢٧

فقال: فانزل الله هذه الآية، وإنما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذا بعموم قوله ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض﴾ الخ، حجة عليهم، وإلا فإن السورة مكية والخوض مع اليهود إنما كان بالمدينة.

وقال ابن عطية: حكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخروا بأعمالهم. وكأن الباعث على تطلب سبب لنزولها قصد إبداء وجه اتصال قوله: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ بما قبله وما بعده وأنه استيفاء لمعنى سعة المغفرة ببيان سعة الرحمة واللطف بعباده إذ سلك بهم مسلك اليسر والتخفيف فعفا عما لو أخذهم به لأحرجهم فقوله ﴿هو أعلم بكم﴾ نظير قوله ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا﴾ [لأنفال: ٦٦] الآية ثم يجيء الكلام في التفريع بقوله ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ .

فينبغي أن تحل جملة ﴿هو أعلم بكم إلى آخرها استئنافا بيانيا﴾ لجملة ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ لما تضمنته جملة ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ من **الامتنان**، فكأن السامعين لما يسمعوا ذلك **الامتنان** شكروا الله وهجس في نفوسهم خاطر البحث عن سبب هذه الرحمة بهم فأجيبوا بأن ربهم أعلم بحالهم من أنفسهم فهو يدبر لهم ما لا يخطر ببالهم، ونظيره ما في الحديث القدسي قال الله تعالى: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر خيرا من بله ما اطلعتم عليه" .." (١)

"ومناسبة الانتقال إلى هذه الجملة أن فيها كيفية ابتداء الحياة.

والمراد بالزوجين: الذكر والأنثى من خصوص الإنسان لأن سياق الكلام للاعتبار ببديع صنع الله وذلك أشد اتفاقا في خلقة الإنسان، ولأن اعتبار الناس بما في أحوال أنفسهم أقرب وأمكن ولأن بعض الأزواج من الذكور والإناث لا يتخلق من نطفة بل من بيض وغيره.

ولعل وجه ذكر الزوجين والبدل منه ﴿الذكر والأنثى﴾ دون أن يقول: وأنه خلقه، أي الإنسان من نطفة، كما قال ﴿فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق﴾ [الطارق:٥،٦] الآية أمران:

أحدهما : إدماج **الامتنان** في أثناء ذكر الانفراد بالخلق بنعمة أن خلق لكل إنسان زوجة كما قال تعالى ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها﴾ [الروم: ٢١] الآية.

الثاني: الإشارة إلى أن لكلا الزوجين حظا من النطفة التي منها يخلق الإنسان فكانت لذكر نطفة وللمرأة نطفة كما ورد في الحديث الصحيح "أنه إذا سبق ماء الرجل أشبه المولود أباه وإن سبق ماء المرأة أشبه المولود أمه" ، وبهذا يظهر أن لكل من الذكر والأنثى نطفة وإن كان المتعارف عند الناس قبل القرآن

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢٦/٢٧

أن النطفة هي ماء الرجل إلا أن القرآن يخاطب الناس بما يفهمون ويشير إلى ما لا يعلمون إلى أن يفهمه المتدبرون.

وحسبك ما وقع بيانه بالحديث المذكور آنفا.

والنطفة: فعلة مشتقة من: نطف الماء، إذا قطر، فالنطفة ماء قليل وسمي ما منه النسل نطفة بمعنى منطوف، أي مصبوب فماء الرجل مصبوب، وماء المرأة أيضا مصبوب فإن ماء المرأة يخرج مع بويضة دقيقة تتسرب مع دم الحيض وتستقر في كيس دقيق فإذا باشر الذكر الأنثى انحدرت تلك البيضة من الأنثى واختلطت مع ماء الكر في قرارة الرحم.

و ﴿من﴾ في قوله: ﴿من نطفة﴾ ابتدائية فإن خلق الإنسان آت وناشئ بواسطة النطفة، فإذا تكونت النطفة وأمنيت ابتدأ خلق الإنسان.

و ﴿تمنى﴾ تدفق وفسروه بمعنى تقذف أيضا.

وقيل أن ﴿تمنى﴾ بمعنى تراق، وجعلوا تسمية الوادي الذي بقرب مكة منى لأنه تراق به دماء البدن من الهدايا. ولم يذكر أهل اللغة في معاني مني أو أمنى أن منها الإراقة. وهذا من مشكلات اللغة.." (١)

"ثم إن ﴿تمنى﴾ يحتمل أنه مضارع أمنى بهمزة التعدية وسقطت في المضارع فوزنه تأفعل، ويحتمل أنه مضارع منى مثل رمى فوزنه: تفعل.

وبني فعل ﴿تمنى﴾ إلى المجهول لأن النطفة تدفعها قوة طبيعية في الجسم خفية فكان فاعل الإمناء مجهولا لعدم ظهوره.

وعن الأخفش ﴿تمنى﴾ تقدر، يقال: منى الماني، أي قدر المقدر. والمعنى: إذا قدر لها، أي قدر لها أن تكون مخلقة كقوله تعالى: ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ [الحج: ٥].

والتقييد ب ﴿إذا تمنى﴾ لما في اسم الزمان من الإيذان بسرعة الخلق عند دفق النطفة في رحم المرأة فإنه عند التقاء النطفتين يبتدىء تخلق النسل فهذه إشارة خفيفة إلى أن البويضة التي هي نطفة المرأة حاصلة في الرحم فإذا أمنيت علها نطفة الذكر أخذت في التخلق إذ لم يعقها عائق.

ثم لما في فعل ﴿تمنى﴾ من الإشارة إلى أن النطفة تقطر وتصب على شيء آخر لأن الصب يقتضي مصبوبا عليه فيشير إلى التخلق إنما يحصل من انصب ١ب النطفة على أخرى، فعند اختلاط المائين يحصل تخلق النسل فهذا سر التقييد بقوله: ﴿إذا تمنى﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤٥/٢٧

وفي الجمع بين الذكر والأنثى محسن الطباق لما بين الذكر والأنثى من شبه التضاد.

ولم يؤت في هذه الجملة بضمير الفصل كما في اللتين قبلها لعدم الداعي إلى القصر إذ لا ينازع أحد في أن الله خالق الخلق وموقع جملة ﴿وأنه خلق الزوجين﴾ إلى آخرها كموقع جملة ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ [لنجم:٤٠].

[٤٧] ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾.

كان مقتضى الظاهر من التنظير أن يقدم قوله: ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ [النجم:٤٨] على قوله: ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾ لما في قوله: ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ من **الامتنان** وإظهار الاقتدار المناسبين لقوله ﴿وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين﴾ [لنجم:٤٣، ٤٥] الخ. إذ ينتقل من نعمة الخلق إلى نعمة الرزق كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين﴾ [الشعراء:٧٨،٧٩] وقوله تعالى: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم﴾ [الروم:٤٠] ولكن عدل عن ذلك على طريقة تشبه الاعتراض ليقرن بين البيانين ذكر قدرته على النشأتين.." (١)

"و ﴿الأخرى﴾ مؤنث الأخير، أي النشأة التي لا نشأة بعدها، وهي مقابل النشأة الأولى التي يتضمنها قوله تعالى : ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾ [النجم:٤٥]. وهذه المقابلة هي مناسبة ذكر هذه النشأة الأخرى.

وقرأ الجمهور ﴿النشأة﴾ بوزن الفعلة وهو اسم مصدر أنشأ، وليس مصدرا، إذ ليس نشأ المجرد بمعتد وإنما يقال: أنشأ.

وقرأها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿النشأة﴾ بألف بعد الشين المفتوحة بوزن الفعالة وهو من أوزان المصادر لكنه مقيس في مصدر الفعل المضموم العين في الماضي نحو الجزالة والفصاحة. ولذلك فالنشاءة بالمد مصدر سماعي مثل الكآبة. ولعل مدتها من قبيل الإشباع مثل قول عنترة:

ينباع من ذفرى غضوب جسرة

أي: نبع.

وتقديم الخبر على اسم ﴿أن﴾ للاهتمام بالتحقيق الذي أفادته ﴿على﴾ تنبيها على زيادة تحقيقه بعد أن حقق بما في "أن"من التوكيد.

[٤٨] ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤٦/٢٧

ومعنى ﴿أغنى﴾ جعل غنيا، أي أعطى ما به الغنى، والغنى التمكن من الانتفاع بما يحب الانتفاع به.

ويظهر أن معنى ﴿أقنى﴾ ضد معنى ﴿أغنى﴾ رعيا لنظائره التي زاوجت بين الضدين من قوله: ﴿أضحك وأبكى﴾ [النجم: ٤٣] و ﴿أمات وأحيا﴾ [النجم: ٤٤،] و ﴿الذكر والأنثى﴾ [النجم: ٤٥] ، ولذلك فسره ابن زيد والأخفش وسليمان التميمي بمعنى أرضى.

وعن مجاهد وقتادة والحسن: أقنى: أخدم، فيكون مشتقا من القن وهو العبد أو المولود في الرق فيكون زيادة على الإغناء. وقيل: أقنى: أعطى القنية. وهذا زيادة في الغنى. وعن ابن عباس: أقنى: أرضى، أي أرضى الذي أغناه بما أعطاه، أي أغناه حتى أرضاه فيكون زيادة في **الامتنان**.

والإتيان بضمير الفصل لقصر صفة الإغناء والإقناء عليه تعالى دون غيره وهو قصر ادعائي لمقابلة ذهول الناس عن شكر نعمة الله تعالى بإسنادهم الأرزاق لوسائله العادية،." (١)

"لحظيرته فالمشبه به هو الهشيم المجموع في الأرض قبل أن يسيج ولذلك قال ﴿كهشيم المحتظر﴾ ولم يقل: كهشيم الحظيرة، لأن المقصود بالتشبيه حالته قبل أن يرصف ويصفف وقبل أن تتخذ منه الحظيرة.

والمحتظر: مفتعل من الحظيرة، أي متكلف عمل الحظيرة.

والقول في تعدية ﴿أرسلنا﴾ إلى ضمير ﴿ثمود﴾ كالقول في ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا﴾ . [القمر:١٩].

[٣٢]﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ .

تكرير ثان بعد نظيرته السالفلين في قصة قوم نوح وقصة عاد تذييلا لهذه القصة كما ذيلت بنظيريه القصتان السالفتان اقتضى التكرير مقام **الامتنان** والحث على التدبر بالقرآن لأن التدبر فيه يأتي بتجنب الضلال ويرشد إلى مسالك الاهتداء. فهذا أهم من تكرير ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ [القمر:٣٠] فلذلك أوثر.

[٣٣،٣٥] ﴿كذبت قوم لوط بالنذر [٣٣] أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر [٣٤] نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾ .

القول في مفرداته كالقول في نظائره، وقصة قوم لوط تقدمت في سورة الأعراف وغيرها.

وعرف قوم لوط بالإضافة إليه إذ لم يكن لتلك الأمة اسم يعرفون به عند العرب.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤٨/٢٧

ولم يحك هنا ما تلقى به قوم لوط كما حكي في القصص الثلاث قبل هذه، وقد حكي ذلك في سورة الأعراف وفي سورة هود وفي سورة الحجر لأن سورة القمر بنيت على تهديد المشركين عن إعراضهم عن الاتعاظ بآيات الله التي شاهدوها وآثار آياته على الأمم الماضية التي علموا أخبارها وشهدوا آثارها، فلم يكن ثمة مقتض لتفصيل أقوال تلك الأمم إلا ما كان منها مشابها لأقوال المشركين في تفضيله ولم تكن أقوال قوم لوط بتلك المثابة، فلذلك أقتصر فيها على حكاية ما هو مشترك بينهم وبين المشركين وهو تكذيب رسولهم وإعراضهم عن نذره. والنذر تقدم.

وجملة ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصبا﴾ استئناف بياني ناشئ عن الإخبار عن قوم لوط بأنهم كذبوا بالنذر.." (١)

"خلق الإنسان عن ذكره ثم أتبعه إياه ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان اه.

وتبع ذلك من التنويه بالنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله هو الذي علمه القرآن ردا على مزاعم المشركين الذين ويقولون: ﴿إنما يعلمه بشر﴾ [النحل: ١٠٣]، وردا على مزاعمهم أن القرآن أساطير الأولين أو أنه سحر أو كلام كاهن أو شعر.

ثم التذكير بدلائل قدرة الله تعالى في ما أتقن صنعه مدمجا في ذلك التذكير بما في ذلك كله من نعم الله على الناس.

وخلق الجن وإثبات جزائهم.

والموعظة بالفناء وتخلص من ذلك إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء. وختمت بتعظيم الله والثناء عليه.

وتخلل ذلك إدماج التنويه بشأن العدل، والأمر بتوفية أصحاب الحقوق حقوقهم، وحاجة الناس إلى رحمة الله فيما خلق لهم، ومن أهمها نعمة العلم ونعمة البيان، وما أعد من الجزاء للمجرمين ومن الثواب والكرامة للمتقين ووصف نعيم المتقين.

ومن بديع أسلوبها افتتاحها الباهر باسمه ﴿الرحمن﴾ وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدمه غيره.

ومنه التعداد في مقام **الامتنان** والتعظيم بقوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ إذ تكرر فيها إحدى وثلاثين مرة وذلك أسلوب عربي جليل كما سنبينه.

[١،٢] ﴿الرحمن﴾ [١] ﴿علم القرآن﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩٤/٢٧

هذه آية واحدة عند جمهور العادين. ووقع في المصاحف التي برواية حفص عن عاصم علامة آية عقب كلمة ﴿الرحمن﴾ ، إذ عدها قراء الكوفة آية فلذلك عد أهل الكوفة آي هذه السورة ثمانا وسبعين. فإذا جعل اسم ﴿الرحمن﴾ آية تعين أن يكون اسم الرحمن : إما خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الرحمن، أو مبتدأ خبره محذوف يقدر بما يناسب المقام.

ويجوز أن يكون واقعا موقع الكلمات التي يراد لفظها للتنبيه على غلط المشركين إذ أنكروا هذا الاسم قال تعالى ﴿قالوا وما الرحمن﴾ كما تقدم في سورة الفرقان [٦٠]، فيكون موقعه شبيها بموقع الحروف المقطعة التي يتهجى بها في أوائل بعض السور على." (١)

"وثانيتهما الدلالة على نعمة الله على الإنسان.

والخلق: نعمة عظيمة لأن فيها تشريفا للمخلوق بإخراجه من غياهب ألعدم إلى مبرز الوجود في الأعيان، وقدم خلق الإنسان على خلق السماوات والأرض لما علمت آنفا من مناسبة إردافه بتعليم القرآن.

ومجيء المسند فعلا بعد المسند إليه يفيد تقوي الحكم. ولك أن تجعله للتخصيص بتنزيلهم منزلة من ينكر أن الله خلق الإنسان لأنهم عبدوا غيره.

[٤] ﴿علمه البيان﴾ .

خبر ثالث تضمن الاعتبار بنعمة الإبانة عن المراد والامتنان بها بعد الامتنان بنعمة الإيجاد، أي علم جنس الإنسان أن يبين عما في نفسه ليفيده غيره ويستفيد هو.

والبيان: الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض وهو النطق وبه تميز الإنسان عن بقية أنواع الحيوان فهو من أعظم النعم.

وأما البيان من غير النطق من إشارة وإيماء ولمح النظر فهو أيضا من مميزات الإنسان وإن كان دون بيان النطق.

ومعنى تعليم الله الإنسان البيان: أنه خلق فيه الاستعداد لعم ذلك وأهمله وضع اللغة للتعارف، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ في سورة البقرة [٣١].

وفي الإشارة إلى أن نعمة البيان أجل النعم على الإنسان، فعد نعمة التكاليف الدينية وفيه تنويه بالعلوم الزائدة في بيان الإنسان وهي خصائص اللغة وآدابها.

ومجيء المسند فعلا بعد المسند إليه لإفادة تقوي الحكم.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١٦/٢٧

وفيه من التبكيت ما علمته آنفا، ووجه أنهم لم يشكروه على نعمة البيان إذ صرفوا جزءا كبيرا من بيانهم فيما يلهيهم عن إفراد الله بالعبادة وفيما ينازعون الله به من يدعوهم إلى الهدى.

[٥] ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ .

جملة هي خبر رابع عن الرحمن وإلا كان ذكره هنا بدونه مناسبة فينقلب اعتراضا. ورابط الجملة بالمبتدأ تقديره: بحسبانه، أي حسبان الرحمان وضبطه.." (١)

"وهذا استدلال على التفرد بخلق كوكب الشمس وكرة القمر وامتنان بما أودع فيهما من منافع للناس، ونظام سيرهما الذي به تدقيق نظام معاملات الناس واستعدادهم لما يحتاجون إليه عند تغيرات أجوائهم وأرزاقهم. ويتضمن الامتنان بما في ذلك من منافعهم، وفي كون هذا الخبر جاريا على أسلوب التعديد ما قد علمت آنفا من التبكيت، ووجهه أنهم غفلوا عما في نظام الشمس والقمر من الحكمة وما يدل عليه ذلك النظام من تفرد الله بتقديره، فاشتغل بعضهم بعبادة الشمس وبعضهم بعبادة القمر كما قال تعالى ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾ [فصلت:٣٧].

وجيء بهذه الجملة اسمية للتهويل بالابتداء باسم الشمس والقمر، وللدلالة على أن حسبانهما ثابت لا يتغير منذ بدء الخلق مؤذن بحكمة الخالق. واستغني بجعل اسم الشمس والقمر مسندا إليهما عن تفكيك الم سند إلى مسندين: أحدهما يدل على الاستدلال، والآخر يدل على الامتنان، كما وقع في قوله: ﴿خلق الإنسان﴾ ﴿علمه البيان﴾ [الرحمن:٤].

والحسبان: مصدر حسب بمعنى عد مثل الغفران.

والباء للملابسة وهي ظرف مستقر هو خبر عن الشمس والقمر، والتقدير: كائنان بحسبان، أي بملابسة حسبان أي لحساب الناس مواقع سيرهما.

وإسناد هذه الملابسة إلى الشمس والقمر مجازي عقلي لأن الشمس والقمر سبب لتلبس الناس بحسابهما كما تقول: أنت بعناية مني، جعلت عنايتك ملابسة للمخاطب ملابسة اعتبارية، وقوله تعالى ﴿فإنك بأعيننا﴾ [الطور: ٤٨] وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [الرحمن:٥]. والحسبان كناية عن انتظام سيرهما انتظاما مطردا لا يختل حساب الناس له والتوقيت به.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١٩/٢٧

واقتصر على ذكر الشمس والقمر دون بقية الكواكب وإن كان فيها حسبان الأنواع، والحر والبرد، مثل الجوزاء، والشعرى، ومنزلة الأسد، والثريا، لأن هذين الكوكبين هما الباديان لجميع الناس لا يحتاج تعقل أحوالهما إلى تعليم توقيت مثل الكواكب الأخرى.

ولأن السورة هذه بنيت على ذكر الأمور المزدوجة والشمس والقمر مزدوجان في معارف عموم لناس فالشمس: كوكب سماوي لأنه أعلى من الأرض والأرض تدور حوله." (١)

"وداخله في النظام الشمسي. والقمر: كوكب أرضي لأنه دون الأرض وتابع لها كبقية أقمار الكواكب فذكر الشمس والقمر كذكر السماء والأرض، والمشرق، والمغرب، والبحرين.

[٦] ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ .

عطف على جملة ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [الرحمن:٥] عطف الخبر على الخبر للوجه الذي تقدم لأن سجود الشمس والقمر لله تعالى وهو انتقال من **الامتنان** بما في السماء من المنافع إلى **الامتنان** بما في الأرض، وجعل لفظ ﴿النجم﴾ واسطة الانتقال لصلاحيته لأنه يراد منه نجوم السماء وما يسمى نجما من نبات الأرض كما يأتي.

وعطفت جملة ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ ولم تفصل فخرجت من أسلوب تعداد الأخبار إلى أسلوب عطف بعض الأخبار على بعض لأن الأخبار الواردة بعد حروف العطف لم يقصد بها التعداد إذ ليس فيها تعريض بتوبيخ المشركين، فالإخبار بسجود النجم والشجر أريد به الإيقاظ إلى ما في هذا من الدلالة على عظيم القدرة دلالة رمزية، ولأنه لما اقتضى المقام جمع النظائر من المزاوجات بعد ذكر الشمس والقمر كان ذلك مقتضيا سلوك طريقة لوصل بالعطف بجامع التضاد.

وجعلت الجملة مفتتحة بالمسند إليه لتكون على صورة فاتحة الجملة التي عطفت عليها. وأتي بالمسند فعلا مضارعا للدلالة على تجدد هذا السجود وتكرره على معنى قوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ [الرعد:١٥].

و﴿النجم﴾ يطلق: اسم جمع على نجوم السماء قال تعالى :﴿والنجم إذا هوى﴾ [لنجم:١] ويطلق مفردا فيجمع على نجوم، قال تعالى: ﴿وإدبار النجوم﴾ [الطور: ٤٩]. وعن مجاهد تفسيره هنا بنجوم السماء.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢٠/٢٧

ويطلق النجم على النبات والحشيش الذي لا سوق له فهو متصل بالتراب. وعن ابن عباس تفسير النجم في هذه الآية بالنبات الذي لا ساق له. والشجر: النبات الذي له ساق وارتفاع عن وجه الأرض. وهذان ينتفع بهما الإنسان والحيوان.

فحصل من قوله: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ بعد قوله: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [الرحمن:٥] قرينتان متوازيتان في الحركة والسكون وهذا من المحسنات البديعية الكاملة.." [١]

"الأرض من دابة فيها روح. وهذا مروي عن ابن عباس وجمع من التابعين. وعن ابن عباس أيضا: أنه الإنسان فقط. وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه.

وسياق الآية يرجح أن المراد به الإنسان، لأنه في مقام **الامتنان** والاعتناء بالبشر كقوله: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [البقرة: ٢٩].

والظاهر أنه اسم غير مشتق وفيه لغات: أنام كسحاب، وأنام كساباط، وأنيم كأمير.

وجملة ﴿فيها فاكهة﴾ إلى آخرها مبنية لجملة ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ وتقديم ﴿فيها﴾ على المبتدأ للاهتمام بما تحتوي عليه الأرض.

ولما كان قوله: ﴿وضعها للأنام﴾ يتضمن وضعا وعلة لذلك الوضع كانت الجملة المبينة له مشتملة على ما فيه العبرة **والامتنان**.

والفاكهة: اسم لما يؤكل تفكها لا قوت مشتقة من فكه كفرح، إذا طابت نفسه بالحديث والضحك، قال تعالى: ﴿فظلتم تفكهون﴾ [الواقعة:٦٥] لأن أكل ما يلذ للأكل وليس بضروري له إنما يكون في حال الانبساط.

و الفاكهة: مثل الثمار والنقول من لوز وجوز وفستق.

وعطف على الفاكهة النخل وهو شجر التمر وهو أهم شجر الفاكهة عند العرب الذين نزل القرآن فيهم، وهو يثمر أصنافا من الفاكهة من رطب وبسر ومن تمر وهو فاكهة وقوت.

ووصف النخل ﴿ذات الأكمام﴾ وصف للتحسين فهو اعتبار بأطوار ثمر النخل، وامتنان بجماله وحسنه كقوله تعالى: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ [النحل:٦] فامتن بمنافعها وبحسن منظرها.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢١/٢٧

و ﴿الأكمام﴾ : جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء ثمر النخلة ويقال له: الكفرى، فليست الأكمام مما ينتفع به فتعين ن ذكرها مع النخل للتحسين.

و ﴿الحب ذو العصف﴾ : هو الحب الذي لنباته سنابل ولها ورق وقصب فيصير تبنا، وذلك الورق والقصب هو العصف، أي الذي تعصفه الرياح وهذا وصف لحب الشعير والحنطة وبهما قوام حياة معظم الناس وكذلك ما أشبههما من نحو السلت والأرز.

وسمي العصف عصفا لأن الرياح تعصفه، أي تحركه ووصف الحب بأنه ﴿ذو." (١)

"[١٧] ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ .

استئناف ابتدائي فيه بيان لجملة ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [الرحمن:٥] وعطف ﴿ورب المغربين﴾ لأجل ما ذكرته آنفا من مراعاة المزاوجة.

وحذف المسند إليه على الطريقة التي سماها السكاكي بإتباع الاستعمال الوارد على تركه أو ترك نظائره وتقدم غير مرة.

والمشرق: جهة شروق الشمس، والمغرب: جهة غروبها وتثنية المشرقين والمغربين باعتبار أن الشمس تطلع في فصلي الشتاء والربيع من سمت وفي فصلي الصيف والخريف من سمت آخر وبمراعاة وقت الطول ووقت القصر وكذلك غروبها وهي فيما بين هذين المشرقين والمغربين ينتقل طلوعها وغروبها في درجات متقاربة فقد يعتبر ذلك فيقال: المشارق والمغارب كما في قوله تعالى: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾ في سورة المعارج[٤٠].

ومن زعم أن تثنية المشرقين لمراعاة مشرق الشمس والقمر وكذلك تثنية المغربين لم يغص على معنى كبير.

وعلى ما فسر به الجمهور ﴿المشرقين﴾ و ﴿المغربين﴾ بمشرقي الشمس ومغربيها فالمراد ب ﴿المشرقين﴾ النصف الشرقي من الأرض، وب ﴿المغربين﴾ النصف الغربي منها.

وربوبية الله تعالى بالمشرقين والمغربين بمعنى الخلق والتصرف.

[١٨] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ .

تكرير كما علمت آنفا.

[١٩،٢٠] ﴿مرج البحرين يلتقيان [١٩] بينهما برزخ لا يبغيان﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢٦/٢٧

خبر آخر عن ﴿الرحمن﴾ قصد منه العبرة بخلق البحار والأنهار، وذلك خلق عجيب دال على عظمة قدرة الله وعلمه وحكمته.

ومناسبة ذكره عقب ما قبله أنه لما ذكر أنه سبحانه رب المشرقين ورب المغربين وكانت الأبحر والأنهار في جهات الأرض ناسب الانتقال إلى الاعتبار بخلقهما وبالامتنان بما أودعها من منافع الناس.." (١)

"الشيطان يوم القيامة: ﴿إني بريء منك﴾ ، أي قال كل شيطان لقرينه من الإنس إني بريء منك طمعا في أن يكون ذلك منجيه من العذاب.

ففي الآية إيجاز حذف حذف فيها معطوفات مقدرة بعد شرط "لمأ" هي داخلة في الشرط إذ التقدير: فلما كفر واستمر على الكفر وجاء يوم الحشر واعتذر بأن الشيطان أضله قال الشيطان: ﴿إني بريء منك﴾ الخ. وهذه المقدرات مأخوذة من آيات أخرى مثل آية سورة إبراهيم وآية سورة ق[٢٧]. ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ الآية. وظاهر أن هذه المحاجة لا تقع إلا في يوم الجزاء وبعد موت الكافر على الكفر دون من أسلموا.

وقول: ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها﴾ من تمام المثل. أي كان عاقبة المثل بهما خسرانهما معا. وكذلك تكون عاقبة الفريقين الممثلين أنهما خائبان فيما دبرا وكادا للمسلمين.

وجملة ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ تذييل، والإشارة الى ما يدل عليه ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار﴾ من معنى، فكانت عاقبتهما سوأى والعلقبة السوأى جزاء جميع الظالمين المعتدين على الله والمسلمين، فكما كانت عاقبة الكافر وشيطانه عاقبة سوء كذلك لكون عاقبة الممثلين بهما وقد اشتركا في ظلم أهل الخير والهدى.

[١٨] ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ . انتقال من الامتنان على المسلمين بما يسر من فتح قرية بني النضير بدون قتال، وما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم منهم، ووصف ما جرى من خيبتهم وخيبة أملهم في نصرة المنافقين، ومن الإيذان بأن عاقبة أهل القرى الباقية كعاقبة أسلافهم. وكذلك موقف أنصارهم معهم الى الأمر بتقوى الله شكرا له على ما منح وما وعد من صادق الوعد فإن الشكر جزاء العبد عن نعمة ربه إذ لا يستطيع جزاء غير ذلك فأقبل على خطاب الذين آمنوا بالأمر بتقوى الله.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧/٢٣١

ولما كان ما تضمنته السورة من تأييد الله إياهم وفـيض نعمه عليهم كان من منافع الدنيا، أعقبه بتذكيرهم بالإعداد للآخرة بقوله: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ أي لتتأمل كل نفس فيما قدمته للآخرة.." (١)

"[١٣] ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾ .

﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾ .

عطف على جملة ﴿يغفر لكم﴾ ﴿ويدخلكم﴾ عطف الاسمية على الفعلية. وجيء بالاسمية لإفادة الثبوت والتحقق. ف ﴿أخرى﴾ مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله: ﴿لكم﴾ من قوله: ﴿يغفر لكم﴾ . والتقدير: أخرى لكم، ولك أن تجعل الخبر قوله: ﴿نصر من الله﴾ .

وجيء به وصفا مؤنثا بتأويل نعمة، أو فضيلة، أو حصله مما يؤذن به قوله: ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ [الصف: ١٢]إلى آخره من معنى النعمة والخصلة كقوله تعالى: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها﴾ في سورة الفتح [٢١].

ووصف ﴿أخرى﴾ بجملة ﴿تحبونها﴾ إشارة إلى **الامتنان** عليهم بإعطائهم ما يحبون في الحياة الدنيا قبل إعطاء نعيم الآخرة. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾ [البقرة: ١٤٤].

و ﴿نصر من الله﴾ بدل من ﴿أخرى﴾ ، ويجوز أن يكون خبرا عن ﴿أخرى﴾ . والمراد به النصر العظيم، وهو نصر فتح مكة فإنه كان نصرا على أشد أعدائهم الذين فتنوهم وآذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وألبوا عليهم العرب والأحزاب. وراموا تشويه سمعتهم، وقد انضم إليه نصر الدين بإسلام أولئك الذين كانوا من قبل أئمة الكفر ومساعير الفتنة، فأصبحوا مؤمنين إخوانا وصدق الله وعده بقوله: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ [الممتحنة: ٧] وقوله كنتم ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وذكر اسم الجلالة يجوز أن يكون إظهارا في مقام الإضمار على احتمال أن يكون ضمير التكلم في قوله: ﴿هل أدلكم﴾ [الصف: ١٠] كلاما من الله تعالى، ويجوز أن يكون جاريا على مقتضى الظاهر إن كان الخطاب أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقدير قل.

ووصف الفتح ب ﴿قريب﴾ تعجيل بالسمرة.

وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الإخبار بالغيب.

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٨/٢٨

﴿وبشر المؤمنين﴾." (١)

"والكلام على السماء الدنيا ولماذا وصفت بالدنيا وعن الكواكب تقدم في أول سورة الصافات.

وسميت النجوم هنا مصابيح على التشبيه على حسن المنظر فهو تشبيه بليغ.

وذكر التزيين إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال، أي زيناها لكم مثل **الامتنان** في قوله: ﴿ولكم فيها جمال﴾ في سورة [النحل:٦].

والمقصد: التخلص إلى ذكر رجم الشياطين ليتخلص منه إلى وعيدهم ووعيد متبعيهم.

وعدل عن تعريف "مصابيح" باللام إلى تنكيره لما يفيده التنكير من التعظيم.

والرجوم: جمع رجم وهو اسم لما يرجم به، أي ما يرمي به الرامي من حجر ونحوه تسمية للمفعول بالمصدر مثل الخلق بمعنى المخلوق في قوله تعالى: ﴿هذا خلق الله﴾ [لقمان:١١].

والذي جعل رجوما للشياطين هو بعض النجوم التي تبدو مضيئة ثم تلوح منقظة، وتسمى الشهب ومضى القول عليها في سورة الصافات.

وضمير الغائبة في ﴿جعلناها﴾ المتبادر أنه عائد إلى المصابيح، أي أن المصابيح رجوم للشياطين.

ومعنى جعل المصابيح رجوما جار على طريقة إسناد عمل بعض الشيء إلى جميعه مثل إسناد الأعمال إلى القبائل لأن العاملين من أفراد القبيلة كقوله تعالى: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ [البقرة:٨٥] وقول العرب: قتلت هذيل رضيع بني ليث تمام بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

وجعل بعض المفسرين الضمير المنصوب في ﴿جعلناها﴾ عائد إلى ﴿السماء الدنيا﴾ على تقدير: وجعلنا منها رجوما إما على حذف حرف الجر. وإما على تنزيل المكان الذي صدر منه الرجوم منزلة نفس الرجوم فهو مجاز عقلي ومنه قوله تعالى: ﴿فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها﴾ في سورة [البقرة:٦٦] ولكنها على جعل الضمير المنصوب راجعا إلى القرية وإن لم تذكر في تلك الآية ولكنها ذكرت في آية سورة الأعراف." (٢)

"والثناء الذي كانوا يخصونه به، إلى غرض الافتقار إلى الله الذي هو حال كل مخلوق فتكون من قبيل قوله: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا﴾ [النحل:٧٨] الآية.

وعطف على ذلك ﴿وجعلت له مالا﴾ عطف الخاص على العام.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٥/٢٨

(٢) التحرير والتنوير، ٢٠/٢٩

والممدود: اسم مفعول من مد الذي بمعنى: أطال، بأن شبهت كثرة المال بسعة مساحة الجسم، أو من مد الذي بمعنى: زاد في الشيء من مثله، كما يقال: مد الوادي النهر، أي مالا مزيدا في مقداره ما يكتسبه صاحبه من المكاسب. وكان الوليد من أوسع قريش ثراء. وعن ابن عباس: كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل والغنم والعبيد والجواري والجنان وكانت غلة ماله ألف دينار أي في السنة.

وامتن الله عليه بنعمة البنين ووصفهم بشهود جمع شاهد، أي حاضر، أي لا يفارقونه بل مستأنس بهم لا يشتغل باله بمغيبهم وخوف معاطب السفر عليهم فكانوا بغنى عن طلب الرزق بتجارة أو غارة، وكانوا يشهدون معه المحافل فكانوا فخرا له، قيل: كان له عشرة بنين وقيل ثلاثة عشر ابنا، والمذكور منهم سبعة، وهم: الوليد بن الوليد، وخالد، وعمارة، وهشام، والعاصي، وقيس أو أبو قيس، وعبد شمس وبه يكنى. ولم يذكر ابن حزم في جمهرة الأنساب: العاصي، واقتصر على ستة.

والتمهيد: مصدر مهد بتشديد الهاء الدال على قوة المهد. والمهد: تسوية الأرض وإزالة ما يقض جنب المضطجع عليها، ومهد الصبي تسمية بالمصدر.

والتمهيد هنا مستعار لتيسير أموره ونفاذ كلمته في قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصي عليه أمر.

وأكد ﴿مهدت﴾ بمصدره على المفعولية المطلقة ليتوسل بتنكيره لإفادة تعظيم ذلك التمهيد وليس يطرد أن يكون التأكيد لرفع احتمال المجاز.

ووصف في هذه الآية بما له من النعمة والسعة لأن الآية في سياق **الامتنان** عليه توطئة لتوبيخه وتهديده بسوء في الدنيا وبعذاب النار في الآخرة. فأما في آية سورة القلم فقد وصفه بما فيه من النقائص في قوله تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ [القلم:١٠] الخ بناء على قول من قال: إن المراد به الوليد بن المغيرة وقد علمت أنها احتمال لأن تلك الآية في مقام التحذير من شره وغدره.

و ﴿ثم﴾ في قوله: ﴿ثم يطمع﴾ للتراخي الرتبي، أي وأعظم من ذلك أنه يطمع في." [١]

"الخ. ولم يذكر هؤلاء أن تلك الآيات من أية سورة كانت تعد في مكة إلى أن نزلت سورة الإنسان بالمدينة وهذا غريب. ولم يعينوا أنه في أية سورة كان مقروءا.

والأصح أنها مكية فإن أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السور المكية ولا أحسب الباعث على عدها في المدني إلا ما روي من أن آية ﴿يطعمون الطعام على حبه﴾ [الانسان: ٨] نزلت في إطعام علي

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨٣/٢٩

أبن أبي طالب بالمدينة مسكينا ليلة،ويتيما أخرى، وأسيرا أخرى، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملا للفظ أسير على معنى أسير الحرب، أو ما روي انه نزل في أبي الدحداح وهو أنصاري، وكثيرا ما حملوا نزول الآية على مثل تنطبق عليها معانيها فعبروا عنها بأسباب نزول كما بيناه في المقدمة الخامسة.

وعدها جابر بن زيد الثامنة والتسعين في ترتيب نزول السور. وقال: نزلت بعد سورة الرحمان وقبل سورة الطلاق. وهذا جري على ما رآه أنها مدنية.

فإذا كان الأصح أنها مكية أخذا بترتيب مصحف ابن مسعود فتكون الثلاثين أو الحادية والثلاثين وجديرة بأن تعد سورة القيامة أو نحو ذلك حسبما ورد في ترتيب أبن مسعود.

روى أبو داود في باب تحزيب القرآن من سننه عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ النظائر السورتين وعد سورا فقال: و ﴿هل أتى﴾ و ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ في ركعة" . قال أبو داود: هذا تأليف ابن مسعود"أي تأليف مصحفه": واتفق العادون على عد آيها إحدى وثلاثين.

أغراضها

التذكير بأن كل إنسان كون بعد أن لم يكن فكيف يقضي باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه.

وإثبات أن الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة شكرا لخالقه ومحذر من الإشراك به.

وإثبات الجزاء على الحلين مع شيء من وصف ذلك الجزاء بحالتيه والإطناب في وصف جزاء الشاكرين.

وأدمج في خلال ذلك الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد ونعمة الإدراك والامتنان بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل فمن." (١)

"بالتخفيف قدرا فهو قادر، إذا جعل الشيء على مقدار مناسب لما جعل له.

والمعنى: فقدرنا الخلق كقوله تعالى: ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾ [عبس:١٩] وقوله: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾ [الفرقان: ٢].

والفاء في قوله: ﴿فقدرنا﴾ للتفريع على قوله: ﴿فجعلناه في قرار مكين، إلى قدر معلوم﴾ ، أي جعلناه في الرحم إلى انتهاء أمد الحمل فقدرنا أطوار خلقكم حتى أخرجناكم أطفالا.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٤٤/٢٩

والفاء في ﴿فنعم القادرون﴾ للتفريع على "قدرنا" أي تفريع إنشاء ثناء، أي فدل تقديرنا على أننا نعم القادرون، أي كان تقديرنا تقدير أفضل قادر، وهذا تنويه بذلك الخلق العجيب بالقدرة.

و ﴿القادرون﴾ : اسم فاعل من قدر اللازم إذا كان ذا قدرة وبذلك يكون الكلام تأسيسا لا تأكيدا، أي فنعم القادرون على الأشياء.

وعلامة الجمع للتعظيم مثل نون "قدرنا" فإن القدرة لما أتت بما هو مقتضى الحكمة كانت قدرة جديرة بالمدح.

[٢٤] ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ .

هو نحو ما تقدم في نظيره الموالي هو له.

[٢٥-٢٧] ﴿ألم نجعل الأرض كفاتا، أحياء وأمواتا، وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا﴾ .

جاء هذا التقرير على سنن سابقيه في عدم العطف لأنه على طريقة التكرير للتوبيخ، وهو تقرير لهم بما أنعم الله به عليهم من خلق الأرض بما فيها مما فيه منافعهم كما قال تعالى: ﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾ [النازعات:٣٣].

ومحل الامتنان هو قوله: ﴿أحياء﴾ ، وأما قوله: ﴿وأمواتا﴾ فتتميم وإدماج.

وكفات: اسم للشيء الذي يكفت فيه، أي يجمع ويضم فيه، فهو اسم جاء على صيغة الفعال من كفت، إذا جمع، ومنه سمي الوعاء: كفاتا، كما سمي ما يعي الشيء: وعاء، وما يضم الشيء: الضمام.." (١)

"وجعل الأرض: خلقها على تلك الحالة لأن كونها مهادا أمر حاصل فيها من ابتداء خلقها ومن أزمان حصول ذلك لها من قبل خلق الإنسان لا يعلمه إلا الله.

والمعنى: أنه خلقها في حال أنها كالمهاد فالكلام تشبيه بليغ.

والتعبير ب ﴿نجعل﴾ دون: نخلق، لأن كونها مهادا حالة من أحوالها عند خلقها أو بعده بخلاف فعل الخلق فإنه يتعدى إلى الذات غالبا أو إلى الوصف المقوم للذات نحو ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ [الملك:٢].

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٩٩/٢٩

والمهاد: بكسر الميم الفراش الممهد الموطأ؛ وزنة الفعال فيه تدل على أن أصله مصدر سمي به للمبالغة. وفي "القاموس": إن المهاد يراد في المهد الذي يجعل للصبي. وعلى كل فهو تشبيه للأرض به إذ جعل سطحها ميسرا للجلوس عليها والاضطجاع وبالأحرى المشي، وذلك دليل على إبداع الخلق والتيسير على الناس، فهو استدلال يتضمن امتنانا وفي ذلك الامتنان إشعار بحكمة الله تعالى إذ جعل الأرض ملائمة للمخلوقات التي عليها فإن الذي صنع هذا الصنع لا يعجزه أن يخلق الأجسام مرة ثانية بعد بلاها.

والغرض من الامتنان هنا تذكيرهم بفضل الله لعلهم أن يرعوا عن المكابرة ويقلبوا على النظر فيما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم تبليغا عن الله تعالى.

ومناسبة ابتداء الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأرض أن البعث هو إخراج أهل الحشر من الأرض فكانت الأرض أسبق شيء إلى ذهن السامع عند الخوض في أمر البعث، أي بعث أهل القبور.

وجعل الأرض مهادا يتضمن الاستدلال بأصل خلق الأرض على طريقة الإيجاز ولذلك لم يتعرض إليه بعد عند التعرض لخلق السماوات.

[٧] ﴿والجبال أوتادا﴾.

عطف على ﴿الأرض مهادا﴾ [النبأ:٦] فالواو عاطفة ﴿الجبال﴾ على ﴿الأرض﴾ ، وعاطفة ﴿أوتادا﴾ على ﴿مهادا﴾ ، وهذا من العطف على معمولي عامل واحد وهو وارد في الكلام الفصيح وجائز باتفاق النحويين لأن حرف العطف قائم مقام العامل.." (١)

"[٩] ﴿وجعلنا نومكم سباتا﴾.

انتقل من الاستدلال بخلق الناس إلى الاستدلال بأحوالهم وخص منها الحالة التي هي أقوى أحوالهم المعروفة شبها بالموت الذي يعقبه البعث وهي حالة متكررة لا يخلون من الشعور بما فيها من العبرة لأن تدبير نظام النوم وما يطرأ عليه من اليقظة أشبه حال بحال الموت وما يعقبه من البعث.

وأوثر فعل ﴿جعلنا﴾ لأن النوم كيفية يناسبها فعل الجعل لا فعل الخلق المناسب للذوات كما تقدم في قوله: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾ [النبأ:٦] وكذلك قوله: ﴿وجعلنا الليل لباسا، وجعلنا النهار معاشا﴾ [النبأ: ١٠-١١].

فإضافة نوم إلى ضمير المخاطبين ليست للتقييد لإخراج نوم غير الإنسان فإن نوم الحيوان كله سبات، ولكن الإضافة لزيادة التنبيه للاستدلال، أي أن دليل البعث قائم بين في النوم الذي هو من أحوالكم، وأيضا

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/٣٠

لأن في وصفه بسبات امتنانا، **والامتنان** خاص بهم قال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ [يونس:٦٧].

والسبات: بضم السين وتخفيف الباء أسم مصدر بمعنى السبت، أي القطع، أي جعلناه لكم قطعا لعمل الجسد بحيث لا بد للبدن منه، وإلى هذا أشار ابن الاعرابي وابن قتيبة إذ جعلا المعنى: وجعلنا نومكم راحة، فهو تفسير معنى.

وإنما أوثر لفظ "سبات" لما فيه من الإشعار بالقطع عن العمل ليقابله قوله بعده ﴿وجعلنا النهار معاشا﴾ [النبأ:١١] كما سيأتي.

ويطلق السبات على النوم الخفيف، وليس مرادا في هذه الآية إذ لا يستقيم أن يكون المعنى: وجعلنا نومكم نوما، ولا نوما خفيفا.

وفي "تفسير الفخر": طعن بعض الملاحدة في هذه الآية فقالوا: السبات هو النوم فالمعنى: وجعلنا نومكم نوما. وأخذ في تأويلها وجوها ثلاثة من أقوال المفسرين لا يستقيم منها إلا ما قاله ابن الأعرابي أن السبات القطع كما قال تعالى ﴿من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه﴾ [القصص:٧٢] وهو المعنى الأصلي لتصاريف مادة سبت.

وأنكر أبن الأنباري وابن سيده أن يكون فعل سبت بمعنى استراح، أي ليس معنى اللفظ، فمن فسر السبات بالراحة أراد تفسير حاصل المعنى.." (١)

"ذلك قول حسان:

كلتاهما حلب العصير فحاطني ... بزجاجة أرخاهما للمفصل

أراد حسان الخمر والماء الذي مزجت به، أي هذه من عصير العنب وهذه من عصير السحاب، فسر هذا التفسير قاضي البصرة عبيد الله بن الحسن العنبري١ للقوم الذين حلف صاحبهم بالطلاق أن يسأل القاضي عن تفسير بيت حسان اه.

والثجاج: المنصب بقوة وهو فعال من ثج القاصر إذا انصب، يقال ثج الماء، إذا انصب بقوة، فهو فعل قاصر. وقد يسند الثج إلى السحاب، يقال: ثج السحاب يثج بضم الثاء، إذا صب الماء، فهو حينئذ فعل متعد.

ووصف الماء هنا بالثجاج للامتنان.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧/٣٠

وقد بينت حكمة إنزال المطر من السحاب بأن الله جعله لإنبات النبات من الأرض جمعا بين الامتنان والإيماء إلى دليل تقريب البعث ليحصل إقرارهم بالبعث وشكر الصانع.

وجيء بفعل ﴿لنخرج﴾ دون نحو: لننبت، لأن المقصود الإيماء إلى تصوير كيفية بعث الناس من الأرض إذ ذلك المقصد الأول من هذا الكلام ألا ترى أنه لما كان المقصد الأول من آية سورة "ق" هو الامتنان جيء بفعل ﴿أنبتنا﴾ في قوله: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات﴾ [ق:٩] الآية، ثم أتبع ثانيا بالاستدلال به على البعث بقوله: ﴿كذلك الخروج﴾ [ق:١١]. والبعث خروج من الأرض قال تعالى: ﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ في سورة طه.

والحب: اسم جمع حبة وهي البرزة. والمراد بالحب هنا: الحب المقتات للناس مثل: الحنطة، والشعير، والسلت، والذرة، والأرز، والقطنية، وهي الحبوب التي هي ثمرة السنابل ونحوها.

والنبات أصله اسم مصدر نبت الزرع، قال تعالى: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا﴾ [نوح:١٧]. وأطلق النبات على النابت من إطلاق المصدر على الفاعل وأصله المبالغة ثم شاع استعماله فنسيت المبالغة.

_

١ ولي قضاء البصرة سنة ١٥٨ وعزل سنة ١٦٥ وتوفي سنة ١٦٨. وهو الذي ينسب إليه القول بأن المجتهد لا يأثم ولو في أصول الدين إذا لم يخرج باجتهاده عن الإسلام.." [١]

"والمراد به هنا: النبات الذي لا يؤكل حبه بل الذي ينتفع بذاته وهو ما تأكله الأنعام والدواب مثل التبن والقرط والفصفصة والحشيش وغير ذلك.

وجعلت الجنات مفعولا ل"نخرج" على تقدير مضاف، أي نخل جنات أو شجر جنات، لأن الجنات جمع جنة وهي قطعة من الأرض المغروسة نخلا أو نخلا وكرما، أو بجميع الشجر المثمر مثل التين والرمان كما جاء في مواضع من القرآن، وهي استعمالات مختلفة باختلاف المنابت.

ووجه إيثار لفظ ﴿جنات﴾ أن فيه إيماء إلى إتمام المنة لأنهم كانوا يحبون الجنات والحدائق لما فيها من التنعم بالظلال والثمار والمياه وجمال المنظر، ولذلك أتبعت بوصف ﴿ألفافا﴾ لأنه يزيدها حسنا، وإن كان الفلاحون عندنا يفضلون التباعد بين الأشجار لأن ذلك أوفر لكمية الثمار لأن تباعدها أسعد لها بتخلل الهواء وشعاع الشمس، لكن مساق الآية هنا الامتنان بما فيه نعيم الناس.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤/٣٠

وألفاف: اسم جمع لا واحد له من لفظه وهو مثل أو زاع وأخياف، أي كل جنة ملتفة، أي ملتفة الشجر بعضه ببعض.

فوصف الجنة بألفاف مبني على المجاز العقلي لأن الالتفاف في أشجارها ولكن لما كانت الأشجار لا يلتف بعضها على بعض في الغالب إلا إذا جمعتها جنة أسند ألفاف إلى جنات بطريق الوصف. ولعله من مبتكرات القرآن إذا لم أر شاهدا عليه من كلام العرب قبل القرآن.

وقيل ألفاف جمع لف بكسر اللام بوزن جذع، أي كل جنة منها لف بكسر اللام ولم يأتوا بشاهد عليه. وذكر في "الكشاف" أن صاحب "الإقليد"١ ذكر بيتا أنشده الحسن بن علي الطوسي٢ ولم يعزه إلى قائل. وفي "الكشاف" زعم ابن قتيبة٣: أنه لفاء ولف ثم ألفاف "أي أن ألفافا جمع الجمع" قال "وما أظنه واجدا له نظيرا" أي لا يجمع

_

١ الإقليد اسم تفسير كذا قال القزويني في "الكشف" على "الكشاف" ورأيت في طرة نسخة فيه أن الإقليد لأبي الفتح الهمذاني ولم أعثر على ترجمة مؤلفة.

٢ الحسن بن علي الطوسي لعله الوزير الملقب نظام الملك والبيت هو:

جنة لف وعيش مغدق ... وندامى كلهم بيض زهر

٣ لعله ذكر ذلك في غير كتاب أدب الكتاب فإني لم أجده فيه.." (١)

"فعل جمعا على أفعال، أي لا نظير له إذ لا يقال خضر وأخضار وحمر وأحمار. يريد أنه لا يخرج الكلام الفصيح على استعمال لم يثبت ورود نظيره في كلام العرب مع وجود تأويل له على وجه وارد.

فكان أظهر الوجوه أن ﴿ألفافا﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه.

وبهذا الاستدلال **والامتنان** ختمت الأدلة التي أقيمت لهم على انفراد الله تعالى بالإلهية وتضمنت الإيماء إلى إمكان البعث وما أدمج فيها من المنن عليهم عساهم أن يذكروا النعمة فيشعروا بواجب شكر المنعم ولا يستفظعوا إبطال الشركاء في الإلهية وينظروا فيما بلغهم عنه من الإخبار بالبعث والجزاء فيصرفوا عقولهم للنظر في دلائل تصديق ذلك.

وقد ابتدئت هذه الدلائل بدلائل خلق الأرض وحالتها وجالت بهم الذكرى على أهم ما على الأرض من الجماد والحيوان، ثم ما في الأفق من أعراض الليل والنهار. ثم تصاعد بهم التجوال بالنظر في خلق

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٠/٢٥

السماوات وبخاصة الشمس ثم نزل بهم إلى دلائل السحاب والمطر فنزلوا معه إلى ما يخرج من الأرض من بدائع الصنائع ومنتهى المنافع فإذا هم ينظرون من حيث صدروا وذلك من رد العجز على الصدر.

[١٧-١٨] ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتا، يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾ .

هذا بيان لما أجمله قوله: ﴿عن النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون﴾ وهو المقصود من سياق الفاتحة التي افتتحت بها السورة وهيأت للانتقال مناسبة ذكر الإخراج من قوله: ﴿لنخرج به حبا ونباتا﴾ [النبأ: ١٥] الخ، لأن ذلك شبه بإخراج أجساد الناس للبعث كما قال تعالى: ﴿فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾ إلى قوله: ﴿كذلك الخروج﴾ في سورة ق [٩-١١].

وهو استئناف بياني أعقب به قوله: ﴿لنخرج به حبا ونباتا﴾ [النبأ: ١٥] الآية فيما قصد به من الإيماء إلى دليل البعث.

وأكد الكلام بحرف التأكيد لأن فيه إبطالا لإنكار المشركين وتكذيبهم بيوم الفصل.

ويوم الفصل: يوم البعث للجزاء.

والفصل: التمييز بين الأشياء المختلطة، وشاع إطلاقه على التمييز بين المعاني." (١)

"[٣٣] ﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾ .

"المتاع" يطلق على ما ينتفع به مدة، ففيه معنى التأجيل، وتقدم عند قوله: ﴿وأمتعتكم﴾ في سورة النساء [١٠٢]، وهو هنا اسم مصدر متع، أي إعطاء للانتفاع زمانا، وتقدم بيانه عند قوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ في سورة الأعراف [٢٤].

وانتصب ﴿متاعا﴾ على النيابة عن الفعل. والتقدير: متعناكم متاعا.

ولام ﴿لكم ولأنعامكم﴾ لام التقوية لأن المصدر فرع في العمل عن الفعل، وهو راجع إلى خلق الأرض والجبال، وذلك في الأرض ظاهر، وأما الجبال فلأنها معتصمهم من عدوهم، وفيها مراعي أنعامهم تكون في الجبال مأمونة من الغارة عليها من غرة. وهذا إدماج الامتنان في الاستدلال لإثارة شكرهم حق النعمة بأن يعبدوا المنعم وحده ولا يشركوا بعبادته غيره.

وفي قوله: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ [النازعات:٣٠] إلى ﴿ولأنعامكم﴾ محسن الجمع ثم التقسيم.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦/٣٠

[٣٤-٤١] ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى، يوم يتذكر الإنسان ما سعى، وبرزت الجحيم لمن يرى، فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى﴾ .

يجوز أن يكون التفريع على الاستدلال الذي تضمنه قوله: ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء﴾ [النازعات:٢٧] الآيات، فإن إثبات البعث يقتضي الجزاء إذ هو حكمته. وإذا اقتضى الجزاء كان على العاقل أن يعمل لجزاء الحسنى ويجتنب ما يوقع في الشقاء وأن يهتم بالحياة الدائمة فيؤثرها ولا يكترث بنعيم زائل فيتورط في اتباعه، فلذلك فرع على دليل إثبات البعث تذكير بالجزاءين، وإرشاد إلى النجدين.

وإذا قد قدم قبل الاستدلال تحذير إجمالي بقوله: ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ [النازعات:٦] الآية كما يذكر المطلوب قبل القياس في الجدل، جيء عقب الاستدلال بتفصيل ذلك التحذير مع قرنه بالتبشير لمن تحلى بضده فلذلك عبر عن البعث ابتداء بالراجفة لأنها مبدؤه، ثم بالزجرة، وأخيرا بالطامة الكبرى لما في هذين الوصفين من معنى يشمل الراجفة." (١)

"وما بعدها من الأهوال إلى أن يستقر كل فريق في مقره.

ومن تمام المناسبة للتذكير بيوم الجزاء وقوع عقب التذكير بخلق الأرض، **والامتنان** بما هيأ منها للإنسان متاعا به، للإشارة إلى أن ذلك ينتهي عندما يحين يوم البعث والجزاء.

ويجوز أن يجعل قوله: ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ مفرعا على قوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾ [النازعات: ١٣-١٤] فإن الطامة هي الزجرة.

ومناط التفريع هو ما عقبه من التفصيل بقوله: ﴿فأما من طغى﴾ الخ إذ ل يلتئم تفريع الشيء على نفسه.

و"إذا" ظرف للمستقبل فلذلك إذا وقع بعد الفعل الماضي صرف إلى الاستقبال، وإنما يؤتى بعد "إذا" بفعل المضي لزيادة تحقيق ما يفيده "إذا" من تحقق الوقوع.

والمجيء: هنا مجاز في الحصول والوقوع لأن الشيء الموقت المؤجل بأجل يشبه شخصا سائرا إلى غاية، فإذا حصل ذلك المؤجل عند أجله فكأنه السائر إلى إذا بلغ المكان المقصود.

والطامة: الحادثة، أو الوقعة التي تطم، أي تعلو وتغلب بمعنى تفوق أمثالها من نوعها بحيث يقل مثلها في نوعها، مأخوذ من طم الماء، إذا غمر الأشياء وهذا الوصف يؤذن بالشدة والهول إذ لا يقال مثله

---

(١) التحرير والتنوير، ٧٩/٣٠

إلا في الأمور المهولة ثم بولغ في تشخيص هولها بأن وصفت ب ﴿الكبرى﴾ فكان هذا أصرح الكلمات لتصوير ما يقارن الحادثة من الأهوال.

والمراد بالطامة الكبرى: القيامة وقد وصفت بأوصاف عديدة في القرآن مثل الصاخة والقارعة والراجفة ووصفت بالكبرى.

و ﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ بدل من جملة ﴿إذا جاءت الطامة الكبرى﴾ بدا اشتمال لأن ما أضيف إليه يوم هو من الأحوال التي يشتمل عليها زمن مجيء الطامة وهو يوم القيامة ويوم الحساب.

وتذكر الإنسان ما سعاه: أن يوقف على أعماله في كتابه لأن التذكر مطاوع ذكره. والتذكر يقتضي سبق النسيان وهو انمحاء المعلوم من الحافظة.." (١)

"وإسناد الصب والشق والإنبات إلى ضمير الجلالة لأن الله مقدر نظام الأسباب المؤثرة في ذلك، ومحكم نواميسها وملهم الناس استعمالها.

فالإسناد مجاز عقلي في الأفعال الثلاثة. وقد شاع في ﴿صببنا﴾ و ﴿أنبتنا﴾ حتى ساوى الحقيقة العقلية.

وانتصب ﴿صبا﴾ و ﴿شقا﴾ على المفعول المطلق ل ﴿صببنا﴾ و ﴿شققنا﴾ مؤكدا لعامله ليتأتى تنوينه لما في التنكير من الدلالة على التعظيم وتعظيم كل شيء بما يناسبه وهو تعظيم تعجب.

والفاء في قوله: ﴿فأنبتنا﴾ للتفريع والتعقيب وهو في كل شيء بحسبه.

والحب أريد منه المقتات منه للإنسان، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ في سورة البقرة [٢٦١].

والعنب: ثمر الكرم، ويتخذ منه الخمر والخل، ويؤكل رطبا، ويتخذ منه الزبيب.

والقضب: الفصفصة الرطبة، سميت قضبا لأنها تعلف للدواب رطبة فتقضب، أي تقطع مرة بعد أخرى ولا تزال تخلف ما دام الماء ينزل عليها، وتسمى القت.

و الزيتون: الثمر الذي يعصر منه الزيت المعروف.

والنخل: الشجر الذي ثمرته التمر وأطواره.

والحدائق: جمع حديقة وهي الجنة من نخل وكرم وشجر وفواكه، وعطفها على النخل من عطف الأعم على الأخص، ولأن في ذكر الحدائق إدماجا للامتنان بها لأنها مواضع تنزههم واخترافهم.

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٠/٣٠

وإنما ذكر النخل دون ثمرته، وهو التمر، خلافا لما قرن به من الثمار والفواكه والكلأ، لأن منافع شجر النخيل كثيرة لا تقتصر على ثمره، فهم يقتاتون ثمرته من تمر ورطب وبسر، ويأكلون جماره، ويشربون ماء عود النخلة إذا شق عنه، ويتخذون من نوى التمر علفا لإبلهم، وكل ذلك من الطعام، فضلا عن اتخاذهم البيوت والأواني من خشبه، والحصر من سعفه، والحبال من ليفه، فذكر اسم الشجرة الجامعة لهذه المنافع أجمع في الاستدلال بمختلف الأحوال وإدماج **الامتنان** بوفرة النعم، وقد تقدم قريبا في سورة النبأ.

والغلب: جمع غلباء، وهي مؤنث الأغلب، وهو غليظ الرقبة، يقال غلب كفرح،." [1]

"﴿ولأنعامكم﴾ في جمع ما قسم قبله.

وذكر في الكشاف وجها آخر خاصا بكلام عمر فقال إن القوم كانت أكبر همتهم علكفة على العمل، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفا عندهم، فأراد عمر أن الآية مسوقة في **الامتنان** على الإنسان. وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعا له ولأنعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله على ما تبين لك مما عدد من نعمه ولا تتشاغل عنه بطلب الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له واكتف بالمعرفة الجملية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت، ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن اه. ولم يأت كلام "الكشاف" بأزيد من تقرير الإشكال.

وقوله: ﴿متاعا لكم﴾ حال من المذكورات يعود إلى جميعها على قاعدة ورود الحال بعد مفردات متعاطفة، وهذا نوع من التنازع.

وقوله: ﴿ولأنعامكم﴾ عطف قوله: ﴿لكم﴾ .

والمتاع: ما ينتفع به زمنا ثم ينقطع، وفيه لف ونشر مشوش، والسامع يرجع كل شيء من المذكورات إلى ما يصلح له لظهوره. وهذه الحال واقعة موقع الإدماج أدمجت الموعظة والمنة في خلال الاستدلال.

[٣٣-٤٢] ﴿فإذا جاءت الصاخة، يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، وجوه يومئذ مسفرة، ضاحكة مستبشرة، ووجوه يومئذ عليها غبرة، ترهقها قترة، أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

الفاء للتفريع على اللوم والتوبيخ في قوله تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ [عبس:١٧] وما تبعه من الاستدلال على المشركين من قوله: ﴿من أي شيء خلقه﴾ [عبس:١٨] إلى قوله: ﴿أنا صببنا الماء صبا﴾

---

(١) التحرير والتنوير، ١١٦/٣٠

[عبس:٢٥]، ففرع على ذلك إنذار بيوم الجزاء، مع مناسبة وقوع هذا الإنذار عقب التعريض والتصريح بالامتنان في قوله: ﴿إلى طعامه﴾ [عبس:٢٤] وقوله: ﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾ [عبس:٣٢] على نحو ما تقدم في قوله: ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ من سورة النازعات [٣٤].

والصاخة: صيحة شديدة من صيحات الإنسان تصخ الأسماع، أي تصمها." (١)

"والتنويه بحسن جزاء الذين اتبعوا الإسلام في أصوله وفروعه.

وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه.

[١-٥] ﴿والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الأنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾ .

ابتداء الكلام بالقسم المؤكد يؤذن بأهمية الغرض المسوق له الكلام، وإطالة القسم تشويق إلى المقسم عليه.

والتين ظاهرة: الثمرة المشهورة بهذا الاسم، وهي ثمرة يشبه شكلها شكل الكمثرى ذات قشر لونه أزرق إلى السواد، تتفاوت أصنافه في قتومة قشره، سهلة التقشير تحتوي على مثل وعاء أبيض في وسطه عسل طيب الرائحة مخلوط ببزور دقيقة مثل السمسم الصغير، وهي من أحسن الثمار صورة وطعما وسهولة مضغ فحالتها دالة على دقة صنع الله ومؤذنة بعلمه وقدرته، فالقسم بها لأجل دلالتها إلى صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات، مع الإيذان بالمنة على الناس إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج.

والزيتون أيضا ظاهره: الثمرة المشهورة ذات الزيت الذي يعصر منها فيطعمه الناس ويستصبحون به. والقسم بها كالقسم بالتين من حيث إنها دالة على صفات الله، مع الإشارة إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم.

وعلى ظاهر الاسمين للتين والزيتون حملهما جمع من المفسرين الأولين ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة والنخعي وعطاء وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي وذلك لما في هاتين الثمرتين من المنافع للناس المقتضية الامتنان عليهم بأن خلقها الله لهم، ولكن مناسبة ذكر هذين مع ﴿طور سينين﴾ ومع ﴿البلد الأمين﴾ تقتضي أن يكون لهما محمل أوفق بالمناسبة فروي عن ابن عباس أيضا تفسير التين بأنه مسجد

---

(١) التحرير والتنوير، ١١٨/٣٠

نوح الذي بني على الجودي بعد الطوفان. ولعل تسمية هذا الجبل التين لكثرته فيه، إذ قد تسمى الأرض باسم ما يكثر فيها من الشجر كقول امرئ القيس:

امرخ ديارهم أم عشر." (١)

"الأضحى تكون السورة مدنية ويبعث على أن قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ ليس ردا على كلام العاصي بن وائل كما سنبين ذلك.

والأظهر أن هذه السورة مدنية وعلى هذا سنعتمد في تفسير آياتها.

وعلى القول بأنها مكية عدوها الخامسة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة العاديات وقبل سورة التكاثر. وعلى القول بأنها مدنية فقد قيل: إنها نزلت في الحديبية.

وعدد آيها ثلاث بالاتفاق.

وهي أقصر سور القرآن عدد كلمات وعدد حروف، وأما في عدد الآيات فسورة العصر وسورة النصر مثلها ولكن كلماتها أكثر.

أغراضها

اشتملت على بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة.

وأمره بأن يشكر الله على ذلك بالإقبال على العبادة.

وأن ذلك هو الكمال الحق لا ما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة وهم مغضوب عليهم من الله تعالى لأنهم أبغضوا رسوله، وغضب الله بتر لهم إذا كانوا بمحل السخط من الله.

وإن انقطاع الولد الذكر فليس بترا لأن ذلك لا أثر له في كلام الإنسان.

[١-٢] ﴿إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر﴾ .

افتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر. والإشعار بأنه شيء عظيم يستتبع الإشعار بتنويه شأن النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم في ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر:١]. والكلام مسوق مساق البشارة وإنشاء العطاء لا مساق الأخبار بعطاء سابق.

وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم.

و ﴿ الكوثر﴾ : اسم في اللغة الخير الكثير صيغ على زنة فوعل، وهي من صيغ." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧١/٣٠

(٢) التحرير والتنوير، ٥٠٢/٣٠

" صفحة رقم ١١٤

كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد " (قوله عز وجل :) أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت (فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم الملائكة الذين وكلوا ببني آدم ، قاله الضحاك .

الثاني : هو الله القائم على كل نفس بما كسبت ، قاله قتادة .

الثالث : أنها نفسه .

وفي قوله تعالى :) قائم (وجهان :

أحدهما : يعني واليا ، كما قال تعالى) قائما بالقسط (أي واليا بالعدل .

الثاني : يعني عالما بما كسبت ، قال الشاعر :

فلولا رجال من قريش أعزة

سرقتم ثياب البيت والله قائم

ويحتمل) بما كسبت (وجهين :

أحدهما : ما كسبت من رزق تفضلا عليها فيكون خارجا مخرج الامتنان .

الثاني : ما كسبت من عمل حفظا عليها ، فيكون خارجا مخرج الوعد والوعيد

) وجعلوا لله شركاء (يعني أصناما جعلوها آلهة .

) قل سموهم (يحتمل وجهين :

أحدهما : قل سموهم آلهة على وجه التهديد .

الثاني : يعني قل صفوهم ليعلموا أنهم لا يجوز أن يكونوا آلهة .

) أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض (أي تخبرونه بما لا يعلم أن في الأرض إلها غيره .

) أم بظاهر من القول (فيها أربعة تأويلات :

أحدها : معناه بباطل من القول ، قاله قتادة ، ومنه قول الشاعر :

أعيرتنا ألبانها ولحومها

وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر." (١)

" صفحة رقم ١٨٣

---

(١) النكت والعيون ـ موافق للمطبوع، ١١٤/٣

أحدهما : أنه جمع النجوم الثابتة ، فعبر عنها بالنجم الواحد إشارة إلى الجنس .

الثاني : أنه الجدي وحده لأنه أثبت النجوم كلها في مركزه .

وفي المراد بالاهتداء بها قولان :

أحدهما : أنه أراد الاهتداء بها في جميع الأسفار ، قاله الجمهور .

الثاني : أنه أراد الاهتداء به في القبلة . قال ابن عباس : سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن قوله تعالى) وبالنجم هم يهتدون (قال (هو الجدي يا ابن عباس عليه قبلتكم ، وبه تهتدون في بركم وبحركم) . قوله عز وجل :) وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها (فيه وجهان :

أحدهما : لا تحفظوها ، قال الكلبي . الثاني : لا تشكروها وهو مأثور . ويحتمل المقصود بهذا الكلام وجهين :

أحدهما : أن يكون خارجا مخرج الامتنان تكثيرا لنعمته أن تحصى .

الثاني : أنه تكثير لشكره أن يؤدى . فعلى الوجه الأول يكون خارجا مخرج الامتنان . وعلى الوجه الثاني خارجا مخرج الغفران .

(النحل : (١٩ - ٢٤) والله يعلم ما . . . . .

" والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين." (١)

" صفحة رقم ٤٣٤

وروى أنه لما نزلت هذه الآية أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مناديه فنادى : من لم يتأدب بأدب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .

قوله عز وجل :) وأمر أهلك بالصلاة (فيه وجهان :

أحدهما : أنه أراد أهله المناسبين له .

والثاني : أنه أراد جميع من اتبعه وآمن به ، لأنهم يحلون بالطاعة له محل أهله .

) واصطبر عليها (أي اصبر على فعلها وعلى أمرهم بها .

---

(١) النكت والعيون ـ موافق للمطبوع، ١٨٣/٣

) ولا نسألك رزقا نحن نرزقك (هذا وإن كان خطابا للنبي (صلى الله عليه وسلم) فالمراد به جميع الخلق أنه تعالى يرزقهم ولا يسترزقهم ، وينفعهم ولا ينتفع بهم ، فكان ذلك أبلغ في **الامتنان** عليهم .

) والعاقبة للتقوى (أي وحسن العاقبة لأهل التقوى .

(طه : (١٣٣ - ١٣٥) وقالوا لولا يأتينا . . . . .

" وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى " ( ) قل كل متربص (أي منتظر ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : منتظر النصر على صاحبه .

الثاني : ظهور الحق في عمله .

) فتربصوا (وهذا تهديد .

) فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى (يحتمل وجهين :

أحدهما : فستعلمون بالنصر من أهدى إلى دين الحق .

الثاني : فستعلمون يوم القيامة من أهدى إلى طريق الجنة ، والله أعلم . .." (١)

" صفحة رقم ١١٩

أحدها : العافية والصحة ، قاله السدي .

الثاني : ما رزقهم الله من خير الدنيا ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : ما أعطاهم من طاعته في الدنيا وجنته في الآخرة ، قاله الحسن .

الرابع : الظفر والغنائم ، حكاه النقاش .

ويحتمل خامسا : إن الحسنة في الدنيا الثناء وفي الآخرة الجزاء .

) وأرض الله واسعة (فيها قولان :

أحدهما : أرض الجنة رغبهم في سعتها ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : هي أرض الهجرة ، قاله عطاء .

ويحتمل ثالثا : أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه . ورزق الله واسع ، وهو أشبه لأنه أخرج سعتها مخرج **الامتنان** بها .

---

(١) النكت والعيون . موافق للمطبوع، ٣/٤٣٤

) إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (فيه أربعة أوجه :
أحدها : يعني بغير من عليهم ولا متابعة ، قاله السدي .
الثاني : لا يحسب لهم ثواب عملهم فقط ولكن يزدادون على ذلك ، قاله ابن جريج .
الثالث : لا يعطونه مقدرا لكن جزافا .
الرابع : واسعا بغير تضييق قال الراجز :
يا هند سقاك بلا حسابه
سقيا مليك حسن الربابة
وحكي عن علي كرم الله وجهه قال : كل أجر يكال كيلا ويوزن وزنا إلا أجر الصابرين فإنه يحثى حثوا .
(الزمر : (١٣ - ١٦) قل إني أخاف . . . . .
" قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون " (قوله عز وجل :) قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة (فيه ثلاثة تأويلات :
أحدها : خسروا أنفسهم بإهلاكها في النار ، وخسروا أهليهم بأن لا يجدوا في النار أهلا ، وقد كان لهم في الدنيا أهل ، قاله مجاهد وابن زيد .
الثاني : خسروا أنفسهم بما حرموها من الجنة وأهليهم من الحور العين الذين أعدوا [لهم] في الجنة ، قاله الحسن وقتادة .
الثالث : خسروا أنفسهم وأهليهم بأن صاروا هم بالكفر إلى النار ، وصار أهلوهم بالإيمان إلى الجنة وهو محتمل .
(الزمر : (١٧ - ٢٠) والذين اجتنبوا الطاغوت . . . . .
" والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين." (١)
" صفحة رقم ٦
الثاني : أنهم جميع العرب لأنه لم يكن لهم كتاب ولا كتب منهم إلا قليل ، قاله المفضل .

---

(١) النكت والعيون ـ موافق للمطبوع، ١١٩/٥

فلو قيل : فما وجه الامتنان بأن بعث نبيا أميا ؟

فالجواب عنه ثلاثة أوجه :

احدها : لموافقته ما تقدمت بشارة الأنبياء به .

الثاني : لمشاكلة حاله لأحوالهم ، فيكون أقرب إلى موافقتهم .

الثالث : لينتفي عنه سوء الظن في تعلمه ما دعا إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها .

) يتلوا عليهم ءاياته (يعني القرآن .

) ويزكيهم (فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان ، وهو معنى قول ابن عباس .

الثاني : يطهرهم من الكفر والذنوب ، قاله ابن جريج ومقاتل .

الثالث : يأخذ زكاة أعمالهم ، قاله السدي .

) ويعلمهم الكتاب (فيه ثلاثة تلأويلات :

أحدها : أنه القرآن ، قاله الحسن .

الثاني : أنه الخط بالقلم ، قاله ابن عباس ، لأن الخط إنما فشا في العرب بالشرع لما أمروا بتقييده بالخط .

الثالث : معرفة الخير والشر كما يعرفونه بالكتاب ليفعلوا الخير ويكفوا عن الشر ، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق .

) والحكمة (فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن الحكمة السنة ، قاله الحسن .." (١)

" صفحة رقم ١٦٣

يطرحن كل معجل نشاج

لم يكس جلدا في دم أمشاج .

الثاني : أن الأمشاج الألوان ، قاله ابن عباس ، وقال مجاهد :

نطفة الرجل بيضاء وحمراء ، ونطفة المرأة خضراء وصفراء .

(١) النكت والعيون . موافق للمطبوع، ٦/٦

روى سعيد عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما سبق أو علا فمنه يكون الشبه) . الثالث : أن الأمشاج : الأطوار ، وهو أن الخلق يكون طورا نطفة ، وطورا علقة ، وطورا مضغة ، ثم طورا عظما ، ثم يكسى العظم لحما ، قاله قتادة .

الرابع : أن الأمشاج العروق التي تكون في النطفة ، قاله ابن مسعود .

وفي قوله) نبتليه (وجهان :

أحدهما : نختبره .

الثاني : نكلفه بالعمل .

فإن كان معناه الاختبار ففيما يختبر به وجهان :

أحدهما : نختبره بالخير والشر ، قاله الكلبي .

الثاني : نختبر شكره في السراء ، وصبره في الضراء ، قاله الحسن .

ومن جعل معناه التكليف ففيما كلفه وجهان :

أحدهما : العمل بعد الخلق ، قاله مقاتل .

الثاني : الدين ، ليكون مأمورا بالطاعة ، ومنهيا عن المعاصي .

) فجعلناه سميعا بصيرا (ويحتمل وجهين :

أحدهما : أي يسمع بالأذنين ويبصر بالعينين أمتنانا بالنعمة عليه .

الثاني : ذا عقل وتمييز ليكون أعظم في الامتنان حيث يميزه من جميع الحيوان .

وقال الفراء ومقاتل : في الآية تقديم وتأخير أي فجعلناه سميعا بصيرا أن نبتليه ، فعلى هذا التقديم في الكلام اختلفوا في ابتلائه على قولين :

أحدهما : ما قدمناه من جعله اختبارا أو تكليفا .." (١)

"ويجمع على " أساريل ".

وأجاز الكوفيون " أسارلة " و " أسارل " ، كأنهم يجيزون التعويض بالياء وعدمه ، نحو : " فرازنة " و " فرازين ".

قال الصفار : لا نعلم أحدا يجيز حذف الهمزة من أوله.

---

(١) النكت والعيون . موافق للمطبوع، ١٦٣/٦

قال ابن الجوزي : ليس في الأنبياء من له اسمان غيره إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن له أسماء كثيرة.

وقد قيل في المسيح إنه اسم علم لعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ غير مشتق ، وقد سماه الله ـ تعالى ـ روحا والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون ، وإلياس وذو الكفل ، صولات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قول : ﴿اذكروا نعمتي﴾.

" اذكرو " فعل وفاعل ، و " نعمتي " مفعول.

وقال " ابن الأنباري " : لا بد له من حذف مضاف تقديره : شكر نعمتي.

و " الذكر " ـ بضم الذال وكسرها ـ بمعنى واحد ، ويكونان باللسان والجنان.

وقال " الكسائي " : هو ـ بكسر ـ اللسان ، وبالضم للقلب ضده النسيان ، والذي محله اللسان ضده الصمت ، سواء قيل : إنهما بمعنى واحد أم لا.

و " الذكر " ـ بالفتح ـ خلاف الأنثى ، و " الذكر " ـ أيضا ـ الشرف ومنه قوله تعالى : ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ [الزخرف : ٤٤].

فصل في النعمة النعمة اسم لما ينعم به ، وهي شبيهة بـ " فعل " بمعنى " مفعول " نحو : ذبح ورعي ، والمراد الجمع ؛ لأنها اسم جنس ، قال الله تعالى : ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوهآ﴾ [النحل : ١٨].

قال " أبو العباس المقرىء " : " النعمة " ـ بالكسر ـ هي الإسلام ، قال تعالى : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعدآء فألف بين قلوبكم﴾ [آل عمران : ١٠٣].

وقال : ﴿فضلا من الله ونعمة والله﴾ [الحجرات : ٨] يعني الإسلام.

وقال : ﴿رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علي وعلى والدي﴾ [النمل : ١٩].

وقوله : ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ [آل عمران : ١٧١] أي : الإسلام.

فصل في حد النعمة قال ابن الخطيب : حد النعمة أنها المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير.

وقيل : الحسنة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير ، قالوا : وإنما زدنا هذا ؛ لأن النعمة إن كانت حسنة يستحق بها الشكر ، وإن كانت قبيحة لم يستحق بها الشكر.

قال : والحق أن هذا القيد غير معتبر ؛ لأنه يجوز أن يستحق الشكر بالإحسان ، وإن كان فعله محظورا ؛ لأن جهة استحقاق الشكر غير جهة استحقاق الذم والعقاب ، فأي امتناع في اجتماعهما ؟ ألا ترى أن الفاسق يستحق الشكر بإنعامه والذم بمعصيته ، فلم لا يجوز هاهنا أن يكون الأمر كذلك ؟ واعلم أن نعم الله على العبد لا تتناهى ، ولا تحصى كما قال تعالى : ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم : ٣٤].

فإن قيل : فإذا كانت النعم غير متناهية ، وما لا يتناهى لا يحصل به العلم في حق العبد ، فكيف أمر بتذكرها في قوله : ﴿اذكروا نعمتي﴾ ؟ والجواب : أنها غير متناهية بحسب الأشخاص والأنواع ، إلا أنها متناهية بحسب الأجناس ، وذلك يكفي في التذكر الذي يفيد العلم بوجود الصانع الحكيم.

فصل في بيان هل لله نعمة على الكافر في الدنيا اختلفوا في أنه هل لله نعمة على الكافر في الدنيا ؟ فمنهم من قال : هذه النعم القليلة في الدنيا لما كانت مؤدية إلى الضرر في الآخرة لم تكن نعمة ، فإن من جعل السم في الحلوى لم يعد النفع الحاصل من أكل الحلوى نعمة لما كان ذلك سبيلا إلى الضرر العظيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين﴾ [آل عمران : ١٧٨].

ومنهم من قال : إنه ـ تعالى ـ وإن لم ينعم على الكافر بنعمة الدين ، فلقد أنعم عليه بنعمة الدنيا [وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني رحمه الله].

قال ابن الخطيب : وهذا القول أصوب ويدل عليه وجوه : أحدها : قوله تعالى : ﴿ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ [البقرة : ٢١] الآيات فأمر الكل بطاعته لمكان هذه النعم وهي نعمة الخلق والرزق.

وثانيها : قوله تعالى : ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا﴾ [البقرة : ٢٨] وذكره في معرض الامتنان ، وشرح النعم ، ولو لم يصل إليهم من الله ـ تعالى ـ شيء من النعم لما صح ذلك.

وثالثها : قوله : ﴿يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وهذا نص صريح ؛ لأنه خطاب لأهل الكتاب ، وكانوا من الكفار ، وكذا قوله تعالى : ﴿يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التى أنعمت عليكم﴾ [البقرة : ٤٧] إلى قوله : ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ [البقرة : ٤٩].

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في." [1]

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/١٦٤

"يجوز أن تكون " خير " ليست للتفضيل ، ويكون المراد به خيرا من الخيور ، ويكون " من " صفة لقوله : " خير ".

قال أبو البقاء : " من " في موضع نصب بخير ، تقديره [بما يفضل من ذلك ، ولا يجوز أن يكون صلة لخير ؛ لأن ذلك يوجب أن تكون الجنة وما فيها] مما رغبوا فيه بعضا لما زهدوا فيه من الأموال ونحوها ، وتابعه في ذلك أبو حيان.

فصل كيفية النظم أنه – تعالى – لما عدد نعم الدنيا بين – هنا – أن منافع الآخرة خير منها كما قال في آية أخرى : ﴿والآخرة خير وأبقى ﴾ [الأعلى : ١٧] ؛ لأن نعم الدنيا مشوبة بالأنكاد ، فانية ، ونعم الآخرة خالصة ، باقية.

قوله : ﴿للذين اتقوا﴾ يجوز فيه أربعة أوجه : أحدها : أنه متعلق بخير ، ويكون الكلام تم هنا ، وترفع " جنات " على خبر مبتدأ محذوف ، تقديره هو جنات ، أي ذلك الذي هو خير مما تقدم جنات ، فالجملة بيان وتفسير للخيرية ، ومثله قوله تعالى : ﴿قل أفأنبئكم بشر من ذالكم﴾ [الحج : ٧٢] ، ثم قال : ﴿النار وعدها الله الذين كفروا﴾ [الحج : ٧٢] ويؤيد ذلك قراءة " جنات " – بكسر التاء – على أنها بدل من " بخير " فهي بيان للخير.

والثاني : أن الجار خبر مقدم ، و " جنات " مبتدأ مؤخر ، أو يكون " جنات " فاعلا بالجار قبله – وإن لم يعتمد – عند من يرى ذلك ، وعلى هذين التقديرين ، فالكلام تم عند قوله : ﴿من ذالكم﴾ ، ثم ابتدأ بهذه الجملة ، وهي – أيضا مبينة ومفسرة للخيرية.

وأما الوجهان الأخيران فذكرهما مكي – مع جر " جنات " – يعني أنه لم يجز الوجهين إلا إذا جررت " جنات " بدلا من " خير ".

الوجه الأول : أنه متعلق بـ " أؤثنبئكم ".

الوجه الثاني : أنه صفة لـ " خير ".

ولا بد من إيراد نصه ؛ فإن فيه غشكالا ، قال – رحمه الله – بعد أن ذكر أن " للذين " خبر مقدم ، و " جنات " مبتدأ – : " ويجوز الخفض في " جنات " على البدل من " خير " على أن تجعل اللام في " للذين " متعلقة بـ " أؤنبئكم " ، أو تجعلها صفة لـ " خير " ، ولو جعلت اللام متعلقة بمحذوف قامت مقامه لم يجز خفض " جنات " ؛ لأن حروف الجر ، والظروف

٨٣

إذا تعلقت بمحذوف ، وقد قامت مقامه – صار فيها ضمير مقدر مرفوع ، واحتاجت إلى ابتداء يعود عليه ذلك الضمير ، كقولك : لزيد مال ، في الدار زيد ، خلفك عمرو ، فلا بد من رفع " جنات " ، إذا تعلقت اللام بمحذوف ، ولو تعلقت بمحذوف على أن لا ضمير فيها لرفعت " جنات " بفعلها ، وهو مذهب الأخفش في رفعه ما بعد الظروف وحروف الخفض بالاستقرار ، وإنما يحسن ذلك عند حذاق النحويين إذا كانت الظروف ، أو حروف الخفض صفة لما قبلها ، فحينئذ يتمكن ويحسن رفع الاسم بالاستقرار ، وقد شرحنا ذلك وبيناه في أمثلة ؛ وكذلك إذا كانت أحوالا ".

فقد جوز تعلق هذه اللام بـ " أؤنبئكم " أو بمحذوف على أنها صفة لخير ، بشرط أن يجر لفظ " جنات " على البدل من " خير " وظاهره أنه لا يجوز ذلك مع رفع " جنات " وعلل ذلك بأن حروف الجر تتعلق بمحذوف ، يحمل الضمير ، فوجب أن يؤتى له بمبتدأ هو " جنات " وهذا الذي قاله من هذه الحيثية لا يلزم ؛ إذ لقائل أن يقول : أجوز تعلق اللام بما ذكرت من الوجهين مع رفع " جنات " على أنها خبر مبتدأ محذوف ، لا على الابتداء حتى يلزم ما ذكرت ولكن الوجهين ضعيفان من جهة أخرى ، وهو أن المعنى ليس واضحا بما ذكر مع أن جعله صفة لخير أقوى من جعلها متعلقة بـ " أؤنبئكم " ؛ إذ لا معنى له ، وقوله – في الظروف وحروف الجر – : إنها عند الحذاق إنما ترفع الفاعل إذا كانت صفات..

وكذلك إن كانت أحوالا – فيه قصور ؛ لأن هذا الحكم مستقر لها في مواضع : منها : الموضعان اللذان ذكرهما.

وثالثها : أن يقعا صلة.

ورابعها : أن يقعا خبرا لمبتدأ.

وخامسها : أن تعتمد على نفي.

وسادسها : أن تعتمد على استفهام.

وقد تقدم تحرير هذا.

فصل قد بينا في قوله تعالى : ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة : ٢] معنى التقوى ، وبالجملة فإن المتقي هو الآتي بالواجبات ، المتحرز عن المحظورات.

وقيل : التقوى عبارة عن اتقاء الشرك ؛ لأن التقوى – في عرف القرآن – مختصة بالإيمان.

قال تعالى : ﴿وألزمهم كلمة التقوى ﴾ [الفتح : ٢٦] ، وظاهر اللفظ يطابق **الامتنان** بحقيقة التقوى ، وهي حاصلة عند حصول اتقاء الشرك وعرف القرآن مطابق لذلك ، فوجب حمله على من اتقى الكفر :

قوله : ﴿عند ربهم﴾ فيه أربعة أوجه :

٨٤

". (١)

"إذ لا تقتضي ترتيبا ؛ إلا أن الزمخشري رحمه الله تعالى خص هذا الوجه بكون الخطاب [للمؤمنين] في ﴿ يا أيها الناس﴾ لمعاصري الرسول عليه السلام فإنه قال : والثاني أنه يعطف على " خلقكم " ويكون الخطاب للذين بعث إليهم الرسول ، والمعنى : خلقكم من نفس آدم ؛ لأنه من جملة الجنس المفرع [منه] وخلق منها أمكم حواء.

فظاهر هذا خصوصية الوجه الثاني أن يكون الخطاب للمعاصرين ، وفيه نظر ، وقدر بعضهم مضافا في " منها " أي : " من جنسها زوجها " ، وهو قول أبي مسلم ، قال : وهو كقوله : ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾ [النحل : ٧٢] وقال ﴿إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم﴾ [آل عمران : ١٦٤] وقوله : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز﴾ [التوبة : ٢٨].

قال : وحواء لم تخلق من آدم ، وإنما خلقت من طينة فضلت من طينة آدم.

قال القاضي : والأول أقوى لقوله : ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾.

قال ابن الخطيب : " يمكن أن يجاب بأن كلمة " من " لابتداء الغاية ، فلما كان ابتداء الغاية وهو ابتداء التخليق والإيجاد وقع بآدم صح أن يقال : ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ وأيضا فالقادر على خلق آدم من التراب ، [كان قادرا أيضا على خلق حواء من التراب] ، وإذا كان كذلك فأي فائدة في خلقها من ضلع من أضلاعه ".

وقرئ " وخالق وباث " بلفظ اسم الفاعل ، وخرجه الزمخشري على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي : وهو خالق وباث.

ويقال : بث وأبث ومعناه " فرق " ثلاثيا ورباعيا.

قال ابن المظفر : " البث تفريقك الأشياء ".

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/١٠٠٠

يقال : بث الخيل في الغارة ، وبث الصياد كلابه ، وخلق الله الخلق : بثهم في الأرض ، وبثت البسطة إذا نشتريها.

قال تعالى : ﴿وزرابي مبثوثة﴾ [الغاشية : ١٦].

فإن قيل : ما المناسبة بين الأمر بالتقوى وما ذكر معه من الوصف ؟ فالجواب : لما ذكر أنه خلقنا من نفس واحدة ، وذلك علة لوجوب الانقياد علينا لتكاليفه ؛ لأنا عبيدة وهو

١٤١

مولانا ، ويجب على العبد الانقياد لمولاه ؛ ولأنه أنعم ومن بوجوه الإنعام والامتنان ، فأوجد وأحيا وعلم وهدى ، فعلى العبد أن يقابل تلك النعم بأنواع الخضوع والانقياد ؛ ولأنه بكونه موجدا وخالقا وربا يجب علينا عبادته ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ويلزم من ذلك ألا نوجب لتلك الأفعال ثوابا ؛ لأن أداء الحق لمستحقه لا يوجب ، وثواب هذا إن سلمنا أن العبد أتى بتلك الطاعات من عند نفسه ، فكيف وهذا محال ؛ لأن الطاعات لا تحصل إلا بخلق الله - تعالى - القدرة عليها ، والداعية إليها [ومتى حصلت القدرة والداعي كان] مجموعهما موجبا لصدور الطاعة ، فتكون تلك الطاعة إنعاما آخر.

وأيضا أنه خلقنا من نفس واحدة ، ذلك أيضا يوجب علينا طاعته لأن ذلك يدل على كمال القدرة ؛ لأن ذلك لو كان بالطبيعة لما تولد عن الإنسان إلا إنسان يشاكله ويشابهه في الخلقة والطبيعة ، ولما اختلف الناس في الصفات والألوان ، دل على أن الخالق قادر مختار عالم ، يجب الانقياد لتكاليفه ؛ ولأن الله تعالى عقب الأمر بالتقوى بالأمر بالإحسان إلى اليتامى والنساء والضعفاء وكونهم من نفس واحدة باعث على ذلك بكونه [وذلك لأن الأقارب لا بد أن] يكون بينهم مواصلة وقرابة ، وذلك يزيد في المحبة ، ولذلك يفرح الإنسان بمدح أقاربه ويحزن بذمهم فقدم ذكرهم ، فقال : ﴿من نفس واحدة﴾ ليؤكد شفقة بعضنا على بعض.

فإن قيل : لم لم يقل : وبث منها الرجال والنساء.

فالجواب : لأن ذلك يقتضي كونهما مبثوثين من نفسيهما ، وذلك محال ، فلهذا عدل إلى قوله : ﴿وبث منهما رجالا كثيرا ونسآء﴾.

وقوله : "كثيرا " فيه وجهان : أظهرهما : أنه نعت لـ " رجالا ".

قال أبو البقاء : ولم يؤنثه حملا على المعنى ؛ لأن " رجالا " بمعنى عدد أو جمع أو جنس كما ذكر الفعل المسند إلى جماعة لمؤنث لقوله تعالى : ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ [يوسف : ٣٠].

والثاني : أنه نعت لمصدر تقديره : وبث منهم بثا كثيرا ؛ وقد تقدم أن مذهب سيبويه في مثله النصب على الحال.

١٤٢

". (١)

"عطية – رحمه الله – : " والوجه عود ضمير المؤنث على ما تقتضيه الآية ضرورة ، أي : صورا ، أو أشكالا ، أو أجساما ، وعود الضمير المذكر على المخلوق المدلول عليه بـ " تخلق " ، ثم قال : " ولك أن تعيده على ما تدل عليه الكاف من معنى المثل ؛ لأن المعنى : وإذ تخلق من الطين مثل هيئته ، ولك أن تعيده على الكاف نفسها ، فتكون اسما في غير الشعر ".

انتهى ، وهذا القول هو عين ما قبله ، فإن الكاف أيضا بمعنى مثل ، وكونها اسما في غير الشعر ، لم يقل به غير الأخفش.

واستشكل الناس قول مكي المتقدم ؛ كما قدمت حكايته عن ابن عطية رضي الله عنه.

ويمكن أن يجاب عنه بأن قوله " عائد على الطائر " لا يريد به الطائر الذي أضيفت إليه الهيئة ، بل الطائر المصور ، والتقدير : وإذ تخلق من الطين طائرا صورة الطائر الحقيقي ، فتنفخ فيه ، فيكون طائرا حقيقيا ، وأن قوله " عائد على الهيئة " لا يريد الهيئة المجرورة بالكاف ، بل الموصوفة بالكاف ، والتقدير : وإذ تخلق من الطين هيئة مثل هيئة الطائر ، فتنفخ فيها ، أي : في الموصوفة بالكاف التي نسب خلقها إلى عيسى – عليه السلام – وأما كونه كيف يعود ضمير مذكر على هيئة ، وضمير مؤنث على الطائر [لأن قوله : " ويجوز عكس هذا " يؤدي إلى ذلك ؟ فجوابه أنه جاز بالتأويل ؛ لأنه تؤول الهيئة بالشكل ، ويؤول الطائر] بالهيئة ؛ فاستقام ، وهو موضع تأمل ، وقال هنا " بإذني " أربع مرات عقيب أربع جمل ، وفي آل عمران " بإذن الله " مرتين ؛ لأن هناك موضع إخبار ، فناسب الإيجاز ، وهنا مقام تذكير بالنعمة والامتنان ، فناسب الإسهاب ؛ وقوله " بإذني " حال : إما من الفاعل ، أو من المفعول.

قوله : ﴿وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني﴾ قال الخليلي : من ولد أعمى ، ومن ولد بصيرا ثم أعمي.

قوله تعالى : ﴿وإذ تخرج الموتى ﴾ : من قبورهم أحياء " بإذني " ، أي : بفعلي ذلك عند دعائك ، أي : عند قولك للميت : اخرج بإذن الله ، وذلك الإذن في هذه الأفاعيل ، إنما هو على معنى إضافة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/١٣٥٥

حقيقة الفعل إلى الله – تبارك وتعالى – كقوله : ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ [آل عمران : ١٤٥] أي : إلا بخلق الله الموت فيها.

قوله تعالى : ﴿وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات﴾ يعني : الواضحة والمعجزات الظاهرة ، وقيل : المراد بالبينات الظاهرة هذه البينات التي تقدم ذكرها ، فيكون الألف واللام للمعهود.

روي أنه – عليه الصلاة والسلام – لما أظهر هذه المعجزات العجيبة ، قصد اليهود قتله ، فخلصه الله تعالى منهم ، حيث رفعه إلى السماء.

٦٠١

." (١)

"وللخصم أن يجيب بأنه يجوز أن يذكر الكل ، ثم يعطف عليه ذكر بعض أقسامه لكونه أشرف الأقسام ، وأما إذا ذكر شيء آخر كان المذكور أولا مغايرا للمذكور ثانيا ، وها هنا ذكر سبع المثاني.

ثم عطف عليه القرآن فوجب التغاير.

ويجاب عليه : بأن بعض الشيء مغاير لمجموعه ، فلم لا يكفكي هذا القدر من المغايرة في حسن العطف ؟ .

واعلم أنه لما كان المراد بالسبع المثاني هو الفاتحة ؛ دل على أنها أفضل سور القرآن ، لأن إفرادها بالذكر مع كونها جزءا من القرآن ؛ يدل على مزيد اختصاصها بالفضلية ، وأيضا : لما أنزلها مرتين دل ذلك على أفضليتها ، وشرفها ، ولما واظب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قرءاتها في جميع الصلوات طول عمره ، وما أقام [سورة أ خرى] مقامها في شيء من الصلوات ، دل على على وجوب قراءتها ، وألا يقوم شيء من القرآن مقامها.

القول الثاني : السبع المثاني : هي السبع الطوال ، قاله ابن عمر ، وسعيد بن جبير في بعض الروايات عن ابن عباس . رضي الله عنهما . وإنما سميت السبع الطوال مثاني ؛ لأن الفرائض ، والحدود ، والأمثال والخبر ، والعبر ثنيت فيها.

وأنكر الربيع هذا القول ، وقال : الآية مكية ، وأكثر هذه السورة مدنية ، وما نزل منها من شيء في مكة ، فكيف تحمل هذه الآية عليها ؟ .

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/١٩٥٦

وأجاب قوم عن هذا بأنه ـ تعالى ـ جل ذكره ـ أنزل القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم أنزل على نبيه منه نجوما ، فلما أنزله إلى سماء الدنيا ، وحكم بإنزاله عليه فهو جملة من آتاه ، وإن لم ينزل عليه بعد.

وفي هذا الجواب نظر ، فإن قوله تعالى : ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني﴾ ذكره في [معرض] **الامتنان** ، وهذا الكلام إنما يصدق ، إذا وصل ذلك إلى محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فأما ما لم يصله بعد ، فلا يصدق ذلك عليه.

وأما قوله : إنه لما حكم بإنزاله على محمد ، كان ذلك جاريا مجرى ما نزل عليه ، فضعيف ؛ لأن إقامة مالم ينزل عليه مقام النازل عليه مخالف للظاهر.

القول الثالث : أن السبع المثاني : هون القرآن ، وهو منقول عن ابن عباس ـ رضي الله

٤٨٧

عنه ـ في بعض الروايات ، وهوق ول طاوس ـ رضي الكله عنه ـ لقوله تعالى : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر﴾ [الزمر : ٢٣] فوصف كل القرآن بكونه مثاني ؛ لأنه كرر فيه دلائل التوحيد ، والنبوة ، والتكاليف.

قالوا : وهو ضعيف ؛ لأنه لو كان المراد بالسبع المثاني القرآن لكان قوله : ﴿والقرآن العظيم﴾ ، عطفا على نفسه ، وذلك غير جائز.

وأجيب عنه : بأنه إنما حسن العطف فيه لاختلاف اللفظين ؛ كقول الشاعر : ٣٢٩١. إلى الملك القرم وابن الهمام

وليث الكتيبة في المزدحم

جزء : ١١ رقم الصفحة : ٤٨٥

واعلم أن هذا ، وإن كان جائزا إلا أنهم أجمعوا على أن الأصل خلافه.

القول الرابع : أنه يجوز أن يكون المراد بالسبع الفاتحة ، وبالمثاني كل القرآن ، ويكون التقدير : ولقد آتيناك سبع آيات هي الفاتحة ، وفي من جملة المثاني الذي هو القرآن ، وهذا عين الأول.

و " من " في قوله : " من المثاني ".

قال الزجاج ـ رحمه الله تعالى ـ : فيها وجهان : أحدهما : أن تكون للتبعيض من القرآن ، أي : ولقد آتيناك سبع آيات من جملة الآيات التي يثنى بها على الله ، وآتيناك القرآن العظيم.

ويجوز أن تكون " من " صفة ، والمعنى : أتيناك سبعا هي المثاني ، كقوله تعالى : ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ [الحج : ٣٠] ، أي اجتنبوا الأوثان ؛ لان بعضها رجس.

قوله : " والقرآن " فيه أوجه : أحدها : أنه من عطف بعض الصفات على بعض ، أي : الجامع بين هذه النعتين.

الثاني : أنه من عطف العام على الخاص ، إذ المراد بالسبع : إما الفاتحة ، أو الطوال ، فكأنه ذكر مرتين بجهة الخصوص ، ثم باندراجه في العموم.

الثالث : أن الواو مقحمة ، وقرىء " والقرآن " بالجر عطفا على : " المثاني ".

قوله تعالى : ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا﴾ الآية لما عرف رسوله عظيم نعمه عليه فما يتعلق بالدين ، وهو أنه تعالى آتاه سبعا من المثاني ، والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة في الدنيا فقال : ﴿لا تمدن عينيك﴾ ، أي لا تشتغل سرك ، وخاطرك بالالتفات إلى الدينا ، وقد أوتيت القرآن العظيم.

قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ " من أوتي القرآن فرأى أن أحدا أوتي من الدنيا أفضل

٤٨٨

." (١)

"النون هنا ، وفي المؤمنين ، والباقون بفتح النون فيهما.

وهذه الجملة يجوز أن تكون مفسرة للعبرة ، كأنه قيل : كيف العبرة ؟ فقيل : نسقيكم من بين فرث ، ودم لبنا خالصا ، ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ ، [مضمر] ، والجملة جواب لذلك السؤال ، أي : هي ، أي : العبرة نسقيكم ، ويكون كقوله : " تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ".

واختلف الناس : هل سقى ، وأسقى لغتان بمعنى واحد ، أم بينهما فرق ؟ .

خلاف مشهور ، فقيل : هما بمعنى واحد ، وأنشد جمعا بين اللغتين فقال : [الوافر] ٣٣٣٣ -

سقى قومي بني مجد وأسقى

نميرا والقبائل من هلال

دعى للجميع بالسقي ، والخصب ، و " نميرا " هو المفعول الثاني ، أي : ما نميرا ، وللداعي لأرض بالسقيا وغيرها : أسقى فقط.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/٣١٦٦

وقال الأزهري - رحمه الله - : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ، ومن السماء ، أو نهر يجري أسقيته ، أي : جعلته شربا له ، وجعلت له منه مسقى ، فإذا كان للمنفعة قالوا : " سقى " ، ولم يقولوا : " أسقى ".

وقال الفارسي : " سقيته حتى روي ، وأسقيته نهرا جعلته له شربا ".

وقيل : سقاه إذا ناوله الإناء ؛ ليشرب منه ، ولا يقال من هذا أسقاه.

وقرأ أبو رجاء " يسقيكم " بضم الياء من أسفل ، وفي فاعله وجهان : أحدهما : هو الله - تعالى - .

والثاني : أنه ضمير النعم المدلول عليه بالأنعام ، أي : نعما يجعل لكم سقياه.

وقرئ : " تسقيكم " بفتح التاء من فوق.

قال ابن عطية : وهي ضعيفةز قال أبو حيان : " وضعفها عنده - والله أعلم - أنه أنث في : " نسقيكم " وذكر في

٩٩

قوله : " مما في بطونه " ، ولا ضعف من هذه الجهة ؛ لأن التذكير ، والتأنيث باعتبارين ".

قال شهاب الدين : وضعفها عنده من حيث المعنى ، وهو أن المقصود الامتنان على الخلق ، فنسبة السقي إلى الله هو الملائم لا نسبته إلى الأنعام.

قوله : ﴿مما في بطونه﴾ يجوز أن تكون " من " للتبعيض ، وأن تكون لابتداء الغاية وعاد الضمير ها هنا على الأنعام مفردا مذكرا.

قال الزمخشري : ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال ، كقولهم " ثوب أسمال " ، ولذلك رجع الضمير إليه مفردا ، وأما ﴿في بطونها﴾ [المؤمنون : ٢١] في سورة المؤمنين ، فلأن معناه الجمع ، ويجوز أن يقال في " الأنعام " وجهان : أحدهما : أن يكون جمع تكسير : " نعم " كأجبال في جبل.

وأن يكون اسما مفردا مقتضيا لمعنى الجمع ، فإذا ذكر ، فكما يذكر " نعم " في قوله : [الرجز]

٣٣٣٤ - في كل عام نعم يحوونه

يلقحه قوم وينتجونه

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٩٨

وإذا أنث ففيه وجهان : أنه تكسير نعم ، وأنه في معنى الجمع.

قال أبو حيان : أما ما ذكره عن سيبويه ، ففي كتابه في هذا الباب ، ما كان على مثال مفاعل ، ومفاعيل ما نصه : " وأما أجمال ، وفلوس فإنها تنصرف ، وما أشبهها ؛ لأنها ضارعت الواحد ، ألا ترى أنك تقول : أقوال ، وأقاويل ، وأعراب ، وأعاريب ، وأيد ، وأياد فهذه الأحرف تخرج إلى مثال : مفاعل ، ومفاعيل كما يخرج إليه الواحد ، إذا كسر الجمع ، وأما مفاعل ، ومفاعيل ، فلا يكسر ؛ فيخرج الجمع إلى بناء غير هذا البناء ؛ لأن هذا البناء هو الغاية فلما ضارعت الواحد صرفت ".

ثم قال : وكذلك الفعول لو كسرت مثل الفلوس ؛ لأن يجمع جمعا لأخرجته إلى فعائل كما تقول : جدود ، وجدائد ، وركوب ، وركائب ، وركاب.

ولو فعلت ذلك بمفاعل ، ومفاعيل ، لم يجاوز هذا البناء ، ويقوي ذلك أن بعض العرب تقول : " أتي " للواحد فيضم الألف ، وأما أفعال ؛ فقد تقع للواحد ، من العرب من يقول : " هو الأنعام " ، قال - الله عز وجل - : ﴿نسقيكم مما في بطونه﴾.

وقال أبو الخطاب :

١٠٠

سمعت من العرب من يقول : هذا ثوب أكياش.

قال : والذي ذكره سيبويه : هو الفرق بين مفاعل ومفاعيل ، وبين أفعال وفعول وإن كان الجميع أبنية للجمع من حيث إن مفاعل ، ومفاعيل لا يجمعان ، وأفعال وفعول قد يخرجان إلى بناء شبه مفاعل ، أو مفاعيل فلما كانا قد يخرجان إلى ذلك انصرفا ، ولم ينصرف " مفاعل " و " مفاعيل " لشبه ذينك بالمفرد من حيث إنه يمكن جمعها وامتناع هذين من الجمع ، ثم قوي شبههما بالمفرد بأن بعض العرب يقول في " أتى " " أتى " بضم الهمزة ، يعني أنه قد جاء نادرا فعول ، من غير المصدر للمفرد ، وبأن بعض العرب قد يوقع أفعالا للمفرد من حيث أفرد الضمير فيقول : هو الأنعام ، وإنما ذلك على سبيل المجاز ؛ لأن الأنعام في معنى النعم والنعم يفرد ؛ كحما قال الشاعر : [الوافر] ٣٣٣٥ - تركنا الخيل والنع المفدى

وقلنا للنساء بها : أقيمي

". (١)

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٣٢٢٤

"فإذا يعود فراجع أدراج

وعلمت أني إن أبيت نزاله

أني من الحجاج لست بناج

فقوله : فأكر تصوير للحالة التي لابسها.

قال شهاب الدين : أما قوله : وأيضا فإن جواب الاستفهام ينعقد مع الاستفهام.

إلى قوله : إنما هو مترتب على الإنزال.

منتزع من كلام أبي البقاء.

قال أبو البقاء : إنما رفع الفعل هنا وإن كان قبله استفهام لأمرين : أحدهما : أنه استفهام بمعنى الخبر ، أي قدر رأيت فلا يكون له جواب.

والثاني : أن ما بعد الفاء ينصب إذا كان المستفهم عنه سببا له ، ورؤيته لإنزال الماء لا يوجب اخضرار الأرض ، وإنما يجب على الماء.

وأما قوله : وإنما عبر بالمضارع.

فهو معنى كلام الزمخشري بعينه ، وإنما غير عبارته وأوسعها.

١٣٨

وقوله : " فتصبح " استدل به بعضهم على أن الفاء لا تقتضي التعقيب ، قال : لأن اخضرارها متراخ عن إنزال الماء ، هذا بالمشاهدة.

وأجيب عن ذلك بما نقله عكرمة من أن أرض مكة وتهامة على ما ذكروا أنها تمطر الليلة فتصبح الأرض غدوة خضرة ، فالفاء على بابها.

قال ابن عطية : شاهدت هذا في السوس الأقصى نزل المطر ليلا بعد قحط فأصبحت تلك الأرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف.

وقيل : تراها كل شيء بحسبه ، وقيل : ثم جمل محذوفة قبل الفاء تقديره : فتهتز وتربو وتنبت ، بين ذلك قوله تعالى : ﴿فإذآ أنزلنا عليها المآء اهتزت وربت وأنبتت﴾ [الحج : ٥] وهذا من الحذف الذي يدل عليه فحوى الكلام كقوله تعالى : ﴿فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا﴾ [يوسف : ٤٥ - ٤٦] إلى آخر القصة.

و " تصبح " يجوز أن تكون الناقصة وأن تكون التامة " مخضرة " حال قاله أبو البقاء.

وفيه بعد عن المعنى إذ يصير التقدير فتدخل الأرض في وقت الصباح على هذه الح ال.

ويجوز فيها أيضا أن تكون على بابها من الدلالة على اقتران مضمون الجملة بهذا الزمن الخاص ، وإنما خص هذا الوقت لأن الخضرة والبساتين أبهج ما ترى فيه ويجوز أن تكون بمعنى تصير.

وقرأ العامة " مخضرة " بضم الميم وتشديد الراء اسم فاعل من اخضرت فهي مخضرة ، والأصل مخضررة بكسر الراء الأولى فأدغمت في مثلها.

وقرأ بعضهم " مخضرة " بفتح الميم وتخفيف الراء بزنة مبقلة ومسبعة.

والمعنى : ذات خضروات وذات سباع وذات بقل.

ثم قال : ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي : أنه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به ، لأن الأرض إذا أصبحت مخضرة ، والسماء إذا أمطرت كان ذلك سببا لعيش الحيوان أجمع.

ومعنى " خبير " أي ؛ عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر

١٣٩

ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

وقال ابن عباس : " لطيف " بأرزاق عباده " خبير " بما في قلوب ه م من القنوط.

وقال الكلبي : " لطيف " في أفعاله " خبير " بأعمال خلقه.

وقال مقاتل : " لطيف " باستخراج النبت " خبير " بكيفية خلقه.

﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ عبيدا وملكا ، وهو غني عن كل شيء لأنه كامل لذاته ، ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد في الحكمة من مطر ونبات فخلق هذه الأشياء رحمة للحيوانات وإنعاما عليهم لا لحاجة به إلى ذلك ، وإذا كان كذلك كان إنعامه خاليا عن غرض عائد إليه ، فكان مستحقا للحمد ، فكأنه قال : إنه لكونه غنيا لم يفعل ما فعله إلا للإحسان ، ومن كان كذلك كان مستحقا للحمد فوجب أن يكون حميدا ، فلهذا قال : ﴿وإن الله لهو الغني الحميد﴾.

قوله تعالى : ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ أي ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ، ولا أشد من الحديد ، ولا أكثر هيبة من النار ، وقد سخرها لكم , وسخر الحيوانات أيضا حتى ينتفع بها للأكل والركوب والحمل.

قوله : " والفلك " العامة على نصب " الفلك " وفيه وجهان : أحدهما : أنها عطف على ﴿ما في الأرض﴾ أي سخر لكم ما في الأرض وسخر لكم الفلك ، وأفردها بالذكر وإن اندرجت بطريق العموم

تحت " ما " في قوله ﴿ما في الأرض﴾ لظهور الامتنان بها ، ولعجيب تسخيرها دون سائر المسخرات ، و " تجري " على هذا حال.

والثاني : أنها عطف على الجلالة ، وتقديره : ألم تر أن الفلك تجري في البحر ، ف " تجري " خبر على هذا.

وضم لام " الفلك " هنا الكسائي فيما رواه عن الحسن ، وهي قراءة ابن مقسم ، وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة والأعرج وأبو حيوة والزعفراني برفع " والفلك " على الابتداء ، و " تجري " بعده الخبر.

ويجوز أن يكون ارتفاعه

١٤٠

(١) ".

"الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله ، لأنه وكزه تأديبا ، ومثل ذلك ربما حسن.

وقيل : من المخطئين ، فبين أنه فعله على وجه لا تجوز المؤاخذة به ، فيعد كافرا لنعمه.

قوله : ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾.

العامة على تشديد ميم " لما " وهي " لما " التي هي حرف وجوب عند سيبويه.

أو بمعنى " حين " عند الفارسي.

روي عن حمزة بكسر اللام وتخفيف الميم ، أي : لتخوفي منكم ، و " ما " مصدرية.

وهذه القراءة تشبه قراءته في " آل عمران " : ﴿لمآ آتيتكم﴾ [آل عمران : ٨١].

وقد تقدمت مستوفاة.

(قال الزمخشري : إنما جمع الضمير في " منكم " و " خفتكم " مع إفراده في " تمنها " و " عبدت " ، لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله لقوله : ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ [القصص : ٢٠] ، وأما ارامتنان والتعبد فمنه وحده).

فصل والمعنى : إني فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكا ، وكان مني في حكم السهو ، فلم أستحق التخويف الذي يوجب الفرار ، ومع ذلك فررت منكم لما خفتكم عن قولكم : ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ [القصص : ٢٠] فبين بذلك ألا نعمة له عليه في الفلة ، بل بأن يكون مسيئا فيه أقرب.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/٣٧٣٩

فصل وقد ورد لفظ " الفرار " على أربعة : الأول : بمعنى الهرب ، كهذه الآية ، ومثله ﴿لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت﴾ [الأحزاب : ١٦].

١٥

الثاني : بمعنى الكراهية ، قال تعالى : ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه﴾ [الجمعة : ٨] أي : تكرهونه.

الثالث : بمعنى اشتغال المرء بنفسه ، قال تعالى : ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه﴾ [عبس : ٣٤ - ٣٥] أي : لا يلتفت إليهم ، لاشتغاله بنفسه.

الرابع : بمعنى التباعد ، قال تعالى : ﴿فلم يزدهم دعآئى إلا فرارا﴾ [نوح : ٦] أي : تباعدا.

ثم بين نعم الله عليه بعد الفرار ، فكأنه قال : أسأتم وأحسن الله إلي بأن وهب لي حكما.

قرأ عيسى : " حكما " بضم الكاف إتباعا.

والمراد بالحكم : العلم والفهم ، قاله مقاتل : وقيل : النبوة.

والأول أقرب ، لأن المعطوف غير المعطوف عليه ، والنبوة مفهومة من قوله : ﴿وجعلني من المرسلين﴾.

قوله : " وتلك نعمة " فيه وجهان : أحدهما : أنه خبر على سبيل التهكم ، أي : إن كان ثم نعمة فليست إلا أنك جعلت قومي عبيدا لك.

وقيل : " ثم " حرف استفهام محذوف لفهم المعنى ، أي : " أو تلك " ، وهذا مذهب الخفش ، وجعل من ذلك :

٣٨٩٨ - أفرح ان أرزأ الكرام

وقد تقدم هذا مشبعا في النساء عند قوله : ﴿ومآ أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ [النساء : ٧٩] وفي غيره.

١٦

قوله : " أن عبدت " فيه أوجه : أحدها : أنه في محل رفع عطف بيان لـ " تلك " كقوله : ﴿وقضينآ إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلآء مقطوع﴾ [الحجر : ٦٦].

الثاني : أنها في محل نصب مفعولا من أجله.

الثالث : أنها بدل من " نعمة ".

الرابع : أنها بدل من هاء " تمنها ".

الخامس : أنها مجرورة بباء مقدرة ، أي : بأن عبدت.

السادس : أنها خبر مبتدأ مضمر ، أي : هي أن عبدت.

السابع : أنها منصوبة بإضمار " أعني " والجملة من " تمنها " صفة لـ " نعمة " و " تمن " يتعدى بالباء ، فقيل : هي محذوفة ، أي : تمن بها.

وقيل : ضمن " تمن " معنى " تذكر ".

ويقال : عبدت الرجل وأعبدته وتعبدته واستعبدته : [إذا اتخذته عبدا].

فصل اختلفوا في تأويل " أن عبدت " : فحملها بعضهم على الإقرار , وبعضهم على الإنكار.

وعلى كلا القولين فهو جواب لقوله : ﴿قال ألم نربك فينا﴾ [الشعراء : ١٨].

فمن قال : هو إقرار ، قال : عدها موسى نعمة منه عليه حيث رباه ولم يقتله كما قتل سائر غلمان بني إسرائيل ، ولم يستعبده كما استعبد بني إسرائيل ، أي : بلى و ﴿وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل﴾ وتركتني فلم تستعبدني.

ومن قال : هو إنكار قال : قوله : " وتلك نعمة " هو على طريق الاستفهام ، كما تقدم في إعرابها ، يعني : أو تلك نعمة ، فحذفت ألف الاستفهام ، كقوله : ﴿فهم الخالدون﴾ [الأنبياء : ٣٤] وقال الشاعر : ٣٨٩٩ - تروح من الحي أم تبتكر

وماذا يضيرك لو تنتظر

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ١٣

أي : أتروح من الحي ، وقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة :

١٧

٣٩٠٠ - لم أنس يوم الرحيل وقفتها

وطرفها في دموعها غرق

وقولها والركاب واقفة

تتركني هكذا وتنطلق

." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٣٩١٤

"فسواء يعبر بألف سنة أو بخمسين ألف سنة) لا يتفاوت إلا أن المبالغة بالخمسين أكثر ، وسيأتي بيان فائدتها في موضعها إن شاء الله تعالى.

وقيل : ألف سنة وخمسون ألف سنة كلها في القمة يكون على بعضهم أطول ، وعلى بعضهم أقصر معناه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض مدة أيام الدنيا ثم يعرج أي يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا وانقطاع أمر الأمراء أو حكم الحكماء في يوم مقداره ألأف سنة وهو يوم القيامة فأما قوله ﴿خمسين ألف سنة﴾ فإنه أراد على الكافر يجعل ذلك اليوم عليه مقدار خمسين ألف سنة وعلى المؤمن دون ذلك حتى جاء في الحديث أنه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا ، وقال إبراهيم التيمي (لا) يكون على المؤمن (إلا) كما بين الظهر والعصر ، ويجوز أن يكون هذا إخبارا عن شدته ومشقته وهوله ، وقال ابن أبي مليكة : دخلت أنا وعبد الله بن فيروز علي ابن عباس فسألناه عن هذه الآية وعن قوله : ﴿خمسين ألف سنة﴾ فقال ابن عباس : أيام سماها الله لا أدري ما هي أكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم.

قوله : " مما تعدون " العاملة على الخطاب ، والحسن ، والسلمي ، وابن وثاب والأعمش بالغيبة ، وهذا الجار صفة " لألف " أو " لسنة ".

قوله : " ذلك عالم " العامة على رفع " عالم " و " العزيز " و " الرحيم " ، على أن يكون " ذلك " مبتدأ ، و " عالم " خبره و " العزيز والرحيم " خبران أو نعتان أو " العزيز الرحيم " مبتدأ وصفة.

و " الذي أحسن " خبره ، أو " العزيز الرحيم " خبر مبتدأ مضمر.

وقرأ زيد (بن علي) بجر الثلاثة وتخريجها على إشكالها : أن يكون " ذلك " إشارة إلى الأمر المدبر ، ويكون فاعلا (ليعرج) ، والأوصاف الثلاثة بدل من الضمير في " إليه " أيضا.

وتكون الجلمة بينهما اعتراضا.

٤٧٥

قوله : " الذي أحسن " يجوز أن يكون تابعا لما قبله في قراءتي الرفع والخفض ، وأن يكون خبرا آخر وأن يكون خبر مبتدأ مضمر ، وأن يكون منصوبا على المدح.

قوله : " خلقه " قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : بسكون اللام ، والباقون بفتحها فأما الأولى ففيها أوجه : أحدها : أن يكون " خلقه " بدلا من : "كل شيء " بدل اشتمال والضمير عائد على "كل شيء " وهذا هو المشهور.

الثاني : أنه بدل من كل.

والضمير في " هذا " عائد على " الباري " تعالى ، ومعنى " أحسن " حسن لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما يقتضيه الحكمة ، فالمخلوقات كلها حسنة.

الثالث : أن يكون " كل شيء " مفعولا أول ، و " خلقه " مفعولا ثانيا ، على أن يضمن " أحسن " معنى أعطى وألهم.

قال مجاهد : وأعطى كل جنس شكله ، والمعنى خلق كل شيء على شكله الذي خص به.

الرابع : أن يكون " كل شيء " مفعولا ثانيا قدم و " خلقه " مفعولا أول أخر على أن يضمن " أحسن " معنى ألهم وعرف.

قال الفراء : ألهم كل شيء خلقه فيما يحتاجون إليه فيكون أعلمهم ذلك.

(وقال أب البقاء : ضمن " أحسن " معنى " عرف " وأعرف على نحو ما تقدم إلا أنه لا بد أن يجعل الضمير) لله تعالى ، ويجعل الخلق بمعنى المخلوق أي عرف مخلوقاته كل شيء يحتاجون إليه فيؤول المعنى إلى معنى قوله : ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : ٥٠].

الخامس : أن تعود الهاء على " الله " تعالى وأن يكون " خلقه " منصوبا على المصدر المؤكد لمضمون الجملة كقوله : ﴿صنع الله﴾ [النمل : ٨٨] ، وهو مذهب سيبويه

٤٧٦

أي خلقه خلقا ، ورجح على بدل الاشتمال بأن فيه إضافة المصدر إلى فاعله ، وهو أكثر من إضافته إلى المفعول وبأنه أبلغ في الامتنان لأنه إذا قال : ﴿أحسن كل شيء﴾ كان أبلغ من ﴿أحسن خلق كل شيء﴾ ؛ لأنه قد يحسن الخلق وهو المحاولة ولا يكون الشيء في نفسه " حسنا " وإذا قال : ﴿أحسن كل شيء﴾ اقتضى أن كل (شيء) خلقه حسن بمعنى أنه وضع كل شيء في موضعه.

وأما القراءة الثانية " فخلق " فيها فعل ماض ، والجملة صفة للمضاف أو أو المضاف إليه فتكون منصوبة المحل أو مجرورته.

قوله : " وبدأ " العاملة على الهمز.

وقرأ الزهري " بدأ " بألف خالصة وهو خارج عن قياس تخفيفها إذ قياسه بين بين على أن الأخفش حكى قريبا.

وجوز أبو حيان أن يكون من لغة الأنصار ، يقولون في " بدا " بكسرها وبعدها ياء كقول عبد الله بن رواحة الأنصاري.

٤٠٦٢ – باسم الإله وبه بدينا

ولو عبدنا غيره شقينا

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٤٧٠

". (١)

"تقدم في نظيره والظاهر أن الضميرين في " لهم " و " ذريتهم " لشيء واحد ويراد بالذرية آباؤهم المحمولين في سفينة نوح – عليه (الصلاة و) السلام – أو يكون الضميران مختلفين أي ذرية القرون الماضية ووجه الامتنان عليهم أنهم في ذلك مثل الذرية من حيث إنهم ينتفعون بها كانتفاع أولئك.

وقوله " ما يركبون " هذا يحتمل أن يكون من جنس الفلك إن أريد بالفلك سفينة نوح – عليه (الصلاة و) السلام – خاصة وأن يكون من جنس آخر كالإبل ونحوه ولهذا سمتها العرب سفن البر فقوله : " من مثله " أي من مثل الفلك أو من مثل ما ذكر من خلق الأزواج ، (في قوله " وآخر من شكله أزواج ") والضمير في " لهم " يحتمل أن يكون عائدا إلى الذرية أي حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين ما يركبون ، ويحتمل أن يعود إلى العباد الذين عاد إليهم قوله : " وآية لهم " وهو الظاهر لعود الضمائر إلى شيء واحد و " من " يحتمل أن تكون صلة أي خلقنا لهم مثله وأن تكون للبيان لأن المخلوق كان أشياء.

وقال من مثل الفلك للبيان وتقدم اشتقاق الذرية في البقرة ، واختلاف القراء فيها في الأعراف.

فصل قال المفسرون : المراد بالذرية الآباء والأجداد واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد أي حملنا آباءكم في الفلك ، والألف للتعريف أي فلك نوح وهو مذكور في قوله : ﴿واصنع الفلك﴾ [هود : ٣٧] وهو معلوم عند العرب.

وقال الأكثرون : الذرية لا تطلق إلا على الولد وعلى هذا فالمراد إما أن يكون الفلك

٢٢٥

المعين الذي كان لنوح وإما أن يكون المراد الجنس كقوله تعالى : ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ [الزخرف : ١٢] وقوله : ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ [فاطر : ١٢] وقوله : ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ [العنكبوت : ٦٥] إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف في الفلك لبيان الجنس فإن كان المراد

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/٤٠٩٩

سفينة وح ففيه وجوه : الأول : أن المراد : حملنا أولادهم إلى يوم القيامة في ذلك الفلك ولولا ذلك لما بقي للأب نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله : ﴿حملنا ذريتهم﴾ إشارة إلى كمال النعمة أي لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة وهذا قول الزمخشري ويحتمل أن يقال : إنه تعالى إنما خص الذريات بالذكر لأن الموجودين كانوا كفارا لا فائدة في وجودهم فقال : ﴿حملنا ذريتهم﴾ أي لم يكن الحمل حملا لهم وإنما كان حملا لما في أصلابهم من المؤمنين كمن حمل صندوقا لا قيمة له وفيه جواهر (ف)قيل : إنه لم يحمل الصندوق إنما حمل ما فيه.

الثاني : أن المراد بالذرية الجنس أي حملنا أجناسهم لأن ذلك الحيوان من ءسنه ونوعه ، والذرية تطلق على الجنس ولذلك تطلق على النساء كنهي النبي - عليه (الصلاة و) السلام) عن قتل الذراري أي النساء لأن المرأة وإن كانت صنفا غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال : ذرايناً أي أمثالنا.

الثالث : أن الضمير في قوله : ﴿وآية لهم﴾ عائد على العباد ، حيث قال : ﴿يا حسرة على العباد﴾ [يس : ٣٠] وقال بعد ذلك : ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم﴾ (وإذا علم هذا فكأنه تعالى قال : " وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ".

ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير في الموضعين أشخاصا معينين كقوله : ﴿ولا تقتلوا اا أنفسكم﴾ [النساء : ٢٩] ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ [الأنعام : ٦٥] وكذلك

٢٢٦

". (١)

"والمفعول محذوف أي أصاب جنوده أي حيث وجههم وجعلهم يصوبون صوب المطر ، و " الشياطين " نسق على " الريح " و " كل بناء " بدل من " الشياطين " كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية.

روي أن سليمان - عليه (الصلاة و) السلام - أمر الجان فبنت له إصطخر ، فكانت فيها قرار مملكة النزل قيدما ، وبنت هل الجان أيضا " تدمر " وبين المقدس وباب جبرون وباب البريد الذين بدمشق على أحد الأقوال ، وبنوا له ثلاثة قصور باليمن غدان وشالخين ويبنون ومدينة صنعاء.

قوله : " وغواص " نسق على " بناء " أي يغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ.

وألا بصيغة المبالغة لأنه في معرض الامتنان.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٢٤٢

قوله : ﴿وآخرين﴾ عطف على "كل " فهو داخل في حكم البدل وتقدم شرح " مقرنين في الأصفاد " آخر سورة إبراهيم.

٤٢٤

فصل قال ابن الخطيب : دلت هذه الآية على أن الشياطين لها قولة عظيمة قدروا ب٥ا على بناء تلك الأبنية العطيمة التي لا يقدر عليها البشر ، وقدروا على الغوص في البحار واستخراد الآلئ وقيدهم سليمان - عليه (الصلاة و) السلام - .

ولقائل أن يوقل : هذه الشياطين إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة ؛ فإن كانت كثيفة وجب أن يراهم من كان شديد الحاسة ؛ إذ لو جاز أن لا نراهم مع كثافة أجسادهم فليجز أن تكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة ولا نراها ولا نسمعها وذلك وذلك دخول في السفسطة وإن كانت أجسادهم لطيفة فمثل ها يمتنع أن يكون موصوفا بالقوة الشديدة ، ويلزم أيضا أن تتفرق أجسادهم وأن تتمزق بالرياح العاصفة القوية وأن يموتوا (في الحال) وذلك يمنع وصفهم بالقوة وأيضا فالجن والشياطين وإن كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة فلم لا يقتلون العلماء والزهاد في زماننا هذا ولم لا يخربون ديار الناس مع أن المسلمين يبالغون في إظهار لعنتهم وعدواتهم وحيث لم يحس بشيء من ذلك علمنا أن القول بإثبات الجن ضعيف.

قال ابن الخطيب : واعلم أن أصحابنا يجوزون أن تكون أجسادهم كثيفة مع أنا لا نراهم وأيضا لا يبعد أن تكون أجسادهم لطيفة بمعنى عدم الكون ولكنها صلبة بمعنى أنها لا تقل التفرق.

وأما الجبائي فقد سلم أنها كانت كثيفة الأجسام ، وزعم أن الناس كانوا يشاهدونهم في زمن سليمان - عليه (الصلاة و) السلام - ثم إنه لما توفي سليمان - عليه (الصلاة و) السلام - أمات الله أولئك الجن والشياطين وخلق أنواعا أخر من الجن والشياطين تكون أجسادهم في غاية الرقة ، ولا يكون لهم شيء من القوة ، والموجود في زماننا من الجن والشياطين ليس إلا من هذا الجنس - والله أعلم - .

قوله : ﴿هذا عطآؤنا﴾ أي قلنا له : هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك ، قال ابن عباس : أعط من شئت وامنع من شئت.

قوله : " بغير حساب " فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه متعلق " بعطاؤنا " أي أعطيناك بغير حساب ولا تقدير.

وهو دلالة على كثرة الإعطاء.

٤٢٥

الثاني : أنه حال من " عطاؤنا " أي في حال كونه غير محاسب عليه لأن جم كثير يعسر على الحساب ضبطه.

الثالث : أنه متعلق " بامنن " أو " أمسك " ، ويجوز أن يكون حالا من فاعلهما أي غير محاسب عليه.

فصل قال المفسرون : معناه لا حرج عليك فيما أعطيت وفيما (أ) مسكت ، قال الحسن : ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه تبعة إلا سليمان ، فإنه (إن) أعطى أجر إن لم يعط لم يكن عليه تبعة.

وقال مقاتل : هذا في أمر الشياطين عين خل من شئت منهم وأمسك من شئت (منهم) في وثاقك لا تبعة عليك فيما تتعطاه.

قوله : ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ نسقا على اسم " إن " هو " لزلفى " وقرأ الحسن وابن أبي عبلة برفعه على الابتداء ، وخبره مضمر ، لدلالة ما تقدم عليه ، ويقفان على (لزلفى) ويبتدئان بـ " حسن مآب " ؛ أي وحسن مآب له أيضا.

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٤١٢

قوله : (تعالى) : ﴿واذكر عبدنآ أيوب﴾ كقول " (واذكر) عبدنا داود " وفيه الثلاثة الأوجه ، و " إذ نادى " بدل منه بدل اشتمال أي بأني ، وقوله : ﴿أني﴾ جاء به على حكاية كلامه الذي ناداه بسببه ولو لم يحكه لقال : " إنه مسه " لأن غائب.

٤٢٦

." (١)

"ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا يقولن أحدكم : عبدي وأمتي ، وليقل : غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي ".

قوله : ﴿لو نشآء لجعلناه حطاما﴾.

أتى هنا بجواب " لو " مقرونا بـ " اللام " ، وهو الأكثر ؛ لأنه مثبت ، وحذف في قوله : ﴿جعلناه أجاجا﴾ [الواقعة : ٧٠] ؛ لأن المنة بالمأكول أعظم منها بالمشروب.

قاله الزمخشري.

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٣٢٤

وهذا منقوض بقوله : ﴿ولو نشآء لطمسنا﴾ [يس : ٦٦] و ﴿ولو نشآء لمسخناهم﴾ [يس : ٦٧] ، وذلك أن أمر الطمس أهون من أمر المسخ ، وأدخل فيهما " اللام ".

وأجاب الزمخشري بجواب آخر فقال : ﴿ولو نشاء لجعلناه حطاما﴾ كان أقرب الذكر ، فاستغنى باللام فيه عن ذكرها ثانيا.

قال ابن الخطيب : وهذا ضعيف ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ولو نشآء لطمسنا على أعينهم﴾ [يس : ٦٦] مع قوله : ﴿ولو نشآء لمسخناهم﴾ [يس : ٦٧] أقرب من قوله : ﴿لجعلناه حطاما﴾ ، و ﴿جعلناه أجاجا﴾ [الواقعة : ٧٠] اللهم إلا أن تقول هناك : أحدهما قريب من الآخر ذكرا لا معنى ؛ لأن الطمس لا يلزمه المسخ ولا بالعكس ، وأما المأكول يكون معه المشروب في الدهر فالأمران متقاربان لفظا ومعنى.

فصل في الكلام على هذه الآية قال الماوردي : هذه الآية تتضمن أمرين : أحدهما : **الامتنان** عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم.

الثاني : البرهان الموجب للاعتبار ؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره ، وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعا أخضر ، ثم قوي مشتدا أضعاف ما كان عليه ، فهو بإعادة من أمات أحق عليه وأقدر ، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة ، ثم قال : ﴿لو نشآء لجعلناه حطاما﴾ أي : متكسرا ، يعني : الزرع والحطام الهشيم الهالك الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء ، فنبه بذلك على أمرين :

٤٢٠

أحدهما : ما أولاهم به من النعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاما ليشكروه.

الثاني : ليعتبروا بذلك في أنفسهم كما أنه يجعل الزرع حطاما إذا شاء ، وكذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا.

قوله : ﴿فظلتم تفكهون﴾.

قرأ العامة : بفتح الظاء ، بلام واحدة وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في " طه ".

وأبو حيوة وأبو بكر في رواية : بكسر الظاء.

وعبد الله الجحدري : " فظللتم " على الأصل بلامين ، أولاهما مكسورة.

وروي عن الجحدري : فتحها ، وهي لغة أيضا.

والعامة : " تفكهون " بالهاء.

ومعناه : تندمون ، وحقيقته : تلقون الفكاهة من أنفسكم ، (ولا تلقى) الفكاهة إلا من الحزن ، فهو من باب " تحرج وتأثم وتحوب ".

وقيل : " تفكهون ".

تتعجبون بذهابها ما نزل بكم في زرعكم.

قاله عطاء والكلبي ومقاتل.

وقيل : تتندمون مما حل بكم.

قاله الحسن وقتادة وغيرهما.

وقيل : تلاومون.

وقيل : تتفجعون ، وهذا تفسير باللازم.

وقرأ أبو حزام العكلي : " تفكنون " بالنون ، أي : تندمون.

قال ابن خالويه : " تفكه " تعجب ، و " تفكن " تندم.

وفي الحديث : " مثل العالم كمثل الحمة ، يأتيها البعداء ويتركها القرباء ، فبينا هم إذ غار ماؤها فانتفع به قوم ، وبقي قوم يتفكنون " ، أي : يتندمون.

قال الفراء : والنون ، لغة عكل.

وفي الصحاح : " التفكن " التندم على ما فات.

وقيل : التفكه : التكلم فيما لا يعنيك.

٤٢١

ومنه قيل للمزاح : فكاهة بالضم.

فأما الفكاهة – بالفتح – فمصدر " فكه الرجل " بالكسر ، فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحا.

قوله : " إنا لمغرمون ".

قرأ أبو بكر : " أئنا " بالاستفهام ، وهو على أصله في تحقيق الهمزتين ، وعدم إدخال ألف بينهما.

والباقون : بهمزة واحدة على الخبر.

وقيل : هذه الجملة قول مقدر على كلتا القراءتين ، وذلك في محل نصب على الحال ، تقديره : فظلتم تفكهون قائلين ، أو تقولون : إنا لمغرمون ؛ أي : لملزمون غرامة ما أنفقنا ، أو مهلكون لهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك.

قاله الزمخشري.

ومن مجيء الغرام بمعنى الهلاك قوله : [الخفيف] ٤٦٩٧ - إن يعذب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالي

جزء : ١٨ رقم الصفحة : ٤١٨

قال ابن عباس وقتادة : الغرام : العذاب.

ومنه قول ابن المحلم : [الطويل] ٤٦٩٨ - وثقت بأن الحلم مني سجية

وأن فؤادي مبتل بك مغرم

وقال مجاهد وعكرمة : لمولع بنا.

يقال : أغرم فلان بفلانة أي أولع بها ، ومنه الغرام ، وهو الشر اللازم.

وقال مجاهد أيضا : لملقون شرا.

وقال النحاس : " لمغرمون " مأخوذون من الغرام ، وهو الهلاك.

٤٢٢

." (١)

"سورة الجمعة

[مدنية] وهي إحدى عشرة آية ، ومائة وثمانون كلمة ، وسبعمائة وعشرون حرفا.

روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة".

وعنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : "نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هانا الله له ، قال : يوم الجمعة ، فاليوم لنا ، وغدا لليهود وبعد غد للنصارى".

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ٦٣

قوله تعالى : ﴿يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ تقدم الكلام فيه.

وقوله : ﴿الملك القدوس العزيز الحكيم﴾.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٨٠٠

وجه تعلق هذه السورة بما قبلها ، هو أنه تعالى قال في أول تلك السورة : " سبح لله " بلفظ الماضي وذلك لا يدل على التسبيح في المستقبل ، فقال في أول هذه السورة بلفظ [المستقبل] ليدل على التسبيح في الزمن الحاضر والمستقبل.

٦٨

وأما تعلق الأول بالآخر ، فلأنه تعالى ذكر في آخر تلك السورة أنه كان يؤيد أهل الإيمان حتى صاروا غالبين على الكفار وذلك على وفق الحكمة لا للحاجة إليه إذ هو غني على الإطلاق ومنزه عما يخطر ببال الجهلة ، وفي أول هذه السورة ذكر على ما يدل على كونه مقدسا ، ومنزها عما لا يليق بحضرته العلية ثم إذا كان خلق السماوات والأرض بأجمعهم في تسبيح حضرة الله تعالى فله الملك ، ولا ملك أعظم من هذا على الإطلاق ، ولما كان الملك كله له تعالى فهو الملك على الإطلاق ، ولما كان الكل خلقه فهو المالك على الإطلاق.

قوله : ﴿الملك القدوس﴾.

قرأ العامة : بجر " الملك " وما بعده نعتا لله ، والبدل ضعيف لاشتقاقهما.

وقرأ أبو وائل وسلمة بن محارب ورؤبة بالرفع على إضمار مبتدأ مقتض للمدح.

وقال الزمخشري : " ولو قرىء بالنصب على حد قولهم : " الحمد لله أهل الحمد ، لكان وجها ".

قورأ زيد بن علي : " القدوس " بفتح القاف ، وقد تقدم ذلك.

و " يسبح " من جملة ما يجري فيه اللفظان ، ك " شكره وشكر له ونصحه ونصح له وسبح وسبح له ".

فإن قيل : " الحكيم " يطلق أيضا على الغير كما يقال في لقمان : إنه حكيم.

فالجواب : أن الحكيم عند أهل التحقيق هو الذي يضع الأشياء مواضعها ، والله تعالى حكيم بهذا المعنى.

قوله : ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾.

تقدم الكلام في " الأمي والأميين " جمعه.

و " يتلو " وما بعده صفة لـ " رسول " صلى الله عليه وسلم.

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : " الأميون " العرب كلهم من كتب منهم ومن لم يكتب ؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب.

وقيل : الأميون الذي لا يكتبون ، وكذلك كانت قريش.

وروى منصور عن إبراهيم قال : " الأمي " الذي لا يقرأ ولا يكتب.

٦٩

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – الأميون الذين ليس لهم كتاب ولا نبي بعث فيهم ، وقيل : الأميون الذي هم على ما خلقوا عليه.

وقرىء : " الأمين " بحذف ياء النسب.

قوله : ﴿رسولا منهم﴾.

يعني محمدا صلى الله عليه وسلم وما من حي من العرب إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة وقد ولدوه.

وقال ابن إسحاق : إلا بني تغلب ، فإن الله طهر نبيه صلى الله عليه وسلم منهم لنصرانتيهم ، فلم يجعل لهم عليه ولادة ، وكان أميا لم يقرأ من كتاب ولم يتعلم صلى الله عليه وسلم.

قال الماوردي : فإن قيل : فما وجه **الامتنان** بأن بعث الله نبيا أميا ؟ .

فالجواب من ثلاثة أوجه : أحدها : لموافقته ما تقدم من بشارة الأنبياء.

الثاني : لمشاكلة حاله لأحوالهم فيكون أقرب لموافقتهم.

الثالث : لينفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعى إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها.

قال القرطبي : " وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوته ".

قوله : ﴿يتلو عليهم آياته﴾ يعني القرآن " ويزكيهم " أي : يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان.

قاله ابن عباس.

وقيل : يطهرهم من دنس الكفر والذنوب.

قاله ابن جريج ومقاتل.

وقال السدي : يأخذ زكاة أموالهم ، " ويعلمهم الكتاب " يعني : القرآن ، " والحكمة " يعني السنة.

قاله الحسن.

وقال ابن عباس : " الكتاب " الخط بالقلم ، لأن الخط إنما نشأ في العرب بالشرع لما أمروا بتقييده بالخط.

وقال مالك بن أنس : " الحكمة " الفقه في الدين.

وقد تقدم في البقرة.

٧٠." (١)

"المعنى : ألا يعلم الخالق خلقه ، وإن شئت جعلته من أسماء المخلوق ، والمعنى : ألا يعلم الله من خلق ، ولا بد أن يكون الخالق عالما بمن خلقه ، وما يخلقه.

قال ابن المسيب : بينما رجل واقف بالليل في شجر كثير ، وقد عصمت الريح ، فوقع في نفس الرجل ، أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق ؟ فنودي من جانب الغيضة بصوت عظيم : ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ ؟ .

وقال أبو إسحاق الإسفراييني : من أسماء صفات الذات ما هو للعلم ، منها " العليم " ، ومعناه : تعميم جميع المعلومات ، ومنها " الخبير " ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون ومنها " الحكيم " ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف ، ومنها " الشهيد " ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ، ومعناه : ألا يغيب عنه شيء ، ومنها " الحافظ " ويختص بأنه لا ينسى شيئا ، ومنها " المحصي " ويختص بأنه لا يشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور ، واشتداد الريح ، وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق ؟ وقد قال : ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.

فصل لما قال تعالى : ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ ذكر الدليل على أنه عالم ، فقال : ﴿ألا يعلم من خلق﴾ الآية ، والمعنى : أن من خلق لا بد وأن يكون عالما بما يخلقه ، لأن الخلق هو الإيجاد والتكوين على سبيل القصد ، والقاصد إلى الشيء ، لا بد وأن يكون عالما بحقيقة ذلك المخلوق كيفية وكمية.

قال ابن الخطيب : فنقول : لو كان العبد موجدا لأفعال نفسه لكان عالما بتفاصيلها ، وهو غير عالم لأن التفاوت بين الحركة السريعة ، والبطيئة إنما هو لتحلل السكنات ، فالفاعل للحركة البطيئة قد يفعل حركة ، وسكونا ، ولم يخطر بباله ذلك فضلا عن كميته ، ولأن المتحرك لا يعرف عدد أجزاء الحركات إلا إذا عرف عدد الأحياز التي هي بين مبدأ المسافة ومنتهاها وذلك يتوقف على علمه بالجواهر المفردة التي تنتقل في تلك المسافة وعددها ، وذلك غير معلوم ، ولأن النائم يتحرك مع عدم علمه ؛ ولأن قوله : ﴿ألا يعلم من خلق﴾ إنما يتصل بما قبله لو كان خالقا لكل ما يفعلونه سرا وجهرا ، وبما في الصدور.

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد ألا يعلم من خلق الأجساد ؟ .

فالجواب : أنه لا يجوز أن يكون المراد أن من فعل شيئا يكون عالما بشيء آخر.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/٤٩١٦

٢٤٥

قوله : ﴿وهو اللطيف الخبير﴾.

قيل : اللطيف : العالم.

وقيل : هو فاعل الأشياء اللطيفة التي يخفى علمها على أكثر الفاعلين ، ولهذا يقال : إن لطف الله تعالى بعباده عجيب ، والمراد به دقائق تدبيره لهم ، وهذا أقرب وإلا لكان ذكر الخبير بعد تكرارا.

قوله : ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا﴾ لما بين الدليل كونه عالما بما يسرون وما يعلنون ذكر بعده هذه الآية على سبيل التهديد كقول السيد لعبده الذي أساء إليه سرا : يا فلان أنا أعلم سرك وعلانيتك ، فاجلس في هذه الدار التي وهبتها منك ، وكل هذا الخير الذي هيأته لك ، ولا تأمن تأديبي ، فكأنه تعالى يقول : يا أيها الكفار أنا عالم بسركم وجهركم وضمائركم ، فخافوني ؛ فإن الأرض التي هي قراركم أنا ذللتها لكم ، ولو شئت خسف بكم.

والذلول : المنقاد الذي يذل لك ، والمصدر الذل وهو اللين والانقياد ، أي : لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والظلة.

وقيل : يثبتها بالجبال لئلا تزول بأهلها ، ولو كانت تتكفأ متمايلة لما كانت منقادة لنا.

وقيل : إشارة إلى التمكن من الزرع ، والغرس ، وشق العيون ، والأنهار ، وحفر الآبار ، وبناء الأبنية ، ولو كانت صلة لتعذر ذلك.

وقيل : لو كانت مثل الذهب والحديد لكانت تسخن جدا في الصيف ، وكانت تبرد جدا في الشتاء.

قوله : ﴿فامشوا في مناكبها﴾.

هذه استعارة حسنة جدا.

وقال الزمخشري : مثل لرط التذليل ، ومجاوزته الغاية ؛ لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير ، وأنهاه عن أن يطأه الراكب بقدمه ، ويعتمد عليه ، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك.

فصل في هذا الأمر هذا أمر إباحة ، وفيه إظهار الامتنان.

وقيل : هو خبر بلفظ الأمر ، أي : لكي تمشوا في أطرافها ، ونواحيها ، وآكامها وجبالها.

٢٤٦

". (١)

"جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٥٣

وقال الأخطل : [الكامل] ٥٠٥٢ - من كل مجتنب شديد أسره

سلس القياد تخاله مختالا

وقال أبو هريرة والحسن رضي الله عنهم : شددنا مفاصلهم.

قال أهل اللغة : الأسر : الربط ، ومنه : أسر الرجل ، إذا أوثق بالقيد ، وفرس مأسورة الخلق وفرس مأسورة بالغقب ، والإسار : هو القيد الذي يشد به الأقتاب ، تقول : أسرت القتب أسرا ، أي : شددته وربطته.

فصل في معنى الأسر قال ابن زيد : الأسر القوة ، والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنعم حين قابلوها بالمعصية ، أي : سويت خلقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي.

قال ابن لخطيب : وهذا الكلام يوجب عليهم طاعة الله تعالى من حيث الترغيب والترهيب ؛ أما الترغيب فلأنه هو الذي خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة ، وخلق لهم جميع ما يمكن الانتفاع به ، فإذا أحبوا اللذات العاجلة ، وتلك اللذات لا تحصل إلا بالمنتفع والمنتفع به ، وهما لا يحصلان إلا بتكوين

٥٤

الله وإيجاده ، وهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله - تعالى - وترك التمرد.

وأما الترهيب فإنه قادر على أن يميتهم وأن يسلب النعم عنهم ، وأن يلقي بهم في كل محنة وبلية ، فلأجل من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم الانقياد لله - تعالى - وترك التمرد ، فكأنه قيل : هب أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة حسنة إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان بالله - تعالى - والانقياد له ، فلم توسلتم به إلى الكفر بالله - تعالى - والإعراض عن حكمه.

قوله تعالى : ﴿وإذا شئنا بدلنآ أمثالهم تبديلا﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم.

وقال ابن الخطيب : معناه : إذا شئنا أهلكناهم ، وأتينا بأشباههم ، فجعلناهم بدلا منهم كقوله تعالى : ﴿على أن نبدل أمثالكم﴾ [الواقعة : ٦١] ، والغرض منه : بيان الاستغناء التام عنهم ، كأنه قيل : لا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/٤٩٨٩

حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين ألبتة ، وبتقدير إن ثبتت الحاجة ، فلا حاجة بنا إلى هؤلاء الأقوام ؛ فإنا قادرون على إبدالهم وإيجاد أمثالهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ [إبراهيم : ١٩] ، ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾ [النساء : ١٣٣].

وروى الضحاك عن ابن عباس – رضي الله عنهم – معناه : لغيرنا محاسنهم إلى أقبح الصور.

وقيل : أمثالهم في الكفر.

فصل في نظم الآية قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿وإذا شئنا﴾ : وحقه أن يجيء بـ " إن " لا بـ " إذا " ، كقوله تعالى : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم﴾ [محمد : ٣٨] ، ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ يعني : أن " إذا " للمحقق ، و " إن " لـلمحتمل ، وهو تعالى لم يشأ ذلك ، وجوابه أن " إذا " قد تقع موقع " إن " كالعكس.

قال ابن الخطيب : فكأنه طعن في لفظ القرآن وهو ضعيف ، لأن كل واحد من " إن " و " إذا " حرف شرط ، إلا أن حرف " إن " لا يستعمل فيما هو معلوم الوقوع ، فلا يقال : إن طلعت الشمس أكرمتك.

أما حرف " إذا " فإنه يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع تقول ابتداء : إذا طلعت الشمس – فها هنا – لما كان الله تعالى عالما أنه سيجيء وقت يبدل الله تعالى فيه أولئك الكفرة بأمقالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة لا جرم حسن استعمال حرف " إذا ".

٥٥

". (١)

"أي : رحمة لنفسي ، ووجه الدلالة من قوله " أين آوى هذه " ، أنه لو كان من الرباعي [لقال : أأوي – بضم الهمزة الأولى وسكون الثانية – لأنه مضارع آوى مثل أكرم ، وهذه الهمزة] المضمومة هي حرف المضارعة ، والثانية هي فاء الكلمة ، وأما همزة " أفعل " فمحذوفة على القاعدة ، ولم تبدل هذه الهمزة كما أبدلت في " أومن " لئلا يستثقل بالإدغام ، ولذلك نص الفراء على أن " تؤويه " من قوله تعالى ﴿وفصيلته التي تؤويه﴾ [المعارج : ١٣] لا يجوز إبدالها للثقل.

فصل قال ابن الخطيب : " يجدك " من الوجود الذي بمعنى العلم ، والمفعولان منصوبان بـ " واحد " ، والوجود من الله العلم ، والمعنى : ألم يعلمك الله يتيما فآوى.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٥١٥٩

قال القرطبي : " يتيما " لا أب لك ، قد مات أبوك ، " فآوى " ، أي : جعل لك مأوى تأوى إليه عند عمك أبي طالب ، فكلفك.

وقيل لجعفر بن محمد الصادق : لم أوتم النبي صلى الله عليه وسلم من أبويه ؟ فقال : لئلا يكون لمخلوق عليه حق.

وعن مجاهد : هو من قول العرب : درة يتيمة إذا لم يكن لها مثل ، فمجاز الآية ألم يجدك واحدا في شرفك ، لا نظير لك ، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ، ويحوطونك.

فصل في جواب سؤال أورد ابن الخطيب هنا سؤالا : وهو أنه كيف يحسن من الجواد أن يمن بنعمة ، فيقول : " ألم يجدك يتيما فلآوى " ، ويؤكد هذا السؤال أن الله – تعالى – حكى عن فرعون قوله لموسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ألم نربك فينا وليدا﴾ [الشعراء : ١٨] في معرض الذم لفرعون فما كان مذموما من فرعون ، كيف يحسن من الله تعالى ؟ قال : والجواب : أن ذلك يحسن إذا قصد بذلك تقوية قلبه ، ووعده بدوام النعمة ، ولهذا ظهر الفرق بين هذا الامتنان ، وبين امتنان فرعون ، لأن امتنان فرعون معناه : فما بالك لا تخدمني ، وامتنان الله تعالى : زيادة نعمه ، كأنه يقول : ما لك تقطع عني رجاءك ، ألست شرعت في تربيتك أتظنني تاركا لما صنعته ، بل لا بد وأ أتم النعمة كما قال تعالى : ﴿ولأتم نعمتي عليكم﴾ [البقرة : ١٥٠].

فإن قيل : إن الله تعالى من عليه بثلاثة أشياء ، ثم أمره أن يذكر نعمة ربه ، فما وجه المناسبة.

؟

٣٨٨

فالجواب : وجه المناسبة أن تقول : قضاء الدين واجب ، والدين نوعان : مالي وإنعامي ، والإنعامي أقوى وجوبا لأن المال قد يسقط بالإبراء ، والإنعامي يتأكد بالإبراء ، والمالي يقضي مرة فينجو منه الإنسان ، والإنعامي يجب عليه قضاؤه طول عمره ، فإذا تعذر قضاء النعمة القليلة من منعم ، هو مملوك ، فكيف حال النعمة العظيمة من المنعم المالك ، فكان العبد يقول : إلهي أخرجتني من العدم ، إلى الوجود بشرا مستويا ، طاهر الظاهر نجس الباطن ، بشارة منك ، تستر علي ذنوبي بستر عفوك ، كما سترت نجاستي بالجلد الظاهر ، فكيف يمكنني قضاء نعمتك التي لا حصر لها ، فيقول تبارك وتعالى : الطريق إلى ذلك أن تفعل في حق [عبيدي ذلك ، وكنت عائلا فأغنيتك ، فافعل في حق] الأيتام ذلك ثم إذا فعلت كل ذلك ، فاعلم أنما فعلته بتوفيقي ، ولطفي ، وإرشادي ، فكن أبدا ذاكرا لهذه النعم.

قوله : ﴿ووجدك ضآلا فهدى ﴾ ، أي : غافلا عما يراد من أمر النبوة فهداك أي : أرشدك ، والضلال هنا بمعنى الغفلة ، لقوله تعالى : ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ [طه : ٥٢] أي : لا يغفل ، وقال في حق نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف : ٣] وقيل : معنى قوله : " ضالا " لم تكن تدري القرآن ، والشرائع ، فهداك الله إلى القرآن ، وشرائع الإسلام ، قاله الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما.

قال تعالى : ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى : ٥٢] على ما تقدم في سورة الشورى.

وقال السدي والكلبي والفراء : وجدك ضالا ، أي : في قوم ضلال ، فهداهم الله بك ، أو فهداك إلى إرشادهم.

وقيل : وجدك ضالا عن الهجرة ، فهداك وقيل : " ضالا " ، أي : ناسيا شأن من الاستقناء حين سئلت عن أصحاب الكهف ، وذي القرنين ، والروح ، فأذكرك ، لقوله تعالى : ﴿أن تضل إحداهما﴾ [البقرة : ٢٨٢].

وقيل : ووجدك طالبا للقبلة فهداك إليها ، لقوله تعالى : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السمآء﴾ [البقرة : ١٤٤] ، ويكون الضلال بمعنى الطلب ؛ لأن الضال طالب.

وقيل : وجدك ضائعا في قومك ، فهداك إليهم ، ويكون الضلال بمعنى الضياع.

وقيل : ووجدك محبا للهداية ، فهداك إليها ؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة ومنه قوله تعالى : ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ [يوسف : ٩٥] ، أي : في محبتك.

قال الشاعر : [الكامل] ٥٢٤١ - هذا الضلال أشاب مني المفرقا

والعارضين ولم أكن متحققا

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٣٨٧

٣٨٩

عجبا لعزة في اختيار قطيعتي

بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

." (١)

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٥٣٠٠

"" صفحة رقم ٦٥٣ "

) يبين لكم (

إما ان يقدر المبين وهو الدين والشرائع وحذفه لظهور ما ورد الرسول لتبيينه أو يقدر ما كنتم تخفون وحذفه لتقدم ذكره

أو لا يقدر ويكون المعني

يبذل لكم البيان ومحله النصب على الحال أي مبينا لكم

) على فترة (

متعلق بجاءكم أي جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحي

(أن تقولوا)

كراهة ان تقولوا

) فقد جاءكم (

متعلق بمحذوف اي لا تعتذروا فقد جاءكم

وقيل كان بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما خمسمائة وستون سنة

وقيل ستمائة

وقيل أربعمائة ونيف وستون

وعن الكلبي كان بين موسى وعيسى الف وسبعمائة سنة وألف نبي وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم أربعة انبياء ثلاث من بني اسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسي

والمعنى **الامتنان** عليهم وان الرسول بعث اليهم حين انطمست آثار الوحي أحوج ما يكون اليه ليهشوا اليه ويعدوه أعظم نعمة من الله وفتح باب إلى الرحمة وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل اليهم من ينبههم عن غفلتهم

المائدة ٢٠ - ٢٤

(

المائدة : (٢٠) وإذ قال موسى . . . . .

جعل فيكم أنبياء (لأنه لم يبعث في أمة ما بعث في بني اسرائيل من الأنبياء." (١)

---

(١) تفسير الكشاف . موافق للمطبوع، ٦٥٣/١

"" صفحة رقم ٣١٢ "

عاصم من يريد أن يستنبئه من كل كبيرة ومن بعض الصغائر ، فما بال الكفر . ويجوز أن يكون قوله :) وأنت من الكافرين (حكما عليه بأنه من الكافرين بالنعم ، ومن كانت عادته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعا منه . أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهيته . أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم ، فقد كانت لهم آلهة يعبدونهم ، يشهد لذلك قوله تعالى :) ويذرك وءالهتك ((الأعراف : ١٢٧) وقرىء : (إلهتك) ، فأجابه موسى بأن تلك الفعلة إنما فرطت منه وهو) من الضالين (أي الجاهلين . وقراءة ابن مسعود : (من الجاهلين) ، مفسرة . والمعنى : من الفاعلين فعل أولى الجهل والسفه . كما قال يوسف لإخوته :) هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ((يوسف : ٨٩) أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل . أو الذاهبين عن الصواب . أو الناسين ، من قوله :) أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الاخرى ((البقرة : ٢٨٢) وكذب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه ، وبرأ ساحته ، بأن وضع الضالين موضع الكافرين ربئا بمحل من رشح للنبوة عن تلك الصفة ، ثم كر على امتنانه عليه بالتربية ، فأبطله من أصله واستأصله من سنخه ، وأبى أن يسمى نعمته إلا نقمة . حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل ؛ لأن تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته ، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت ، وتعبيدهم : تذليلهم واتخاذهم عبيدا . يقال : عبدت الرجل وأعبدته ، إذا اتخذته عبدا . قال : علام يعبدني قومي وقد كثرت

فيهم أباعر ما شاءوا وعبدان

فإن قلت : إذا جواب وجزاء معا ، والكلام وقع جوابا لفرعون ، فكيف وقع جزاء قلت : قول فرعون :) وفعلت فعلتك (فيه معنى : إنك جازيت نعمتي بما فعلت ، فقال له موسى : نعم فعلتها مجازيا لك ، تسليما لقوله ، لأن نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء . فإن قلت : لم جمع الضمير في منكم وخفتكم ؟ مع إفراده في تمنها وعبدت ؟ قلت : الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله ، بدليل قوله :) إن الملا يأتمرون بك ليقتلوك ((القصص : ٢٠) وأما الامتنان فمنه وحده . وكذلك التعبيد . فإن قلت :) تلك (إشارة إلى ماذا ،) أن عبدت (الرفع عطف بيان لتلك ، ونظيره قوله تعالى :) وقضينآ إليه ذلك الامر أن دابر هؤلآء مقطوع ((الحجر : ٦٦)) أن عبدت (ما محلها من الإعراف ؟ قلت : تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة ، لا يدري ما هي إلا." (١)

---

(١) تفسير الكشاف . موافق للمطبوع، ٣١٢/٣

"" صفحة رقم ٢١ "

النيران ، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك ، وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر ، ويطلع الشمس من مغربها فإن قلت : لم جعلت الشمس غير مدركة ، والقمر غير سابق ؟ قلت : لأن الشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة ، والقمر يقطع فلكه في شهر ، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطيء سيرها عن سير القمر خليقا بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره) وكل (التنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، والمعنى : كلهم ، والضمير للشموس والأقمار على ما سبق ذكره .

) وءاية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين (

يس : (٤١) وآية لهم أنا . . . . . .

) ذريتهم (أولادهم ومن يهمهم حمله . وقيل : اسم الذرية يقع على النساء ، لأنهن مزارعها وفي الحديث :

(٩٣٧) أنه نهى ع ن قتل الذراري يعني النساء .) من مثله (من مثل الفلك) ما يركبون (من الإبل وهي سفائن البر وقيل) الفلك المشحون (سفينة نوح ، ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها : أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين ، وفي أصلابهم هم وذرياتهم ، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ، وأدخل في التعجيب من قدرته ، في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح . و) من مثله (من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق) لا صريخ (لا مغيث . أو لا إغاثة . يقال : أتاهم الصريخ) ولا هم ينقذون (لا ينجون من الموت بالغرق) إلا رحمة (إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة) إلى حين (إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق . ولقد أحسن من قال :." (١)

"" صفحة رقم ٧٠٥ "

يمشي بها غلب الرقاب كأنهم

بزل كسين من الكحيل جلالا

والأب : المرعى ، لأنه يؤب أي يؤم وينتجع . والأب والأم أخوان قال : جذمنا قيس ونجد دارنا

ولنا الأب به والمكرع

(١) تفسير الكشاف ـ موافق للمطبوع، ٤/٢١

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الأب فقال : أي سماه تظلني ، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به . وعن عمر رضي الله عنه : أنه قرأ هذه الآية فقال : كل هذا قد عرفنا ، فما الأب ؟ ثم رفض عصا كانت بيده وقال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب ، ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا فدعوه فإن قلت : فهذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته . قلت : لم يذهب إلى ذلك ، ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل ، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفا عندهم ؛ فأراد أن الآية مسوقة في **الامتنان** علي الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعا له أو لإنعامه ؛ فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله على ما تبين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له ، واكتف بالمعرفة الجميلة إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت ، ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن .

) فلينظر الإنسان إلى طعامه ط) أنا صببنا المآء صبا ثم شققنا الا رض شقا فأبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدآئق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولانعامكم (

ولما عدد النعم في نفسه : أتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه ، فقال :) فلينظر الإنسان إلى طعامه (إلى مطعمه الذي يعيش به كيف دبرنا أمره (أنا صببنا الماء) يعني الغيث . قرىء بالكسر على الاستئناف ، وبالفتح على البدل من الطعام ، وقرأ الحسين بن علي رضي الله عنهما (أنى صببنا) بالإمالة على معنى : فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء . وشققنا : من شق الأرض بالنبات ويجوز أن يكون من شقها بالكراب على البقر ؛ وأسند الشك إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب . والحب : كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما . والقضب : الرطبة والمقضاب : أرضه ، سمي بمصدر قضبه إذا قطعه ؛ لأنه يقضب مرة بعد مرة) وحدائق غلبا (يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء ، فيريد تكاثفها وكثرة أشجارها وعظمها ، كما تقول : حديقة ضخمة ، وأن يجعل شجرها غلبا ، أي : عظاما غلاظا . والأصل في الوصف بالغلب : الرقاب ؛ فاستعير . قال عمرو بن معد يكرب : يمشي بها غلب الرقاب كأنهم

بزل كسين من الكحيل جلالا

والأب : المرعى ، لأنه يؤب أي يؤم وينتجع . والأب والأم أخوان قال : جذمنا قيس ونجد دارنا

ولنا الأب به والمكرع

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الأب فقال : أي سماه تظلني ، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به . وعن عمر رضي الله عنه : أنه قرأ هذه الآية فقال : كل هذا قد عرفنا ، فما الأب ؟ ثم رفض عصا كانت بيده وقال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب ، ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا فدعوه فإن قلت : فهذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته . قلت : لم يذهب إلى ذلك ، ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل ، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفا عندهم ؛ فأراد أن الآية مسوقة في الامتنان علي الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعا له أو لإنعامه ؛ فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله على ما تبين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له ، واكتف بالمعرفة الجميلة إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت ، ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن .

) فإذا جآءت الصآخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة (
٧

عبس : (٣٣) فإذا جاءت الصاخة." (١)

"إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سببا لخيبة فاعله عاجلا أو آجلا أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه "لا ينبغي هذا" أو "لا يصلح" أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه "ليس من الله في شيء" أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما (١) بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سببا للفلاح، أو جعل سببا لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله "هل أنت منته" أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد، أو طرد، أو لفظة "قتل من فعله"، أو "قاتل الله من فعله"، أو أخبر أن فاعله "لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكيه"، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا

---

(١) تفسير الكشاف . موافق للمطبوع، ٤/٧٠٥

يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفا ولا عدلا أو أخبر أن من فعله قيض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سببا لإزاغة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل "لم فعل" نحو: ﴿ لم تصدون عن سبيل الله من آمن ﴾ ﴿ لم تلبسون الحق بالباطل ﴾ ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ ما لم يقترن به جواب من المسئول (٢) فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرد من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروه، فأكثر ما يستعمل في المحرم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه.

وأما لفظة "وأما أنا فلا أفعل" فالمتحقق (٣) منه الكراهة كقوله: "أما أنا فلا آكل متكئا".

وأما لفظة "ما يكون لك" و "ما يكون لنا" فاطرد استعمالها في المحرم، نحو ﴿ فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾ ﴿ ما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ ﴿ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾. فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، و "إن شئت فافعل" و "إن شئت فلا تفعل"، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ﴾ ونحو ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾.

ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي. فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو "عجب ربك من ش١ب ليست له صبوة" ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ وقوله: ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾.

وقوله: ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾.

وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله ﴾.

ويدل على حسن المنع منه قدرا، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: ﴿كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم ﴾.

---

(١) في ب: عنه.

(٢) في ب: من السؤال.

(٣) في ب: فالمحقق.." (١)

"فائدة

نفي التساوي في كتاب الله، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله ﴾.

وقد يأتي بين الجزائين كقوله ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ﴾ الآيات. فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور:

التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر. فائدة

السياق يرشد إلى بيان المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم (١) احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير. فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظة وتذكرة.

ومنها: أن يكون شاهدا على ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله، وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض **الامتنان**.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٣

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله.، وهو في غاية النفاسة، والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيرا.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثنيت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

---

(١) كذا في ب، وفي أ: بعد.." (١)

"﴿ ٢٩ ﴾ ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم ﴾ .

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴾ أي: خلق لكم، برا بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية العظيمة (١) دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سيقت في معرض **الامتنان**، يخرج بذلك الخبائث، فإن [تحريمها أيضا] يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر، فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته، منعنا من الخبائث، تنزيها لنا.

وقوله: ﴿ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم ﴾ .

﴿ استوى ﴾ ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها، الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ وتارة تكون بمعنى "علا "و "ارتفع "وذلك إذا عديت بـ "على "كما في قوله تعالى: ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ (٢) ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ وتارة تكون بمعنى "قصد "كما إذا عديت بـ "إلى "كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات ﴿ فسواهن سبع سماوات ﴾ فخلقها وأحكمها، وأتقنها، ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ فـ ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ و ﴿ يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ يعلم السر وأخفى.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٤

وكثيرا ما يقرن بين خلقه للخلق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ لأن خلقه للمخلوقات، أدل دليل على علمه، وحكمته، وقدرته.

---

(١) في ب: الكريمة.

(٢) في ب: أورد آية أخرى ه ي: " الرحمن على العرش استوى ".." (١)

"﴿ ١٦٤ ﴾ ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ .

هذه المنة التي امتن الله بها على عباده، أكبر النعم، بل أصلها، وهي **الامتنان** عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال: ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ يعرفون نسبه، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحا لهم، مشفقا عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألفاظها ومعانيها.

﴿ ويزكيهم ﴾ من الشرك، والمعاصي، والرذائل، وسائر مساوئ الأخلاق.

و ﴿ يعلمهم الكتاب ﴾ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله: ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب -هنا- الكتابة، فيكون قد امتن عليهم، بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ، ﴿ والحكمة ﴾ هي: السنة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة.

فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين، ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ بعثة هذا الرسول ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض [ص ١٥٦] ذلك عقول العالمين.." (٢)

"وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم، لأن تمام إيتائه ماله حفظه والقيام به بما يصلحه وينميه وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار. [ص ١٦٤]

---

(١) تفسير السعدي، ص/٤٨

(٢) تفسير السعدي، ص/١٥٥

﴿ ٣ ، ٤ ﴾ ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا * وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ﴾ .

أي: وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتكم وخفتم أن لا تقوموا بحقهن لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا ﴿ ما طاب لكم من النساء ﴾ أي: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين، والمال، والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يمينك"

وفي هذه الآية – أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل وقد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها ليكون على بصيرة من أمره. ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء فقال: ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي: من أحب أن يأخذ اثنتين فليفعل، أو ثلاثا فليفعل، أو أربعا فليفعل، ولا يزيد عليها، لأن الآية سيقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعا.

وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ أربعا، لأن في الأربع غنية لكل أحد، إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن.

فإن خاف شيئا من هذا فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه. فإنه لا يجب عليه القسم في ملك اليمين ﴿ ذلك ﴾ أي: الاقتصار على واحدة أو ما ملكت اليمين ﴿ أدنى ألا تعولوا ﴾ أي: تظلموا.

وفي هذا أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب –ولو كان مباحا– أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد.

ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن، خصوصا الصداق الذي يكون شيئا كثيرا، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة، أمرهم وحثهم على إيتاء النساء ﴿ صدقاتهن ﴾ أي: مهورهن ﴿ نحلة ﴾ أي: عن طيب نفس، وحال طمأنينة، فلا تمطلوهن أو تبخسوا منه شيئا. وفيه: أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد، لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التمليك.

﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه ﴾ أي: من الصداق ﴿ ن○فسا ﴾ بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه، أو تأخيره أو المعاوضة عنه. ﴿ فكلوه هنيئا مريئا ﴾ أي: لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة.

وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها -ولو بالتبرع- إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به.

وفي قوله: ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهي عنه كالمشركة، وكالفاجرة، كما قال تعالى: ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ وقال: ﴿ والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴾ .." (١)

"﴿ ٥ ﴾ ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

كرر تعالى إحلال الطيبات لبيان **الامتنان**، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم -يا معشر المسلمين- دون باقي الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب ينتسبون إلى الأنبياء والكتب.

وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم.

والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالحبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم. وأيضا فإنه أضاف الطعام إليهم.

فدل ذلك، على أنه كان طعاما، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا، لا يباح على وجه الغصب، ولا من المسلمين.

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٦٣

﴿ وطعامكم ﴾ أيها المسلمون ﴿ حل لهم ﴾ أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿ و ﴾ أحل لكم ﴿ المحصنات ﴾ أي: الحرائر العفيفات ﴿ من المؤمنات ﴾ والحرائر العفيفات ﴿ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ أي: من اليهود والنصارى.

وهذا مخصص لقوله تعالى ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ [ص ٢٢٢] ومفهوم الآية، أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار، وهو كذلك.

وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يبحن، ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقا، لقوله تعالى: ﴿ من فتياتكم المؤمنات ﴾ وأما المسلمات إذا كن رقيقات فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين، عدم الطول وخوف العنت.

وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا فلا يباح نكاحهن، سواء كن مسلمات أو كتابيات، حتى يتبن لقوله تعالى: ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ﴾ الآية.

وقوله: ﴿ إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ أي: أبحنا لكم نكاحهن، إذا أعطيتموهن مهورهن، فمن عزم على أن لا يؤتيها مهرها فإنها لا تحل له.

وأمر بإيتائها إذا كانت رشيدة تصلح للإيتاء، وإلا أعطاه الزوج لوليها.

وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها، وليس لأحد منه شيء، إلا ما سمحت به لزوجها أو وليها أو غيرهما. ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ أي: حالة كونكم -أيها الأزواج- محصنين لنسائكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن.

﴿ غير مسافحين ﴾ أي: زانين مع كل أحد ﴿ ولا متخذي أخدان ﴾ .

وهو: الزنا مع العشيقات، لأن الزناة في الجاهلية، منهم من يزني مع من كان، فهذا المسافح. ومنهم من يزني مع خدنه ومحبه. فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العفة، وأن شرط التزوج أن يكون الرجل عفيفا عن الزنا.

وقوله تعالى: ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴾ أي: ومن كفر بالله تعالى، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع، فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على كفره، كما قال تعالى: ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ ﴿ وهو في الآخرة

مِن الخاسرين ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبدية.." (١)

"﴿ ٦٥ - ٦٦ ﴾ ﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ .

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ﴾ أي: حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط هممهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل [ص ٣٢٦] الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير في الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾

﴿ إن يكن منكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار،.وذلك بأن الكفار ﴿ قوم لا يفقهون ﴾ أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها،.وأنتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والذب عن كتاب الله، وحصول الفوز الأكبر عند الله،.وهذه كلها دواع للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد فقال: ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ﴾ فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف،. ﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ بعونه وتأييده.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المائة، والمائة من الألف.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٢١

ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار، فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:.

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم [إذا غلب على ظنهم الضرر] (١) كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿ الآن خفف الله عنكم ﴾ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر (٢) لازم وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر، نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر،.وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك[فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل] (٣) .

---

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: الأمر.

(٣) زيادة من هامش ب.." (١)

"﴿ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى * الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى *كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ .

﴿ علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علما وخبرا، فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٢٥

ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد خلت، لها ما كسبت،ولكم ما كسبتم، فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناكها، قد تحققت صدقها ويقينها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلا ما دام الملوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحدها مع استيقانها، كما قال تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ وقال موسى: ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر ﴾ فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض.

ثم استطرد في هذا الدليل القاطع، بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال: ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدا ﴾ أي: فراشا بحالة تتمكنون من السكون فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارتها للازدراع وغيره، وذللها لذلك، ولم يجعلها ممتنعة عن مصلحة من مصالحكم.

﴿ وسلك لكم فيها سبلا ﴾ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة، من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، وينتفعون بأسفارهم، أكثر مما ينتفعون بإقامتهم.

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ﴾ أي: أنزل المطر ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ وأنبت بذلك جميع أصناف النوابت على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدره، ويسره، رزقا لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان، ولهذا قال: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ وسياقها على وجه **الامتنان**، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوابت الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان مضرا، كالسموم ونحوه.

﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتمام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى.

وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها،

بل حظهم، حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة. ﴿ وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾

ولما ذكر كرم الأرض، وحسن [ص ٥٠٨] شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها بإذن ربها، تخرج النبات المختلف الأنواع، أخبر أنه خلقنا منها، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.

وهذان دليلان على الإعادة عقليان واضحان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.." (١)

"﴿ ٦ - ١٦ ﴾ ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا * وخلقناكم أزواجا * وجعلنا نومكم سباتا * وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا * وبنينا فوقكم سبعا شدادا * وجعلنا سراجا وهاجا * وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا * لنخرج به حبا ونباتا * وجنات ألفافا ﴾

أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة، فجعلنا لكم ﴿ الأرض مهادا ﴾ أي: ممهدة مهيأة (١) لكم ولمصالحكم، من الحروث والمساكن والسبل.

﴿ والجبال أوتادا ﴾ تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد.

﴿ وخلقناكم أزواجا ﴾ أي: ذكورا وإناثا من جنس واحد، ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون (٢) المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا **الامتنان**، بلذة المنكح.

﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ أي: راحة لكم، وقطعا لأشغالكم، التي متى تمادت بكم أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس لتنقطع (٣) حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة.

﴿ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ﴾ أي: سبع سموات، في غاية القوة، والصلابة والشدة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس فقال: ﴿ وجعلنا سراجا وهاجا ﴾ نبه بالسراج على النعمة بنورها، الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على حرارتها وما فيها من المصالح (٤) .

﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ أي: السحاب ﴿ ماء ثجاجا ﴾ أي: كثيرا جدا.

﴿ لنخرج به حبا ﴾ من بر وشعير وذرة وأرز، وغير ذلك مما يأكله الآدميون.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٠٧

﴿ ونباتا ﴾ يشمل سائر النبات، الذي جعله الله قوتا لمواشيهم.

﴿ وجنات ألفافا ﴾ أي: بساتين مل‌تفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.

---

(١) في ب: مذللة.

(٢) في ب: فتتكون.

(٣) في ب: لتسكن.

(٤) في ب: الذي صار ضرورة للخلق، وبالوهاج وهي: حرارتها على ما فيها من الإنضاج والمنافع.."

(١)

" صفحة رقم ٧٤

الدار لا تكمل إلا بأنس الجار لا سيما المستمتع به قال : (ولهم فيها) أي مع ذلك) أزواج (ولما كن على خلق واحد لا نقص فيه أشار إليه بتوحيد الصفة ، وأكد ذلك بالتعبير بالتفعيل إلماما بأنه عمل فيه عمل ما يبالغ فيه بحيث لا مطمع في الزيادة فقال : (مطهرة (.

قال الحرالي : والزوج ما لا يكمل المقصود من الشيء إلا معه على نحو من الاشتراك والتعاون ، والتطهير تكرار إذهاب مجتنب بعد مجتنب عن الشيء ؛ ولما ذكر تعالى الرزق المستثمر من أعمال الذين ىمنوا وصل به ذكر الأزواج المستثمرة من حال نفوسهم من حسن أخلاقها وجمال صورتها الباطنة في الدنيا ، وكانت المرأة زوج الرجل لما كان لا يستقل أمره في النسل والسكن إلا بها – انتهى .

ولما كان خوف الزوال أو الانتقال إلى أدنى منغصا فلا تروق اللذة إلا مع الاستقرار وكان هذا الوصف عاما في جميع الجنان العلى وغيرها قال مقدما للجار إشارة إلى أنهم لا يكونون في جنة إلا وهذه صفتها وأن نعيمهم لا آخر له) وهم فيها (ولما أفاد تقديم الظرف تخصيص الكون بها وعدم الكون في غيرها وكان ذلك معنى الخلود وكان قد يطلق على الإقامة بلا نهاية على طول الإقامة وإن كان له آخر صرح به بيانا بأن المراد ما لا آخر له وإلا لم يفد شيئا جديدا فقال : (خالدون (والخلود طول الإقامة بالقرار ، وسياق الامتنان أغنى عن تقييده بالتأبيد والدوام .

البقرة : (٢٦ – ٣٠) إن الله لا. .. . .

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٠٦

) إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذآ أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون مآ أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السمآء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم وإذ قال." (١)

" صفحة رقم ٨١

الذكر وأعقب بالحياة حيث استغرقتهما كلمة (أل) في قوله :

٧٧ ( ) خلق الموت والحياة ( ) ٧

[الملك : ٢] وثبت الخطاب على إقرار الحياة والكمال ، كما ورد عنه (صلى الله عليه وسلم) في قوله : (نعيم الجنة لا آخر له) فوجب بظاهر ما أحسه الكفار وباطن ما اقتضاه هذا النحو من العلم دونه انتشار حياة ثانية بعد ميتة الدنيا – انتهى .

ولما كان على البعث والحشر من الأدلة ما جعلهما كالمحسوسين عدهما في حيز المعلوم لهم كالإحياء الأول والموت فقال : (ثم يحييكم (فينشركم بعد طيكم ويبعثكم بعد حبسكم في البرزخ ، فتكونون كما كنتم أول مرة ذوي قدرة على الانتشار بتلك القدرة التي ابتدأكم بها وأماتكم ، وهذا لا ينفي أن يكون لهم في البرزخ إحساس بدون هذه الهيئة الكاملة ،) ثم إليه ترجعون (فيحشركم بعد طول الوقوف للجزاء من الثواب والعقاب ؛ وفي هذا كما قال الحرالي : إعلام بأنهم إن لم يرجعوا إلى الله سبحانه بداعي العلم في الدنيا فبعد مهل من الإحياء الثاني يرجعون إليه قهرا حيث يشاهدون انقطاع أسبابهم ممن تعلقوا به ويتبرأ منهم ما عبدوه من دون الله ، وإنما جاء هذا المهل بعد البعث لما يبقى لهم من الطمع في شركائهم حيث يدعونهم فلم يستجيبوا لهم ، فحينئذ يضطرهم انقطاع أسبابهم إلى الرجوع إلى الله فيرجعون قسرا وسوقا فحينئذ يجزيهم بما كسبوا في دنياهم ، كما قال تعالى في خطاب يعم كافة أهل الجزاء

٧٧ ( ) واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ( ) ٧

[البقرة : ٢٨١] وهذا آخر خطاب الإقبال عليهم من دعوة الله لهم ولسان النكير عليهم ، ولذلك كانت آية :

٧٧ ( ) واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ( ) ٧

---

(١) نظم الدرر . ٧٤/١

[البقرة : ٢٨١] آخر آية أنزلت في القرآن ، لأنها نهاية ليس وراءه قول يعم أهل الجزاء ؛ والرجع عود الشيء عند انتهاء غايته إلى مبدئه ا – انتهى .

ولما أجمل سبحانه في أول هذه الآية أول أمرهم وأوسطه وآخره على الوجه الذي تقدم أنه منبه على أن الكفر ينبغي أن يكون من قبيل الممتنع لما عليه من باهر الأدلة شرع يفصله على وجه داع لهم إلى جنابه **بالامتنان** بأنواع الإحسان بأمر أعلى في إفادة." (١)

" صفحة رقم ٩٤

قال ربك للملائكة (ايضا إشارة إلى اختلاف الحال في الخطاب بوصف الربوبية مع الخلص ومع من دونهم وفي الخطاب بأوصاف الذات ، وذلك أنه تعالى لما بين أن الضالين في حسن أمثاله هم الخاسرون عجب ممن يكفر به إشارة إلى شدة ظهوره وانتشار نوره في أمثاله وجميع أقواله وأفعاله وأن شهوده في كل اعتبار أوضح من ضياء النهار ، لأنه ما ثم إلا ذاته وافعاله وصفاته : وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد متجليا عليهم باسم الإلهية في أفعاله التي هم لها ناظرون وبها عارفون ، فقال : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم (إلى أن قال : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا (الآية ، وأدرج في ذلك أمر البعث بقوله) ثم إليه ترجعون (تنبيها على مشاركته لبقية ما في الآية من الظهور ، لما قدم من الاستدلال عليه بإخراج الثمرات حين تعرف إليهم بوصف الربوبية الناظر إلى العطف **والامتنان** والتربية والإحسان في مثل ما هنا من أفعاله الظاهرة وآثاره الباهرة فقال : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم (إلى آخرها ؛ وختم هذه الآية بوصف العلم الشامل لما قام عليه من الدليل ضمن هذا التعجيب إشارة إلى الاستدلال على كمال الأمثال وتحديدا لمن يستمر على الكفران بعد هذا البيان بأنه بمرأى منه ومسمع في كل حال ، فلما فرغ من خطابهم بالأمور الظاهرة على قدر فهومهم ومبلغ علومهم رقي الخطاب إلى رتبة نبيه عليه الصلاة والسلام لترقية البيان إلى غيب مقاولته لملائكته فقال : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل (الآية فلكل مقام مقال ، ولكل مخاطب حد في الفهم وحال .

قال الأستاذ أبو الحسن الحرالي في المفتاح الباب السابع في غضافة الربوبية ونعت الإلهية في القرآن : اعلم أن الربوبية إقامة المربوب بما خلق له وأريد له ، فرب كل شيء مقيمه بحسب ما أبداه وجوده ،

---

(١) نظم الدرر . ٨١/١

فرب المؤمن ربه ورباه للإيمان ، ورب الكافر ربه ورباه للكفران ، ورب محمد ربه ورباه للحمد – (أدبني ربي فأحسن تأديبي) ، ورب العالمين." (١)

" صفحة رقم ١٤٢

وأدق إشارة بمحوها وهي أقل من أن يباشرها بنفسه المقدسة ، كل ذلك استعطاف إلى التوبة. .

والغفر قال الحرالي : ستر الذنب أن يظهر منه أثر على المذنب لا ع قوبة ولا ذكر – ثم قال : ففي قراءة) نغفر (تول من الحق ومن هو من حزبه من الملائكة والرسل ، وفي قراءة : تغفر ، إبلاغ أمر خطابهم بما يفهمه التأنيث من نزول القدر ، وفي قراءة الياء توسط بين طرفي ما يفهمه علو قراءة النون ونزول قراءة التاء ، ففي ذلك بجملته إشعار بأن خطاياهم كانت في كل رتبة مما يرجع إلى عبادة ربهم وأحوال أنفسهم ومعاملتهم مع غيرهم من أنبيائهم وأمثالهم حتى جمعت خطاياهم جميع جهات الخطايا الثلاث ، فكأنهم ثلاثة اصناف : صنف بدلوا ، وصنف اقتصدوا ، وصنف أحسنوا فيزيدهم الله ما لا يسعه القول و

٧٧ ( ) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ( ) ٧

[الرحمن : ٦٠] انتهى .

ولما كان السياق هنا لتعداد النعم حسن أن يعبر عن ذنوبهم بجمع الكثرة فقال) خطاياكم (إشارة إلى أنهم أصروا عليها بحيث كادوا أن يجعلوا بإزاء كل نعمة ذنبا ، والخطايا جمع خطيئة من الخطأ وهو الزلل عن الحد عن غير تعمد بل مع عزم الإصابة أو ود أن لا يخطئ – هكذا قال الحرالي ، والظاهر أن المراد هنا ما كان عن عمد كائنا ما كان ، لأن ذلك أولى بسياق الامتنان والعقوبة بالعصيان .

قال في القاموس : والخطيئة الذنب أو ما تعمد منه والخطأ ما لم يتعمد ، جمعه خطايا ، وقرئ شاذا : خطيئاتكم ، بالجمع السالم الدال على القلة إشارة إلى أنها وإن تكاثرت فهي في جنب عفوه قليل ، وهذا بخلاف الأعراف فإن السياق هناك لبيان إسراعهم في الكفر كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وناسب عد النعم العطف على ما تقدم منها بقوله : (وسنزيد المحسنين) أي بعد غفران ذنوبهم .

قال الحرالي : جمع محسن من الإحسان وهو البلوغ إلى الغاية في حسن العمل ، فيكون مع الخلق رؤية المرء نفسه في غيره فيوصل له من البر ما يجب أن يفعل معه ، ورؤية العبد ربه في عبادته ، فالإحسان فيما بين العبد وربه أن يغيب عن نفسه ويرى ربه ، والإحسان فيما بين العبد وغيره أن يغيب عن غيره ويرى

---

(١) نظم الدرر . ٩٤/١

نفسه ، فمن رأى نفسه في حاجة الغير ولم ير نفسه في عبادة الرب فهو محسن ، وذلك بلوغ في الطرفين إلى غاية الحسن في العمل بمنزلة الحسن في الصورة – انتهى .

ولما كان هذا التصريح بالترغيب المتضمن للتلويح بالترهيب مقتضيا للعاقل المبادرة غلى الطاعة بين أنه تسبب عنه أن بعضهم عصوا وكفروا هذه النعمة ا لعظيمة ولم يقتصروا على ترك هذا الأمر بل بدلوه بدخولهم كما في الحديث (يزحفون على أستاههم قائلين : حبة في شعرة) أي جنس الحب في جنس الشعرة أي في الغرائر مطلوبنا لا." (١)

" صفحة رقم ١٤٥

خافوا الموت من العطش فقلنا) أي بما لنا من العظمة حين خفيت عنهم) اضرب (قال الحرالي : من الضرب وهو وقع الشيء على الشيء بقوة) بعصاك (والعصا كأنها ما يكف به العاصي ، وهو من ذوات الواو ، والواو فيه إشعار بعلو كأنها آلة تعلو من قارف ما تشعر فيه الياء بنزول عمله بالمعصية ، كأن العصو أدب العصي ، يقال عصا يعصو أي ضرب بالعصا اشتقاق ثان ، وعصى يعصي إذا خالف الأمر – انتهى .

) الحجر) أي جنسه فضرب حجرا) فانفجرت (وما أنسب ذكر الانفجار هنا بعد ختم ما قبل بالفسق لاجتماعهما في الخروج عن محيط ، هذا خروج يحيي وذاك خروج يميت .

قال الحرالي : الانفجار انبعاث وحي من شيء موعى أو كأنه موعى انشق وانفلق عنه وعاؤه ومنه الفجر وانشقاق الليل عنه – انتهى .

ولأن هذا سياق الامتنان عبر بالانفجار الذي يدور معناه على انشقاق فيه سيلان وانبعاث مع انتشار واتساع وكثرة ، ولما لم يكن) منه) أي الحجر الذي ضربه) اثنتا عشرة عينا (لكل سبط عين ، والعين قال الحرالي هو باد نام قيم يبدو به غيره ، فما أجزأ من الماء في ري أو زرع فهو عين ، وما مطر من السماء فأغنى فهو عين ، يقال إن العين مطر أيام لا يقلع وإنما هو مطر يغني وينجع ، وما تبدو به الموزونات عين ، وما تبدو به المرئيات من الشمس عين ، وما تنال به الأعيان من الحواس عين ، والركية وهي بئر السقيا عين ، وهي التي يصحفها بعضهم فيقول : الركبة – بالباء يعني الموحدة – وإنما هي الركية – بالياء المشددة – كذا قال ، وقد ذكر اهل اللغة عين الركبة ؛ وعد في القاموس المعاني التي لهذا اللفظ نحو أربعين ، منها نقرة الركبة اي بالموحدة ، ومنها مفجر ماء الركية بالتحتانية مشددة .

---

(١) نظم الدرر . ١٤٢/١

ولما توقع السامع إخبار المتكلم هل كانت الأعين موزعة بينهم معروفة أو ملبسة قال) قد علم كل أناس) أي منهم .

قال الحرالي : وهو اسم جمع من الأنس – بالضم ، كالناس اسم جمع من النوس ، قال : فلم يسمهم باسم من أسماء الدين لأن الأسماء تجري على حسب الغالب على المسمين بها من أحوال تدين أو حال طبع أو تطبع) مشربهم (مكتفاهم من الشرب المردد مع الأيام ومع الحاجات في كل وقت بما يفهمه." (١)

" صفحة رقم ٥٢٨

الاجتهاد في تشريف العمل بإحسانه وإخلاصه قال : (وجه الله) أي الملك الأعظم من سد خلة فقير أو صلة رحم مسلم أو كافر تجوز الصدقة علهي لا لأنفسكم ولا غيرها بل تخلصا من إمساك المال بأداء الأمانة فيه إلى عباد الله لأنهم عباده ، هذا هو الذي يدعو إليه الإيمان فلا يظن لمؤمن أن يفعل غيره وذلك يقتضي البعد جدا عن الأذى والرياء وكل نقيصة والملابسة لكل ما يوجب القبول من الكمال الحسي والمعنوي .

ولما كان الإيقان بالوفا مرغبا في الإحسان ومبعدا من الإساءة **والامتنان** خوفا من جزاء الملك الديان قال) وما تنفقوا من خير) أي على أي وجه كان وبأي وصف كان التصدق والمتصدق عليه) يوف) أي يبالغ في وفائه بالتضعيف واصلا) إليكم وأنتم لا تظلمون) أي لا يقع عليكم ظلم في ترك شيء مما أنفقتموه ولا في نقص مما وعدتموه من التضعيف إن أحسنتم والمماثلة إن أسأتم .

ولما كان غالب هذه الأحكام التي ذكرت في الإنفاق من أجل المحاويج وكان ما مضى شاملا للمؤمن وغيره بين أن محط القصد في الحث عليها المؤمن قال سبحانه وتعالى : (للفقراء) أي هذه الأحكام لهم) الذين أحصروا) أي منعوا عن التكسب ، وأشار بقوله : (في سبيل الله) أي الذي له الجلال والإكرام إلى أن المقعد لهم عن ذلك الاشتغال بإقامة الدين بالجهاد وغيره) لا يستطيعون ضربا في الأرض (بالتجارة لأجل ذلك وأشار إلى شدة رضاهم عن الله سبحانه وتعالى بعدم شكايتهم فقال : (يحسبهم الجاهل) أي الذي ليس عنده فطنة الخلص) أغنياء من (أجل) التعفف (عن المسألة والتلويح بها قناعة بما أعطاهم الله سبحانه وتعالى مولاهم ورضي عنه وشرف نفس ، والتعفف تكلف العفة وهي كف ما ينبسط للشهوة من الآدمي إلا بحقه ووجهه – قاله الحرالي .

---

(١) نظم الدرر . ١/١٤٥

ولما ذكر خفاءهم على الغبي ذكر جلاءهم عند المتوسم فقال : (تعرفهم) أي يا أبصر الموقنين وأفطنهم أنت ومن رسخت قدمه في متابعتك) بسيماهم (قال الحرالي : وهي صيغة مبالغة من السمة والوسم وهي العلامة الخفية التي تتراءى للمستبصر – انتهى .

وتلك العلامة والله سبحانه وتعالى أعلم هي السكينة والوقار وضعف الصوت ورثاثة الحال مع علو الهمة والبراءة من الشماخة والكبر والبطر والخيلاء ونحو ذلك) لا يسئلون (لطموح أبصار بصائرهم عن الخلق إلى الخالق) الناس (من ملك ولا غيره) إلحافا (سؤال إلزام ، أخذا من اللحاف الذي يتغطى به للزومه لما يغطيه ، ومنه." (١)

" صفحة رقم ٣٧

على الذكر والجهاد والشكر وأنواع السعي في رضى السيد ، وحازوا النقدين لا للكنز ، بل للإنفاق في سبيل الخيرات ، وربطوا للجهاد ، لا للفخر والرئاسة على العباد بل لقمع أولياء الشيطان ورفع أولياء الرحمن المسلتزم لظهور الإيمان ، كما بين النبي (صلى الله عليه وسلم) متشابه اقتنائها فقال : (وهي لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر) ثم عظم سبحانه وتعالى ما لهم بقوله مرغبا بلفت القول إلى وصف الإحسان إليهم بلباس التقوى الموجب لإيثارهم الآخرة على الدنيا ، وقوله : (جنات (مرفوع بالابتداء ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف إذا كان وللذين ، متعلقا بخير ، ثم وصفها بقوله : (تجري من تحتها الأنهار) أي أن ماؤها غير مجلوب ، بل كل مكان مها متهيىء لأن ينبع منه ماء يجري لتثبت بهجتها وتدوم زهرتها ونضرتها ، ثم أشار بقوله : (خالدين فيها (إلى أنها هي المشتملة على جميع الإحسان المغنية عن الحرث والأنعام ، وأن ذلك على وجه لا انقطاع له .

قال الحرالي : ولعله إنما خص من بين ما تقدم من الشهوات ذكر النسوان في قوله : (وأزواج (لأنها أعظم المشتهيات ، ولا يكمل التلذذ بها إلا بحصول جميع ما يتوقف ذلك عليه ، فصار ذكرهن على سبيل الامتنان من القادر كناية عن جميع ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين .

ولما كانت التقوى حاملة على تطهير الأنفس من أوضار الأدناس من الأوصاف السيئة وكان الوصف بالمفرد أدل على أنهن في أصل الطهارة كأنهن نفس واحدة قال عادلا عما هو الأولى من الوصف بالجمع لجمع من يعقل : (مطهرة (لأنهن مقتبسات من أنفسهم

٧٧ ( ) خلق لكم من أنفسكم أزواجا ( ) ٧

---

(١) نظم الدرر . ٥٢٨/١

[الروم : ٣١] .

ولما ذكر حظ البدن قرر لذة هذا النعيم بما للروح ، وزاده من الأضعاف المضاعفة." (١)

" صفحة رقم ٤٠٥

(خرجنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي ، فأقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على التماسه ، وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء .

وفي رواية : سقط قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة ، فأناخ النبي (صلى الله عليه وسلم) ونزل ، فثنى رأسه في حجري راقدا .

فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ فجاء أبو بكر فلكزني لكزة شديدة وقال : حبست النبي (صلى الله عليه وسلم) في قلادة ، فبي الموت لمكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد أوجعني ، ثم إن النبي (صلى الله عليه وسلم) استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد ، فنزلت)) يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ( ) [المائدة : ٦] ، وفي رواية : فأنزل الله آية التيمم) فتيمموا (فقال أسيد بن حضير : لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ما أنتم إلا بركة لهم ، وفي رواية : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ، قالت : فبعثنا البعير الذي كنت عليه فإذا العقد تحته (وفي رواية له عنها في النكاح أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت ، فأرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ناسا من أصحابه في طلبها ، فأدركتهم الصلاة فصلوا بغير وضوء ، فلما أتوا النبي (صلى الله عليه وسلم) شكوا ذلك إليه فنزلت آية التيمم ، فقال أسيد بن حضير : جزاك الله خيرا فوالله ما نزل بك أم رقط إلا جعل الله لك منه مخرجا ، وجعل للمسلمين فيه بركة) وهذا الحديث يدل على أن هذه الآية نزلت قبل آية النساء ، فكانت تلك نزلت بعد ذلك لتأكيد هذا الحكيم ومزيد الامتنان به ، لما فيه من عظيم اليسر وليحصل في التيمم من الجناية نص خاص ، فيكون ذلك أفخم لشأنها وأدل على الاهتمام به .

المائدة : (٧ - ٨) واذكروا نعمة الله. . . . .

) واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور يأيهآ الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهدآء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون (( )

---

(١) نظم الدرر . ٣٧/٢

ولما كان في هذه المأمورات والمنهيات خروج عن المألوفات ، وكانت الصلاة أوثق عرى الدين ، وكان قد عبر عنها بالإيمان الذي هو أصل الدين وأساس الأعمال ، ." (١)

" صفحة رقم ٤٢٢

ولما كان التقدير : لأنه مالك لخلقه وملكهم لا اعتراض عليه في شيء من أمره ، عطف عليه قوله نقضا ثالثا بما هو أعم مما قبله فقال : (ولله) أي الذي له الأمر كله ، فلا كفوء له) ملك السموات (وقدمها لشرفها دلالة على ملك غيرها من باب أولى ، وصرح بقوله : (والأرض وما بينهما) أي وأنتم مما بينهما ، وقد اجتمع بذلك مع الملك والإبداع الملك والتصريف والتصريف التام ، وذلك هو الغنى المطلق ، ومن كان كذلك لم يكن محتاجا إلى شيء من ولد ولا غيره ، ولا يكون لأحد عليه حق ، ولا يسوغ عليه اعتراض .

ولما كان التقدير : فمنه وحده الابتداء ، عطف عليه قوله : (وإليه) أي وحده) المصير (أي الصيرورة والرجوع وزمان ذلك ومكانه معنى في الدنيا بأنه لا يخرج شيء عن مراده ، وحسا في الآخرة ، فيحكم بين مصنوعاته على غاية العدل - كما هو مقتضى الحكمة وشأن كل ملك في إقامة ملكه بإ ، صاف بعض عبيده من بعض ، لا يجوز عنده في موجب السياسة إطلاق قويهم على ضعيفهم ، فإن ذلك يؤدي إلى خراب الملك وضعف الملك ، فإذا كان هذا شأن الملوك في العبيد الناقصين فما ظنك بأحكم الحاكمين فإذا عاملهم كلهم بالعدل أسبغ على من يريد ملابس الفضل .

المائدة : (١٩) يا أهل الكتاب. .. . .

) ياأهل الكتاب قد جآءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جآءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير (( )

ولما دحضت حجتهم ، ووضحت أكذوبتهم ، اقتضى ذلك الالتفات إلى وعظهم على وجه الامتنان عليهم وإبطال ما عساهم يظنونه حجة ، فقال تعالى : (يا أهل الكتاب) أي من الفريقين ؛ ولما كان ما حصل لهم من الضلال بتضييع ما عندهم من البينات وتغييرها ما لا يتوقع معه الإرسال ، قال معبرا بحرف التوقع : (قد جاءكم رسولنا) أي الذي عظمته من عظمتنا ، فإعظامه وإجلاله واجب لذلك ، ثم بين حاله مقدما له على متعلق جاء بيانا لأنه أهم ما إلى الرسل إليهم إرشادا إلى قبول كل ما جاء به بقوله : (يبين لكم) أي يوقع لكم البيان في كل ما ينفعكم بيانا شافيا لما تقدم وغيره .

---

(١) نظم الدرر . ٢/٤٠٥

ولما كان مجيئه ملتبسا ببيانه وظرفا له غير منفك عنه ، وكان بيانا مستعليا على وقت مجيئه وما مضى قبله وما يأتي بعده ببقاء كتابه ، محفوظا لعموم دعوته وختامه وتفرده ، فلا نبي بعده ، قال معلقا بجاء : (على فترة) أي طويلة بالنسبة إلى ما كان يكون بين النبيين من بني إسرائيل ، مبتدئة تلك الفترة) من الرسل) أي انقطاع من مجيئهم ، شبه فقدهم وبعد العهد بهم ونسيان أخبارهم ، وبلاء رسومهم وآثارهم ، ." (١)

" صفحة رقم ٦٣٦

الأنعام : (٤٢ - ٤٥) ولقد أرسلنا إلى. .. . . .

) ولقد أرسلنآ إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأسآء والضرآء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جآءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بمآ أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (( )

ولما أقام لهم بهذه الآية على توحيده الدليل حتى استنارت السبل في تذكيرهم أن التضرع قد يكشف ب البلاء ، أخبرهم أن تركه يوجب الشقاء ، ترغيبا في إدامته وترهيبا من مجانبته فقال : (ولقد أرسلنا) أي بما لنا من العظمة) إلى أمم) أي أناس يؤم بعضهم بعضا ، وهم أهل لأن يقصدهم الناس ، لما لهم من الكثرة والعظمة .

ولما كان المراد بعض الأمم ، وهم الذين اراد الله إشهادهم وقص أخبارهم ، أدخل الجار فقال : (من قبلك) أي رسلا فخالفوهم ، وحسن هذا الحذف كونه مفهوما) فأخذناهم) أي فكان إرسالنا إليهم سببا لأن أخذناهم بعظمتنا ، ليرجعوا عما زين لهم الشيطان إلى ما تدعوهم إليه الرسل) بالبأساء (من تسليط القتل عليهم) والضراء (بتسليط الفقر والأوجاع) لعلهم يتضرعون) أي ليكون حالهم حال من يرجى خضوعه وتذلله على وجه بليغ ، بما يرشد إليه - مع صيغة التفعيل - الإظهار ، ولأن مقصودها الاستدلال على التوحيد ، وعند الكشف للأصول ينبغي الإبلاغ في العبادة ، بخلاف ما يأتي في الأعراف .

ولما لم يقع منهم ما أوجبت الحال رجاءه ، تسبب عنه الإنكار عليهم ، فقال معبرا بأداة التخصيص ليفيد مع النفي أنهم ما كان لهم عذر في ترك التضرع : (فلولا) أي فهلا) إذ جاءهم بأسنا تضرعوا (ولما

(١) نظم الدرر . ٤٢٢/٢

كان معنى الإنكار أنهم ما تضرعوا قال : (ولكن قست قلوبهم) أي فلم يذكروا ربهم أصلا) وزين لهم الشيطان) أي بما دخل عليهم به من باب الشهوات) ما كانوا يعملون (من العظائم والمناكر التي أوجبها النكس بالرد أسفل سافلين) فلما نسوا ما ذكروا به) أي فتسبب – عن تركهم التذكير والأخذ بفائدته التي هي التخشع والتسكن ، كما هو اللائق بهم لا سيما في تلك الحالة – أنا) فتحنا) أي بما يليق بعظمتنا) عليهم أبواب كل شيء) أي من الخيرات والأرزاق والملاد التي كانت مغلقة عنهم ونقلناهم من الشدة إلى الرخاء ، وذلك استدراجا لهم ، ومددنا زمانه وطولنا أيامه) حتى إذا فرحوا) أي تناهى بهم الفرح) بما أوتوا) أي معرضين عمن آتاهم هذا الرخاء بعد أن كان ابتلاهم بذلك ، فعلم أنهم في غاية من الغباوة ، لا يرتدعون بالتأديب بسياط البلاء ، ولا ينتفعون ببساط المنة والرخاء ، بل ظنوا أن البلاء عادة الزمان ، والرخاء باستحقاقهم الامتنان ، فعلم أن قلوبهم لا يرجى لها انتباه بحار ولا." (١)

" صفحة رقم ٦٤٤

عنده وهم فيما نرى من الحقارة) من بيننا (فالآية ناظرة إلى ما يأتي في هذه السورة من قوله تعالى)) حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ( ) [الأنعام : ١٢٤] .

ولما كان الإنكار لا يسوغ إلا مع نهاية العلم بمراتب المفضلين ، وأن المفضل لا يستحق التفضيل من الوجه المفضل به ، أنكر إنكارهم بقوله : (أليس الله) أي الذي له جميع الأمر ، فلا اعتراض عليه) بأعلم بالشاكرين) أي الذين يستحقون أن يفضلوا لشكرهم على غيرهم لكفرهم .

الأنعام : (٥٤ – ٥٦) وإذا جاءك الذين. . . .

) وإذا جآءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهوآءكم قد ضللت إذا ومآ أنا من المهتدين (((

ولما نهاه (صلى الله عليه وسلم) عن طردهم ، علمه كيف يلاطفهم فقال عاطفا على ما تقديره : وإذا جاءك الذين يحتقرون الضعفاء من عبادي فلا تحفل بهم : (وإذا جاءك (وأظهر موضع الإضمار دلالة على الوصف الموجب لإكرامهم وتعميما لغيرهم فقال : (الذين يؤمنون) أي هم أو غيرهم أغنياء كانوا أو فقراء ، وأشار بمظهر العظمة إلى أنهم آمنوا بما هو جدير بالإيمان به فقال : (بآياتنا (على ما لها من

(١) نظم الدرر . ٢/٦٣٦

العظمة بالنسبة إلينا) فقل) أي لهم بادئا بالسلام إكراما لهم وتطييبا لخواطرهم) سلام عليكم) أي سلامة مني ومن الله ، ونكره لما يلحقهم في الدنيا من المصائب ؛ ثم علل ذلك بقوله : (كتب ربكم) أي المحسن إليكم) على نفسه الرحمة (ثم علل ذلك بقوله واستأنف بما حاصله أنه علم من الإنسان النقصان ، لأنه طبعه على طبائع الخسران إلا من جعله موضع الامتنان فقال : (أنه من عمل منكم سوءا) أي أي سوء كان ملتبسا) بجهالة) أي بسفه أو بخفة وحركة أخرجته عن الحق والعلم حتى كان كأنه لا يعلم شيئا) ثم تاب) أي رجع بالندم والإقلاع وإن طال الزمان ، ولذا أدخل الجار فقال : (من بعده) أي بعد ذلك العمل) وأصلح (بالاستمرار على الخير) فإنه) أي ربكم بسبب هذه التوبة يغفر له لأنه دائما) غفور) أي بالغ الستر والمحو لما كان من ذلك) رحيم (يكرم من تاب هذه التوبة بأن يجعله كمن أحسن بعد أن جعله بالغفر كمن لم يذنب ، ومن أصر وأفسد فإنه يعاقبه ، لأنه عزيز حكيم ، وربما كانت الآية ناظرة إلى ما قذفهم به المشركون من عدم الإخلاص ، ويكون حينئذ مرشحا لأن المراد بالحساب المحاسبة على الذنوب .." (١)

" صفحة رقم ٧٢٧

الأرض مثقلة بما يحكم وصولها إليها ، ومتى ارتفعت عن الأرض تلفت ، فما ذلك لطبيعة ولا غيرها وإلا لاستوت الجنات كلها لأن نسبتها إلى السماء والأرض واحدة ، فما اختلف إلا بفاعل مختار واحد لا شريك له ، لا يكون إلا ما يريد .

ولما ذكر الجنات الجامعة ، خص أفضلها وأدلها على الفعل بالاختيار ، وبدأ بأشهرها عند المخاطبين بهذه الآيات] فقال : (والنخل) أي وأنشأ النخل) والزرع (حال كونه) مختلفا أكله) أي أكل أحد النوعين ، وهو ثمره الذي يؤكل بالنسبة إلى الآخر ، وأكل كل نوع بالنسبة إلى الأشجار وغيرها في الحمل والطعم وغيره ، بل ويوجد في العذق الواحد الاختلاف ، وأما اختلاف مقداره بكون هذا في غاية الطول وهذا في غاية القصر فأمر واضح جدا) والزيتون والرمان (.

ولما كان معظم القصد في هذا السياق نفي الشريك وإثبات الفعل بالاختيار ، لم يدع الحال إلى ذكر كمال الشبه فاكتفى بأصل الفعل فقيل : (متشابها) أي كذلك) وغير متشابه) أي في اللون والطعم والفساد وعدمه والتفكه والاقتيات والدهن والماء - إلى غير ذلك من أحوال وكيفيات لا يحيط بها حق الإحاطة إلا بارئها سبحانه وعز شأنه ، ولعله جمع الأولين لأن كلا منهما يدخر للاقتيات ولا يسرع فساده

---

(١) نظم الدرر . ٦٤٤/٢

مع المفارقة في الشكل ، والاختلاف في النوع بالشجر والنجم ، والتفاوت العظيم في المقدار ، والأخيرين لأن الأول لا يفسد بوجه ، والثاني يسرع فساده ، ويدخر كل منهما على غير الهيئة التي يدخر عليها الآخر مع كونهما من الأشجار وتقاربهما في المقدار وتفاوت ثمرتهما في الشكل والقدر وغير ذلك .

ولما كان قوله

٧٧ ( ) وهو الذي أنزل من السماء ماء ( ) ٧

[الأنعام : ٩٩] في سياق الاستدلال على أنه لا فاعل إلا الله ، أمر فيه بالنظر إلى الثمر واليبع ليعتبر بحالهما ، وكانت هذه الآية في سياق التعنيف لمن حرم ما رزقه الله و ا لأمر بالأكل من حلال ما أنعم به والنهي عن تركه تدينا فقال تعالى هنا : (كلوا (وقدم الأولى المستدل بها على وجود البارئ وتفرده بالأمر لأن اعتقاد ذلك سعادة روحانية أبدية ؛ وقال أبو حيان في النهر : لما كان مجيء تلك الآية في معرض الاستدلال بها على الصانع وقدرته والحشر وإعادة الأرواح إلى الأجساد بعد العدم وإبراز الجسد وتكوينه من العظم الرميم وهو عجب الذنب ، قال

٧٧ ( ) انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ( ) ٧

[الأنعام : ٩٩] إشارة إلى الإيجاد أولا وإلى غايته ، وهنا لما كان في معرض الامتنان وإظهار الإحسان بما خلق لنا قال : كلوا ، ودل على أن الرزق أكثر من خلقه بقوله : (من ثمره (، ولما كان هذا الأمر للإباحة لا للارادة ، قيده لئلا يقتضي إيجاد الثمر في كل جنة في كل وقت فقال : (إذا." (١)

" صفحة رقم ١٠٨

وأشار إلى حثه على الإجتهاد بقوله : (وأصلح) أي كن على ما أنت عليه من إيقاع الإصلاح ولما كان عالما بأنه (صلى الله عليه وسلم) مبرأ من السوء غير أن عنده لينا قال : (ولا تتبع) أي تكلف نفسك غير ما طبعت عليه بأن تتبع) سبيل المفسدين) أي استصلاحا لهم وخوفا من تنفيرهم ، فاختلفوا عن الطريق كما تفرس فيهم موسى عليه السلام ولم يذكروا عاقبة فلا هم خافوا بطش من بطش بمن كان يسومهم سوء العذاب ، ولا هم سمعوا لأخيه في الصلاح ، ولا هم انتظروا عشرة أيام ، فلا أخف منهم احلاما ولا أشد على المعاصي إقداما ولما ذكر سبحانه مواعدته واحتياطه في إصلاح قومه ، شرح أمره حال المواعدة وحالهم بعد غيبته فقال : (ولما جاء موسى ليمقاتنا) أي عند أول الوقت الذي قدرناه للمناخاة ؛ ولما كان مقام الجلال مهمولا لا يستطاع وعي الكلام معه ، التفت إلى مقام الإكرام فقال : (

---

(١) نظم الدرر . ٧٢٧/٢

وكلمه) أي من غير واسطه) ربه) أي المحسن إليه بأنواع الإحسان المتفضل على قومه بأنواع الامتنان ، والذي سمعه موسى عليه السلام عند أهل السنة من الأشاعرة هو الصفة الأزلية من غير صوت ولا حرف ، ولا بعد في ذلك كما لا بعد رؤية ذاته سبحانه وهي ليست بجسم ولا عرض لا جوهر ، وليس كمثله شيء وعن ابن عباس رضي الله عنهما اأنه سبحانه كلمه في جميع الميقات وكتب له الألواح ، وقيل : إنما كلمه في أول الربيعين ، والأول أولى ولما كلمه بصفة الربوبية الناظر إلى العطف واللطف ، وكانت الرؤية جائزة ، اشتاق إلى الرؤية شوقا لو يتمالك معه لما استحلاه من لذاذة الخطاب فسألها لعمله أنها جائزة) قال (مسقطا الأداة كعادة أهل القرب -) رب أرني) أي ذاتك الأقداس بأن ترفع عني الحجاب فتجعلني متمكنا من النظر ، وهو معنى قول الحبر ابن عباس : اعطني وحقق أنها رؤية العين بقوله في جواب الأمر -) أنظر) أي أصوب تحديق العين وأشار إلى عظمته سبحانه وعلة شأنه علو العظمة لا المسافة - بالتعدية بحرف النهاية بحرف النهايةة بعد أن أشار بحذف أداة النداء إلى غاية القرب بالإحسان - فقال : (إليك) أي فأراك ولما كان سبحانه قد قضى أنه عليه السلام لا يراه في الدنيا) قال (نافيا المقصود ، وهو الرؤية لا مقدمتها ، وهو النظر الذي هو التحديق بالعين) لن تراني (ودل سبحانه بهذه العبارة على جواز رؤيته حيث لو يقل : لن أرى ، أو لن يراني أحد ؛ ثم زاد ذلك بيانا بتعلقه بممكن فقال : (ولكن انظر إلى الجبل (إشارة جبل بعهده ، وهو أعظم جبل هناك ، وزاد في الإشارة إلى الرؤية بالتعبير بأداة الشك وإتباعها بأمر." (١)

" صفحة رقم ١٣٨

طلبوا منه ذلك عاى الوجه المذطور في البقرة من إظهار القلق والدمدمة) أن اضرب بعصاك) أي التي جعلهنا لك آية وضربت بها البحر فانفلق) الحجر) أي أي حجر أردته من هذا الجنس ؛ وبين سبحانه سرعة امتثال موسى عليه السلام التأثر عن ضربه بحذف : فضربه ، وقوله مشيرا : (فانبجست) أي فانشقت وظهرت ونبعت ، وذلك كاف في تعنيفهم وذمهم على كفرهم بعد المن به ، وهذا السياق الذي هو لبيان إسراعهم في المروق هو لا ينافي أن يكون على وجه الانفجار ، ويكون التعنيف حينئذ أشد) منه اثنتا عشرة عينا (على عدد السباط ، وأشار إلى شدة تمايزها بفوله ؛) مشربهم (ولما لم يتقدم للأكل ذكر ولا كان هذا سياق الامتنان ، لم يذكر ما اتم هذه الاية به في البقرة ولما ذكر تبريد الأكباد بالماء ، أتبعه تبريدها بالظل فقال : (وظللنا) أي في التيه) عليهم الغمام) أي لئلا يتأذوا بالشمس ؛ ولما

---

(١) نظم الدرر . ٣/١٠٨

أتم تبريد الأكباد ، اتبعه غذاء الجساد فقال : (وانزلنا عليهم المن) أي خبرا) والسلوى) أي إداما ؛ وقال السؤال بن يحي : وهوطائر صغير يشبه السماني ، وخاصيته أن أكل لحمه يلين القلوب القاسية ، يموت إذا سمع صوت الرعد كما ان الخطاف يقتله البرد ، فليهمه الله عز وجل أن يسكن جزائر البحر التي لا يكون بها مطر ولا رعد إلى انفصال أوان المطر والرعد ، فيخرج من الجزائر وينتشر في الأرض ولما ذكر عظمته في ذلك نتيجته فقال : (كلزا من طيبات ما رزقناكم (اي بصفة العظمة القاهرة لما نريد مما لم تعالجوه نوع معالجة ، ودل على أنهم قابلوا هذا الإحسان بالطغيان والظلم والعدوان بقوله عطفا على ما تقديره : فعدلوا عن الطبيات المأذون فيها ، واكلوا اخبائث التي حرمناها عليهم بالاصطياد يوم السبت – كما ياتي وفعلوا غير ذلك من المحرمات ، فظلملوا أنفسهم بذلك : (وما ظلمونا) أي بشيء مما قابلوا فيه الإحسان بالكفران) ولكن كانوا) أي دائما جبلة وطبعا) انفسهم) أي خاصة) يظلمون (وهو – مع كونه من أدلة) سأصرف عن آياتي (الآية – دليل على صحة وصف هذا الرسول بالنبي ، فإن من علم هذه الدقائق من اخبارهم مع كونه أميا ولم يخلط أحدا من أخبارهم ، كان صادقا عن علام الغيوب من غير مؤيد وكذا ما بعده ولما ذكر ما حباهم في القفار ، أتبعه إنعامه عليهم عند الوصول غلى الدار فقال : (وإذا) أي اذكر لهم هذا ليصدقوك أو يصيروا في غاية الظلم كأصحاب السبت فيتو قعوا مثل عذابهم ، واذكر لهم ما لم تكن حاضره ولا اخذته عنهم ، وهو وقت إذ ، وعدل عن الإكرام بالخطاب ونو العظمة ، لأن السياق للأسراع في الكفر فقال : (قيل لهم." (١)

" صفحة رقم ١٦٨

لحم ودم منه ، قال معبرا بالواو لأنه كاف في نفي الشرك الذي السياق للتحذير منه بخلاف الزمر فإنه للقهر ، وتأجير المسببات عن الأسباب مدة أدل عليه لأنه خلاف الأصل ،) وجعل (لأن الجعل – كما قال الحرالي – إظهار أمر عن سبب ونصيير) منها) أي لا من غيرها) زوجها) أي حواء من لحمها ودمها وعظمها ولما كان المراد بالنفس آدم عليه السلام وكان الزوج يقال على الذكر والأنثى ، استخدم ضميره في المذكر ذكرا علة الجعل بقوله : (ليسكن) أي آدم هو المراد بالنفس هنا ، ولما كان الزوج هنا هو المرأة أنث الضمير فقال : (إليها (وتنقلهم من ذلك السكون منه إليها – لأن النفس إلى الجنس أميل وعليه أغلب وعليه أقبل ، ولا سيما إن كان بعضا ، ألا ترى إلى محبة الوالد لولده والقريب لقريبه ، وإنما منع سبحانه من نكاح الأصل والفرع لما في ذلك من الضرار وغيره من الحكم الكبار ، فيغشاهاعند ما

---

(١) نظم الدرر ـ ١٣٨/٣

يسكن إليها فيحصل الحبل والولادة فتتفرع النفوس من تلك النفس ولما كان السكون هنا كناية عن الجماع ، أعادة بلفظ أقرب منه – فقال مؤذنا بقرب غشيلتها بعد جعلها ، أو ناسقا له على ما تقديره : فسكن إليها فمالت نفسه إليها فلم يتمالك أن غشيها) فلما تغشاها) أي غشيها آدم عليه السلام المعبر عنه بالنفس بهمة عظيمة) حملت جحملا خفيفا) أي لأنه نطقه) فمرت به) أي فعالجت به أعمالها وقامت وقعدت ، لم يعقها عن شيء من ذلك ، إعلاما بأن أمرها فيه كان على عادة النساء التي نعرفها) فلما أثقلت) أي صارت ثقيلة بكبره وتحريكه في بطنها) دعوا الله) أي آدم وحواء عليهما السلام ولما ذكر الاسم الأعظم استحضارا لأن المدعو هو الذي له جميع الكمال ، فهو قادر على ما دعوا به لأنه قادر على كل ما يريد ، ذكر صفة الإحسان رجاء القبول والامتنان فقال : (ربهما) أي الذي أحسن إليهما ، مقسمين) لئن آتيءنا صالحا) أي ولدا لا عيب فيه) لنكونن من الشاكرين) أي نحن وأولادنا على نعمتك علينا ، وذلك أنهما جوزا أن يكون غير سوى لقدرة الله على كل ما يريد ، لأنه الفاعل المختار لا الطبيعية ولا غيرها ، وأشار بالفاء إلى قرب الولادة من الدعاء فقال : (فلما آتاهما) أي أبويكم آدم وحواء) صالحا (اي جنس الولد الصالح في تمام الخلق بدنا وقوة وعقلا ، فكثروا في الأرض وانتشروا في نواحيها ذكوراوإناثا) جعلا) أي النوعان من أولادها الذكوروالإناث ، لأن (صالحا) صفة لولد وهو للجنس فيشمل الذكر والأنثى والفيل والكثير ، فكأنه قيل : فلما آتاهما أولادا صالحي الخلقة من الذكور والإناثجعل النوعان) له شركاء) أي بعضهم اصناما وبعضهم نارا وبعضهم غير ذلك ، هذا." (١)

" صفحة رقم ١٨٥

من الدنيا إعراضا وزهادة ، وهو تذكير بوصف المتقين المذكور أول الكتاب بقوله : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وممارزقنهم ينفقون (

الأنفال : (٤ – ٩) أولئك هم المؤمنون. .. . .

) أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم كمآ أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين (( )

---

(١) نظم الدرر ـ ١٦٨/٣

ولما حققوا إيمانهم بأفعال القلوب والجوارح والأموال ، فاستوفوا بذلك جميع شعب الدين ، عظم سبحانه شأنهم بقوله : (أولئك) أي العهالو الهمم) هم) أي خاصة) المؤمنون (وأكد مضمون الجملة بقوله : (حقا (ولما كانت صفاتهم الخمس المذكورة المشتملة على الأخلاق ولأعمال لها تأثيراتفي تصفية القلوب وتنويرها بالمعارف الإلهية ، وكلما كان المؤثرأقوى كانت التأثيرات أعلى ، فلما كانت هي درجات كان جزاؤها كذلك ، فلهذا قال سبحانه تعالى في جوابمن كأنه قال : فما جزاؤهم على ذلك ؟) لهم درجات (ولما كثرها بجمع السلامة بما دل عليه سياق **الامتنان** ، عظمتها بقوله : (عند ربهم) أي بتسليمهم لأمره ولما كان قدر الله عظيما ، وكان الإنسان عن بلوغ ما يجب عليه من ذلك ضعيفا حقيرا ، وكان بأدنى شيء من أعماله يستفزه الإعجاب ، أشار سبحانه إلى أنه لا يسعه إلا العفو ولو بذل فوق الجهد فقال : (ومغفرة) أي لذنوبهم إن رجعوا عن المنازعة في الأنفال وغيرها ،) ورزق كريم) أي لا ضيق فيه ولا كدر بوجه ما من منازعة ولا غيرها ، فهو يغنيهم عن هذه الأنفال ، ويملأ أيديهم من الأموال من غنائم فارس والروم وغير ذلك ، هذا في الدنيا ، واما في الآخرة فما لا يحيط به الوصف ؛ قال أبو حيان : لما تقدمت ثلاث صفات قلبية وهي الوجل وزيادة الإيمان والتوكل - وبدنية ومالية ، ترتب عليها ثلاثة أشياء ، فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات والبدنية بالغفران ، وقوبلت المالية بالرزق الكريم ، وهذا النوع من المقابلة من بديع علم البديع - انتهى .

ولما كان الإيمان عند الشافعي رحمه الله الإعتقاد والإقراروالعمل جوز أن يقال : مؤمن إن شاء الله ، لأن استيفتاء الأعمال مشكوك فيه وإن كان الإعتقاد والإقرار يقينا ، وعند أبي حنيفة رحمه الله الإيمان الإعتقاد والإقرار فقط ، فلم الاستثناء ، فالخلاف ، لفظي ، هذا إذا." (١)

" صفحة رقم ٢٠٦

ولما كان وجود مطلق الاستضعاف دالا على غاية الضعف بنى للمفعول قوله : (مستضعفون) أي لا منفذ عندكم) في الأرض (أطلقها والمراد مكة ، لأنها لعظمها كأنهات هي الأرض كلها ، ولأن حالهم كان في بقية البلاد كحالهم فيها أو قريبا من ذلك ، ولذلك عبر الناس في قوله : (تخافون) أي في حال اجتماعكم فكيف عند الانفراد) أن يتخطفكم) أي على سبيل التدريج) الناس) أي كما تتخطف الجوارح الصيود ، فحذرهم سبحانه - بالتنبيه على قادر علىأن يعيدهم إلى ما كانوا عليه - من هذه الأحوال بالمخالفة بين كلمتهم وترك التسبب إلى اجتماعها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي ذلك أيضا إشارة إلى

---

(١) نظم الدرر . ١٨٥/٣

أنهم لما كانوا في تلك الحالة التي هي في غاية الضعف ، وكانت كلمتهم مجتمعه على أمر الله الذي هو توحيده وطاعة رسوله ، أعقبهم الإيواء في دار منيعة ، قد ايدهم بالنصر وأحسن رزقهم ، وذلك معنى قوله تعالى مسببا عما قلبه : (فآوكم) أي في دار الهجرة رحمة لكم) وأيدكم بنصره) أي بأهلها مع الملائكة) ورزقكم من الطيبات (اي الغنائم الكاملة الطيبة بالإحلال وعدم المنازع التي لم تحل لأحد قبلكم وغيرها) لعلكم تشكرون) أي ليكون حالكم حال من يرجى شكره ، فيكون بعيدا عن المنازعه في الأنفال ، وذلك إشارة إلى أنهم مهما استمروا على تلك الحالة ، كان – بإقبالهم على مثل ما أتاهمبه وزادهم من فضله – أن جعلهم سادة في الدارين بما يهب لهم من الفرقان الآتي في الآية بعدها والتوفيق عند إتيانه ، فالآية منصبة إلى الصحابه بالقصد الأول وهي صالحة للعرب عاش شقيا ومن مات منهم تردى في النار معكوفين على رأس الحجرين الشديدين : فارس والروم ، يؤكلون ولا يأكلون ، وما في بلادهم شيء عليه يحسدون حتى جاء ملوكا على قارب الناس ، وبالسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم يحب شكره والشاكر في مزيد من الله تعالى ولما ختم الآية هو في غاية النصيحة منه تعالى لهم من الإيواء والنصر والرزق الطيب المشار به إلى الامتنان بإحلال المنعم ، وختم ذلك بالحث على الشكر ؛ نهانا عن تضيع الشكر في ذلك بالخيانة في أوامره بالغلول أو غيره فقال : (يأيها الذين آمنوا (الأعظم ، فإن أصل الخون النقص ثم استعمل في ضد الأمانه والوفاء فصارت نقصا خاصا) والرسول (بغلول ولا غيره ، بل أدوا الأمانه في جميع ذلك ، ولعله كرر العامل." (١)

" صفحة رقم ٢٣٦

الخيل (إيماء إلى باب من الامتنان بالنصر في بدر لأنهم لم يكن معهم فيه غير فرسين ، والرباط هو الخيل التي تربط في سبيل الله الخمس منها فما فوقها ، وخصها مع دخولها فيما قبل إشارة إلى عظيم غنائها ، والرباط أيضا ملازمة تغر العدو وربط الخيل به إعدادا للعدو ؛ ثم أجاب من كأنه قال : لم نفعل ذلك وما النصر إلا بيدك ؟ بقوله : (ترهبون (بذلك الذي أمرتكم به من المستطاع أو من الرباط) عدو الله) أي الذي له العظمة كلها لأنه الملك الأعلى) وعدوكم) أي المجاهدين ، والأليق بقوله – : (وآخرين) أي وترهبون بذلك آخرين) منن دونهم (– أي يحمل على المنافقين لوصفهم بقوله : (لا تعلمونهم (كما قال تعالى

٧٧ ( ) وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردواعلى النفاق لا تعلمهم ( ) ٧

---

(١) نظم الدرر ـ ٣/٢٠٦

[التوبة : ١٠١] ولأنهم لا يكونون دونهم إلا إذا لم يكونوا في العداوة مثلهم ، وكل من فرض غير المنافقين مظهرون للعداوة ، وأما المنافقون فإنهم مدعون بإظهار الإسلام أنهم أولياء لا أعداء) الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما) يعلمهم) أي فهو يكفيكم ما يظن من أمرهم ، وليس عليكم إلا الجهد بحسب ما تعلمون ، والآية بالنسبة إلى ما تقدمها من باب (اعقلها وتوكل) والمعنى لا تظنوا أن الكفار فاتونا وأفلتوا من عذابنا بامتناعهم منكم فإنهم يحملنكم الاتكال على قوتنا على ترك أسباب مغالبتهم بما أعطيناكم من القوى بل ابذلوا جهدكم وطاقتكم في إعداد مكايد الحرب وما يتعلق بالرمي من القوة وبالخبل من الطعن والضرب والفروسيه لنلقي بذلك رعبكم في قلوب عدوكم القريب والبعيد من تعلمونه منهم ومن لا تعلمونه .

ولما كان أغلب معاني هذه الآية الإنفاق ، لأن مبنى إعداد القوة عليه ، رغب فيه بقوله : (وما تنفقوا من شيء) أي من الأشاء وإن قل) في سبيل الله) أي طريق من له صفات الكم١ل من الجهاد وغيره) يوف إليكم) أي آجره كاملا في الدنيا والآخرة أوفي ما يكون مضاعفا أحوج ما تكونون إليه) وأنتم لا (."(١)

" صفحة رقم ٢٤٣

وحرمة ، فيكون من الإزالة ، وآذن العشب : بدأ يجف فبعضه رطب وبعضه يابس كأنه أمكن من جره وجمعه ببدو صلاحه ، والآذن : الحاجب ، لأنه للتمكن والنمع ، والأذنة محركة : صغار الإبل والغنم كأنها تبيح كل أحد ما يريد منها ، وطعام لا أذنة له : لا شهوة لريحة ، فكأنه ممنوع منه لعدم اشتهائه ، وتأذن الأمير في الناس : نادى فيهم بتهدد ، فهو يرجع إلى المنع والزجر عن شيء تعزيرا ، والذين - بالكسر والياء : العنب ، وكذا الذان - بالألف منقلبة عن واو : العنب ، كأنه لسهولة تناوله ولذة مطعمه أمكن من نفسه ، والتذون - ب بالواو مشددة : الغنى والنعمة ، كأنهما سبب للإمكان مما يشتهي ، والذؤنون - مهموزا كزنبور : نبت من نبات الأرض ؛ والمعنى أنه إنما أذن لكم في ذلك إذا فعلتم الشرط المذكور لأنكم فقهتم على الحرب وبنيتم أمركم فيه على دعائمها الخمس التي ملاكها والداخل في كل منها الصبر ، فكان الله معكم ، وهو مع كل صابر هذا الصبرالمثبت في الدعائم الخمس في كل أوان ، ومما يسأل عنه في الآية أنه ابتدئ في العشرات بثاني عقودها ، وفي المئات والآلاف بأولها .

---

(١) نظم الدرر . ٢٣٦/٣

سالت شيخا الإمام انتفى وعلم محقق زمانه شمس الدين محمد بن علي القاياتي قاضي الشافعية بالديار المصرية : ما حكمته ؟ فقال : الأصل الابتداء بأول العقود ، لكن لو قيل : إن يكم منكم عشرة صابرة يغلبوا مائة ، لربما توهم انه لا تجب مصابرة الواحد للعشرة إلا عند بلوغ المؤمنين هذا العقد ، فعدل إلى الابتداء بثاني عقود هذه المرتبة لينتقي هذا المحذور ، فلما انتقى وعلم أنه يجب مصابرة كل واحد لعشرة ، ذكر باقي المراتب في الباقي على الأصل المعتاد ، وأما تكرير المعنى الواحد وهو مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين : قبل التخفيف وبعده فللدلالة – كما قال في الكشاف – على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت وإن كان ةد يظن تفاوته ، وكأنه لم يذك الآحاد بشارة بكثرة هذه الأمة واجتماعها وبدأ بالعشرات وختم بالألوف ليستوفي مراتب الأعداد الأصلية – والله أعلم ولما تقدم الأمر بالإثخان في) فشردبهم (ثم بإعداد القوة ، ثم التحريض على القتال بعد الإعلام بالكفاية ثم إيجاب ثبات الواحد لعشرة ثم إنزال التخفيف إلى اثنين ؛ كذن ذلك مقتضيا للإمعان في الإثخان ، فحس عتاب الأحباب في اختيار غير ما أفهمه هذا الخطاب ، لكون ذلك أقعد في الامتنان عليهم بالعفو والغفران بسبب أن أكثرهم مال إلى الفداء الأساري فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) استشارهم فيهم فاشار أبو بكر رضي الله عنه بالمفاداة ومال معه الأكثر ، وأشار عمر رضي الله عنه بضرب أعناقهم ، ورروي أنه قال (صلى الله عليه وسلم) (لو نزل من السماء عذاب – اي في هذا – ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ) رضي الله." (١)

" صفحة رقم ٢٩٤

أنتم فيه لفرط الرعب ، فما ضاق في الحقيقة إلا ما كان من الآمال التي سكنت إلى الأموال والرجال ، ولعل عطفه – لتوليهم بأداة التراخي في قوله : (ثم وليتم) أي تولية كثيرة ظهوركم الكفار ، وحقق ذلك بقوله : (مدبرين) أي انهزاما مع أن الفرار كان حين اللقاء لم يتأخر – إشارة إلى ما كان عندهم من استعباده اعتمادا على القوة والكثرة) ثم أنزل الله) أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال) سكينته) أي رحمته ، وهي الأمر الذي يسكن القلوب عن أن تتأثر يدهمها من البلاء من الوثوق به سبحانه ومشاهدة جنابة الأقدس والغناء عن غيره .

ولما كان المقام للرسالة ، وكان تأييد مدعيها من أمارات صدقه في دعوى أنه رسول ، وأن مرسله قادر على ما يريد لا سيما إن كان تأييده على وجه خارق للعادة ، عبر به دون وصف النبوة فقال : (على

---

(١) نظم الدرر . ٣/٢٤٣

رسوله) أي زيادة على ما كان به من السكينة التي لم يحز مثلها أحد ، ثبت بها الثلاثين ألفا أو عشرين أو أربعة آلاف على اختلاف الروايات في عشرة أنفس أو مائة أو ثلاثمائة – على الاختلاف ايضا ، لم يكن ثباتهم إلا به ، ثم لم يزده ذلك إلا تقدما حتى أن كان العباس عمه وأبو سفيان بن الحارث ابن عمه رضي الله عنهما ليكفيان بغلته عن بعض التقدم ، ولعل العطف ب (ثم) إشارة إلى علو رتبة ذلك الثبات واستبعاد أن يقع مثله في مجاري العادات) وعلى المؤمنين) أي أما من كان منهم ثابتا فزيادة على ما كان له من ذلك ، وأما غيره فأعطي ما لم يكن في ذلك الوقت له ، وذلك انه (صلى الله عليه وسلم) قال لعمه العباس رضي الله بعدما فر الناس : ناد فيهم يا عباس فنادى وكان صيتا : ياعباد الله يا اصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فكروا عنقا واحدا يقولون : لبيك لبيك ويحتمل أن يكون ذكر الرسول عليه السلام لمجرد التبرك كما في ذكر الله في قوله :

٧٧ ( ) فإن الله خمسة ( ) ٧

[الأنفال : ٤١] وزيادة في تعظيم الامتنان به لأن النفوس إلى ما أعطى منه الرسول أميل والقلوب له اقبل لاعتقاد جلاله وعظمته وكماله) وأنزل) أي من السماء) جنودا لم تروها) أي من الملائكة عليهم السلام) وعذب) أي بالقتل والأسر والهزيمة والسبي والنهب) الذين كفروا (عبر بالفعل لأن فيهم من آمن بعد ذلك .

ولما كان ما عذب به من اوجد مطلق هذا الوصف عظيما ، اتبعه بيان جزاء العريق في ذلك ترهيبا لمن آثرحب شيء مما مضى على حب اله فقال : (وذلك) أي العذاب." (١)

"صفحة رقم ٤١١

سورة يونس

يونس : (١ – ٣) الر تلك آيات. .. . .

) الر تلك آيات الكتاب الحكيم أكان للناس عجبا أن أوحينآ إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون (( )

---

(١) نظم الدرر . ٢٩٤/٣

وهي أولى المئين إن جعلها براءة مع الأنفال من الطول ، وإلا فبراءة أولاهن ، مقصودها وصف الكتاب بأنه من عند الله من عند الله لما اشتمل عليه من الحكمة وأنه ليس إلا من عنده سبحانه لأن غيره لا يقدر على شيء منه ، وذلك دال ريب على أنه واحد في ملكه لا شريك له في شيء من أمره ، وتمام الدليل على هذا قصة قوم يونس عليه السلام بأنهم لما آمنوا عند المخايل كشف عنهم ، فدل قطعا على ان الآتي به هو الله الذي آمنوا به غذ ر و كان غيره لكان إيمانهم به موجبا للإيقاع بهم ، ولو عذبوا كغيرهم ليقل : هذه عادة الدهر ، كما قالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء ودل ذلك على أن عذاب غيرهم من الأمم إنما هو من عند الله لكفرهم لما اتسق من ذلك طردا بأحوال سائر الأمم من أنه كلما وجد الإصرار على التكذيب وجد العذاب ، وعكسا منه كلما انتفى في وقت يقبل قبول التوبة انتفى - والله الموفق) بسم الله (اي الذي لا أمر لأحد سواه فلا كلبام يشبه كلامه فلا كفوء له) الرحمن (الذي عم بكلامه جميع خلقه فأوضح البيان) الرحيم (الذي أتم لمطيعهم نعمة الامتنان) آلر (فخم اراء ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم ، وأمالها ورش عن نافع بين بين ، والباقون بالإمالة المحضة ، والأصل في ذلك الفتح ، وكذا ما كان من أمثالها مما ألفاتها ليست منقلبة عن ياء نحو ما ولا ، وإمالتها للتنبيه على أنها أسماء للحروف وليست حروفا - نقل ذلك عن الواحدي .

لما قدم في أول الأعراف الحث على إبلاغ النصيحة بهذا الكتاب وفرغ مما اقتضاه." (١)

" صفحة رقم ٢٤٧

تكونوا (- أي كونا أنتم مجبولون عليه - قادرين على حملها إليه ، وتبلغكم - بحملها لكم - إلى بلد لم تكونوا) بالغيه (بغير الإبل) أي بشق) أي بجهد ومشقة وكلفة) الأنفس (ويجوز أن يكون المعنى : لم تبلغوه بها ، فكيف لو لم تكن موجودة ؛ والشق : أحد نصفي الشيء ، كأنه كناية عن ذهاب نصف القوة لما يلحق من الجهد ؛ والآية من الاحتباك : ذكر حمل الأثقال أولا دليلا على حمل الأنفس ثانيا ، وذكر مشقة البلوغ ثانيا دليلا على مشقة الحمل أولا .

ولما كان هذا كله من الإحسان في التربية ، ولا يسخره للضعيف إلا البليغ في الرحمة ، وكان من الناس من له من أعماله سبب لرضى ربه ، ومنهم من أعماله كلها فاسدة ، قال : (إن ربكم) أي الموجد لكم والمحسن إليكم) لرؤوف) أي بليغ الرحمة لمن يتوسل إليه بما يرضيه) رحيم) أي بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب .

---

(١) نظم الدرر . ٤١١/٣

ولما كانت الأنعام أكثر أموالهم ، مع أن منافعها أكثر ، بدأ بها ثم ثنى بما هو دونها ، مرتبا له على الأشراف فالأشراف ، فقال تعالى : (والخيل) أي الصاهلة) والبغال) أي المتولدة بينها وبين الحمر) والحمير) أي الناهقة .

ولما كان الركوب فعل المخاطبين ، وهو المقصود بالنفعة ، ذكره باللام التي هي الأصل في التعليل فقال : (لتركبوها (ولما كانت الزينة تابعة لمنفعة ، وكانت فعلا لفاعل الفعل المعلل ، نصبت عطفا على محل ما قبلها فقال : (وزينة (.

ولما دل على قدرته بما ذكر في سياق **الامتنان** ، دل على أنها لا تتناهي في ذلك السياق ، فنبه على أنه خلق لهم أمورا لوعدها لهم لم يفهموا المراد على سبيل التجديد والاستمرار في الدنيا والآخرة) ما لا تعلمون (فلا تعلمون له موجدا غيره ولا مدبرا سواه .

النحل : (٩ - ١١) وعلى الله قصد. .. . . .

) وعلى الله قصد السبيل ومنها جآئر ولو شآء لهداكم أجمعين هو الذي أنزل من السماء مآء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (( )

ولما كانوا في أسفارهم واضطرابهم في المنافع بهذه الحيوانات وغيرها يقصدون أسهل الطرق وأقومها وأوصلها إلى الغرض ، ومن عدل عن ذلك كان عندهم ضالا سخيف العقل غير مستحق للعد في عداد النبلاء ، نبههم على أن ما تقدم في هذه السورة قد بين الطريق الأقوم الموصل إليه سبحانه بتكليفه ببيان أنه واحد قادر عالم مختار ، وأنه." (١)

" صفحة رقم ٥٠١

ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنها طواف في الأرض لطلب العلم ، عقبها بقصة من طاف الأرض لطلب الجهاد ، وقدم الأولى إشارة إلى علو درجة العلم لأنه أساس كل سعادة ، وقوام كل أمر ، فقال عاطفا على

٧٧ ( ) ويجادل الذين كفروا بالباطل ( ) ٧

[الكهف : ٥٦]) ويسألونك عن (الرجل الصالح المجاهد) ذي القرنين (سمي لشجاعته أو لبلوغه قرني مغرب الشمس ومشرقها ، أو الانقراض قرنين من الناس في زمانه ، أو لأنه كان له ضفيرتان من

---

(١) نظم الدرر . ٢٤٧/٤

الشعر أو لتاجه قرنان ، وهو الإسكندر الأول - نقل ابن كثير عن الأزرقي أنه كان على زمن الخليل عليه السلام ، وطاف معه بالبيت ، ومن المناسبات الصورية أن في قصة كل منهما ثلاثة أشياء آخرها بناء جدار لا سقف له ، وإنما هو لأجل حفظ ما يهتم به خوف المفسدن وصدرها بالإخبار عن سؤالهم إشارة إلى أنهم لم يسألوا عن التي قبلها على ما فيها من العجائب وللطائف ، والأسرار والمعارف ، تبكيتا لليهود في إغفال الأمر بالسؤال عنها إن كان مقصودهم الحق ، وإن لم يكن مقصودا لهم كانوا بالتبكيت أجدر ، أو تكون معطوفة على مسألتهم الأولى وهي الروح ، وصدرها بالإخبار بالسؤال تنبيها على ذلك لطول الفصل ، إشارة إلى أن ذلك كله مرتبط بجوابهم ارتباط الدر بالسلك .

ولما كان من المعلوم أنه يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم : فبماذا أجيبهم ؟ قال : (قل) أي لهم : (سأتلوا) أي أقص قصا متتابعا في مستقبل الزمان إن أعلمني الله به) عليكم (أيها المشركون وأهل الكتاب المعلمون لهم مقيدا بأن شاء الله كما سلف لك الأمر به) منه ذكرا (كافيا لكم في تعرف أمره ، جامعا لمجامع ذكره .

ولما كانت قصته من أدل دليل على عظمة الله ، جلاها في ذلك المظهر فقال : (إنا (مؤكدا لأن المخاطبين بصدد التعنت والإنكار) مكنا) أي بما لنا من العظمة ، قيل : بالملك وحده ، وقيل مع النبوة ، لأن ما ينسب إلى الله تعالى على سبيل الامتنان والإحسان جدير بأن يحمل على النهاية لا سيما إذا عبر عنه بمظهر العظمة) له في الأرض (مكنة يصل بها إلى جميع مسلوكها ، ويظهر بها على سائر ملوكها) وءاتيناه (بعظمتنا) من كل شيء (يحتاج إليه في ذلك) سببا (قال أبو حيان : وأصل السبب الحبل ، ثم توسع فيه حتى صار يطلق على ما يتوصل به إلى المقصود .

فأراد بلوغ المغرب ، ولعله بدأ به لأن باب التوبة فيه) فأتبع) أي بغاية جهده - هذا على قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو بالتشديد ، والمعنى على قراءة الباقين بقطع الهمزة وإسكان الفوقانية : ألحق بعض الأسباب ببعض ، وذلك تفسير لقراءة التشديد) سببا (يوصله." (١)

" صفحة رقم ٥٥٣

ولما كان هذا جديرا بالقبول لقيام الأدلة على كمال قدرة قائله ، وتنزهه عن إخلاف القول ، لبراءته من صفات النقص ، قال معجبا من منكره عاطفا على قوله) ويقول الإنسان (: (وإذا تتلى عليهم) أي الناس ، من أي تال كان) ءاياتنا (حال كونها) بينات (لا مرية فيها ، بأن تكون محكمات ، أو

---

(١) نظم الدرر . ٥٠١/٤

متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات ، أو ببيان النبي (صلى الله عليه وسلم) فهي حال مؤكدة أو كاشفة) قال الذين كفروا (بآيات ربهم البينة ، جهلا منهم ونظرا إلى ظاهر الحياة الدنيا الذي هو مبلغهم من العلم) للذين ءامنوا) أي لأجلهم أو مواجهة لهم ، إعراضا عن الاستدلال بالآيات ، ووجوه دلالتها البينات ، بالإقبال على هذه الشبهة الواهية – وهي المفاخرة بالمكاثرة في الدنيا – من قولهم : (أي الفريقين (نحن – بما لنا من الاتساع ، أم أنتم – بما لكم من خشونة العيش ورثاثة الحال) خير مقاما) أي موضع قيام أو إقامة – على قراءة ابن كثير بضم الميم والجماعة بفتحها : (وأحسن نديا (مجمعا ومتحدثا باعتبار ما في كل من الرجال ، وما لهم من الزي والأموال ، ويجعلون ذلك الامتحان بالإلغام والإحسان دليلا على رضى الرحمن ، مع التكذيب والكفران ، ويغفلون عن أن في ذلك – مع التكذيب بالبعث – تكذيبا مما يشاهدونه منا من القدرة على العذاب بإحلال النقم ، وسلب النعم ، ولو شئنا لأهلكناهم وسلبنا جميع ما يفتخرون به) وكم أهلكنا (بما لنا من العظمة .

ولما كان المراد استغراق الزمان ، لم يأت بالجار إعلاما بأن المتقدمين كلهم كانوا أرغد عيشا وأمكن حالا فقال : (قبلهم من قرن) أي شاهدوا ديارهم ، ورأوا آثارهم ؛ ثم وصف كم بقوله : (هم) أي أهل تلك القرون) أحسن (من هؤلاء) أثاثا) أي أمتعة) ورئيا) أي منظرا ، فكأنه قيل : فما يقال لهم ؟ فقال : (قل) أي لهم ردا عليهم وقطعا لمعاذيرهم وهتكا لشبههم : هذا الذي افتخرتم به لا يدل على حسن الحال في الآخرة ، بل على عكس ذلك ، فقد جرت عادته سبحانه أنه) من كان في الضلالة (مثلكم كونا راسخا بسط له في الدنيا وطيب عيشه في ظاهر الحال فيها ، ونعم بأنواع الملاذ ، وعبر عن أن ذلك لا يكاد يتخلف عن غير من حكم بإلزامه المسكنة من اليهود بلام الأمر ، إيذانا بوجوده وجود المأمور به الممتثل في قوله : (فليمدد (وأشار إلى التحلي لهم بصفة الإحسان بقوله : (له الرحمن) أي العام **الامتنان**) مدا (في العاجلة بالبسط في الآثار ، والسعة في الديار ، والطول في الأعمار ، وإنفاقها فيما يستلذ من الأوزار الكبار ، فيزيده العزيز الجبار بذلك ضلالة ، فيا له من خسار ، وتباب وتبار ، لمن له استبصار ، ولا نزال نمد هل استدراجا) حتى (وحقق أخذهم بأداة التحقيق فقال : (إذا رأوا) أي كل من كفر بالله بأعينهم وإن ادعوا أنهم يتعاضدون ويتناصرون ، ولذلك." (١)

" صفحة رقم ٣٦

(١) نظم الدرر . ٥٥٣/٤

اتباعه والطكون في أثره للحلول في الأماكن التي حدها الله لهم وأمر السبعين المختارة بمثل ذلك ، وكأنهم لما مضى تلبثوا لما رأوا من مقام الجلال ، فلما مضت الثلاثون بعد ذهاب موسى لم يكن أتى الوقت الذي أراد الله أن تكون المناجاة فيه ، فزاده عشرا فظن بنو اسرائيل الظنون في تلك العشرة ، ووقع لهم ما وقع من اتخاذ العجل .

ولما كان ذلك – والله أعلم بما كان ، وكان أعظم ما مضى في آية **الامتنان** عليهم والتعرف بالنعم إليهم المواعدة لهدايتهم بالآيات المرئية والمسموعة ، وختم ذلك بالإشارة إلى الاجتهاد في الإقبال على الهدى ، أتبع ذلك ذكر ضلالهم بعد رؤية ما يبعد معه كل البعد إلمام من رآه بشيء من الضلال ، كل ذلك لإظهار القدرة التامة على التصرف في القلوب بضد ما يظن بها ، وكان تنجز المواعيد إلذ شيء للقلوب وأشهاه إلى النفوس ، وكان السياق مرشدا حتما إلى أن التقدير : فأتوا إلى الطور لميعادنا ، وتيمموا جانبه الأيمن بأمرنا ومرادنا ، وتعجل مويى صفبنا الصعود فيه مبادرا لما عنده من الشوق إلى ذلك المقام الشريف وتأخر مجيء قومه عن الإتيان معه ، فقلنا : ما أخر قومك عن الأتيان معك ؟ فعطف عليه قوله : (وما أعجلك) أي أي شيء أوجب لك العجلة في المجيء) عن قومك (وإن كنت مبادرة المبالغ في الاسترضاء ، أما علمت أن حدود الملوك لا ينبغي تجاوزها بتقدم أو تأخر ؟) ياموسى (فهلا تيتم جمله وانتظرتم أمرا أمرا جديدا بخصوص الوقت الذي استحضركم فيه) قال (موسى ظنا منه أنهم أسرعوا وراءه : (هم (وأتى باسم الإشارةواسقط منه هاء التنبيه لأنه لا يليق بخطاب الله ، قال ابن هبيرة : ولم أر أحدا من الأصفيء خاطب ربه بذلك ، وإنما خاطب به الكفار لغباوتهم

٧٧ ( ) قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ( ) ٧

[النحل : ٧٦] في أمثالها وأما آخر الزخرف فقد ذكر ،لتعبير بها في موضعه) أولاء) أي هم في القرب بحيث يسار إليهم ، كائنين) على أثري) أي ماشين على آثار مشييي قبل أن ينطمس لم أسبقهم إلا بشيء جرت العادةفي السبق بمثله بين الرفاق ، هذا ناء منه على ما كان عهد إليهم ، وأكد فيه عليهم : ثم اعتذر عن فعله فقال : (وعجلت (أنا بالمبادرة) إليك (وجرى على عادة أهل القرب كما يحق له فقال : (رب) أي ايها المسارع في إصلاح شأني والإصلاح إلي) لترضى (عني رضى أعظم مما كان) قال (الرب سبحانه : (فأنا) أي قد تسبب عن عجلتك عنهم أنا) قد فتنا) أي خالطنا بعظمتنا مخالطة مميلة محيلة) قومك (بتعجلك .

ولما كانت الفتنة لم تستغرق جميع الزمن الذي كان بعده ، وإنما كانت في بعضه ، ." [1]

" صفحة رقم ٤٣٨

أن المراد كل ما كان هكذا ، فإنه في قوة أن يدار عليه الجدار وإن لم يكن له جدار ، وعن الفراء أن البستان إن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة .

ولما كان الأولى بجمع الكثرة لما لا يعقل الوصف بالمفرد قال مفيدا أنها كالشيء الواحد في ذلك الوصف : (ذات بهجة) أي بهاء وحسن رونق ، وبشر بها وسرور على تقارب اصولها مع اختلاف أنواعها ، وتباين طعومها وأشكالها ، ومقاديرها وألوانها .

ولما أثبت الإنبات له ، نفاه عن غيره على وجه التأكيد تنبيها على تأكد اختصاصه بفعله ، وعلى أنه إن أسند إلى غيره فهو مجاز عن التسبب وأن الحقيقة ليست إلا له فقال : (ما كان) أي ما صح وما تصور بوجه من الوجوه) لكم (وأنتم أحياء فضلا عن شركائكم الذين هم أموات بل موات) أن تنبتوا شجرها) أي شجر تلك الحدائق .

ولما ثبت أنه المتفرد بالألوهية ، حسن موقع الإنكار والتقرير في قوله : (أإله) أي ك ائن) مع الله) أي الملك الأعلى الذي لا مثل له .

ولما كان الجواب عند كل عاقل : لا وعزته قال معرضا عنهم للإيذان بالغضب : (بل هم) أي في جعائهم معه سبحانه شريكا) قوم يعدلون) أي عن الحق الذي لا مرية فبه إلى غيره ، مع العلم بالحق ، فيعدلون بالله غيره .

ولما فرغ من آية اشترك فيها الخافقان ، ذكر ما تتفرد به الأرض ، لأنها اقرب إليهم وهم بحقيقتها وما لا بسوه من أحوالها أعلمم منهم بالأمور السماوية ، تعديدا للبراهين الدالة على تفرده بالفعل الدال على تفرده بالإلهية ، فقال مبدلا من) أمن خلق (: (أمن) أي أم فعل ذلك الذي) جعل الأرض قرارا) أي مستقرة في نفسها ليقر عليها غيرها ، وكان القياس يقتضي أن تكون هاوية أو مضطربة كما يضطرب ما هو معلق في الهواء .

ولما ذكر قرارها ، أتبعه دليله في معرض الامتنان فقال : (وجعل خلالها (اي في الأماكن المنفرجة بين جبالها) أنهارا) أي جارية هلى حالة واحدة ، فلو اضطربت الأرض أدنى اضطراب ، لتغيرت مجاري المياه بلا ارتياب .

---

(١) نظم الدرر . ٣٦/٥

ولما ذكر الدليل ، ذكر سبب القرار فقال : (وجعل لها رواسي) أي كمارسي السفن ، كانت أسبابا في ثباتها على ميزان دبره سبحانه في مواضع من أرجائها بحيث اعتدلت جميع جوانبها فامتنعت من الاضطراب .

ولما أثبت القرار وسببه ، وكان قد جعل سبحانه للأنهار طرقا تتصرف فيها ولو حبسها عن الجري شيء لأوشك أن تستبحر ، فيصير أكثر الأرض لا ينتفع به في سير ولا." (١)

" صفحة رقم ٥٣٨

يوجب تعب الدنيا وشقاء الآخرة من اعتقاد ما لا يليق بجلاله تعالى ، فقال عاطفا على ما تقديره : فمن أراح نفسه في الدنيا فإنما ضر نفسه : (ومن جاهد (اي بذل جهده حتى كأنه يسابق آخر في الأعمال الصالحة) فإنما يجاهد لنفسه (لأن نفع ذلك له فيتبعها ليريحها ، ويشقيها ليسعدها ، ويميتها ليحييها ، وعبر بالنفس لأنها الأمارة بالسوء ، وإنما طوى ما أدعى تقديره لأن السياق للمجاهدة ، ثم علل هذا الحصر بقوله : (إن الله (اي المتعالي عن كل شائبة نقص) لغني (وأكد لأن كثرة الأوامر ربما أوجبت للجاهل ظن الحاجة ، وذلك نكتة الإتيان بالاسم الأعظم ، وبين أن غناه الغنى المطلق بقوله موضع (عنه)) عن العالمين (فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

ولما كان التقدير : فالذين كفروا وعملوا السيئات لنجزينهم أجمعين ، لكنه طواه لأن السياق لأهل الرجاء ، عطف عليه قوله : (والذين آمنوا وعملوا (تصديقا لإيمانهم) الصالحات (في الشدة والرخاء على حسب طاقتهم ، واشار بقوله : (لنكفرن عنهم سيئاتهم (إلى أن الإنسان وإن اجتهد لا بد أن يزل لأنه مجبول على النقص ، فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما لم يؤت الكبائر ، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان ونحو ذلك مما وردت به الأخبار عن النبي المختار (صلى الله عليه وسلم) .

وزاده فضلا وشرفا لديه ؛ قال البغوي : والتكفير إذهاب السيئة بالحسنة ، أو لنغفرن لهم الشرك وما عملوا فيه ، وأكد لأن الإنسان مجبول على الانتقام ممن أساء ولو بكلمة ولو بالامتنان بذكر العفو فلا يكاد يحقق غير ما طبع عليه .

ولما بشرهم بالعفو عن العقاب ، أتم البشرى بالامتنان بالثواب ، فقال عاطفا على ما تقديره : وانثبتن لهم حسناتهم) ولنجزينهم) أي في الإسلام) أحسن الذي كانوا (اي كونا يحملهم على أتم الرغبة) يعملون) أي أحسن الجزاء ما عمِلوه في الإسلام وما قبله وفي طبعهم أن يعملوه .

---

(١) نظم الدرر . ٤٣٨/٥

ولما ذكر سبحانه أنه لا بد من الفتنة ، وحذر من كفر ، وبشر من صبر ، قال عاطفا على) ولقد فتنا (مشيرا إلى تعظيم حرمة الوالد حيث جعلها في سياق تعظيمالخالق ، وإلى أنها أعظم فتنتك) ووصينا (على ما لنا من العظمة) الإنسان) أي الذي أعناه على ذلك بأن جعلناه على الأنس بأشكاله لا سيما من أحسن إليه ، فكيف بأعز الخلق عليه ، وذلك فتنة له) بوالديه (.

ولما كان التقدير : فقلنا له : افعل بهما) حسنا (اي فعلا ذا حسن من برهما وعطف عليهما ، عطف عليه قوله : (وإن جاهداك) أي فعلا معك فعل المجاهد مع من يجاهده فاستفرغا مجهودهما في معالجتك) لتشرك (وترك مظهر العظمة للنص على المقصود فقال : (بي (ونبهه على طلب البرهان في الأصول إشارة غلى خطر المقام." (١)

" صفحة رقم ٥٥٣

ولما كان التقدير : فأعززناه كما ظن بنا إعزازا أحكمناه حتى استمر في عقبه إلى القيامة ، عطف عليه قوله : (ووهبنا له) أي بجليل قدرتنا شكرا على هجرته) إسحاق (من زوجته سارة عليها السلام التي جمعت إلى العقم في شبابها اليأس بكبرها ، وعطفه لهبته له بالواو دليل على ماسيأتي إن شاء الله تعالى في الصافات من أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاةوالسلام لتعقيبه للهبة هناك على الهجرة بالفاء) ويعقوب (منولده إسحاق عليهما الصلاة والسلام .

ولما كان السياق في هذه السورة للامتحان ، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد ابتلي في إسماعيل عليه الصلاة والسلام بفراقه مع امه رضي الله عنهما ووضعهما في قضيعة من الأرض لا أنيس بها ، لم يذكره تصريحا في سياق **الامتنان** ، وأفرد إسحاق عليه الصلاة والسلام لأنه لم يبتل فيه بشيء من ذلك ، ولأن المنة به – لكون أمه عجوزا وعقيما – أكبر وأعظم لأنها أعجب ، وذكر إسماعيل عليه الصلاة والسلام تلويحا في قوله : (وجعلنا (اي بعزتنا وحكمتنا) في ذريته (من ولد إسحاق وإسماعيل عليهما الصلاةوالسلام) النبوة (فلم يكن بعده نبي أجنبي عنه ، ومتى صحت هذه المناسبة لزم قطعا ن يكون الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإنه أعرى ذكر هذه السورة منه ، ويكون كأنه قيل : إنا بشرناه بما يسر به من إسحاق بعد أن أمرناه بما يضر من إسماعيل عليهما السلام فصبر في محنة الضراء ، وشكر في محنة السراء) والكتاب (فلم ينزل كتاب إلا على أولاده ، وأفرد ليدل – مع تناوله بالجنسية الكتب الأربعة – على أنه لا شيء يستحق أن يكتب إلا ما أنزل فيها ، أو كان راجعا إليه ، ولو جمع لم يفد عليه هذا

---

(١) نظم الدرر . ٥/٥٣٨

المعنى) وآتيناه أجره (على هجرته) في الدنيا (بما خصصناه به مما لا يقدر عليه غيرنا من سعة الرزقن ورغد العيشن وكثرة الخدم ، والولد في الشيخوخة ، وكثرة ا‌ل‌نسل ، والثناء الحسنن والمحبة من جميع الخلق ، وغير ذلك .

ولما كان الكافر يعتقد – لإنكاره البعث – أنه نكد حياته بالهجرة نكدا لا تدارك له ، اقتضى الحال التأكيد في قوله : (وإنه في الآخرة) أي التي هي الدار وموضع الاستقرار) لمن الصالحين (الذين خصصناهم بالسعادة وجعلنا لهم الحسنى وزيادة .

العنكبوت : (٢٨ – ٣٢) ولوطا إذ قال. .. . . .

) ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين قال رب انصرني على القوم المفسدين ولما جآءت." (١)

" صفحة رقم ٣٩

في بعض .

يطلبون من يشفع لهم في الحساب حتى يقوم المصطفى (صلى الله عليه وسلم) المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون إلى انتقاض السماوات ، وانكدار ما فيها من النيرات ، ونزول الملائكة بعد قيامهم من منامهم ، وهو لا يحصى أهل سماء منهم ، كثرة ، كيف وقد أطت السماء وزوال الجبال ، ونسف الأبنية والروابي والتلال ، وغير ذلك مما لا يعلمه حق علمه إلا هو سبحانه .

) المفتاح الثاني (: آية الله في خلقه على قيام الساعة ، وأدل الأدلة عليه وهو إنزال المطر الذي يكشف عن الاختلاط في أعماق الأراضي بالتراب الذي كان نباتا ثم إعادته نبتا كما كان من قبل على اختلاف ألوانه ، ومقاديره وأشكاله ، وأغصانه وأفنانه ، وروائحه وطعومه ، ومنافعه وطبائعه – إلى غير ذلك من شؤونه ، وأحواله وفنونه ، التي لا يحيط بها علما إلا خالقها ومبدعها وصانعها .

ولما كانوا ينسبون الغيث إلى ا‌لأنواء أسند الإنزال إليه سبحانه ليفيد الامتنان ، وعبر بالجملة الفعلية للدلالة على التجدد فقال : (وينزل الغيث (بلام الاستغراق القائمة مقام التسوير ب (كل) وقد أفاد ذلك الاختصاص بالعلم بوقته ومكانه ومقداره وغير ذلك من شؤونه ، فإن من فعل شيئا حقيقة لم يعلم أحد وقت فعله وقوعه إلا من قبله .

---

(١) نظم الدرر . ٥/٥٥٣

) المفتاح الثالث (: علم الأجنة وهو الرتبة الثانية في الدلالة على البعث الكاشف عن تخطيطها وتصويرها ، وتشكيلها وتقديرها ، على وصفي الذكورة والأنوثة ، مع الوضوح أو الإشكال ، والوحدة أو الكثرة ، والتمام أو النقص – إلى ما هناك من اختلاف المقادير والطبائع ، والأخلاق والشمائل ، والأكساب والصنائع ، والتقلبات في مقدار العمر والرزق في الأوقات والأماكن – وغير ذلك من الأحوال التي لا يحصيها إلا بارئ النسم ، ومحيي الرمم .

ولما كانت للخلق في ذلك لكثرة الملابسات والمعالجات ظنون في وجود الحمل أولا ، ثم في كونه ذكرا أو أنثى ثانيا ، ونحو ذلك بما ضرب عليه من الأمارات الناشئة عن طول التجارب ، وكثرة الممارسة ، عبر العلم فقال : (ويعلم ما في الأرحام (من ذكر أو أنثى حي أو ميت وغير ذلك ، وصيغة المضارع لتجدد الأجنحة شيئا فشيئا وقتا بعد وقت ، والكلام في اللام والاختصاص بالعلم كالذي قبله سواء .

) المفتاح الرابع (: الكشب الناشئ عما في الأرحام الفاتح لكنوز السعادة وآفات الشقاوة والمسفر عن حقائق الضمائر في صدقها عند البلاء وكذبها ، وعن مقادير العزائم ورتب الغرائز ، وعن أحوال الناس عن ذلك في الصداقة والعداوة والذكاء والغباوة والصفاء والكدر والسلامة والحيل ، وغير ذلك من الصحة والعلل ، في اختلاف الأمور ، ." (١)

" صفحة رقم ٦٤

الفريقين في الدنيا ، فقال مهددا : (أو لم) أي أيقولون عنادا لرسولنا : أفتراه ولم) يهد) أي يبين – كما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما) لهم كم أهلكنا) أي كثرة من أهلكناه .

ولما كان قرب شيء في الزمان أو المكان أدل ، بين قربهم بإدخال الجار فقال : (من قبلهم) أي لأجل معاندة الرسل) من القرون (الماضين من المعرضين عن الآيات ، ونجينا من آمن بها ، وربما كان قرب المكان منزلا قرب الزمان لكثرة التذكير بالآثار ، والتردد خلال الديار .

ولما كان انهماكهك في الدنيا الزائلة قد شغلهم عن التفكر فما ينفعهم عن المواعظ بالأفعال والأقوال ، أشار إلى ذلك بتصوير اطلاعهم على ما لهم من الأحوال ، بقوله : (يمشون) أي أنهم ليسوا بأهل للتفكر إلا حال المشي) في مساكنهم (لشدة ارتباطهم مع المحسوسات ، وذلك كمساكين عاد وثمود وقوم لوط ونحوهم .

---

(١) نظم الدرر . ٣٩/٦

ولما كان في هذا أتم عبرة وأعظم عظة ، قال منبها عليه مؤكدا تنبيها على أن من لم يعتبر منكر لما فيه من العبر : (إن في ذلك) أي الأمر العظيم) لآيات) أي دلالات ظاهرات ، مرئيات في الديار وغيرها من الآثار ، ومسموعات في الأخبار .

ولما كان السماع هو الركن الأعظم ، وكان إهلاك القرون إنما وصل إليهم بالسماع ، قال منكرا : (أفلا يسمعون) أي إن أحوالهم لا يحتاج من ذكرت له في الرجوع عن الغي إلى غير سماعها ، فإن لم يرجع فهو مم لا سمع له) أو لم) أي أيقولون في إنكار البعث : إذا ضللنا في الأرض ، ولم) يروا أنا (بما لما من العظمة) نسوق الماء (من السماء أو الأرض) إلى الأرض الجزر) أي التي جزر نباتها أي قطع باليبس والتهشم ، أي بأيدي الناس فصارت ملساء لا نبت فيها ، وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : إنها التي لا تمطر إلا مطرا لا يغني عنها شيئا ، قالوا : ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ : جزر ، ويدل عليه قوله : (فنخرج به (من أعماق الأرض) زرعا) أي نبتا لا ساق له باختلاط الماء بالتراب الذي كان زرعا قبل هذا ، وأشار إلى أنه حقيقة ، لا مرية فيه ، وليس هو بتخييل كما تفعل السحرة ، بقوله مذكرا بنعمة الإبقاء بعد الإيجاد : (تأكل منه) أي من حبه وورقه وتبنه وحشيشه) أنعامهم (وقدمها لموقع الامتنان بها لأن بها قوامهم في معايشهم وأبدانهم ، ولأن السياق لمطلق إخراج الزرع ، وأول صلاحه إنما هو لأكل الأنعام بخلاف ما في سورة عبس ، فإن السياق لطعام الإنسان الذي هو نهاية الزرع حيث قال : (فلينظر الإنسان إلى طعامه) [عبس : ٢٤] ثم." (١)

" صفحة رقم ١٠٦

المحيية بالفناء قال : (والذاكرين الله) أي مع استحضار ما له من الكمال بصفات الجلال والجمال)كثيرا (بالقلب واللسان في كل حالة) والذاكرات (ومن علامات الإكثار من الذكر اللهج به عند الاستيقاظ من النوم .

ولما كان المطيع وإن جاوز الحد في الاجتهاد مقتصرا عن بلوغ ما يحق له ، أشار إلى ذلك سبحانه بقوله مكررا الاسم الأعظم إشارة إلى ذلك وإلى صغر الذنوب إذا نسبت إلى عفوه : (أعد الله) أي الذي لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره مع أنه لا يتعاظمه شيء) لهم مغفرة) أي لهفواتهم وما أتوه من سيئاتهم بحيث يمحو عينه وأثره ، فلا عتاب ولا عقاب ، ولا ذكر له سبب من الأسباب .

---

(١) نظم الدرر ـ ٦/٦٤

ولما ذكر الفضل بالتجاوز ، أتبعه التفضل بالكرم والرحمة فقال : (وأجرا عظيما (وإعداد الأجر يدل على أن المراد بهذه الأوصاف اجتماعها لأن مظهر الإسلام نفاقا كافر ، وتارك شيء والرسوخ في كل وصف منها زيادة على التمكن الذي أفاده التعبير بالوصف دون الفعل ، وحينئذ تعدم الكبائر فيتأتى تكفير الصغائر ، فتأتي المغفرة والأجر ، وأما آية التحريم فلم تعطف لئلا يظن أنهن أنواع كل نوع يتفرد بوصف ، وإفادة الرسوخ هنا في الأوصاف من سياق الامتنان والمدح بكونهن خيرا .

الأحزاب : (٣٦ - ٣٩) وما كان لمؤمن. .. . .

) وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيآئهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا (( )

ولما كان الله سبحانه قد قدم قوله : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم (- الآية ، فعلم قطعا أنه تسبب عنها ما تقديره : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة لأن يكون له ولي غير النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فطوى ذلك للعلم به ، واستدل على مضمون الآية وما قبلها بقصة الأحزاب ، وأتبعها نتيجة ذلك مما ذكر تأديب الأزواج له (صلى الله عليه وسلم) وتهذيبهن لأجله وتطهير أهل بيته وتكريمهم حتى ختم سبحانه بالصفات العشر التي بدأها بالإسلام الذي ليس معه شيء." (١)

" صفحة رقم ١٧٢

أمكن .

فهي ظاهرة للعيون بين تلك الجنان ، كأنها الكواكب الحسان ، مع تقاربها بحيث يرى بعضها من بعض وكثرة المال بها والمفاخر والنفع والمعونة للمارة ؛ قال البغوي : كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية متثلة من سبأ إلى الشام .

ولما كانت مع هذا الوصف ربما كان فيها عسر على المسافر لعدم الموافقة في المقيل والمبيت ، أزال هذا بقوله : (وقدرنا فيها السير) أي جعلناه على مقادير هي في غاية الرفق بالمسافر في نزوله متى

---

(١) نظم الدرر . ٦/١٠٦

أراد من ليل أو نهار على ما جرت به عوائد السفار ، فهي لذلك حقيقة بأن يقال لأهلها والنازلين بها على سبيل الامتنان : (سيروا (والدليل على تقاربها جدا قوله : (فيها (ودل على كثرتها وطول مسافتها وصلاحيتها للسير أي وقد أريد ، مقدما لما هو أدل على الأمن وأعدل للسير في البلاد الحارة بقوله : (ليالي (وأشار إلى كثرة الظلال والرطوبة والاعتدال الذي يمكن معه السير في جميع النهار بقوله : (وأياما) أي في أي وقت شئتم ، ودل على عظيم أمانها في كل وقت بالنسبة إلى كل ملم بقوله : (آمنين) أي من خوف وتعب ، أو ضيعة أو عطش أو سغب .

ولما انقضى الخبر عن هذه الأوصاف التي تستدعي غاية الشكر لما فيها من الألطاف ، دل على بطرهم للنعمة بها بأنهم جعلوها سببا للتضجر والملال بقوله : (فقالوا (على وجه الدعاء : (ربنا) أي أيها المربي لنا) باعد) أي أعظم البعد وشدده – على قراءة ابن كثير وأبي عمرو وهشام عن ابن عامر بتشديد العين وإسكان الدال ، وهذا بمعنى قراءة الباقين غير يعقوب) باعد (المقتضية لمده وتطويله) بين أسفارنا) أي قرانا التي نسافر فيها ، أي ليقل الناس فيكون ما يخص كل إنسان من هذه الجنان أضعاف ما يخصه الآن ونحمل الزاد ونسير على النجائب ونتعلق السلاح ونستجيد المراكب ، وكان بعضهم كأن على الضد من غرض هؤلاء فاستكثر مسافة ما بين كل قريتين فقال كما قرأ الواردة على قانون الحكمة واشتهى أن تكون تلك القرى متواصلة) وظلموا (حيث عدوا النعمة نقمة ، والإحسان إساءة) أنفسهم (تارة باستقلال الديار ، وتارة باستقلال الثمار ، فسبب ذلك تبديل ما هم فيه بحال هو في الوحشة بقدر ما كانوا فيه من الإنس وهو معنى) فجعلناهم) أي بما لنا من العظمة) احاديث) أي يتواصفها الناس جيلا بعد جيل لما لها من الهول) ومزقناهم) أي تمزيقا يناسب العظمة ، فما كان لهم دأب إلا المطاوعة فمزقوا) كل ممزق) أي تمزيق كما يمزق الثوب ، بحيث صاروا مثلا مضروبا إلى هذا الزمان ، يقال لمن شئت أمرهم : تفرقوا أيدي سبا .." (١)

" صفحة رقم ١٧٧

قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا (– للذي قال –) الحق وهو العلي الكبير (فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض – ووصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه – فيسمع الكلمة ويلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال لنا

---

(١) نظم الدرر . ١٧٢/٦

يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء) وقال في التوحيد : وقال مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنهما : (وإذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات فإذا فزع عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أن الحق ونادوا ماذ ا قال ربكم قالوا الحق) وروى لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يسمعون فيه الوحي ، وفيه : فلا ينزل على سماء إلا صفقوا ، وفي آخره : ثم يقال : يكون العام كذا ويكون العام كذا ، فتسمع الجن ذلك فتخبر به الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا ، فلما بعث الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) دحروا ، فقالت العرب : هلك من في السماء ، فذكر ذبح العرب لأموالهم من الإبل وغيرها ، حتى نهتهم ثقيف ، واستدلوا بثبات معلم النجوم ، ثم أمر إبليس جنده بإحضار التراب وشمه حتى عرف أن الحدث من مكة .

سبأ : (٢٤ – ٢٩) قل من يرزقكم. .. . .

) قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنآ أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين قل لا تسألون عمآ أجرمنا ولا نسأل عما تعملون قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم قل أروني الذين ألحقتم به شركآء كلا بل هو الله العزيز الحكيم ومآ أرسلناك إلا كآفة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (( )

ولما سلب عن شركائهم أن يملكوا شيئا من الأكوان ، وأثبت جميع الملك له وحده ، أمره (صلى الله عليه وسلم) بأن يقررهم بما يلزم منه ذلك فقال : (قل من يرزقكم (ولما كان كل شيء من الرزق متوقفا على الكونين ، وكان في معرض الامتنان والتوبيخ جمع لئلا يدعي أن لشيء من العالم العلوي مدبرا غيره سبحانه فقال : (من السماوات (وقال : (والأرض (بالإفراد لأنهم لا يعلمون غيرها .." (١)

" صفحة رقم ٣٨٦

أي لا يوجد طلبه وجودا تحصل معه المطاوعة والتسهل) لأحد (في زمان ما طال أو قصر سواء كان كاملا في الصورة والمعنى أو جسدا خاليا عن العز كما حصلت به الفتنة من قبل ، وبعض الزمان بذكر الجار فقال : (من بعدي (حتى أتمكن من كل ما أريد من التقرب إليك وجهاد من عاداك ، ويكون ذلك إمارة لي على قبول توبتي ولا تحصل لي فتنة بإلقاء على الكرسي مضافا إليه من غير أن ينسب إليه هو (صلى الله عليه وسلم) شيء ، وهو مناسب لعقر الخيل الذي هو إذهاب ما به العز – والله أعلم ، وبهذا التقدير علم أنه لو ذكر الظرف من غير حرف لأوهم تقيد الدعوة بملك يستغرق الزمان الذي بعده ، ثم علل

---

(١) نظم الدرر . ٦/١٧٧

ما طلبه من الإعطاء والمنع بقوله على سبيل التأكيد إسقاطا لما غلب على النفوس من رؤية الأسباب : (إنك أنت) أي وحدك) الوهاب) أي العظيم المواهب مع التكرار كلما أردت ، فتعطي بسبب من تشاء وتمنع من تشاء .

ولما تسبب عن دعائه الإجابة ، اعلم سبحانه بقوله : (فسخرنا) أي ذللنا بما لنا من العظمة) له الريح (لإرهاب العدو وبلوغ المقاصد عوضا عن الخيل التي خرج عنها لأجلنا ؛ ثم بين التسخير بقوله مستأنفا : (تجري بأمره رخاء) أي حال كونها لينة غاية اللين منقادة يدرك بها ما لا يدرك بالخيل (غدوها شهر ورواحها شهر) وكل من ترك شيئا لله غوضه الله خيرا منه ، وهو هنا مبالغة من الرخاوة .

ولما كانت إصابته لما يشاء ملازمة لإرادته ، عبر بها لأنها المقصود بالذات فقال : (حيث أصاب) أي أراد إصابة شيء من الأشياء ، وقد جعل الله لنبينا (صلى الله عليه وسلم) أعظم من ذلك وهو أن العدو يرعب منه إلى مسيرة شهر من جوانبه الأربعة فيه أربعة أشهر) والشياطين) أي الذين عندهم خفة الريح مع الاقتران بالروح سخرناهم له ؛ ثم نبه على منفعتهم بالإبدال منهم فقال : (كل (وعبر ببناء المبالغة في سياق الامتنان فقال : (بناء وغواص) أي عظيم في البناء صاعدا في جو السماء والغوص نازلا في أعماق الماء ، يستخرج الدر وغيره من منافع البحر .

ص : (٣٨ - ٤١) وآخرين مقرنين في. .. . . .

) وآخرين مقرنين في الأصفاد هذا عطآؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب واذكر عبدنآ أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب (( )

ولما دل على مطلق تسخيرهم ، دل على أنه قهر وغلبة كما هو شأن أيالة الملك وصولة العز فقال : (وآخرين) أي سخرناهم له من الشيطاطين حال كونهم) مقرنين (بأمره إلى من يشاكلهم أو مقرونة أيديهم بأرجلهم أو بأعناقهم ، وعبر به مثقلا." (١)

" صفحة رقم ٣٩٥

ولما ذكر إقامتهم ويسر دخولهم ، وصف حالهم إذ ذاك فقال : (متكئين فيها) أي ليس لهم شغل سوى النعيم ولا عليهم كلفة أصلا .

ولما كان المتكئ لا يتم نعيمه إلا إن كان مخدوما ، دل على سؤودهم بقوله : (يدعون فيها (اي كلما أرادوا من غير مانع أصلا ولا حاجة إلى قيام ولا قعود يترك به الاتكاء .

---

(١) نظم الدرر . ٣٨٦/٦

ولما كان أكلهم إنما هو للتفكه لا لحفظ الجسد من آفة قال : (بفاكهة كثيرة (فسمى جميع مآكلهم فاكهة ، ولما كانت الفاكهة لا يمل منها ، والشراب لا يؤخذ إلا بقدر الكفاية ، وصفها دونه فقال : (وشراب (.

ولما كان الأكل والشرب داعيين إلى النساء لا سيما مع الراحة قال : (وعندهم) أي لهم من غير مفارقة أصلا .

ولما كان سياق الامتنان مفهما كثرة الممتن به لا سيما إذا كان من العظيم ، أتى بجمع القلة مريدا به الكثرة لأنه أشهر وأوضح وأرشق من (قواصر) المشترك بين جمع قاصر وقوصرة بالتشديد والتخفيف لوعاء التمر فقال : (قاصرات (ولما كن على خلق واحد في العفة وكمال الجمال وحد فقال : (الطرف) أي طرفهن لعفتهن وطرف أزواجهن لحسنهن ، ولما لم تنقص صيغة جمع القلة المعنى ، لكونه في سياق المدح والامتنان ، وكان يستعار للكثرة ، أتى على نمط الفواصل بقوله : (أتراب) أي على سن واحد مع أزواجهن وهو الشباب ، سمي القرين تربا لمس التراب جلده وجلد قرينه في وقت واحد ، قال البغوي : بنات ثلاث وثلاثين سنة ، لأن ذلك ادعى للتآلف فإن التحاب بين الأقران أشد وأثبت .

ولما ذكر هذا النعيم لأهل الطاعة ، وقدم ذلك العذاب لأهل المعصية قال : (هذا) أي الذي هنا والذي مضى) ما (وبني للمفعول اختصارا وتحقيقا للتحتم قوله : (توعدون (من الوعد والإيعاد ، وقراءة الغيب على الأسلوب الماضي ، ومن خاطب لفت الكلام للتلذيذ بالخطاب تنشيطا لهممهم وإيقاظا لقلوبهم) ليوم الحساب) أي ليكون في ذلك اليوم .

ولما كان هذا يصدق بأن يوجد ثم ينقطع كما هو المعهود من حال الدنيا ، أخبر أنه على غير هذا المنوال فقال : (إن هذا) أي المشار إليه إشارة الحاضر الذي لا يغيب) لرزقنا) أي للرزق الذي يستحق الإضافة إلينا في مظهر العظمة ، فلذلك كانت النتيجة : (ما له من نفاد) أي فناء وانقطاع ، بل هو كالماء المتواصل في نبعه ، كلما أخذ منه شيء أخلف في الحال بحيث إنه لا يميز المأخوذ من الموجود بوجه من الوجوه ، فيكون في ذلك تلذيذ وتنعيم لأهل الجنة بكثرة ما عنده ، وبمشاهدة ما كانوا يعتقدونه ويثبتونه لله تعالى من القدرة على الإعادة في كل وقت ، جزاء وفاقا عكس ما يأتي لأهل النار .." (١)

" صفحة رقم ٤٨٩

غافر : (٨ – ١٣) ربنا وأدخلهم جنات. . . . .

---

(١) نظم الدرر . ٣٩٥/٦

) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبآئهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون قالوا ربنآ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السمآء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (( )

ولما كانت النجاة من العذاب لا تستلزم الثواب ، قالوا مكررين صفة الإحسان زيادة في الرقة في طلب **الامتنان** : (ربنا) أي أيها المحسن إلينا بتوفيق أحبابنا الذين لذذونا بالمشاركة في عبادك بالجنان واللسان والأركان) وأدخلهم جنات عدن) أي إقامة لا عناد فيها .

ولما كانوا عالمين بأن سبحانه لا يجب عليه لأحد شيء ولا يقبح منه شيء ، نبهوا على ذلك بقولهم : (التي وعدتهم (مع الزيادة في التملق واللطافة في الحث وإدخالهم لأجل استعمالك إياهم الصالحات .

ولما كان الإنسان لا يطيب له نعيم دون أن يشاركه فيه أحبابه الذين كانوا يشاركونه في العبادة قالوا مقدمين أحق الناس بالإجلال : (ومن صلح من آبائهم (ثم أتبعوهم ألصقهم بالبال فقالوا : (وأزواجهم وذرياتهم (.

ولما كان فاعل هذا منا ربما نسب إلى ذل أو سفه ، وربما عجز عن الغفران لشخص لكثرة المعارضين ، عللوا بقولهم مؤكدين لأجل نسبة الكفار العز إلى غيره ، ومن ذلك تسميتهم العزى : (إنك أنت) أي وحدك) العزيز (فأنت تغفر لمن شئت غير منسوب إلى وهن) الحكيم (فكل فعل لك في أتم مواضعه فلذلك لا يتهيأ لأحد نقضه ولا نقصه .

ولما كان الإنسان قد يغفر له ويكرم ، وفيه من الأخلاق ما ربما حمله على بعض الأفعال الناقصة دعوا لهم بالكمال فقالوا : (وقهم السيئات) أي بأن تجعل بينهم وبينها وقاية بأن تطهرهم من الأخلاق الحاملة عليها بتطهير القلوب بنزع كل ما يكره منها أو بأن يغفرها لهم ولا يجازيهم عليها ، وعظموا هذه الطهارة ترغيبا في حمل النفس في هذه الدار على لزومها بقمع النفوس وإماتة الحظوظ بقولهم : (ومن تق السيئات) أي جزاءها كلها) يومئذ) أي يوم إذ تدخل فريقا الجنة وفريقا النار المسببة عن السيئات أو إذ تزلف الجنة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين : (فقد رحمته) أي الرحمة الكاملة التي لا يستحق غيرها أن يسمى معها رحمة ، فإن تمام النعيم لا يكون إلا بها لزوال التحاسد." (١)

---

(١) نظم الدرر - ٦/٤٨٩

" صفحة رقم ٥٣١

غافر : (٦٢ – ٦٥) ذلكم الله ربكم. .. . .

) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسمآء بنآء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ( ) (

ولما ثبت بآية الخافقين وآية الملوين ثبوتا لا شك فيه أصلا شمول القدرة بالاختيار ، قال معظما بأداة البعد وميم الجمع : (ذلكم) أي أيها المخاطبون – الواحد القهار العظيم الشأن الذي علم بما ذكر من أفعاله أنه لا يشاركه أحد ، ولذلك قال : (ربكم) أي المربى لكم والمحسن إليكم بقدرته واختياره المتفرد بربوبيتكم لا رب لكم سواه .

ولما كان في سياق **الامتنان** بالنعم للدلالة على الساعة التي ينكرونها ويجادلون في أمرها ، قدم الخلق على الته ليل فقال : (خالق كل شيء) أي بما ثبت من تمام قدرته بإبداع الخافقين ثائبين والملوين متعاقبين دائبين ، ولا مانع له من إعادة الثقلين لأنه) لا إله إلا الله (بل كان ذلك واجبا في الحكمة ، لأن المنعم عليهم انقسموا إلى شاكر وكافر ، فوجب في الحكمة إقامة الساعة للفصل بينهم ، وجاء ذلك على ترتيب مطلع السورة ، فإن العزيز ناظر إلى كمال القدرة على الإيجاد والإعدام ، والعليم هو المتوحد بكمال الذات ، فإن إحاطة العلم تستلزم كل كمال ، والقدرة قد لا تستلزم العلم كما للحيوانات العجم ، وهذا بخلاف ما مضى في آية الأنعام ، فإن السياق هناك لإنكار الشرك وإثبات الوحدانية بما دل عليها من عموم الخلق طبق ما مضى أيضا في مطلعها .

ولما أنتجت هذه الأخبار – التي كل منها مقرر لما قبله بكونه كالعلة له – الوحدانية المطلقة اللازم منها كل كمال ، سبب عنها قوله منكرا مبكتا : (فأنى) أي فكيف ومن أي وجه) تؤفكون) أي تقبلون عن وجوه الأدلة إلى أقفائها فتعبدون الأوثان وتجادلون في الساعة التي يلزم من الطعن فيها الطعن في الحكمة التي الطعن فيها طعن في الإلهية التي الطعن فيها طعن في وجود هذا الوجود ومكابرة فيه ، وذلك مؤد إلى." (١)

" صفحة رقم ٥٤٢

---

(١) نظم الدرر . ٥٣١/٦

ولما كان التصرف فيها غير منضبط ، أجمله بقوله : (ولكم فيها) أي كلها) منافع) أي كثيرة بغير ذلك في الدر والوبر والصوف وغيرها .

ولما كان سوقها وبلوغ الأماكن الشاسعة عليها في أقرب مدة لنيل الأمور الهائلة عظيم الجدوى جدا ، نبه على عظمته بقطعه عما قبله بإجمال المنافع ثم تفصيله منه فقال : (ولتبلغوا) أي مستعلين) عليها (وهي في غاية الذل والطواعية ، ونبههم على نقصهم وعظيم نعمته عليهم بقوله : (حاجة) أي جنس الحاجة .

ولما كان في مقام التعظيم لنعمه لأن من سياق **الامتنان** وإظهار القدرة وحدها وجمع ما تضمر فيه فقال : (في صدوركم (إشارة إلى أن حاجة واحدة ضاقت عنها قلوب الجميع حتى فاضت منها فملأت مساكنها .

ولما كان الحمل يكون مع مطلق الاستعلاء سواء كان على أعلى الشيء أولا بخلاف الركوب ، قال معبرا بأداة الاستعلاء فيها وفي الفلك غير سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، فإنها كانت مغطاة كما حكي فكانوا في بطنها لا على ظهرها : (وعيلها) أي في البر) وعلى الفلك) أي في البحر) تحملون) أي تحمل لكم أمتعتكم فإن حمل الإنسان نفسه تقدم بالركوب .

وأشار بالنباء للمفعول أنه سخر ذلك تسخيرا عظيما لا يحتاج معه إلى علاج في نفس الحمل .

غافر : (٨١ - ٨٥) ويريكم آياته فأي. .. . .

) ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فمآ أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جآءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (( )

ولما كانت هذه آية عظيمة جعلها سبحانه مشتملة على آيات كثيرة ، عبر فيها بالماضي وعطف بالمضارع تنبيها على ما تقديره : فأراكم هذه الآيات البينات منها ، قوله : (ويريكم) أي في لحظة) آياته) أي الكثيرة الكبيرة فيها وفي غيرها من أنفكسم ومن الآفاق ، ودل على كثرة الآيات وعظمتها بإسقاط تاء التأنيث كما هو المستفيض في غير النداء بإظهار الاسم الأعظم في قوله : (فأي آيات الله) أي المحيط بصفات الكمال) تنكرون (حتى تتوجه لكم المجادلة في آياته التي من أوضحها البعث .

ولما وصل الأمر إلى حد من الوضوح لا يخفى على أحد ، تسبب عنه لفت الخطاب عنهم دلالة على الغضب الموجب للعقاب المقتضي للرهيب فقال : (أفلم." (١)

" صفحة رقم ١٥٩

بالضمير العائد إليه ، صار الوعد بها في غاية التحقق فعبر عنه هنا بالماضي المبني للمفعول إشارة إلى أنه أمر قد تحقق بأسله أمر ، وفرغ منه إلى أن صار حاضرا لا مانع منه إلا الوصف الذي علق به الوعد ووصفها بصفات تفيد القطع بأنه لا يقدر عليها إلا الله فصار مجرد ذكرها والإخبار به عنها بصيغة المجهور أعلى لأمره فقال : (التي وعد المتقون) أي الذي حملتهم تقواهم بعد الوقوف عن كل فعل لم يدل عليه دليل على أن استمعوا منك فانتفعوا بما دللتهم عليه من أمور الدين حتى انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : مقبل عليه بكليته فهو متبع ، ومعرض عنه جملة ، وسمتمع غير منتفع .

ولما كان التقدير : مثل بستان عظيم لا يسقط ورقه ولا ينقطع ثمره ولا يتفطن نعيمه لما فيه من الأنهار المتنوعة ، وكان ما هو بههذ الصفة إنما هو موهوم لنا ثبت صدقه بالمعجزات فقال استئنافا : (فيها) أي الجنة الموع۫دة .

ولما كان ما يعهدونه من الجنان لا يحتمل **والامتنان** ، فقال : (أنهار من ماء (ولما كان ماء الدنيا مختلف الطعوم على ثلاثة : حلو وعذب وملح ، مع اتحاد الأرض ببساطتها وشدة اتصالها للدلالة على أن فاعل ذلك قادر مختار ، وقد يكون آسنا أي متغيرا عن الماء الذي يشرب بريح منتنة من أصل خلقه أو من عارض عرض له من منبعه أو مجراه قال : (غير آسن) أي ثابت له في وقت ما شيء من الطعم أو الريح أو اللون بوجه من الوجوه وإن طالت إقامته وإن أضيف إليه غيره فإنه لا يقبل التغير بوجه .

ولما كان أكثر شرابه بعد الماء اللبن ، ثنى به فقال سبحانه : (وأنهار من لبن (ولما كان التغير غير محمود ، وكانوا يعهدون ف يالدنيا أن اللبن كله على جميع أنواعه طيب حال نزوله من الضرع مع اختلاف ذوات الدر في الأشكال والأنواع والمقادير والأمزجة ، ومع انفصال كل واحدة منها من الأخرى ، وأنه إنما يتغير بعد حلبه ، عبر بما ينفي التغير في الماضي فقال : (لم يتغير طعمه) أي بنفسه عن أصل خلقته وإن أقام مدى الدهر ، وهذا يفهم أنهم لو أرادوا تغييره لشهوة اشتهوها تغير ، وأنه مع طيبه على أنواع كثيرة كما كان في الدنيا متنوعا .

---

(١) نظم الدرر . ٥٤٢/٦

ولما كان أكثر ما بعد اللبن الخمر قال : (وأنهار من خمر (ولما كانت الخمر يكثر طعمها ، وإنما يشربها شاربوها لأثرها ، وأنه متى تغير طعمها زال اسمها ، عرف أن كل ما في خمر الجنة في غاية الحسن غير متعرض لطعم فقال : (لذة) أي ثابتة لها اللذة ودائمة حال شربها وعبده) للشاربين (في طيب الطعم وحسن العاقبة .." (١)

" صفحة رقم ٢٤١

عظمها وكثرة ما فيها ومن فيها .

ولما كان في سياق الرد عليهم والتبكيت لهم كان موضع التأكيد فقال : (وما في الأرض (كذلك .

ولما كان المقام للتعميم ، أظهر ولم يضمر لئلا يوهم الاختصاص بما ذكر من الخلق فقال : (والله) أي الي له الإحاطة الكاملة) بكل شيء) أي مما ذكر ومما لم يذكر) عليم (.

ولما كان قولهم هذا صورته صورة المنة ، قال مترجما له مبكتا لهم عليه معبرا بالمضارع تصويرا لحاله في شناعته ،) يمنون عليك) أي يذكرون ذكر من اصطنع عندك صنيعة وأسدى إليك نعمة ، إنما فعلها لحاجتك إليها لا لقصد الثواب عليها ، لأن المن هو القطع - قال في الكشاف : لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير ، من غير أن يعمد لطلب مثوبة ، ثم يقال : من عليه ضيعة - إذا اعتده عليه منة وإنعاما .

ولما كان الإسلام ظاهرا في الدين الذي هو الانقياد بالظاهر مع إذعان الابطن لم يعبر به ، وقال : (إن أسلموا) أي أوقعوا الانقياد للأحكام في الظاهر .

ولما كان المن هو القطع من العطاء الذي لا يراد عليه جزاء ، قال : (قل) أي في جواب قولهم هذا : (لا تمنوا (من عبرا بما من المن إشارة إلى أن الإسلام لا يطلب جزاؤه إلا من الله ، فلا ينبغي عده صنيعة على أحد ، فإن ذلك يفسده) علي إسلامكم (لو فرض أنكم كنتم مسلمين أي متدينين بدين الإسلام الذي هو انقياد الظاهر مع إذعان الباطن ، أي لا تذكروه على وجه الامتنان أصلا ، فالفعل وهو) تمنوا (مضمن (تذكروا) نفسه لا معناه كما تقدم في) ولتكبروا الله على ما هداكم ( ) بل الله) أي الملك الأعظم الذي له المنة على كل موجود ولا منة عليه بوجه) يمن عليكم) أي يذكر أنه أسدى إليكم نعمه ظاهرة وباطنة منها ما هو) أن) أي بأن) هداكم للإيمان) أي بينة لكم أو وفقكم للاهتداء وهو تصديق الباطن مع الانقياد بالظاهر ، والتعبير عن هذا بالمن أحق مواضعه ، فإنه سبحانه غير محتاج إلى

---

(١) نظم الدرر ـ ١٥٩/٧

عمل فإنه لا نفع يلحقه ولا ضر ، وإنما طلب الأعمال لنفع العاملين أنفسهم ، ومن عليهم بأن أرسل رسوله (صلى الله عليه وسلم) فبين لهم فكذبوه بأجمعهم ، فلم يزل يقويه حتى أظهر فيه آية مجده وأظهر دينه على الدين كله ، ودخل فيه الناس طوعا وكرها على وجوه من المجد يعرفها من استحضر السيرة ولا سيما من عرف أمر بني أسد وغطفان الذين نزلت فيهم هذه الآيات ، وكيف كان حالهم في غزوة خيبر وغيره .

ولما كان المراد بهذا تجهيلهم وتعليمهم حقائق الأمور ، لا الشهادة لهم بالهداية ، قال منبها على ذلك : (إن كنتم) أي كونا أنتم عريقون فيه) صادقين (في ادعائكم." (١)

" صفحة رقم ٢٦٣

ق : (٣٤ - ٣٧) ادخلوها بسلام ذلك. . . . .

) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشآءون فيها ولدينا مزيد وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ( )

ولما كان الإخبار بكونها لهم وإن كان أمرا سارا لا يتضي دخولها في ذلك الوقت ، زاد سرورهم بالإذن بقوله معبرا بضمير الجميع بضمير الجميع بيانا لأن المراد من (من) جميع المتقين : (ادخلوها) أي يقال لهم : ادخلوا الجنة .

ولما كان المراد استقبالهم بالإذاذ بالبشارة قال : (بسلام) أي بصاحبين للسلامة من كل يمكن أن يخاف ، فأنتج ذلك قوله إنهاء للسرور إلى غاية لا توصف : (ذلك) أي اليوم العظيم جدا) يوم (ابتداء أو تقرير) الخلود) أي الإقامة التي لا آخر لها ولا نفاذ لشيء من لذاتها أصلا ، ولذلك وصل به قوله جوابا لمن كأنه قال : على أي وجه خلودهم ؟ : (لهم (بظواهرهم وبواطنهم) ما يشؤون) أي يتجدد مشيئتهم أو تمكن مشيئتهم له) فيها) أي الجنة) ولدينا) أي عندنا من الأمور التي في غاية الغرابة عندهم وإن كان كل ما عندهم مستغربا) مزيد) أي مما لا يدخل تحت أوهامهم يشاؤه ، فإن سياق **الامتنان** يدل على أن تنوينه للتعظيم ، والتعبير بلدى يؤكد ذلك تأكيدا يناسبها بأن يكونوا كل لحظة في زيادة على أمانيهم عكس ما كانوا في الدنيا ، وبذلك تزداد علومهم ، فمقدورات الله لا تنحصر ، لأن معلوماته لا تنتهي. ولما ذكر سبحانه أول السورة تكذيبهم بالقدرة على اعترافهم بما يكذبهم في ذلك التكذيب ، ثم سلى وهدد بتكذيب الأمم السابقة ، وذكر قدرته عليهم ، وأتبعه الدلالة على كمال قدرته إلى أن ختم بالإشارة إلى أن

---

(١) نظم الدرر . ٢٤١/٧

قدرته لا نهاية لها ، ولا تحصر بحد ولا تحصى بعد ، ردا على أهل العناد وبدعة الاتحاد في قولهم (ليس في الإمكان أبدع مما كان) عطف على ما قدرته بعد) فحق وعيد (من إهلاك تلك الأمم مما هو أعم منه بشموله جميع الزمان الماضي وأدل على شمول القدرة ، فقال : (وكم أهلكنا) أي بما لنا من العظمة .

ولما كان المراد تعميم الإهلاك في جميع الأزمان لجميع الأمم ، نزع الجار بيانا لإحاطة القدرة فقال : (قبلهم (وزاد في دلالة التعميم فأثبته في قوله : (من قرن) أي جيل هم في غاية القوة ، وزاد في بيان القوة فقال : (بطشا) أي قوة وأخذا لما يريدونه بالعنف والسطوة والشدة ، وحذف الجار هنا يدل على أن كل من كان قبل قريش كانوا أقوى منهم ، وإثباته في ص يدل على أن المذكورين بالإهلاك هناك مع الاتصاف بالنداء المذكور بعض المهلكين لا كلهم .

ولما أخبر سبحانه بأشديتهم سبب عنه قوله :." (١)

" صفحة رقم ٣٣٣

البنات لأنها مكروهة لكل أحد ، ثم ذكر ما يظهر ولا بد أنه من صنعه فتسبب أن مادة الاثنين واحدة وهو الماء الذي هو أشد الأشياء امتزاجا فقال : (من نطفة (وصور كونها منها بقوله : (إذا تمنى) أي تراق وتدفق بالفعل لا قبل ذلك ليمكن فيه طعن بأنه كان بدءا أو غيره بل أنتم تعلمون أنه لا يخلق الولد إلا بعد الإمناء بالفعل ، وخرج أصله ما يمكن خلقا من خلق الله أن يعرف بمجرد رؤيته أهو صالح للأنثى فقط أو للذكر فقط أو لهما أو للأشكال بالخنوثة .

ولما ساق هذه الأشياء دليلا على إحاطة علمه فلزمها أن دلت على تمام قدرته ، وختمها بالنشأة الأولى فلزم من ذلك الإقرار حتما بأنه قادر على البعث ، عبر بما يتقضي أنه لما تقدم به وعده على جميع ألسنة رسله صار واجبا عليه بمعنى أنه لا بد من كونه لأنه لا يبدل القول لديه ، لا غير ذلك ، فعبر بحرف الاستعلاء تأكيدا له ردا لإنكارهم إياه فقال : (وأن عليه) أي خاصا به علما وقدرة) النشأة) أي الحياة وهو ممدود لابن كثير وأبي عمرو ومقصور لغيرهما مصدر نشأ - إذا حنى وربى وسن) الأخرى) أي التي الاختيارية والاضطرارية له بكل الأمرين لسبب وكان مقسوما بين الإناث والذكور بحكمة كالمعترض إنما أوجب ذكر النشأة الأولى ، تعقب ذكرهما به وكان ذكر الغنى مع أنه يدل على الفقر أليق **بالامتنان** ، والنسبة إلى الرب ، وكان الغنى الحقيقي إنما يكون في تلك الدار ، أخر ذكره فقال : (وأنه (ولما كان

---

(١) نظم الدرر . ٢٦٣/٧

ربما نسب إلى السعي وغيره ، أكد بالفعل في الحقيقة إنما هو غنى النفس ، وهو رضاها بما قسم لها وسكونها وطمأنينتها ، وإنما الله به فهو غني ، وهو في الجنانة مغني وإن كان في الدنيا) وأقنى) أي أمكن من المال وأرضى بجميع الأحوال قال البغوي : أعطى أصول المال وما يدخر بعد الكفاية ، قال : وقال الأخفش أقنى أفقر – انته .

ونقل الأصبهاني مثرره عن أبي زيد ، فتكون الهمزة للإزالة ويقال ، أفناه بكذا أرضاه ، وأقناه الصد : أمكنه منه .

النجم : (٤٩ – ٥٢) وأنه هو رب. .. . .

) وأنه هو رب الشعرى وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فمآ أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى (( )

ولما كانت الشعرى لأنها تقطع السماء عرضا أدل النجوم بعد تمام القدرة على الفعل بالاختيار مع أنا مما دخل تحت ذلك الجنس المقسم به أول السورة ، وهي." (١)

" صفحة رقم ٣٤٩

الإهلاك فهو قادر على أن يصرفه في الإحياء عند البعث على وجه ما عهد مثله تنبت فيه الأجساد وتحيا فيه العباد ، جوابا لمن كأنه قال : هذا ما يوعدونه بعد الموت ، فهل لهم عذاب قبله دال على كمال القدرة : (كذبت (أو أوقعت التكذيب العظيم الذي عموا به جميع الرسالات وجميع الرسل ، وأنث فعلهم تحقيرا لهم وتهوينا لأمرهم في جنب قدرته .

ولما كان ما كان من تصميمهم عليه وعزمهم على عدم الانفكاك عنه لكونه جبلة مستغرقا لجميع ما بعدهم من الزمان ، وكانوا قد سنوا سنة التكذيب فكان عليهم مع وزرهم وزر من أتى بعدهم ، وكان ما قبلهم من الزمان يسيرا في جنب ما بعده عدما ، فلذلك ذكر الظرف من غير حرف جر لأنه مع أنه الحق أعظم في التسلية فقال : (قبلهم) أي في جميع ما سلف من الزمان ومضى بعضه بالفعل وبعضه بالقوة لقوة العزم : (قوم نوح (مع ما كان بهم من القوة ولهم من الانتشار في جميع الأقطار .

ولما ذكر تكذيبهم إشارة إلى أنه جبلة لهم جحدوا بها النبوة رأسا فلاحظ لهم في التصديق للحق فلا يفترق حالهم بالنسبة إلى أحد من الناس كان من كان ، فلذلك سبب عن هذا المطلق قوله : (فكذبوا عبدنا) أي على ما له من العظمة نسبة إلينا لكونه لم يتعبد لغيرنا قط مع تشريفنا إياه بالرسالة ، فكان

---

(١) نظم الدرر . ٣٣٣/٧

تكذيبهم فرا مما دخل في تكذيبهم المطلق الشامل لكل ما يمكن تكذيبه وهو ميد (؟)) وقالوا (مع التكذيب أيضا زيادة على تغطية ما ظهر منه من الهداية : (مجنون) أي فهذا الذي يظهر له من الخوارق من أمر الجن .

ولما كان إعلاء الصوت على النبي كائنا من كان عظيم القباحة جدا زائد الفظاظة فكيف إذا كان مرسلا فكيف إذا كان من أولي العزم فكيف إذا كان على سبيل الإنكار عليه ، فكيف إذا كان على صورة ما يفعل ممن لا خطر له بوجه ، قال بانيا للمجهول إشارة إلى تبشيعه من غير نظر إلى قائل وإيذانا بأن ذلك لم يكن من أكابرهم فقط بل من كبيرهم وصغيرهم : (وازدجر) أي أعملوا أنفسهم في انتهاره وتوعده وتهديده وانتشر ذلك في جميعهم بغاية ما يكون من الغلظة كفاله عن الرسالة ومنعا له عنها ، والمعنى أنهم قالوا : إنه استظهر عليهم بالجنون .

ولما طال ذلك منهم ومضت عليه أجيالهم جيلا عبد جيل حتى مضى له من إنذارهم أكثر مما مضى من الزمان لأمة هذا النبي الخاتم إلى يومنا هذا ، وأخبره الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قدر آمن معه ، تسبب عن ذلك الدعاء بالراحة منهم ، فلذلك قال صارفا وجه الخطاب إلى صفة الإحسان والربوبية **والامتنان** إيذانا بأنه أجاب دعاءه ولبى." (١)

"صفحة رقم ٣٧١

سورة الرحمن

وتسمى عروس القرآن .

مقصودها الدلالة على كا ختمت به سورة من عظيم الملك وتمام الاقتدار بعموم رحمته وسبقها لغضبه ، المدلول عليه بكمال علمه ، اللازم عنه شمول قدرته ، المدلول عليه بتفصيل عجائب مخلوقاته وبدائع مصنوعاته في اسلوب التذكيرلا بنعماته ، **والامتنان** بجزيل آلائه ، على وجه منتج للعلم بإحاطته بجميع أوصاف الكمال ، فمقصودها بالذات إثبات الاتصاف بعموم الرحمة ترغيبا في إنعامه وإحسانه ، وترهيبا من انتقامه بقطع مزيد امتنانه ، وعلى ذلك دل اسمها الرحمن لأنه العام **الامتنان** واسمها عروس القرآن واضح البيان في ذلك ، لأنها الحاوية لما فيه من حلى وحلل ، وجواهر وكلل ، والعروس بجميع النعم والجمال ، والبهجة من نوعها والكمال) بسم الله (الذي ظهرت إحاطة كماله بما ظهر من عجائب

---

(١) نظم الدرر ٣٤٩/٧ .

مخلوقاته) الرحمن (الذي ظهر عموم رحمته بما بهر من بدائع مصنوعاته واشتهر من عظيم آياته وبيناته) الرحيم (الذي ظهر اختصصه لأهل طاعته بما تحققوا به من الذل المفيد للعز بلزوم عباداته .

الرحمن : (١ - ١٠) الرحمن

) الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان والسمآء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان والأرض وضعها للأنام (( )

ولما ختم سبحانه القمر بعظيم الملك وبليغ القدرة ، وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة ، وكانت رحمته لا تتم إلا بعمومها ، قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين ، وذلك من آثار الملك ، وفصل فيها ما أجمل في آخر القمر من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة ، وصدرها بالاسم الدال على عموم الرحمة براعة للاستهلال ، وموازنة لما حصل بالملك والاقتدار من غياية التبرك والظهور والهيبة." (١)

" صفحة رقم ٣٧٤

الحاضر تارة بالتوسم وأخرى بالحساب ومرة بالعيافة والزجر وطورا بالنظر في الآفاق وغير ذلك من الأمور مع التمييز بين الحسن والقبيح وغير ذلك ما أدعه سبحانه وتعالله مع تعبيره عما أدركه بما هو غائب في ضميره وإفهامه للغير تارة بالقول وتارة بالفعل نطقا وكتابة وإشارة وغيرها ، فصار بذلك ذا قدرة على الكمال في نفسه والتكميل لغيره ، فهذا تعليم البيان الذي مكن من تعليم القرآن ، وهذا وإن كان سبحانه جبلنا عليه وخلقناه به قد صار عندنا مألوفا ومشهورا معروفا ، فهو عند غيرنا على غير ذلك مما أوضحه لنا سبحانه نعمة علينا بمحاجته لملائكته الكرام عن نبينا آدم عليه الصلاة والسلام وما أبدى لهم من علمه وبهرهم من رسم كل شيء بمعناه واسمه .

ولما بين سبحانه النعمة في تعليم القرآن الذي هو حياة الأرواح ، وبين الطريق فيها ، دل على البيان بذكر البينات التي يجمعها أمر ويفرقهام آخر ، ولها مدخل في حياة الأشباح ، وعددها على سبيل الامتنان بيانا لأنها من أكبر النعم فقال في جواب من قال : ما بيانه ؟ بادئا بالكوكب الأعظم الذي هو أعظم نورا وأكبر جرما وأعم نفعا لليكون خضوعه لقبول الآثار أدل على خضوع غيره بيانا لحكمته في تدبيره وقوته في تقديره : (الشمس (وهي آية النهار) والقمر (وهو آية الليل اللذان كان بهما البيان الإبراهيمي ، ولعله

(١) نظم الدرر ـ ٣٧١/٧

بدأ لهذه الأمة بغاية بيانه عليه الصلاة والسلام تشريفا لها بالإشارة غلى علو أفهامها) بحسبان) أي جريهما ، يجري كل منهما – مع اشتراكهما في أنهما كوكبان سماويان – بحساب عظيم جدا لا تكاد توصف جلالته في دقته وكثرة سعته وعظم ما يتفعر عليه من المنافع الدينية ولدنيوية ، ومن عظم هذا الحساب الذي أفادته صيغة الفعلان أنه على نهج واحد لا يتعداه ، تعلم به الأعوام والشهور والأيام والساعات والدقائق والفصول في منازل معلومة ، ويعرف موضع كل منهما في الآفاق العلوية وما يحدث له وما يتأثر عنه في الكوائن السفلية بحيث أن به انتظام غالب الأمور السفلية إلى غير ذلك من الأمور التي خلقهما الله عليها ولها ، وبين الإنسان وبين كل منهما من المسافات ما لا يعلمه على التحرير إلا العليم الخبير ، وهذا على تطاول الأويام والدهور لا يختل ذرة دلالة على أن صانعه قيوم لا يغفل ، ثم بعد هذا الحساب المستجد والحساب الأعظم الذي قدر لتكوير الشمس وانكدار القمر دلالة على أنه فاعل بالاختيار مع ما أفاد ذلك من تعاقب الملوين تارة بالاعتدال وتارة بالزيادة وأخرى بالنقص ، وغير ذلك من الأمور في لطائف المقدور .

ولما كان سيرهما على هذا المنهاج مع ما لهما فيه من الدؤب فيه بالتغير والتنقل طاعة منهما لمدبرهما ومبدعهما ومسيرهما ، وكان خضوعهما – وهما النيران الأعظمان –." (١)

" صفحة رقم ٣٧٩

أسقطت ألفها ، فإن في إثباتها وحذفها اختلافا بين أئمة المصاحف ، وهي إشارة إلى الجهات التي يملك الإنسان التصرف فيها ، أما الحواس فلا اختيار له فيها ، وإن اعتبرت هجاءها بحسب النطق كانت سبعة أحرف إشارة إلى أن النعم أكثر من أن تحصى لما تقدم من أسرار عدد السبعة وإلى أن تكذيب المكلفين متكاثر جدا ، فلذلك كان في غاية المناسبة أن تبسط هذه النعم على عدد ضرب الحواس الخمس في الجهات الست ، وذلك في الحقيقة فائدة ، فإنه من المألوف المعروف والجميل الموصوف أن التكرير عند التكذيب إلى ثمان ذكرت أولا عقب النعم ، فكانت على عدد السبع الذي هو أول عدد تام لأنه جمع الفرد والزوج وزوج الفرد وزوج الزوج ، وزاد بواحد إشارة إلى أنه كلما انقضى دور من عدد تام جدير لنعم أخرى فهي لا تتناهى لأن موليها له القدرة الشاملة والعلم التام ورحمته سبقت غضبه ، وفي كونها ثمانية إشارة إلى أنها سبب إلى الجنة ذات الألواب الثمانية إن شكرت ، وفي تعقيبها بسبع نارية إشارة إلى أنها سببتها للنار أقرب لكونها حفت بالشهوات ، وفي ذلك إشارة إلى أن من اتقى ما توعد عليه بشكر هذه

---

(١) نظم الدرر ٣٧٤/٧ .

النعم وقي أبواب النار السبعة ، ثم عقبها بثمانية ذكر فيها جنة المقربين إشارة إلى أن من عمل لما وعده كما أمره به الله نال أبواب الجنة الثمانية ، وثمانية أخرى عقب الجنة أصحاب اليمين إشارة إلى مثل ذلك والله أعلم ، وكان ترتيبها في غاية الحسن ، ذكرت النعم أولا استعطافا وترغيبا في الشكر ثم الأهوال ترهيبا ودرأ للمفسدة بالعصيان والكفر ثم النعم الباقية لجلب المصالح ، وبدأ بأشرفها فذكر الجنة العليا لأن القلب إثر التخويف يكون أنشط والهمم تكون أعلى والعزم يكون أشد ، فحينئذ هذه الآية الأولى من الإحدى والثلاثين مشيرة إلى أن نعمة البصر من جهة الأمام ، فكأنه قيل : أبنعمة البصر مما يواجهكم أو غيرها تكذبان .

ولما كان قد تقدم في إشارة الخطاب **الامتنان** بخلق الإنسان ، ثم ذكر أصول النعم عليه على وجه بديع الشأن ، إلى أن ذكر غذاء روحه : الريحان ، أبتع ذلك تفصيلا لما أجمل فقال : (خلق الإنسان) أي أصل هذا النوع الذي هو من جملة الأنام الذي خلقنا الريحان لهم والغالب عليه الأنس بنفسه وبما ألفه .

ولما كان أغلب عناصره التراب وإن كان من العناصر الأربعة ، عبر عن إشارة به إلى مطابقة اسمه – بما فيه مما يقتضي الأنس الذي حاصله الثبات على حالة واحدة – لمسماه الذي أغلبه التراب لنقله وثباته ما لم يحركه محرك ، وعبر عن ذلك بما هو في." (١)

" صفحة رقم ٣٩٥

) تكذبان (أبنعمة اللمس من جهة الوراء أم غيرها من قدرته على عطف الأغصان وتقريب الثمار .

ولما كان ما ذكر لا تتم نعمته إلا بالنسوان الحسان ، قال دالا على الكثرة بعد سياق **الامتنان** بالجمع الذي هو أولى من التثنية بالدلالة على أن في كل بستان جماعة من النسوان ، لما بهن من عظيم اللذة وفرط الأنس : (فيهن) أي الجنان التي علم مما مضى أن لكل فرد من الخائفين منها جنتين .

ولما كان سياق **الامتنان** معرفا بأن جمع القلة أريد به الكثرة مع ما ذكر من محسناته في سورة (ص) قال معبرا به : (قاصرات الطرف) أي نساء مخدرات هن في وجوب الستر بحيث يظن من ذكرهن بغير الوصف من غير تصريح ، قد قصرن طرفهن وهممهن على أزواجهن ولهن من الجمال ما قصرن به أزواجهن عن الالتفات إلى غيرهن لفتور الطرف وسحره وشدة أخذه للقلوب جزاء لهم على قصر هممهم في الدنيا على ربهم .

---

(١) نظم الدرر ـ ٣٧٩/٧

ولما كان الاختصاص بالشيء لا سيما المرأة من أعظم الملذذات قال : (لم يطمثهن) أي يجامعهن ويتسلط عليهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه نوع من أنواع السلطة سواء من غنسيات أو جنيات أو غير ذلك ، يقال : طمثت المرأة كضرب وفرح : حاضت ، وطمثها الرجل : افتضها وأيضا جامعها ، والبعير عقلته ، فكأنه قيل : هن أبكار لم يخالط موضع الطمث منهن) إنس (ولما كان المراد تعميم الزمان أسقط الجار فقال : (قبلهم) أي المتكئين) ولا جان (وقد جمع هذا كل من يمكن منه جماع من ظاهر وباطن ، وفيه دليل على أن الجني يغشى الإنسي كما نقل عن الزجاج) تكذبان (أبنعمة اللمس من جهة اليمنى أم غيرها مما جعله الله لكم مثالا لهذا من الأبكار الحسان ، أو غير ذلك من أنواع الإحسان .

الرحمن : (٥٨ – ٦٥) كأنهن الياقوت والمرجان

) كأنهن الياقوت والمرجان فبأي آلاء ربكما تكذبان هل جزآء الإحسان إلا الإحسان فبأي آلاء ربكما تكذبان ومن دونهما جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان مدهآمتان فبأي آلاء ربكما تكذبان (( )

ولما دل ما تقدم من وصف المستمتع بهن بالعزة والنفاسة ، زاده على وجه أفاد أنه يكون بهن غاية ما يكون من سكون النفس وقوة القلب وشدة البدن واعتدال الدم وغير ذلك من خواص ما شبههن به فقال : (كأنهن الياقوت (الذي هو في صفاته بحيث يشف عن سلكه وهو جوهر معروف ، قال في القاموس : أجوده الأحمر الرماني نافع." (١)

" صفحة رقم ١١٤

الضمير ليكون الواحد مهددا من باب الأولى : (سنستدرجهم) أي فنأخذهم بعظمتنا عما قليل على غرة بوعد لا خلف فيه وندنيهم إلى الهلاك درجة بواسطة من شئنا من جنودنا وبغير واسطة بما نواتر عليهم من النعم التي توجب عليهم الشكر فيجعلونها سببا لزيادة الكفر فنوجب لهم النقم .

ولما كان أخذ الإنسان من مأمنه على حالة غفلة بتوريطه في أسباب الهلاك لا يحس بالهلاك إلا وهو لا يقدر على التفصي فيها بوجه قال تعالى : (من حيث) أي من جهات) لا يعلمون) أي لا يتجدد لهم علم ما في وقت من الأوقات بغوائلها ، وذلك أنه سبحانه يغرهم بالإمهال ولا يعاجلهم بالعقاب في وقت المخالفة كما يتفق لمن يراد به الخير فيستيقظ بل يمهلهم ويمدهم بالنعم حتى يزول عنهم خاطر التذكير فيكونوا منعمين في الظاهر مستدرجين في الحقيقة فيقولون : قد قلتم : إن القدر فائض عن القضاء وأن الأعمال قضاء وجزاءها قدر ، ويقولون : إن أفعالنا في الدنيا قبيحة ونحن لا نرى جزاءها إلا ما يسرنا

---

(١) نظم الدرر ٧/٣٩٥

لولا يعذبنا الله بما نقول فأنتم كاذبون في توعدنا فإنا كلما أحدثنا ما تسمونه معصية تجددت لنا نعمة ، وذلك كما قادهم إلى تدريجهم وهم في غاية الرغبة ، قال القشيري : والاستدراج أن يريد السيء ويطوي عن صاحبه وجه القصد حتى يأخذه بغتة فيدرج إليه شيئا بعد شيء .

ولما كان الاستدراج يكون بأسباب كثيرة من بسط النعم وغيرها ، فأبرزه بالنون المشتركة بين الاستتباع والعظمة ، وكان تأخير الأجل لا يكون إلا لله وحده بغير واسطة شيء قال سبحانه : (وأملي) أي أوخر أنا وحدي في آجالهم وأوسع لهم في جميع تمتعهم ليزدادوا إثما) لهم (لأنه لا يقدر على مد الأجل وترفيه العيش غيري .

ولما سلاه (صلى الله عليه وسلم) بهذا غاية التسلية ، علل أو استأنف في جواب من لعله يقول : لم يكون أحدهم على هذا الوجه ؟ مسميا إنعامه كيدا :) إن كيدي) أي ستري لأسباب الهلاك عمن أريد إهلاكه وإبدائي ذلك له في ملابس الإحسان وخلف العبر **والامتنان**) متين) أي في غاية القوة حيث كان حاملا للإنسان على غهلاك نفسه باختياره وسيعلم عند الأخذ أني لما أهملته ما أهملته وأن إمهالي إنما كان استدراجا .

ولما كان هذا القرآن أعظم إحسان ، ساقه سبحانه وتعالى إليهم فكان موجبا للشكر عليهم للذي أنزله ولإكرام الآتي به ، فكان سببا لمباشرتهم من التكذيب به والأذى للآتي به إليهم ما يوجب أخذهم ، قال دالا على متانة كيده سبحانه ودقة استدراجه عاطفا على ما تقديره لبيان أنهم يباشرون ما يهلكهم باختيارهم من غير موجب : أكان تكذيبهم هذا الذكر لشيء فيه يرتابون ؟ قوله منكرا عليهم ، مبينا أن تكذيبهم إنما هو لأنه طبع وخبث." (١)

" صفحة رقم ٣٢٩

على ما قال أهل التشريح ثلاثة أغشية : أحدها المشيمة تتصل بسرة الجنين تمده بالغذاء ، والثاني يقبل بوله ، والثالث يقبل البخارات التي تصعد منه بمنزلة العرق والوسخ في أبدان الكاملين ، وأعطاه قدرة لما أراده منه) ثم) أي بعد انتهاء المدة) السبيل) أي الأكمل في العموم والاتساع والوضوح لا غيره ، وهو مخرجه من بطن أمه وطريقه إلى الجنة أو النار) يسره) أي سهل له أمره في خروجه بأن فتح فم الرحم وألهمه أن ينتكس ، وذلل له سبيل الخير والشر ، وجعل له عقلا يقوده إلى ما يسر له منهما ، وفيه إيماء إلى أن الدنيا دار الممر ، والمقصد غيرها وهو الأخرى التي تدل عليها الدنيا ، ولذلك عقبه بقوله عادا

---

(١) نظم الدرر . ١١٤/٨

الموت من النعم لأنه لو دام الإنسان حيا مع ما يصل إليه من الضعف والخوف لكان في غاية البشاعة والشماتة لأعدائه والمساءة لأوليائه على أن الموت سبب الحياة الأبدية : (ثم) أي بعد أمور قدرها سبحانه من أجل وتقلبات) أماته (وأشار إلى إيجاب المبادرة إلى التجهيز بالفاء المعقبة في قوله) فأقبره) أي جعل له قبرا فغيبه فيه وأمر بدفنه تكرمة له وصيانة عن السباع ، والإقبار جعلك للميت قبرا وإعطاؤك القتيل لأهله ليدفنوه ، والمعنى **الامتنان** بأنه جعل للأنسان موضعا يصلح لدفنه وجعله بعد الموت بحيث يتمكن من دفه ، ولو شاء لجعله يتفتت مع النتن ونحوه مما يمنع من قربانه ، أو جعله بحيث يتهاون به فلا يدفن كبقية الحيوانات ، فقد عرف بهذا أن أول الإنسان نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة ، فما شرفه بالعلم إلا الذي أبدعه وصوره ، وذلك موجب لان يشكره لا أن يكفره .

ولما كانت مدة البرزخ طويلة ، وكان البعث أمرا محققا غير معلوم الوقت بالعين بغيره تعالى ، عبر عن المعاني الثلاثة بأداتي التراخي والتحقق فقال : (ثم إذا شاء) أي إنشاره) أنشره) أي بعثه من قبره كما كان في دنياه بزيادة أنه على تركيب قوي لا يتهيأ فيه فراق الروح الجسد .

ولما كان إخباره بأنه مع الذي يسر له السبيل قد يفهم أنه لا يعمل إلا بما يرضيه ، نفى ذلك على سبيل الردع فقال : (كلا) أي ليرتدع هذا الإنسان الذي عرف أن هذا حالاته أولا وآخرا واثناء ومخرجا تارة من مخرج البول وأخرى من مخرج الحيض ومقبرا ، ولينزجر وليعرف ، نفسه بالذلة والخسة والحاجة والعجز ، وليعرف ربه سبحانه بالعزة والعظمة والكبرياء والفناء والقدرة على تشريف الحقير وتحقير الشريف ، وبأنه سبحانه لا يلزمه شيء فلا يلزم من تعريف هذا الإنسان السبيل وتمييزه له لأنه لا يفعل إلا ما لا يعاتب عليه ، فإنه لا يكون من الإنسان وغيره إلا ما يريده ، وتارة يريد هداه ، وتارة يريد ضلاله ، فقد يأمر بما لا يريده ويريد ما لا يأمر به ولا يرضاه ، ولذلك قال مستأنفا." (١)

" صفحة رقم ٤٢٩

ولما كان الإنسان لا يفتخر بالإنفاق إلا إذا أفضى إلى الإملاق ، فعلم أن مراد الإشارة إلى أن معه أضعاف ما أنفق من حيث إنه حقره بلفظ الإهلاك ، إشارة إلى الثانية والثالثة من شهواته النفسية وهما إرادته أن يكون له الفخار **والامتنان** على جميع الموجودات ، وإرادته أن يكون عنده من الأموال ما لا تحيط به الأفكار ولا تحويه الأقطار - كما يشير إليه حديث (لو أن لابن آدم واد من ذهب) و (لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب) علل سبحانه وتعالى جهله في حسابه ذلك وما تبعه بقوله : (يقول) أي مفتخرا

---

(١) نظم الدرر . ٣٢٩/٨

بقدرته وشدته : (أهلكت مالا لبدا (ولقصد المبالغة في كثرته جاءت قراءة أبي جعفر بالتشديد على أنه جمع لا بد كركع وراكع فأفهمت أنه بحيث لا يحصى ، بل لو جمع لم تسعه الأرض إلا بأن يكون بعضه على بعض فلا يعد ولا يحد ، أي وذلك قليل من الكثير الذي معي ، قلدت به أعناق الرجال المنن ، واستعبدت به الأحرار في كل زمن ، فصرت بحيث إذا دعوت كثير الملبي ، وإذا ناديت كثير المجيب ، وإذا أمرت عظم الممتثل ، وفاء لصنائعي الماضية ورغبة في نعمي الباقية ، فمن يستعصي علي ومن يخالف أمري ، فضلا عن أن يريد إخمال ذكري أو نقص قدري .

ولما كان الشيء لا يعني إلا إذا كان مجهولا ولو من بعض الجهات ، أنكر عليه هذا الظن تقدير وقوعه فإنه لا يوصل إلى ما ظنه إلا به ، بقوله مشيرا إلى النفسية الرابعة ، وهي أن تكون أموره مستورة فلا يظهر على غيه أحد أصلا : (أيحسب) أي هذا الإنسان العنيد بقلة عقله) أن لم يره) أي بالبصر ولا بالبصيرة في الزمن الماضي) أحد) أي في عمله هذا سره وجهره وجميع أمره ، فينقص جميع ما عمل إذا أراد ، وكل ما فاته من آثار هذه الشهوات الأربع ، وهو لا يزال فائتا له ، كان من إرادة تحصيله في نكد ومعاناة وكبد بحيث يرمي نفسه من المساؤئ أعمال من يظن أنه لا يطلع عليه ، فلذلك نبهه الله تعالى بأنواع التنبيه ليأخذ حذره ويحرز عمره .

ولما أنكر عليه سبحانه وتعالى هذه النقائص قرره على ما أوجب شهوته الحسية المتفرعة إلى أنواع بما يستلزم أن يكون فاعله له المان عليه به من بعض فيضه ، عالما بجميع أمره قادرا على نفعه وضره بنفسه وبمن أراد من جنده ، فقال مشيرا إلى ما يترتب على نظر العين الباصرة الجائلة في العالم الحسي ونظر عين البصيرة الجائلة في العالم." (١)

"والظاهر من الذرية أنه يراد به الأبناء ومن نشأ منهم. وقيل : ينطلق على الآباء وعلى الأبناء ، قاله أبو عثمان. وقال ابن عطية : هذا تخليط ، ولا يعرف هذا في اللغة. انتهى. وتقدم الكلام في الذرية في آل عمران. والظاهر أن الضمير في لهم وفي ذرياتهم عائد على شيء واحد ، فالمعنى أنه تعالى حمل ذريات هؤلاء ، وهم آباؤهم الأقدمون ، في سفينة نوح عليه السلام ، قاله ابن عباس وجماعة. ومن مثله : للسفن الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة أو أريد بقوله : ذرياتهم ، حذف مضاف ، أي ذريات جنسهم ، وأريد بالذرية من لا يطيق المشي والركوب من الذرية والضعفاء. فالفلك اسم جنس من عليهم بذلك ، وكون الفلك مرادا به الجنس ، قاله ابن عباس أيضا ومجاهد والسدي ، ومن مثله : الإبل وسائر ما يركب.

---

(١) نظم الدرر ٨/٤٢٩

وقيل : الضميران مختلفان ، أي ذرية القرون الماضية ، قاله علي بن سليمان ، وكان آية لهؤلاء ، إذ هم نسل تلك الذرية. وقيل : الذرية : النطف ، والفلك المشحون : بطون النساء ، ذكره الماوردي ، ونسب إلى علي بن أبي طالب ، وهذا لا يصح ، لأنه من نوع تفسير الباطنية وغلاة المتصوفة الذين يفسرون كتاب الله على شيء لا يدل عليه اللفظ بجهة من جهات الدلالة ، يحرفون الكلم عن مواضعة. ويدل على أنه أريد ظاهر الفلك قوله : ﴿وخلقنا لهم من مثلها ما يركبون﴾ : يعني الإبل والخيل والبغال والحمير ، والمماثلة في أنه مركوب مبلغ للأوطان فقط ، هذا إذا كان الفلك جنسا. وأما إن أريد به سفينة نوح ، فالمماثلة تكون في كونها سفنا مثلها ، وهي الموجودة في بني آدم. ويبعد قول من قال : الذرية في الفلك قوم نوح في سفينته ، والمثل الأجل : وما يركب ، لأنه يدفعه قوله : ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾ . وقرأ نافع ، وابن عامر ، والأعمش ، وزيد بن علي ، وأبان بن عثمان : ذرياتهم بالجمع ؛ وكسر زيد وأبان الذال ؛ وباقي السبعة ، وطلحة ، وعيسى : بالإفراد. وقال الزمخشري : ذريتهم : أولادهم ومن يهمهم حمله. وقيل : اسم الذرية يقع على النساء ، لأنهن مزراعها. وفي الحديث : "أنه نهى عن قتل الذراري" ، يعني النساء.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢١

﴿من مثله﴾ : من مثل الفلك ، ﴿ما يركبون﴾ : من الإبل ، وهي سفائن البر. وقيل : ﴿الفلك المشحون﴾ : سفينة نوح. ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها : أنه حمل فيها آباؤهم الأقدمون ، وفي أصلابهم هم وذرياتهم. وإنما ذكر ذرياتهم دونهم ، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ، وأدخل في التعجب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. و﴿من مثله﴾ : من مثل ذلك الفلك ، ﴿ما يركبون﴾ : من السفن. انتهى. وقال أبو عبد الله الرازي : إنما خص الذريات بالذكر ، لأن الموجودين كانوا كفارا لا فائدة في وجودهم ، أي لم يكن الحمل حملا لهم ، وإنما كان حملا لما في أصلابهم من المؤمنين. وقال أيضا : الضمير في وآية لهم عائد على العباد في قوله : ﴿خامدون * ياحسرة على العباد﴾ ثم قال بعد ﴿وءاية لهم الارض الميتة أحييناها﴾ ، ﴿وءاية لهم اليل﴾ ، ﴿وءاية لهم أنا حملنا ذريتهم﴾ : ذريات العباد ، ولا يلزم أن يكون الضمير في الموضعين لمعنيين ، فهو كقوله : ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ ، إنما يريد : لا يقتل بعضكم بعضا ، فذلك هذا. ﴿وءاية لهم﴾ : أي آية كل بعض منهم ، ﴿أنا حملنا﴾ ذرية كل بعض منهم ، أو ذرية بعض منهم. انتهى. والظاهر فلي قوله : ﴿وخلقنا﴾ أنه أريد الإنشاء والاختراع ، فالمراد الإبل وما يركب ، وتكون من للبيان ، وإن كان ما يصنعه الإنسان قد ينسب إلى الله خلقا ، لكن الأكثر ما ذكرنا.

وإذا أريد به السفن ، تكون من للتبعيض ، ولهم الظاهر عوده على ما عاد عليه ﴿وءاية لهم﴾ ، لأن المحدث عنهم ، وجوز أن يعود على الذرية ؛ والظاهر أن الضمير في مثله عائد على

٣٣٨

الفلك. وقيل : يعود على معلوم غير مذكور وتقديره : من مثل ما ذكرنا من المخلوقات في قوله : ﴿سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنابت الارض﴾ ،

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢١

." (١)

"وقيل : يدبر أمر الشمس في طلوعها من المشرق وغروبها في المغرب ، ومدارها في العالم من السماء إلى الأرض ، لأنها على أهل الأرض تطلع إلى أن تغرب ، وترجع إلى موضعها من الطلوع في يوم مقداره في المسافة ألف سنة. والضمير في ﴿إليه﴾ عائد إلى السماء ، لأنها تذكر ؛ وقيل : إلى الله. وقال عبد الله بن سابط : يدبر أمر الدنيا أربعة : جبريل للرياح ، والجنود وميكائيل للقطر والماء ، وملك الموت لقبض الأرواح ، وإسرافيل لنزول الأمر عليهم. وقيل : العرش موضع التدبير ، وما دونه موضع التفصيل ، وما دون السموات موضع التعريف. وقال السدي : الأمر : الوحي. وقال مقاتل : القضاء. وقال غيرهما : أمر الدنيا. قال الزجاج : تقول عرجت في السلم أعرج ، وعرج الرجل يعرج إذا صار أعرج. وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿يعرج﴾ مبنيا للمفعول ؛ والجمهور : مبنيا للفاعل. قال أبو عبد الله الرازي : وفي هذا لطيفة ، وهو أن الله ذكر في الآية المتقدمة عالم الأجسام والخلق ، وأشار إلى عظمة الملك ؛ وذكر هنا عالم الأرواح والأمر بقوله : ﴿يدبر الامر﴾ ، والروح من عالم الأمر ، كما قال : ﴿قل الروح من أمر ربى﴾ ، وأشار إلى دوامه بلفظ يوهم الزمان. والمراد دوام النفاد ، كما يقال في العرف : طال زمان فلان ، والزمان يمتد فيوجد في أزمنة كثيرة. فأشار إلى عظمة الملك بالمكان ، وأشار إلى دوامه هنا بالزمان والمكان من خلقه وملكه ، والزمان بحكمه وأمره. انتهى. وهو كلام ليس جاريا

١٩٨

على فهم العرب. وقرأ الجمهور : ﴿مما تعدون﴾ ، بتاء الخطاب. وقرأ السلمي ، وابن وثاب ، والأعمش ، والحسن : بياء الغيبة ، بخلاف عن الحسن. وقرأ جناح بن حبيش : ثم تعرج الملائكة ، بزيادة الملائكة ، ولعله تفسير منه لسقوطه في سواد المصحف.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، /

﴿ذالك﴾ : أي ذلك الموصوف بالخلق والاستواء والتدبير ، ﴿عالم الغيب﴾ : والغيب الآخرة ، ﴿والشهادة﴾ : الدنيا ، أو الغيب : ما غاب عن المخلوقين ، والشهادة : ما شوهد من الأشياء ، قولان. وقرأ زيد بن علي : ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾ : بخفض الأوصاف الثلاثة ؛ وأبو زيد النحوي : بخفض ﴿العزيز الرحيم﴾ . وقرأ الجمهور : برفع الثلاثة على أنها أخبار لذلك ، أو الأول خبر والاثنان وصفان ، ووجه الخفض أن يكون ذلك إشارة إلى الأمر ، وهو فاعل بيعرج ، أي ثم يعرج إليه ذلك ، أي الأمر المدبر ، ويكون عالم وما بعده بدلا من الضمير في إليه. وفي قراءة ابن زيد يكون ذلك عالم مبتدأ وخبر ، والعزيز الرحيم بالخفض بدل من الضمير في إليه. وقرأ الجمهور : خلقه ، بفتح اللام ، فعلا ماضيا صفة لكل أو لشيء. وقرأ العربيان ، وابن كثير : بسكون اللام ، والظاهر أنه بدل اشتمال ، والمبدل منه كل ، أي أحسن خلق كل شيء ، فالضمير في خلقه عائد على كل. وقيل : الضمير في خلقه عائد على الله ، فيكون انتصابه نصب المصدر المؤكد لمضمون الجملة ، كقوله : ﴿صبغة الله﴾ ، وهو قول سيبويه ، أي خلقه خلقا. ورجح على بدل الاشتمال بأن فيه إضافة المصدر إلى الفاعل ، وهو أكثر من إضافته إلى المفعول ، وبأنه أبلغ في الامتنان ، لأنه إذا قال : ﴿أحسن كل شيء﴾ ، كأن أبلغ من : أحسن خلق كل شيء ، لأنه قد يحسن الخلق ، وهو المجاز له ، ولا يكون الشيء في نفسه حسنا. فإذا قال : ﴿أحسن كل شيء﴾ ، اقتضى أن كل شيء خلقه حسن ، بمعنى : أنه وضع كل شيء في موضعه. انتهى.

وقيل : في هذا الوجه ، وهو عود الضمير في خلقه على الله ، يكون بدلا من كل شيء ، بدل شيء من شيء ، وهما لعين واحدة. ومعنى ﴿أحسن﴾ : حسن ، لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما تقضيه الحكمة. فالمخلوقات كلها حسنة ، وإن تفاوتت في الحسن ، وحسنها من جهة المقصد الذي أريد بها. ولهذا قال ابن عباس : ليست القردة بحسنة ، ولكنها متقنة محكمة. وعلى قراءة من سكن لام خلقه ، قال مجاهد : أعطى كل جنس شكله ، والمعنى : خلق كل شيء على شكله الذي خصه به. وقال الفراء : ألهم كل شيء خلقه فيما يحتاجون إليه ، كأنه أعلمهم ذلك ، فيكون كقوله : ﴿أعطى كل شيء خلقه﴾ . وقرأ الجمهور : بدأ بالهمز ؛ والزهري : بالألف بدلا من الهمزة ، وليس بقياس أن يقول في هدأ : هدا ، بإبدال الهمزة ألفا ، بل قياس هذه الهمزة التسهيل بين بين ؛ على أن الأخفش حكى في قرأت : قريت ونظائره. وقيل : وهي لغية ؛ والأنصار تقول في بدأ : بدى ، بكسر عين الكلمة وياء بعدها ، وهي

لغة لطي. يقولون في فعل هذا نحو بقى : بقأ ، فاحتمل أن تكون قراءة الزهري على هذه اللغة أصله بدى ، ثم صار بدأ ، أو على لغة الأنصار. وقال ابن رواحة :

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٩٥

باسم الإله وبه بديناولو عبدنا غيره شقينا

". (١)

"ولما ذكر تعالى ما آل إليه فرعون وقومه من غضب الله عليهم وإغراقه ، ذكر ما امتن به على رسوله موسى عليه السلام فقال : ﴿ولقد ءاتينا موسى الكتاب﴾ ، وهو التوراة ، وهو أول كتاب أنزلت فيه الفرائض والأحكام. ﴿منا بعد مآ أهلكنا القرون الاولى ﴾ : قوم نوح وهود وصالح ولوط ، ويقال : لم تهلك قرية بعد نزول التوراة غير القرية التي مسخ أهلها قردة. وانتصب

١٢٠

بصائر على الحال ، أي طرائق هدي يستبصر بها.

﴿وما كنت بجانب الغربى إذ قضينآ إلى موسى الامر وما كنت من الشاهدين * ولـاكنآ أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمرا وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم ءاياتنا ولـاكنا كنا مرسلين * وما﴾ .

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٢٧

لما قص الله تعالى من أنباء موسى وغرائب ما جرى له من الحمل به في وقت ذبح الأبناء ، ورميه في البحر في تابوت ، ورده إلى أمه ، وتبني فرعون له ، وإيتائه الحكم والعلم ، وقتله الـقبطي ، وخروجه من منشئه فارا ، وتصاهره مع شعيب ، ورعيه لغنمه السنين الطويلة ، وعوده إلى مصر ، وإضلاله الطريق ، ومناجاة الله له ، وإظهار تينك المعجزتين العظيمتين على يديه ، وهي العصا واليد ، وأمره بالذهاب إلى فرعون ، ومحاورته معه ، وتكذيب فرعون وإهلاكه وإهلاك قومه ، **والامتنان** على موسى بإيتائه التوراة ؛ وأوحى تعالى بجميع ذلك إلى محمد رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره بإنعامه عليه بذلك ، وبما خصه من الغيوب التي كان لا يعلمها لا هو ولا قومه فقال : ﴿وما كنت بجانب الغربى إذ قضينآ إلى موسى الامر﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، /

والأمر ، قيل : النبوة والحكم الذي آتاه الله موسى. وقيل : الأمر : أمر محمد عليه السلام أن يكون من أمته ، وهذا التأويل يلتئم معه ما بعده من قوله : ﴿ولـاكنآ أنشأنا قرونا﴾ . وقيل : الأمر : هلاك فرعون بالماء ، ويحمل بجانب الغربى على اليم ، وبدأ أولا بنفي شيء خاص ، وهو أنه لم يحضر
١٢١

وقت قضاء الله لموسى الأمر ، ثم ثنى بكونه لم يكن من الشاهدين. والمعنى ، والله أعلم ؛ من الشاهدين بجميع ما أعلمناك به ، فهو نفي لشهادته جميع ما جرى لموسى ، فكان عموما بعد خصوص. وبجانب الغربي : من إضافة الموصوف إلى صفته عند قوم ، ومن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه عند قوم. فعلى القول الأول أصله بالجانب الغربي ، وعلى الثاني أصله بجانب المكان الغربي ، والترجيح بين القولين مذكور في النحو. والغربي ، قال قتادة : غربي الجبل ، وقال الحسن : بعث الله موسى بالغرب ، وقال أبو عبيدة : حيث تغرب الشمس والقمر والنجوم. وقيل : هنا جبل غربي. وقيل : الغربي من الوادي ، وقيل : من البحر. قال ابن عطية : المعنى : لم تحضر يا محمد هذه الغيوب التي تخبر بها ، ولكنها صارت إليك بوحينا ، أي فكان الواجب أن يسارع إلى الإيمان بك ، ولكن تطاول الأمر على القرون التي أنشأناها زمنا زمنا ، فعزبت حلومهم ، واستحكمت جهالتهم وضلالتهم. وقال الزمخشري : الغرب : المكان الواقع في شق الغرب ، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى من الطور ، وكتب الله له في الألواح. والأمر المقضي إلى موسى : الوحي الذي أوحى إليه. والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : وما كنت حاضرا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى ، ولا كنت من جملة الشاهدين للوحي إليه ، أو على الوحي إليه ، وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات ، حتى نقف من جملة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته ، وكتب التوراة له في الألواح ، وغير ذلك. فإن قلت : كيف يتصل قوله : ﴿ولـاكنآ أنشأنا قرونا﴾ بهذا الكلام ، ومن أي جهة يكون استدراكا ؟ قلت : اتصاله به وكونه استدراكا من حيث أن معناه : ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قرونا كثيرة ، فتطاول على آخرهم ، وهو القرن الذي أنت فيهم.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٢٧

". (١)

"وقد تقدمت المذاهب في ذلك عند الكلام على قوله تعالى : ﴿سوا ء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ والمفعول الذي لم يسم فاعله في ذلك حكمه حكم الفاعل ، وتخريجه على مذهب جمهور البصريين أن

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، /

المفعول الذي لم يسم فاعله هو مضمر تقديره هو ، يفسره سياق الكلام كما فسر المضمر في قوله تعالى : ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ سياق الكلام والمعنى ، وإذا قيل لهم قول شديد فأضمر هذا القول الموصوف وجاءت الجملة بعده مفسرة ، فلا موضع لها من الإعراب لأنها مفسرة لذلك المضمر الذي هو القول الشديد ، ولا جائز أن يكون لهم في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله لأنه لا ينتظم منه مع ما قبله كلام ، لأنه يبقي لا تفسدوا لا ارتباط له ، إذ لا يكون معمولا للقول مفسرا له.

وزعم الزمخشري أن المفعول الذي لم يسم فاعله هو الجملة التي هي : لا تفسدوا ، وجعل ذلك من باب الإسناد اللفظي ونظره بقولك ألف حرف من ثلاثة أحرف ، ومنه زعموا مطية الكذب ، قال : كأنه قيل ، وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام ، انتهى. فلم يجعله من باب الإسناد إلى معنى الجملة لأن ذلك لا يجوز على مذهب جمهور البصريين ، فعدل إلى الإسناد اللفظي ، وهو الذي لا يختص به الاسم بل يوجد في الإسم والفعل والحرف والجملة ، وإذا أمكن الإسناد المعنوي لم يعدل إلى الإسناد اللفظي ، وقد أمكن ذلك بالتخريج الذي ذكرناه. واللام في قوله : لهم ، للتبليغ ، وهو أحد المعاني السبعة عشر التي ذكرناها للام عند كلامنا على قوله تعالى : ﴿الحمد لله﴾ . وإفسادهم في الأرض بالكفر ، قاله ابن عباس ، أو المعاصي ، قاله أبو العالية ومقاتل ، أو بهما ، قاله السدي عن أشياخه ؛ أو بترك امتثال الأمر واجتناب النهي ، قاله مجاهد ؛ أو بالنفاق الذي ضافوا به الكفار وأطلعوهم على أسرار المؤمنين ، ذكره علي بن عبيد الله ، أو بإعراضهم عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم و القرآن ؛

٦٤

أو بقصدهم تغيير الملة ، قاله الضحاك ، أو باتباعهم هواهم وتركهم الحق مع وضوحه ، قاله بعضهم.

وقال الزمخشري : الإفساد في الأرض تهييج الحروب والفتن ، قال : لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية ، قال تعالى : ﴿ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾ ، ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء﴾ ، ومنه قيل لحرب كانت بين طيء : حرب الفساد ، انتهى كلامه. ووجه الفساد بهذه الأقوال التي قيلت أنها كلها كبائر عظيمة ومعاص جسيمة ، وزادها تغليظا إصرارهم عليها ، والأرض متى كثرت معاصي أهلها وتواترت ، قلت خيراتها ونزعت بركاتها ومنع عنها الغيث الذي هو سبب الحياة ، فكان فعلهم الموصوف أقوى الأسباب لفساد الأرض وخرابها. كما أن الطاعة والاستغفار سبب لكثرة الخيرات ونزول البركات ونزول الغيث ، ألا ترى قوله تعالى

: ﴿فقلت استغفروا ربكم﴾ ، ﴿وإن لوطا﴾ ﴿استقاموا على الطريقة﴾ ﴿ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا ﴾ ، ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل﴾ ، الآيات.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٦٠

وقد قيل في تفسيره ما روي في الحديث من أن الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ، إن معاصيه يمنع الله بها الغيث ، فيهلك البلاد والعباد لعدم النبات وانقطاع الأقوات. والنهي عن الإفساد في الأرض من باب النهي عن المسبب ، والمراد النهي عن السبب. فمتعلق النهي حقيقة هو مصافاة الكفار وممالأتهم على المؤمنين بإفشاء السر إليهم وتسليطهم عليهم ، لإفضاء ذلك إلى هيج الفتن المؤدي إلى الإفساد في الأرض ، فجعل ما رتب على المنهي عنه حقيقة منهيا عنه لفظا. والنهي عن الإفساد في الأرض هنا كالنهي في قوله تعالى : ﴿ولا تعثوا فى الارض مفسدين﴾ . وليس ذكر الأرض لمجرد التوكيد بل في ذلك تنبيه على أن هذا المحل الذي فيه نشأتكم وتصرفكم ، ومنه مادة حياتكم ، وهو سترة أمواتكم ، جدير أن لا يفسد فيه ، إذ محل الإصلاح لا ينبغي أن يجعل محل الإفساد. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ولا تفسدوا فى الارض بعد إصلاحها﴾ وقال تعالى : ﴿هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقها وإليه النشور﴾ ، الآية. إلى غير ذلك من الآيات المنبهة على **الامتنان** علينا بالأرض ، وما أودع الله فيها من المنافع التي لا تكاد تحصى.

". (١)

"فلا يلزم من رجاء الإنسان لشيء وقوع ما يرتجي ، وإنما امتنع ذلك التقدير ، أعني تقدير الحال ، من حيث إن لعل للإ نشاء ، فهي وما دخلت عليه ليست جملة خبرية فيصح وقوعها حالا.

قال الطبري : هذه الآية ، يريد : ﴿قدير * يا أيها الناس اعبدوا ﴾ من أدل دليل على فساد قول من زعم أن تكليف ما لا يطاق بمعونة الله غير جائز ، وذلك أن الله عز وجل أمر بعبادته من آمن به ومن كفر بعد إخباره عنهم أنهم لا يؤمنون وأنهم عن ضلالتهم لا يرجعون. والموصول الثاني في قوله :

٩٦

﴿الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الارض فراشا والسمآء بنآء وأنزل من السمآء مآء فأخرج بها من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا﴾ ، وهو ضعيف لوجهين : أحدهما : أن صلة الذي وما عطف عليها قد مضيا ، فلا ينابسب دخول الفاء في الخبر. الثاني : أن ذلك لا يتمشى

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤٦/١

إلا على مذهب أبي الحسن ، لأن من الروابط عنده تكرار المبتدأ بمعناه ، فالذي مبتدأ ، و﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ جملة خبرية ، والرابط لفظ الله من لله كأنه قيل : ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ ، وهذا من تكرار المبتدأ بمعناه. ولا نعرف إجازة ذلك إلا عن أبي الحسن. أجاز أن تقول : زيد قام أبو عمرو ، وإذا كان أبو عمرو كنية لزيد ، ونص سيبويه على منع ذلك. وأما نصبه فيجوز أن يكون على القطع ، إذ هو وصف مدح

كما ذكرنا ، ويجوز أن يكون وصفا لما كان له وصفا الذي خلقكم ، وهو ربكم ، قالوا : ويجوز نصبه على أن يكون نعتا لقوله : ﴿الذى خلقكم﴾ ، فيكون نعتا للنعت ونعت النعت مما يحيل تكرار النعوت. والذي نختاره أن النعت لا ينعت ، بل النعوت كلها راجعة إلى منعوت واحد ، إلا إن كان ذلك النعت لا يمكن تبعيته للمنعوت ، فيكون إذ ذاك نعتا للنعت الأول ، نحو قولك : يا أيها الفارس ذو الجمة. وأجاز أبو محمد مكي نصبه بإضمار أعني ، وما قبله ليس بملتبس ، فيحتاج إلى مفسر له بإضمار أعني ، وأجاز أيضا نصبه بتتقون ، وهو إعراب غث ينزه القرآن عن مثله. وإنما أتى بقوله الذي دون واو لتكون هذه الصفة وما قبلها راجعين إلى موصوف واحد ، إذ لو كانت بالواو لأوهم ذلك موصوفا آخر ، لأن العطف أصله المغايرة.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٩٢

وجعل : بمعنى صير ، لذلك نصبت الأرض. وفراشا ، ولكم متعلق بجعل ، وأجاز بعضهم أن ينتصب فراشا وبناء على الحال ، على أن يكون جعل بمعنى خلق ، فيتعدى إلى واحد ، وغاير اللفظ كما غاير في قوله : ﴿السماوات والارض وجعل الظلمات والنور﴾ ، ولأنه قصد إلى ذكر جملتين ، فغاير بين اللفظين لأن التكرار ليس في الفصاحة ، كاختلاف اللفظ والمدلول واحد. وأدغم أبو عمرو لام جعل في لام لكم ، والألف واللام في الأرض يجوز أن تكون للجنس الخاص ، فيكون المراد أرضا مخصوصة ، وهي كل ما تمهد واستوى من الأرض وصلح أن يكون فراشا. ويجوز أن تكون لاستغراق الجنس ، ويكون المراد بالفراش مكان الاستقرار واللبث لكل حيوان. فالوهد مستقر بني آدم وغيرهم من الحيوانات ، والجبال والحزون مستقر لبعض الآدميين بيوتا أو حصونا ومنازل ، أو لبعض الحيوانات وحشا وطيرا يفترشون منها أوكارا ، ويكون الامتنان على هذا مشتملا على كل من جعل الأرض له قرارا. وغلب خطاب من يعقل على من لا يعقل ، أو يكون خطاب الامتنان وقع على من يعقل ، لأن ما عداهم من الحيوانات معد لمنافعهم

ومصالحهم ، فخلقها من جملة المنة على من يعقل. وقرأ يزيد الشامي : بساطا ، وطلحة : مهادا. والفراش ، والمهاد ، والبساط ، والقرار ، والوطاء نظائر.

وقد استدل بعض المنجمين بقوله : ﴿جعل لكم الارض فراشا﴾ على أن الأرض مبسوطة لا كروية ، وبأنها لو كانت كروية ما استقر ماء البحار فيها. أما استدلاله بالآية فلا حجة له في ذلك ، لأن الآية لا تدل على أن الأرض مسطحة ولا كروية ، إنما دلت على أن الناس يفترشونها كما يتقلبون بالمفارش ، سواء كانت على شكل السطح أو على شكل الكرة ، وأمكن الافتراش فيها لتباعد أقطارها واتساع جرمها. قال الزمخشري : وإذا كان يعني الافتراش سهلا في الجبل ، وهو وتد من أوتاد الأرض ، فهو أسهل في الأرض ذات الطول والعرض. وأما استدلاله باستقرار ماء البحار فيها فليس بصحيح ، قالوا : لأنه يجوز أن تكون كروية ويكون في جزء منها منسطح يصلح للاستقرار ، وماء البحر متماسك بأمر الله تعالى لا بمقتضى الهيئة ، انتهى قولهم. ويجوز أن يكون بعض الشكل الكروي مقرا للماء إذا كان الشكل ثابتا غير دائر ، أما إذا كان دائرا فيستحيل عادة قراره في مكان واحد من ذلك الشكل الكروي. وهذه مسألة يتكلم عليها في علم الهيئة.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٩٢

وقوله تعالى : ﴿قبلا إنهم كانوا قوما فاسقين * والسمآء بنيناها بأيايد﴾ ،." (١)

"﴿لعلكم تهتدون﴾ : ترجية لهدايتهم ، وقد تقدم الكلام في لعل. وفي لفظ ابن عطية في لعل هنا ، وفي قوله قيل : ﴿لعلكم تشكرون﴾ ، أنه توقع ، والذي تقرر في النحو أنه إن كان متعلق لعل محبوبا ، كانت للترجي ، فإن كان محذورا ، كانت للتوقع ، كقولك : لعل العدو يقدم. والشكر والهداية من المحبوبات ، فينبغي أن لا يعبر عن معنى لعل هنا إلا بالترجي. قال القشيري : فرقان هذه الأمة الذي اختصوا به نور في قلوبهم ، يفرقون به بين الحق والباطل : استفت قلبك ، اتقوا فراسة المؤمن. المؤمن ينظر بنور الله ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ ، وذلك الفرقان ما قدموه من الإحسان ، انتهى كلامه. وناسب ترجي الهداية إثر ذكر إتيان موسى الكتاب والفرقان ، لأن الكتاب به تحصل الهداية ﴿إنآ أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ ، ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى﴾ ،

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٩٥

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٧٧/١

﴿وقفينا على ءاثارهم بعيسى ابن﴾ . وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة من ذكر الامتنان على بني إسرائيل فصولا منها : فرق البحر بهم على الوجه الذي ذكر من كونه صار اثني عشر مسلكا على عدد الأسباط وبين كل سبط حاجز يمنعهم من الازدحام دون أن يلحقهم في ذلك استيحاش ، لأنه صار في كل حاجز كوى بحيث ينظر بعضهم إلى بعض على ما نقل ، وهو من أعظم الآيات الدالة على صدق موسى على نبينا وعليه السلام ، وهذا الفرق هو النعمة الثالثة ، لأن الأولى هي التفضيل ، والثانية هي الإنجاء من آل فرعون ، والثالثة هي هذا الفرق وما ترتب عليه من إنجائهم من الغرق وإغراق أعدائهم وهم بنظرون بحيث لا يشكون في هلاكهم. ثم استطرد بعد ذلك إلى ذكر النعمة الرابعة ، وهي العفو عن الذنب العظيم الذي ارتكبوه من عبادة العجل ، فذكر سبب ذلك ، وأنه اتفق ذلك لغيبة موسى عنهم لمناجاة ربه ، وأنهم على قصر مدة غيبته انخدعوا بما فعله السامري هذا ، ولم يطل عليهم الأمد ، وخليفة موسى فيهم أخوه هارون ينهاهم فلا ينتهون ، ومع هذه الزلة العظيمة عفا عنهم وتاب عليهم ، فأي نعمة أعظم من هذه ؟ ثم ذكر النعمة الخامسة ، وهي ثمرة الوعد ، وهو إتيان موسى التوراة التي بها هدايتهم ، وفيها مصالح دنياهم وآخرتهم. وجاء ترتيب هذه النعم متناسقا يأخذ بعضه بعنق بعض ، وهو ترتيب زماني ، وهو أحد الترتيبات الخمس التي مر ذكرها في هذا الكتاب ، لأن التفضيل أمر حكمي ، فهو أول ثم وقعت النعم بعده ، وهي أفعال يتلو بعضها بعضا. فأولها الإنجاء من سوء العذاب ، ذبح الأبناء واستحياء النساء بإخراج موسى إياهم من مصر ، بحيث لم يكن لفرعون ولا لقومه عليهم تسليط بعد هذا الخروج ، والإنجاء ، ثم فرق البحر بهم وإرائهم عيانا هذا الخارق العظيم ، ثم وعد الله لموسى بمناجاته وذهابه إلى ذلك ، ثم اتخاذهم العجل ، ثم العفو عنهم ، ثم إيتاء موسى التوراة. فانظر إلى حسن هذه الفصول التي انتظمت انتظام الدر في أسلاكها ، والزهر في أفلاكها ، كل فصل منها قد ختم بمناسبة ، وارتقى في ذروة الفصاحة إلى أعلى مناصبه ، واردا من الله على لسان محمد أمينه لسان من لم يتل من قبل كتابا ولا خطه بيمينه.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٩٥

﴿وإذ قال موسى لقومها ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذالكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم منا بعد موتكم لعلكم تشكرون * وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ ..

القوم : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وإنما واحده امرؤ ، وقياسه أن لا يجمع ، وشذ جمعه ، قالوا : أقوام ، وجمع جمعه قالوا : أقاويم فقيل يختص بالرجال. قال تعالى : ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾ ، ولذلك قابله بقوله : ﴿ولا نسآء من نسآء﴾ . وقال زهير :

أقوم آل حصن

٢٠٣

أم نساء

وقال آخر :

قومي هم قتلوا أميم أخيفإذا رميت يصيبني سهمي

وقال آخر :

لا يبعدن قومي الذين همسم العداة وآفة الجزر." (١)

"وقد تضمنت هذه الآيات من لطائف الامتنان وغرائب الإحسان لبني إسرائيل فصولا ، منها : أنهم أمروا بدخول القرية التي بها يتحصنون ، والأكل من ثمراتها ما يشتهون ، ثم كلفوا النزر من العمل والقول ، وهو دخول بابها ساجدين ، ونطقهم بلفظة واحدة تائبين ، ورتب على هذا النزر غفران جرائمهم العظيمة وخطاياهم الجسيمة ، فخالفوا في الأمرين فعلا وقولا ، جريا على عادتهم في عدم الامتثال ، فعاقبهم على ذلك بأشد النكال. ثم ذكر تعالى ما كان عليه موسى عليه السلام من العطف عليهم وسؤال الخير لهم ، وذلك بأن دعا الله لهم بالسقيا ، فأحاله على فعل نفسه بأن أنشأ لهم ، من قرع الصفا بالعصا ، عيونا يجري بها ما يكفيهم من الماء ، معينا على الوصف الذي ذكره تعالى من كون تلك العيون على عدد الأسباط ، حتى لا يقع منهم مشاحة ولا مغالبة ، وأعلمهم بأن ذلك منه رزق ، وأمروا بالأكل منه والشرب ، ثم نهوا عن الفساد ، إذ هو سبب لقطع الرزق. ثم ذكر تعالى تبرمهم من الرزق الذي امتن به عليهم ، فلجوا في طلب ما كان مألوفهم إلى نبيهم فقالوا : ﴿ادع لنا ربك﴾ ، وذلك جري على عادته معهم ، إذ كان يناجي ربه فيما كان عائدا عليهم بصلاح دينهم ودنياهم ، وذكر توبيخه لهم على ما سألوه من استبدال الخسيس بالنفيس ، وبما لا نصب في اكتسابه ما فيه العناء الشاق ، إذ ما طلبوه يحتاج إلى استفراغ أوقاتهم المعدة لعبادة ربهم في تحصيله ، ومع ذلك فصارت أغذية مضرة مؤذية جالبة أخلاطا رديئة ، ينشأ عنها

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١٧١/١

طمس أنوار الأبصار والبصائر ، بخلاف ما رزقهم الله ، إذ هو شيء واحد جيد ، ينشأ عنه صحة البدن وجودة الإدراك.

كان الخليل بن أحمد ، رحمه الله ، يستف دقيق الشعير ، ويشرب عليه الماء العذب ، وكان ذهنه أشرق أذهان أهل زمانه ، وكان قوي البدن يغزو سنة ويحج أخرى. ثم أمروا بالحلول فيما فيه مطلبهم والهبوط إلى معدن ما سألوه ، ثم أخبر تعالى بما عاقبهم به من جعلهم أذلاء مساكين ومباءتهم بغضبه ، وإن ذلك متسبب عن كفرهم بالآيات التي هي سبب الإيمان ، لما احتوت عليه من الخوارق التي أعجزت الإنس والجان ، وعن قتلهم من كان سببا لهدايتهم ، وهم الأنبياء ، إذ باتباعهم يحصل العز في الدنيا والفوز في الأخرى ، وأن الذي جر الكفر والقتل إليهم هو العصيان والاعتداء اللذان كانا سبقا منهم قبل تعاطي الكفر والقتل.

وقال :

إن الأمور صغيرهامما يهيج له العظيم

والشر تحقره وقد ينمى

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢١٦

هاد : ألفه منقلبة عن واو ، والمضارع يهود ، ومعناه : تاب ، أو عن ياء والمضارع يهيد ، إذا تحرك. والأولى الأول لقوله تعالى : ﴿إنا هدنآ إليك﴾ . وسيأتي الكلام على لفظه اليهود حيث انتهينا إليها في القرآن ، إن شاء الله تعالى. والنصارى : جمع نصران ونصرانه ، مثل ندمان وندمانة. قال سيبويه وأنشد :

وكلتاهما خرت وأسجد رأسهاكما سجدت نصرانة لم تحنف

وأنشد الطبري :

يظل إذا دار العشي محنفاويضحى لديه وهو نصران شامس

منع نصرانا الصرف ضرورة ، وهو مصروف لأن مؤنثه على نصرانه. قال سيبويه : إلا أنه لا يستعمل

٢٣٨

في الكلام إلا بياء النسب ، فيكون : كلحيان ولحياني وكأحمري. وقال الخليل : واحد النصارى نصرى ، كمهرى ومهاري. قيل : وهو منسوب إلى نصرة ، قرية نزل بها عيسى. وقال قتادة : نسبوا إلى ناصرة ، وهي قرية نزلوها. فعلى هذا يكون من تغييرات النسب. والصابئين : الصائبون ، قيل : الخارجون

من دين مشهور إلى غيره ، من صبوء السن والنجم ، يقال : صبأت النجوم : طلعت ، وصبأت ثنية الغلام : خرجت ، وصبأت على القوم بمعنى : طرأت ، قال :

إذا صبأت هوادي الخيل عناحسبت بنحرها شرق البعير

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٣٨

(١) ".

"وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة **الامتنان** على بني إسرائيل وتذكارهم بنعم الله ، إذ آتى موسى التوراة المشتملة على الهدى والنور ، ووالى بعده بالرسل لتجديد دين الله وشرائعه ، وآتى عيسى الأمور الخارقة ، من إحياء الأموات ، وإبراء الأكمة والأبرص ، وإيجاد المخلوق ، ونفخ الروح فيه ، والإنباء بالمغيبات ، وغير ذلك. وأيده بمن ينزل الوحي على يديه ، وهو جبريل عليه السلام. ثم مع هذه المعجزات والنعم كانوا أبعد الناس عن قبول ما يأتيهم من عند الله ، وكانوا بحيث إذا جاءهم رسول بما لا يوافقهم ، بادروا إلى تكذيبه ، أو قتلوه ، وهم غير مكترثين بما يصدر منهم من الجرائم ، حتى حكي أنهم في أثر قتلهم الجماعة من الأنبياء ، تقوم سوق البقل بينهم ، التي هي أرذل الأسواق ، فكيف بالأسواق التي تباع فيها الأشياء النفيسة ؟ ثم نعى تعالى عليهم أنهم باقون على تلك العادة من تكذيب ما جاء من عند الله ، وإن كانوا قبل مجيئه به يذكرون أنه يأتيهم من عند الله. فحين وافاهم ما كانوا ينتظرونه ويعرفونه ، كفروا به ، فختم الله عليهم باللعنة. وأن سبب طردهم عن رحمة الله هو ما سبق من كفرهم ، وأن إيمانهم كان قليلا ، إذ كانوا قبل مجيء الكتاب يؤمنون بأنه سيأتي كتاب. ثم أخذ في ذكر ذمهم ، أن باعوا أنفسهم النفيسة بما يترتب لهم على كفرهم بآيات الله من المآكل والرياسات المنقضية في الزمن اليسير ، وأن الحامل على ذلك هو البغي والحسد ، لأن اختص الله بفضله من شاء من عباده ، فلم يرضوا بحكمه ولا باختياره ، فباؤا بالغضب من الله ، وأعد لهم في الآخرة العذاب الذي يذلهم ويهينهم. إذ كان امتناعهم من الإيمان ، إنما هو للتكبر والحسد وعدم الرضا بالقدر ، فناسب ذلك أن يعذبوا العذاب الذي فيه صغار لهم وذلة وإهانة.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٩٦

ثم أخبر تعالى عنهم ، أنهم إذا عرض عليهم الإيمان بما أنزل الله ، أجابوا أنهم يؤمنون بالتوراة ، وأنهم يكفروا بما سواها. هذا والكتب المنزلة من عند الله سواء ، إذ كلها حق يصدق بعضها بعضا. فالكفر ببعضها كفر بجميعها. ثم أخبر تعالى بكذبهم في قولهم : ﴿نؤمن بمآ أنزل علينا﴾ ، وذلك بأنهم قتلوا

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢٠٢/١

الأنبياء ، والتوراة ناطقة باتباع الأنبياء والاقتداء بهم ، فقد خالف قولهم فعلهم. ثم كرر عليهم ، توبيخا لهم ، أن موسى الذي أنزل عليه التوراة ، وأنهم يزعمون أنهم آمنوا بها ، قد جاءهم بالأشياء الواضحة والمعجزات الخارقة ، من نجاتهم من فرعون ، وفلق البحر وغير ذلك ، ومع ذلك ، اتخذوا من بعد ذهابه إلى مناجاة ربه إلها من أبعد الحيوان ذهنا وأبلدها ، وهو العجل المصنوع من حليهم ، المشاهد إنشاؤه وعمله ، وموسى لم يمت بعد ، وكتاب الله طري نزوله عليهم ، لم يتقادم عهده. وكرر تعالى ذكر رفع الطور عليهم ليقبلوا ما في

٣١٦

التوراة ، وأمروا بالسمع والطاعة ، فأجابوا بالعصيان. هذا وهم ملجؤن إلى الإيمان ، أو كالملجئين ، لأن مثل هذا المزعج العظيم من رفع جبل عليهم ليشدخوا به جدير بأن يأتي الإنسان ما أمر به ، ويقبل ما كلف به من التكاليف. وتأبيهم لذلك ، وعدم قبولهم ، سببه أن عبادة العجل خامرت قلوبهم ومازجتها ، حتى لم تسمع قبولا لشيء من الحق ، والقلب إذا امتلأ بحب شيء لم يسمع سواه ولم يصغ إلى ملام ، وأنشدوا :

ملأت ببعض حبك كل قلبيفإن ترد الزيادة هات قلبا

ثم ذمهم تعالى على ما أمرهم به إيمانهم ، ولا إيمان لهم حقيقة ، بل نسب ذلك إليهم ، على سبيل التهكم من عبادة العجل واتخاذه إلها من دون الله. ثم كذبهم في دعواهم أن الجنة هي خالصة لهم ، لا يدخلها أحد سواهم ، فأمرهم بتمني الموت ، لأن من اعتقد أنه يصير إلى سرور وحبور ولذة دائمة لا تنقضي ، يؤثر الوصول إلى ذلك ، وانقضاء ما هو فيه من الذلة والنكد. وأخبر تعالى أن تمني الموت لا يقع منهم أبدا ، وأن امتناعهم من ذلك هو بما قدمت أيديهم من الجرائم ، فظهر كذبهم في دعواهم بأنهم أهل الجنة. ثم أخبر ترشيحا لما قبله من عدم تمنيهم الموت ، أنهم أشد الناس حرصا على حياة ، حتى أنهم أحرص من الذين لا يؤمنون بالدار الآخرة ، ولا يرجون ثوابا ، ولا يخافون عقابا. ثم ذكر أن أحدهم يود أن يعمر ألف سنة ، ومع ذلك فتعميره ، وإن طال ، ليس بمنجيه من عذاب الله.

ثم ختم الآيات بأن الله تعالى مطلع على قبائح أفعالهم ، ومجازيهم عليها. وتبين بمجموع هذه الآيات ما جبل عليه اليهود من فرط كذبهم ، وتناقض أفعالهم وأقوالهم ، ونقص عقولهم ، وكثرة بهتهم ، أعاذنا الله من ذلك ، وسلك بنا أنهج المسلك.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٩٦

." (١)

"فأتمهن : الضمير المستكن في فأتمهن يظهر أنه يعود إلى الله تعالى ، لأنه هو المسند إليه الفعل قبله على طريق الفاعلية. فأتمهن معطوف على ابتلى ، فالمناسب التطابق في الضمير. وعلى هذا ، فالمعنى : أي أكملهن له من غير نقص ، أو بينهن ، والبيان به يتم المعنى ويظهر ، أو يسر له العمل بهن وقواه على إتمامهن ، أو أتم له أجورهن ، أو أدامهن سنة فيه وفي عقبه إلى يوم الدين ، أقوال خمسة. ويحتمل أن يعود الضمير المستكن على إبراهيم. فالمعنى على هذا أدامهن ، أو أقام بهن ، قاله الضحاك ؛ أو عمل بهن ، قاله يمان ؛ أو وفى بهن ، قاله الربيع ، أو أداهن ، قاله قتادة. خمسة أقوال تقرب من الترادف ، إذ محصولها أنه أتى بهن على الوجه المأمور به. واختلفوا في هذا الابتلاء ، هل كان قبل نبوته أو بعدها ؟ فقال ا لقاضي : كان قبل النبوة ، لأنه نبه على أن قيامه بهن كالسبب ، لأنه جعله إماما ، والسبب مقدم على المسبب ، فوجب كون الابتلاء مقدما في الوجود على صيرورته إماما. وقال آخرون : إنه بعد النبوة ، لأنه لا يعلم كونه مكلفا بتلك التكاليف إلا من الوحي ، فلا بد من تقدم الوحي على معرفته بكونه كذلك. أجاب القاضي : بأنه يحتمل أنه أوحى إليه على لسان جبريل بهذه التكاليف الشاقة ، فلما تمم ذلك ، جعله نبيا مبعوثا إلى الخلق.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٣٧٢

﴿قال إنى جاعلك﴾ : تقدم أن الاختيار في قال أنها عاملة في إذ ، وإذا جعلنا العامل في إذ محذوفا ،كانت قال استئنافا ، فكأنه قيل : فماذا قال له ربه حين أتم الكلمات ؟ فقيل : ﴿قال إنى جاعلك للناس إماما ﴾ . وعلى اختيار أن يكون قال هو العامل في إذ ، يكون قال جملة معطوفة على ما قبلها ، أي وقال إني جاعلك للناس إماما ، إذ ابتلاه ، ويجوز أن يكون بيانا لقوله : ابتلى ، وتفسيرا له. للناس : يجوز أن يراد بهم أمته الذين اتبعوه ، ويجوز أن يراد به جميع المؤمنين من الأمم ، ويكون ذلك في عقائد التوحيد وفيما وافق من شرائعهم. وللناس : في موضع الحال ، لأنه نعت نكرة تقدم عليها ، التقدير : إماما كائنا للناس ، قالوا : ويحتمل أن يكون متعلقا بجاعلك ، أي لأجل الناس. وجاعل هنا بمعنى مصير ، فيتعدى لاثنين ، الأول : الكاف الذي أضيف إليها اسم الفاعل ، والثاني : إماما. قيل : قال أهل التحقيق : والمراد بالإمام هنا : النبي ، أي صاحب شرع متبع ، لأنه لو كان تبعا لرسول ، لكان مأموما لذلك الرسول لا إماما ماله. ولأن لفظ الإمام يدل على أنه إمام في كل شيء ، ومن يكون كذلك ، لا يكون إلا نبيا. ولأن الأنبياء

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢٧٢/١

من حيث يجب على الخلق اتباعهم هم أئمة ، قال تعالى : ﴿وجعلنا منهم أامة يهدون بأمرنا﴾ . والخلفاء أيضا أئمة ، وكذلك القضاة والفقهاء والمصلي بالناس ، ومن يؤتم به في الباطل. قال تعالى : ﴿وجعلناهم أامة يدعون إلى النار﴾ . فلما تناول الاسم هؤلاء كلهم ، وجب أن يحمل هنا على أشرف المراتب وأعلاها ، لأنه ذكره في معرض **الامتنان** ، فلا بد أن يكون أعظم نعمة ، ولا شيء أعظم من النبوة.

قال ومن ذريتي ، قال الزمخشري : عطف على الكاف ، كأنه قال : وجاعل بعض ذريتي ، كما يقال لك : سأكرمك ، فتقول : وزيدا. انتهى كلامه. ولا يصح العطف على الكاف ، لأنها مجرورة ، فالعطف عليها لا يكون إلا بإعادة الجار ، ولم

٣٧٦

يعدو ، ولأن من لا يمكن تقدير الجار مضافا إليها ، لأنها حرف ، فتقديرها بأنها مرادفة لبعض حتى تقدر جاعلا مضافا إليها لا يصح ، ولا يصح أن تكون تقدير العطف من باب العطف على موضع الكاف ، لأنه نصب ، فيجعل من في موضع نصب ، لأن هذا ليس مما يعطف فيه على الموضع ، على مذهب سيبويه ، لفوات المحرز ، وليس نظير : سأكرمك ، فتقول : وزيدا لأن الكاف هنا في موضع نصب. والذي يقتضيه المعنى أن يكون من ذريتي متعلقا بمحذوف ، التقدير : واجعل من ذريتي إماما ، لأن إبراهيم فهم من قوله إني جاعلك للناس إماما الاختصاص ، فسأل الله تعالى أن يجعل من ذريته إماما. وقرأ زيد بن ثابت : ذريتي بالكسر في الذال. وقرأ أبو جعفر بفتحها. وقرأ الجمهور بالضم ، وذكرنا أنها لغات فيها ، ومن أي شيء اشتقت حين تكلمنا على المفردات.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٣٧٢

". (١)

"وأفضل الأعمال وأدل الدلائل على الاستمساك بشريعة الإسلام ، بإتمام النعمة السابقة ، بإرسال الرسول المتصف بكونه منهم إلى سائر الأوصاف التي وصفه تعال بها ، وجعل ذلك إتماما للنعمة في الحالين ، لأن استقبال الكعبة ثانيا أمر لا يزاد عليه شيء ينسخه ، فهي آخر القبلات المتوجه إليها في الصلاة. كما أن إرسال محمد صلى الله عليه وسلم هو آخر إرسالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ لا نبي بعده ، وهو خاتم النبيين. فشبه إتمام تلك النعمة ، التي هي كمال نعمة استقبال القبل ، بهذا الإتمام

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣٢٥/١

الذي هو كمال إرسال الرسل. وفي إتمام هاتين النعمتين عز للعرب ، وشرف واستمالة لقلوبهم ، إذ كان الرسول منهم ، والقبلة التي يستقبلونها في الصلاة بينهم الذي يحجونه قديما وحديثا ويعظمونه.

﴿رسولا منكم يتلوا عليكم ءاياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ : فيه اعتناء بالعرب ، إذ كان الإرسال فيهم ، و ا لرسول منهم ، وإن كانت رسالته عامة. وكذلك جاء ﴿هو الذى بعث فى الاميان﴾ ، ويشعر هذا **الامتنان** بإنه لم يسبق أن يرسل ولا يبعث في العرب رسول غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك أفرده فقال : ﴿رسولا منهم﴾ ، ووصفه بأوصاف كلها معجز لهم ، وهي كونه منهم ، وتاليا عليهم آيات الله ، ومزكيا لهم ، ومعلما لهم الكتاب والحكمة وما لم يكونوا يعلمون. وقدم كونه منهم ، أي يعرفونه شخصا ونسبا ومولدا ومنشأ ، لأن معرفة ذات الشخص متقدمة على معرفة ما يصدر من أفعاله. وأتى ثانيا بصفة تلاوة الآيات إليه تعالى ، لأنها هي المعجزة الدالة على صدقه ، الباقية إلى الأبد. وأضاف الآيات إليه تعالى ، لأنها كلامه سبحانه وتعالى ، ومن تلاوته تستفاد العبادات ومجامع الأخلاق الشريفة ، وتنبع العلوم. وأتى ثالثا بصفة التزكية ، وهي التطهير من أنجاس الضلال ، لأن ذلك ناشىء عن إظهار المعجز لمن أراد الله تعالى توفيقه وقبوله للحق. وأتى رابعا بصفة تعليم الكتاب والحكمة ، لأن ذلك ناشىء عن تطهير الإنسان ، باتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، فيعلمه إذ ذاك ويفهمه ما انطوى عليه كتاب الله تعالى ، وما اقتضته الحكمة الإلهية. وأتى بهذه الصفات فعلا مضارعا ليدل بذلك على التجدد ، لأن التلاوة والتزكية والتعليم تتجدد دائما. وأما الصفة الأولى ، وهي كونه منهم ، فليست بمتجددة ، بل هو وصف ثابت له. وقد تقدم الكلام على هذه الأوصاف في قوله : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾ بأشبع من هذا ، فلينظر هناك.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤١٧

وختم هذا بقوله : ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ ، وهو ذكر عام بعد خاص ، لأنهم لم يكونوا يعلمون الكتاب ولا الحكمة. وفسر بعضهم ذلك بأن الذي لم يكونوا يعلمون : قصص من سلف ، وقصص ما يأتي من الغيوب. وفي هذه الآية قدم التزكية على التعليم ، وفي دعاء إبراهيم قدم التعليم على التزكية ، وذلك لاختلاف المراد بالتزكية. فالظاهر أن المراد هنا هو التطهير من الكفر ، كما شرحناه ، وهناك هو الشهادة بأنهم خيار أزكياء ، وذلك متأخر عن تعليم الشرائع والعمل بها. ﴿فاذكرونى أذكركم﴾ : أي اذكروني بالطاعة ، أذكركم بالثواب والمغفرة ، قاله ابن جبير ، أو بالدعاء والتسبيح ونحوه ، قاله الربيع والسدي. وقال

عكرمة : يقول الله يا ابن آدم أذكرني بعد صلاة الصبح ساعة ، وبعد صلاة العصر ساعة ، وأنا أكفيك ما بينهما ، أو اثنوا علي ، أثن

٤٤٥

". (١)

"﴿إن في خلق السماوات والارض﴾ : روي أنه لما نزل ﴿وإلاهكم﴾ الآية ، قالت كفار قريش : كيف يسع الناس إله واحد ؟ فنزل : ﴿إن في خلق﴾ . ولما تقدم وصفه تعالى بالوحدانية واختصاصه بالإلهية ، استدل بهذا الخلق الغريب والبناء العجيب استدلالا بالأثر على المؤثر ، وبالصنعة على الصانع ، وعرفهم طريق النظر ، وفيم ينظرون. فبدأ أولا بذكر العالم العلوي فقال : ﴿إن في خلق السماوات﴾ . وخلقها : إيجادها واختراعها ، أو خلقها وتركيب أجرامها وائتلاف أجزائها من قولهم : خلق فلان حسن : أي خلقته وشكله. وقيل : خلق هنا زائدة والتقدير : إن في السموات والأرض ، لأن الخلق إرادة تكوين الشيء. والآيات في المشاهد من السموات والأرض ، لا في الإرادة ، وهذا ضعيف ، لأن زيادة الأسماء لم تثبت في اللسان ، ولأن الخلق ليس هو الإرادة ، بل الخلق ناشيء عن الإرادة. قالوا : وجمع السموات لأنها أجناس ، كل سماء من جن‍س غير جنس الأخرى ، ووحد الأرض لأنها كلها من تراب. وبدأ بذكر السماء لشرفها وعظم ما احتوت عليه من الأفلاك والأملاك والعرش والكرسي وغير ذلك ، وآياتها : ارتفاعها من غير عمد تحتها ، ولا علائق من فوقها ، ثم ما فيها من النيرين ، الشمس والقمر والنجوم السيارة والكواكب الزاهرة ، شارقة وغاربة ، نيرة وممحوة ، وعظم أجرامها وارتفاعها ، حتى قال أرباب الهيئة : إن الشمس قدر الأرض مائة وأربع وستين مرة ، وإن أصغر نجم في السماء قدر الأرض سبع مرات ، وإن الأفلاك عظيمة الأجرام ، قد ذكر أرباب علم الهيئة مقاديرها ، وإنها سبعة أفلاك ، يجمعها الفلك المحيط. وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أطت السماء وحق لها أن تئط ، ليس فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد". وصح أيضا.

٤٦٤

أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفا ، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة". وآية الأرض : بسطها ، لا دعامة من تحتها ولا علائق من فوقها ، وأنهارها ومياهها وجبالها ورواسيها وشجرها وسهلها ووعرها ومعادنها ، واختصاص كل موضع منها بما هيىء له ، ومنافع نباتها ومضارها. وذكر أرباب الهيئة أن الأرض

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣٨٧/١

نقطة في وسط الدائرة ليس لها جهة ، وأن البحار محيطة بها ، والهواء محيط بالماء ، والنار محيطة بالهواء ، والأفلاك وراء ذلك. وقد ذكر القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني في كتابه المعروف (بالدقائق) خلافا عن الناس المتقدمين : هل الأرض واقفة أم متحركة ؟ وفي كل قول من هذين مذاهب كثيرة في السبب الموجب لوقوفها ، أو لتحركها. وكذلك تكلموا على جرم السموات ولونها وعظمها وأبراجها ، وذكر مذاهب للمنجمين والمانوية ، وتخاليط كثيرة. والذي تكلم عليه أهل الهيئة هو شيء استدلوا عليه بعقولهم ، وليس في الشرع شيء من ذلك. والمعتمد عليه أن هذه الأشياء لا يعلم حقيقة خلقها إلا الله تعالى ، ومن أطلعه الله على شيء منها بالوحي ﴿أحاط بكل شيء علما ﴾ ، ﴿وأحصى كل شيء عددا ﴾ .

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٥٣

﴿واختلاف اليل والنهار﴾ : اختلافهما بإقبال هذا وإدبار هذا ، أو اختلافهما بالأوصاف في النور والظلمة ، والطول والقصر ، أو تساويهما ، قاله ابن كيسان. وقدم الليل على النهار لسبقه في الخلق ، قال تعالى : ﴿وءاية لهم اليل نسلخ منه النهار﴾ . وقال قوم : إن النور سابق على الظلمة ، وعلى هذا الخلاف انبنى الخلاف في ليلة اليوم. فعلى القول الأول : تكون ليلة اليوم هي التي قبله ، وهو قول الجمهور ؛ وعلى القول الثاني : ليلة اليوم هي الليلة التي تليه ، وكذلك ينبني على اختلافهم في النهار ، اختلافهم في مسألة : لو حلف لا يكلم زيدا نهارا.

﴿والفلك التى تجرى فى البحر﴾ : أول من عمل الفلك نوح ، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، وقال له جبريل عليه السلام : ضعها على جؤجؤ الطائر. فالسفينة طائر مقلوب ، والماء في أسفلها نظير الهواء في أعلاها ، قاله أبو بكر بن العربي. وآيتها تسخير الله إياها حتى تجري على وجه الماء ، ووقوفها فوقه مع ثقلها وتبليغها المقاصد. ولو رميت في البحر حصاة لغرقت. ووصفها بهذه الصفة من الجريان ، لأنها آيتها العظمى ، وجعل الصفة موصولا ، صلته تجري : فعل مضارع يدل على تجدد ذلك الوصف لها في كل وقت يراد منها. وذكر مكان تلك الصفة على سبيل التوكيد ، إذ من المعلوم أنها لا تجري إلا في البحر. والألف واللام فيه للجنس ، وأسند الجريان للفلك على سبيل التوسع ، وكان لها من ذاتها صفة مقتضية للجري. ﴿بما ينفع الناس﴾ : يحتمل أن تكون ما موصولة ، أي تجري مصحوبة بالأعيان التي تنفع الناس من أنواع المتاجر والبضائع المنقولة من بلد إلى بلد ، فتكون الباء للحال. ويحتمل أن تكون ما مصدرية ، أي ينفع الناس في تجاراتهم وأسفارهم للغزو والحج وغيرهما ، فتكون الباء للسبب. واقتصر على ذكر النفع ، وإن كانت تجري بما يضر ، لأنه ذكرها في معرض **الامتنان**..

(١) ".

"﴿يا أيها الذين ءامنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ : لما أباح تعالى لعباده أكل ما في الأرض من الحلال الطيب ، وكانت وجوه الحلال كثيرة ، بين لهم ما حرم عليهم ، لكونه أقل. فلما بين ما حرم ، بقي ما سوى ذلك على التحليل حتى يرد منع آخر. وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم ، لما سئل عما يلبس المحرم فقال : "لا يلبس القميص ولا السراويل" ، فعدل عن ذكر المباح إلى ذكر المحظور ، لكثرة المباح وقلة المحظور ، وهذا من الإيجاز البليغ. والذين آمنوا : جمع من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يراد أهل المدينة ، فاللفظ عام والمراد خاص. وقيل : هذا الخطاب مؤكدا لقوله :

﴿الارض بعد موتها وبث فيها من كل دآبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السمآء والارض لايات لقوم يعقلون * ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين ءامنوا أشد حبا للها ولو يرى الذين ظلموا ا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب * إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب * وقال﴾ ،

٤٨٤

فصار هذا الأمر الثاني مثل الأول في أن متعلقة المستلذ الحلال. ما رزقناكم : فيه إسناد الرزق إلى ضمير المتكلم بنون العظمة ، لما في الرزق من الامتنان والإحسان. وإذا فسر الطيبات بالحلال ، كان في ذلك دلالة على أن ما رزقه الله ينفسم إلى حلال وإلى حرام ، بخلاف ماذهبت إليه المعتزلة ، من أن الرزق لا يكون إلا حلالا. وقد تقدم الكلام على الرزق في أول السورة ، فأغنى عن إعادته هنا. ومن منع أن يكون الرزق حراما قال : المراد كلوا من مستلذ ما رزقناكم ، وهو الحلال ، أمر بذلك وأباحه تعالى دفعا لمن يتوهم أن التنوع في المطاعم والتفنن في إطابتها ممنوع منه ، فكان تخصيص المستلذ بالذكر لهذا المعنى.

﴿واشكروا لله﴾ : هذا من الالتفات ، إذ خرج من ضمير المتكلم إلى اسم الغائب ، وحكمة ذلك ظاهرة ، لأن هذا الاسم الظاهر متضمن لجميع الأوصاف التي منها وصف الأنعام والزرق والشكر ، ليس على هذا الإذن الخاص ، بل يشكر على سائر الإنعامات والامتنانات التي منها هذا الامتنان الخاص. وجاء هنا تعدية الشكر باللام ، وقد تقدم الكلام على ذلك.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٧٧

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١/٤٠٥

وتضمنت هذه الآية أمرين : الأول : ﴿كلوا﴾ ، قالوا : وهو عند دفع الضرر واجب ، ومع الضيف مندوب إليه ، وإذا خلا عن العوارض كان مباحا ، وكذا هو في الآية. والثاني : ﴿واشكروا لله﴾ ، وهو أمر وليس بإباحة. قيل : ولا يمكن القول بوجوب الشكر ، لأنه إما أن يكون بالقلب ، أو باللسان ، أو بالجوارح. فبالقلب هو العلم بصدور النعمة من المنعم ، أو العزم على تعظيمه باللسان ، أو الجوارح. أما ذلك العلم فهو من لوازم كمال العقل ، فإن العاقل لا ينسى ذلك. فإذا كان ذلك العلم ضروريا ، فكيف يمكن إيجابه ؟ وأما العزم على تعظيمه باللسان والجوارح ، فذلك العزم القلبي تابع للإقرار اللساني والعمل بالجوارح. فإذا بينا أنهما لا يجبان ، كان العزم بأن لا يجب أولى. وأما الشكر باللسان ، فإما أن يفسر بالاعتراف له بكونه منعما ، أو بالثناء عليه. فهذا غير واجب بالاتفاق ، بل هو من باب المندوبات. وأما الشكر بالجوارح والأعضاء ، فهو أن يأتي بأفعال دالة على تعظيمه ، وذلك أيضا غير واجب. وقال غير هذا القائل الذي تلخص أنه يجب اعتقاد كونه مستحقا للتعظيم ، وإظهارذلك باللسان أو سائر الأفعال إن وجدت هناك. وهذا البحث في وجوب الشكر أو عدم وجوبه ، كان يناسب في أول شكر أمر به وهو قوله : ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ .

". (١)

"وقال مالك : يستحب في غير خوف العدو الإعادة في الوقت إن وقع الأمن ، وأكثر الفقهاء على تساوي الخوف.

و : رجالا ، منصوب على الحال ، والعامل محذوف ، قالوا تقديره : فصلوا رجالا ، ويحسن أن يقدر من لفظ الأول ، أي : فحافظوا عليها رجالا ، ورجالا جمع راجل ، كقائم وقيام ، قال تعالى : ﴿وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا﴾ وقال الشاعر :

وبنو غدانة شاخص أبصارهميمشون تحت بطونهن رجالا

والمعنى : ماشين على الأقدام ، يقال منه : رجل يرجل رجلا ، إذا عدم المركوب ، ومشى على قدميه ، فهو راجل ورجل ورجل ، على وزن رجل مقابل امرأة. وهي لغة أهل الحجاز ، يقولون : مشى فلان إلى بيت الله حافيا رجلا ، ويقال رجلان ورجيل ورجل ، قال الشاعر :

علي إذا لاقيت ليلى بخلوةأن ازدار بيت الله رجلان حافيا

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤٢٣/١

قالوا : ويجمع على : رجال ورجيل ورجالى ورجالى ورجالة ورجلان ورجلة ورجلة بفتح الجيم وأرجلة وأراجل وأراجيل ؛ قرأ عكرمة ، وأبو مجلز : فرجالا ، بضم الراء وتشديد الجيم ، وروي عن عكرمة التخفيف مع ضم الراء ، وقرىء : فرجلا ، بضم الراء وفتح الجيم مشدودة بغير ألف ؛ وقرىء : فرجلا ، بفتح الراء وسكون الجيم.

وقرأ بديل بن ميسرة : فرجالا فركبانا بالفاء ، وهو جمع راكب. قال الفضل : لا يقال راكب إلا لصاحب الجمل ، وأما صاحب الفرس فيقال له فارس ، ولراكب الحمار حمار ، ولراكب البغل بغال ، وقيل : الأفصح أن يقال : صاحب بغل ، وصاحب حمار.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٢٢٠

وظاهر قوله : ﴿فإن خفتم﴾ حصول مطلق الخوف ، وأنه بمطلق الخوف تباح الصلاة في هاتين الحالتين.

وقالوا : هي صلاة الغداة للذي قد ضايقه الخوف على نفسه في حالة المسايفة أو ما يشبهه ، وأما صلاة الخوف بالإمام ، وانقسام الناس فليس حكمها في هذه الآية.

وقيل : فرجالا ، مشاة بالجماعة لأنهم يمشون إلى العدو في صلاة الخوف ، أو ركبانا أي : وجدانا بالإيماء.

وظاهر قوله : فرجالا ، أنهم يوقعون الصلاة وهم ماشون ، فيصلون على كل حال ، والركب يوميء ويسقط عنه التوجه إى القبلة ، وهو قول الشافعي ؛ وقال أبو حنيفة : لا يصلون في حال المشي والمسايفة ما لم يمكن الوقوف.

ولم تتعرض الآية لعدد الركعات في هذا الخوف ، والجمهور أنها لا تقصر الصلاة عن عدد صلاة المسافر إن كانوا في سفر تقصر فيه ، وقال الحسن ، وقتادة ، وغيرهما : تصلى ركعة إيماء. وقال الضحاك بن مزاحم : تصلي في المسايفة وغيرها ركعة ، فإن لم يقدر فليكبر تكبيرتين. وقال إسحاق : فإن لم يقدر إلا على تكبيرة واحدة أجزأت عنه ، ولو رأوا سوادا فظنوه عدوا

٢٤٣

ثم تبين أنه ليس بعدو ، فقال أبو حنيف : يعيدون.

وظاهر الآية : أنه متى عرض له الخوف فله أن يصلي على هاتي الحالتين ، فلو صلى بركعة آمنا ثم طرأ له الخوف ركب وبنى ، أو عكسه : أتم وبنى ، عند مالك ، وهو أحد قولي الشافعي ، وبه قال المزني.

وقال أبو حنيفة : إذا استفتح آمنا ثم خاف ، استقبل ولم يبن فإن صلى خائفا ثم أمن بنى ؛ وقال أبو يوسف : لا يبنى في شيء من هذا كله.

وتدل هذه الآية على عظيم قدر الصلاة وتأكيد طلبها إذا لم تسقط بالخوف ، فلا تسقط بغيره من مرض وشغل ونحوه ، حتى المريض إذا لم يمكنه فعلها لزمه الإشارة بالعين عند أكثر العلماء ، وبهذا تميزت عن سائر العبادات لأنها كلها تسقط بالأعذار ويترخص فيها.

﴿فإذآ أمنتم﴾ قال مجاهد أي : خرجتم من السفر إلى دار الإقامة ، ورده الطبري ، قيل : ولا ينبغي رده لأنه شرح الأمن بمحل الأمن لأن الإنسان إذا رجع من سفره وحل دار اقامته أمن ، فكان السفر مظنة الخوف ، كما أن دار الإقامة محل الأمن. وقيل : معنى فإذا أمنتم أي : زال خوفكم الذي ألجاكم إلى هذة الصلاة. وقيل : فإذا كنتم آمنين ، أي : متى كنتم على أمن قبل أو بعد..

﴿فاذكروا الله﴾ بالشكر والعبادة ﴿كما علمكم﴾ أي : أحسن إليكم بتعليمكم ما كنتم جاهليه من أمر الشرائع ، وكيف تصلون في حال الخوف وحال الأمن.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٢٢٠

و : ما ، مصدرية ، و: الكاف ، للتشبيه.

أمر أن يذكروا الله تعالى ذكرا يعادل ويوازي نعمة ما علمهم ، بحيث يجتهد الذاكر في تشبيه ذكره بالنعمة في القدر والكفاءة ، وإن لم يقدر على بلوغ ذلك.

ومعنى : كما علمكم ، كما أنعم عليكم فعلمكم ، فعبر بالمسبب عن السبب ، لأن التعليم ناشيء عن إنعام الله على العبد وإحسانه له.

وقد تكون الكاف للتعلي ، أي : فاذكروا الله لأجل تعليمه إياكم أي : يكون الحامل لكم على ذكره وشكره وعبادته تعليمه إياكم ، لأنه لا منحة أعظم من منحة العلم.

﴿ما لم تكونوا تعلمون﴾ ما : مفعول ثان لعلمكم ، وفيه **الامتنان** بالتعليم على العبد ، وفي قوله : ﴿ما لم تكونوا تعلمون﴾ إفهام أنكم علمتم شيئا لم تكونوا لتصلوا لإدراكه بعقولكم لولا أنه تعالى علمكموه ، أي : أنكم لو تركتم دون تعليم لم تكونوا لتعلموه أبدا.

." (١)

"وتظاهرت الروايات أن جميع الكفار ببدر كانوا نحو الألف أو تسعمائة ، والمؤمنين ثلثمائة وأربعة عشر. وقيل : وثلاثة عشرة ، لكن رجع بنو زهرة مع الأخنس بن شريق ، ورجع طالب بن أبي طالب وأتباع ، وناس كثير

٣٩٥

حتى بقي للقتال من بقرب من الثلثين ، فذكر الله المثلين ، إذ أمرهما متيقن لم يدفعه أحد. وحكي عن ابن عباس : أن المشركين كانوا في قتال بدر ستمائة وستة وعشرين ، وقد ذهب الزجاج وغيره إلى أنهم كانوا نحو الألف.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يوم بدر القوم ألف". وقال ابن عباس : نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا. وقال في رواية : لقد قللوا في أعيننا حتى لقد قلت لرجل إلى جانبي تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة. فأسرنا منهم رجلا فقلنا : كم كنتم ؟ قال : ألفا. ونقل أن المشركين لما أسروا ، قالوا للمسلمين : كم كنتم ؟ قالوا : كنا ثلاثمائة وثلاثة عشرة ، قالوا : ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا وتكثير كل طائفة في عين الأخرى ، وتقليلها بالنسبة إلى وقتين جائز ، فلا يمتنع.

﴿والله يؤيد بنصرها من يشآء﴾ أي : يقويه بعونه. وقيل : النصر الحجة. ونسبة التأييد إليه يدل على أن المؤيد هم المؤمنون ، ومفعول : من يشاء ، محذوف أي : من يشاء نصره.

﴿إن فى ذالك﴾ أي : النصر. وقيل : رؤية الجيش مثليهم ﴿لعبرة﴾ أي اتعاظا ودلالة. ﴿لاولى الابصار﴾ إن كانت الرؤية بصرية ، فالمعنى : للذين أبصروا الجمعين ، وإن كانت اعتقادية ، فالمعنى : لذوي العقول السليمة القابلة للاعتبار.

﴿زين للناس حب الشهوات من النسآء والبنين﴾ قرأ الجمهور : زين مبنيا للمفعول ، والفاعل محذوف ، فقيل : هو الله تعالى ، قاله عمر ، لأنه قال حين نزلت : الآن يا رب حين زينتها ، فنزلت ﴿قل أؤنبئكم﴾ الآية ، ومعنى التزيين : خلقها وإنشاء الجبلة على الميل إليه ، وهذا كقوله : ﴿إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم﴾ فزينها تعالى للابتلاء ، ويدل عليه قراءة : زين للناس حب ، مبنيا للفاعل ، وهو الضمير العائد على الله في قوله : ﴿والله يؤيد﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١٧٨/٢

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٩١

وقيل : المزين الشيطان ، وهو ظاهر قول الحسن ، قال : من زينها : ما أحد أشد ذما لها من خالقها ويصح إسناد التزيين إلى الله تعال بالإيجاد والتهيئة للانتفاع ، ونسبته إلى الشيطان بالوسوسة ، وتحصيلها من غير وجهها. وأشارت الآية إلى توبيخ معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود وغيرهم ، المفتونين بالدنيا ، وأضاف المصدر إلى المفعول ، وهو الكثير في القرآن ، وعبر عن المشتهيات : بالشهوات ، مبالغة. إذ جعلها نفس الأعيان ، وتنبيها على خستها ، لأن الشهوة مسترذلة عند العقلاء ، يذم متبعها ويشهد له بالانتظام في البهائم ، وناهيك لها ذما قوله صلى الله عليه وسلم : "حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره" وأتى بذكر الشهوات أولا مجموعة على سبيل الإجمال ، ثم أخذ في تفسيرها شهوة شهوة ليدل على أن المزين ما هو إلا شهوة دنيوية لا غير ، فيكون في ذلك تنفير عنها ، وذم لطالبها وللذي يختارها على ما عند الله ، وبدأ في تفصيلها بالأهم فالأهم ، بدأ بالنساء لأنهن حبائل الشيطان وأقرب وأكثر امتزاجا : "ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء" "ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم منكن". ويقال ؛ فيهن فتنتان : قطع الرحم وجمع المال من الحلال والحرام ، وفي البنين فتنة واحدة وهي جمع المال.

وثنى بالبنين لأنهم من ثمرات النساء ، وفروع عنهن ، وشقائق النساء في الفتن ، الولد مبخلة مجبنة :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض

وقدموا على الأموال لأن حب الإنسان ولده أكثر من حبه ماله ، وحيث ذكر الامتنان والإنعام أو الاستعانة والغلبة. قدمت الأموال على الأولاد.

وظاهر قوله : والبنين ، الذكران. وقيل يشمل : الإناث ، وغلب التذكير.

﴿والقناطير المقنطرة﴾ ثلث بالأموال

٣٩٦

لما في المال من الفتنة ، ولأنه يحصل به غالب الشهوات ، ولأن المرء يرتكب الأخطار في تحصيله للولد.

واختلف في : القنطار ، أهو عدد مخصوص ، أم ليس كذلك ؟ فقيل : ألف ومائتا أوقية ، وقيل : اثنا عشر ألف أوقية ، وقيل : ألف ومائتا دينار. وكل هذه رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم : الأول : رواه أبي ، وقال به معاذ ، وابن عمر ، وعاصم بن أبي النجود ، والحسن في رواية. والثاني : رواه أبو هريرة وقال به. والثالث : رواه الحسن ، ورواه العوفي عن ابن عباس.

وقيل : اثنا عشر ألف درهم ، أو ألف دينار ذهبا ، وروي عن ابن عباس ، وعن الحسن ، والضحاك.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٩١

." (١)

"﴿هم درجات﴾ قال ابن عباس والحسن : لكل درجات من الجنة والنار. وقال أبو عبيدة : كقوله : هم طبقات. وقال مجاهد وقتادة : أي ذوو درجات ، فإن بعض المؤمنين أفضل من بعض. وقيل : يعود على الغال وتارك الغلول ، والدرجة : الرتبة. وقال الرازي : تقديره لهم درجات. قال بعض المصنفين رادا عليه : اتبع الرازي في ذلك أكثر المفسرين بجهله وجهلهم بلسان العرب ، لأن حذف لام الجر هنا لا مساغ له ، لأنه إنما تحذف لام الجر في مواضع الضرورة ، أو لكثرة الاستعمال ، وهذا ليس من تلك المواضع. على أن المعنى دون حذفها حسن متمكن جدا ، لأنه لما قال : أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ، وكأنه منتظر للجواب قيل له في الجواب : لا ، ليسوا سواء ، بل هم درجات.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٨٠

﴿عند الله﴾ على حسب أعمالهم. وهذا معنى صحيح لا يحتاج معه إلى تقدير حذف اللام ، لو كان سائغا كيف وهو غير سائغ انتهى كلام المصنف. ويحمل تفسير ابن عباس والحسن أن المعنى : لكل درجات من الجنة والنار على تفسير المعنى ، لا تفسير اللفظ الأعرابي. والظاهرمن قولهم : هم درجات ، أن الضمير عائد على الجميع ، فهم متفاوتون في الثواب والعقاب ، وقد جاء التفاوت في العذاب كما جاء التفاوت في الثواب. ومعنى عند الله على هذا القول : في حكم الله. وقيل : الضمير يعود على أهل الرضوان ، فيكون عند الله معناها التشريف والمكانة لا المكان. كقوله : ﴿عند مليك مقتدر﴾ والدرجات إذ ذاك مخصوصة بالجنة وهذا معنى قول : ابن جبير وأبي صالح ومقاتل ، وظاهر ما قاله مجاهد والسدي. والدرجات المنازل بعضها أعلى من بعض من المسافة أو في التكرمة. وقرأ الجمهور درجات ، فهي مطابقة للفظ هم. وقرأ النخعي درجة بالإفراء.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣٠٢/٢

﴿والله بصيرا بما يعملون﴾ أي : عالم بأعمالهم ودرجاتها ، فمجازيهم على حسبها.

وتضمنت هذه الآيات الطباق في : ينصركم ويخذلكم ، وفي رضوان الله وبسخط. والتكرار في : ينصركم وينصركم ، وفي الجلالة في مواضع. والتجنيس المماثل : في يغل وما غل. والاستفهام الذي معناه في : أفمن اتبع الآية. والاختصاص في : فليتوكل المؤمنون ، وفي : وما كان لنبي ، وفي : بما يعملون خص العمل دون القول لأن العمل جل ما يترتب عليه الجزاء. والحذف في عدة مواضع.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٨٠

.

﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها : أنه تعالى لما ذكر الفريقين :

١٠٢

فريق الرضوان ، وفريق السخط ، وأنهم درجات عند الله مجملا من غير تفصيل ، فصل أحوالهم وبدأ بالمؤمنين ، وذكر ما امتن عليهم به من بعث الرسول إليهم تاليا لآيات الله ، ومبينا لهم طريق الهدى ، ومطهرا لهم من أرجاس الشرك ، ومنقذا لهم من غمرة الضلالة بعد أن كانوا فيها. وسلاهم عما أصابهم يوم أحد من الخذلان والقتل والجرح ، لما أنالهم يوم بدر من الظفر والغنيمة. ثم فصل حال المنافقين الذين هم أهل السخط بما نص عليه تعالى.

ومعنى من تطول وتفضل ، وخص المؤمنين لأنهم هم المنتفعون ببعثه ، والظاهر عمومه. فعلى هذا يكون معنى من أنفسهم من أهل ملتهم ، كما قال : ﴿لقد جآءكم رسول من أنفسكم﴾ والمعنى : من جنس بني آدم ، **والامتنان** بذلك لحصول الأنس بكونه من الإنس ، فيسهل المتلقى منه ، وتزول الوحشة والنفرة الطبيعية التي بين الجنسين المختلفين ، ولمعرفة قوى جنسهم. فإذا ظهرت المعجزة أدركوا أن ذلك ليس في قوى بني آدم ، فعلموا أنه من عند الله ، فكان ذلك داعية إلى الإجابة. ولو كان الرسول من غير الجنس لتخيل أن تلك المعجزة هي في طباعه ، أشار إلى هذه العلة الماتريدي.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ١٠٢

وقيل : المراد بالمؤمنين العرب ، لأنه ليس حي من أحياء العرب إلا له فيهم نسب ، من قبل أمهاته ، إلا بني تغلب لنصرانيتهم قاله : النقاش ، فصار بعثه فيهم شرفا لهم على سائر الأمم.

ويكون معنى من أنفسهم : أي من جنسهم عربيا مثلهم. وقيل : من ولد إسماعيل ، كما أنهم من ولده. قال ابن عباس وقتادة : قال من أنفسهم لكونه معروف النسب فيهم ، معروفا بالأمانة والصدق. قال أبو سليمان الدمشقي : ليسهل عليهم التعليم منه ، لموافقة اللسان. وقال الماوردي : لأن شرفهم يتم بظهور نبي منهم انتهى.

والمنة عليهم بكونه من أنفسهم ، إذ كان اللسان واحدا ، فيسهل عليهم أخذ ما يجب أخذه عنه. وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة ، فكان ذلك أقرب إلى تصديقه والوثوق به. وقرىء شاذا : لمن من الله على المؤمنين

١٠٣

بمن الجارة ومن مجرور بها بدل قد من. قال الزمخشري : وفيه وجهان : أن يراد لمن من الله على المؤمنين منه أو بعثه فيهم ، فحذف لقيام الدلالة. أو يكون إذ في محل الرفع كإذا في قولك : أخطب ما يكون الأمير ، إذ كان قائما بمعنى ,من من الله على المؤمنين وقت بعثه انتهى.

." (١)

"من باز وصقر ونحوهما فلا يحل ، إلا أن تدرك ذكاته فتذكيه. وجوز قوم البزاة ، فجوزا صيدها لحديث عدي بن حاتم. وغلب الجمهور ظاهر : وما علمتم ، وقالوا : معنى مكلبين مؤدبين ومضرين ومعودين ، وعمموا الجوارح في كواسر البهائم والطير مما يقبل التعليم. وأقصى غاية التعليم أن يشلي فيستشلي ، ويدعى فيجيب ، ويزجر بعد الظفر فينزجر ، ويمتنع من أن يأكل من الصيد. وفائدة هذه الحال وإن كانت مؤكدة لقوله : علمتم ، فكان يستغنى عنها أن يكون المعلم مؤتمرا بالتعليم حاذقا فيه موصوفا به ، واشتقت هذه الحال من الكلب وإن كانت جاءت غاية في الجوارح على سبيل التغليب ، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب ، فاشتقت من لفظه لكثرة ذلك في جنسه.

قال أبو سليمان الدمشقي : وإنما قيل مكلبين ، لأن الغالب من صيدهم أن يكون بالكلاب انتهى. واشتقت من الكلب وهي الضراوة يقال : هو كلب بكذا إذا كان ضاريا به. قال الزمخشري : أو لأن السبع يسمى كلبا ، ومنه قوله عليه السلام : "اللهم سلط عليه كلبا من كلابك" فأكله الأسد ، ولا يصح هذا الاشتقاق ، لأن كون الأسد كلبا هو وصف فيه ، والتكليب من صفة المعلم ، والجوارح هي سباع بنفسها لا بجعل المعلم. وظاهر قوله : وما علمتم ، أنه خطاب للمؤمنين. فلو كان المعلم يهوديا أو نصرانيا فكره

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٨٢/٣

الصيد به الحسن ، أو مجوسيا فكره الصيد به : جابر بن عبد الله ، والحسن ، وعطاء ، ومجاهد ، والنخعي ، والثوري ، وإسحاق. وأجاز أكل صيد كلابهم : مالك ، وأبو حنيفة ، والشافعي إذا كان الصائد مسلما. قالوا : وذلك مثل شفرته. والجمهور : على جواز ما صاد الكتابي. وقال مالك : لا يجوز فرق بين صيده وذبيحته. وما صاد المجوسي فالجمهور على منع أكله : عطاء ، وابن جبير ، والنخعي ، ومالك ، وأبو حنيفة ، والليث ، والشافعي. وقال أبو ثور : فيه قول أنهم أهل كتاب ، وأن صيدهم جائز ، وما علمتم موضع ما رفع على أنه معطوف على الطيبات ، ويكون حذف مضاف أي : وصيد ما علمتم ، وقدره بغضهم : واتخاذ ما علمتم. أو رفع على الابتداء ، وما شرطية ، والجواب : فكلوا. وهذا أجود ، لأنه لا إضمار فيه.

وقرأ ابن عباس وابن الحنفية : وما علمتم مبنيا للمفعول أي : من أمر الجوارح والصيد بها. وقرأ : مكلبين من أكلب ، وفعل وأفعل ، قد يشتركان. والظاهر دخول الكلب الأسود البهيم في عموم الجوارح ، وأنه يجوز أكل صيده ، وبه قال الجمهور. ومذهب أحمد وجماعة من أهل الظاهر : أنه لا يجوز أكل صيد ، لأنه مأمور بقتله ، وما أوجب الشرع قتله فلا يجوز أكل صيده. وقال أحمد : لا أعلم أحدا رخص فيه إذا كان بهيما وبه قال : ابن راهويه. وكره الصيد به : الحسن ، وقتادة ، والنخعي. وقد تقدم ذكر أقصى غاية التعليم في الكلب ، أنه إذا أمر ائتمر ، وإذا زجر انزجر. وزاد قوم شرطا آخر وهو أن لا يأكل مما صاد ، فأما سباع الطير فلا يشترط فيها الأكل عند الجمهور. وقال ربيعة : ما أجاب منها فهو المعلم. وقال ابن حبيب : لا يشترط فيها إلا شرط واحد : وهو أنه إذا أمرها أطاعت ، فإن انزجارها إذا زجرت لا يتأتى فيها. وظاهر قوله : وما علمتم ، حصول التعليم من غير اعتبار عدد. وكان أبو حنيفة لا يجد في ذلك عددا. وقال أصحابنا : إذا صاد الكلب وأمسك ثلاث مرات فقد حصل له التعليم. وقال غيرهم : إذا فعل ذلك مرة واحدة فقد صار معلما.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٢٧

﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾ أي : إن تعليكم إياهن ليس من قبل أنفسكم ، إنما هو من العلم الذي علمكم الله ، وهو أن جعل لكم روية وفكرا بحيث قبلتم العلم. فكذلك الجوارح بصبر لها إدراك ما وشعور ، بحيث يقبلن الائتمار والانزجار. وفي قوله : مما علمكم الله ، إشعار ودلالة على فضل العلم وشرفه ، إذ ذكر ذلك في معرض الامتنان. ومفعول علم وتعلمونهن الثاني محذوف تقديره : وما علمتموه طلب الصيد لكم لا لأنفسهن تعلمونهن ذلك ، وفي ذلك دلالة على أن

صيد ما لم يعلم حرام أكله ، لأن الله تعالى إنما أباح ذلك بشرط التعليم. والدليل على ذلك الخطاب في عليكم في قوله : فكلوا مما أمسكن عليكم ، وغير المعلم إنما يمسك لنفسه. ومعنى مما علمكم الله أي : من الأدب الذي أدبكم به تعالى ، وهو اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، فإذا أمر فائتمر ، وإذا زجر فانزجر ، فقد تعلم مما علمنا الله تعالى. وقال الزمخشري : مما علمكم الله من كلم التكليف ، لأنه إلهام من الله تعالى ومكتسب بالعقل انتهى. والجملة من قوله : تعلمونهن ، حال ثانية. ويجوز أن تكون مستأنفة على تقدير : أن لا تكون ما من قوله : وما علمتم من الجوارح ، شرطية ، إلا إن كانت اعتراضا بين الشرط وجزائه. وخطب الزمخشري هنا فقال : وفيه فائدة جليلة وهي أن كل آخذ علما أن لا يأخذه إلا من قبل أهله علما وأبحرهم دراية ، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه ، واحتاج إلى أن تضرب إليه أكباد الإبل ، فكم من أخذ من غير متقن فقد ضيع أيامه وعض عند لقاء النحارير أنامله.

". (١)

"والفترة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيسى عليه السلام قال قتادة : خمسمائة سنة وستون. وقال الضحاك : أربعمائة سنة وبضع وثلاثون سنة. وقيل : أربعمائة ونيف وستون. وذكر محمد بن سعد في كتاب الطبقات له عن ابن عباس : أن كان بين ميلاد عيسى والنبي عليهما الصلاة والسلام خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث في أولها ثلاثة أنبياء. وهو قوله تعالى : ﴿إذ أرسلنآ إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث﴾ وهو شمعون وكان من الحواريين. وقال الكلبي مثل قول ابن عباس إلا أنه قال : بينهما أربعة أنبياء ، واحد من العرب من بني عبس وهو خالد بن سنان الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : "ضيعه قومه". وروي عن الكلبي أيضا خمسمائة وأربعون. وقال وهب : ستمائة سنة وعشرون. وقيل : سبعمائة سنة. وقال مقاتل : ستمائة سنة ، وروي هذا عن قتادة والضحاك. وذكر ابن عطية أن هذا روي في الصحيح. فإن كانا كما ذكر وجب أن لا يعدل عنه لسواه. وهذه التواريخ نقلها المفسرون من كتب اليونان وغيرهم ممن لا يتحرى النقل. وذكر ابن سعد في الطبقات عن ابن عباس والزمخشري عن الكلبي قالا : كان بين موسى وعيسى ألف سنة وسبعمائة سنة ، وألف نبي ، زاد ابن عباس من بني إسرائيل دون من أرسل من غيرهم ، ولم يكن بينهما فترة. والمعنى : **الامتنان** عليهم بإرسال الرسل على حين انطمست آثار الوحي ، وهم أحوج ما يكونون إليه ليعدوه أعظم نعمة من الله وفتح باب إلى الرحمة ، ويلزمهم الحجة

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣/٣٤٥

فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم من غلفتهم. وأن تقولوا : مفعول من أجله فقده البصريون : كراهة أو حذار أن تقولوا. وقدره الفراء : لئلا تقولوا. ويعني يوم القيامة على سبيل الاحتجاج.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٤٢

﴿فقد جآءكم بشير ونذير﴾ قيل : وفي الكلام حذف أي : لا تعتدوا فقد جاءكم بشير ، أي لمن أطاع بالثواب ، ونذير لمن عصى بالعقاب. وفي هذا رد على اليهود حيث قالوا : ما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بعده.

﴿والله على كل شىء قدير﴾ هذا عام فقيل على كل شيء من الهداية والضلال. وقيل : من البعثة وإمساكها. والأولى العموم فيندرج فيه ما ذكروا.

﴿وإذ قال موسى لقومها ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنابيآء وجعلكم ملوكا وءاتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى بين تمرد أسلاف اليهود على موسى ، وعصيانهم إياه ، مع تذكيره إياهم نعم الله وتعداده لما هو العظيم منها ، وأن هؤلاء الذين هم بحضرة الرسول هم جارون معكم مجرى أسلافهم مع موسى. ونعمة الله يراد بها الجنس ، والمعنى : واذكر لهم يا محمد على جهة إعلامهم بغيب كتبهم ليتحققوا نبوتك. وينتظم في ذلك ذكر نعم الله عليهم ، وتلقيهم تلك النعم بالكفر وقلة الطاعة. وعدد عليهم من نعمه ثلاثا : الأولى : جعل أنبياء فيهم وذلك أعظم الشرف ، إذ هم الوسائط بين الله وبين خلقه ، والمبلغون عن الله شرائعه. قيل : لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء. وقال ابن السائب ومقاتل : الأنبياء هنا هم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربه ، وكانوا من خيار قومه. وقيل : هم الذين أرسلوا من بعد في بني إسرائيل كموسى ذكره الماوردي وغيره ، وعلى هذا القول يكون جعل لا يراد بها حقيقة الماضي بالفعل ، إذ بعضهم كان قد ظهر عند خطاب موسى إياهم ، وبعضهم لم يخلق بل أخبر أنه سيكون فيهم. الثانية : جعلهم ملوكا ظاهره **الامتنان** عليهم بأن جعلهم ملوكا إذ جعل منهم ملوكا ، إذ الملك شرف في الدنيا واستيلاء ، فذكرهم بأن منهم قادة الآخرة وقادة الدنيا. وقال السدي وغيره : وجعلكم أحرارا تملكون ولا تملكون ، إذ كنتم خدما للقبط فأنقذكم منهم ، فسمي استنقاذكم ملكا. وقال قوم : جعلهم ملوكا بإنزال المن والسلوى

٤٥٢

عليهم وتفجير الحجر لهم ، وكون ثيابهم لا تبلى ولا تنسخ وتطول كلما طالوا ، فهم ملوك لرفع هذه الكلف عنهم. وقال قتادة : ملوكا لأنهم أول من اتخذ الخدام واقتنوا الأرقاء. وقال ابن عطية وقتادة : وإنما

قال وجعلكم ملوكا ، لأنا كنا نتحدث أن أول من خدمه آخر من بني آدم. قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، لأن القبط كانوا يستخدمون بني إسرائيل. وظاهر أمر بني آدم أن بعضهم يسخر بعضا مدة تناسلوا وكثروا انتهى.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٤٢

". (١)

"على الطائر لا يريد به الطائر المضاف إليه الهيئة بل الطائر الذي صوره عيسى ويكون التقدير وإذ يخلق من الطين طائرا صورة مثل صورة الطائر الحقيقي فينفخ فيه فيكون طائرا حقيقة بإذن الله. ويكون قوله عائدا على الهيئة لا يريد به الهيئة المضافة إلى الطائر ، بل الهيئة التي تكون الكاف صفة لها ويكون التقدير ، وإذ تخلق من الطين هيئة مثل هيئة الطير ، فتنفخ فيها أي في الهيئة الموصوفة بالكاف المنسوب خلقها إلى عيسى ، وأما قول مكي ويصح عكس هذا ، وهو أن يكون الضمير المذكر عائدا على الهيئة والضمير المؤنث عائدا على الطائر فيمكن تخريجه على أنه ذكر الضمير وإن كان عائدا على مؤنث لأنه لحظ فيها معنى الشكل كأنه قدر هيئة كهيئة الطير بقوله شكلا كهيئة الطير وأنه أنث الضمير وإن كان عائدا على مذكر لأنه لحظ فيه معنى الهيئة. قال ابن عطية والوجه عود ضمير المؤنث على ما تقتضيه الآية ضرورة ، أي صورا أو أشكالا أو أجساما ، وعود الضمير المذكر على المخلوق الذي يقتضيه تخلق ثم قال ولك أن تعيده على ما تدل عليه الكاف في معنى المثل ، لأن المعنى وإذ تخلق من الطين مثل هيئة ولك أن تعيد الضمير على الكاف نفسه فيكون اسما في غير الشعر ، فهو قول أبي الحسن وحده من البصريين وكذا قال الزمخشري ، إن الضمير في فيها للكاف قال لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى وينفخ فيها وجاء في آل عمران ﴿بإذن الله﴾ مرتين وجاء هنا ﴿بإذنى﴾ أربع مرات عقيب أربع جمل لأن هذا موضع ذكر النعمة والامتنان بها فناسب الإسهاب وهناك موضع إخبار لبني إسرائيل فناسب الإيجاز والتقدير في وإذ تخرج الموتى تحيي الموتى فعبر بالإخراج عن الأحياء كقوله تعالى ﴿كذلك الخروج﴾ بعد قوله ﴿وأحيينا بها بلدة ميتا ﴾ أو يكون التقدير وإذ تخرج الموتى من قبورهم أحياء.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٨

﴿وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بـالبينات﴾ أي منعتهم من قتلك حين هموا بك وأحاطوا بالبيت الذي أنت فيه. وقال عبيد بن عمير لما قال الله لعيسى ﴿اذكر نعمتى عليك﴾ كان يلبس الشعر

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣/٣٦٤

ويأكل الشجر ولا يؤخر شيئا لغدو يقول مع كل يوم رزقه لم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت ، أين ما أمسى بات. وهذا القول يظهر منه أن عيسى خوطب بذلك قبل الرفع والبينات هنا هي المعجزات التي تقدم ذكرها وظهرت على يديه ولما فصل تعالى نعمته ذكر ذلك منسوبا لعيسى دون أمه لأن من هذه النعم نعمة النبوة وظهور هذه الخوارق فنعمته عليه أعظم منها على أمه إذ ولدت مثل هذا النبي الكريم. وقال الشاعر فيما يشبه هذا :

شهد العوالم أنها لنفيسةبدليل ما ولدت من النجباء

﴿فقال الذين كفروا منهم إن هاذآ إلا سحر مبين﴾ قرأ حمزة والكسائي ساحر بالألف هنا. وفي هود والصف فهذا هنا إشارة إلى عيسى. وقرأ باقي السبعة سحر فهذا إشارة إلى ما جا٠ء به عيسى من البينات.

﴿وإذ أوحيت إلى الحواريان أن ءامنوا بى﴾ أي أوحيت إليهم على ألسنة الرسل. وقال ابن عطية إما أن يكون وحي إلهام أو وحي أمر والرسول هنا هو عيسى وهذا الإيحاء إلى الخواريين هو من نعم الله على عيسى بأن جعل له أتباعا يصدقونه ويعملون بما جاء به ويحتمل أن تكون تفسيرية لأنه تقدمها جملة في معنى القول وأن تكون مصدرية.

﴿قالوا ءامنا واشهد بأننا مسلمون﴾ تقدم تفسير نظير هذه الجملة في آل عمران إلا أن هناك ﴿بالله فإذآ﴾ لأنه تقدم ذكر الله فقط في قوله : ﴿من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ وهنا جاء ﴿قالوا ءامنا﴾ فلم يتقيد بلفظ الجلالة إذ قد تقدم

٥٢

أن آمنوا وبرسولي وجاء هناك ﴿واشهد بأنا﴾ ، وهنا ﴿واشهد بأننا﴾ . وهذا هو الأصل إذ أن محذوف منه النون لاجتماع الأمثال.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٨

". (١)

"﴿قل من أنزل الكتاب الذى جآء بها موسى نورا وهدى للناس﴾ إن كان المنكرون بني إسرائيل فالاحتجاج عليهم واضح لأنهم ملتزمون نزول الكتاب على موسى وإن كانوا العرب فوجه الاحتجاج عليهم أن إنزال الكتاب على موسى أمر مشهور منقول ، نقل قوم لم تكن العرب مكذبة لهم وكانوا يقولون : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، وقال أبو حامد الغزالي : هذه الآية مبنية على الشكل الثاني من

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤٢/٤

الأشكال المنطقية وذلك لأن حاصله يرجع إلى أن موسى عليه السلام أنزل عليه شيء واحد من البشر ما أنزل الله عليه شيئا ينتج من الشكل الثاني أن موسى ما كان من البشر ، وهذا خلف محال وليست هذه الاستحالة بحسب شكل القياس ولا بحسب صحة المقدمة ، فلم يبق إلا أنه لزم من فرض صحة المقدمة وهي قولهم : ﴿مآ أنزل الله على بشر من شىء ﴾ فوجب القول بكونها كاذبة فتمت أن دلالة هذه الآية على المطلوب إنما تصح عند الاعتراف بصحة الشكل الثاني من الأشكال المنطقية وعند الاعتراف بصحة قياس الخلف ، انتهى كلامه. وفي الآية دليل على أن النقض يقدح في صحة الكلام وذلك أنه نقض قولهم : ﴿أنزل الله ولا﴾ بقوله : ﴿قل من أنزل الكتاب﴾ فلو لم

١٧٧

يكن النقض دليلا على فساد الكلام لما كانت حجة مفيدة لهذا المطلوب ، والكتاب هنا التوراة وانتصب نورا وهدى على الحال والعامل أنزل أو جاء.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٦١

﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ﴾ التاء قراءة الجمهور في الثلاثة ، وظاهره أنه لبني إسرائيل والمعنى : ﴿تجعلونه﴾ ذا ﴿قراطيس﴾ ، أي أوراقا وبطائق ، ﴿وتخفون كثيرا ﴾ كإخفائهم الآيات الدالة على بعثة الرسول وغير ذلك من الآيات التي أخفوها ، وأدرج تعالى تحت الإلزام توبيخهم وإن نعى عليهم سوء حملهم لكتابهم وتحريفهم وإبداء بعض وإخفاء بعض ، فقيل : جاء به موسى وهو نور وهدى للناس فغيرتموه وجعلتموه قراطيس وورقات لتستمكنوا مما رمتم من الإبداء والإخفاء ، وتتناسق قراءة التاء مع قوله : ﴿علمتم﴾ ومن قال : إن المنكرين العرب أو كفار قريش لم يمكن جعل الخطاب لهم ، بل يكون قد اعترض بني إسرائيل فقال : خلال السؤال والجواب : تجعلونه أنتم يا بني إسرائيل قراطيس ومثل هذا يبعد وقوعه لأن فيه تفكيكا لنظم الآية وتركيبها ، حيث جعل الكلام أولا خطابا مع الكفار وآخرا خطابا مع اليهود وقد أجيب بأن الجميع لما اشتركوا في إنكار نبوة الرسول ، جاء بعض الكلام خطابا للعرب وبعضه خطابا لبني إسرائيل ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة في الثلاثة.

﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا ءابآؤكم﴾ ظاهره أنه خطاب لبني إسرائيل مقصود به **الامتنان** عليهم وعلى آبائهم ، بأن علموا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به لأن آباءهم كانوا علموا أيضا وعلم بعضهم وليس كذلك آباء العرب ، أو مقصود به ذمهم حيث لم ينتفعوا به لإعراضهم وضلالهم ، وقيل : الخطاب للعرب ، قاله مجاهد ذكر الله منته عليهم أي علمتم يا معشر العرب من الهدايات والتوحيد

والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين ﴿ولا ءاباؤكم﴾ وقيل : الخطاب لمن آمن من اليهود ، وقيل : لمن آمن من قريش وتفسير ﴿ما لم تعلموا ﴾ يتخرج على حسب المخاطبين التوراة أو دين الإسلام وشرائعه أو هما أو القرآن ، قال الزمخشري : الخطاب لليهود أي علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مما أوحي إليه ﴿ما لم تعلموا أنتم﴾ وأنتم حملة التوراة ولم يعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم أن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ، وقيل : الخطاب لمن آمن من قريش ﴿لتنذر قوما مآ أنذر ءاباؤهم﴾ انتهى.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٦١

﴿قل الله﴾ أمره بالمبادرة إلى الجواب أي قل الله أنزله فإنهم لا يقدرون أن يناكروك ، لأن الكتاب الموصوف بالنور والهدى الآتي به من أيد بالمعجزات بلغت دلالته من الوضوح إلى حيث يجب أن يعترف بأن منزله هو الله سواء أقر الخصم بها أم لم يقر ، ونظيره : ﴿قل أى شيء أكبر شهادة قل الله﴾ . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون المعنى فإن جهلوا أو تحيروا أو سألوا ونحو هذا فقل الله انتهى ، ولا يحتاج إلى هذا التقدير لأن الكلام مستغن عنه.

". (١)

"﴿والنخل﴾ وما بعده في قوله : ﴿جنات معروشات وغير معروشات﴾ فاندرج في ﴿جنات﴾ وخص بالذكر وجرد تعظيما لمنفعته **والامتنان** به ، ومن خص الجنات بقسمها بالكرم قال : ذكر النخل وما بعده ذكر أنواع أخبر تعالى بأنه أنشأها واختلاف أكله وهو المأكول ، هو بأن كل نوع من أنواع النخل والزرع طعما ولونا وحجما ورائحة يخالف به النوع الآخر والمعنى مختلفا أكل ثمره وانتصب مختلفا على أنه حال مقدرة ، لأنه لم يكن وقت الإنشاء مختلفا. وقيل : هي حال مقارنة وذلك بتقدير حذف مضاف قبله تقديره وثمر النخل وحب الزرع والضمير في ﴿أكله﴾ عائد على ﴿ينابت لكم به الزرع والزيتون والنخيل﴾ وأفرد لدخوله في حكمه بالعطفية قال معناه الزمخشري : وليس بجيد لأن العطف بالواو لا يجوز إفراد ضمير المتعاطفين. وقال الحوفي : والهاء في ﴿أكله﴾ عائدة على ما تقدم من ذكر هذه الأشياء المنشآت ؛ انتهى. وعلى هذا لا يكون ذو الحال ﴿ينابت لكم به الزرع والزيتون والنخيل﴾ فقط بل جميع ما أنشأ لاشتراكها كلها في اختلاف المأكول ، ولو كان كما زعم لكان التركيب مختلفا أكلها إلا إن أخذ ذلك على حذف مضاف أي ثمر جنات وروعي هذا المحذوف فقيل : ﴿أكله﴾ بالإفراد على مراعاته فيكون

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١٤٢/٤

ذلك نحو قوله : ﴿أو كظلمات فى بحر لجى﴾ يغشاه موج أو كذي ظلمات ، ولذلك أعاد الضمير في ﴿يغشاه﴾ عليه ، والظاهر عوده على أقرب مذكور وهو ﴿الزرع﴾ ويكون قد حذفت حال ﴿النخل﴾ لدلالة هذه الحال عليها ، التقدير ﴿والزرع مختلفا أكله﴾ والزرع مختلفا أكله كما تأول بعضهم في قولهم : زيد وعمرو قائم أي زيد قائم وعمرو قائم ، ويحتمل أن يكون الحال مختصة بالزرع لأن أنواعه مختلفة الشكل جدا كالقمح والشعير والذرة والقطينة والسلت والعدس والجلبان والأرز وغير ذلك ، بخلاف النخل فإن الثمر لا يختلف شكله إلا بالصغر والكبر ، وتقدم الكلام على قوله : ﴿والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه﴾ فأغني عن إعادته.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٣٤

﴿كلوا من ثمرها إذآ أثمر﴾ لما كان مجيء تلك الآية في معرض الاستدلال بها على الصانع وقدرته والشحر وإعادة الأرواح إلى الأجساد بعد العدم

٢٣٦

وإبراز الجسد وتكوينه من العظم الرميم وهو عجب الذنب ، قال : انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إشارة إلى الإيجاد أولا وإلى غايته وهنا لما كان معرض الغاية الامتنان وإظهار الإحسان بما خلق لنا قال : ﴿كلوا من ثمره﴾ فحصل بمجموعهما الحياة الأبدية السرمدية والحياة الدنيوية السريعة الانقضاء ، وتقدم النظر وهو الفكر على الأكل لهذا السبب وهذا أمر بإباحة الأكل ويستدل به على أن الأصل في المنافع الإباحة والإطلاق وقيده بقوله : ﴿إذآ أثمر﴾ وإن كان من المعلوم إنه إذا لم يثمر فلا أكل تنبيها على أنه لا ينتظر به محل إدراكه واستوائه ، بل متى أمكن الأكل منه فعل.

". (١)

"مرابط للإمهاز والعكر الدثر أحب إلينا من أناس بقنةيروح على آثار شائهم النمر والعكرة من الإبل ما بين الستين إلى السبعين ، والجمع عكر. والدثر الكثير ، ويقال : أراح الماشية ردها بالعشي من المرعى ، وسرحها يسرحها سرحا وسروحا أخرجها غدوة إلى المرعى ، وسرحت هي يكون متعديا ولازما ، وأكثر ما يكون ذلك أيام الربيع إذا سقط الغيث وكبر الكلأ وخرجوا

٤٧٥

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤/١٩١

للنجعة. وقدم الإراحة على السرح لأن الجمال فيها أظهر إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر ، بخلاف وقت سرحها ، وإن كانت في الوقتين تزين الأفنية ، وتجاوب فيها الرغاء والثغاء ، فيأتنس أهلها ، وتفرح أربابها وتجلهم في أعين الناظرين إليها ، وتكسبهم الجاه والحرمة لقوله تعالى : ﴿المال والبنون زينة الحيواة الدنيا ﴾ وقوله تعالى : ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ ثم قال تعالى : ﴿والانعام والحرث﴾ وقرأ عكرمة والضحاك والجحدري : حينا فيهما بالتنوين ، وفك الإضافة. وجعلوا الجملتين صفتين حذف منهما العائد كقوله : ﴿واتقوا يوما لا تجزى﴾ ويكون العامل في حينا على هذا ، إما المبتدأ لأنه في معنى التجمل ، وإما خبره بما فيه من معنى الاستقرار والأثقال. الأمتعة : واحدها ثقل. وقيل : الأجسام لقوله تعالى : ﴿وأخرجت الارض أثقالها﴾ أي أجساد بني آدم. وقوله : إلى بلد ، لا يراد به معين أي : إلى بلد بعيد توجهتم إليه لأغراضكم. وقيل : المراد به معين وهو مكة ، قاله : ابن عباس ، وعكرمة ، والربيع بن أنس. وقيل : مدينة الرسول. وقيل : مصر. وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على المراد ، إذ المنة لا تختص بالحمل إليها. ولم تكونوا بالغيه صفة للبلد ، ويحتمل أن يكون التقدير بها ، وذلك تنبيه على بعد البلد ، وأنه مع الاستعانة بها بحمل الأثقال لا يصلون إليه إلا بالمشقة. أو يكون التقدير : لم تكونوا بالغيه بأنفسكم دونہا إلا بالمشقة عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم. وقرأ الجمهور : بشق بكسر الشين. وقرأ مجاهد ، والأعرج ، وأبو جعفر ، وعمر بن ميمون ، وابن أرقم : بفتحها. ورويت عن نافع وأبي عمرو ، وهما مصدران معناهما المشقة. وقيل : الشق بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم ، ويعني به : المشقة. وقال الشاعر في الكسر :

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٧١

وذي إبل يسعى ويحسبها لهأخي نصب من شقها ودؤوب

أي مشقتها. وشق الشيء نصفه ، وعلى هذا حمله الفراء هنا أي : يذهبان صف الأنفس ، كأنها قد ذابت تعبا ونصبا كما تقول : لا تقدر على كذا إلا بذهاب جل نفسك ، وبقطعة من كبدك. ونحو هذا من المجاز. ويقال : أخذت شق الشاة أي نصفها والشق : الجانب ، والأخ الشقيق ، وشق اسم كاهن. وناسب الامتنان بهذه النعمة من حملها الأثقال الختم بصفة الرأفة والرحمة ، لأن من رأفته تيسير هذه المصالح وتسخير الأنعام لكم. ولما ذكر تعالى منته بارأنعام ومنافعها الضرورية ، ذكر الامتنان بمنافع الحيوان التي ليست بضرورية. وقرأ الجمهور : والخيل وما عطف عليه بالنصب عطفا على والأنعام. وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع. ولما كان الركوب أعظم منافعها اقتصر عليه ، ولا يدل ذلك على أنه لا يجوز لكل الخيل

، خلافا لمن استدل بذلك. وانتصب وزينة ، ولم يكن باللام ، ووصل الفعل إلى الركوب بوساطة الحرف ، وكلاهما مفعول من أجله ، لأن التقدير : خلقها ، والركوب من صفات المخلوق لهم ذلك فانتفى شرط النصب ، وهو : اتحاد الفاعل ، فعدى باللام. والزينة من وصف الخالق ، فاتحد الفاعل ، فوصل الفعل إليه بنفسه. وقال ابن عطية : وزينة نصب بإضمارفعل تقديره : وجعلناها زينة. وروى قتادة عن ابن عباس : لتركبوها زينة بغير واو. قال صاحب اللوامح : والزينة مصدر أقيم مقام الاسم ، وانتصابه على الحال من الضمير في خلقها ، أو من لتركبوها. وقال الزمخشري : أي وخلقها زينة لتركبوها ، أو يجعل زينة حالاً من هاء ، وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال. وقال ابن عطية : والنصب حينئذ على الحال من الهاء في تركبوها. والظاهر نفي العلم عن ذوات ما يخلق تعالى ، فقال الجمهور : المعنى ما لا تعلمون من الآدميين والحيوانات والجمادات التي خلقها كلها لمنافعكم ، فأخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به ، لنزداد دلالة على قدرته بالإخبار ، وإن طوى عنا علمه حكمة له في طيه ، وما خلق تعالى من الحيوان

٤٧٦

وغيره لا يحيط بعلمه بشر. وقال قتادة : ما لا تعلمون ، أصل حدوثه كالسوس في النبات والدود في الفواكه. وقال ابن بحر : لا تعلمون كيف يخلقه. وقال مقاتل : هو ما أعد الله لأوليائه في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. قال الطبري : وزاد بعد في الجنة وفي النار لأهلها ، والباقي بالمعنى.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٧١

". (١)

"ولما ذكر انقياد من في السموات والأرض والطير إليه تعالى وذكر ملكه لهذا العالم وصيرورتهم إليه أكد ذلك بشيء عجيب من أفعاله مشعر بانتقال من حال إلى حال. وكان عقب قوله وإليه المصير فاعلم بانتقال إلى المعاد فعطف عليه ما يدل على تصرفه في نقل الأشياء من حال إلى حال ومعنى ﴿يزجى﴾ يسوق قليلا قليلا ويستعمل في سوق الثقيل برفق كالسحاب والإبل ، والسحاب اسم جنس واحده سحابة ، والمعنى يسوق سحابة إلى سحابة. ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي بين أجزائه لأنه سحابة تتصل بسحابة فجعل ذلك ملتئما بتأليف بعض إلى بعض. وقرأ ورش يولف بالواو ، وباقي السبعة بالهمز وهو الأصل. فيجعله ﴿ركاما﴾ أي متكاثفا يجعل بعضه إلى بعض ، وانعصاره بذلك ﴿من خلاله﴾ أي فتوقه ومخارجه التي

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٥/٣٨٧

حدثت بالتراكم والانعصار. والخلال : قيل مفرد. وقيل : جمع خلل كجبال وجبل. وقرأ ابن مسعود وابن عباس والضحاك ومعاذ العنبري عن أبي عمرو والزعفر ا ني من خلله بالإفراد ، والظاهر أن في السماء جبالا من برد قاله مجاهد والكلبي وأكثر المفسرين : خلقها الله كما خلق في الأرض جبالا من حجر. وقيل : جبال مجاز عن الكثرة لا أن في السماء جبالا كما تقول : فلان يملك جبالا من ذهب ، وعنده جبال من العلم يريد الكثرة. قيل : أو هو على حذف حرف التشبيه.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٦٣

و ﴿السمآء﴾ السحاب أي ﴿من السمآء﴾ التي هي جبال أي كجبال كقوله ﴿حتى إذا جعله نارا﴾ أي كنار قاله الزجاج ، فجعل السماء هو السحاب المرتفع سمي بذلك لسموه وارتفاعه. وعلى القول الأول المراد بالسماء الجسم الأزرق المخصوص وهو المتبادر للذهن ، ومن استعماله الجبال في الكثرة مجازا قول ابن مقبل :

إذا مت عن ذكر القوافي فلنترى لها شاعرا مني أطلب وأشعرا

وأكثر بيتا شاعرا ضربت لهبطون جبال الشعر حتى تيسرا

واتفقوا على أن ﴿من﴾ الأولى لابتداء الغاية. وأما ﴿من جبال﴾ . فقال الحوفي : هي بدل من ﴿السمآء﴾ ثم قال : وهي للتبعيض ، وهذا خطأ لأن الأولى لابتداء الغاية في ما دخلت عليه ، وإذ كانت الثانية بدلا لزم أن يكون مثلها لابتداء الغاية ، لو قلت : خرجت من بغداد من الكرخ لزم أن يكونا معا لابتداء الغاية. وقال الزمخشري وابن عطية : هي للتبعيض فيكون على قولهما في موضع المفعول لينزل. قال الحوفي والزمخشري : والثانية للبيان انتهى. فيكون التقدير وينزل من السماء بعض جبال فيها التي هي البرد فالمنزل برد لأن بعض البرد برد فمفعول ﴿ينزل﴾ ﴿من جبال﴾ .

قال الزمخشري : أو الأولان للابتداء والأخيرة للتبعيض ، ومعناه أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها انتهى. فيكون ﴿من جبال﴾ بدلا ﴿من السمآء﴾ .

وقيل : ﴿من﴾ الثانية والثالثة زائدتان وقاله الأخفش ، وهما في موضع نصب عنده كأنه قال : وينزل من السماء جبالا فيها أي في السماء بردا وبردا بدل أي برد جبال. وقال الفراء : هما زائدتان أي جبالا فيها برد لا حصى فيها ولا حجر ، أي يجتمع البرد فيصير كالجبال على التهويل فبرد مبتدأ وفيها خبره. والضمير في ﴿فيها﴾ عائد على ﴿الجبال﴾ أو فاعل بالجار والمجرور لأنه قد اعتمد بكونه في موضع الصفة لجبال. وقيل : ﴿من﴾ الأولى والثانية لابتداء الغاية ، والثالثة زائدة أي ﴿وينزل من السمآء من جبال﴾ السماء بردا.

وقال الزجاج : معناه ﴿وينزل من السمآء من جبال﴾ برد فيها كما تقول : هذا خاتم في يدي من حديد ، أي خاتم حديد في يدي ، وإنما جئت في هذا وفي الآية بمن لما فرقت ، ولأنك إذا

٤٦٤

قلت : هذا خاتم حديد كان المعنى واحدا انتهى. فعلى هذا يكون ﴿منا برد﴾ في موضع الصفة لجبال ، كما كان من في من حديد صفة لخاتم ، فيكون في موضع جر ويكون مفعول ﴿ينزل﴾ هو ﴿من جبال﴾ وإذا كانت الجبال ﴿منا برد﴾ لزم أن يكون المنزل بردا. والظاهر إعادة الضمير في ﴿به﴾ على البرد ، ويحتمل أن يكون أريد به الودق والبرد وجرى في ذلك مجرى اسم الإشارة. وكأنه قال : فيصيب بذلك والمطر هو أعم وأغلب في الإصابة والصرف أبلغ في المنفعة **والامتنان**.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٦٣

". (١)

"جزء : ٧ رقم الصفحة : ٨٠

وقرأ الجمهور : ﴿أمن خلق﴾ ، وفي الأربعة بعدها بشد الميم ، وهي ميم أم أدغمت في ميم من. وقرأ الأعمش : بتخفيفها جعلها همزة الاستفهام ، أدخلت على من ، ومن في القراءتين مبتدأ وخبره. قال ابن عطية : تقديره : يكفر بنعمته ويشك به ، ونحو هذا من المعنى. وقدره الزمخشري : خير أما يشركون ، فقدر ما أثبت في الاستفهام الأول ؛ بدأ أولا في الاستفهام باسم الذات ، ثم انتقل فيه إلى الصفات. وقال أبو الفضل الرازي في (كتاب اللوامح) له : ولا بد من إضمار جملة معادلة ، وصار ذلك المضمر كالمنطوق به لدلالة الفحوى عليه. وتقدير تلك الجملة : أمن خلق السموات كمن لم يخلق ، وكذلك أخواتها ، وقد أظهر في غير هذا الموضع ما أضمر فيها لقوله تعالى : ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ . انتهى. وتسمية هذا المقدر جملة ، إن أراد بها جملة من الألفاظ فهو صحيح ، وإن أراد الجملة المصطلح عليها في النحو فليس كذلك ، بل هو مضمر من قبيل المفرد. وبدأ تعالى بذكر إنشاء مقر العالم العلوي والسفلي ، وإنزال ما به قوام العالم السفلي وقال : ﴿لكم﴾ ، أي لأجلكم ، على سبيل **الامتنان** ، وأن ذلك من أجلكم. ثم قال : ﴿فأنابتنا﴾ ، وهذا التفات من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة دالا على اختصاصه بذلك ، وأنه لم ينبت تلك الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح بماء واحد إلا هو تعالى. وقد رشح هذا الاختصاص بقوله : ﴿ما كان لكم أن تنابتوا شجرهآ﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٣٣٨

ولما كان خلق السموات والأرض ، وإنزال الماء من السماء ، لا شبهة للعاقل في أن ذلك لا يكون إلا لله ، وكان الإنبات مما قد يتسبب فيه الإنسان بالبذر والسقي والتهيئة ، ويسوغ لفاعل السبب نسبة فعل المسبب إليه ، بين تعالى اختصاصه بذلك بطريق الالتفات وتأكيد ذلك بقوله : ﴿ما كان لكم أن تنابتوا شجرهآ﴾ . ألا ترى أن المتسبب لذلك قد لا يأتي على وفق مراده ؟ ولو أتى فهو جاهل بطبعه ومقداره وكيفيته ، فكيف يكون فاعلا لها ؟ والبهجة : الجمال والنضرة والحسن ، لأن الناظر فيها يبتهج ، أي يسر ويفرح. وقرأ الجمهور : ﴿ذات﴾ ، بالإفراد ، ﴿بهجة﴾ ، بسكون الهاء ، وجمع التكسير يجري في الوصف مجرى الواحدة ، كقوله : ﴿أزواج مطهرة﴾ ، وهو على معنى جماعة. وقرأ ابن أبي عبلة ، ذوات ، بالجمع ، بهجة بتحريك الهاء بالفتح.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٨٠

﴿ما كان لكم أن تنابتوا شجرهآ﴾ : قد تقدم أن نفي مثل هذه الكينونة قد يكون ذلك لاستحالة وقوعه كهذا ، أو لامتناع وقوعه شرعا ، أو لنفي الأولوية. والمعنى هنا : أن إنبات منكم محال ، لأنه إبراز شيء من العدم إلى الوجود ، وهذا ليس بمقدور إلا لله تعالى. ولما ذكر منته عليهم ، خاطبهم بذلك ؛ ثم لما ذكر ذمهم ، عدل من الخطاب إلى الغيبة فقال : ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ ، إما التفاتا ، وإما إخبارا للرسول صلى الله عليه وسلم بحالهم ، أي يعدلون عن الحق ، أو يعدلون به غيره ، أي يجعلون له عديلا ومثيلا. وقرىء : إلها ، بالنصب ، بمعنى : أتدعون أو أتشركون ؟ وقرىء : أإله ، بتخفيف الهمزتين وتليين الثانية ، والفصل بينهما بألف. ولما ذكر تعالى أنه منشيء السموات والأرض ، ذكر شيئا مشتركا بين السماء والأرض ، وهو إنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق بالأرض ، ذكر شيئا مختصا بالأرض ، وهو جعلها قرارا ، أي مستقرا لكم ، بحيث يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها ، ولا يديرها الفلك ، قيل : لأنها مضمحلة في جنب الفلك ، كالنقطة في الرحى.

﴿وجعل خلالهآ﴾ : أي بين أماكنها ، في شعابها وأوديتها ، ﴿أنهارا وجعل لها رواسى﴾ : أي جبالا ثوابت حتى لا تتكفأ بكم وتميد. والبحران : العذب والملح ، والحاجز : الفاصل ، من قدرته تعالى ، قاله الضحاك. وقال مجاهد : بحر السماء

٨٩

". (١)

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦٥/٧

"والأرض ، والحاجز من الهواء. وقال الحسن : بحر فارس والروم ، وقال السدي : بحر العراق والشام ، والحاجز من الأرض. قال ابن عطية : مختارا لهذا القول في الحاجز : هو ما جعل الله بينهما من حواجز الأرض وموانعها ، على رقتها في بعض المواضع ، ولطافتها التي لولا قدرته لبلع الملح العذب. وكان ابن عطية قد قدم أن البحرين : العذب بجملته ، والماء الأجاج بجملته ؛ ولما كانت كل واحدة منه عظيمة مستقلة ، تكرر فيها العامل في قوله : ﴿وجعل﴾ ، فكانت من عطف الجمل المستقل كل واحدة منها بالامتنان ، ولم يشرك في عامل واحد فيكون من عطف المفردات. ولأبي عبد الله الرازي في ذكر هذه الامتنانات الأربع كلام من علم الطبيعة ، والحكماء على زعمه ، خارج عن مذاهب العرب ، يوقف عليه في كتابه. والمضطر : اسم مفعول ، وهو الذي أحوجه مرض أو فقر أو حادث من حوادث الدهر إلى الالتجاء إلى الله والتضرع إليه ، فيدعوه لكشف ما اعتراه من ذلك وإزالته عنه. وقال ابن عباس : هو المجهود. وقال السدي : هو الذي لا حول ولا قوة له. وقيل : هو المذنب إذا استغفر ، وإجابته إياه مقرونة بمشيئته تعالى ، فليس كل مضطر دعا يجيبه الله في كشف ما به. وقال الزمخشري : الإجابة موقوفة على أن يكون المدعو به مصلحة ، ولهذا لا يحسن الدعاء إلا شارطا فيه المصلحة. انتهى ، وهو على طريق الاعتزال في مراعاة المصلحة من الله تعالى.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٨٠

﴿ويكشف السواء﴾ : هو كل ما يسوء ، وهو عام في كل ضر انتقل من حالة المضطر ، وهو خاص إلي أعم ، وهو ما يسوء ، سواء كان المكشوف عنه في حالة الاضطرار أو فيما دونها. وخلفاء : أي الأمم السالفة ، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم من بعده ، أو خلفاء الكفار في أرضهم ، أو الملك والتسلط ، أقوال. وقرأ الحسن في رواية : ونجعلكم بنون المتكلم ، كأنه استئناف إخبار ووعد ، كما قال تعالى : ﴿ليستخلفنهم فى الارض﴾ .

وقوله : ﴿ويجعلكم خلفآء الارض﴾ : انتقال من حالة المضطر إلى رتبة مغايرة لحالة الاضطرار ، وهي حالة الخلافة ، فهما ظرفان. وكم رأينا في الدنيا ممن بلغ حالة الاضطرار ثم صار ملكا متسلطا. وقرأ الجمهور : تذكرون ، بتاء الخطاب ؛ والحسن ، والأعمش ، وأبو عمرو : بياء الغيبة ، والذال في القراءتين مشددة لإدغام التاء فيها. وقرأ أبو حيوة : تتذكرون ، بتاءين. وظلمة البر هي ظلمة الليل ، وهي الحقيقة ، وتنطلق مجازا على الجهل وعلى انبهام الأمر فيقال : أظلم علي الأمر. وقال الشاعر :

تجلت عمايات الرجال عن الصبا

أي جهالات الصبا وهداية البر تكون بالعلامات ، وهداية البحر بالنجوم.

﴿ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمتها﴾ : تقدم تفسير نظير هذه الجملة. وقرىء : عما تشركون ، بتاء الخطاب. ﴿أمن يبدؤا الخلق﴾ : الظاهر أن الخلق هو المخلوق ، وبدؤه : اختراعه وإنشاؤه. ويظهر أن المقصود هو من يعيده الله في الآخرة من الإنس والجن والملك ، لا عموم المخلوق. وقال ابن عطية : والمقصود بنو آدم من حيث ذكر الإعادة ، والإعادة البعث من القبور ، ويحتمل أن يريد بالخلق مصدر خلق ، ويكون يبدأ ويعيد استعارة للإتقان والإحسان ، كما تقول : فلان يبدىء ويعيد في أمركذا إذا كان يتقنه. وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف قال لهم أمن يبدأ الخلق ثم يعيده وهم منكرون الإعادة ؟ قلت : قد أنعم عليهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذر في الإنكار. انتهى.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٨٠

ولما كان إيجاد بني آدم إنعاما إليهم وإحسانا ، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال : ﴿ومن يرزقكم من السمآء﴾ بالمطر ، ﴿والارض﴾ بالنبات ؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ : أي أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تدعون من إنكار شيء مما تقدم تقريره ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أن مع الله إلها آخر. فأين دليلكم عليه ؟ وهذا راجع إلى ما تقدم من جميع الاستفهام الذي جيء به على سبيل التقرير ، وناسب ختم كل استفهام بما تقدمه.

٩٠

". (١)

"وقال المهدوي : المعنى في السفن الجارية يعني أن ذلك هو على سبيل الامتنان ، والمحمولون هم المخاطبون. ﴿لنجعلها﴾ : أي سفينة نوح عليه السلام ، ﴿لكم تذكرة﴾ بما جرى لقومه الهالكين وقومه الناجين فيها وعظة. قال قتادة : أدركها أوائل هذه الأمة. وقال ابن جريج : كانت ألواحها على الجودي. وقيل : لنجعل تلك الجملة في سفينة نوح عليه السلام لكم موعظة تذكرون بها نجاة آبائكم وإغراق مكذبي نوح عليه السلام ، ﴿وتعيهآ﴾ : أي تحفظ قصتها ، ﴿أذن﴾ من شأنها أن تعي المواعظ ، يقال : وعيت لما حفظ في النفس ، وأوعيت لما حفظ في غير النفس من الأوعية. وقال قتادة : الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله ؛ وفي الحديث ، أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلي : "إني دعوت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا علي". قال علي رضي الله تعالى عنه : فما سمعت بعد ذلك شيئا

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦٦/٧

فنسيته ، وقرأها : وتعيها ، بكسر العين وتخفيف الياء العامة ؛ وابن مصرف وأبو عمرو في رواية هارون وخارجة عنه ؛ وقنبل بخلاف عنه : بإسكانها ؛ وحمزة : بإخفاء الحركة ، ووجه الإسكان التشبيه في الفعل بما كان على وزن فعل في الاسم والفعل. نحو : كبد وعلم. وتعي ليس على وزن فعل ، بل هو مضارع وعي ، فصار إلى فعل وأصله حذفت واوه. وروي عن عاصم عصمة وحمزة الأزرق : وتعيها بتشديد الياء ، قيل : وهو خطأ وينبغي أن يتأول على أنه أريد به شدة بيان الياء إحترازا ممن سكنها ، لا إدغام حرف في حرف ، ولا ينبغي أن يجعل ذلك من باب التضعيف في الوقف ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإن كان قد ذهب إلى ذلك بعضهم. وروي عن حمزة وعن موسى بن عبد الله العنسي : وتعيها بإسكان الياء ، فاحتمل الاستئناف وهو الظاهر ، واحتمل أن يكون مثل قراءة من أوسط ما تطعمون أهاليكم بسكون الياء. وقال الزمخشري : فإن قلت : لم قيل ﴿أذن واعية﴾ على التوحيد والتنكير ؟ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله تعالى فهي السواد الأعظم عند الله تعالى ، وأن ما سواها لا يبالي بالة وإن ملأوا ما بين الخافقين. انتهى ، وفيه تكثير.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٨

ولما ذكر تعالى ما فعل بمكذبي الرسل من العذاب في الدنيا ، ذكر أمر الآخرة وما يعرض فيها لأهل السعادة وأهل الشقاوة ، وبدأ بإعلام يوم القيامة فقال : ﴿فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة﴾ ، وهذه النفخة نفخة الفزع. قال ابن عباس : وهي النفخة الأولى التي حصل عنها خراب العالم ، ويؤيد ذلك قوله : ﴿وحملت الارض والجبال﴾ . وقال ابن المسيب ومقاتل : هي النفخة الآخرة ، وعلى هذا لا يكون الدك بعد النفخ ، والواو لا ترتب. وروي ذلك عن ابن عباس أيضا ، ولما كانت مرة أكدت بقوله : ﴿واحدة﴾ . وقرأ الجمهور : نفخة واحدة ، برفعهما ، ولم تلحق التاء نفخ ، لأن تأنيث النفخة مجازى ووقع الفصل. وقال ابن عطية : لما نعت صح رفعه. انتهى. ولو لم ينعت لصح ، لأن نفخة مصدر محدود ونعته ليس بنعت تخصيص ، إنما هو نعت توكيد.

٣٢٢

وقرأ أبو السمال : بنصبهما ، أقام الجار والمجرور مقام الفاعل. وقرأ الجمهور : ﴿وحملت﴾ بتخفيف الميم ؛ وابن أبي عبلة وابن مقسم والأعمش وابن عامر في رواية يحيى : بتشديدها ، فالتخفيف على أن تكون ﴿الارض والجبال﴾ حملتها الريح العاصف أو الملائكة أو القدرة من غير واسطة مخلوق. ويبعد قوله من قال : إنها الزلزلة ، لأن الزلزلة ليس فيها حمل ، إنما هي اضطراب. والتشديد على أن تكون للتكثير ،

أو يكون التضعيف للنقل ، فجاز أن تكون ﴿الارض والجبال﴾ المفعول الأول أقيم مقام الفاعل ، والثاني محذوف ، أي ريحا تفتتها أو ملائكة أو قدرة. وجاز أن يكون الثاني أقيم مقام الفاعل ، والأول محذوف ، وهو واحد من الثلاثة الم‍قدرة. وثني الضمير في ﴿فدكتا﴾ ، وإن كان قد تقدمه ما يعود عليه ضمير الجمع ، لأن المراد جملة الأرض وجملة الجبال ، أي ضرب بعضها ببعض حتى تفتتت ، وترجع كما قال تعالى : ﴿كثيبا مهيلا﴾ . والدك فيه تفرق الأجزاء لقوله : ﴿هبآء﴾ ، والدق فيه اختلاف الأجزاء. وقيل : تبسط فتصير أرضا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وهو من قولهم : بعير أدك وناقة دكاء إذا ضعفا ، فلم يرتفع سنامهما واستوت عراجينهما مع ظهريهما. ﴿فيوماذ﴾ معطوف على ﴿فإذا نفخ فى الصور﴾ ، وهو منصوب بوقعت ، كما أن إذا منصوب بنفخ على ما اخترناه وقررناه واستدللنا له في أن العامل في إذا هو الفعل الذي يليهما لا الجواب ، وإن كان مخالفا لقول الجمهور. والتنوين في إذ للعوض من الجملة المحذوفة ، وهي في التقدير : فيوم إذ نفخ في الصور وجرى كيت وكيت ، والواقعة هي القيامة ، وقد تقدم في ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ أن بعضهم قال : هي صخرة بيت الم‍قدس.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٨

." (١)

"سورة الضحى

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٨٣

٤٨٤

سجا الليل : أدبر ، وقيل : أقبل ، ومنه :

يا حبذا القمراء والليل الساجوطرق مثل ملاء النساج

وبحر ساج : ساكن ، قال الأعشى :

وما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكموبحرك ساج لا يوارى الدعامصا

وطرف ساج : غيره مضطرب بالنظر. وقال الفراء : سجا الليل : أظلم وركد. وقال ابن الأعرابي : سجا الليل : اشتد ظلامه.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢٤٢/٨

﴿والضحى * واليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللاخرة خير لك من الاولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيما فااوى * ووجدك ضآلا فهدى * ووجدك عآالا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السآال فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث﴾ .

هذه السورة مكية. ولما ذكر فيما قبلها ﴿وسيجنبها الاتقى﴾ ، وكان سيد الأتقين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكر تعالى هنا نعمه عليه. وقرأ الجمهور ﴿ما ودعك﴾ بتشديد الدال ؛ وعروة بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة : بخفها ، أي ما تركك. واستغنت العرب في فصيح كلامها بترك عن ودع ووذر ، وعن اسم فاعلهما بتارك ، وعن اسم مفعولهما بمتروك ، وعن مصدرهما بالترك ، وقد سمع ودع ووذر. قال أبو الأسود :

ليت شعري عن خليلي ما الذيغاله في الحب حتى ودعه

وقال آخر :

وثم ودعنا آل عمرو وعامرفرائس أطراف المثقفة السمر

والتوديع مبالغة في الودع ، لأن من ودعك مفارقا فقد بالغ في تركك. ﴿وما قلى ﴾ : ما أبغضك ، واللغة الشهيرة في مضارع قلى يقلى ، وطيىء تعلى بفتح العين وحذف المفعول اختصارا في ﴿قلى ﴾ ، وفي ﴿فااوى ﴾ وفي ﴿فهدى ﴾ ، وفي ﴿فأغنى ﴾ ، إذ يعلم أنه ضمير المخاطب ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم. قال ابن عباس وغيره : أبطأ الوحي مرة على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ، حتى شق ذلك عليه ، فقالت أم جميل ، امرأة أبي لهب : يا محمد ما أرى شيطانك إلا تركك ؟ فنزلت. وقال زيد بن أسلم : إنما احتبس عنه جبريل عليه السلام لجرو كلب كان في بيته.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٨٤

﴿وللاخرة خير لك من الاولى ﴾ : يريد الدارين ، قاله ابن إسحاق وغيره.

٤٨٥

ويحتمل أن يريد حالتيه قبل نزول السورة وبعدها ، وعده تعالى بالنصر والظفر ، قاله ابن عطية احتمالا. وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف اتصل قوله : ﴿وللاخرة خير لك من الاولى ﴾ بما قبله ؟ قلت : لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله مواصلك بالوحي إليك ، وأنك حبيب الله ، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ، ولا نعمة أجل منه ، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل ، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمته على سائر الأمم ، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته.

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ ، قال الجمهور : ذلك في الآخرة. وقال ابن عباس : رضاه أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. وقال أيضا : رضاه أنه وعده بألف قصر في الجنة بما تحتاج إليه من النعم والخدم. وقيل : في الدنيا بفتح مكة وغيره ، والأولى أن هذا موعد شامل لما أعطاه في الدنيا من الظفر ، ولما ادخر له من الثواب. واللام في ﴿وللاخرة﴾ لام ابتداء أكدت مضمون الجملة ، وكذا في ﴿ولسوف﴾ على إضمار مبتدأ ، أي ولأنت سوف يعطيك.

ولما وعده هذا الموعود الجليل ، ذكره بنعمه عليه في حال نشأته. ﴿ألم يجدك﴾ : يعلمك ، ﴿يتيما﴾ : توفي أبوه عليه الصلاة والسلام وهو جنين ، أتت عليه ستة أشهر وماتت أمه عليه الصلاة والسلام وهو ابن ثماني سنين ، فكفله عمه أبو طالب فأحسن تربيته. وقيل لجعفر الصادق : لم يتم النبي صلى الله عليه وسلم من أبويه ؟ فقال : لئلا يكون عليه حق لمخلوق. قال الزمخشري : ومن يدع التفاسير أنه من قولهم درة يتيمة ، وأن المعنى : ألم يجدك واحدا في قريش عديم النظير فآواك ، انتهى. وقرأ الجمهور : ﴿فاأوى ﴾ رب اعيا ؛ وأبو الأشهب العقيلي : فأوى ثلاثيا ، بمعنى رحم. تقول : أويت لفلان : أي رحمته ، ومنه قول الشاعر :

أراني ولا كفران لله أنهلنفسي قد طالبت غير منيل

﴿ووجدك ضآلا﴾ : لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى ، لأن الأنبياء معصومون من ذلك. قال ابن عباس : هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة ، ثم رده الله إلى جده عبد المطلب. وقيل : ضلاله من حليمة مرضعته. وقيل : ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب ، ولبعض المفسرين أقوال فيها بعض ما لا يجوز نسبته إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولقد رأيت في النوم أني أفكر في هذه الجملة فأقول على الفور : ﴿ووجدك﴾ ، أي وجد رهطك ، ﴿ضآلا﴾ ، فهداه بك. ثم أقول : على حذف مضاف ، نحو : ﴿وسال القرية﴾ . وقرأ الجمهور : ﴿عآالا﴾ : أي فقيرا. قال جرير :

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٨٤

الله نزل في الكتاب فريضةلابن السبيل وللفقير العائل

كرر لاختلاف اللفظ. وقرأ اليماني : عيلا ، كسيد ، بتشديد الياء المكسورة ، ومنه قول أجيحة بن الحلاج :

وما يدري الفقير متى غناهوما يدري الغني متى يعيل

عال : افتقر ، وأعال : كثر عياله. قال مقاتل : ﴿فأغنى ﴾ رضاك بما أعطاك من الرزق. وقيل : أغناك بالقناعة والصبر. وقيل : بالكفاف. ولما عدد عليه هذه النعم الثلاث ، وصاه بثلاث كأنها مقابلة لها. ﴿فلا تقهر﴾ ، قال مجاهد : لا تحتقر. وقال ابن سلام : لا تستزله. وقال سفيان : لا تظلمه بتضييع ماله. وقال الفراء : لا تمنعه حقه ، والقهر هو التسليط بما يؤذي. وقرأ الجمهور : ﴿تقهر﴾ بالقاف ؛ وابن مسعود وإبراهيم التيمي : بالكاف بدل القاف ، وهي لغة بمعنى قراءة الجمهور. ﴿وأما السآال﴾ : ظاهره المستعطي ، ﴿فلا تنهر﴾ : أي تزجره ، لكن أعطه أو رده ردا جميلا. وقال قتادة : لا تغلظ عليه ، وهذه في مقابلة ﴿ووجدك عآالا فأغنى ﴾ ؛ فالسائل ، كما قلنا : المستعطي ، وقاله الفراء وجماعة. وقال أبو الدرداء والحسن وغيرهما :

٤٨٦

السائل هنا : السائل عن العلم والدين ، لا سائل المال ، فيكون بإزاء ﴿ووجدك ضآلا فهدى ﴾ .

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ ، قال مجاهد والكلبي : معناه بث القرآن وبلغ ما أرسلت به. وقال محمد بن إسحاق : هي النبوة. وقال آخرون : هي عموم في جميع النعم. وقال الزمخشري : التحديث بالنعم : شكرها وإشاعتها ، يريد ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء وما عدا ذلك ، انتهى. ويظهر أنه لما تقدم ذكر الامتنان عليه بذكر الثلاثة ، أمره بثلاثة : فذكر اليتيم أولا وهي البداية ، ثم ذكر السائل ثانيا وهو العائل ، وكان أشرف ما امتن به عليه هي الهداية ، فترقى من هذين إلى الأشرف وجعله مقطع السورة ، وإنما وسط ذلك عند ذكر الثلاثة ، لأنه بعد اليتيم هو زمان التكليف ، وهو عليه الصلاة والسلام معصوم من اقتراف ما لا يرضي الله عز وجل في القول والفعل والعقيدة ، فكان ذكر الامتنان بذلك على حسب الواقع بعد اليتيم وحالة التكليف ، وفي الآخر ترقى إلى الأشرف ، فهما مقصدان في الخطاب.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٨٤." (١)

"أنزل الكتاب على موسى ثم اعترض على بني إسرائيل فقال لهم خلال الكلام تجعلونه أنتم يا بني إسرائيل قراطيس وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا بالياء في الأفعال الثلاثة فمن رأى الاحتجاج على قريش رآه إخبارا من الله عز وجل بما فعلته اليهود في الكتاب ويحتمل أن يكون الإخبار بذلك لقريش أو للنبي صلى الله عليه وسلم وحده وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن فأمته متلقية ذلك و " قراطيس " جمع قرطاس أي بطائق وأوراقا والمعنى يجعلونه ذا قراطيس من حيث

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٨/٣٦٤

يكتب فيها وتوبيخهم بالإبداء والإخفاء هو على إخفائهم آيات محمد صلى الله عليه وسلم والإخبار بنبوته وجميع ما عليهم فيه حجة وقوله " وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم " قال مجاهد وغيره هي مخاطبة للعرب فالمعنى على هذا قصد ذكر منة الله عليهم بذلك أي علمتم يا معشر العرب من الهدايات والتحيد والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ولا آباؤكم

قال القاضي أبو محمد وقوله " وعلمتم ما لم تعلموا " يصلح على هذا المعنى لمخاطبة من انتفع بالتعليم ومن لم ينتفع به ويصح الامتنان بتعليم الصنفين وليس من شرط من علم أن يعلم ولا بد أما أن التعليم الكامل هو الذي يقع معه التعلم وقالت فرقة بل هي مخاطبة لبني إسرائيل والمعنى على هذا يترتب على وجهين أحدهما أن يقصد به الامتنان عليهم وعلى آبائهم بأن علموا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به لأن آباء المخاطبين من بني إسرائيل كانوا علموا أيضا وعلم بعضهم وليس ذلك في آباء العرب والوجه الآخر أن يكون المقصود منهم أي وعلمتم أنتم وآباؤكم ما لم تعلموه بعد التعليم ولا انتفعتم به لإعراضكم وضلالكم ثم أمره تعالى بالمبادرة إلى موضع الحجة أي قل الله هو الذي أنزل الكتاب على موسى ويحتمل أن يكون المعنى فإن جهلوا أو تحيروا أو سألوا أو نحو هذا فقل الله ثم أمره بترك من كفر وأعرض وهذه آية منسوخة

بآية القتال إن تأولت موادعة وقد يحتمل أن لا يدخلها نسخ إذا جعلت تتضمن تهديدا ووعيدا مجردا من موادعة والخوض الذهاب فيما لا تسبر حقائقه وأصله في الماء ثم يستعمل في المعاني المشكلة الملتبسة و " يلعبون " في موضع الحال

قوله عز وجل

سورة الأنعام ٩٢

قوله " هذا " إشارة إلى القرآن و " مبارك " صفة له و " مصدق "كذلك وحذف التنوين من " مصدق " للإضافة وهي إضافة غير محضة لم يتعرف بها مصدق ولذلك ساغ أن يكون وصفا لنكرة و " الذي " في موضع المفعول والعامل فيه مصدر ولا يصلح أن يكون " مصدق " مع حذف التنوين منه يتسلط على " الذي " ويقدر حذف التنوين للالتقاء وإنما جاء ذلك شاذا في الشعر في قوله

(فألفيته غير مستعتب

(١) ".

(١) المحرر الوجيز ـ موافق للمطبوع، ٣٧٩/٢

"وقيل: هو الأول بالتكوين، بيانه قوله إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون «١» والآخر بالتلقين، بيانه قوله يثبت الله الذين آمنوا «٢» الآية.

والظاهر بالتبيين بيانه يريد الله ليبين لكم «٣» والباطن بالتزيين بيانه وزينه في قلوبكم «٤» .

وقال محمد بن علي الترمذي: الأول بالتأليف والآخر بالتكليف والظاهر بالتصريف، والباطن بالتعريف.

وقال الجنيد: هو الأول بشرح القلوب، والآخر بغفران الذنوب، والظاهر بكشف الكروب، والباطن بعلم الغيوب.

وسأل عمر كعبا عن هذه الآية فقال: معناها أن علمه بالأول كعلمه بالآخر وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن.

وقيل: هو الأول بالهيبة والسلطان، والآخر بالرحمة والإحسان، والظاهر بالحجة والبرهان، والباطن بالعصمة والامتنان.

وقيل: هو الأول بالعطاء، والآخر بالجزاء، والظاهر بالثناء، والباطن بالوفاء.

وقيل: هو الأول بالبر والكرم، والآخر بنحلة القسم، والظاهر بإسباغ النعم، والباطن بدفع النقم.

وقيل: هو الأول بالهداية، والآخر بالكفاية، والظاهر بالولاية، والباطن بالرعاية.

وقيل: هو الأول بالانعام، والآخر بالإتمام، والظاهر بالإكرام، والباطن بالإلهام.

وقيل: هو الأول بتسمية الأسماء، والآخر بتكملة النعماء، والظاهر بتسوية الأعضاء، والباطن بصرف الأهواء.

وقيل: هو الأول بإنشاء الخلائق، والآخر بافناء الخلائق، والظاهر بإظهار الحقائق، والباطن بعلم الدقائق.

وقال الواسطي: لم يدع للخلق نفسا «٥» بعد ما أخبر عن نفسه أنه الأول والآخر والظاهر والباطن.

---

(١) سورة يس: ٨٢.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٧.

(٣) سورة النساء: ٢٦.

(٤) سورة الحجرات: ٧.

(٥) كذا في المخطوط.." [1]

"ومن قرأ بالتاء، فعلى المخاطبة لليهود، والمعنى: علمتم علما فلم يكن لكم علم لتضييعكم إياه، ولا لآبائكم لتضييعهم إياه، لأن من علم شيئا وضيعه، فليس له علم.

ويجوز أن يكون المعنى: وعلمتم علما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم، على الامتنان عليهم بإنزال التوراة عليهم، والأول: قول أهل التفسير.

﴿وهدى للناس﴾ وقف على قراءة من قرأ بالياء في ﴿تجعلونه﴾ وما بعده، ﴿ولاءاباآؤكم﴾ تمام عند نافع، ﴿قل الله﴾ التمام عند الفراء، لأن المعنى عنده: قل الله علمكم.

وقيل: المعنى: قل يا محمد: الله أنزله، ولا جواب لقوله: ﴿قل من أنزل الكتاب﴾.." [2]

"وقال آخرون: يعني مما أعد في الجنة لأهلها وما أعد في النار لأهلها (١).

وقال السدي وقتادة: يعني السوس في الثياب، والدود في الفواكه (٢).

٩ - قوله تعالى: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ القصد: استقامة الطريق، يقال: طريق قصد وقاصد إذا أداك إلى مطلوبك، وقصد بك ما تريد (٣)، واختلفوا في معنى هذه الآية، فأكثر المفسرين على أن المعنى: وعلى الله بيان قصد السبيل بالكتب والرسل والحجج (٤)، وهو قول جابر وقتادة

---

(١) انظر: "تفسير الطبري" ١٤/ ٨٣، والبغوي ٥/ ١١، وابن الجوزي ٤/ ٤٣٢، و"تفسير القرطبي" ١٠/ ٨٠، والخازن ٣/ ١٠٨، وأبي حيان ٥/ ٤٧٧.

(٢) ورد في "معاني القرآن" للنحاس ٤/ ٥٧، عن السدي، و"تفسير الثعلبي" ٢/ ١٥٤ ب، بنصه عن قتادة، و"تفسير القرطبي" ١٠/ ٨٠، وعنهما في الخازن ٣/ ١٠٨، عن قتادة، وأبي حيان ٥/ ٤٧٧، وهو قول غريب وتخصيص عجيب دون داع أو مناسبة، وهذا التفسير لا يليق بهذا المكان؛ لأن السياق في النعم والمنن، وحتى تخصيصه بما أعد في الجنة غير مناسب للسياق؛ فالحديث في معرض الامتنان على العباد مؤمنهم وكافرهم بالمركوبات، لذلك فالإطلاق أولى من كل هذه التخصيصات البعيدة عن السياق، وإن لزم الأمر إلى تخصيص، فينبغي أن يكون التخصيص بجنس الممتن به؛ لقوة القرينة، فيكون المقصود

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢٢٩/٩

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٢١٠١/٣

بـ ﴿ما لا تعلمون﴾، أي: من جنس المركوبات، ويؤيد هذا التخصيص ما ألهم الله البشر من اختراع وسائل النقل المتعددة - لم تكن موجودة بل ولا متصورة يومئذ، كالسيارات والقطارات والطائرات والمركبات الفضائية، وقد أشار إلى ذلك جماعة من العلماء المعاصرين. انظر: "تفسير سيد قطب" ٤/ ٢١٦١، و"الطاهر بن عاشور" ١٤/ ١١١، و"الشنقيطي" ٣/ ٢١٨.

(٣) انظر: (قصد) في "المحيط في اللغة" ٥/ ٢٥٦، و"المفردات" ص ٦٧٢، و"اللسان" ٣٦٤٢.

(٤) انظر: "تفسير مقاتل" ١/ ٢٠٠ ب، والطبري ١٤/ ٨٤، والسمرقندي 2/ ٢٢٩، و"تفسير الماوردي" ٣/ ١٨١، والبغوي ٥/ ١١، وابن عطية ٨/ ٣٧٦، و"تفسير القرطبي" ١٠/ ٨١، والخازن ٣/ ١٠٨، وأبي السعود ٥/ ٩٨.." [١]

"بأصوافها إلى أن يموتوا، ويقال: إلى الحين بعد الحين (١).

٨١ - قوله تعالى: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالا﴾ قال عطاء عن ابن عباس: يريد ظلال الغمام والسحاب (٢)؛ كما قال: ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ [البقرة: ٥٧] يريد لتقيكم من حر الشمس ومن شدة البرد، وقال الكلبي: ﴿مما خلق﴾ يعني البيوت (٣)، وقال قتادة: يعني الشجر (٤)، واختاره الزجاج. فقال: أي جعل لكم من الشجر ما تستظلون به (٥) (٦).

وقوله: ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾ قالوا: يعني الغيران والأسراب (٧)، وواحد الأكنان كن، على قياس حمل

= وورد في "معاني القرآن" للنحاس ٤/ ٩٧، بلفظه، وأورده السيوطي في "الدر المنثور" ٤/ ٢٣٧، وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(١) "معاني القرآن" للفراء ٢/ ١١٢. بنصه.

(٢) انظر: "تفسير ابن الجوزي" ٤/ ٤٧٧، وأبي حيان ٥/ ٥٢٤، و"تفسير الألوسي" ١٤/ ٢٠٥

(٣) انظر: "تفسير ابن الجوزي" ٤/ ٤٧٧، وأبي حيان ٥/ ٥٢٤، و"تفسير الألوسي" ١٤/ ٢٠٥

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٢/١٣

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ١٥٥ بلفظه من طريقين، ورد في "تفسير السمرقندي" ٢/ ٢٤٥ بلفظه، وانظر: "تفسير ابن الجوزي" ٤/ ٤٧٧، وأبي حيان ٥/ ٥٢٤، و"الدر المنثور" ٤/ ٢٣٨، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) "معاني القرآن وإعرابه" ٣/ ٢١٥، بنصه.

(٦) هذه الأقوال -في معنى الظلال- من اختلاف التنوع، ولا يجوز تخصيصها بأي منها، والأولى حمله على العموم؛ لعدم وجود مخصص، ولكونه جاء على سبيل الامتنان، والمنة حاصلة بكل ذلك، لذلك فالأرجح ما قاله أبو سليمان الدمشقي: إنه كل شيء له ظل؛ من حائط، وسقف، وشجر، وجبل، وغير ذلك. "تفسير ابن الجوزي" ٤/ ٤٧٧.

(٧) ورد في "تفسير السمرقندي" ٢/ ٢٤٥، بنصه، والثعلبي ٢/ ١٦١ أ، بنصه، وانظر: =." [١]

"وهذا قول عامة المفسرين (١).

قال أبو إسحاق: (وروي عن الحسن أنه قال: (يعني عيسى عليه السلام، كان والله سريا من الرجال) (٢). فعرف الحسن أن من العرب من يسمي النهر سريا (٣). فرجع إلى هذا القول. ولا خلاف بين أهل اللغة أن السري: النهر بمنزلة الجدول) (٤). وأنشد للبيد (٥):

---

(١) "تفسير القرآن" للصنعاني ٢/ ٧، "جامع البيان" ١٦/ ٦٩ - ٧٠، "النكت والعيون" ٣/ ٣٦٥، "المحرر الوجيز" ١١/ ٢٣، "تفسير القرآن العظيم" ٣/ ١٢١.

وجمهور المفسرين على ذلك وهو ما رجحه ابن جرير الطبري رحمه الله في "تفسيره" ١٦/ ٧١، وابن كثير ٣/ ١٢١. وقال الشنقيطي في "أضواء البيان" ٤/ ٢٤٨: أظهر القولين عندي أن السري في الآية النهر الصغير، والدليل على ذلك أمران أحدهما: القرينة من القرآن فقدله: ﴿فكلي واشربي﴾ قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به. الأمر الثاني: حديث جاء بذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول فيه: "إن السرى الذي قال الله لمريم: ﴿قد جعل ربك تحتك سريا﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه". فهذا الحديث المرفوع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وإن كانت طرقه لا يخلو شيء منها من ضعف؛ أقرب إلى الصواب من دعوى أن السري عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٥٩/١٣

(٢) "جامع البيان" ١٦/ ٧٠، "النكت والعيون" ٣/ ٣٦٥، "معالم التنزيل" ٥/ ٢٢٦، "تفسير القرآن العظيم" ٣/ ١٣١، "زاد المسير" ٥/ ٢٢٢.

(٣) السري: الجدول وهو قول جميع أهل اللغة.

انظر: "تهذيب اللغة" (سري) ٢/ ١٦٨٠،"لسان العرب" (سرا) ٤/ ٢٠٠٢، "المفردات في غريب القرآن" (سري) ص ٢٣١.

(٤) "معاني القرآن" للزجاج ٣/ ٣٢٥.

(٥) البيت للبيد وقد ورد في معلقته. عرض: الناحية. ومسجورة: عين مملوءة. القلام: نبت ينبت على الأنهار، قيل هو نوع من الحمض.

انظر "ديوانه" ص ١٧٠، "شرح القصائد العشر" للتبريزي ص ١٧٦، "معاني القرآن" للزجاج ٣/ ٣٢٥، "الدر المصون" ٧/ ٥٨٤.." (١)

"هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إنما ذلك للكفار، ثم قرأ: ﴿وهل نجازي إلا الكفور (١)﴾ (٢) [سبأ: ١٧].

والظاهر يشهد لهذا القول وهو: أن الكفار لم (٣) يؤدوا حق النعمة حيث أشركوا به وعبدوا غيره، واستحقوا أن يسألوا عما أنعم عليهم توبيخا لهم؛ هل قاموا بالواجب فيه، أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكل بتوحيد المنعم (٤). وهذا معنى ما ذكره مقاتل، وهو قول الحسن.

---

(١) بياض في (ع).

(٢) وردت الرواية بمعناها عن الكلبي في "الدر المنثور" ٨/ ٦١٨ وعزاه إلى ابن مرويه، كما وردت من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في "بحر العلوم" ٣/ ٥٠٧، ووردت من غير ذكر الطريق في "التفسير الكبير" ٣٢/ ٨١، ولأبي بكر رواية خلاف رواية الكلبي من طريق أبي هريرة، ذكرها الطبري في "جامع البيان" ٣٠/ ٢٨٧ وهي في "صحيح مسلم" ٣/ ١٦٠٩: ح: ١٤٠: كتاب الأشربة: باب ٢٠، والشاهد منها: عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا الجوع يا رسول الله، قال: وأنا .. لأخرجني الذي أخرجكما .. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-فانطلق فجاءهم بعذق

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٢٦/١٤

فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه .. فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–لأبي بكر وعمر "والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة".

كما أخرجها البيهقي في "شعب الإيمان" ٤/ ١٤٤: ح: ٤٦٠٢ – ٤٦٠٥، ٤٦٠٦ من طريق أبي هريرة وطرق أخرى.

(٣) في (أ): (لو).

(٤) قال القاضي عياض: المراد: السؤال عن القيام بحق شكره، والذي نعتقده أن السؤال هنا سؤال تعداد النعم، وإعلام بالامتنان بها، وإظهار الكرامة بإسباغها؛ =." (١)

"صاحب الفضل الكبير على كثير من طلبة العلم، وغيرهم.

وأتقدم بوافر الشكر والامتنان إلى أستاذي المغفور له الدكتور محمد صالح التكريتي الذي تفضل بقبوله الإشراف على هذه الأطروحة، وتلطف برسم معالمها، وأردف بتقويم معوجها، فأفدت من غزير علمه، واستهديت بسديد رأيه في سبيل الوصول إلى هذه الحصيلة العلمية، رغم ما عاناه في مرضه العضال، إلى أن لقي وجه ربه، صابرا محتسبا، فجزاه الله عني خير الجزاء، وأسكنه فسيح جناته مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل الدكتور هاشم طه شلاش الذي لم يتأخر يوما في تقديم إرشاداته السديدة، وآرائه القيمة التي أغنت هذا البحث، وجعلته يرقى إلى الصورة التي صار عليها، وكان خير مرشد لي في أثناء مرض أستاذي المشرف، فجزاه الله عني كل خير، وأمد في عمره، وكلله بتاج الصحة والعافية، ووقاه من كل مكروه.

والشكر الجزيل أقدمه أيضا إلى أستاذي الجليل الدكتور عبد الجليل العاني لتوجيهاته الكريمة، وما أمدني به من مصادر وكتب قيمة من مكتبته العامرة التي لم يمنع عني شيء منها في حضوره أو غيابه.

وأتقدم بوافر الشكر والامتنان إلى كل من مد إلي يد العون، وساعدني على إنجاز هذا العمل، والوصول به إلى ما صار إليه، وأرجو الله تعالى أن يعينني على رد جميلهم، ويجزيهم عني خير الجزاء.

ولا أجد من الكلمات ما يوفي هذا البلد الكريم المصابر، وأهله الطيبين، أزال الله عنهم هذه الغمة، ودفع عنهم كيد الكائدين.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٤/٢٨٥

وختاما هذا عمل ابتغيت به مرضاة الله عز وجل، وادخرت ثوابه عنده، فإن كنت قد أحسنت فبتوفيقه وفضله ومنه، وإن كانت الأخرى فحسبي أنني بذلت من الجهد والصبر والمصابرة في سبيل إنجازه ما الله وحده به أعلم.

﴿واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحث طلعت صلاح الفرحان." (١)

"﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [الزخرف:٢٥]، والإكرام كقوله: ﴿ادخلوا الجنة﴾ [الأعراف:٤٩]، **والامتنان** كقوله: ﴿فامشوا في مناكبها﴾ [الملك:١٥]» (١).

وحين تكلم على قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ (٤٧) [البقرة:٤٧] ذكر أنه «للإطناب والتأكيد»، ثم بين أهمية تنوع الأساليب في كلام العرب، ومجيء القرآن على نظم هو غاية الفصاحة عندهم فقال:

«ومن البلاغة عند العرب العدول عن الإطناب إلى الإيجاز، وعن الإيجاز إلى الإطناب، وعن التجنيس إلى الإطباق، وعن الإطباق إلى التجنيس، وعن التصريح إلى التعريض، وعن التعريض إلى التصريح، وترك لزوم الفن الواحد من هذه الفنون. والله تعالى أنزل القرآن على نظم هو غاية الفصاحة عندهم على ما تعارفوه واعتادوه، بلسان عربي مبين» (٢).

٩ - اتبع المؤلف في تفسير الآيات الكريمة منهج التفسير بالمأثور، أي: تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة، أو بأقوال الصحابة والتابعين.

فمن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ [الفاتحة:٧] إذ قال: ﴿غير المغضوب عليهم:﴾ وهم اليهود لقوله تعالى في شأنهم: ﴿فباؤ بغضب على غضب﴾ [البقرة:٩٠]. ﴿ولا الضالين:﴾ النصارى لقوله تعالى: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾ [المائدة:٧٧]» (٣). وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولا﴾ [البقرة:٥٩] بين المراد بالظلم في الآية، واستدل لما ذهب إليه بآيتين أخريين، فقال: «و (الظلم) ههنا الكفر، كما في قوله: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ [الأنعام:٨٢]، ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان:١٣]» (٤).

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١/٧

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة: في قوله تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا﴾ [البقرة:١١١] قال: «و (هود) جمع هائد، كما أن (عوذا) جمع عائذ، وهو الناقة إذا وضعت وبعد ما تضع أياما، وفي الحديث: (ومعهم العوذ المطافيل)» (٥). وفي قوله تعالى: ﴿لمسجد أسس على﴾

---

(١) درج الدرر ٤٦.

(٢) درج الدرر ٥٢ - ٥٣.

(٣) درج الدرر ٥.

(٤) درج الدرر ٦٧.

(٥) درج الدرر ١٣٣.." [١]

"والذكر ما يضاد النسيان، وقد يكون ضد السكوت (١).

وظاهر (٢) الأمر يقتضي الوجوب لجواز انتفاء لفظ الأمر عن (٣) غير الواجب.

ولفظ (افعل) (٤) يحتمل عشرة معان منها:

الإيجاب كقوله: ﴿وأقيموا الصلاة﴾ [البقرة:٤٣] (٥)، والإرشاد كقوله: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ [البقرة:٢٨٢]، والإباحة كقوله: ﴿فانتشروا في الأرض﴾ [الجمعة:١٠]، والإعجاز كقوله: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة:٢٣] (٦)، والتهديد كقوله: ﴿اعملوا (٧)﴾ ما شئتم [فصلت:٤٠] (٨)، والسؤال كقوله: ﴿واعف (٩)﴾ عنا واغفر لنا [البقرة:٢٨٦] (١٠)، والندب كقوله: ﴿فكاتبوهم﴾ [النور:٣٣]، والحث على الاعتبار كقوله: ﴿فانظر (١١)﴾ كيف كان عاقبة المكذبين [الزخرف:٢٥]، والإكرام كقوله: (١٠ ظ) ﴿ادخلوا (١٢)﴾ الجنة [الأعراف:٤٩]، **والامتنان** كقوله: ﴿فامشوا في مناكبها﴾ [الملك:١٥].

والظاهر من الجميع الإيجاب، وإنما يحمل على غيره بدليل، ثم (١٣) هذا اللفظ يكون أمرا لمن هو دونه في الرتبة لصيغته (١٤) ولا يشترط إرادة الأمر؛ لأن الله تعالى أمر بذبح ابن إبراهيم ولم يرده، ولأن الإرادة انفصلت (١٥) عن الأمر، يقال: أريد أن تفعل (١٦) كذا ولكن لا آمرك به، فيفيد الإيجاب دون كونه مرادا لعدم الإرادة في النهي.

﴿نعمتي التي أنعمت عليكم:﴾ منتي التي مننت على آبائكم بالكتاب والرسول والمن

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٢٤/١

(١) ينظر: النكت والعيون ١/ ٩٨، وتفسير القرطبي ١/ ٣٣١.

(٢) في ب: وهو.

(٣) في ك وب: من.

(٤) في ك: لفعل، وبعدها في النسخ الأربع: وإن احتمل، بدل (يحتمل)، والسياق يقتضي ما أثبت.

(٥) ينظر: الصاحبي ٢٩٨، وتفسير القرطبي ١/ ٣٤٣.

(٦) ينظر: ص ٢٤، وتفسير القرطبي ١/ ٢٣٢، والإيضاح في علوم البلاغة ١٤٢.

(٧) في الأصل وع وب: واعملوا، والواو مقحمة.

(٨) ينظر: الصاحبي ٢٩٩، والإيضاح في علوم البلاغة ١٤٢.

(٩) النسخ الأربع: فاعف، وهو خطأ.

(١٠) ينظر: الصاحبي ٢٩٨.

(١١) مكانها في ب: ثم انظر.

(١٢) في الأصل وع وب: وادخلوا، وفي ك: فادخلوا، والواو والفاء مقحمتان.

(١٣) ساقطة من ع.

(١٤) في ع: كصيغته.

(١٥) في ب: تفصلت.

(١٦) في ك وع: تفصل.." [١]

"٥ - التهديد، كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ [فصلت:٤٠]. وكذلك في قوله تعالى: ﴿اعملوا على مكانتكم إني عامل﴾ [هود:٩٣] يقول: «فقال على سبيل التهديد» فذكر الآية.

٦ - السؤال، كقوله تعالى: ﴿واعف عنا واغفر لنا﴾ [البقرة:٢٨٦].

٧ - الندب، كقوله تعالى: ﴿فكاتبوهم﴾ [النور:٣٣].

٨ - الحث على الاعتبار، كقوله: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [الزخرف:٢٥].

٩ - الإكرام، كقوله تعالى: ﴿ادخلوا الجنة﴾ [الأعراف:٤٩].

١٠ - **الامتنان**، كقوله: ﴿فامشوا في مناكبها﴾ [الملك:١٥].

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١/١٤٢

ثم يقول: «والظاهر من الجميع الإيجاب، وإنما يحمل على غيره بدليل، ثم هذا اللفظ يكون أمرا لمن هو دونه في الرتبة لصيغته».

١١ - وخلال حديثه عن قول الله تعالى: ﴿انظر كيف﴾ [الإسراء:٤٨] يقول: «أمر على سبيل التعجب» (١)، فزاد هنا نوعا آخر من خروج الأمر عن حقيقته.

هـ-أسلوب الاستفهام:

أسلوب الاستفهام من الأساليب البيانية العظيمة التي عني بها القرآن عناية كبيرة لكونه وسيلة مهمة في إيصال الأفكار والأهداف، وتثبيت المفاهيم والاتجاهات، فهو أسلوب تربوي ناجح في زرع الفكرة أو المعلومة لدى المخاطب بأسلوب فائق لا تعقيد فيه؛ لأنه أوقع في النفس، وأدل على الإلزام، وهو في الحقيقة الاستخبار عن الشيء الذي لا علم لنا به.

ولقد وقف المؤلف رحمه الله تعالى أمام هذا الأسلوب، وكشف عن معانيه وأغراضه بعبارة مختصرة دالة على المقصود، ومن أبرز هذه الأغراض:

١ - التقرير: ومعناه حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده. (٢)

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿سل بني إسرائيل﴾ [البقرة:٢١١] يقول: «وفائدة السؤال تذكيرهم حالتهم الأولى وتقرير الأمر عند من لا يؤمن بالتنزيل». (٣) وكذلك في قوله تعالى: ﴿ومن يغفر الذنوب﴾ [آل عمران:١٣٥] يقول: «استفهام بمعنى التقرير». (٤)

٢ - الاستفهام الإنكاري: ومعناه النفي، والمقصود منه هو الإنكار على المخاطب فعل أمر قام به في الماضي أو يمكن أن يحدث في المستقبل.

والمثال عليه ما جاء في قول الله تعالى: ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي﴾

---

(١) درج الدرر ١٦٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٣٧٥.

(٣) الأصل (٤٧ و).

(٤) الأصل (٧٤ و).." [1]

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٣٦/٢

"﴿تجري لمستقر لها﴾ [يس:٣٨].

٣ - ﴿رواسي:﴾ هي الجبال الراسية، جعلها الله تعالى للأرض كالأوتاد، فهي من السهلة بمنزلة العصب، والعظم من اللحم؛ ليعتمد الرخو الصلب، فلا تنحل، والصعيد والأرض يتناول السهل والجبل.

﴿زوجين اثنين:﴾ الذكر والأنثى.

إن كان المراد بالثمرات ثمرات النفوس، والمتشابهات: المتجانسات. وإن كان ثمرات النبات، ووجه التأكيد: نفي التوحيد، كما في قوله: ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ [النحل:٥١].

ويحتمل: أن المراد بالزوجين اثنين: الرطب واليابس، أو الجيد والرديء، أو المستطاب والمستبشع، أو الربعي والحرفي، أو ما يصلح للناس والدواب.

٤ - ﴿قطع متجاورات:﴾ عرصات متلاصقات، وفائدتها: **الامتنان**، أو التنبيه على لطف الصنعة في المخالفة مع طبائعها، مع قرب المجاورة في حق الطوالع والغوارب، والرياح والأمطار.

﴿صنوان:﴾ جمع صنو: مثلها النابت من أصلها. والفائدة في ذكر الصنوان، وغير الصنوان **الامتنان** بالنوعين، أو التنبيه على أن الفرع معدوم وموهوم، أو مظنون.

٥ - ﴿وإن تعجب فعجب قولهم:﴾ عجبوا لبعده عن قياس العقل.

﴿أإنا لفي خلق جديد:﴾ أي: إنا لنبعث في خلقة جديدة.

﴿أولئك:﴾ إشارة إلى المتعجبين.

﴿الأغلال:﴾ جمع غل، وهو طوق أسر وصغار، والمراد به الذنوب، والذي أعد لهم من أغلال النار في دار القرار.

٦ - ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة:﴾ بإكفار قبل الإيمان لمن قدر له الإيمان، وقبل امتياز الخبيث من الطيب، وليس ذلك من سنة الله (١٧٢ و) تعالى؛ لأنه (١) ﴿قد خلت من قبلهم المثلات﴾ والأشباه، والنظائر، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ [الأحزاب:٦٢]؛ لأن الأمم لم يهلكوا إلا بعد امتيازهم من المؤمنين.

عن ابن المسيب (٢) قال: لما نزلت ﴿وإن ربك لذو مغفرة. . .﴾ الآية، قال عليه السلام:

(١) ساقطة من ع.

(٢) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، سيد التابعين، توفي سنة ٩٤ هـ. ينظر: المعارف ٤٣٧، وتهذيب الكمال ١١/ ٦٦، والعبر في خبر من غبر ١/ ٨٢.." (١)

"وقد اكتريت بمكة جمل أعرابى للحج فقال: أعطنى من سطاتهنه، أراد من خيار الدنانير.

أو عدولا، لأن الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض لتكونوا شهداء على الناس روى «أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته، فيزكيهم ويشهد بعد التهم «١» » وذلك قوله تعالى: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) . فإن قلت: فهلا قيل لكم شهيدا وشهادته لهم لا عليهم «٢» ؟

قلت: لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له، جيء بكلمة الاستعلاء. ومنه قوله تعالى: (والله على كل شيء شهيد) ، (كنت أنت الرقيب عليهم وأنت عدى كل شيء شهيد) . وقيل: لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخيار ويكون الرسول عليكم شهيدا يزكيكم ويعلم بعدالتكم. فإن قلت: لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت آخرا «٣» ؟ قلت: لأن الغرض في

(١) . موقوف: أخرجه الطبري عن زيد بن أسلم موقوفا. وأخرجه في تفسير النسائي من قول السدى أيضا.

وفي البخاري من حديث أبى سعيد الخدري. قال «يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول:

هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول:

محمدا وأمته. فيشهدون أنه بلغ ثم قرأ (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) - الآية ورواه البيهقي في البعث والنشور من رواية أبى معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١٤٨/٢

عليه وسلم يجيء النبي يوم القيامة ومعه الثلاثة والأربعة والرجلان، حتى يجيء النبي وليس معه أحد، فتدعى أمة محمد فيشهدون أنهم بلغوا.

فيقال لهم: وما علمكم أنهم بلغوا فيقولون: جاءنا رسولنا بكتاب أخبرنا فيه أنهم قد بلغوا فصدقنا. قال فيقال:

صدقتم. وذلك قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .

(٢) . قال محمود رحمه الله: «فان قلت: فهلا قيل لكم شهيدا وشهادته لهم لا عليهم ... الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله: وجه الاستدلال بالآية أنه وصف الله تعالى في أولها بالرقيب وفي آخرها بالشهيد على وجه التخصيص أولا ثم التعميم ثانيا: وإنما ينتظم التعميم والتخصيص مع اتحاد مؤدى الرقيب والشهيد، إذ الآية في مثل قول القائل لمن شكره: كنت محسنا إلى وأنت بكل أحد محسن. وكأنه لما قال: (كنت أنت الرقيب عليهم)

وكان ذلك مخصصا لرقيبته تعالى على بنى إسرائيل، أراد أن يصفه بما هو أهله حتى ينفى وهم الخصوصية فقال في التقدير: وأنت على كل شيء كذلك، فوضع «شهيدا» موضع «كذلك» المشار به إلى رقيبته، فلا يتم الاستدلال بها إلا على هذا الوجه.

وفيه غموض على كثير من الأفهام والله الموفق.

(٣) . قال محمود رحمه الله: «فان قلت: لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت آخرا ... الخ؟» قال أحمد رحمه الله:

لأن المنة عليهم في الطرفين، ففي الأول بثبوت كونهم شهداء وفي الثاني بثبوت كونهم مشهودا لهم بالتزكية خصوصا من هذا الرسول المعظم ولو قدم شهيدا لانتقل الغرض إلى الامتنان على النبي عليه الصلاة والسلام بأنه شهيد. وسياق الخطاب لهم والامتنان عليهم يأباه. وإنما أخذ الزمخشري الاختصاص من التقديم لأن فيه إشعار بالأهمية والعناية، وكثيرا ما يجرى أى ذلك في أثناء كلامه، وفيه نظر.." [1]

"لتفاوت أحوال المنفقين. أو يضاعف سبع المائة ويزيد عليها أضعافها لمن يستوجب ذلك.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٢]

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١/١٩٩

الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢٦٢)

المن أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقا له: وكانوا يقولون: إذا صنعتم صنيعة فانسوها. ولبعضهم:

وإن امرأ أسدى إلى صنيعة ... وذكرنيها مرة للئيم «١»

وفي نوابغ الكلم: صنوان «٢» من منح سائله ومن، ومن منع نائله وضن. وفيها: طعم الآلاء «٣» أحلى من المن وهي أمر من الآلاء مع المن. والأذى: أن يتطاول عليه بسبب ما أزال إليه: ومعنى «ثم» إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس

---

(١) . يقول: وإن رجلا أعطانى عطية وذكرني بها مرة واحدة، للئيم. أى بليغ في اللؤم والخسة.

(٢) . قال محمود: «في نوابغ الكلم صنوان ... الخ» قال أحمد: «ثم» في أصل وضعها تشعر بتراخي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان وبعد ما بينهما، والزمخشري يحملها على التفاوت في المراتب والتباعد بينهما، حيث لا يمكنه حملها على التراخي في الزمان لسياق يأبى ذلك كهذه الآية: وحاصله: أنها استعيرت من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة، وعندي فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها: وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول في استصحابه، فهي على هذا لم تخرج عن الاشعار ببعد الزمن. ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقائه وعليه حمل قوله تعالى (ثم استقاموا) أى داموا على الاستقامة دواما متراخيا ممتد الأمد، وتلك الاستقامة هي المعتبرة، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى والشهوات. وكذلك قوله: (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) أى يدومون على تناسى الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الاذاية وتقليد المنن بسببه، ثم يتوبون، والله أعلم. وقريب من هذا أو مثله أن السين يصحب الفعل لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه، ثم ورد قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) . وقد حكى الله تعالى في مثل هذه الآية (الذي خلقني فهو يهدين) فليس إلى حمل السين على تراخى زمان وقوع الهداية له من سبيل، فيتعين المصير إلى حملها على تنفس دوام الهداية الحاصلة له وتراخى بقائها وتمادى أمدها. ولعل الزمخشري وأشار إلى هذا المعنى في آية

إبراهيم عليه السلام، فأمل هذا الوجه فهو أوجه مما حمل الزمخشري عليه آية البقرة. وهذه الآية أبقى على الحقيقة وأقرب إلى الوضع على أحسن طريقة والله الموفق. [.....]

(٣) . قوله «وفيها طعم الآلاء» في الصحاح: الآلاء النعم، واحدها «ألا» بالفتح. وفيه أيضا: الألاء- بالفتح- شجر حسن المنظر مر الطعم اه. واسم النعم على زنة أسباب. والظاهر أن اسم الشجر على زنة سحاب، فليحرر ما في النوابغ. (ع)." (١)

"بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادى بعضكم بعضا ويحاربه، أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام. كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام. وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخوانا متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله: وقيل: هم الأوس والخزرج، كانا أخوين لأب وأم، فوقعت بينهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وكنتم على شفا حفرة من النار وكنتم مشفين «١» على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر فأنقذكم منها بالإسلام. والضمير للحفرة أو للنار أو للشفا «٢» وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة وهو منها كما قال:

كما شرقت صدر القناة من الدم «٣»

---

(١) . قوله «وكنتم مشفين» أى مشرفين. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) . قال محمود: «الضمير للشفا وهو مذكر وإنما أنثه للاضافة ... الخ» قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الحفرة فلا يحتاج إلى تأويله المذكور، كما تقول: أكرمت غلام هند، وأحسنت إليها. والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم، لأنها التي يمتن بالانقاذ منها حقيقة. وأما الامتنان بالانقاذ من الشفا فلا يستلزمه الكون على الشفا غالبا، من الهوى إلى الحفرة، فيكون الانقاذ من الشفا إنقاذا من الحفرة التي يتوقع الهوى فيها، فاضافة المنة إلى الانقاذ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع، مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو على في التعاليق من ضرورة الشعر.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣١١/١

خلاف رأيه في الإيضاح. نقله ابن يسعون. وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذي كانوا عليه، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالانقاذ منها، وقد بينا في أدراج هذا الكلام ما يسوغ **الامتنان** عليهم بالانقاذ من الحفرة، لأنهم كانوا صائرين إليها غالبا لولا الانقاذ الرباني. ألا ترى إلى قوله عليه السلام «المرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» وإلى قوله تعالى: (أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم) وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سببا مؤديا إلى انهياره في نار جهنم، مع تأكيد ذلك بقوله: (هار) والله أعلم.

(٣) .

فلو كنت في جب ثمانين قامة ... ورقيت أسباب السماء بسلم

ليستدرجنك القول حتى تهره ... وتعلم أنى عندكم غير مفحم

وتشرق بالقول الذي قد أذعته ... كما شرقت صدر القناة من الدم

للأعشى ميمون بن قيس وفيه وجهان: الأول أنه يصف رجلا بإفشاء السر، وأنه لو تحيل لكتمه لم يقدر، أى لو بالغت في الكتمان حتى كأنك كنت في بئر عميق. فالعدد كناية عن ذلك، ثم رقيت من قعره وبلغت أسباب السماء، أى أبوابها. وقوله «بسلم» مبالغة في التشبيه، كأنه صعد حقيقة على سلم «ليستدرجنك» بالنون المخففة، أى ليستنزلنك «القول» من السماء درجة درجة إلى قعر البئر كما كنت ويفسد تحيلك، فتهره أى تقوله. ودرج الصبى:

إذا قارب بين خطاه. ودرج القوم: مات بعضهم إثر بعض. وهر الكلب هريرا إذا صوت. وفيه إشعار بتشبيهه بالكلب النابح. وتعلم، أى وأجيب أنا عن قولك فتعلم انى غير عاجز عن الجواب فيما بينكم. وروى «عنكم» بدل «عندكم» وهي هي. ورجع إلى بيان استدراج القول له فقال: وتشرق بالقول الذي قد أذعته ونشرته عنى.

وشرق: إذا غص بريقه أو نحوه. وذاع الخبر ذيعا وذيوعا: انتشر. وأذاعه: نشره. أى لم تقدر على ابتلاعه وكتمانه كما لم يبلغ صدر القناة أى الرمح الدم الذي يكون عليه من القتيل. وشبه القول الذي لم يقدر على كتمانه بالشيء الذي لم يقدر على ابتلاعه، فاستعار الشرق للعجز عن الكتمان على طريق التصريحية. وشبه الشرق الأول بالثاني ليفيد ضمنا أن قوله كالدم للمبالغة في عدم إمكان الكتمان. الوجه الثاني أن معناه لو كنت متباعدا عنى كأنك في قعر البئر ورقيت منه إلى السماء ليقربنك القول إلى شيئا فشيئا حتى تهره، أى تكرهه وتبغضه، وتعلم أنى عندكم غير عاجز عن الكلام الذي يقربك إلى، وتشرق

بالقول الذي قد أذعته أنا عنك فالتاء على هذا للمتكلم، أى لم تقدر على استماعه ودخوله أذنك كما لم تقدر صدر القناة على ابتلاع الدم. وصدر القناة مذكر. ولكن اكتسب التأنيث من المضاف إليه، فلذلك أنث فعله وقال شرقت، وقيل القناة هنا مجرى الماء، وأين هي من الدم.." (١)

"إلا ضررا مقتصرا على أذى بقول من طعن في الدين أو تهديد أو نحو ذلك وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر ثم لا ينصرون ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم. وفيه تثبيت لمن أسلم منهم، لأنهم كانوا يؤذونهم بالتلهى بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم بأنهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالى به، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل. فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: (ثم لا ينصرون) ؟ «١» قلت عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فأى فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت:

لو جزم لكان نفى النصر مقيدا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار. وحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر. فإن قلت: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فما معنى التراخي في ثم؟ قلت: التراخي في المرتبة لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار. فإن قلت: ما موقع الجملتين أعنى (منهم المؤمنون) و (لن يضروكم) ؟ قلت: هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت، ولذلك جاءا من غير عاطف.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١١٢]

ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤ بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١١٢)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣٩٥/١

بحبل من الله في محل النصب على الحال، بتقدير: إلا معتصمين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله وهو استثناء من أعم عام الأحوال. والمعنى: ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في

---

(١) . قال محمود: «إن قلت هلا جزم المعطوف في قوله ثم لا ينصرون ... الخ» ؟ قال أحمد: وهذا من الترقي في الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقاتلة، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقا. ويزيد هذا الترقي بدخول ثم دون الواو، فإنها تستعار هاهنا للتراخي في الرتبة لا في الوجود، كأنه قال: ثم هاهنا ما هو أعلى في **الامتنان** وأسمح في رتب الإحسان، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون البتة، والله أعلم.." [١]

"لتبيينه. أو يقدر ما كنتم تخفون، وحذفه لتقدم ذكره. أو لا يقدر ويكون المعنى. يبذل لكم البيان، ومحله النصب على الحال، أى مبينا لكم. وعلى فترة متعلق بجاءكم، أى جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحى أن تقولوا كراهة أن تقولوا فقد جاءكم متعلق بمحذوف، أى لا تعتذروا فقد جاءكم. وقيل: كان بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما خمسمائة وستون سنة. وقيل: ستمائة. وقيل: أربعمائة ونيف وستون. وعن الكلبي: كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم أربعة أنبياء.

ثلاث من بنى إسرائيل، وواحد من العرب: خالد بن سنان العبسي. والمعنى: **الامتنان** عليهم، وأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحى أحوج ما يكون إليه، ليهشوا إليه ويعدوه أعظم نعمة من الله، وفتح باب إلى الرحمة، وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم عن غفلتهم.

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٢٠ الى ٢٤]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمت الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين (٢٠) يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين (٢١) قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون (٢٢) قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤٠١/١

فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون (٢٤)

جعل فيكم أنبياء لأنه لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء «١»

---

(١) . قال محمود: «لم يبعث في أمة ما بعث في بنى إسرائيل من الأنبياء ... الخ» قال أحمد: والحامل على تفسير الملك بهذه التفاسير أن الله تعالى أنبأ في ظاهر الكلام أنه جعل الجميع ملوكا بقوله: (وجعلكم ملوكا) ولم يقل (وجعل فيكم ملوكا) كما قال: (جعل فيكم أنبياء) فلما عمم الملك فيهم، ولا شك أن الملك- المعهود هو الاستيلاء العام- لم يثبت لكل أحد منهم، فيتعين حمل الملك على ما كان ثابتا لجميعهم أو لأكثرهم من الأبعاض المذكورة.

هذا هو الباعث على تفسير الملك بذلك، والله أعلم. وهذا المعنى وإن لم يثبت لكل واحد منهم إلا أنه كان ثابتا لملوكهم وهم منهم، إذ إسرائيل لأب الأقرب يجمعهم، فلما كانت ملوكهم منهم وهم أقرباؤهم وأشياعهم وملتبسون بهم، جاز **الامتنان** عليهم بهذه الصنيعة، والمعنى مفهوم. وهذا بعينه هو التقرير السالف آنفا في قول اليهود والنصارى (نحن أبناء الله وأحباؤه) وما بالعهد من قدم. فان قلت: فلم لم يقل إذ جعلكم أنبياء لأن الأنبياء منهم كما قلت في الملوك؟ قلت: النبوة مزية غير الملك. وآحاد الناس يشارك الملك في كثير مما به صار الملك ملكا، ولا كذلك النبوة فان درجتها أرفع من أن يشرك من لم تثبت له مع الثابتة نبوته في مزيتها وخصوصيتها ونعتها، فهذا هو سر تمييز الأنبياء وتعميم الملوك، والله أعلم. [.....]."(١)

"أبو حنيفة بعموم قوله: صيد البر؟ قلت قد أخذ أبو حنيفة رحمه الله بالمفهوم من قوله: (وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما) لأن ظاهره أنه صيد المحرمين دون صيد غيرهم، لأنهم هم المخاطبون فكأنه قيل: وحرم عليكم ما صدتم في البر، فيخرج منه مصيد غيرهم، ومصيدهم حين كانوا غير محرمين. ويدل عليه قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) وقرأ ابن عباس رضى الله عنه: وحرم عليكم صيد البر، أى الله عز وجل. وقرئ (ما دمتم) بكسر الدال، فيمن يقول دام يدام.

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٩٧ الى ٩٨]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦١٩/١

جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم (٩٧) اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم (٩٨)

البيت الحرام عطف بيان على جهة المدح، لا على جهة التوضيح، كما تجيء الصفة كذلك قياما للناس انتعاشا لهم «١» في أمر دينهم ودنياهم، ونهوضا إلى أغراضهم ومقاصدهم في معاشهم ومعادهم، لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهم، وأنواع منافعهم. وعن عطاء ابن أبى رباح: لو تركوه عاما واحدا لم ينظروا ولم يؤخروا والشهر الحرام الشهر الذي يؤدى فيه الحج، وهو ذو الحجة، لأن لاختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأنا قد عرفه الله تعالى. وقيل عنى به جنس الأشهر الحرم والهدي والقلائد والمقلد منه خصوصا

---

(١) . قال محمود: «معنى قياما للناس: انتعاشا لهم في أمر دينهم ودنياهم ... الخ» قال أحمد: وفي هذه الآية ما يبعد تأويلين من التأويلات الثلاثة المذكورة في قوله أول هذه السورة (لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد) فان حمل القلائد ثم على ظاهرها، وتأويل صرف الإحلال إلى مواقعها من المقلد- كقوله: (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) يريد مواقع الزينة، والنهي عن إحلال القلائد يشبهه، كأنه قال: لا تحلوا قلائدها فضلا عنها- متعذر في هذه الآية، لأنها وردت في سياق الامتنان بما جعله الله قياما للناس من هذه الأمور المعدودة، وقد خص المنة بالبدن في قوله: (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ...) الآية ولا يليق بسياق الامتنان الخروج من الأعلى إلى الأدنى، حتى يقع الامتنان بالمقلد ثم بالقلائد، بل ذلك لائق في سياق النهى أن يخرج من النهى عن الأعلى إلى التشديد بالنهى عن الأدنى. وأما التأويل الآخر- وهو بقاء القلائد على حقيقتها وصرف الإحلال المنهي عنه إليها حقيقة، أى لا تتعرضوا للقلائد ولا تنتفعوا بها، كما قال عليه الصلاة والسلام «ألق قلائدها في دمها وخل بين الناس وبينها» - فمتعذر أيضا بما بعد به الذي قبله. وأما التأويل الثالث- وهو حملها على ذوات القلائد- فلائق بالاثنين فيتعين المصير إليه. ومن ثم لم يذكر الزمخشري في هذه الآية سواء. ووجه صلاحيته وظهوره فيهما: أن الغرض في سياق النهى إفراده بالذكر وتخصيصه بالنهى، بعد أن اندرج مع غيره في النهى، فكأنه نهى عنه لخصوصيته مرتين. والغرض في سياق الامتنان أيضا ذلك، وهو تكرير المنة به مندرجا

في العموم ومخصوصا بالذكر. وأيضا فيليق في الامتنان الترقي من الأدنى إلى الأعلى، بخلاف النهى. والله أعلم.." (١)

"يسومونكم؟ قلت: هو استئناف لا محل له. ويجوز أن يكون حالا من المخاطبين أو من آل فرعون. وذلكم اشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب. والبلاء: النعمة أو المحنة. وقرئ: يقتلون. بالتخفيف.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٤٢]

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين (١٤٢)

وروى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم، أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك. وقيل: أوحى الله تعالى إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك. وقيل: أمره الله أن يصوم ثلاثين يوما، وأن يعمل فيها بما يقربه من الله ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها. ولقد أجمل ذكر الأربعين في سورة البقرة، وفصلها هاهنا. وميقات ربه ما وقته له من الوقت وضربه له. وأربعين ليلة نصب على الحال أى تم بالغا هذا العدد. وهارون عطف بيان لأخيه. وقرئ بالضم على النداء اخلفني في قومي كن خليفتي فيهم وأصلح وكن مصلحا. أو أصلح ما يجب أن يصلح من أمور بنى إسرائيل، ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٤٣]

ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين (١٤٣)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٨١/١

لميقاتنا لوقتنا الذي وقتنا له وحددنا. ومعنى اللام الاختصاص، فكأنه قيل: واختص مجيئه بميقاتنا، كما تقول: أتيته لعشر خلون من الشهر وكلمه ربه من غير واسطة «١» كما يكلم

---

(١) . قال محمود: «معناه كلمه من غير واسطة ... الخ» قال أحمد: وهذا تصريح منه يخلق الكلام، كما هو معتقد المعتزلة، والذي يخص به هذه الآية من وجره الرد عليه: أنها سيقت مساق **الامتنان** على موسى باصطفاء الله له وتخصيصه إياه بتكليمه، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف والأصوات في بعض الأجرام واستماع موسى لذلك، لكان كل أحد يساوى موسى عليه السلام في ذلك، بل كان آحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام آثر بهذه المزية وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام، لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاها خلقا في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت مزيتهم أظهر وخصوصيتهم أوفر. ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه الصلاة والسلام بهذه المزية، فلا يحمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها، وكما أجزنا من المعقول أن ترى ذات الباري سبحانه وتعالى وإن لم يكن جسما، فكذلك نجيز أن يسمع كلامه وإن لم يكن حرفا ولا صوتا.

والكلام في هذه العقيدة طويل، والشوط بطين. وهذه النكتة هي الخاصة بهذه الآية، والله الموفق.."

(١)

"الفاعلين فعل أولى الجهل والسفه. كما قال يوسف لإخوته هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل. أو الذاهبين عن الصواب.

أو الناسين، من قوله أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى وكذب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه، وبرأ ساحته، بأن وضع الضالين موضع الكافرين ربأ بمحل من رشح للنبوة عن تلك الصفة، ثم كر على امتنانه عليه بالتربية، فأبطله من أصله واستأصله من سنخه «١» ، وأبى أن يسمى نعمته إلا نقمة. حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بنى إسرائيل لأن تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت، وتعبيدهم: تذليلهم واتخاذهم عبيدا. يقال: عبدت الرجل وأعبدته، إذا اتخذته عبدا. قال:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٥١/٢

علا م يعبدني قومي وقد كثرت ... فيهم أباعر ما شاءوا وعبدان «٢»

فإن قلت: إذا جواب وجزاء معا، والكلام وقع جوابا لفرعون، فكيف وقع جزاء قلت:

قول فرعون: وفعلت فعلتك فيه معنى: إنك جازيت نعمتي بما فعلت، فقال له موسى: نعم فعلتها مجازيا لك، تسليما لقوله، لأن نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء.

فإن قلت: لم جمع الضمير في منكم وخفتكم؟ مع إفراده في تمنها وعبدت؟ قلت: الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، بدليل قوله إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما الامتنان فمنه وحده، وكذلك التعبيد. فإن قلت: تلك إشارة إلى ماذا، وأن عبدت ما محلها من الإعراب؟ قلت: تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة، لا يدرى ما هي إلا بتفسيرها. ومحل أن عبدت الرفع عطف بيان لتلك، ونظيره قوله تعالى وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع والمعنى: تعبيدك بنى إسرائيل نعمة تمنها على. وقال

---

(١) . قوله «واستأصله من سنخته» في الصحاح «السنخ» الأهل، وسنخ في العلم سنوخا رسخ: وسنخ الدهر- بالكسر-: لغة في زنخ، إذا فسد وتغيرت ريحه. يقال: بيت له سنخة وسناخة اه. (ع)

(٢) . علام: استفهام إنكارى عن العلة، أى: على أى شيء. وأعبدت الرجل وعبدته: إذا اتخذته عبدا. والأباعر:

جمع بعير، يطلق على الذكر والأنثى من الإبل. والعبد: يجمع على عبدان بالكسر والضم وعبدى، بتشديد الدال مقصورا وممدودا. ومعبودا، وعباد، وأعبد، وعبيد، وعبد بضمتين وبفتحتين، يقول: لأى شيء يتخذونى عبدا، والحال أنه كثرت فيهم الإبل والعبيد بسببي، فليتخذوا منها ما شاءوا: بدل من الأباعر أو واقع موقع المصدر لكثرت، دلالة على التكثير. وفي هذه الحال: تهكم بهم ودلالة على حمقهم. ويجوز أن المعنى: والحال أن بعضهم كالأباعر، وبعضهم عبيد، فليكتفوا ببعضهم عنى. وقيل: يجوز أن التقييد بهذه الحالة، لأنها التي حملتهم على التكبر عليه.." (١)

"وكلمة عوراء، لأن الكلمة الحسنة ترشد، والسيئة تغوى. ونحوه قوله تعالى لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر فوصفها بالبصارة، كما وصفها بالإبصار. وقرأ على بن الحسين رضى الله عنهما وقتادة: مبصرة، وهي نحو: مجبنة ومبخلة ومجفرة «١» ، أى:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣٠٦/٣

مكانا يكثر فيه التبصر.

[سورة النمل (٢٧) : آية ١٤]

وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (١٤)

الواو في واستيقنتها واو الحال، وقد بعدها مضمرة، والعلو: الكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى، كقوله تعالى فاستكبروا وكانوا قوما عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون وقرئ: عليا، وعليا بالضم والكسر، كما قرئ عتيا، وعتيا. وفائدة ذكر الأنفس: أنهم جحدوها بألسنتهم، واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم. والاستيقان أبلغ من الإيقان، وقد قوبل بين المبصرة والمبين، وأى ظلم أفحش من ظلم من اعتقد و ا ستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله، ثم كابر بتسميتها سحرا بينا مكشوفا لا شبهة فيه.

[سورة النمل (٢٧) : آية ١٥]

ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين (١٥)

علما طائفة من العلم «٢» أو علما سنيا غزيرا. فإن قلت: أليس هذا موضع الفاء دون الواو، كقولك: أعطيته فشكر، ومنعته فصبر؟ قلت: بلى، ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد، كأنه قال: ولقد آتيناهما علما فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه «٣» والفضيلة وقالا الحمد لله الذي فضلنا

---

(١) . قوله «ومجفرة» في الصحاح «جفر الفحل عن الضراب» : إذا انقطع عنه. ومنه قيل: الصوم مجفرة، أى قاطع للنكاح. (ع)

(٢) . قال محمود: «معناه طائفة من العلم» قال أحمد: التبعيض والتقليل من التنكير، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر، فكذلك يرد للتعظيم من شأنه كما مر آنفا في قوله تعالى وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ولم يقبل الحكيم العليم. والغرض من التنكير التفخيم، كأنه قال: من لدن حكيم عليم، فظاهر قوله ولقد آتينا داود وسليمان علما في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتياه، كأنه قال: علما أى علم، وهو كذلك، فان علمهما كان مما يستعظم ويستغرب، ومن ذلك علم منطق الطير وسائر الحيوانات الذي خصهما الله تعالى به وكل علم بالاضافة إلى علم الله تعالى قليل ضئيل، والله أعلم.

(٣) . قال محمود: «بجلا نعمة الله عليهما من حيث قولهما فضلنا وتواضعا بقولهما على كثير ولم يقولا: على عباده، اعترافا بأن غيرهما يفضلهما، حذرا من الترفع.." (١)

"أن تدرك القمر فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره، ولا يسبق الليل النهار يعنى آية الليل آية النهار وهما النيران، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك، وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر، ويطلع الشمس من مغربها. فإن قلت: لم جعلت الشمس غير مدركة، والقمر غير سابق؟ قلت: لأن الشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة، والقمر يقطع فلكه في شهر، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطئ سيرها عن سير القمر خليقا بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره وكل التنوين فيه عوض عن المضاف إليه، والمعنى: وكلهم، والضمير للشموس والأقمار على ما سبق ذكره.

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون (٤١) وخلقنا لهم من مثله ما يركبون (٤٢) وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون (٤٣) إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين (٤٤)

ذريتهم أولاده م ومن يهمهم حمله. وقيل: اسم الذرية يقع على النساء، لأنهن مزارعها وفي الحديث أنه نهى عن قتل الذراري يعنى النساء من مثله من مثل الفلك ما يركبون من الإبل، وهي سفائن البر. وقيل الفلك المشحون سفينة نوح، ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها: أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم هم وذرياتهم، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، وأدخل في التعجيب من قدرته، في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. ومن مثله من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق فلا صريخ لا مغيث. أولا إغاثة. يقال: أتاهم الصريخ ولا هم ينقذون لا ينجون من الموت بالغرق إلا رحمة إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة إلى حين «١» إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق. ولقد أحسن من قال:

ولم أسلم لكي أبقى ولكن ... سلمت من الحمام إلى الحمام «٢»

وقرأ الحسن رضى الله عنه: نغرقهم،

ـــــــــــــــــــــــــ

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٣٥٢

(١ (. قال أحمد: من هنا أخذ أبو الطيب:

ولم أسلم لكي أبقى ولكن ... سلمت من الحمام إلى الحمام

لأنه تعالى أخبر أنهم إن سلموا من موت الغرق فتلك السلامة متاع إلى حين، أى: إلى أجل يموتون فيه، ولا بد.

(٢) . للمتنبي يقول: ولم أسلم من حوادث الدهر ومكاره الحرب لأجل أن أخلد، وإنما سلمت من الحمام- ككتاب-: أى الموت ببعض الأسباب إلى أن أموت ببعضها الآخر. أو منقلب إلى الموت ببعضها الآخر، لأنه لا خلود في الدنيا.." (١)

"كل هذا قد عرفنا، فما الأب؟ ثم رفض عصا كانت بيده «١» وقال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدرى ما الأب، ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه. فإن قلت: فهذا يشبه النهى عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته. قلت:

لم يذهب إلى ذلك، ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفا عندهم، فأراد أن الآية مسوقة في **الامتنان** على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره، وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعا له أو لإنعامه، فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله- على ما تبين لك ولم يشكل- مما عدد من نعمه، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له، واكتف بالمعرفة الجملية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت، ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن.

[سورة عبس (٨٠) : الآيات ٣٢ الى ٤١]

متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢) فإذا جاءت الصاخة (٣٣) يوم يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦)

لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٣٧) وجوه يومئذ مسفرة (٣٨) ضاحكة مستبشرة (٣٩) ووجوه يومئذ عليها غبرة (٤٠) ترهقها قترة (٤١)

يقال: صخ لحديثه، مثل: أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازا، لأن الناس يصخون لها يفر منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه، ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئا، وبدأ بالأخ، ثم بالأبوين لأنهما أقرب

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/ ١٨

منه، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب وأحب، كأنه قال: يفر من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته وبنيه. وقيل: يفر منهم حذرا من مطالبتهم بالتبعات.

يقول الأخ: لم تواسني بمالك. والأبوان: قصرت في برنا. والصاحبة: أطعمتنى الحرام وفعلت وصنعت. والبنون: لم تعلمنا ولم ترشدنا، وقيل: أول من يفر من أخيه: هابيل، ومن أبويه:

إبراهيم ومن صاحبته: نوح ولوط، ومن ابنه: نوح يغنيه يكفيه في الاهتمام به. وقرئ:

يعنيه أى يهمه مسفرة مضيئة متهللة، من أسفر الصبح: إذا أضاء. وعن ابن عباس رضى الله

---

(١) . أخرجه الطبري والطبراني في مسند الشاميين من طريق ابن وهب عن يونس وعمرو بن الحارث. ورواه الحاكم والبيهقي في الشعب في التاسع عشر من طريق صالح بن كيسان: وابن مردويه من رواية شعيب كلهم عن الزهري «أن إنسانا أخبره أنه سمع عمر فذكره. وله طريق أخرى من رواية حميد عن أنس أخرجها الحاكم. وروى الحاكم أيضا من وجه آخر عن عمر رضى الله عنه أنه سأل ابن عباس رضى الله عنهما عن الآية فقال: هو نبت الأرض مما تأكله الدواب والأنعام. ولا يأكله الناس.." (١)

"أنزل الكتاب على موسى، ثم اعترض على بني إسرائيل فقال لهم خلال الكلام تجعلونه أنتم يا بني إسرائيل قراطيس، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا» بالياء في الأفعال الثلاثة، فمن رأى الاحتجاج على قريش رآه إخبارا من الله عز وجل بما فعلته اليهود في الكتاب، ويحتمل أن يكون الإخبار بذلك لقريش أو للنبي صلى الله عليه وسلم وحده، وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن فأمته متلقية ذلك، وقراطيس جمع قرطاس أي بطائق وأوراقا والمعنى يجعلونه ذا قراطيس من حيث يكتب فيها، وتوبيخهم بالإبداء والإخفاء هو على إخفائهم آيات محمد عليه السلام والإخبار بنبوته وجميع ما عليهم فيه حجة وقوله: وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قال مجاهد وغيره هي مخاطبة للعرب، فالمعنى على هذا قصد ذكر منة الله عليهم بذلك أي علمتم يا معشر العرب من الهدايات والتحيد والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ولا آباؤكم.

قال القاضي أبو محمد: وقوله: وعلمتم ما لم تعلموا يصلح على هذا المعنى لمخاطبة من انتفع بالتعليم ومن لم ينتفع به، ويصح الامتنان بتعليم الصنفين، وليس من شرط من علم أن يعلم ولا بد، اما أن التعليم الكامل هو الذي يقع معه التعلم، وقالت فرقة بل هي مخاطبة لبني إسرائيل، والمعنى على هذا يترتب على

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٧٠٥

وجهين، أحدهما أن يقصد به **الامتنان** عليهم وعلى آبائهم بأن علموا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به، لأن آباء المخاطبين من بني إسرائيل كانوا علموا أيضا وعلم بعضهم، وليس ذلك في آباء العرب، والوجه الآخر أن يكون المقصود منهم أي وعلمتم أنتم وآباؤكم ما لم تعلموه بعد التعليم ولا انتفعتم به لإعراضكم وضلالكم ثم أمره تعالى بالمبادرة إلى موضع الحجة أي قل: الله هو الذي أنزل الكتاب على موسى ويحتمل أن يكون المعنى فإن جهلوا أو تحيروا أو سألوا أو نحو هذا فقل الله ثم أمره بترك من كفر وأعرض، وهذه آية منسوخة بآية القتال إن تأولت موادعة، وقد يحتمل أن لا يدخلها نسخ إذا جعلت تتضمن تهديدا ووعيدا مجردا من موادعة، و «الخوض» الذهاب فيما لا تسبر حقائقه، وأصله في الماء ثم يستعمل في المعاني المشكلة الملتبسة، ويلعبون في موضع الحال.

قوله عز وجل:

[سورة الأنعام (٦) : آية ٩٢]

وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون (٩٢)

قوله هذا إشارة إلى القرآن، ومبارك صفة له، ومصدق كذلك، وحذف التنوين من مصدق للإضافة وهي إضافة غير محضة لم يتعرف بها مصدق ولذلك ساغ أن يكون وصفا لنكرة، والذي في موضع المفعول، والعامل فيه مصدر، ولا يصلح أن يكون مصدق مع حذف التنوين منه يتسلط على الذي، ويقدر حذف التنوين للالتقاء وإنما جاء ذلك شاذا في الشعر في قوله: [المتقارب]

فألفيته غير مستعتب ... ولا ذاكر الله إلا قليلا." (١)

"قولان: أحدهما: أنها أصنامهم التي عبدوها، قاله الربيع بن أنس. والثاني: أنها حجارة الكبريت، وهي أشد الأشياء حرا، إذا أحميت يعذبون بها.

ومعنى أعدت: هيئت. وإنما خوفهم بالنار إذا لم يأتوا بمثل القرآن، لأنهم إذا كذبوه، وعجزوا عن الإتيان بمثله ثبتت عليهم الحجة، وصار الخلاف عنادا، وجزاء المعاندين النار.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥]

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٢/٣٢١

وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون (٢٥)

قوله تعالى: وبشر الذين آمنوا. البشارة: أول خبر يرد على الإنسان، وسمي بشارة، لأنه يؤثر في بشرته، فان كان خيرا، أثر المسرة والانبساط، وإن شرا، أثر الانجماع والغم، والأغلب في عرف الاستعمال أن تكون البشارة بالخير، وقد تستعمل في الشر، ومنه قوله تعالى: بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) «١» .

قوله تعالى: وعملوا الصالحات. يشمل كل عمل صالح، وقد روي عن عثمان بن عفان أنه قال: أخلصوا الأعمال. وعن علي عليه السلام أنه قال: أقاموا الصلوات المفروضات.

فأما الجنات، فجمع جنة. وسميت الجنة جنة، لاستتار أرضها بأشجارها، وسمي الجن جنا، لاستتارهم، والجنين من ذلك، والدرع جنة، وجن الليل: إذا ستر، وذكر عن المفضل أن الجنة: كل بستان فيه نخل. وقال الزجاج: كل نبت كثف وكثر وستر بعضه بعضا، فهو جنة.

قوله تعالى: تجري من تحتها، أي: من تحت شجرها لا من تحت أرضها.

قوله تعالى: هذا الذي رزقنا من قبل، فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: هذا الذي طعمنا من قبل، فرزق الغداة كرزق العشي، روي عن ابن عباس والضحاك ومقاتل. والثاني: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، قاله مجاهد وابن زيد. والثالث: أن ثمر الجنة إذا جني خلفه مثله، فاذا رأوا ما خلف الجنى، اشتبه عليهم، فقالوا: هذا الذي رزقنا من قبل، قاله يحيى بن أبي كثير وأبو عبيدة. قوله تعالى: وأتوا به متشابها. فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه متشابه في المنظر واللون، مختلف في الطعم، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية والضحاك والسدي ومقاتل. والثاني: أنه متشابه في جودته، لا رديء فيه، قاله الحسن وابن جريج. والثالث: أنه يشبه ثمار الدنيا في الخلقة والاسم، غير أنه أحسن في المنظر والطعم، قاله قتادة وابن زيد.

فان قال قائل: ما وجه **الامتنان** بمتشابهه، وكلما تنوعت المطاعم واختلفت ألوانها كان أحسن؟! فالجواب: أنا إن قلنا: إنه متشابه المنظر مختلف الطعم، كان أغرب عند الخلق وأحسن، فانك لو رأيت تفاحة فيها طعم سائر الفاكهة، كان نهاية في العجب. وإن قلنا: إنه متشابه في الجودة جاز اختلافه في

---

(١) النساء: ١٣٨.." (١)

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤٥/١

"نعاسا، فهو ناعس. وبعضهم يقول: نعسان. قال الفراء: قد سمعتها، ولكني لا أشتهيها. قال العلماء: النعاس: أخف النوم. وفي وجه **الامتنان** عليهم بالنعاس قولان: أحدهما: أنه أمنهم بعد خوفهم حتى ناموا، فالمنة بزوال الخوف، لأن الخائف لا ينام. والثاني: قواهم بالاستراحة على القتال.

قوله تعالى: يغشى طائفة منكم قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر:

«يغشى» بالياء مع التفخيم، وهو يعود إلى النعاس. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف «تغشى» بالتاء مع الإمالة، وهو يرجع إلى الأمنة. فأما الطائفة التي غشيها النوم، فهم المؤمنون، والطائفة الذين أهمتهم أنفسهم: المنافقون، أهمهم خلاص أنفسهم، فذهب النوم عنهم.

(٢٢٥) قال أبو طلحة: كان السيف يسقط من يدي، ثم آخذه، ثم يسقط، وآخذه من النعاس.

وجعلت أنظر، وما منهم أحد يومئذ إلا يميد تحت حجفته «١» من النعاس.

(٢٢٦) وقال الزبير: أرسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلا ذقنه في صدره، فو الله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا فحفظتها منه.

قوله تعالى: يظنون بالله غير الحق فيه أربعة أقوال: أحدها: أنهم ظنوا أن الله لا ينصر محمدا وأصحابه، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم كذبوا بالقدر، رواه الضحاك، عن ابن عباس.

والثالث: أنهم ظنوا أن محمدا قد قتل، قاله مقاتل. والرابع: ظنوا أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم مضمحل، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ظن الجاهلية، قال ابن عباس: أي: كظن الجاهلية.

قوله تعالى: يقولون هل لنا من الأمر من شيء لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه: الجحد، تقديره: ما لنا من الأمر من شيء. قال الحسن: قالوا: لو كان الأمر إلينا ما خرجنا، وإنما أخرجنا كرها. وقال غيره: المراد بالأمر: النصر والظفر، قالوا: إنما النصر للمشركين، قل إن الأمر كله، أي: النصر والظفر، والقضاء والقدر لله. والأكثرون قرءوا إن الأمر كله لله بنصب اللام، وقرأ أبو عمرو برفعها، قال أبو علي: حجة من نصب، أن «كله» بمنزلة «أجمعين» في الإحاطة والعموم، فلو قال: إن الأمر أجمع، لم يكن إلا النصب، و «كله» بمنزلة «أجمعين» ، ومن رفع، فلأنه قد ابتدأ به، كما ابتدأ بقوله تعالى: وكلهم آتيه.

قوله تعالى: يخفون في أنفسهم في الذي أخفوه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قولهم: «لو كنا في

صحيح. أخرجه البخاري ٤٠٦٨ والترمذي ٣٠٠٧ والنسائي في «الكبرى» ١١١٩٨ وابن سعد ٣/ ٥٠٥ وابن أبي شيبة ١٤/ ٤٠٦ والطبري ٨٠٧٥ والحاكم ٢/ ٢٩٧ والطبراني ٤٧٠٠ والبيهقي في «الدلائل» ٣/ ٢٧٢ وأبو نعيم في «الدلائل» ٤٢١ من طرق عن حماد بن سلمة عن ثابت به. وإسناده على شرط مسلم.

أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٢٧٣ عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده عن الزبير به.

وفي الإسناد أحمد بن عبد الجبار العطاردي، وهو ضعيف، ومن فوقه ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، فانحصرت العلة في أحمد هذا.

---

(١) الحجف: ضرب من الترسة، واحدتها حجفة، وقيل: هي من الجلود خاصة. ومِيد: تحرك ومال. [.....]."(١)

"قوله تعالى: لقد من الله على المؤمنين أي: أنعم عليهم. و «أنفسهم» : جماعتهم، وقيل: نسبهم. وقرأ الضحاك، وأبو الجوزاء: (من أنفسهم) بفتح الفاء. وفي وجه الامتنان عليهم بكونه من أنفسهم أربعة أقوال: أحدها: لكونه معروف النسب فيهم، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: لكونهم قد خبروا أمره، وعلموا صدقه، قاله الزجاج. والثالث: ليسهل عليهم التعلم منه، لموافقة لسانه للسانهم، قاله أبو سليمان الدمشقي. والرابع: لأن شرفهم يتم بظهور نبي منهم، قاله الماوردي. وهل هذه الآية خاصة أم عامة؟ فيه قولان: أحدهما: أنها خاصة للعرب. روي عن عائشة والجمهور. والثاني: أنها عامة لسائر المؤمنين، فيكون المعنى أنه ليس بملك، ولا من غير بني آدم، وهذا اختيار الزجاج. وقد سبق في (البقرة) بيان باقي الآية.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦٥]

أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير (١٦٥)

قوله تعالى: أولما أصابتكم مصيبة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما كان يوم أحد، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكسرت

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣٣٧/١

رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى قل هو من عند أنفسكم قال: بأخذكم الفداء.

قوله تعالى أولما قال الزجاج: هذه واو النسق، دخلت عليها ألف الاستفهام، فبقيت مفتوحة على هيئتها قبل دخولها، ومثل ذلك قول القائل: تكلم فلان بكذا وكذا فيقول المجيب له: أو هو ممن يقول ذلك؟ فأما «المصيبة» فما أصابهم يوم أحد، وكانوا قد أصابوا مثليها من المشركين يوم بدر، لأنهم قتل منهم سبعون، فقتلوا يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين، وهذا قول ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والجماعة، إلا أن الزجاج قال: قد أصبتم يوم أحد مثلها، ويوم بدر مثلها، فجعل المثلين في اليومين.

قوله تعالى: أنى هذا، قال ابن عباس: من أين أصابنا هذا ونحن مسلمون؟

قوله تعالى: قل هو من عند أنفسكم فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معناه: بأخذكم الفداء يوم بدر، قاله عمر بن الخطاب.

(٢٣٥) وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله قد كره ما صنع قومك من أخذهم الفداء، وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يضربوا أعناق الأسارى، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم، فذكر ذلك للناس، فقالوا: عشائرنا وإخواننا، بل نأخذ منهم الفداء، ويستشهد منا عدتهم، فقتل منهم يوم أحد سبعون، عدد أسارى بدر، فعلى هذا يكون المعنى: قل هو بأخذكم الفداء، واختياركم القتل لأنفسكم.

والثاني: أنه جرى ذلك بمعصية الرماة يوم أحد، وتركهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس،

ضعيف. أخرجه الترمذي ١٥٦٧ والنسائي في «الكبرى» ٨٦٦٢ من حديث علي، وهو حديث ضعيف، ويأتي في سورة الأنفال باستيفاء، وقال الترمذي: حسن غريب.." (١)

"أن من قدر على خلق ما شاهدتموه من أصل وجودكم كان أقدر على خلق ما غاب عنكم من إعادتكم.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣٤٤/١

قوله عز وجل: نحن قدرنا بينكم الموت وقرأ ابن كثير: «قدرنا» بتخفيف الدال. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: قضينا عليكم بالموت. والثاني: سوينا بينكم في الموت. وما نحن بمسبوقين (٦٠) على أن نبدل أمثالكم قال الزجاج: المعنى: إن أردنا أن نخلق خلقا غيركم لا يسبقنا سابق، ولا يفوتنا ذلك.

قال ابن قتيبة: لسنا مغلوبين على أن لم نستبدل بكم أمثالكم. قوله عز وجل: وننشئكم في ما لا تعلمون

وفيه أربعة أقوال: أحدها: نبدل صفاتكم ونجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم.

قاله الحسن. والثاني: ننشئكم في حواصل طير سود تكون ب «برهوت» كأنها الخطاطيف، قاله سعيد بن المسيب. والثالث: نخلقكم في أي خلق شئنا، قاله مجاهد. والرابع: نخلقكم في سوى خلقكم، قاله السدي. قال مقاتل: نخلقكم سوى خلقكم في ما لا تعلمون من الصور. قوله عز وجل: ولقد علمتم النشأة الأولى وهي ابتداء خلقكم من نطفة وعلقة فلولا تذكرون أي: فهلا تعتبرون فتعلموا قدرة الله فتقروا بالبعث.

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٦٣ الى ٧٤]

أفرأيتم ما تحرثون (٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٦٤) لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون (٦٥) إنا لمغرمون (٦٦) بل نحن محرومون (٦٧)

أفرأيتم الماء الذي تشربون (٦٨) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون (٦٩) لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون (٧٠) أفرأيتم النار التي تورون (٧١) أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤن (٧٢)

نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين (٧٣) فسبح باسم ربك العظيم (٧٤)

قوله عز وجل: أفرأيتم ما تحرثون أي: ما تعملون في الأرض من إثارتها، وإلقاء البذر فيها، أأنتم تزرعونه أي: تنبتونه؟! وقد نبه هذا الكلام على أشياء منها إحياء الموتى، ومنها **الامتنان** بإخراج القوت، ومنها القدرة العظيمة الدالة على التوحيد.

قوله عز وجل: لجعلناه يعني الزرع حطاما قال عطاء: تبنا لا قمح فيه. وقال الزجاج:

أبطلناه حتى يكون منحطما لا حنطة فيه، ولا شيء. قوله عز وجل: فظلتم وقرأ الشعبي وابو العالية وابن أبي عبلة: «فظلتم» بكسر الظاء وقد بيناه في قوله: ظلت عليه عاكفا «١» . قوله عز وجل:

تفكهون قرأ أبي بن كعب وابن السميفع والقاسم بن محمد وعروة: «تفكنون» بالنون. وفي المعنى أربعة أقوال: أحدها: تعجبون، قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء ومقاتل. قال الفراء: تتعجبون مما نزل بكم

في زرعكم. والثاني: تندمون، قاله الحسن والزجاج. وعن قتادة كالقولين. قال ابن قتيبة: يقال «تفكهون» : تندمون، ومثلها: تفكنون، وهي لغة لعكل. والثالث: تلاومون، قاله عكرمة. والرابع:

تتفجعون، قاله ابن زيد.

قوله عز وجل: إنا لمغرمون قال الزجاج: أي: تقولون: قد غرمنا وذهب زرعنا. وقال ابن قتيبة: «لمغرمون» أي: لمعذبون. قوله عز وجل: بل نحن محرومون أي: حرمنا ما كنا نطلب من الريع في الزرع. وقد نبه بهذا على أمرين: أحدهما: إنعامه عليهم إذ لم يجعل زرعهم حطاما. والثاني: قدرته

---

(١) طه: ٩٧.." (١)

"سورة الجمعة

وهي مدنية كلها بإجماعهم وقد سبق شرح فاتحتها «١» . وقرأ أبو الدرداء، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، والنخعي، والوليد عن يعقوب الملك القدوس العزيز الحكيم بالرفع فيهن.

فإن قيل: فما الفائدة في إعادة ذكر التسبيح في هذه السورة؟

فالجواب: أن ذلك لاستفتاح السور بتعظيم الله عز وجل، كما تستفتح ب «بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا جل المعنى في تعظيم الله، حسن الاستفتاح به.

بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة الجمعة (٦٢) : الآيات ١ الى ٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم (١) هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (٢) وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم (٣) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٤)

قوله عز وجل: هو الذي بعث في الأميين يعني: العرب، وكانوا لا يكتبون وقد شرحنا هذا المعنى في البقرة «٢» رسولا يعني: محمدا صلى الله عليه وسلم منهم أي: من جنسهم ونسبهم.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢٢٦/٤

فإن قيل: فما وجه الامتنان في أنه بعث نبيا أميا «٣» ؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: لموافقة ما تقدمت

---

(١) آل عمران: ٥٢.

(٢) البقرة: ٧٨.

(٣) قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» ٤/ ٤٢٨: الأميون هم العرب، وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، لكن المنة عليهم أبلغ وآكد، كما قال تعالى: وإنه لذكر لك ولقومك وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به، وكذا قوله: وأنذر عشيرتك الأقربين وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا، وقوله لأنذركم به ومن بلغ. وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فبعثه الله سبحانه وتعالى على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، أي نذرا يسيرا- ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام.." (١)

"مقدم على خبر الواحد، لكن هذا إنما يستقيم إذا لم يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد، ويمكن أن يجاب عنه بأن المسلمين إنما رجعوا في معرفة وجوه الحرمة إلى هذه الآية، فدل انعقاد إجماعهم على أنها غير مخصوصة ببيان حرمة الأكل، وللسائل أن يمنع هذا الإجماع.

المسألة الثالثة: الميتة من حيث اللغة هو الذي خرج من أن يكون حيا من دون نقض بنية ولذلك فرقوا بين المقتول والميت، وأما من جهة الشرع فهو غير المذكى إما لأنه لم يذبح أو أنه ذبح ولكن لم يكن ذبحه ذكاة وسنذكر حد الزكاة في موضعه، فإن قيل: كيف يصح ذلك وقد قال تعالى في سورة المائدة: حرمت عليكم الميتة والدم [المائدة: ٣] ثم ذكر من بعده المنخنقة والموقوذة والمتردية فدل هذا على أن غير المذكى منه ما هو ميتة ومنه ما ليس كذلك، قلنا لعل الأمر كان في ابتداء الشرع على أصل اللغة، وأما بعد استقرار الشرع فالميتة ما ذكرناه والله أعلم.

أما المقاصد فاعلم أن الخطأ في المسائل المستنبطة من هذه الآية من وجهين أحدهما: ما أخرجوه عن الآية وهو داخل فيها والثاني: ما أدخلوه فيها وهو خارج عنها.

أما القسم الأول [أي ما خرجوه عن الآية] : ففيه مسائل:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤/٢٨٠

المسألة الأولى: ذهب الشافعي رضي الله عنه في أظهر أقواله إلى أنه يحرم الانتفاع بصوف الميتة وشعرها وعظمها وقال مالك: يحرم الانتفاع بعظمها خاصة وجل الفقهاء اتفقوا على تحريم الانتفاع بشعر الخنزير، واحتج هؤلاء بأن هذه الأشياء ميتة فوجب أن يحرم الانتفاع بها، إنما قلنا إنها ميتة

لقوله عليه السلام: «ما أبين من حي فهو ميت»

وهذا الخبر يعم الشعر والعظم والكل وأما الذي يدل على أن العظم ميتة خاصة فقوله تعالى: من يحي العظام وهي رميم [يس: ٧٨] فثبت أنها كانت حية فعند الموت تصير ميتة وإذا ثبت أنها ميتة وجب أن يحرم الانتفاع بها لقوله تعالى: حرمت عليكم الميتة اعترض المخالف عليه بأن الشعر والصوف لا حياة فيه، لأن حكم الحياة الإدراك والشعور وذلك مفقود في الشعر ولأجل هذا الكلام ذهب مالك إلى تنجيس العظام دون الشعور.

والجواب: أن الحياة ليست عبارة عن المعنى المقتضي للإدراك والشعور بدليل الآية والخبر أما الآية فقوله تعالى: كيف يحي الأرض بعد موتها [الروم: ٥٠] وأما الخبر

فقوله عليه السلام: «من أحيا أرضا ميتة فهي له»

والأصل في الإطلاق الحقيقة، فعلمنا أن الحياة في أصل اللغة ليست عبارة عما ذكرتموه، بل عن كون الحيوان أو النبات صحيحا في مزاجه معتدلا في حاله غير معترض للفساد والتعفن والتفرق، وإذا ثبت ذلك ظهر اندراجه تحت الآية، واحتج أبو حنيفة بالقرآن والخبر والإجماع والقياس، أما القرآن فقوله تعالى: ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين [النحل: ٨٠] حيث ذكرها في معرض المنة، والامتنان لا يقع بالجنس الذي لا يحل الانتفاع به، وأما الخبر

فقوله عليه السلام في شاة ميمونة «إنما حرم من الميتة أكلها»

وأما الإجماع، فهو أنهم كانوا يلبسون جلود الثعالب، ويجعلون منها القلانس، وعن النخعي: كانوا لا يرون بجلود السباع وجلود الميتة إذا دبغت بأسا، وما خصوا حال الشعر وعدمه وقول الشافعي: كانوا إشارة إلى الصحابة وليس لأحد أن يقول الثعلب عند الشافعي رضي الله عنه حلال، فلهذا يقول بإباحته لأن الزكاة شرط بالاتفاق وهو غير حاصل في هذه الثعالب، وأما القياس فلأن هذه الشعور والعظام أجسام منتفع بها غير متعرضة." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥/١٩٥

"والمماليك وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم ظنا كاذبا، فإن الله يرزقهم وإياهم، وفذلكة الآية الاستدلال يجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين مختلفة الأجزاء في الوضع محدثة فيا أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، مع جواز أن لا تكون كذلك على كمال قدرته وتناهي حكمته، والتفرد في الألوهية والامتنان على العباد بما أنعم عليهم في ذلك ليوحدوه ويعبدوه، ثم بالغ في ذلك وقال:

[سورة الحجر (١٥) : آية ٢١]

وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم (٢١)

وإن من شيء إلا عندنا خزائنه أي وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرب الخزائن مثلا لاقتداره أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. وما ننزله من بقاع القدرة. إلا بقدر معلوم حده الحكمة وتعلقت به المشيئة، فإن تخصيص بعضها بالإيجاد في بعض الأوقات مشتملا عرى بعض الصفات والحالات لا بد له من مخصص حكيم.

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٢٢ الى ٢٣]

وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين (٢٢) وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون (٢٣)

وأرسلنا الرياح لواقح حوامل، شبه الريح التي جاءت بخير من إنشاء سحاب ماطر بالحامل كما شبه ما لا يكون كذلك بالعقيم، أو ملقحات للشجر ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات في قوله:

ومختبط مما تطيح الطوائح وقرئ «وأرسلنا الريح» على تأويل الجنس. فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه فجعلناه لكم سقيا.

وما أنتم له بخازنين قادرين متمكنين من إخراجه، نفى عنهم ما أثبته لنفسه، أو حافظين في الغدران والعيون والآبار، وذلك أيضا يدل على المدبر الحكيم كما تدل حركة الهواء في بعض الأوقات من بعض الجهات على وجه ينتفع به الناس، فإن طبيعة الماء تقتضي الغور فوقوفه دون حد لا بد له من سبب مخصص.

وإنا لنحن نحيي بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها. ونميت بإزالتها وقد أول الحياة بما يعم الحيوان والنبات وتكرير الضمير للدلالة على الحصر. ونحن الوارثون الباقون إذا مات الخلائق كلها.

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٢٤ الى ٢٥]

ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين (٢٤) وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم (٢٥)

ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين من استقدم ولادة وموتا ومن استأخر، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو من تقدم في الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة، أو تأخر لا يخفى علينا شيء من أحوالكم، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه. وقيل رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف الأول فازدحموا عليه فنزلت. وقيل إن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم بعض القوم لئلا ينظر إليها وتأخر بعض ليبصرها فنزلت.

وإن ربك هو يحشرهم لا محالة للجزاء، وتوسيط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولي لحشرهم لا غير، وتصدير الجملة ب إن لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله: إنه حكيم باهر الحكمة متقن في أفعاله.

عليم وسع علمه كل شيء.

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]

ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون (٢٦) والجان خلقناه من قبل من نار السموم (٢٧)." (١)

"النبات وتعيش الحيوان، أو في آثاره ومنافعه أو مكانه بالنزول إلى محله، أو سلطانه فتطمس نوره، وإيلاء حرف النفي الشمس للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها. ولا الليل سابق النهار يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه، وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران، وبالسبق سبق القمر إلى سلطان الشمس فيكون عكسا للأول وتبديل الإدراك بالسبق لأنه الملائم لسرعة سيره. وكل وكلهم والتنوين عوض عن المضاف إليه، والضمير للشموس والأقمار فإن اختلاف الأحوال يوجب تعددا ما في الذات، أو للكواكب فإن ذكرهما مشعر بهما. في فلك يسبحون يسيرون فيه بانبساط.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٠٩/٣

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون (٤١) وخلقنا لهم من مثله ما يركبون (٤٢)

وآية لهم أنا حملنا ذريتهم أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم، أو صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم، فإن الذرية تقع عليهن لأنهن مزارعها. وتخصيصهم لأن استقرارهم في السفن أشق وتماسكهم فيها أعجب، وقرأ نافع وابن عامر ذرياتهم. في الفلك المشحون المملوء، وقيل المراد فلك نوح عليه الصلاة والسلام، وحمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلابهم هم وذرياتهم، وتخصيص الذرية لأنه أبلغ في الامتنان وأدخل في التعجب مع الإيجاز.

وخلقنا لهم من مثله من مثل الفلك. ما يركبون من الإبل فإنها سفائن البر أو من السفن والزوارق.

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]

وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون (٤٣) إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين (٤٤)

وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم فلا مغيث لهم يحرسهم عن الغرق، أو فلا إغاثة كقولهم أتاهم الصريخ. ولا هم ينقذون ينجون من الموت به.

إلا رحمة منا ومتاعا إلا لرحمة ولتمتيع بالحياة. إلى حين زمان قدر لآجالهم.

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون (٤٥) وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤٦)

وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم الوقائع التي خلت أو العذاب المعد في الآخرة، أو نوازل السماء ونوائب الأرض كقوله: أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أو عكسه، أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر. لعلكم ترحمون لتكونوا راجين رحمة الله، وجواب إذا محذوف دل عليه قوله: وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين كأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمرنوا عليه.

[سورة يس (٣٦) : آية ٤٧]

وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين (٤٧)

وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله على محاويجكم. قال الذين كفروا بالصانع يعني معطلة كانوا بمكة. للذين آمنوا تهكما بهم من إقرارهم به وتعليقهم الأمور بمشيئته. أنطعم من لو يشاء الله أطعمه على زعمكم، وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين إيهاما بأن الله تعالى لما كان قادرا أن يطعمهم ولم يطعمهم فنحن أحق بذلك، وهذا من فرط جهالتهم فإن الله يطعم بأسباب منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم له. إن أنتم إلا في ضلال مبين حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله، ويجوز أن." (١)

"يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير (١٩)

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا﴾ محمد عليه السلام ﴿يبين لكم﴾ أي الشرائع وحذف لظهوره أو ما كنتم تخفون وحذف لتقدم ذكره أو لا يقدر المبين ويكون المعنى يبذل لكم البيان وهو حال أي مبينا لكم ﴿على فترة من الرسل﴾ متعلق بجاءكم على جاءكم فى حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحي وكان بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستمائة سنة أو خمسمائة سنة وستون سنة ﴿أن تقولوا﴾ كراهة أن تقولوا ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ والفاء في ﴿فقد جاءكم﴾ متعلق بمحذوف أي لا تعتذروا فقد جاءكم ﴿بشير﴾ للمؤمنين ﴿ونذير﴾ للكافرين والمعنى **الامتنان** عليهم بأن الرسول بعث اليهم حين انطمست آثار الوحى وكانوا أحوج ما يكونون إليه ليهشوا إليه ويعدوه أعظم نعمة من الله وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم من غفلتهم

المائدة (١٩ _ ٢٤)

﴿والله على كل شيء قدير﴾ فكان قادرا على إرسال محمد عليه السلام ضرورة." (٢)

"وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل (٢٢)

﴿وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل﴾ كر على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله وأبي أن تسمى نعمة لأنها نقمة حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل لأن تعبيدهم وقصدهم بذبح

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٦٩/٤

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٤٣٨/١

أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته ولو تركهم لرباه أبواه فكأن فرعون امتن على موسى بتعبيد قومه وإخراجه من حجر أبويه إذا حققت وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيدا ووحد الضمير فى تمنها وعبدت وجمع فى منكم وخفتكم لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملته المؤتمرين بقتله بدليل قوله إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما **الامتنان** فمنه وحده وكذا التعبيد وتلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدري ما هي إلا بتفسيرها ومحل أن عبدت الرفع عطف بيان لتلك أي تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي." (١)

"وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون (٤١)

﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم﴾ درياتهم مدني وشامي ﴿فى الفلك المشحون﴾ أي المملوء والمراد بالذرية الأولاد ومن يهمهم حمله وكانوا يبعثونهم إلى التجارات في بر أو بحر أو الآباء لأنها من الأضداد والفلك على هذا سفينة نوح عليه السلام وقيل معنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آبائهم الأقدمين وفى أصلابهم وذرياتهم وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في **الامتنان** عليهم." (٢)

"العدالة، ومعناها اجتناب الذنوب الكبائر، وتوقي الصغائر مع المحافظة على المروءة أن تضل مفعول من أجله، والعامل فيه هو المقدر العامل في رجل وامرأتان والضلال في الشهادة هو نسيانها أو نسيان بعضها، وإنما جعل ضلال إحدى المرأتين مفعولا من أجله، وليس هو المراد، لأنه سبب لتذكير الأخرى لها وهو المراد، فأقيم السبب مقام المسبب، وقرئ: إن تضل: بكسر الهمزة على الشرط، وجوابه الفاء في فتذكر، ولذلك رفعه من كسر الهمزة، ونصبه من فتحها على العطف، وقرئ تذكر بالتشديد والتخفيف، والمعنى واحد ولا يأب الشهداء أي لا يمتنعون إذا ما دعوا إلى أداء الشهادة، وقد ورد تفسيره بذلك عن النبي صلى الله عليه واله وسلم، واتفق العلماء أن أداء الشهادة واجب إذا دعي إليها، وقيل: إذا دعوا إلى تحصيل الشهادة وكتبها. وقيل: إلى الأمرين ولا تسئموا أن تكتبوه أي لا تملوا من الكتابة إذا ترددت وكثرت، سواء كان الحق صغيرا أو كبيرا، ونصب صغيرا على الحال ذلكم إشارة إلى الكتابة أقسط من القسط وهو العدل (وأقوم) بمعنى أشد إقامة، وينبني أفعل فيهما من الرباعي وهو قليل وأدنى ألا ترتابوا أي أقرب إلى عدم الشك في الشهادة إلا أن تكون تجارة حاضرة أن في موضع نصب على الاستثناء المنقطع، لأن الكلام المتقدم في الدين المؤجل، والمعنى: إباحة ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، وهو ما يباع بالنقد وغيره،

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٥٥٨

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣/١٠٥

تديرونها بينكم يقتضي القبض والبينونة وأشهدوا إذا تبايعتم ذهب قوم إلى وجوب الإشهاد على كل بيع صغيرا أو كبيرا، وهم الظاهرية، خلافا للجمهور. وذهب قوم إلى أنه منسوخ بقوله: فإن أمن بعضكم بعضا، وذهب قوم إلى أنه على الندب ولا يضار كاتب ولا شهيد يحتمل أن يكون كاتب فاعلا على تقدير كسر الراء المدغمة من يضار، والمعنى على هذا نهي للكاتب والشاهد أن يضار صاحب

الحق أو الذي عليه الحق بالزيادة فيه أو النقصان منه. أو الامتناع من الكتابة أو الشهادة، ويحتمل أن يكون كاتب مفعولا لم يسم فاعله على تقدير فتح الراء المدغمة، ويقوي ذلك قراءة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، «لا يضارر» بالتفكيك وفتح الراء، والمعنى: النهي عن الإضرار بالكاتب والشاهد بإذايتهما بالقول أو بالفعل وإن تفعلوا أي إن وقعتم في الإضرار فإنه فسوق حال بكم ويعلمكم الله إخبار على وجه الامتنان، وقيل: معناه الوعد بأن من اتقى علمه الله وألهمه وهذا المعنى صحيح، ولكن لفظ الآية لا يعطيه، لأنه لو كان كذلك لجزم يعلمكم في جواب اتقوا

وإن كنتم على سفر الآية: لما." (١)

"سورة آل عمران

مدنية وآياتها ٢٠٠ نزلت بعد الأنفال بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة آل عمران) نزل صدرها إلى نيف وثمانين آية لما قدم نصارى نجران المدينة المنورة يناظرون رسول الله صلى الله عليه واله وسلم في عيسى عليه السلام الم تقدم الكلام على حروف الهجاء وقرأ الجمهور بفتح الميم هنا في الوصل لالتقاء الساكنين نحو من الناس، وقال الزمخشري: هي حركة الهمزة نقلت إلى الميم وهذا ضعيف لأنها ألف وصل تسقط في الدرج الحي القيوم رد على النصارى في قولهم إن عيسى هو الله لأنهم زعموا أنه صلب، فليس بحي وليس بقيوم الكتاب هنا هو القرآن بالحق أي تضمن الحق من الأخبار والأحكام وغيرها أو بالاستحقاق مصدقا قد تقدم في مصدقا لما معكم بين يديه الكتب المتقدمة التوراة والإنجيل أعجميان فلا يصح ما ذكره النحاة من اشتقاقهما ووزنهما وأنزل الفرقان يعني القرآن وإنما كرر ذكره ليصفه بأنه الفارق بين الحق والباطل، ويحتمل أن يكون ذكره أولا على وجه الإثبات لإنزاله لقوله: مصدقا لما بين يديه، ثم ذكره ثانيا: على وجه الامتنان بالهدى به، كما قال في التوراة والإنجيل هدى للناس، فكأنه قال: وأنزل الفرقان هدى للناس ثم حذف ذلك لدلالة الهدى الأول عليه، فلما اختلف قصد الكلام في الموضعين لم يكن ذلك تكرارا، وقيل: الفرقان هنا كل ما فرق بين الحق والباطل من كتاب

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١٤٠/١

وغيره، وقيل: هو الزبور، وهذا بعيد لا يخفى عليه شيء خبر عن إحاطة علم الله بجميع الأشياء على التفصيل، وهذه صفة لم تكن لعيسى، ولا لغيره، ففي ذلك رد على النصارى هو الذي يصوركم برهان على إثبات علم الله المذكور قبل، وفيه رد على النصارى لأن عيسى لا يقدر على التصوير، بل كان مصورا كسائر بني آدم كيف يشاء من طول، وقصر، وحسن، وقبح، ولون وغير ذلك

منه آيات محكمات المحكم من القرآن: هو البين المعنى، الثابت الحكم، والمتشابه: هو." (١)

"أوصاف: وهي الرقة، والانحناء، والصفرة، ووصفه بالقديم لأنه حينئذ تكون له هذه الأوصاف

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر المعنى لا يمكن الشمس أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره، وهكذا قال بعضهم، ويحتمل أن يريد أن سير الشمس في الفلك بطيء، فإنها تقطع الفلك في سنة وسير القمر سريع، فإنه يقطع الفلك في شهر، والبطيء لا يدرك السريع ولا الليل سابق النهار يعني أن كل واحد منهما جعل الله له وقتا موقتا واحدا معلوما لا يتعداه، فلا يأتي الليل حتى ينفصل النهار، كما لا يأتي النهار حتى ينفصل الليل، ويحتمل أن يريد أن آية الليل وهي القمر لا تسبق آية النهار وهي الشمس: أي لا تجتمع معه فيكون المعنى كالذي قيل في قوله «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر» فحصل من ذلك أن الشمس لا تجتمع مع القمر وأن القمر لا يجتمع مع الشمس وكل في فلك يسبحون ذكر في [الأنبياء: ٣٣].

وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون معنى المشحون: المملوء، والفلك هنا يحتمل أن يريد به جنس السفن، أو سفينة نوح عليه السلام، وأما الذرية «١» فقيل: إنه يعني الآباء الذين حملهم الله في سفينة نوح عليه السلام، وسمى الآباء ذرية لأنها تناسلت منهم، وأنكر ابن عطية ذلك، وقال: إنه يعني النساء، وهذا بعيد، والأظهر أنه أراد بالفلك جنس السفن، فيعني جنس بن آدم، وإنما خص ذريتهم بالذكر لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة، وإن أراد بالفلك سفينة نوح فيعني بالذرية من كان في السفينة، وسماهم ذرية، لأنهم ذرية آدم ونوح، فالضمير في ذريتهم على هذا النوع بني آدم كأنه يقول الذرية منهم وخلقنا لهم من مثله ما يركبون إن أراد بالفلك سفينة نوح فيعني بقوله: من مثله سائر السفن التي يركبها سائر الناس، وإن أراد بالفلك جنس السفن فيعني بقوله من مثله الإبل وسائر المركوبات، فتكون المماثلة على هذا في أنه مركوب لا غير، والأول أظهر، لقوله وإن نشأ نغرقهم، ولا يتصور هذا في المركوبات غير السفن فلا صريخ لهم أي لا مغيث لهم ولا منقذ لهم من الغرق إلا رحمة منا قال

---

(١) تفسير ا بن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١/١٤٤

الكسائي: نصب رحمة على الاستثناء كأنه قال: إلا أن نرحمهم، وقال الزجاج: نصب رحمة على المفعول من أجله كأنه قال: إلا لأجل رحمتنا إياهم ومتاعا إلى حين يعني آجالهم.

وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم الضمير لقريش، وجواب إذا محذوف تقديره: أعرضوا يدل عليه إلا كانوا عنها معرضين، والمراد بما بين أيديهم وما خلفهم: ذنوبهم المتقدمة والمتأخرة، وقيل: ما بين أيديهم عذاب الأمم المتقدمة، وما

---

(١) . قرأ ابن عامر ونافع. ذرياتهم بالجمع وقرأ الباقون: ذريتهم.." (١)

"السوداء فتذهب إلى الطحال، وأما المائية فتذهب إلى الكلية ومنها إلى المثانة، وأما الدم فيذهب في الأوردة وهي العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث. وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم من تلك العروق إلى الضرع والضرع لحم غددي رخو أبيض، فيقلب الله عز وجل ذلك الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو الأبيض، فيصير الدم لبنا فهذا صورة تكون اللبن في الضرع فاللبن إنما يتولد من بعض أجزاء الدم، والدم إنما يتولد

من بعض الأجزاء اللطيفة من الأشياء المأكولة الحاصلة في الكرش فاللبن تولد أولا من الفرث ثم من الدم ثانيا ثم صفاه الله سبحانه وتعالى بقدرته فجعله لبنا خالصا من بين فرث، ودم عند تولد اللبن في الضرع يخلق الله عز وجل بلطيف حكمته في حلمة الثدي ثقبا صغيرا ومسام ضيقة فيجعلها كالمصفاة للبن فكل ما كان لطيفا من اللبن خرج بالمص أو الحلب وما كان كثيفا احتبس في البدن، وهو المراد بقوله خالصا هنيئا مريئا. قوله عز وجل ومن ثمرات النخيل والأعناب يعني ولكم أيضا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه الضمير في منه يرجع إلى ما تقديره ولكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا قال ابن مسعود وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وإبراهيم وابن أبي ليلى والزجاج وابن قتيبة: السكر الخمر سميت بالمصدر من قولهم سكر سكرا، وسكرا والرزق الحسن سائر ما يتخذ من ثمرات النخيل، والأعناب مثل الدبس والتمر والزبيب والخل وغير ذلك. فإن قلت: الخمر محرمة فكيف ذكرها الله عز وجل في معرض الإنعام **والامتنان؟** قلت: قال العلماء في الجواب عن هذا: إن هذه السورة مكية، وتحريم الخمر إنما نزل في سورة المائدة وهي مدنية فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة، وقيل: إن الله عز وجل نبه في هذه الآية على تحريم الخمر أيضا، لأنه

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١٨٣/٢

ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا يدل على التحريم، وروى العوفي عن ابن عباس أن السكر هو الخل بلغة الحبشة وقال بعضهم: السكر هو النبيذ وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد، والمطبوخ من العصير وهو قول الضحاك والنخعي ومن يبيح شرب النبيذ ومن يحرمه يقول المراد من الآية الإخبار لا الإحلال، وأولى الأقاويل أن قوله تتخذون منه سكرا منسوخ. سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال السكر: ما حرم من ثمراتها والرزق الحسن ما حل قلت: القول بالنسخ فيه نظر لأن قوله، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا خبر، والأخبار لا يدخلها النسخ، ومن زعم أنها منسوخة رأى أن هذه الآية نزلت بمكة في وقت إباحة الخمر ثم إن الله تبارك وتعالى حرمها بالمدينة فحكم على هذه الآية بأنها منسوخة وقال أبو عبيدة في معنى الآية: السكر الطعم يقال هذا سكر لك أي طعم لك وقال غيره: السكر ما سد الجوع من قولهم سكرت النهر أي سددته والتمر والزبيب مما يسد الجوع، وهذا شرح قول أبي عبيدة أن السكر الطعم إن في ذلك يعني الذي ذكر من إنعامه على عباده لآية يعني دلالة وحجة واضحة لقوم يعقلون يعني أن من كان عاقلا استدل بهذه الآية على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وعلم بالضرورة أن لهذه الأشياء خالقا، ومدبرا قادرا على ما يريد. قوله سبحانه وتعالى:

[سورة النحل (١٦): الآيات ٦٨ الى ٧١]

وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (٦٩) والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير (٧٠) والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون (٧١)." (١)

"سبحانه وتعالى والله جعل لكم من بيوتكم يعني التي هي من الحجر والمدر سكنا يعني مسكنا تسكنونه، والسكن ما سكنت إليه وفيه من ألف أو بيت وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا يعني الخيام والقباب والأخبية، والفساطيط المتخذة من الأدم والأنطاع. واعلم أن المساكن على قسمين: أحدهما: ما لم يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر، وهي البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما، والقسم الثاني: ما يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر وهي الخيام والفساطيط المتخذة من جلود الأنعام، وإليها

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٨٥/٣

الإشارة بقوله تعالى تستخفونها يعني يخف عليكم حملها يوم ظعنكم يعني في يوم سيركم ورحيلكم في أسفاركم وظعن البادية هو لطلب ماء أو مرعى، ونحو ذلك ويوم إقامتكم يعني وتخف عليكم أيضا في إقامتكم وحضركم، والمعنى: لا تثقل عليكم في الحالتين ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها الكناية عائدة إلى الأنعام، يعني ومن أصواف الضأن، وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا يعني تتخذون أثاثا. الأثاث. متاع البيت الكبير، وأصله من أث إذا كثر وتكاثف، وقيل للمال أثاث إذا كثر. قال ابن عباس: أثاثا يعني مالا: وقال مجاهد: متاعا. وقال القتيبي: الأثاث المال أجمع من الإبل والغنم والعبيد والمتاع. وقال غيره الأثاث هو متاع البيت من الفرش والأكسية ونحو ذلك ومتاعا يعني وبلاغا وهو ما يتمتعون به إلى حين يعني إلى حين يبلى ذلك الأثاث، وقيل: إلى حين الموت. فإن قلت: أي فرق بين الأثاث والمتاع حتى ذكره بواو العطف، والعطف يوجب المغايرة فهل من فرق؟. قلت: الأثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه وغير ذلك فيدخل فيه جميع أصناف المال، والمتاع ما ينتفع به في البيت خاصة فظهر الفرق بين
اللفظتين والله أعلم.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٨١ الى ٨٨]

والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون (٨١) فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين (٨٢) يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون (٨٣) ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون (٨٤) وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون (٨٥)

وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون (٨٦) وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٨٧) الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون (٨٨)

والله جعل لكم مما خلق ظلالا يعني جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد، وهي ظلال الأبنية والجدران والأشجار وجعل لكم من الجبال أكنانا جمع كن وهو ما يستكن فيه من شدة الحر والبرد، كالأسراب والغيران ونحوها وذلك لأن الإنسان إما أن يكون غنيا أو فقيرا، فإذا سافر احتاج في سفره ما يقيه من شدة الحر والبرد فأما الغني فيستصحب معه الخيام في سفره، ليستكن فيها وإليه الإشارة بقوله وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا وأما الفقير فيستكن في ظلال الأشجار والحيطان والكهوف ونحوها، وإليه الإشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا ولأن بلاد العرب شديدة

الحر، وحاجتهم إلى الظلال وما يدفع شدته وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعاني في معرض **الامتنان** عليهم بها، لأن النعمة عليهم فيها ظاهرة وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر يعني وجعل لكم قمصا وثيابا من القطن والكتان والصوف وغير ذلك، تمنعكم من شدة الحر قال أهل المعاني والبرد فاكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه وسرابيل تقيكم." (١)

"فأنى يؤفكون

قيل معناه أنهم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع إقرارهم أنه خلق السموات والأرض الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده لما ذكر الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الخلق بالرزق والله تعالى هو المتفضل بالرزق على الخلق فله الفضل والإحسان والطول **والامتنان** ويقدر له أي يضيق عليه إذا شاء إن الله بكل شيء عليم أي يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ذكر سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله تعالى قل الحمد لله أي على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله تعالى: وقيل قل الحمد لله على إقرارهم ولزوم الحجة عليهم بأنه خالق لهم بل أكثرهم لا يعقلون أي أنهم ينكرون التوحيد مع إقرارهم بأنه خالق هذه الأشياء. قوله تعالى وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب اللهو هو الاستمتاع بلذة الدنيا وقيل هو الاشتغال بما لا يعنيه وما لا يهمه واللعب هو العبث وفي هذا تصغير للدنيا وازدراء بها ومعنى الآية أن سرعة زوال الدنيا عن أهلها وتقلبهم فيها وموتهم عنها كما يلعب الصبيان ساعة ثم ينصرفون وإن الدار الآخرة لهي الحيوان أي الحياة الدائمة الخالدة التي لا موت فيها لو كانوا يعلمون فناء الدنيا وبقاء الآخرة لما آثروا الفاني على الباقي. قوله عز وجل فإذا ركبوا في الفلك معناه هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد فإذا ركبوا في الفلك وخافوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدين أي تركوا الأصنام ولجئوا إلى الله تعالى بالدعاء فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون أي عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك والعناد. وقيل: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا الأصنام فإذا اشتد الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب يا رب ليكفروا بما آتيناهم أي ليجحدوا نعمة الله في إجابته إياهم ومعناه التهديد والوعيد وليتمتعوا معناه لا فائدة لهم في الإشراك إلا التمتع بما يستمتعون به في العاجلة ولا نصيب لهم في الآخرة فسوف يعلمون يعني عاقبة أمرهم ففيه تهديد ووعيد. قوله عز وجل أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم يعني العرب يسبي بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون أفبالباطل يعني الشيطان والأصنام يؤمنون وبنعمة الله يكفرون أي بمحمد صلى الله

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٩٢

عليه وسلم والإسلام يكفرون ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أي فزعم أن له شريكا فإنه منزه عن الشركاء أو كذب بالحق أي بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين معناه أما لهذا الكافر المكذب مأوى في جهنم. قوله عز وجل والذين جاهدوا فينا معناه جاهدوا المشركين لنصر ديننا لنهدينهم سبلنا لنثيبنهم ما قاتلوا عليه. وقيل لنزيدنهم هدى وقيل لنوفينهم لإصابة الطرق المستقيمة وهي التي توصل إلى رضا الله تعالى. قال سفيان بن عيينة: إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور فإن الله تعالى يقول: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقيل المجاهدة الصبر على الطاعات ومخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به وقال سهل بن عبد الله والذين جاهدوا فينا بإقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة. وقال ابن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا وإن الله لمع المحسنين أي بالنصرة والمعونة في دنياهم والمغفرة في عقباهم في الآخرة وثوابهم الجنة والله أعلم.." (١)

"منازلها وهو أنها تسير حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها ثم ترجع فذلك مستقرها وقيل مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف ونهاية هبوطها في الشتاء. وقرأ ابن مسعود والشمس تجري لا مستقر لها أي لا قرار ولا وقوف فهي جارية أبدا إلى يوم القيامة وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو ذر قال «سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله والشمس تجري لمستقر لها قال مستقرها تحت العرش» وفي رواية قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر حين غربت الشمس «أتدري أين تذهب الشمس» قال الله ورسوله أعلم قال «إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها فيقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها» فذلك قوله تعالى:

والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم أخرجاه في الصحيحين، قال الشيخ محيي الدين النووي اختلف المفسرون فيه فقال جماعة بظاهر الحديث. قال الواحدي فعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع، وقيل تجري إلى وقت لها وأصل لا تتعداه وعلى هذا مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وأما سجود الشمس فهو تمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها والله أعلم ذلك يعني الذي ذكر من جرى الشمس على ذلك التقدير والحساب الذي يكل النظر عن استخراجه وتتحير الأفهام عن استنباطه تقدير العزيز يعني الغالب بقدرته على كل شيء مقدور العليم يعني المحيط علما بكل شيء.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٣٨٥

قوله تعالى: والقمر قدرناه منازل يعني قدرنا له منازل وهي ثمانية وعشرون منزلا ينزل كل ليلة في منزل منها لا يتعداه يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص فإذا كان في آخر منازله رق وتقوس فذلك قوله تعالى: حتى عاد كالعرجون القديم وهو العود الذي عليه شماريخ العذق إلى منبته من النخلة والقديم الذي أتى عليه الحول فإذا قدم عتق ويبس وتقوس واصفر فشبه القمر به عند انتهائه إلى آخر منازله لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر يعني لا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه وهو قوله تعالى: ولا الليل سابق النهار يعني هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته. وقيل لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر فلا تطلع الشمس بالليل ولا يطلع القمر بالنهار وله ضوء فإذا اجتمعا وأدرك أحدهما صاحبه قامت القيامة. وقيل معناه أن الشمس لا تجتمع مع القمر في فلك واحد ولا يتصل ليل بليل لا يكون بينهما نهار فاصل وكل في فلك يسبحون أي والشمس والقمر في فلك يسيرون.

قوله عز وجل: وآية لهم أنا حملنا ذريتهم يعني أولادهم في الفلك المشحون يعني المملوء وخلقنا لهم من مثله يعني مثل الفلك ما يركبون يعني من الإبل، وهي سفائن البر. وقيل أراد بالفلك المشحون سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ومعنى الآية أن الله عز وجل حمل آباءهم الأقدمين في أصلاب الذين كانوا في السفينة فكانوا ذرية لهم ومنه قول العباس:

بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسرا وأهله الغرق

وإنما ذكر ذريتهم دونهم لأنه أبلغ في **الامتنان** عليهم وأبلغ في التعجب من قدرته فعلى هذا القول يكون قوله من مثله أي من مثل ذلك الفلك ما يركبون أي من السفن والزوارق في الأنهار الكبار والصغار." (١)

"قلت تكفير السيئات إنما يكون قبل دخولهم الجنة فكيف ذكره بعد دخولهم الجنة، قلت: الواو لا تقتضي الترتيب وقيل إن تكفير السيئات والمغفرة من توابع كون المكلف من أهل الجنة فقدم الإدخال بالذكر بمعنى أنه من أهل الجنة وكان ذلك عند الله فوزا عظيما يعني أن ذلك الإدخال والتكفير كان في علم الله تعالى فوزا عظيما ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات يعني المنافقين والمنافقات من أهل المدينة والمشركين والمشركات من أهل مكة وإنما قدم المنافقين على المشركين هنا وفي غيره من المنافقين كانوا أشد على المؤمنين من الكافرين لأن الكافر يمكن أن يحترز منه ويجاهد لأنه عدو مبين

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٨

والمنافق لا يمكن أن يحترز منه ولا يجاهد فلهذا كان شره أكثر من شر الكافر فكان تقديم المنافق بالذكر أولى الظانين بالله ظن السوء يعني أنهم ظنوا أن الله لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عليهم دائرة السوء يعني عليهم دائرة العذاب والهلاك وغضب الله عليهم زيادة في تعذيبهم وهلاكهم ولعنهم يعني وأبعدهم وطردهم عن رحمته وأعد لهم جهنم يعني في الآخرة وساءت مصيرا يعني ساءت جهنم منقلبا.

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ٧ الى ١٠]

ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما (٧) إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا (٨) لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا (٩) إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما (١٠)

ولله جنود السماوات والأرض تقدم تفسيره بقي ما فائدة التكرير ولم قدم ذكر جنود السموات والأرض على إدخال المؤمنين الجنة ولم أخر ذكر جنود السموات والأرض هنا بعد تعذيب المنافقين والكافرين، فنقول:

فائدة التكرار للتأكيد وجنود السموات والأرض منهم من هو للرحمة ومنهم من هو للعذاب فقدم ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة ليكون مع المؤمنين جنود الرحمة فيثبتوهم على الصراط وعند الميزان فإذا دخلوا الجنة أفضوا إلى جوار الله تعالى ورحمته والقرب منه، فلا حاجة لهم بعد ذلك إلى شيء، وأخر ذكر جنود السموات والأرض بعد تعذيب الكافرين والمنافقين ليكون معهم جنود السخط فلا يفارقوهم أبدا.

فإن قلت: قال في الآية الأولى: وكان الله عليما حكيما، وقال في هذه الآية وكان الله عزيزا حكيما فما معناه؟ قلت: لما كان في جنود السموات والأرض من هو للرحمة ومن هو للعذاب وعلم الله ضعف المؤمنين، ناسب أن تكون خاتمة الآية الأولى وكان الله عليما حكيما، ولما بالغ في وصف تعذيب الكافر والمنافق وشدته، ناسب أن تكون خاتمة الآية الثانية وكان الله عزيزا حكيما فهو كقوله: أليس الله بعزيز ذي انتقام وقوله فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر قوله تعالى: إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ذكره في معرض **الامتنان** عليه حيث شرفه بالرسالة وبعثه إلى الكافة شاهدا على أعمال أمته ومبشرا يعني لمن آمن به وأطاعه بالثواب ونذيرا يعني لمن خالفه وعصى أمره بالعقاب ثم بين فائدة الإرسال فقال تعالى: لتؤمنوا بالله ورسوله فالضمير فيه للناس المرسل إليهم وتعزروه يعني ويقووه وينصروه. والتعزير:

نصر مع تعظيم وتوقروه يعني وتعظموه والتوقير: التعظيم والتبجيل وتسبحوه من التسبيح الذي هو التنزيه من جميع النقائص أو من السبحة وهي الصلاة.

قال الزمخشري: والضمائر لله تعالى والمراد بتعزير الله تعالى. تعزير دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم. ومن فرق الضمائر." (١)

"في: ظننته قائما زيد، الهاء ضمير المجهول، وهي مفعول ظننت، وقائما المفعول الثاني، وزيد فاعل بقائم. ولا يجوز في مذهب البصريين أن يفسر إلا بجملة مصرح بجزأيها سالمة من حرف جر. قال ابن عطية، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: هو عماد. انتهى كلامه، ويحتاج إلى تفسير، وذلك أن العماد في مذهب بعض الكوفيين يجوز أن يتقدم مع الخبر على المبتدأ، فإذا قلت: ما زيد هو القائم، جوزوا أن تقول: ما هو القائم زيد.

فتقدير الكلام عندهم، وما تعميره هو بمزحزحه. ثم قدم الخبر مع العماد، فجاء: وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، أي تعميره، ولا يجوز ذلك عند البصريين، لأن شرط الفصل عندهم أن يكون متوسطا. وتلخص في هذا الضمير: أهو عائد على أحدهم؟ أو على المصدر المفهوم من يعمر؟ أو على ما بعده من قوله أن يعمر؟ أو هو ضمير الشأن؟ أو عماد؟ أقوال خمسة، أظهرها الأول.

والله بصير بما يعملون: قرأ الجمهور يعمرون بالياء، على نسق الكلام السابق.

وقرأ الحسن وقتادة والأعرج ويعقوب بالتاء، على سبيل الالتفات والخروج من العيبة إلى الخطاب. وهذه الجملة تتضمن التهديد والوعيد، وأتى هنا بصفة بصير، وإن كان الله تعالى متنزها عن الجارحة، إعلاما بأن علمه، بجميع الأعمال، علم إحاطة وإدراك للخفيات.

وما: في بما، موصولة، والعائد محذوف، أي يعملونه. وجوزوا فيها أن تكون مصدرية أي بعملهم، وأتى بصيغة المضارع، وإن كان علمه تعالى محيطا بأعمالهم السالفة والآتية لتواخي الفواصل.

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة **الامتنان** على بني إسرائيل وتذكارهم بنعم الله، إذ آتى موسى التوراة المشتملة على الهدى والنور، ووالى بعده بالرسل لتجديد دين الله وشرائعه، وآتى عيسى الأمور الخارقة، من إحياء الأموات، وإبراء الأكمه والأبرص، وإيجاد المخلوق، ونفخ الروح فيه، والإنباء بالمغيبات، وغير ذلك. وأيده بمن ينزل الوحي على يديه، وهو جبريل عليه السلام. ثم مع هذه المعجزات والنعم كانوا أبعد الناس عن قبول ما يأتيهم من عند الله، وكانوا بحيث إذا جاءهم رسول بما لا يوافقهم، بادروا إلى تكذيبه، أو قتلوه،

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٥٥/٤

وهم غير مكترثين بما يصدر منهم من الجرائم، حتى حكي أنهم في أثر قتلهم الجماعة من الأنبياء، تقوم سوق البقل بينهم، التي هي أرذل الأسواق، فكيف بالأسواق التي تباع فيها الأشياء النفيسة؟ ثم نعى تعالى عليهم أنهم باقون على تلك العادة من تكذيب ما جاء من عند الله، وإن كانوا قبل مجيئه يذكرون أنه يأتيهم من عند الله. فحين وافاهم." (١)

"ولما كان لفظ الناس يعم المؤمن والكافر، ميز الله المؤمنين بهذا النداء، تشريفا لهم وتنبيها على خصوصيتهم. وظاهر كلوا: الأمر بالأكل المعهود. وقيل: المراد الانتفاع به، ونبه بالأكل على وجوه الانتفاع، إذ كان الأكل أعظمها، إذ به تقوم البنية. قيل: وهذا أقرب إلى المعنى، لأنه تعالى ما خص الحل والحرمة بالمأكولات، بل بسائر ما ينتفع به من أكل وشرب ولبس وغير ذلك والطيبات. قيل: الحلال، وقيل: المستلذ المستطاب، لكن بشرط أن يكون حلالا. وقد تقدم هذا الشرط في قوله: كلوا مما في الأرض حلالا طيبا، فصار هذا الأمر الثاني مثل الأول في أن متعلقة المستلذ الحلال. ما رزقناكم: فيه إسناد الرزق إلى ضمير المتكلم بنون العظمة، لما في الرزق من الامتنان والإحسان. وإذا فسر الطيبات بالحلال، كان في ذلك دلالة على أن ما رزقه الله ينقسم إلى حلال وإلى حرام، بخلاف ما ذهبت إليه المعتزلة، من أن الرزق لا يكون إلا حلالا. وقد تقدم الكلام على الرزق في أول السورة، فأغنى عن إعادته هنا. ومن منع أن يكون الرزق حراما قال: المراد كلوا من مستلذ ما رزقناكم، وهو الحلال، أمر بذلك وأباحه تعالى دفعا لمن يتوهم أن التنوع في المطاعم والتفنن في إطابتها ممنوع منه، فكان تخصيص المستلذ بالذكر لهذا المعنى.

واشكروا لله: هذا من الالتفات، إذ خرج من ضمير المتكلم إلى اسم الغائب، وحكمة ذلك ظاهرة، لأن هذا الاسم الظاهر متضمن لجميع الأوصاف التي منها وصف الأنعام والرزق والشكر، ليس على هذا الإذن الخاص، بل يشكر على سائر الإنعامات والامتنانات التي منها هذا الامتنان الخاص. وجاء هنا تعدية الشكر باللام، وقد تقدم الكلام على ذلك.

وتضمنت هذه الآية أمرين: الأول: كلوا، قالوا: وهو عند دفع الضرر واجب، ومع الضيف مندوب إليه، وإذا خلا عن العوارض كان مباحا، وكذا هو في الآية. والثاني:

واشكروا لله، وهو أمر وليس بإباحة. قيل: ولا يمكن القول بوجوب الشكر، لأنه إما أن يكون بالقلب، أو باللسان، أو بالجوارح. فبالقلب هو العلم بصدور النعمة من المنعم، أو العزم على تعظيمه باللسان، أو الجوارح. أما ذلك العلم فهو من لوازم كمال العقل، فإن العاقل لا ينسى ذلك. فإذا كان ذلك العلم ضروريا،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١/٥٠٦

فكيف يمكن إيجابه؟ وأما العزم على تعظيمه باللسان والجوارح، فذلك العزم القلبي تابع للإقرار اللساني والعمل بالجوارح.

فإذا بينا أنهما لا يجبان، كان العزم بأن لا يجب أولى. وأما الشكر باللسان، فإما أن يفسر بالاعتراف له بكونه منعما، أو بالثناء عليه. فهذا غير واجب بالاتفاق، بل هو من باب." (١)

"والثوري، وإسحاق. وأجاز أكل صيد كلابهم: مالك، وأبو حنيفة، والشافعي إذا كان الصائد مسلما. قالوا: وذلك مثل شفرته. والجمهور: على جواز ما صاد الكتابي. وقال مالك: لا يجوز فرق بين صيده وذبيحته. وما صاد المجوسي فالجمهور على منع أكله:

عطاء، وابن جبير، والنخعي، ومالك، وأبو حنيفة، والليث، والشافعي. وقال أبو ثور: فيه قول أنهم أهل كتاب، وأن صيدهم جائز، وما علمتم موضع ما رفع على أنه معطوف على الطيبات، ويكون حذف مضاف أي: وصيد ما علمتم، وقدره بعضهم: واتخاذ ما علمتم.

أو رفع على الابتداء، وما شرطية، والجواب: فكلوا. وهذا أجود، لأنه لا إضمار فيه.

وقرأ ابن عباس وقرأ ابن عباس وابن الحنفية: وما علمتم مبنيا للمفعول أي: من أمر الجوارح والصيد بها. وقرأ: مكلبين من أكلب، وفعل وأفعل، قد يشتركان. والظاهر دخول الكلب الأسود البهيم في عموم الجوارح، وأنه يجوز أكل صيده، وبه قال الجمهور.

ومذه ب أحمد وجماعة من أهل الظاهر: أنه لا يجوز أكل صيده، لأنه مأمور بقتله، وما أوجب الشرع قتله فلا يجوز أكل صيده. وقال أحمد: لا أعلم أحدا رخص فيه إذا كان بهيما وبه قال: ابن راهويه. وكره الصيد به: الحسن، وقتادة، والنخعي. وقد تقدم ذكر أقصى غاية التعليم في الكلب، أنه إذا أمر ائتمر، وإذا زجر انزجر. وزاد قوم شرطا آخر وهو أن لا يأكل مما صاد، فأما سباع الطير فلا يشترط فيها الأكل عند الجمهور. وقال ربيعة: ما أجاب منها فهو المعلم. وقال ابن حبيب: لا يشترط فيها إلا شرط واحد: وهو أنه إذا أمرها أطاعت، فإن انزجارها إذا زجرت لا يتأتى فيها. وظاهر قوله: وما علمتم، حصول التعليم من غير اعتبار عدد. وكان أبو حنيفة لا يجد في ذلك عددا. وقال أصحابنا: إذا صاد الكلب وأمسك ثلاث مرات فقد حصل له التعليم. وقال غيرهم: إذا فعل ذلك مرة واحدة فقد صار معلما.

تعلمونهن مما علمكم الله أي: إن تعليمكم إياهن ليس من قبل أنفسكم، إنما هو من العلم الذي علمكم الله، وهو أن جعل لكم روية وفكرا بحيث قبلتم العلم. فكذلك الجوارح بصبر لها إدراك ما وشعور،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٠٩/٢

بحيث يقبلن الائتمار والانزجار. وفي قوله: مما علمكم الله، إشعار ودلالة على فضل العلم وشرفه، إذ ذكر ذلك في معرض **الامتنان**.

ومفعول علم وتعلمونهن الثاني محذوف تقديره: وما علمتموه طلب الصيد لكم لا لأنفسهن تعلمونهن ذلك، وفي ذلك دلالة على أن صيد ما لم يعلم حرام أكله، لأن الله تعالى إنما أباح ذلك بشرط التعليم. والدليل على ذلك الخطاب في عليكم في قوله: فكلوا مما." (١)

"صورة الطائر الحقيقي فتنفخ فيه فيكون طائرا حقيقيا، وأن قوله «عائد على الهيئة» لا يريد الهيئة المجرورة بالكاف، بل الموصوفة بالكاف، والتقدير: وإذ تخلق من الطين هيئة مثل هيئة الطائر فتنفخ فيها أي: في الموصوفة بالكاف التي نسب خلقها إلى عيسى. وأما كونه كيف يعود ضمير مذكر على هيئة وضمير مؤنث عل الطائر لأن قوله: «ويجوز عكس هذا» يؤدي إلى ذلك «فجوابه أنه جاز بالتأويل، لأنه تؤول الهيئة بالشكل ويؤول الطائر بالهيئة فاستقام، وهو موضع تأول وتأن. وقال هنا» بإذني «أربع مرات عقيب أربع جمل، وفي آل عمران» بإذن الله «مرتين؛ لأن هناك موضع إخبار فناسب الإيجاز، وهنا مقام تذكير بالنعمة **والامتنان** فناسب الإسهاب؛ وقوله:» بإذني «حال: إما من الفاعل أو من المفعول.

قوله: ﴿إلا سحر﴾ قرأ الأخوان هنا وفي هود وفي الصف» إلا ساحر «اسم فاعل، والباقون:» إلا سحر «مصدرا في الجميع، والرسم يحتمل القراءتين، فأما قراءة الجماعة فتحتمل أن تكون الإشارة إلى ما جاء به من البينات أي: ما هذا الذي جاء به من الآيات الخوارق إلى سحر، ويحتمل ان تكون الإشارة إلى عيسى، جعلوه نفس السحر مبالغة نحو:» رجل عدل «، أو على حذف مضاف أي: إلا ذو سحر. وخص مكي هذا الوجه بكون المراد بالمشار إليه محمدا صلى الله عليه وسلم فقال:» ويجوز أن تكون إشارة إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم على تقدير حذف مضاف أي: إن هذا إلا ذو سحر «. قلت: وهذا جائز، والمراد بالمشار إليه عيسى عليه السلام، وكيف يكون المراد النبي صلى الله عليه وسلم وهو لم يكن في زمن عيسى." (٢)

"واجبه يوم الحصاد. واستشكل بعض الناس ذلك بأن الإيتاء إنما يكون بعد التصفية فكيف يوجب الإيتار في يوم الحصيد؟ وأجيب بأن ثم محذوفا والتقدير: إلى تصفيته قالوا: فيكون الحصاد سببا للوجوب

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/١٨٠

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٤/٤٩٧

الموسع والتصفية سبب للأداء، وأحسن من هذا أن يكون المعنى: واهتموا بإيتاء الزكاة الواجبة فيه واقصدوه في ذلك اليوم.

والثاني: أنه منصوب بلفظ «حقه» على معنى: وأعطوا ما استحق منه يوم حصاده، فيكون الاستحقاق ثابتا يوم الحصاد والأداء بعد التصفية، ويؤيد ذلك تقدير المحذوف عند بعضهم كما قدمته، وقال في نظير هذه الآية: ﴿انظروا إلى ثمره﴾ [الأنعام: ٩٩] وفي هذه «كلوا» قيل: لأن الأولى سيقت للدلالة على كمال قدرته وعلى إعادة الأجسام من عجب الذنب فأمر بالنظر والتفكر في البداية والنهاية، وهذه سيقت في معرض كمال الامتنان فناسب الأمر بالأكل، وتحصل من مجموع الآيتين الانتفاع الأخروي والدنيوي، وهذا هو السبب لتقدم النظر على الأمر بالأكل.." (١)

"الأزهري:» العرب تقول ما كان من بطون الأنعام، ومن السماء، أو نهر يجري، أسقيت، أي: جعلت شربا له وجعلت له منه سقيا؟ ، فإذا كان للشفة قالوا: سقى، ولم يقولوا: أسقى «.

وقال الفارسي:» سقيته ختى روي، وأسقيته نهرا، أي: جعلته له شربا «. وقيل» سقاه إذا ناوله الإناء ليشرب منه، ولا يقال من هذا: أسقاه.

وقرأ أبو رجاء «يسقيكم» بضم الياء من أسفل وفي فاعله وجهان، أحدهما: هو الله تعالى، الثاني: أنه ضمير النعم المدلول عليه بالأنعام، أي: نعما يجعل لكم سقيا. وقرئ «تسقيكم» بفتح التاء من فوق. قال ابن عطية: «وهي ضعيفة» . قال الشيخ: «وضعفها عنده - والله أعلم - أنه أنث في» تسقيكم «، وذكر في قوله ﴿مما في بطونه﴾ ، ولا ضعف من هذه الجهة؛ لأن التذكير والتأنيث باعتبارين» . قلت «وضعفها عنده من حيث المعنى: وهو أن المقصود الامتنان على الخلق فنسبة السقي إلى الله تعالى هو الملائم، لا نسبته إلى الأنعام.

قوله: ﴿مما في بطونه﴾ يجوز أن تكون» من «للتبعيض، وأن تكون لابتداء الغاية. وعاد الضمير هنا على الأنعام مفردا مذكرا. قال." (٢)

"قوله: ﴿والفلك﴾ : العامة على نصب «الفلك» وفيه وجهان، أحدهما: أنها عطف على ﴿ما في الأرض﴾ أي: سخر لكم ما في الأرض، وسخر لكم الفلك. وأفردها بالذكر، وإن اندرجت بطريق العموم تحت «ما» . ومن قوله: ﴿ما في الأرض﴾ لظهور الامتنان بها ولعجيب تسخيرها دون سائر المسخرات.

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ١٩٠/٥

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٢٥٢/٧

و «تجري» على هذا حال. الثاني: أنها عطف على الجلالة بتقدير: ألم تر أن الفلك تجري في البحر، فتجري خبر على هذا.

وضم لام «الفلك» هنا الكسائي فيما رواه عن الحسن، وهي قراءة ابن مقسم. وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة والأعرج وأبو حيوة والزعفراني برفع «والفلك» على الابتداء وتجري بعده الخبر. ويجوز أن يكون ارتفاعه عطفا على محل اسم «أن» عند من يجوز ذلك نحو: «إن زيدا وعمرو قائمان» وعلى هذا ف «تجري» حال أيضا. و «بأمره» الباء/ للسببية. قوله: ﴿أن تقع﴾ فيه ثلاثة أوجه، أحدها: أنها في محل نصب أو جر لأنها على حذف حرف الجر تقديره:." (١)

"عرف مخلوقاته كل شيء يحتاجون إليه، فيؤول المعنى إلى معنى قوله: ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: ٥٠] .

الخامس: أن تعود الهاء [على الله تعالى] وأن يكون «خلقه» منصوبا على المصدر المؤكد لمضمون الجملة كقوله: ﴿صنع الله﴾ [النمل: ٨٨] ، وهو مذهب سيبويه أي: خلقه خلقا. ورجح على بدل الاشتمال: بأن فيه إضافة المصدر إلى فاعله، وهو أكثر من إضافته إلى المفعول، وبأنه أبلغ في **الامتنان** لأنه إذا قال: ﴿أحسن كل شيء﴾ كان أبلغ من «أحسن خلق كل شيء» ؛ لأنه قد يحسن الخلق - وهو المحاولة - ولا يكون الشيء في نفسه حسنا. وإذا قال: أحسن كل شيء اقتضى أن كل شيء خلقه حسن، بمعنى أنه وضع كل شيء في موضعه.

وأما القراءة الثانية ف «خلق» فيها فعل ماض، والجملة صفة للمضاف أو المضاف إليه، فتكون منصوبة المحل أو مجرورته.

قوله: «وبدأ» العامة على الهمز. وقرأ الزهري «بدا» بألف خالصة، وهو خارج عن قياس تخفيفها، إ ذ قياسه بين بين. على أن الأخفش حكى «." (٢)

"قوله: ﴿أنا حملنا﴾ : مبتدأ، و «آية» خبر مقدم. وجوز أبو البقاء أن يكون «أنا حملنا» خبر مبتدأ محذوف بناء منه على أن «آية لهم» مبتدأ وخبر، كلام مستقل بنفسه، كما تقدم في نظيره. والظاهر أن الضميرين في «لهم» و «ذريتهم» لشيء واحد. ويراد بالذرية آباؤهم المحمولون في سفينة نوح عليه السلام

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٣٠٢/٨

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٨٢/٩

أو يكون الضميران مختلفين أي: ذرية القرون الماضية. ووجه **الامتنان** عليهم: أنهم في ذلك مثل الذرية من حيث إنهم ينتفعون بها كانتفاع أولئك.." (١)

"قوله: ﴿والشياطين﴾ : نسق على «الريح» . و «كل بناء» بدل من «الشياطين» ، وأتى بصيغة المبالغة لأنه في معرض **الامتنان**.." (٢)

"وللخصم أن يجيب بأنه يجوز أن يذكر الكل، ثم يعطف عليه ذكر بعض أقسامه لكونه أشرف الأقسام، وأما إذا ذكر شيء آخر كان المذكور أولا مغايرا للمذكور ثانيا، وها هنا ذكر سبع المثاني. ثم عطف عليه القرآن فوجب التغاير.

ويجاب عليه: بأن بعض الشيء مغاير لمجموعه، فلم لا يكفكي هذا القدر من المغايرة في حسن العطف؟ .

واعلم أنه لما كان المراد بالسبع المثاني هو الفاتحة؛ دل على أنها أفضل سور القرآن، لأن إفرادها بالذكر مع كونها جزءا من القرآن؛ يدل على مزيد اختصاصها بالفضلية، وأيضا: لما أنزلها مرتين دل ذلك على أفضليتها، وشرفها، ولما واظب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قرءاتها في جميع الصلوات طول عمره، وما أقام [سورة أخرى] مقامها في شيء من الصلوات، دل على على وجوب قراءتها، وألا يقوم شيء من القرآن مقامها.

القول الثاني: السبع المثاني: هي السبع الطوال، قاله ابن عمر، وسعيد بن جبير في بعض الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما وإنما سميت السبع الطوال مثاني؛ لأن الفرائض، والحدود، والأمثال والخبر، والعبر ثنيت فيها.

وأنكر الربيع هذا القول، وقال: الآية مكية، وأكثر هذه السورة مدنية، وما نزل منها من شيء في مكة، فكيف تحمل هذه الآية عليها؟ .

وأجاب قوم عن هذا بأنه تعالى جل ذكره أنزل القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم أنزل على نبيه منه نجوما، فلما أنزله إلى سماء الدنيا، وحكم بإنزاله عليه فهو جملة من آتاه، وإن لم ينزل عليه بعد.

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٢٧١/٩

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٣٧٩/٩

وفي هذا الجواب نظر، فإن قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني﴾ ذكره في [معرض] الامتنان، وهذا الكلام إنما يصدق، إذا وصل ذلك إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه فأما ما لم يصله بعد، فلا يصدق ذلك عليه.

وأما قوله: إنه لما حكم بإنزاله على محمد، كان ذلك جاريا مجرى ما نزل عليه، فضعيف؛ لأن إقامة مالم ينزل عليه مقام النازل عليه مخالف للظاهر.

الوقول الثالث: أن السبع المثاني: هون القرآن، وهو منقول عن ابن عباس رضي الله." (١)

"قوله:» مما في بطونه «، ولا ضعف من هذه الجهة؛ لأن التذكير، والتأنيث باعتبارين» .

قال شهاب الدين: وضعفها عنده من حيث المعنى، وهو أن المقصود الامتنان على الخلق، فنسبة السقي إلى الله هو الملائم لا نسبته إلى الأنعام.

قوله: ﴿مما في بطونه﴾ يجوز أن تكون «من» للتبعيض، وأن تكون لابتداء الغاية وعاد الضمير ها هنا على الأنعام مفردا مذكرا.

قال الزمخشري: ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال، كقولهم «ثوب أسمال» ، ولذلك رجع الضمير إليه مفردا، وأما ﴿في بطونها﴾ [المؤمنون: ٢١] في سورة المؤمنين، فلأن معناه الجمع، ويجوز أن يقال في «الأنعام» وجهان:

أحدهما: أن يكون جمع تكسير: «نعم» كأجبال في جبل.

وأن يكون اسما مفردا مقتضيا لمعنى الجمع، فإذا ذكر، فكما يذكر «نعم» في قوله: [الرجز]

٣٣٣٤ - في كل عام نعم يحوونه ... يلقحه قوم وينتجونه

وإذا أنث ففيه وجهان: أنه تكسير نعم، وأنه في معنى الجمع.

قال أبو حيان: أما ما ذكره عن سيبويه، ففي كتابه في هذا الباب، ما كان على مثال مفاعل، ومفاعيل ما نصه: «وأما أجمال، وفلوس فإنها تنصرف، وما أشبهها؛ لأنها ضارعت الواحد، ألا ترى أنك تقول: أقوال، وأقاويل، وأعراب، وأعاريب، وأيد، وأياد فهذه الأحرف تخرج إلى مثال: مفاعل، ومفاعيل كما يخرج إليه الواحد، إذا كسر الجمع، وأما مفاعل، ومفاعيل، فلا يكسر؛ فيخرج الجمع إلى بناء غير هذا البناء؛ لأن هذا البناء هو الغاية فلما ضارعت الواحد صرفت» .

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٨٧/١١

ثم قال: وكذلك الفعول لو كسرت مثل الفلوس؛ لأن يجمع جمعا لأخرجته إلى فعائل كما تقول: جدود، وجدائد، وركوب، وركائب، وركاب.

ولو فعلت ذلك بمفاعل، ومفاعيل، لم يجاوز هذا البناء، ويقوي ذلك أن بعض العرب تقول: «أتي» للواحد فيضم الألف، وأما أفعال؛ فقد تقع للواحد، من العرب من يقول: «هو الأنعام» ، قال - الله عز وجل -: ﴿نسقيكم مما في بطونه﴾ . وقال أبو الخطاب:." (١)

"من غير زيادة ولا نقصان. وقال ابن عباس: «لطيف» بأرزاق عباده «خبير» بما في قلوبهم من القنوط. وقال الكلبي: «لطيف» في أفعاله «خبير» بأعمال خلقه.

وقال مقاتل: «لطيف» باستخراج النبت «خبير» بكيفية خلقه.

﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ عبيدا وملكا، وهو غني عن كل شيء لأنه كامل لذاته، ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد في الحكمة من مطر ونبات فخلق هذه الأشياء رحمة للحيوانات وإنعاما عليهم لا لحاجة به إلى ذلك، وإذا كان كذلك كان إنعامه خاليا عن غرض عائد إليه، فكان مستحقا للحمد، فكأنه قال: إنه لكونه غنيا لم يفعل ما فعله إلا للإحسان، ومن كان كذلك كان مستحقا للحمد فوجب أن يكون حميدا، فلهذا قال: ﴿وإن الله لهو الغني الحميد﴾ .

قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ أي ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر، ولا أشد من الحديد، ولا أكثر هيبة من النار، وقد سخرها لكم، وسخر الحيوانات أيضا حتى ينتفع بها للأكل والركوب والحمل.

قوله: «والفلك» العامة على نصب «الفلك» وفيه وجهان:

أحدهما: أنها عطف على ﴿ما في الأرض﴾ أي سخر لكم ما في الأرض وسخر لكم الفلك، وأفردها بالذكر وإن اندرجت بطريق العموم تحت «ما» في قوله ﴿ما في الأرض﴾ لظهور الامتنان بها، ولعجيب تسخيرها دون سائر المسخرات، و «تجري» على هذا حال.

والثاني: أنها عطف على الجلالة، وتقديره: ألم تر أن الفلك تجري في البحر، ف «تجري» خبر على هذا. وضم لام «الفلك» هنا الكسائي فيما رواه عن الحسن، وهي قراءة ابن مقسم، وقرأ أبو عبد الرحمن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٢/١٠٠

وطلحة والأعرج وأبو حيوة والزعفراني برفع «والفلك» على الابتداء، و «تجري» بعده الخبر. ويجوز أن يكون ارتفاعه." (١)

"الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله، لأأنه وكزه تأديبا، ومثل ذلك ربما حسن.

وقيل: من المخطئين، فبين أنه فعله على وجه لا تجوز المؤاخذة به، فيعد كافرا لنعمه.

قوله: ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾ . العامة على تشديد ميم «لما» وهي «لما» التي هي حرف وجوب عند سيبويه. أو بمعنى «حين» عند الفارسي. روي عن حمزة بكسر اللام وتخفيف الميم، أي: لتخوفي منكم، و «ما» مصدرية. وهذه القراءة تشبه قراءته في «آل عمران» : ﴿لمآ آتيتكم﴾ [آل عمران: ٨١] . وقد تقدمت مستوفاة.

(قال الزمخشري: إنما جمع الضمير في «منكم» و «خفتكم» مع إفراده في «تمنها» و «عبدت» ، لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله لقوله: ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ [القصص: ٢٠] ، وأما الامتنان والتعبد فمنه وحده) .

فصل

والمعنى: إني فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكا، وكان مني في حكم السهو، فلم أستحق التخويف الذي يوجب الفرار، ومع ذلك فررت منكم لما خفتكم عن قولكم: ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ [القصص: ٢٠] فبين بذلك ألا نعمة له عليه في الفلة، بل بأن يكون مسيئا فيه أقرب.

فصل

وقد ورد لفظ «الفرار» على أربعة:

الأول: بمعنى الهرب، كهذه الآية، ومثله ﴿لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت﴾ [الأحزاب: ١٦] .." (٢)

"أي خلقه خلقا، ورجح على بدل الاشتمال بأن فيه إضافة المصدر إلى فاعله، وهو أكثر من إضافته إلى المفعول وبأنه أبلغ في الامتنان لأنه إذا قال: ﴿أحسن كل شيء﴾ كان أبلغ من ﴿أحسن خلق كل شيء﴾ ؛ لأنه قد يحسن الخلق وهو المحاولة ولا يكون الشيء في نفسه «حسنا» وإذا قال: ﴿أحسن كل شيء﴾ اقتضى أن كل (شيء) خلقه حسن بمعنى أنه وضع كل شيء في موضعه.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤٠/١٤

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/١٥

وأما القراءة الثانية «فخلق» فيها فعل ماض، والجملة صفة للمضاف أو أو المضاف إليه فتكون منصوبة المحل أو مجرورته.

قوله: «وبدأ» العاملة على الهمز. وقرأ الزهري «بدأ» بألف خالصة وهو خارج عن قياس تخفيفها إذ قياسه بين بين على أن الأخفش حكى قريبا. وجوز أبو حيان أن يكون من لغة الأنصار، يقولون في «بدا» بكسرها وبعدها ياء كقول عبد الله بن رواحة الأنصاري.

٤٠٦٢ - باسم الإله وبه بدينا ... ولو عبدنا غيره شقينا

قال: وطيىء تقول في تقى تقاء، قال: فاحتمل أن تكون قراءة الزهري من هذه اللغة أصله «بدي» ثم صار «بدأ» ، قال شهاب الدين: فتكون القراءة مركبة من لغتين.

فصل

﴿ذلك عالم الغيب والشهادة﴾ يعني ذلك الذي صنع ما ذكر من خلق السموات والأرض عالم ما غاب عن الخلق وما حضر «العزير الرحيم» لما بين أنه عالم ذكر أنه «عزيز» قادر على الانتقام من الكفرة «رحيم» واسع الرحمة على البررة ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ أي أحسن خلق كل شيء. قال ابن عباس: أتقنه وأحكمه وقال." (١)

"تقدم في نظيره والظاهر أن الضميرين في «لهم» و «ذريتهم» لشيء واحد ويراد بالذرية آباؤهم المحمولين في سفينة نوح - عليه (الصلاة و) السلام - أو يكون الضميران مختلفين أي ذرية القرون الماضية ووجه الامتنان عليهم أنهم في ذلك مثل الذرية من حيث إنهم ينتفعون بها كانتفاع أولئلك. وقوله «ما يركبون» هذا يحتمل أن يكون من جنس الفلك إن أريد بالفلك سفينة نوح - عليه (الصلاة و) السلام - خاصة وأن يكون من جنس آخر كالإبل ونحوه ولهذا سمتها العرب سفن البر فقوله: «من مثله» أي من مثل الفلك أو من مثل ما ذكر من خلق الأزواج، (في قوله «وآخر من شكله أزواج») والضمير في «لهم» يحتمل أن يكون عائدا إلى الذرية أي حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين ما يركبون، ويحتمل أن يعود إلى العباد الذين عاد إليهم قوله: «وآية لهم» وهو الظاهر لعود الضمائر إلى شيء واحد و «من» يحتمل أن تكون صلة أي خلقنا لهم مثله وأن تكون للبيان لأن المخلوق كان أشياء.

وقال من مثل الفلك للبيان وتقدم اشتقاق الذرية في البقرة، واختلاف القراء فيها في الأعراف.

فصل

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٧٧/١٥

قال المفسرون: المراد بالذرية الآباء والأجداد واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد أي حملنا آباءكم في الفلك، والألف للتعريف أي فلك نوح وهو مذكور في قوله: ﴿واصنع الفلك﴾ [هود: ٣٧] وهو معلوم عند العرب. وقال الأكثرون: الذرية لا تطلق إلا على الولد وعلى هذا فالمراد إما أن يكون الفلك." (١)

"وروي أن رجلين خرجا يقصدان» رؤبة «ليسألاه عن هذا الحرف فقال لهما: أين تصيبان فعرفاها وقالا هذه بغيتنا، وأنشد الثعلبي على ذلك:

٤٢٧٤ - أصاب الجواب فلم يستطع ... فأخطا الجواب لدى المفصل

أي أراد الجواب ويقال:» أصاب الله بك خيرا «أي أراد بك وقيل: الهمزة في أصاب للتعدية من (أ) صاب يصوب أي نزل، قال:

٤٢٧٥ - ... ... تنزل من جو السماء يصوب

والمفعول محذوف أي أصاب جنوده أي حيث وجههم وجعلهم يصوبون صوب المطر، و «الشياطين» نسق على «الريح» و «كل بناء» بدل من «الشياطين» كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية.

روي أن سليمان - عليه (الصلاة و) السلام - أمر الجان فبنت له إصطخر، فكانت فيها قرار مملكة النزل قيدما، وبنت هل الجان أيضا «تدمر» وبين المقدس وباب جبرون وباب البريد الذين بدمشق على أحد الأقوال، وبنوا له ثلاثة قصور باليمن غدان وشالخين وبينون ومدينة صنعاء. قوله: «وغواص» نسق على «بناء» أي يغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ. وألا بصيغة المبالغة لأنه في معرض **الامتنان**.

قوله: ﴿وآخرين﴾ عطف على «كل» فهو داخل في حكم البدل وتقدم شرح «مقرنين في الأصفاد» آخر سورة إبراهيم.." (٢)

"ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : «لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي» .

قوله: ﴿لو نشآء لجعلناه حطاما﴾ .

أتى هنا بجواب «لو» مقرونا ب «اللام» ، وهو الأكثر؛ لأنه مثبت، وحذف في قوله: ﴿جعلناه أجاجا﴾ [الواقعة: ٧٠] ؛ لأن المنة بالمأكول أعظم منها بالمشروب. قاله الزمخشري.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٥/١٦

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٢٤/١٦

وهذا منقوض بقوله: ﴿ولو نشآء لطمسنا﴾ [يس: ٦٦] و ﴿ولو نشآء لمسخناهم﴾ [يس: ٦٧] ، وذلك أن أمر الطمس أهون من أمر المسخ، وأدخل فيهما «اللام» .

وأجاب الزمخشري بجواب آخر فقال: ﴿ولو نشاء لجعلناه حطاما﴾ كان أقرب الذكر، فاستغنى باللام فيه عن ذكرها ثانيا.

قال ابن الخطيب: وهذا ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿ولو نشآء لطمسنا على أعينهم﴾ [يس: ٦٦] مع قوله: ﴿ولو نشآء لمسخناهم﴾ [يس: ٦٧] أقرب من قوله: ﴿لجعلناه حطاما﴾ ، و ﴿جعلناه أجاجا﴾ [الواقعة: ٧٠] اللهم إلا أن تقول هناك: أحدهما قريب من الآخر ذكرا لا معنى؛ لأن الطمس لا يلزمه المسخ ولا بالعكس، وأما المأكول يكون معه المشروب في الدهر فالأمران متقاربان لفظا ومعنى.

فصل في الكلام على هذه الآية

قال الماوردي: هذه الآية تتضمن أمرين:

أحدهما: **الامتنان** عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم.

الثاني: البرهان الموجب للاعتبار؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره، وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعا أخضر، ثم قوي مشتدا أضعاف ما كان عليه، فهو بإعادة من أمات أحق عليه وأقدر، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة، ثم قال: ﴿لو نشآء لجعلناه حطاما﴾ أي: متكسرا، يعني: الزرع والحطام الهشيم الهالك الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء، فنبه بذلك على أمرين:." (١)

"وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - الأميون الذين ليس لهم كتاب ولا نبي بعث فيهم، وقيل: الأميون الذين هم على ما خلقوا عليه.

وقرىء: «الأمين» بحذف ياء النسب.

قوله: ﴿رسولا منهم﴾ .

يعني محمدا صلى الله عليه وسلم وما من حي من العرب إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة وقد ولدوه.

وقال ابن إسحاق: إلا بني تغلب، فإن الله طهر نبيه صلى الله عليه وسلم منهم لنصرانيتهم، فلم يجعل لهم عليه ولادة، وكان أميا لم يقرأ من كتاب ولم يتعلم صلى الله عليه وسلم .

قال الماوردي: فإن قيل: فما وجه **الامتنان** بأن بعث الله نبيا أميا؟ .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٨/٤٢٠

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: لموافقته ما تقدم من بشارة الأنبياء.

الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم فيكون أقرب لموافقتهم.

الثالث: لينفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعى إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها.

قال القرطبي: «وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوته» .

قوله: ﴿يتلوا عليهم آياته﴾ يعني القرآن «ويزكيهم» أي: يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان. قاله ابن عباس.

وقيل: يطهرهم من دنس الكفر والذنوب. قاله ابن جريج ومقاتل.

وقال السدي: يأخذ زكاة أموالهم، «ويعلمهم الكتاب» يعني: القرآن، «والحكمة» يعني السنة. قاله الحسن.

وقال ابن عباس: «الكتاب» الخط بالقلم، لأن الخط إنما نشأ في العرب بالشرع لما أمروا بتقييده بالخط.

وقال مالك بن أنس: «الحكمة» الفقه في الدين.

وقد تقدم في البقرة.." (١)

"قوله: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ .

قيل: اللطيف: العالم.

وقيل: هو فاعل الأشياء اللطيفة التي يخفى علمها على أكثر الفاعلين، ولهذا يقال: إن لطف الله تعالى بعباده عجيب، والمراد به دقائق تدبيره لهم، وهذا أقرب وإلا لكان ذكر الخبير بعد تكرارا.

قوله: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا﴾ لما بين الدليل كونه عالما بما يسرون وما يعلنون ذكر بعده هذه الآية على سبيل التهديد كقول السيد لعبده الذي أساء إليه سرا: يا فلان أنا أعلم سرك وعلانيتك، فاجلس في هذه الدار التي وهبتها منك، وكل هذا الخير الذي هيأته لك، ولا تأمن تأديبي، فكأنه تعالى يقول: يا أيها الكفار أنا عالم بسركم وجهركم وضمائركم، فخافوني؛ فإن الأرض التي هي قراركم أنا ذللتها لكم، ولو شئت خسفت بكم.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٩/٧٠

والذلول: المنقاد الذي يذل لك، والمصدر الذل وهو اللين والانقياد، أي: لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والغلظة.

وقيل: يثبتها بالجبال لئلا تزول بأهلها، ولو كانت تتكفأ متمايلة لما كانت منقادة لنا.

وقيل: إشارة إلى التمكن من الزرع، والغرس، وشق العيون، والأنهار، وحفر الآبار، وبناء الأبنية، ولو كانت صلبة لتعذر ذلك.

وقيل: لو كانت مثل الذهب والحديد لكانت تسخن جدا في الصيف، وكانت تبرد جدا في الشتاء.

قوله: ﴿فامشوا في مناكبها﴾ . هذه استعارة حسنة جدا.

وقال الزمخشري: مثل لفرط التذليل، ومجاوزته الغاية؛ لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير، وأنهاه عن أن يطأه الراكب بقدمه، ويعتمد عليه، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك.

فصل في هذا الأمر

هذا أمر إباحة، وفيه إظهار **الامتنان**.

وقيل: هو خبر بلفظ الأمر، أي: لكي تمشوا في أطرافها، ونواحيها، وآكامها وجبالها.." (١)

"والجواب: أنها غير متناهية بحسب الأشخاص والأنواع، إلا أنها متناهية بحسب الأجناس، وذلك يكفي في التذكر الذي يفيد العلم بوجود الصانع الحكيم. فصل في بيان هل لله نعمة على الكافر في الدنيا اختلفوا في أنه هل لله نعمة على الكافر في الدنيا؟ فمنهم من قال: هذه النعم القليلة في الدنيا لما كانت مؤدية إلى الضرر في الآخرة لم تكن نعمة، فإن من جعل السم في الحلوى لم يعد النفع الحاصل من أكل الحلوى نعمة لما كان ذلك سبيلا إلى الضرر العظيم، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين﴾ [آل عمران: ١٧٨] . ومنهم من قال: إنه تعالى وإن لم ينعم على الكافر بنعمة الدين، فلقد أنعم عليه بنعمة الدنيا [وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني رحمه الله] . قال ابن الخطيب: وهذا القول أصوب ويدل عليه وجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ [البقرة: ٢١] الآيات فأمر الكل بطاعته لمكان هذه النعم وهي نعمة الخلق والرزق. وثانيها: قوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا﴾ [البقرة: ٢٨] وذكره في معرض **الامتنان**، وشرح النعم، ولو لم يصل إليهم من الله تعالى شيء من النعم لما صح ذلك. وثالثها: قوله: ﴿يابني

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٤٦/١٩

إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وهذا نص صريح؛ لأنه خطاب لأهل الكتاب، وكانوا من الكفار، وكذا قوله تعالى: ﴿يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ [البقرة: ٤٧] إلى قوله: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ [البقرة: ٤٩] . ورابعها: قوله تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿وأرسلنا السمآء عليهم مدرارا﴾ [الأنعام: ٦] . وخامسها: قوله تعالى: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ [الأنعام: ٦٣] إلى قوله: ﴿ثم أنتم تشركون﴾ [الأنعام: ٦٤] . وسادسها: قوله تعالى ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون﴾ [الأعراف: ١٠] وقال في قصة «إبليس» : ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ [الأعراف: ١٧] . وسابعها: قوله: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفآء من بعد عاد وبوأكم في الأرض﴾ [الأعراف: ٧٤] وقال: ﴿قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين﴾ [الأعراف: ١٤٠] .." (١)

"وقيل: معناه يتركون الإيمان بيوم القيامة.

وقيل: نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته، وحبهم العاجلة: أخذهم الرشا ما كتموه، وقيل: أراد المنافقين لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا، والآية تعم، واليوم الثقيل: يوم القيامة، وسمي ثقيلا لشدائده وأهواله وقيل: للقضاء فيه بين العباد.

قوله تعالى: ﴿نحن خلقناهم﴾ أي من طين، ﴿وشددنآ أسرهم﴾ أي: خلقهم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم، والأسر: الخلق.

قال أبو عبيد: يقال: فرس شديد الأسر، أي: الخلق، ويقال: أسره الله، إذا شدد خلقه؛ قال لبيد [الرمل]

٥٠٥١ - ساهم الوجه شديد أسره ... مشرف الحارك محبوك الكتد

وقال الأخطل: [الكامل]

٥٠٥٢ - من كل مجتنب شديد أسره ... سلس القياد تخاله مختالا

وقال أبو هريرة والحسن والربيع رضي الله عنهم: شددنا مفاصلهم.

قال أهل اللغة: الأسر: الربط، ومنه: أسر الرجل، إذا أوثق بالقيد، وفرس مأسورة الخلق وفرس مأسورة بالعقب، والإسار: هو القيد الذي يشد به الأقتاب، تقول: أسرت القتب أسرا، أي: شددته وربطته.

فصل في معنى الأسر

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٧/٢

قال ابن زيد: الأسر القوة، والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنعم حين قابلوها بالمعصية، أي: سويت خلقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي.

قال ابن لخطيب: وهذا الكلام يوجب عليهم طاعة الله تعالى من حيث الترغيب والترهيب؛ أما الترغيب فلأنه هو الذي خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة، وخلق لهم جميع ما يمكن الانتفاع به، فإذا أحبوا اللذات العاجلة، وتلك اللذات لا تحصل إلا بالمنتفع والمنتفع به، وهما لا يحصلان إلا بتكوين." (١)

"أي: رحمة لنفسي، ووجه الدلالة من قوله «أين آوي هذه» ، أنه لو كان من الرباعي [لقال: أأوي – بضم الهمزة الأولى وسكون الثانية – لأنه مضارع آوى مثل أكرم، وهذه الهمزة] المضمومة هي حرف المضارعة، والثانية هي فاء الكلمة، وأما همزة «أفعل» فمحذوفة على القاعدة، ولم تبدل هذه الهمزة كما أبدلت في «أومن» لئلا يستثقل بالإدغام، ولذلك نص الفراء على أن «تؤويه» من قوله تعالى ﴿وفصيلته التي تؤويه﴾ [المعارج: ١٣] لا يجوز إبدالها للثقل.

فصل

قال ابن الخطيب: «يجدك» من الوجود الذي بمعنى العلم، والمفعولان منصوبان ب «وجد» ، والوجود من الله العلم، والمعنى: ألم يعلمك الله يتيما فآوى.

قال القرطبي: «يتيما» لا أب لك، قد مات أبوك، «فآوى» ، أي: جعل لك مأوى تأوى إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك.

وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم أوتم النبي صلى الله عليه وسلم من أبويه؟ .

فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه حق.

وعن مجاهد: هو من قول العرب: درة يتيمة إذا لم يكن لها مثل، فمجاز الآية ألم يجدك واحدا في شرفك، لا نظير لك، فآواك الله بأصحاب يحفظونك، ويحوطونك.

فصل في جواب سؤال

أورد ابن الخطيب هنا سؤالا: وهو أنه كيف يحسن من الجواد أن يمن بنعمة، فيقول: ﴿ألم يجدك يتيما فآوى﴾ ، ويؤكد هذا السؤال أن الله – تعالى – حكى عن فرعون قوله لموسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ألم نربك فينا وليدا﴾ [الشعراء: ١٨] في معرض الذم لفرعون فما كان مذموما من فرعون، كيف يحسن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٤/٢٠

من الله تعالى؟ قال: والجواب: أن ذلك يحسن إذا قصد بذلك تقوية قلبه، ووعده بدوام النعمة، ولهذا ظهر الفرق بين هذا الامتنان، وبين امتنان فرعون، لأن امتنان فرعون معناه: فما بالك لا تخدمني، وامتنان الله تعالى: زيادة نعمه، كأنه يقول: ما لك تقطع عني رجاءك، ألست شرعت في تربيتك أتظنني تاركا لما صنعته، بل لا بد وأ أتم النعمة كما قال تعالى: ﴿ولأتم نعمتي عليكم﴾ [البقرة: ١٥٠] .

فإن قيل: إن الله تعالى من عليه بثلاثة أشياء، ثم أمره أن يذكر نعمة ربه، فما وجه المناسبة؟ .." (١)

"إذا تعلقت بمحذوف، وقد قامت مقامه - صار فيها ضمير مقدر مرفوع، واحتاجت إلى ابتداء يعود عليه ذلك الضمير، كقولك: لزيد مال، في الدار زيد، خلفك عمرو، فلا بد من رفع» جنات «، إذا تعلقت اللام بمحذوف، ولو تعلقت بمحذوف على أن لا ضمير فيها لرفعت» جنات «بفعلها، وهو مذهب الأخفش في رفعه ما بعد الظروف وحروف الخفض بالاستقرار، وإنما يحسن ذلك عند حذاق النحويين إذا كانت الظروف، أو حروف الخفض صفة لما قبلها، فحينئذ يتمكن ويحسن رفع الاسم بالاستقرار، وقد شرحنا ذلك وبيناه في أمثلة؛ وكذلك إذا كانت أحوالا» .

فقد جوز تعلق هذه اللام ب «أؤنبئكم» أو بمحذوف على أنها صفة لخير، بشرط أن يجر لفظ «جنات» على البدل من «خير» وظاهره أنه لا يجوز ذلك مع رفع «جنات» وعلل ذلك بأن حروف الجر تتعلق بمحذوف، يحمل الضمير، فوجب أن يؤتى له بمبتدأ هو «جنات» وهذا الذي قاله من هذه الحيثية لا يلزم؛ إذ لقائل أن يقول: أجوز تعلق اللام بما ذكرت من الوجهين مع رفع «جنات» على أنها خبر مبتدأ محذوف، لا على الابتداء حتى يلزم ما ذكرت ولكن الوجهين ضعيفان من جهة أخرى، وهو أن المعنى ليس واضحا بما ذكر مع أن جعله صفة لخير أقوى من جعلها متعلقة ب «أؤنبئكم» ؛ إذ لا معنى له، وقوله - في الظروف وحروف الجر -: إنها عند الحذاق إنما ترفع الفاعل إذا كانت صفات. . وكذلك إن كانت أحوالا - فيه قصور؛ لأن هذا الحكم مستقر لها في مواضع:

منها: الموضعان اللذان ذكرهما.

وثالثها: أن يقعا صلة.

ورابعها: أن يقعا خبرا لمبتدأ.

وخامسها: أن تعتمد على نقي.

وسادسها: أن تعتمد على استفهام. وقد تقدم تحرير هذا.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٨٨/٢٠

فصل

قد بينا في قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة: ٢] معنى التقوى، وبالجملة فإن المتقي هو الآتي بالواجبات، المتحرز عن المحظورات.

وقيل: التقوى عبارة عن اتقاء الشرك؛ لأن التقوى - في عرف القرآن - مختصة بالإيمان. قال تعالى: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ [الفتح: ٢٦] ، وظاهر اللفظ يطابق **الامتنان** بحقيقة التقوى، وهي حاصلة عند حصول اتقاء الشرك وعرف القرآن مطابق لذلك، فوجب حمله على من اتقى الكفر:

قوله: ﴿عند ربهم﴾ فيه أربعة أوجه:." (١)

"مولانا، ويجب على العبد الانقياد لمولاه؛ ولأنه أنعم ومن بوجوه الإنعام **والامتنان**، فأوجد وأحيا وعلم وهدى، فعلى العبد أن يقابل تلك النعم بأنواع الخضوع والانقياد؛ ولأنه بكونه موجدا وخالقا وربا يجب علينا عبادته، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ويلزم من ذلك ألا نوجب لتلك الأفعال ثوابا؛ لأن أداء الحق لمستحقه لا يوجب، وثواب هذا إن سلمنا أن العبد أتى بتلك الطاعات من عند نفسه، فكيف وهذا محال؛ لأن الطاعات لا تحصل إلا بخلق الله - تعالى - القدرة عليها، والداعية إليها [ومتى حصلت القدرة والداعي كان] مجموعهما موجبا لصدور الطاعة، فتكون تلك الطاعة إنعاما آخر.

وأيضا أنه خلقنا من نفس واحدة، ذلك أيضا يوجب علينا طاعته لأن ذلك يدل على كمال القدرة؛ لأن ذلك لو كان بالطبيعة لما تولد عن الإنسان إلا إنسان يشاكله ويشابهه في الخلقة والطبيعة، ولما اختلف الناس في الصفات والألوان، دل على أن الخالق قادر مختار عالم، يجب الانقياد لتكاليفه؛ ولأن الله تعالى عقب الأمر بالتقوى بالأمر بالإحسان إلى اليتامى والنساء والضعفاء وكونهم من نفس واحدة باعث على ذلك بكونه [وذلك لأن الأقارب لا بد أن] يكون بينهم مواصلة وقرابة، وذلك يزيد في المحبة، ولذلك يفرح الإنسان بمدح أقاربه ويحزن بذمهم فقدم ذكرهم، فقال: ﴿من نفس واحدة﴾ ليؤكد شفقة بعضنا على بعض.

فإن قيل: لم لم يقل: وبث منها الرجال والنساء.

فالجواب: لأن ذلك يقتضي كونهما مبثوثين من نفسيهما، وذلك محال، فلهذا عدل إلى قوله: ﴿وبث منهما رجالا كثيرا ونسآء﴾ .

وقوله: «كثيرا» فيه وجهان:

أظهرهما: أنه نعت ل «رجالا» .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥/٨٤

قال أبو البقاء: ولم يؤنثه حملا على المعنى؛ لأن «رجالا» بمعنى عدد أو جمع أو جنس كما ذكر الفعل المسند إلى جماعة لمؤنث لقوله تعالى: ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ [يوسف: ٣٠] .

والثاني: أنه نعت لمصدر تقديره: وبث منهم بثا كثيرا؛ وقد تقدم أن مذهب سيبويه في مثله النصب على لحال.." (١)

"عطية – رحمه الله –: «والوجه عود ضمير المؤنث على ما تقتضيه الآية ضرورة، أي: صورا، أو أشكالا، أو أجساما، وعود الضمير المذكر على المخلوق المدلول عليه ب» تخلق «، ثم قال:» ولك أن تعيده على ما تدل عليه الكاف من معنى المثل؛ لأن المعنى: وإذ تخلق من الطين مثل هيئته، ولك أن تعيده على الكاف نفسها، فتكون اسما في غير الشعر «.

انتهى، وهذا القول هو عين ما قبله، فإن الكاف أيضا بمعنى مثل، وكونها اسما في غير الشعر، لم يقل به غير الأخفش.

واستشكل الناس قول مكي المتقدم؛ كما قدمت حكايته عن ابن عطية رضي الله عنه. ويمكن أن يجاب عنه بأن قوله «عائد على الطائر» لا يريد به الطائر الذي أضيفت إليه الهيئة، بل الطائر المصور، والتقدير: وإذ تخلق من الطين طائرا صورة الطائر الحقيقي، فتنفخ فيه، فيكون طائرا حقيقيا، وأن قوله «عائد على الهيئة» لا يريد الهيئة المجرورة بالكاف، بل الموصوفة بالكاف، والتقدير: وإذ تخلق من الطين هيئة مثل هيئة الطائر، فتنفخ فيها، أي: في الموصوفة بالكاف التي نسب خلقها إلى عيسى – عليه السلام – وأما كونه كيف يعود ضمير مذكر على هيئة، وضمير مؤنث على الطائر [لأن قوله: «ويجوز عكس هذا» يؤدي إلى ذلك؟ فجوابه أنه جاز بالتأويل؛ لأنه تؤول الهيئة بالشكل، ويؤول الطائر] بالهيئة؛ فاستقام، وهو موضع تأمل، وقال هنا «بإذني» أربع مرات عقيب أربع جمل، وفي آل عمران «بإذن الله» مرتين؛ لأن هناك موضع إخبار، فناسب الإيجاز، وهنا مقام تذكير بالنعمة **والامتنان**، فناسب الإسهاب؛ وقوله «بإذني» حال: إما من الفاعل، أو من المفعول.

قوله: ﴿وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني﴾ قال الخليلي: من ولد أعمى، ومن ولد بصيرا ثم أعمي.

قوله تعالى: ﴿وإذ تخرج الموتى﴾ : من قبورهم أحياء «بإذني» ، أي: بفعلي ذلك عند دعائك، أي: عند قولك للميت: اخرج بإذن الله، وذلك الإذن في هذه الأفاعيل، إنما هو على معنى إضافة حقيقة الفعل

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤٢/٦

إلى الله – تبارك وتعالى – كقوله: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ [آل عمران: ١٤٥] أي: إلا بخلق الله الموت فيها.

قوله تعالى: ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات﴾ يعني: الواضحة والمعجزات الظاهرة، وقيل: المراد بالبينات الظاهرة هذه البينات التي تقدم ذكرها، فيكون الألف واللام للمعهود.

روي أنه – عليه الصلاة والسلام – لما أظهر هذه المعجزات العجيبة، قصد اليهود قتله، فخلصه الله تعالى منهم، حيث رفعه إلى السماء.." (١)

"في مختصره الكبير المسمى ب «منتهى الوصول» «١» : صيغة: افعل، وما في معناها قد صح إطلاقها بإزاء خمسة عشر محملا.

الوجوب: أقم الصلاة [الإسراء: ٧٨] والندب: فكاتبوهم [النور: ٣٣] .

والإرشاد: وأشهدوا إذا تبايعتم [البقرة: ٢٨٢] والإباحة: فاصطادوا [المائدة: ٢] .

والتأديب: «كل مما يليك» . **والامتنان**: كلوا مما رزقكم الله [الأنعام: ١٤٢] .

والإكرام: ادخلوها بسلام [ق: ٣٤] والتهديد: اعملوا ما شئتم [فصلت: ٤٠] والإنذار: تمتعوا [إبراهيم: ٣٠] والتسخير: كونوا قردة [الأعراف: ١٦٦] والإهانة:

كونوا حجارة [الإسراء: ٥٠] والتسوية: فاصبروا أو لا تصبروا [الطور: ١٦] والدعاء:

اغفر لنا [آل عمران: ١٤٧] والتمني: [الطويل] :

... ألا انجلي ... «٢»

وكمال القدرة: كن فيكون [يس: ٨٢] . انتهى.

وزاد غيره كونها للتعجيز، أعني: صيغة «افعل» .

قال ابن الحاجب: وقد اتفق على أنها مجاز فيما عدا الوجوب والندب والإباحة والتهديد، ثم الجمهور على أنها حقيقة في الوجوب «٣» . انتهى.

– العلماء بالعربية، كردي الأصل. ولد في «أسنا» (من صعيد مصر) ونشأ في «القاهرة» ، وسكن «دمشق» ، وكان أبوه حاجبا، فعرف به، له تصانيف كثيرة منها: «الكافية» في النحو، و «الشافية» في الصرف. ولد سنة (٥٧٠ هـ.) ، وتوفي سنة (٦٤٦ هـ.) .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦٠١/٧

ينظر: «وفيات» (١: ٣١٤) ، «الطالع السعيد» (١٨٨) ، «مفتاح السعادة» (١: ١١٧) ، «غاية النهاية» (١: ٥٠٨) ، «الأعلام» (٤/ ٢١١) .

(١) ينظر: «البرهان» (١/ ٢١٢) ، «المحصول» (١/ ٢/ ٦٢) ، «الأحكام» للآمدي (١/ ١٢٢) ، «المستصفى» (١/ ٤٢٠) ، «التمهيد» للأسنوي (٢٦٩) ، «المنخول» (١٠٥) ، «شرح العضد» (٢/ ٧٩) ، «شرح الكوكب» (٢/ ٤١) ، «المعتمد» (١/ ٥٧) ، «التبصرة» (٢٧) ، «كشف الأسرار» (١/ ١٠٧) ، «حاشية البناني» (١/ ٣١٦) ، «فواتح الرحموت» (١/ ٣٧٢) ، «تيسير التحرير» (١/ ٣٥١) ، «أصول السرخسي» (١/ ١٥) ، «الوصول إلى الأصول» (١/ ١٣٣) ، «تقريب الوصول» (٩٣) ، «ميزان الأصول» (١/ ٢١٧) .

(٢) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص (١٨) و «الأزهية» ص (٢٧١) و «خزانة الأدب» (٢/ ٣٢٦، ٣٢٧) و «سر صناعة الإعراب» (٢/ ٥١٣) ، و «لسان العرب» (١١/ ٣٦١) (شلل) و «المقاصد النحوية» (٤/ ٣١٧) وبلا نسبة في «أوضح المسالك» (٤/ ٩٣) و «جواهر الأدب» ص (٧٨) و «رصف المباني» ص (٧٩) و «شرح الأشموني» (٢/ ٤٩٣) .

(٣) ولطلب الفعل صيغ مختلفة نوردها فيما يلي:." [١]

"تعالى: قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا- إبطالا لقولهم ونقضا عليهم.

انتهى.

وقوله تعالى: قل من أنزل الكتاب، يعني: التوراة، وقراطيس: جمع قرطاس، أي: بطائق وأوراقا، وتوبيخهم بالإبداء والإخفاء هو على إخفائهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم وجميع ما عليهم فيه حجة.

وقوله سبحانه: وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يقصد به **الامتنان** عليهم، وعلى آبائهم.

والوجه الثاني: أن يكون المقصود ذمهم، أي: وعلمتم أنتم وآباؤكم ما لم تعلموه، فما انتفعتم به لإعراضكم وضلالكم.

ثم أمره سبحانه بالمبادرة إلى موضع الحجة، أي: قل الله هو الذي أنزل الكتاب على موسى، ثم أمره سبحانه بترك من كفر، وأعرض، وهذه آية منسوخة بآية القتال إن تؤولت موادعة، ويحتمل ألا يدخلها نسخ إذا جعلت تتضمن تهديدا ووعيدا مجردا من موادعة.

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢٥٦/١

وقوله سبحانه: وهذا كتاب أنزلناه مبارك: «هذا» : إشارة إلى القرآن، وقوله:

مصدق الذي بين يديه، يعني: التوراة والإنجيل لأن ما تقدم، فهو بين يدي ما تأخر، وأم القرى: مكة، ثم ابتدأ تبارك وتعالى بمدح قوم وصفهم، وأخبر عنهم أنهم يؤمنون بالآخرة والبعث والنشور، ويؤمنون بالقرآن، ويصدقون بحقيقته، ثم قوى عز وجل مدحهم بأنهم يحافظون على صلاتهم التي هي قاعدة العبادات، وأم الطاعات، وإذا انضافت الصلاة إلى ضمير، لم تكتب/ إلا بالألف، ولا تكتب في المصحف بواو إلا إذا لم تضف إلى ضمير.

وقد جاءت آثار صحيحة في ثواب من حافظ على صلاته، وفي فضل المشي إليها ففي «سنن أبي داود» ، عن بريدة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بشر المشائين في الظلم إلى

- (٢/ ٣٢٩) ، «الحاصل من المحصول» (١/ ٥١٠) ، «التمهيد» للأسنوي ص (٣١٨- ٣٢٤) ، «البدخشي على المنهاج» (٣/ ٨٤) ، «الإبهاج في شرح المنهاج» (٢/ ١٠٦) ، «الأحكام» (٢/ ١٩٠) ، «ميزان الأصول» (ص ٤٠٢ ، «البرهان» (١/ ٣٣٧- ٣٣٩) ، «تنقيح الفصول» (ص ١٨١) ، «شرح الكوكب المنير» (٣/ ١٣٦- ١٣٧) «نشر البنود» (١/ ٢١٠) ، «شرح المنهاج» للأصفهاني (١/ ٣٥٤) ، «التحرير» (ص ٧٠) ، «كشف الأسرار» (١/ ١٨٥- ١٨٦) .." (١)

"كل ذلك مكروه بالأحاديث «١» .

ت: وتعبيره بالكراهة، لعله يريد التحريم، ويوم: ظرف، ومعناه: إن اللعنة عليهم في الدنيا، وفي يوم القيامة، ثم ذكر العلة الموجبة لذلك، وهي كفرهم بربهم، وباقي الآية بين.

وقوله عز وجل: وإلى ثمود أخاهم صالحا ... الآية: التقدير: وأرسلنا إلى ثمود وأنشأكم من الأرض: أي: اخترعكم، وأوجدكم، وذلك باختراع آدم عليه السلام.

وقال ص: من الأرض: لابتداء الغاية باعتبار الأصل المتولد منه النبات المتولد منه الغذاء المتولد منه المني ودم الطمث المتولد عنه الإنسان. انتهى.

وقد نقل ع «٢» : في غير هذا الموضع نحو هذا، ثم أشار إلى مرجوحيته، وأنه داع إلى القول بالتولد، قال ابن العربي في «أحكامه» «٣» : قوله تعالى: واستعمركم فيها:

أي: خلقكم لعمارتها، ولا يصح أن يقال: هو طلب من الله لعمارتها كما زعم بعض الشافعية.

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٤٩٣/٢

ت: والمفهوم من الآية أنها سيقت مساق **الامتنان** عليهم. انتهى. وقولهم:

يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا، قال جمهور المفسرين: معناه: مسودا نؤمل فيك أن تكون سيدا سادا مسد الأكابر، وقولهم: وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب، معنى: مريب: ملبس متهم، وقوله: أرأيتم: أي: أتدبرتم، فالرؤية قلبية، وآتاني منه رحمة، يريد: النبوة وما انضاف إليها.

---

(١) قد ورد في تحريم اللعن عدة أحاديث منها، قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من لعن مؤمنا فهو كقتله» .

أخرجه البخاري (١٠/ ٤٧٩) كتاب «الأدب» باب: ما ينهى من السباب واللعن، حديث (٦٠٤٧)

.

ومنها حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعانا»

.

أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٥) كتاب «البر والصلة» باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث (٨٤/ ٢٥٩٧) ، وأحمد (٢/ ٣٣٧) ، والبيهقي (١٠/ ١٩٣) ، والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ٣١٥- بتحقيقنا)

.

ومنها أيضا حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا الفاحش ولا البذيء» .

أخرجه الترمذي (٤/ ٣٠٨) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في اللعنة، حديث (١٩٧٧) ، وأحمد (١/ ٤٠٥) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٧) ، والحاكم (١/ ١٢) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٨٣) .

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٥٩) .." (١)

"دق واستقوس (حتى عاد كالعرجون): كالعذق وهو العود المعوج الذي عليه الثمر (القديم): العتيق اليابس (لا الشمس ينبغي لها) يصح لها، ويتسهل عليها (أن تدرك القمر): فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه، فتطمس نوره (ولا الليل سابق النهار) أي: ولا يطلع القمر بالنهار، وله ضوء يطمس

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣/٢٨٩

نور الشمس فسلطانها بالنهار وسلطانه بالليل لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر قبل القيامة، فعلى هذا المراد من الليل والنهار آيتاهما وهما النيران، أو المراد لا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه ولا يدخل الليل على النهار. أيضا يتعاقبان بحساب معلوم إلى يوم القيامة، أو المراد أنها لا تجتمع معه في فلك واحد، ولا يتصل ليل بليل لا يكون بينهما نهار (وكل في فلك يسبحون) أي: وكلهم، والضمير لهما ولسائر النجوم، فإن ذكرهما مشعر بها أو لهما وهما لاختلاف مطالعهما كأنهما شموس وأقمار، ولإطلاق السباحة التي هي للعقلاء جمعا بالواو والنون (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) المراد سفينة نوح، فإنها مشحونة مملوءة من الأمتعة والحيوانات، والمراد ذرياتهم التي في أصلاب آبائهم، أي: حملنا فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم ذرياتهم، وتخصيص الذرية؛ لأنه أبلغ في **الامتنان**، وأدخل في التعجب مع الإيجاز، وقيل: حملنا صبيانهم أو." (١)

"١٦٥ – آل عمران

كان من أشرف قبائل العرب وبطونها وقرئ لمن من الله على المؤمنين إذ بعث الخ على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي منه إذ بعث الخ أو على أن إذ في محل الرفع على الابتداء بمعنى لمن من الله على المؤمنين من وقت بعثه وتخصيصهم **بالامتنان** مع عموم نعمة البعثة للأسود والأحمر لما مر من مزيد انتفاعهم بها وقوله تعالى من أنفسهم متعلق بمحذوف وقع صفة لرسولا أي كائنا من أنفسهم وقوله تعالى

﴿يتلو عليهم آياته﴾ صفة أخرى أي يتلو عليهم القرآن بعدما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي

﴿ويزكيهم﴾ عطف على يتلو أي يطهرهم من دنس الطبائع وسوء العقائد وأوضار الأوزار

﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي القرآن والسنة وهو صفة أخرى لرسولا مترتبة في الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للإيذان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعي ترتيب الوجود كما في قوله تعالى ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم لتبادر إلى الفهم عد الجميع نعمة واحدة وهو السر في التعبير عن القرآن بالآيات تارة وبالكتاب والحكمة أخرى رمزا إلى أنه باعتبار كل عنوان

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٤٢٦/٣

نعمة على حدة ولا يقدح في ذلك شمول الحكمة لما في مطاوي الأحاديث الكريمة من الشرائع كما سلف في سورة البقرة

﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي من قبل بعثته عليه السلام وتزكيته وتعليمه

﴿لفى ضلال مبين﴾ أي بين لا ريب في كونه ضلالا وإن هي المخففة من المثقلة وضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها وبين النافية والظرف الأول لغو متعلق بكان والثاني خبرها وهي مع خبرها خبر لأن المخففة التي حذف اسمها أعني ضمير الشأن وقيل هي نافية واللام بمعنى إلا أي وما كانوا من قبل إلا فى ضلال مبين وأيا ما كان فالجملة إما حال من الضمير المنصوب في يعلمهم أو مستأنفة وعلى التقديرين فهي مبينة لكمال النعمة وتمامها." (١)

"(يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) الوفاء القيام بموجب العقد وكذا الإيفاء والعقد هو العهد الموثق المشبه بعقد الحبل ونحوه والمراد بالعقود ما يعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية وما يعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن دينا بأن يحمل الأمر على معنى يعم الوجوب والندب أمر بذلك أولا على وجه الإجمال ثم شرع في تفصيل الأحكام التي امر بالايفاء بها وبدء بما يتعلق بضروريات معايشهم فقيل (احلت بهيمة الانعام) البهيمة كل ذات أربع وإضافتها إلى الأنعام للبيان كثوب الخز وإفرادها لإرادة الجنس أي أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام وهي الأزواج الثمانية المعدودة في سورة الانعام والحق بها الضباء وبقر الوحش ونحوهما وقيل هي المرادة بالبهيمة همنا لتقدم بيان حل الأنعام والإضافة لما بينهما من المشابهة والمماثلة في الاجترار وعد الأنياب وفائدتها الإشعار بعلة الحكم المشتركة بين المضافين كأنه قيل أحلت لكم البهيمة الشبيهة بالأنعام التي بين إحلالها فيما سبق المماثلة لها في مناط الحكم وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من إظهار العناية بالمقدم لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر فانما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة إلى وروده فيتمكن عندها فضل تمكن (ال ما يتلى عليكم) استثناء من بهيمة الانعام أي إلا محرم ما يتلى عليكم من قوله تعالى حرمت عليكم الميتة ونحوه أو إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه (غير محلى الصيد) أي الاصطياد في البراء واكل صيده وهو نصب على الحالية من ضمير لكم ومعنى عدم إحلالهم له تقرير حرمته عملا واعتقادا وهو شائع في الكتاب والسنة وقوله تعالى (وأنتم حرم) أي محرومون حال من الضمير في محلى وفائدة تقيد إحلال بهيمة الأنعام بما ذكر من عدم إحلال الصيد

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢/١٠٨

حال الإحرام على تقدير كون المراد بها الظباء ونظائرها ظاهرة لما ان احلالها غي مطلق كأنه قيل أحل لكم الصيد حال كونكم ممتنعين عنه عند إحرامكم وأما على التقدير الأول ففائدته إتمام النعمة وإظهار **الامتنان** بإحلالها بتذكير احتياجهم إليه فإن حرمة الصيد في حالة الإحرام من." (١)

"٥ سورة المائدة (٢) مظان حاجتهم إلى إحلال غيره حينئذ كأنه قيل أحلت لكم الأنعام مطلقا حال كونكم ممتنعين عن تحصيل ما يغنيكم عنها في بعض الأوقات محتاجين إلى إحلالها وفي إسناد عدم الإحلال إليهم بالمعنى المذكور مع حصول المراد بان يقال غي محلل لكم أو محرما عليكم الصيد حال إحرامكم مزيد تربية **الامتنان** وتقرير للحاجة ببيان علتها القريبة فإن تحريم الصيد عليهم إنما يوجب حاجتهم إلى إحلال ما يغنيهم عنه باعتبار تحريمهم له عملا واعتقادا مع ما في ذلك من وصفهم بما هو اللائق بهم (إن الله يحكم ما يريد) من الأحكام حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فيدخل فيها ما ذكر من التحليل والتحريم دخولا او وليا ومعنى الإيفاء بهما الجريان على موجبهما عقدا وعملا والاجتناب عن تحليل المحرمات وتحريم بعض المحللات كالبحيرة والنظائرها التي سياتي بيانها." (٢)

"وقد انطمست آثار الشرائع السابقة وانقطعت أخبارها وزيادة من في الفاعل للمبالغة فى نفى المجى وتنكير بشير ونذير للتقليل وهذا كما ترى يقتضي أن المقدر أو المنوي فيما سبق هو الشرائع والاحكام لاكيفما كانت بل مشفوعة بما ذكر من الوعد والوعيد وقوله تعالى ﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾ متعلق بمحذوف ينبى عنه الفاء الفصيحة وتبين أنه معلل به وتنوين بشير ونذير للتفخيم أي لاتعتذروا بذالك فقد جاءكم بشير أي بشير ونذير أي نذير ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على الإرسال تترى كما فعله بين موسى وعيسى عليهما السلام حيث كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألف نبي وعلى الإرسال بعد الفترة كما فعله بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام حيث كان بينهما ستمائة سنة أو خمسمائة وتسعة وستون سنة أو خمسمائة وستة وأربعون سنة وأربعة أنبياء على ما روى الكلبي ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسي وقيل لم يكن بعد عيسى عليه السلام إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأنسب بما في تنوين فترة من التفخيم اللائق بمقام **الامتنان** عليهم بأن الرسول قد بعث إليهم عند

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٢

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٣

كمال حاجتهم اليه بسبب مضي دهر طويل بعد انقطاع الوحي ليهشو إليه ويعدوه أعظم نعمة من الله تعالى وفتح باب إلى الرحمة وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل إليهم من بينهم من غفلتهم." (١)

"﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان ما فعلت بنوا إسرائيل بعد أخذ الميثاق منهم وتفصيل كيفية نقضهم له وتعلقه بما قبله من حيث إن ما ذكر فيه من الأمور التي وصف النبي صلى الله عليه وسلم ببيانها ومن حيث اشتماله على انتفاء فترة الرسل فيما بينهم واذ نصب على أنه مفعول لفعل مقدر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن أهل الكتاب ليعدد عليهم ما صدر عن بعضهم من الجنايات أي واذكرهم وقت قول موسى لقومه ناصحا لهم ومستميلا لهم باضافتهم اليه ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾ وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه تفصيلا فإذا استحضر كان ما وقع فيه حاضرا بتفاصيل كانه مشاهد عيانا وعليكم متعلق بنفس النعمة إذا جعلت مصدرا وبمحذوف وقع حالا منها إذا جعلت اسما أي اذكروا إنعامه عليكم أو اذكروا نعمة كائنة عليكم وكذا إذ في قوله تعالى ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ أي اذكروا إنعامه تعالى عليكم في وقت جعله أو اذكروا نعمته تعالى كائنة عليكم في وقت جهله فيما بينكم من أقربائكم أنبياء ذوي عدد كثير وأولي شأن خطير حيث لم يبعث من أمة من الأمم ما بعث من بني إسرائيل من الأنبياء ﴿وجعلكم ملوكا﴾ عطف على جعل فيكم داخل في حكمه أي جعل فيكم أو منكم ملوكا كثيرة فإنه قد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء وإنما حذف الظرف تعويلا على ظهور الأمر أو جعل الكل في مقام **الامتنان** عليهم ملوكا لما أن أقارب الملوك يقولون." (٢)

"﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ تذكير لنعمة عظيمة فائضة على آدم عليه السلام سارية إلى ذريته موجبة لشكرهم وتأخيره عن تذكير ما وقع قبله من نعمة التمكين في الأرض إما لأنها فائضة على المخاطبين بالذات وهذه بالواسطة وإما للإيذان بأن كلا منها نعمة مستقلة مستوجبة للشكر على حيالها فإن رعاية الترتيب الوقوعي ربما تؤدي إلى توهم عد الكل نعمة واحدة كما ذكر في قصة البقرة وتصدير الجملتين بالقسم وحرف التحقيق لإظهار كمال العناية بمضمونهما وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٢/٣

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٢/٣

أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حتما توفية لمقام الامتنان حقه وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم." (١)

"﴿فلما آتاهما صالحا﴾ لما ى تاهما ما طلباه أصالة واستتباعا من الولد وولد الولد ما تناسلوا فقوله تعالى ﴿جعلا﴾ أي جعل أولادهما ﴿له﴾ تعالى ﴿شركاء﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ثقة بوضوح الأمر وتعويلا على ما يعقبه من البيان وكذا الحال في قوله تعالى ﴿فيما آتاهما﴾ أي فيما آتى أولادهما من الأولد حيث سموهم بعبد مناف وعبد العزى ونحو ذلك وتخصيص إشراكهم هذا بالذكر في مقام التوبيخ مع أن إشراكهم بالعبادة أغلظ منه جناية وأقدم وقوعا لما أن مساق النظم الكريم لبيان إخلالهم بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصلح وأول كفرهم في حقه إنما هو تسميتهم إياه بما ذكر وقرىء شركا أي شركة أو ذوي شركة أي شركاء إن قيل ما ذكر من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه إنما يصادر إليه فيما يكون للفعل ملابسة ما بالمضاف إليه أيضا بسرايته إليه حقيقة أو حكما وتتضمن نسبته إليه صورة مزية يقتضيها المقام كما في مثل قوله تعالى وإذ نجيناكم من آل فرعون الآية فإن الإنجاء منهم مع أن تعلقه حقيقة ليس إلا بأسلاف اليهود قد نسب إلى أخلافهم بحكم سرايته إليهم توفية لمقام الامتنان حقه وكذا في قوله تعالى قل فلم تقتلون أنبياء الله الآية فإن القتل حقيقة مع كونه من جناية آبائهم قد أسند إليهم بحكم رضاهم به أداء لحق مقام التوبيخ والتبكيت ولا ريب في أنهما عليهما الصلاة والسلام بريئان من سراية الجعل المذكور إليهما بوجه من الوجوه فما وجه إسناده إليهما صورة قلنا وجهه الإيذان بتركهما الأولى حيث أقدما على نظم أولادهما في سلك أنفسهما والتزما شكرهم في ضمن شكرهما وأقسما على ذلك قبل تعرف أحوالهم ببيان أن إخلالهم بالشكر الذي وعداه وعدا مؤكدا باليمين بمنزلة إخلالهما بالذات في استيجاب الحنث والخلف مع ما فيه من الاشعار بتضاعف جنايتهم ببيان أنهم بجعلهم المذكور أوقعوهما في ورطة الحنث والخلف وجعلوهما كأنهما باشراه بالذات فجمعوا بين الجناية على الله تعالى والجناية عليهما عليهما السلام ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ تنزيه فيه معنى التعجب والفاء لترتيبه على ما فصل من أحكام قدرته تعاتلى وآثار نعمته الزاجرة عن الشرك الداعية إلى التة وحيد وصيغة الجمع لما أشير إليه من تعين الفاعل وتنزيه آدم وحواء عن ذلك وما في عما إما مصدرية أي عن إشراكهم أو موصولة أو موصوفة أي عما يشركونه به سبحانه والمراد بإشراكهم إما تسميتهم المذكورة أو مطلق إشراكهم المنتظم لها انتظاما أوليا وقرىء تشركون بتاء الخطاب بطريق الالتفات وقيل الخطاب لآلقصي من قريش والمراد بالنفس الواحدة

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٢١٤

نفس قصي فإنهم خلقوا منه وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله تعالى ولدا صالحا فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم عبد مناف وعبد شمس وعبد قصي وعبد الداروضمير يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما وأما ما قيل من أنه لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجل فقال لها ما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب أو خنزير وما يدريك من أين يخرج فخافت من." (١)

"﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي أصلحهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج إليه المسافر وأوقر ركائبهم بما جاءوا له من الميرة وقرىء بكسر الجيم

﴿قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم﴾ لم يقل بأخيكم مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام إنما قاله لما قيل من أنهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من أنه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال لهم من أنتم فإني أنكركم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن أخوة من أبي واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثني عشر فهلك منا واحد فقال كم أنتم قالوا عشرة قال فأين الحادي عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم أنكم لستم عيونا وأن ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده إذ لا يساعده ورود الأمر بالإتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بإيفاء الكيل ولا الإحسان في الإنزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عمد الإتيان به ولا جعل بضاعتهم في رحالهم لأجل رجوعهم ولا عدتهم بالإتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند أبيهم إرسال أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على أن استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال

﴿ألا ترون أنى أوفى الكيل﴾ أتمه لكم وإيثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة

﴿وأنا خير المنزلين﴾ جملة حالية أي ألا ترون أني أوفي الكيل لكم إيفاء مستمرا والحال أني في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم وقد كان الأمر كذلك وتخصيص الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثنائه وأما الإحسان في الإنزال فقد كان مستمرا فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به والاقتصار في الكيل على ذكر الإيفاء

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٣٠٤

لأن معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعات مواجب العدل وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم في ذلك بما شاء." (١)

"(قالت لهم رسلهم) مجاراة معهم في أول مقالتهم وإنما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث أريد إلزامهم بخلاف ما سلف من إنكار وقوع الشك في الله سبحانه فإن ذلك عام وإن اختص بهم ما يعقبه (إن نحن إلا بشر مثلكم) كما تقولون (ولكن الله يمن) بالنبوة (على من يشاء من عباده) يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى يعطيها من يشآء من عباده بمحض الفضل والامتنان من غير داعية توجبه قالوه تواضعا وهضما للنفس أو ما نحن من الملائكة بل نحن بشر مثلكم في الصورة أو في الدخول تحت الجنس ولكن الله يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادات على من يشاء المن وما يشاء ذلك إلا لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هي التي يدور عليها فلك الاصطفاء للنبوة (وما كان) وما صح وما استقام (لنا أن نأتيكم." (٢)

"تشبيه عذابهم خاصة لعدم اشتراكهم في السبب فإن المعضين بمعزل من التقاسم على التثبيت الذي هو السبب لهلاك أولئك كما أن أولئك بمعزل من التعضية التي هي السبب لهلاك هؤلاء ولا علاقة بين السببين مفهوما ولا وجودا تصحح وقوع أحدهما في جانب والآخر في جانب واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق على الشر المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذي هو التثبيت المدلول عليه بالتقاسم غير مفيد إذ لا دلالة لعنوان التعضية على ذلك وإنما يدل عليه اقتسام المداخل وجعل الموصول مبتدأ على أن خبره الجملة القسمية لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنه الجليل إذا عرفت هذا فاعلم أن الأقرب من الأقوال المذكورة أنه متعلق بالأول وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين وأن الموصول مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ومحل الكاف النصب على المصدرية وحديث جلالة المقام عن التشبيه من لوائح النظر الجليل والمعنى لقد آتين اك سبعا من المثاني والقرآن العظيم إيتاء مماثلا لإنزال الكتابين على أهلهما وعدم التعرض لذكر ما أنزل عليهم من الكتابين لأن الغرض بيان المماثلة بين الإيتاءين لا بين متعلقيهما والعدول عن تطبيق ما في جانب المشبه به على ما في جانب المشبه بأن يقال كما آتينا المقتسمين حسبما وقع في قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب الخ للتنبيه على ما بين الإيتاءين من التنائي فإن الأول على وجه التكرمة والامتنان وشتان بينه وبين الثاني ولا يقدح ذلك في وقوعه مشبها به فإن ذلك إنما هو لمسلميته عندهم وتقديم

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/٢٨٨

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥/٣٧

وجوده على المشبه زمانا لا لمزية وتعود إلى ذاته كما في الصلاة الخليلية فإن التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله تعالى الفائضة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام وآله أتم وأكمل مما فاض على النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ذلك للتقدم في الوجود والتنصيص عليه في القرآن العظيم فليس في التشبيه شائبة إشعار بأفضلية المشبه به من المشبه فضلا عن إيهام أفضلية ما تعلق به الأول مما تعلق به الثاني وإنما ذكروا بعنوان الاقتسام إنكارا لاتصافهم به مع تحقق ما ينفيه من الإنزال المذكور وإيذانا بأنه كان من حقهم أن يؤمنوا بكله حسب إيمانهم بما أنزل عليهم بحكم الاشتراك في العلة والاتحاد في الحقيقة التي هي مطلق الوحي وتوسيط قوله تعالى لاتمدن الخ لكمال اتصاله بما هو المقصود من بيان حال ما أوتي النبي صلى الله عليه وسلم ولقد بين أولا علو شأنه ورفعة مكانه بحيث يستوجب اغتباطه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ثم نهي عن الالتفات إلى زهرة الدنيا وعبر عن إيتائها لأهلها بالتمتيع المنبىء عن وشك زوالها عنهم ثم عن الحزن بعدم إيمان المنهمكين فيها بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وبإظهار قيامه بمواجب الرسالة ومراسم النذارة حسبما فصل في تضاعيف ما أوتي من القرآن العظيم ثم رجع إلى كيفية إيتائه على وجه أدمج فيه ما يزيح شبه المنكرين ويستنزلهم عن العناد من بيان مشاركته لما لا ريب لهم في كونه وحيا صادقا فتأمل والله عنده علم الكتاب هذا وقد قيل المعنى قل إني أنا النذير المبين كما قد أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيرا على أن المقتسمين أهل الكتاب انتهى يريد أن ما في كما موصولة والمراد بالمشابهة المستفادة من الكاف الموافقة وهي مع ما في حيزها في محل النصب على الحالية من مفعول قل أي قل هذا القول حال كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين أي موافقا لذلك فالأنسب حينئذ حمل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضا بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى عضين جمع عضة وهي الفرقة." (١)

"(خلق الإنسان) أي هذا النوع غير الفرد الأول منه (من نطفة) جماد لا حس له ولا حراك سيال لا يحفظ شكلا ولا وضعا (فإذا هو) بعد الخلق (خصيم) منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم (مبين) لحجته لقن بها وهذا أنسب بمقام **الامتنان** بإعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته أو مخاصم لخالقه منكر له قائل من يحى العظام وهى رميم وهذا أنسب بمقام تعداد هنات الكفرة روى أن

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥/٩١

ابي به خلف الجمحي أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال يا محمدا أترى الله تعالى يحي هذا بعدما قد رم فنزلت." (١)

"النحل ٦ ٧ الظرف الأول خبر للمبتدأ المذكور وفيها حال من دفء إذ لو تأخر لكان صفة (ومنافع) هي درها وركوبها وحملها والحراثة بها وغير ذلك وإنما عبر عنها بها ليتناول الكل مع أنه الأنسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقي إلى الأعلى (ومنها تأكلون) أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم وغير ذلك وتغيير النظم للإيماء إلى أنها لا تبقى عند الأكل كما في السابق واللاحق فإن الدفء والمنافع والجمال يحصل منها وهي باقية على حالها ولذلك جعلت محال لها بخلاف الأكل وتقديم الظرف للإيذان بأن الأكل منها هو المعتاد المعتمد في المعاش لأن الأكل مما عداها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر من قبيل التفكه مع أن فيه مراعاة للفواصل ويحتمل أن يكون معنى الأكل منها أكل ما يحصل بسببها فإن الحبوب والثمار المأكولة تكتسب بإكراء الإبل وبإثمار نتاجها وألبانها وجلوده ا." (٢)

"(وهو الذى سخر البحر) شروع في تعداد النعم المتعلقة بالبحر إثر تفصيل النعم المتعلقة بالبر حيوانا ونباتا أي جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد (لتأكلوا منه لحما طريا) هو السمك والتعبير عنه باللحم مع كونه حيوانا للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة إلى أكله كيلا يتسارع إليه الفساد كما ينبيء عنه جعل البحر مبتدأ أكله وللإيذان بكمال قدرته تعالى في خلقه عذبا طريا في ماء زعاق ومن إطلاق اللحم عليه ذهب مالك والثوري أن من حلف لا يأكل اللحم حنث بأكله والجواب أن مبنى الأيمان العرف ولا ريب في أنه لا يفهم من اللحم عند الإطلاق ولذلك لو أمر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثلا بالأمر ألا يرى إلى أن الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال إن شر الدواب عند الله الذي كفروات ولا يحنث بركوبه من حلف لا يركب دابة (وتستخرجوا منه حلية) كاللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) عبر في مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لأجلهم (وترى الفلك) السفن (مواخر فيه) جواري فيه مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها من المخر وهو شق الماء وقيل هو صوت جري الفلك (ولتبتغوا) عطف على تستخرجوا وما عطف هو عليه وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادىء الابتغاء ودفع توهم كونه

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥/٩٦

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥/٩٧

باستخراج الحلية أو على علة محذوفة أي لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ذكره ابن الأنباري أو متعلقة بفعل محذوف أي وفعل ذلك لتبتغوا (من فضله) من سعة رزقه بركوبها للتجارة (ولعلكم تشكرون) أي تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث إن فيها قطعا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة في مدة قليلة من غير مزاولة أسباب السفر بل من غير حركة أصلا مع أنها في تضاعيف المهالك وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معا." (١)

"أي مضيئة يبصر فيها الأشياء وصفا لها بحال أهلها أو مبصرة للناس من أبصره فبصره وإما حقيقية وآية الليل والنهار نيراهما ومحو القمر إما خلقه مطموس التور في نفسه فالفاء كما ذكر وأما نقص ما استفادوا من الشمس شيئا فشيئا إلى المحاق على ما هو معنى المحو والفاء للتعقيب وجعل الشمس مبصرة إبداعها مضيئة بالذات ذات أشعة تظهر بها الأشياء المظلمة ﴿لتبتغوا﴾ متعلق بقوله تعالى وجعلنا آية النهار كما أشير إليه أي وجعلناها مضيئة لتطلبوا لأنفسكم في بياض النهار ﴿فضلا من ربكم﴾ أي رزقا إذ لا يتسنى ذلك في الليل وفي التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئا فشيئا دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية ﴿ولتعلموا﴾ متعلق بكلا الفعلين أعني محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط إذ لا يكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور أي لتعلموا بتفاوت الجديدين أو نيريهما ذاتا من حيث الإظلام والإضاءة مع تعاقبهما أو حركتهما وأوضاعهما وسائر أحوالهما ﴿عدد السنين﴾ التي يتعلق بها غرض علمي لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿والحساب﴾ أي الحساب المتعلق بما في ضمنها من الأوقات أي الأشهر والليالي والأيام وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها مما ينتظمه الحساب وإنما الذي تعلق به العد طائفة منها وتعلقه في ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة أعني حيثية تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات مثلا فإن ذلك وظيفة الحساب بل من حيث إنها فرد من تلك الطائفة المعدودة يعدها أي يفنيها من غير أن يعتبر في ذلك تحصل شي معين وتحقيقه ما مر في سورة يونس من أن الحساب أحصاه ماله كمية منفصلة بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل كما

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٠٣/٥

أشير إليه آنفا والعد إحصاؤه بمجرد تكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء كذلك ولما أن السنين لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل أضيف إليها الغدد وعلق الحساب بما عاداها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها أسام خاصة وأحكام مستقلة وتحصل مراتب الأعداد من العشرات والمئات والألوف اعتباري لا يجدي في تحصل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس للتنبيه من أول الأمر على أن متعلق الحساب ما في تضاعيف السنين من الأوقات أو لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم إجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلا أو لأن العدد من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصل شيء آخر منه حسبما ذكر نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب أو لأن العلم المتعلق بالأول أقصى المراتب فكان جديرا بالتقديم في مقام **الامتنان** والله سبحانه أعلم ﴿وكل شيء﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعاد سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى ﴿فصلناه تفصيلا﴾ أي بيناه في القرآن الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء فظهر كونه هاديا للتي هي أقوم ظهورا بينا." (١)

"مريم ١٠ ١٢

زكريا حينئذ أظهر عنده وأجلى وكان حاله أولى بأن يكون معيارا لحال ما بشر به نسب الخلق المذكور إليه كما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين في قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم توفية لمقام **الامتنان** حقه فكأنه قيل وقد خلقتك من قبل في تضاعيف خلق آدم ولم تكن إذ ذاك شيئا أصلا بل عدما بحتا ونفيا صرفا هذا وأما حمل الشيء على المعتد به أي ولم تكن شيئا معتدا به فيأباه المقام ويرده نظم الكلام وقرئ خلقناك." (٢)

"طه ٨١ ٨٣ هو الحكاية بتقدير قلنا عطفا على أوحينا أي وقلنا يا بني إسرائيل ﴿قد أنجيناكم من عدوكم﴾ فرعون وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وقرئ نجيناكم ونجيتكم ﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ بالنصب على أنه صفة للمضاف وقرئ بالجر للجوار أي واعدناكم بواسطة نبيكم إيتان جانبه الأيمن نظرا إلى السالك من مصر إلى الشام أي إتيان موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وإنزال التوراة عليه ونسبت المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥/١٦٠

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥/٢٥٨

الصلاة والسلام نظرا إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم وإيفاء لمقام الامتنان حقه كما في قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم حيث نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المخلوق المصور بالذات هو آدم عليه الصلاة والسلام وقرئ واعدتكم ووعدناكم ﴿ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ أي الترنجبين والسماني حيث كان ينزل عليهم المن وهم في التيه مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السماء فيذبح الرجل منه ما يكفيه كما مر مرارا." (١)

"مبادئ البقاء فيها والجد في الانتهاء عما يؤدي إلى الخروج عنها والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعا بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب في البقاء فيها ما لا يخفى إلى ما ذكر من نفي نقائضها التي هي الجوع والعطش والعري والضحي لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التي حذره عنها ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدي إليها على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى ما استثنى من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما وقد طوي ذكره ههنا اكتفاء بما ذكر في موضع آخر واقتصر على ما ذكر من الترغيب المتضمن الترهيب ومعنى أن لا تجوع فيها الخ أن لا يصيبه شيء من الأمور الأربعة أصلا فغن الشبع والري والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض أضدادها بإعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الأمر فيها كذلك بل كل ما وقع فيها شهوة وميل إلى شيء من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل إلى حد الضرورة ووجه إفراده عليه السلام بما ذكر ما مر آنفا وفصل الظمأ عن الجوع في الذكر مع تجانسهما وتقارنهما في الذكر عادة وكذا حال العري والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه بالإشارة إلى أن نفي كل واحد من تلك الأمور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال في الجمع بين العري والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على أن نفي كل واحد من الأمور المذكوره مقصوده بالذات مذكوره بالأصالة لا أن نفي بعضها مذكورة بطريق والتبعية لنفي بعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع بين كل من المتجانسين وقرىء إنك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على أن لا تجوع وصحة وقوع الجملة بأن المفتوحة اسما للمكسورة المشاركة لها في إفادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرا لها لما أن المحذور احتماع حرفي التحقيق في مادة واحدة لا اجتماع فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما في حيز هما بخلاف ما لو وقعت خبرا لها فإن اتحاد المناط حينئذ مما لا ريب فيه

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣٣/٦

بيانه أن كل واحد من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفى أن مرجع خبريتها ما فيها من الحكم الإيجابي أو السلبي وأن مناط ذلك الحكم خرها لا اسمها فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لا سمها لا ثبوت اسمها في نفسها فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسما للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر وأما تحقيق ثبوتها في نفسها فهو مدلول المفتوحة حتما فلم يلزم اجتماع حرفي التحقيق في مادة واحدة قطعا وإنما لم يجوزوا أن يقال إن أن زيدا قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا إن عندي أن زيادا قائم للتجافي عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وإن كانت نائبة عن الكسورة التي يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها في إفضاء معناها وإجراء أحكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق لم يلزم من دخولها على المفتوحة اجتماع حرفي التقحيق أصلا فالمعنى إن لك عدم الجوع وعدم العري وعدم الظمأ خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحو مطلقا كما فعل مثله في المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت له عليه السلام تحقيق عدمها فوضع موضع الحرف المصدري." (١)

"﴿وجعلنا فى الأرض رواسى﴾ أي جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشيء

٣١ - إذا ثبت ورسخ ووصف جمع المذكر يجمع المؤنث في غير العقلاء مما لا ريب في صحته كقوله تعالى أشهر معلومات وأياما معدودات ﴿أن تميد بهم﴾ أي كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أولئلا تميد بهم بحذف اللام ولا لعدم الإلباس ﴿وجعلنا فيها﴾ أي في الأرض وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ولتوفية مقام **الامتنان** حقه أو في الرواسي لأنها المحتاجة إلى الطرق ﴿فجاجا﴾ مسالك واسعة وإنما قدم على قوله تعالى ﴿سبلا﴾ وهو وصف له ليصير حالا فيفيد أنه تعالى حين خلقها كذلك أو ليبدل منها سبلا فيدل ضمنا على أنه تعالى خلقها ووسعها اللسابلة مع ما فيه من التوكيد ﴿لعلهم يهتدون﴾ أي إلى مصالحهم ومهماتهم." (٢)

"﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾ التفات إلى خطاب الراجين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام **الامتنان** حقه وجواب لولا محذوف لتهويله والإشعار بضيق العبارة عن حصره كأنه قيل ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة حكيم في جميع أفعاله وأحكامه

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤٦/٦

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦٥/٦

التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه لأنه أعرف بحال زوجته وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضاحة وبعد ما شرع لهم ذلك لو جعل." (١)

"﴿وهو الذى جعل لكم الليل لباسا﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته وروائع أحكام رحمته ونعمه الفائضة على الخلق وتلوين الخطاب لتوفية مقام **الامتنان** حقه واللام متعلقة بجعل وتقديمها على مفعوليه للاعتناء ببيان كون ما يعقبه من منافعهم وفي تعقيب بيان أحوال الظل ببيان أحكام الليل الذي هو ظل الأرض من لطف المسلك ما لا مزيد عليه أي هو الذى جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ﴿والنوم سباتا﴾ أي وجعل النوم الذي يقع في الليل غالبا قطعا عن الأفاعيل المختصة بحال اليقظة عبر عنه بالسبات الذي الموت لما بينها من المشابهة التامة في انقطاع أحكام الحياة وعليه قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل وقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴿وجعل النهار نشورا﴾ أي زمان بعث من ذلك السبات كبعث الموتى على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أو نفس البعث على طريق المبالغة وفيه إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور وعن لقمان عليه السلام يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت وتنشر." (٢)

"يس ٤٢ ٤٥ عليه السلام وحمل ذرياتهم فيها حمل آبائهم الأقدمين وفي أصلابهم هؤلاء وذرياتهم وتخصيص أعقابهم بالذكر دونهم لأنه أبلغ في **الامتنان** وأدخل في التعجيب الذي عليه يدور كونه آية." (٣)

"الصافات ١١٧ ١٢٥ سوء العذاب وهذه التنجية وإن كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر والغلبة لكنها لما كانت بحسب المفهوم عبارة عن التخليص من المكروه بدئ بها ثم بالنصر الذي يتحقق مدلوله بمحض تنجية المنصور من عدوه من غير تغليبه عليه ثم بالغلبة لتوفية مقام **الامتنان** حقه بإظهار أن كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث نعمة جليلة على حيالها." (٤)

"ص ٥٤ ٥٩ والالتفات أليق بمقام **الامتنان** والتكريم." (٥)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٥٩/٦

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٢٣/٦

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٦٩/٧

(٤) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٠٣/٧

(٥) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٣٢/٧

"فصلت آية (١٣ ١٤) رضى الله عنه نصا في تأخر دحو الأرض عن خلق السماء فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلق السماء بالواو فلا دلالة في ذلك على الترتيب قطعا وقد نقل الإمام الواحدي عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على إيجاد الأرض فضلا عن دحوها عن دحوها فلا بد من حمل الأمر بإتيانهما حينئذ أيضا على ما ذكر من التوافق والمواتاة ولا يقدح في ذلك تقدم خلق السماء على خلق الأرض كما لم يقدح فيه تقدم خلق الأرض على خلق السماء هذا كله على تقدير كون كلمة ثم للتراخي الزماني وأما على تقدير كونها للتراخي الرتبي كما جنح إليه الأكثرون فلا دلالة في الآية الكريمة على الترتيب كما في الوجه الأول وعلى ذلك بني الكلام في تفسير قوله تعالى ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا الآية وإنما لم يحمل الخلق هناك على معنى التقدير كما حمل عليه هنا لتوفية مقام **الامتنان** حقه ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ من الكواكب فإنها كلها ترى متلألئة عليها كأنها فيها والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالأمر وقوله تعالى ﴿وحفظا﴾ مصدر مؤكد لفعل معطوف على زينا أي وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظا وقيل مفعول له على المعنى كأنه قيل وخلقنا المصابيح زينة وحفظا ﴿ذلك﴾ الذي ذكر بتفاصيله ﴿تقدير العزيز العليم﴾ المبالغ في القدرة والعلم." (١)

"﴿ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ أي مغانم خيبر والالتفات إلى الخطاب على قراءة الأعمش وطلحة ونافع لتشريفهم في مقام **الامتنان** ﴿وكان الله عزيزا﴾ غالبا ﴿حكيما﴾ مراعيا لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه." (٢)

"﴿وأغطش ليلها﴾ أي جعله مظلما يقال غطش الليل وأغطشه الله تعالى كما يقال ظلم وأظلمه وقد مر هذا في قوله تعالى وإذا أظلم عليهم قاموا ويقال أيضا أغطش الليل كما يقال أظلم ﴿وأخرج ضحاها﴾ أي أبرز نهارها عبر عنه بالضحى لأنه أشرف أوقاته وأطيبها فكان أحق بالذكر في مقام **الامتنان** وهو السر في تأخير ذكره عن ذكر الليل وفي التعبير عن إحداثه بالاخراج فإن إضافة النور بعد الظلمة أتم في الإنعام." (٣)

"متاعا لكم ولأنعامكم إما مفعول له أي فعل ذلك تمتيعا لكم ولمواشيكم فإن بعض النعم المعدودة طعام لهم وبعضها علف لدوابهم والالتفات لتكميل **الامتنان** وإما مصدر مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائدة

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٨/٧

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٨/١١٠

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٩/١٠١

أي متعكم بذلك متاعا أو لفعل مترتب عليه أي متعكم بذلك فتمتعتم متاعا أي تمتعا كما مر غيره مرة أو مصدر من غير لفظه فإن ما ذكر من الأفعال الثلاثة في معنى التمتيع." (١)

"ثم حذر من الشح، فقال:

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٨]

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨)

قلت: يقال: وعدته خيرا ووعدته شرا، هذا إن ذكر الخير أو الشر، وأما إذا لم يذكر فيقال في الخير: وعدته، وفى الشر: أو عدته، قال الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي «١»

و (الفحشاء) هنا: البخل والشح.

يقول الحق جل جلاله: الشيطان يعدكم أي: يخوفكم الفقر بسبب الإنفاق، ويقول في وسوسته: إن أعطيت مالك بقيت فقيرا تتكفف الناس، ويأمركم بالفحشاء أي: ويأمركم بالبخل والشح، والعرب تسمي البخيل فاحشا، وفي الحديث: «البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة قريب من النار. والسخي قريب من الله. قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار. ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل» .

وفي حديث آخر: «إن الله يأخذ بيد السخي كلما عثر» . والله يعدكم في الإنفاق مغفرة منه لذنوبكم، وسترا لعيوبكم، وفضلا أي: خلفا أفضل مما أنفقتم في الدنيا والآخرة، وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، والله واسع الفضل والعطاء، عليم بما أنفقتم، ولماذا أنفقتم، وفيما أخلصتم، لا يخفى عليه شيء من أموركم.

الإشارة: إذا توجه المريد إلى الله تعالى، وأراد سلوك طريق التجريد والزهد والانقطاع إلى الله تعالى، تعرض له الشيطان، اختبارا منه تعالى وابتلاء، إذ الحضرة محروسة بالقواطع ليظهر الصادق في الطلب من الكاذب، فيخوفه من الفقر، ويأمره بالوقوف مع الأسباب والعوائد، وهي أفحش المعاصي عند الخواص، إذ الهمة العالية تأنف عن الاشتغال بغير الحضرة الإلهية. والله يعدكم- أيها المتوجهون إليه- مغفرة لذنوبكم، وسترا لعيوبكم، فيغطي وصفكم بوصفه، ونعتكم بنعته، فيوصلكم بما منه إليكم من الفضل والجود، لا بما

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١١٢/٩

منكم إليه من المجاهدة والمكابدة، ولول ا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا، (والله واسع) الجود والإحسان، (عليم) بمن يستحق الفضل والامتنان.

---

(١) البيت لعامر بن طفيل.." (١)

"مشروط بعدم العفو، لدلائل منفصلة اقتضت ذلك كما هو مشروط بعدم التوبة أيضا، والحاصل: أن الوعد لا يخلف لأنه من باب الامتنان، والوعيد يصح إخلافه بالعفو والغفران، كما في بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«من وعده الله- عز وجل- على عمل ثوابا فهو منجزه له لا محالة، ومن أوعده على عمل عقابا فهو بالخيار، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» . هـ. ذكره في القوت.

فتحصل أن القاتل لا يخلد على المشهور إلا إذا كان مستحلا، وهذا أيضا ما لم يقتص منه، وأما إذا اقتص منه فالصحيح أنه يسقط عنه العقاب لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من أصاب ذنبا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة» . وبه قال الجمهور، وكذلك إذا سامحه ورثة الدم لأنه حق ورثوه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإيمان محلة القلوب، فالقلب هو المتصف بالإيمان حقيقة. فالمؤمن الحقيقي هو القلب، فمن قتله بتتبع الشهوات، وتراكم ا لغفلات، فجزاؤه نار القطيعة في سجن الأكوان، والبعد عن عرفان الشهود والعيان، وفي الحكم: «سبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهة الكريم» . والله تعالى أعلم.

ثم إن اللسان ترجمان القلب، فمن أظهر الإيمان حرم التعرض له، كما أشار إلى ذلك الحق جل جلاله بقوله:

[سورة النساء (٤) : آية ٩٤]

يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا (٩٤)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٠٢/١

قلت: (السلم) بالقصر: الانقياد والاستسلام، وبالمد: التحية. وجملة (تبتغون) : حال من الواو، مشعرة بما هو الحامل على العجلة.

يقول الحق جل جلاله: يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم أي: سافرتم وسرتم تجاهدون في سبيل الله، فتبينوا الأمور وتثبتوا فيها ولا تعجلوا، فإن العجلة من الشيطان، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام أي: الانقياد والاستسلام، أو سلم عليكم تحية الإسلام، لست مؤمنا إنما فعلت ذلك متعوذا خائفا، فتقتلونه طمعا في ماله، تبتغون عرض الحياة الدنيا وحطامها الفاني، فعند الله مغانم كثيرة وعدكم بها، لم تقدروا الآن عليها، فاصبروا وازهدوا فيما تشكون فيه حتى يأتيكم ما لا شبهة فيه، كذلك كنتم من قبل." (١)

"تنبيه: وقع اختلاف كثير في اللفظ بين هذا الموضع من هذه السورة وبين سورة البقرة، في فانفجرت وفانبجست، وقوله: وإذ قلنا ادخلوا وو إذ قيل لهم اسكنوا، وقوله هنا: وكلوا، وهناك فكلوا. فقال الزمخشري: لا بأس باختلاف العبارتين، إذا لم يكن هناك تناقض. ووجه بعضهم الفرق بأن ما في هذه السورة سيق في محل الغضب والعقاب على عبادة العجل، وما في سورة البقرة سيق في محل **الامتنان**، فلذلك عبر هنا بانبجست لأنه أقل من انفجرت، وعبر هنا بقيل مبنيا للمجهول تحقيرا لهم أن يذكر نفسه لهم، وعبر هنا بالسكنى لأنه أشق من الدخول ويستلزمه، وعبر هنا بالواو لأن السكنى تجامع الأكل، بخلاف الدخول، فإن الأكل مسبب عنه، فعبر بالفاء، وزاد في البقرة الواو في: سنزيد، كأنه نعمة أخرى، بخلاف هذا، وزاد هنا منهم لتقدم ذكرهم في قوله: وإذ قيل لهم، وعبر هنا بالظلم لأنه أعم من الفسق وغيره. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتداءهم في السبت وما ترتب عليه، فقال:

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٦٣ الى ١٦٦]

وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون (١٦٣) وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون (١٦٤) فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون (١٦٥) فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين (١٦٦)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٤٦/١

قلت: (إذ يعدون) : بدل من (القرية) ، بدل اشتمال، أو منصوب بكانت، أو بحاضرة، و (إذ تأتيهم) : منصوب بيعدون، و (سبتهم) : مصدر مضاف للفاعل، يقال: سبت اليهود سبتا: إذا عظم يوم السبت وقطع شغله فيه، و (شرعا) : حال، ومعناه: ظاهرة قريبة منهم، يقال: شرع منه فلان إذا دنا منه.

يقول الحق جل جلاله: وسئلهم عن القرية أي: اليهود، سؤال تقرير وتوبيخ على تقديم عصيانهم وعما هو من معلومهم، الذي لا يعلم إلا بتعليم أو وحي، وقد تحققوا أنك أمي، فيكون ذلك معجزة وحجة عليهم، عن القرية أي: عن خبرها وما وقع لها، التي كانت حاضرة البحر قريبة منه، وهي «إيلة» ، قرية بين مدين والطور، على شاطىء البحر، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، إذ يعدون في السبت: يتجاوزون حدود الله." (١)

"أهل الفساد، أو بإصابة رأيها، فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطا، فإني لأعلم أن العذاب نازل بهؤلاء القوم. وقيل: معنى ضحكت: حاضت. يقال: ضحكت الشجرة: إذا سال صمغها. وقيل: ضحكت سرورا بالولد الذي بشرت به. فيكون في الكلام تقديم وتأخير، أي: فبشرناها فضحكت، وهو ضعيف.

قال تعالى: فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ولد ولدها. وتوجيه البشارة إليها لأنه من نسلها، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد، قالت يا ويلتى يا عجبا، وأصله في الشر، فأطلق على كل أمر فظيع. وقرىء بالياء على الأصل، أي: يا ويلتي أألد وأنا عجوز ابنة تسعين، أو تسع وتسعين وهذا بعلي: زوجي، وأصله: القائم بالأمر، شيخا ابن مائة أو مائة وعشرين سنة، إن هذا لشيء عجيب يتعجب منه لكونه نشأ الولد من هرمين.

وهو استغراب من حيث العادة، لا من حيث القدرة، ولذلك قالوا: أتعجبين من أمر الله منكرين عليها، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة، ومهبط الوحي ومظهر المعجزات. وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع، ولذلك قالوا: رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت أي: بيت إبراهيم، فلا تستغرب ما يظهر منهم من خوارق العادات، لا سيما من نشأت وشابت في ملاحظة الآيات، إنه تعالى حميد فاعل ما يستوجب به الحمد، أو محمود على كل حال، مجيد كثير الخير والإحسان. أو ممجد بمعنى العلو والشرف التام. قال ابن عطية هنا: إن في الآية دليلا على ان الذبيح إسماعيل لا إسحاق. وفيه نظر «١» . وسيأتي في سورة الصافات ما هو الحق، إن شاء الله تعالى.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٧٣/٢

الإشارة: من شأن أهل الكرم والامتنان: المبادرة إلى من أتاهم بالبر والإحسان إما بقوت الأرواح، أو بقوت الأشباح. من أتاهم لقوت الأرواح بادروه بإمداد الروح من اليقين والمعرفة، ومن أتاهم لقوت الأشباح بادروه بالطعام والشراب، كلا ما يليق به، ومن شأن الضيف اللبيب المبادرة إلى أكل ما قدم إليه، من غير اختيار، إلا لمانع شرعي أو عادي. ومن شأن أهل التحقيق والتصديق ألا يتعجبوا مما يظهر من القدرة من الخوارق إذ القدرة صالحة لكل شيء، حاكمة على كل شيء، هي تحكم على العادة، لا العادة تحكم عليها. وهذا شأن الصديقين لا يتعجبون من شيء ولا يستغربون شيئا، ولذلك توجه الإنكار إلى سارة من الملائكة، ولم يتوجه إلى مريم حيث سألت استفهاما، ولم تتعجب، ووصفت بالصديقية دون سارة. والله تعالى أعلم.

ولما تحقق إبراهيم عليه السلام بهلاك قوم لوط أسف عليهم، كما قال تعالى:

[سورة هود (١١) : الآيات ٧٤ الى ٧٦]

فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط (٧٤) إن إبراهيم لحليم أواه منيب (٧٥) يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود (٧٦)

---

(١) راجع، مع تقريرنا بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.." (١)

"وقول ابن مسعود، وعمر- رضى الله عنهما-: اللهم إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاء فامحنا، واكتبنا في ديوان السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. هـ. أي: إن كنت أظهرت شقاوتنا فامحها، وأظهر سعادتنا فإنك تمحو ما تشاء ... إلخ. وفي ابن عطية ما يشير إلى هذا، قال: وأصوب ما يفسر به أم الكتاب، أنه كتاب الأمور المجزومة التي سبق القضاء فيها بما هو كائن، وسبق ألا تبدل، ويبقى المحو والتثبيت في الأمور التي سبق في القضاء أن تبدل وتمحى وتثبت. قال نحوه قتادة. هـ.

الإشارة: قوله تعالى: ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ... الآية، قد أثبت تعالى لأهل خصوصية النبوة والرسالة الأزواج والذرية، وكان ذلك كمالا في حقهم. وكذلك أهل خصوصية الولاية، تكون لهم أزواج وذرية، ولا يقدح في مرتبتهم، بل يزيد فيها، وذلك بشرط أن يقع ذلك بعد التمكين، أو يكون في صحبة شيخ

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٥٤٣

عارف كامل عند أمره ونهيه، يكون فعل ذلك بإذنه، فإذا كان هذا الشرط فإن التزوج يزيد صاحبه تمكينا من اليقين.

قال الورتجبي في هذه الآية: أعلم تعالى، بهذه الآية، الجهال أنه إذا شرف وليا أو صديقا بولايته ومعرفته لم يضر به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد، ولم يكن بسط الدنيا له قدحا في ولايته. هـ.

وقال الغزالي في الإحياء، في الترغيب في النكاح: قال تعالى في وصف الرسل ومدحهم: ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية، فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل، ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء، فقال تعالى: والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين «١» الآية، ويقال: أن الله تعالى لم يذكر في كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين. وقالوا: إن يحيى عليه السلام قد تزوج فلم يجامع.

قيل: إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السنة، وقيل: لغض البصر. وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض، ويولد له.

وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم: «النكاح سنتي، فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي» . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: «تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة، حتى السقط» . وقال أيضا: «من رغب عن سنتي فليس مني، وإن من سنتي النكاح، فمن أحبني فليستن بسنتى» . وقال صلى الله عليه وسلم: «من ترك التزوج مخافة العيلة فليس منا» . وقال صلى الله عليه وسلم:

«من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله» .

---

(١) من الآية ٧٤ من سورة الفرقان.." (١)

"حكمته. فالوزن مجاز، أو ما يوزن حقيقة كالعشب النافعة، أو كالذهب والفضة وسائر الأطعمة. وجعلنا لكم فيها معايش تعيشون بها من المطاعم والملابس، وخلقنا لكم من لستم له برازقين من الولدان والخدمة والمماليك، وسائر ما تظنون أنكم ترزقونهم ظنا كاذبا فإن الله يرزقكم وإياهم.

قال البيضاوي: وفذلكة الآية: الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار معين، مختلفة الأجزاء في الوضع، محدثة فيها أنواع النباتات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، مع جواز ألا تكون كذلك على كمال قدرته، وتناهي حكمته، والتفرد في ألوهيته، والامتنان على العباد بما أنعم في ذلك ليوحدوه ويعبدوه. ثم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٣٦

بالغ في ذلك فقال: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه أي: وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرب الخزائن مثلا لاقتداره، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. هـ. قال ابن جزي: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه قيل: المطر، واللفظ أعم من ذلك، والخزائن:

المواضع الخازنة، وظاهر هذا أن الأشياء موجودة قد خلقت. هـ. وما ننزله أي: نبرزه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، إلا بقدر معلوم: بمقدار محدود في وقت معلوم اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة، لا يزيد ولا ينقص على ما سبق به العلم.

وأرسلنا الرياح لواقح: حوامل للماء في أوعية السحاب، يقال: لقحت الناقة والشجرة إذا حملت، فهي لاقحة، وألقحت الريح الشجر فهي ملقحة. ولواقح: جمع لاقحة، أي: حاملة، أو جمع ملقحة على حذف الميم الزائدة، فهي على هذا ملقحة للسحاب أو الشجر، ونظيره: الطوائح، بمعنى المطيحات في قوله:

ومختبط مما تطيح الطوائح «١» والرياح أربعة: صبا، ودبور، وجنوب، وشمال. والعرب تسمي الجنوب الحامل واللاقحة، وتسمى الشمال الحائل والعقيم. وفى البخاري صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور« «٢» . وروي أبو هريرة رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الريح الجنوب من الجنة، وهي اللواقح التي ذكر الله، وفيها منافع للناس» «٣» . وفى حديث: «الريح من نفس الرحمن» «٤» . والإضافة هنا إضافة خلق إلى خالق، كما قال: من روحي «٥» . ومعنى نفس الرحمن، أي:

---

(١) عجز بيت صدره: (لبيك يزيد صارع لخصومة) . وينسب البيت لأكثر من واحد، والمختبط: طالب العرف المحتاج، تطيح:

تذهب وتهلك، والطوائح: جمع المطيحة، بمعنى السنين أو الجوائح. انظر حاشية الشهاب (٥/ ٢٨٩) .

(٢) أخرجه البخاري (كتاب الاستسقاء، باب إذا هبت الريح) من حديث ابن عباس- رضي الله عنه-. [.....]

(٣) أخرجه ابن جرير فى تفسيره. وو زاد السيوطي، فى الدر المنثور (٤/ ١٧٩) ، عزوه لابن أبى الدنيا فى كتاب السحاب، وأبى الشيخ فى العظمة، والديلمي فى المسند، وابن مردويه، من حديث أبى هريرة.

(٤) أخرجه أبو داود فى (الأدب، باب: ما يقول إذا هاجت الريح) ، عن أبى هريرة، مرفوعا، بلفظ: (الريح من روح الله) مطولا.

(٥) من الآية ٢٩ من سورة الحجر.." (١)

"يقول الحق جل جلاله لبني إسرائيل، بعد ما أنجاهم من الغرق، وأفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية: يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم فرعون وقومه، حيث كانوا يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم «١» ، وواعدناكم جانب الطور الأيمن أي: واعدناكم بواسطة نبيكم، إتيان جانب الطور، الجانب الأيمن منه للمناجاة وإنزال التوراة. وهل هو الطور الذي أبصر فيه النار ووقعت فيه الرسالة، أو غيره؟ خلاف. ونسبة المواعدة إليهم مع كونه لموسى عليه السلام خاصة، أو له وللسبعين المختارين، نظر إلى ملابستها إياهم، وسراية منفعتها إليهم، وإعطاء لمقام الامتنان حقه. كما في قوله تعالى:

ولقد خلقناكم ثم صورناكم «٢» حيث نسب الخلق والتصوير للمخاطبين، مع أن المخلوق كذلك هو آدم عليه السلام.

ثم قال تعالى: ونزلنا عليكم حين تهتم، المن والسلوى أي: الترنجبين والطير السماني، حيث كان ينزل عليهم المن وهم في التيه، مثل الثلج، من الفجر إلى الطلوع، لكل إنسان صالح، ويبعث الجنوب عليهم السماني، فيذبح الرجل منه ما يكفيه. وقلنا لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم أي: من لذائذه، أو حلاله. وفي البدء بنعمة الإنجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن الترتيب ما لا يخفى. ولا تطغوا فيه أي:

فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، والتعدي لما حد لكم فيه، كالترفه والبطر والمنع من المستحق. وقال القشيري:

مجاوزة الحلال إلى الحرام، أو بالزيادة على الكفاف وما لا بد منه، فأزاد على سد الرمق، أو بالأكل على الغفلة والنسيان. هـ. وقيل: لا تدخروا، فادخروا فتعودوا، وقيل: لا تنفقوه في المعصية، فيحل عليكم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٨٢/٣

غضبي بفعل شيء من ذلك، أي: ينزل ويجب، من حل الدين إذا وجب. ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى أي: تردى وهلك، أو وقع في المهاوي.

وإني لغفار أي: كثير الغفران لمن تاب عن الشرك والمعاصي، التي مِن جملتها الطغيان فيما ذكر، وآمن بما يجب الإيمان به، وعمل صالحا أي: عملا صالحا مستقيما عند الشرع، وفيه ترغيب وحث لمن وقع في زلة أو طغيان على التوبة والإيمان، ثم اهتدى أي: استقام على الهدى ودام عليها حتى مات.

وفيه إشارة إلى أن من لم يستمر عليها بمعزل عن الغفران. قال الكواشي: (ثم اهتدى) أي: علم أن ذلك بتوفيق من الله تعالى. هـ.

الإشارة: إذا ذهبت عن العبد أيام المحن، وجاءت له أيام المنن، فينبغي له أن يتذكر ما سلف له من المحن، وينظر ما هو فيه الآن من المنن، ليزداد شكرا وتواضعا، فتزداد نعمه، وتتواتر عليه الخيرات. وأما إن نسى أيام

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١١ من سورة الأعراف.." (١)

"في ذلك: النبات مجازا دون الملائكة، فأل فيه للحقيقة والماهية، إلا أنه صرفه عن ذلك إلى العهد الذهني قرينة الجعل، كما في آية: فأكله الذئب «١» ، فإن القرينة تخلص ذلك للبعضية وإرادة الأشخاص. وقيل: المراد به:

المني. فأل فيه، حينئذ، للعهد الذهني فقط. قال القشيري: كل مخلوق حي فمن الماء خلقه، فإن أصل الحيوان الذي يحصل بالتناسل النطفة، وهي من جملة الماء. هـ. وتقدم أن الملائكة لا تناسل فيها. أفلا يؤمنون بالله وحده، وهو إنكار لعدم إيمانهم، مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والأنفسية، الدالة على تفرده تعالى بالألوهية.

وجعلنا في الأرض رواسي أي: جبالا ثوابت، من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ، أن تميد بهم أي:

كراهية أن تتحرك وتضطرب بهم، أو لئلا تميد بهم- بحذف اللام، و «لا» لعدم الإلباس. وجعلنا فيها أي:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٠٨/٣

في الأرض، وتكرير الجعل لاختلاف المجعولين، ولتوفية مقام الامتنان حقه، أو في الرواسي لأنها المحتاجة إلى الطرق، فجاجا: جمع فج، وهو الطريق الواسع، نفذ أم لا، أي: جعلنا في الأرض مسالك واسعة، وسبلا نافذة. فالسبل هي الفجاج مع قيد النفوذ. فإن قيل: أي فرق بين هذا وبين قوله: لتسلكوا منها سبلا فجاجا «٢» ؟ فالجواب: أنه هنا بين أنه خلقها على هذه الصفة، وهناك بين أنه جعل فيها طرقا واسعة، وليس فيه بيان أنه خلقها كذلك، فما هنا تفسير لما هناك. انظر النسفي.

وقوله تعالى: لعلهم يهتدون أي: إلى البلاد المقصودة بتلك السبل، أو إلى مصالحهم ومهماتهم. وجعلنا السماء سقفا محفوظا من السقوط، كقوله: ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه «٣» ، أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم، أو من استراق السمع بالشهب، كما قال: وحفظا من كل شيطان مارد «٤» . وهم أي: الكفار عن آياتها أي: عن الأدلة التي فيها، كالشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك مما فيها من العجائب الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته وحكمته، التي بعضها محسوس، وبعضها معلوم بالبحث في علمي الطبيعة والهيئة، معرضون لا يتدبرون فيها، فيقفون على ما هم عليه من الكفر والضلال، فيؤمنون.

وهو الذي خلق الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتتصرفوا فيه، والشمس لتكون سراج النهار، والقمر ليكون سراج الليل، وهذا بيان لبعض تلك الآيات التي هم عنها معرضون. وقوله: كل أي:

كلهم، والمراد: جنس الطوالع، في فلك يسبحون أي: يسيرون سير العائم في الماء. عن ابن عباس رضي الله عنه:

الفلك السماء، وقيل: موج مكفوف تحت السماء، يجري فيه الشمس والقمر والنجوم. وجمهور أهل الهيئة أن الفلك:

---

(١) من الآية ١٧ من سورة يوسف.

(٢) من الآية ٢٠ من سورة نوح.

(٣) من الآية ٦٥ من سورة الحج.

(٤) الآية ٧ من سورة الصافات.." (١)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٥٨/٣

"يقول الحق جل جلاله: لما أتى موسى وهارون فرعون وبلغا الرسالة، قال له: ألم نربك.. إلخ، روي أنهما أتيا بابه فلم يؤذن لهما سنة، حتى قال البواب: إن هنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له، لعلنا نضحك منه، فأذن، فدخل، فأدى الرسالة، فعرفه فرعون «١» ، فقال له: ألم نربك فينا في حجرنا ومنازلنا، وليدا أي: طفلا. عبر عنه بذلك لقرب عهده بالولادة. وهذه من فرعون معارضة لقول موسى عليه السلام: نا رسول رب العالمين

، بنسبته تربيته إليه وليدا. ولذلك تجاهل بقوله: وما رب العالمين، وصرح بالجهل بعد ذلك بقوله: لئن اتخذت إلها غيري ... إلخ، ولبثت فينا من عمرك سنين قيل: لبث فيهم ثلاثين سنة، ثم خرج إلى مدين، وأقام به عشر سنين، ثم عاد يدعوهم إلى الله- عز وجل- ثلاثين سنة، ثم بقي بعد الغرق خمسين، وقيل: قتل القبطي وهو ابن ثنتي عشرة سنة، وفر منهم على إثر ذلك. والله أعلم.

ثم قال ره: وفعلت فعلتك التي فعلت يعني: قتل القبطي، بعد ما عدد عليه نعمته من تربيته، وتبليغه مبلغ الرجال، وبخه بما جرى عليه مع خبازه، أي: قتلت صاحبي، وأنت من الكافرين بنعمتي، حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصي، أو: أنت حينئذ ممن تكفر بهم الآن، أي: كنت على ديننا الذي تسميه كفرا، وهذا افتراء منه عليه لأنه معصوم، وكان يعاشرهم بالتقية، وإلا فأين هو عليه السلام من مشاركتهم في الدين.

قال فعلتها إذا أي: إذ ذاك وأنا من الضالين أي: من المخطئين لأنه لم يتعمد قتله، بل أراد تأديبه، أو:

الذاهلين عما يؤدي إليه الوكز. أو: من الضالين عن النبوة، ولم يأت عن الله في ذلك شيء، فليس علي توبيخ في تلك الحالة. والفرض أن المقتول كافر، فالقتل للكافر لم يكن فيه شرع، وهذا كله لا ينافي النبوة، وكذلك التربية لا تنافي النبوة.

ففررت منكم إلى ربي، متوجها إلى مدين لما خفتكم أن تصيبني بمضرة، أو تؤاخذني بما لا أستحقه. فوهب لي ربي حكما أي: حكمة، أو: نبوة وعلما، فزال عني الجهل والضلالة، وجعلني من المرسلين من جملة رسله، وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل أي: تلك التربية نعمة تمن بها علي ظاهرا، وهي في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل، وقهرك إياهم، بذبح أبنائهم، فإنه السبب في وقوعي عندك وحصولي في تربيتك، ولو تركتهم لرباني أبواي. فكأن فرعون في الحقيقة امتن على موسى بتعبيد قومه وإخراجه من حجر أبويه. فقال له موسى عليه السلام: أو تلك نعمة تمنها علي استعبادك لهم، ليس ذلك بنعمة، ولا لك فيها

علي منة، وتعبيده: تذليلهم واستخدامهم على الدوام. ووحد الضمير فى «تمنها» و «عبدت» ، وجمعها في «منكم» و «خفتكم» لأن الفرار والخوف كان منه ومن ملائه المؤتمرين به، وأما الامتنان فمنه وحده.

---

(١) انظر البحر المحيط (٧/ ١٠) .." (١)

"وقوله تعالى: وانتصروا من بعد ما ظلموا، أي: جاروا على نفوسهم بعد ما جارت عليهم، وقهروها بعد ما قهرتهم. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون قال ابن عطاء: سيعلم المعرض عنا ما فاته منا. هـ.

وفي الحكم: «ماذا فقد من وجدك، وما الذي وجد من فقدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلا، ولقد خسر من بغى عنك متحولا، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان، أم كيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟» «١» وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

---

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (المناجاة/ ٤٢) .." (٢)

"سورة القصص

مكية إلا قوله: إن الذي فرض عليك القرآن.. الآية «١» . وهى ثمان وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها:

قوله: وأن أتلوا القرآن «٢» ، مع قوله: تلك آيات الكتاب المبين فإنه عين القرآن المتلو. وقيل: وجه المناسبة:

قوله: سيريكم آياته «٣» ، مع قوله: تلك آيات الكتاب فإن تنزيل الكتاب من أعظم الآيات. وافتتح بالرموز التي يستعملها بينه وبين حبيبه، فقال:

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١ الى ٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (٣)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٢٩/٤

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٧٢/٤

يقول الحق جل جلاله: طسم، إما مختصرة من أسماء الله تعالى، أقسم على حقية كتابه، وما يتلى فيه، كأنها مختصرة من طهارته- أي: تنزيهه- وسيادته، ومجده، أو: من أسماء رسوله- وهو الأظهر- أي: أيها الطاهر السيد المجيد تلك آيات الكتاب المبين، إما من بان، أو: أبان، أي: بين خيره وبركته، أو: مبين للحلال والحرام، والوعد والوعيد، والإخلاص والتوحيد، نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون أي: بعض خبرهما العجيب. قال القشيري: كرر الحق قصة موسى تعجيبا بشأنه، وتعظيما لأمره، ثم زيادة في البيان لبلاغة القرآن، ثم أفاد زوائد من الذكر في كل موضع يكرره. هـ.

هذا مع الإشارة إلى نصر المستضعفين، والامتنان عليهم بالظفر والتمكين، ففيه تسلية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ووعد جميل له ولأمته. وقوله: بالحق: حال من فاعل نتلوا، أو: من مفعوله، أو: صفة لمصدر محذوف، أي:

ملتبسين، أو: ملتبسا بالحق، أو: تلاوة ملتبسة بالحق. لقوم يؤمنون لمن سبق في علمنا أنه يؤمن لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم، فهو متعلق بنتلوا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تقديم هذه الرموز، قبل سرد القصص، إشارة إلى أنه لا ينتفع بها كل الانتفاع حتى يتطهر سره، ويلقي سمعه، وهو شهيد، فحينئذ يكون طاهرا سيدا مجيدا، ينتفع بكل شيء، ويزيد إلى الله بكل شيء. ولذلك خص تلاوة قصص موسى بأهل الإيمان الحقيقي لأنهم هم أهل الاعتبار والاستبصار. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٨ ونزلت بالجحفة بين مكة والمدينة. انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٢- ٤٠٣) .

(٢) الآية ٩٢ من سورة النمل.

(٣) من الآية الأخيرة من سورة النمل.." [١]

"هذا ما توعدون ليوم الحساب، قال ابن عرفة: اللام للتوقيت، أي: عنده، أو: للتعليل، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء. وقرأ المكي والبصري بياء الغيب، ليوافق ما قبله، والالتفات أليق بمقام الامتنان والتكريم. إن هذا الذي ذكر من ألوان النعيم والكرامات لرزقنا أعطيناكموه، ما له من نفاد من انقطاع وتمام أبدا.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٢٢٩

الإشارة: كل من توجه إلى الله بكليته، واتصف بمحاسن الأخلاق، كان له ذكر وشرف في الدنيا، وكرامة في العقبى، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثم ذكر أضدادهم بقوله:

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٥٥ الى ٦٤]

هذا وإن للطاغين لشر مآب (٥٥) جهنم يصلونها فبئس المهاد (٥٦) هذا فليذوقوه حميم وغساق (٥٧) وآخر من شكله أزواج (٥٨) هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار (٥٩)

قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار (٦٠) قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار (٦١) وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار (٦٢) أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار (٦٣) إن ذلك لحق تخاصم أهل النار (٦٤)

قلت: (هذا) : خبر، أي: الأمر هذا، أو: مبتدأ أي: هذا كما ذكر، وهو من الاقتضاب «١» الذي يقرب من التخلص «٢» ، كقوله بعد الحمد: أما بعد. قال السعد: هو من فصل الخطاب، الذي هو أحسن موقعا من التخلص. قال:

وقد يكون الخبر مذكورا كقوله: هذا ذكر وإن للمتقين.. الآية. هـ. قال الطيبي: هو من فصل الخطاب، على التقدير الأول، لا الثاني. هـ. أي: إذا كان خبرا عن مضمر، لا ما إذا ذكر الخبر.

يقول الحق جل جلاله: هذا أي: الأمر هذا، وإن للطاغين لشر مآب مرجع جهنم يصلونها يدخلونها، حال من جهنم، فبئس المهاد: الفراش، شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفرش للنائم، والمخصوص محذوف، أي: جهنم.

---

(١) الاقتضاب عند البلغاء: الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود من غير مناسبة، كقولك بعد حمد الله: أما بعد فقد فعلت كذا وكذا. انظر محيط المحيط (ص ٧٤٢) .

(٢) التخلص عند البلغاء: الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة. انظر محيط المحيط (ص ٢٤٨) .." (١)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٧/٥

"وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها هو ما فتح على المؤمنين، وغنموه مع النبي صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة. والالتفات إلى الخطاب لتشريفهم في مقام **الامتنان**. فعجل لكم هذه المغانم، يعني مغانم خيبر، وكف أيدي الناس عنكم أي: أيدي أهل خيبر وحلفاءهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب فانصرفوا، وقيل: أيدي أهل مكة بالصلح، ولتكون هذه الكفة آية للمؤمنين وعبرة يعرفون أنهم من الله بمكان، وأنه ضامن لنصرتهم والفتح عليهم، أو: لتكون آية يعرفون بها صدق الرسول صلى الله عليه وسلم من وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية بما ذكر من المغانم، ودخول مكة، ودخول المسجد الحرام آمنين. واللام إما متعلقة بمحذوف مؤخر، أي: وليكون آية لهم فعل ما فعل من التعجيل والكف، وإما يتعلق بعلة أخرى محذوفة من أحد الفعلين، أي: فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم لتغنموها ولتكون ... الخ، ويهديكم صراطا مستقيما أي: يزيدكم بصيرة ويقينا وثقة بوعد الله حتى تثقوا في أموركم كلها بوعد الله تعالى.

قال الثعلبي، ولما فتح النبي صلى الله عليه وسلم حصون خيبر سمع أهل فدك ما صنع- عليه السلام- بأهل خيبر، فأرسلوا له يسألونه أن يسيرهم ويحقن دماءهم، ويخلوا له الأموال، ففعل، ثم صالح أهل خيبر، على أن يعملوا في أموالهم على النصف، على أنه إن شاء أجلاهم متى شاء «١» ، ففعلوا، فكانت خيبر فيئا للمسلمين، وكانت فدك خالصة له صلى الله عليه وسلم، إذ لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، ولما اطمأن صلى الله عليه وسلم بعد فتح خيبر أهدت له زينب الحارث اليهودية شاة مصلية مسمومة، أكثرت في ذراعها السم، فأخذ صلى الله عليه وسلم الذراع، فأكل منه، ثم كلمه، فأمسك، وأكل معه بشر بن البراء بن معرور، فمات من ساعته، وسلم صلى الله عليه وسلم حتى قام عليه بعد سنتين، فمات به، فجمع له بين الشهادة والنبوة «٢» .

ثم قال تعالى: وأخرى لم تقدروا عليها أي: وعجل لكم مغانم أخرى، وهي مغانم هوازن في غزوة حنين. ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة. قد أحاط الله بها قدر عليها واستولى، وأظهركم عليها، وهي صفة أخرى ل «أخرى» مفيدة لسهولة بأسها بالنسبة إلى قدرته تعالى، بعد بيان صعوبة منالها بالنظر إلى حذرهم. ويجوز في «أخرى» النصب بفعل مضمر، يفسره قد أحاط الله بها، أي: وقضى الله أخرى، ولا ريب في أن الإخبار بقضاء إياها بعد اندراجها في جملة الغنائم الموعودة بقوله: وعدكم الله مغانم كثيرة فيه مزيد فائدة، وإنما الفائدة في بيان تعجيلها وتأخير هذه.

---

(١) حديث مصالحة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل خيبر، أخرجه البخاري فى (فرض الخمس، باب ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم يعطى المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ح ٣١٥٢) ومسلم فى (المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع، ح ١٥٥١) عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/ ٣٣٧- ٣٣٨) وتفسير البغوي (٧/ ٣١١) . وحديث أكلة خيبر أخرجه البخاري فى (الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، ح ٢٦١٧) ومسلم فى (السلام، باب السم، ح ٢١٩٠) عن أنس رضي الله عنه.." (١)

"وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم، وصفت بالعقيم لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، أو: لأنها لم تتضمن خيرا ما، من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر، وهي الدبور، على المشهور، لقوله عليه السلام: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور» «١» ، ما تذر من شيء أتت عليه أي: مرت عليه إلا جعلته كالرميم وهو كل ما رم، أي: بلي وتفتت، من عظم، أو نبات، أو غير، والمعنى: ما تركت شيئا هبت عليه من أنفسهم وأموالهم إلا أهلكته.

وفي ثمود آية أيضا إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين، تفسيره قوله تعالى: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام «٢» ، روي أن صالحا قال لهم: تصبح وجوهكم غدا مصفرة، وبعد غد محمرة، وفي الثالث مسودة، ثم يصحبكم العذاب، فعتوا عن أمر ربهم استكبروا عن الامتثال، فأخذتهم الصاعقة العذاب، وكل عذاب مهلك صاعقة. قيل: لما رأوا العلامات من اصفرار الوجوه، واحمرارها، واسودادها، التي بينت لهم، عمدوا إلى قتله عليه السلام فنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين، وتقدم في النمل «٣» ، ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم الصيحة، فهلكوا، كبيرهم وصغيرهم وهم ينظرون إليها، ويعاينونها جهرا، فما استطاعوا من قيام من هرب، أو هو من قولهم: ما يقوم بهذا الأمر: إذا عجز عن دفعه. وما كانوا منتصرين ممتنعين من العذاب بغيرهم، كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

وقوم نوح أي: وأهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدل عليه، أو: واذكر قوم نوح، ومن قرأ بالجر «٤» فعطف على ثمود، أي: وفي قوم نوح آية، ويؤيده قراءة عبد الله «وفي قوم نوح» من قبل أي: قبل هؤلاء المذكورين، إنهم كانوا قوما فاسقين خارجين عن الحدود بما كانوا فيه من الكفر والمعاصي وإذاية نوح عليه السلام.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٩٧/٥

والسماء بنيناها من باب الاشتغال، أي: بنينا السماء، بنيناها بأيد بقوة، والأيد: القوة، وإنا لموسعون لقادرين، من الوسع، وهو الطاقة، والموسع: القوي على الإنفاق، أو: لموسعون بين السماء والأرض، أو: لموسعون الأرزاق على من نشاء، وهو تتميم كما تمم ما بعده بقوله: (فنعم الماهدون) لزيادة **الامتنان**.

والأرض فرشناها بسطناها ومهدناها لتستقروا عليها، فنعم الماهدون نحن. ومن كل شيء خلقنا زوجين نوعين ذكر وأنثى، وقيل: متقابلين، السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر،

---

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه عند تفسير الآية ٤٦ من سورة الروم (٤/ ٣٤٩) .

(٢) من الآية ٦٥ من سورة هود. [.....]

(٣) راجع تفسير الآيات ٤٨- ٥٣ من سورة النمل، فى المجلد الرابع (ص ٢٠٢- ٢٠٣) .

(٤) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف (وقوم) بجر الميم، وقرأ الباقون بنصبها. راجع الإتحاف ٢/ ٤٩٣.." (١)

"الإشارة: جعل القشيري موسى إشارة إلى القلب، وفرعون إشارة إلى النفس، فيقال: هل أتاك حديث القلب حين ناداه ربه بالحضرة المقدسة، بعد طي الأكوان عن مرآة نظره، فقال له: اذهب إلى فرعون النفس إنه طغى. وطغيانها: إرادتها العلو والاستظهار، فقل له: هل لك إلى أن تزكى وتتطهر من الخبائث، لتدخل الحضرة، فأهديك إلى معرفة ربك فتخشى، فإنما يخشى الله من عرفه. فأراه الآية الكبرى من خرق العوائد ومخالفة الهوى، فكذب وعصى، حين رأى عزم القلب على مجاهدته، فحشر جنوده من حب الدنيا والرئاسة، وإقبال الناس والحظوظ والشهوات، فنادى، فقال: أنا ربكم الأعلى، فلا تعبدوا غيري. هذا قول فرعون النفس، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، أي: استولى جند القلب عليه، فأغرقه في قلزوم بحر الفناء والبقاء. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى، ويسلك طريق التزكية، فإنه يصل إلى بحر الأحدية. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

يقول الحق جل جلاله: مخاطبا أهل مكة، المنكرين للبعث، بناء على صعوبته في زعمهم، وتوبيخا وتبكيتا، بعدما بين سهولته على قدرته بقوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ ﴿أأنتم أشد خلقا﴾ أي: أخلقكم بعد موتكم أشق وأصعب في تقديركم ﴿أم السماء﴾ أي: أم خلق السماء على عظمها وانطوائها على

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/٤٧٨

تعاجيب البدائع التي تحار العقول عن ملاحظة أدناها، وهذا كقوله: ﴿أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر علىا أن يخلق مثلهم بلى﴾ [يس: ٨١] . ثم بين كيفية خلقها فقال: ﴿بناها﴾ أي: الله، وفي عدم ذكر الفاعل، فيه وفيما عطف عليه، من التنبيه على تعينه وتفخيم شأنه عز وجل ما لا يخفى.

﴿رفع سمكها﴾ أي: أعلى سقفها من الأرض، وذهب بها إلى سمت العلو مدا رفيعا مسيرة خمسمائة عام ﴿فسواها﴾ أي: فعدلها مستوية ملساء، ليس فيها تفاوت ولا فطور، أو: تممها بما جعل فيها من الكواكب والدراري، وغيرها مما لا يعلمه إلا الخلاق العليم، من قولهم: سوى فلان أمره: إذا أصلحه.

﴿وأغطش ليلها﴾ أي: أظلمه، ويقال: غطش الليل وأغطشه الله، كما يقال: ظلم وأظلمه الله. ﴿وأخرج ضحاها﴾ أي: أبرز نهارها، عبر عنه بالضحى، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها، فكان أحق بالذكر في مقام **الامتنان**. ويجوز أن يكون أضاف الضحى إليها." (١)

"مرعى لدوابكم، من: أبه: إذا أمه، أي قصده، لأنه يؤم وينتجع، اي: يقصد، أو: من أب لكذا: إذا تهيأ له؛ لأنه متهيأ للرعي، أو: فاكهة يابسة تؤب للشتاء.

وعن الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الأب، فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به. وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية، فقال: كل هذا قد عرفناه، فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده، فقال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا ابن أمر عمر، ألا تدري ما الأب؟ ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم وما لا فلتدعوه. هـ. وهذه اللفظة من لغات البادية، فلذلك خفيت على الحواضر. ﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾ أي: جعل ذلك تمتيعا لكم ولمواشيكم، فإن بعض هذه المذكورات طعام لهم، وبعضها علف لدوابهم، و ﴿متاعا﴾ : مفعول لأجله، أو: مصدر مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائد، أي: متعكم بذلك متاعا، والالتفات لتكميل **الامتنان**، والله تعالى أعلم.

الإشارة: قتل الإنسان؛ لعن الغافل عن ذكر الله، لقوله عليه السلام: " الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالما ومتعلما "، فلم يخرج من اللعنة إلا الذاكر والعالم والمتعلم إذا أخلصا، ثم عجب تعالى من شدة كفره لنعمه، حيث لم يشاهد المنعم في النعم، فيقبض منه، ويدفع إليه، ثم ذكر أول نشأته ومنتهاه، وما تقوم به بنيته فيما بينهما؛ ليحضه على الشكر. قال القشيري: ﴿من أي شيء خلقه..﴾ الخ، يعني: ما كان له ليكفر، لأنا خلقناه من نطفة الوجود المطلق وهيأناه لمظهرية ذاتنا وصفاتنا، وأسمائنا. هـ.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧/٢٣١

ثم قال: ﴿ثم السبيل يسره﴾ أي: سهلنا عليه سبيل الظهور لمظاهر الأسماء الجلالية والجمالية، ثم أماته عن أنانيته، فأقبره في قبر الفناء عن رؤية الفناء، ثم إذا شاء أنشره بالبقاء بعد الفناء. كلا ليرتدع عن كفرانه لنعمنا، وليستغرق أحواله في شهود ذاتنا، ليكون شاكرا لأنعمنا، لما يقض مآ ،مره، وهو الوصول إلى حضرة العيان. فكل من وصل إلى حضرة الشهود بالفناء والبقاء فقد قضى ما أمره به مولاه، وكل من لم يصل إليها فهو مقصر، ولو أعطي عبادة الثقلين. قال القشيري: ويقال: لم يقض الله له أمره به، ولو قضى له ما أمره به لما عصاه. هـ. وقال الورتجبي: لم يف بالعهد الأول، حين خاطبه الحق بقوله: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولم يأت بمراد الله منه، وهو العبودية الخالصة. هـ. قلت: يعني مع انضمام شهود عظمة الربوبية الصافية.

وقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ أي: الحسي والمعنوي، وهو قوت القلوب والأرواح، أنا صببنا الماء صبا، أي: صببنا ماء العلوم والواردات على القلوب." (١)

"محمد - صلى الله عليه وسلم -، وأمر الرجم في التوراة تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (٥٧٣) - (٥٧٤) - .

(٢٥٥١٤) - عن عبد الملك ابن جريج، في قوله: " يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا " في يهود؛ فيما أظهروا من التوراة، وأخفوا من محمد - صلى الله عليه وسلم - عزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .

(وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم)

(٢٥٥١٥) - عن مجاهد بن جبر - من طريق أيوب - (وعلمتم) معشر العرب (ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) أخرجه ابن جرير (٩) / (٤٠٠) - وعزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ - وجه ابن عطية ((٣) / (٤١٧)) المعنى على قول مجاهد، فقال: «فالمعنى - على هذا -: قصد منة الله عليهم بذلك، أي: علمتم - يا معشر العرب - من الهدايات والتوحيد والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ولا آباؤكم» - .

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٤٢/٧

(٢٥٥١٦) - عن مجاهد بن جبر - من طريق ابن كثير - في قوله: (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم)، قال: هذه للمسلمين أخرجه ابن جرير (٩) / (٤٠٠)، وابن أبي حاتم (٤) / (١٣٤٣) - وعزاه السيوطي إلى أبي الشيخ - .

(٢٥٥١٧) - قال الحسن البصري: جعل لهم علم ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم -، فضيعوه، ولم ينتفعوا به تفسير البغوي (٣) / (١٦٧) - .

(٢٥٥١٨) - عن قتادة بن دعامة - من طريق سعيد - قوله: (وعلمتم ما لم تعلموا)، قال: هؤلاء مشركو العرب أخرجه ابن أبي حاتم (٤) / (١٣٤٣) - .

(٢٥٥١٩) - عن قتادة بن دعامة - من طريق سعيد - في قوله: (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم)، قال: هم اليهود، آتاهم الله علما، فلم يقتدوا به، ولم يأخذوا به، ولم يعملوا به، فذمهم الله في عملهم ذلك أخرجه ابن أبي حاتم (٤) / (١٣٤٣) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - وجه ابن عطية ((٣) / (٤١٧)) المعنى على أن الخطاب لبني إسرائيل، فقال: «والمعنى - على هذا - يترتب على وجهين: أحدهما: أن يقصد به الامتنان عليهم وعلى آبائهم بأن علموا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به، لأن آباء المخاطبين من بني إسرائيل كانوا علموا أيضا وعلم بعضهم، وليس ذلك في آباء العرب - والوجه الآخر: أن يكون المقصود ذمهم، أي: وعلمتم أنتم وآباؤكم ما لم تعلموه بعد التعليم، ولا انتفعتم به لإعراضكم وضلالكم» - .

(١) ".

"الناس في الإسلام، فبلغنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «الناس تبع لقريش في الخير والشر، كفارهم تبع لكفارهم، ومؤمنوهم تبع لمؤمنيهم» أخرجه ابن جرير (٢٤) / (٦٥٤) مختصرا - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر - اختلف في قوله: (لإيلاف قريش إلافهم رحلة الشتاء والصيف)، وفي المعنى الجالب للام في قوله: (لإيلاف) على قولين: الأول: أن المعنى الجالب لها قوله: (فجعلهم كعصف مأكول) [الفيل: (٥)]، فاللام صلة لـ (جعلهم)، ومعنى الكلام: ففعلنا بأصحاب الفيل هذا الفعل، نعمة منا على أهل هذا البيت، وإحسانا منا إليهم، إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف، أو يكون الامتنان عليهم بألفة بعضهم بعضا - الثاني: أن تكون اللام هاهنا للتعجب، والمعنى: اعجب - يا محمد - لنعم الله على قريش، في إيلافهم رحلة الشتاء والصيف - ثم قال: فلا يتشاغلوا بذلك عن الإيمان واتباعك

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٤٧٢/١٣

– وقد رجح ابن جرير ((٢٤) / (٦٤٩) – (٦٥١)) مستندا إلى اللغة، وإلى آثار السلف – القول الثاني، فقال: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن هذه اللام بمعنى التعجب، وأن معنى الكلام: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف – والعرب إذا جاءت بهذه اللام، فأدخلوها في الكلام للتعجب، اكتفوا بها دليلا على التعجب من إظهار الفعل الذي يجلبها – وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل» – وذكر آثار السلف على هذا المعنى – وانتقد ((٢٤) / (٦٥٠)) مستندا إلى اللغة، وإجماع المسلمين على أن السورتين منفصلتين – القول الأول، فقال: «وأما القول الذي قاله من حكينا قوله أنه من صلة قوله: (فجعلهم كعصف مأكول) فإن ذلك لو كان كذلك لوجب أن يكون (لإيلاف) بعض (ألم تر)، وأن لا تكون سورة منفصلة من (ألم تر)، وفي إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامتان كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ما يبين عن فساد القول الذي قاله من قال ذلك، ولو كان قوله: (لإيلاف قريش) من صلة قوله: (فجعلهم كعصف مأكول) لم تكن (ألم تر) تامة حتى توصل بقوله: (لإيلاف قريش)؛ لأن الكلام لا يتم إلا بانقضاء الخبر الذي ذكر» – .

(رحلة الشتاء والصيف (٢))

(٨٥٠٤٧) – عن عبد الله بن عباس – من طريق سعيد – في قوله: (رحلة الشتاء والصيف)، قال: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف أخرجه ابن جرير (٢٤) / (٦٥٢)، وابن أبي حاتم – كما في فتح الباري (٨) / (٧٣٠) مختصرا – ، والضياء في المختارة (١٠) / (١٢٥) ((١٢٥)، (١٢٦)) – وعزاه السيوطي إلى ابن مردويه – .

(٨٥٠٤٨) – عن عبد الله بن عباس – من طريق عطاء – : أنهم كانوا في ضر ومجاعة، حتى جمعهم هاشم على الرحلتين، وكانوا يقسمون ربحهم بين الفقير والغني، حتى كان فقيرهم كغنيهم تفسير البغوي (٨) / (٥٤٨) – .

". (١)

"قال: والمقطعات في أوائل السور من هذا القبيل، فإنه تعالى قد وضعها مع نبيه ؟ في وقت لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ليتكلم بها معه على لسان جبرائيل ؟ بأسرار وحقائق لا يطلع عليها جبرائيل ؟، ويدل على هذا ما روي في الأخبار أن جبرائيل ؟ لما نزل بقوله تعالى: ﴿كهيعص﴾، فلما قال: كاف،

(١) موسوعة التفسير المأثور ٦٥/٤٤

قال النبي ؟: "علمت"، فقال: ها، قال: "علمت"، فقال: يا، قال: "علمت"، فقال: عين قال: "علمت"، فقال: صاد، قال: "علمت"، فقال جبرائيل ؟: كيف علمت ما لم أعلم؟

وهذا الخبر لم أجده في كتاب من كتب الحديث ولا غيره، فلا يصلح هذا حجة لما قاله المؤلف؛ لأن مثله يحتاج لدليل صحيح ثابت.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم

الجزء: المقدمة - الصفحة: ١٠١

تشكرون﴾ [النحل: ٧٨] قال: وإنما ذكر آلة العلم في مقام **الامتنان** والحث على الشكر دون آلة القدرة تعظيما للعلم، وتنبيها على أن المقصود من خلق ابن آدم - بل من إيجاد العالم - هو العلم، على ما علم من قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ أي: ليعرفون، ومن قوله ؟: "كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ... " الحديث.

وهذا الحديث قال عنه الزركشي في " اللآلئ المنثورة": قال بعض الحفاظ: ليس هذا من كلام النبي ؟ ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف (١).

ومن ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨] استدل بحديث نسبه إلى النبي عليه الصلاة السلام أنه قال: "اليمين للوضوء واليسار للاستنجاء ".

والحديث بهذا اللفظ لم أقف عليه، وإن كانت قد وردت أحاديث كثيرة لاستحباب استخدام اليمين في الوضوء وما يستحسن، والنهي عن استخدامها في الاستنجاء.." (١)
"(١٧٢) - ﴿يأأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾.

* * *

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٩٣/١

(١) في النسخ عدا "د": (ومثل هذا)، والمثبت من "د". (٢) في "ف": (للمعنى).

الجزء: ١ - الصفحة: ٣٦٩

﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ لما وسع الأمر على الناس كافة، وأباح لهم ما في الأرض سوى ما حرم عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا، وقد مر أن الطيب أخص من الحلال، وأن يقيموا بحقوقها، فقال: ﴿واشكروا لله﴾ على ما رزقكم وأحل لكم.

ولما تضمن الأمر الأول **الامتنان** ناسبه الخطاب، وما في الأمر الثاني من التنبيه على أن استحقاقه تعالى للشكر ليس لكونه رازقا لهم ومبيحا لطيبات الرزق فقط، بل لكونه خالقا للعالم، ويندرج (١) فيه جميع (٢) ما يستوجب الشكر، اقتضى العدول عن الخطاب إلى الغيبة (٣)، وعن التفريع بالفاء إلى العطف بالواو.

﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ فإن عبادته لا تتم إلا بالشكر، وتقديم المفعول لمحافظة الفاصلة كما في قوله تعالى: ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ [يوسف: ٤٣] إذ لا دخل لمعنى التخصيص في التعليل.

ولك أن تقول: كان الظاهر أن يقول: إن كنتم تعرفون أنه مولى النعم كلها، إلا أنه كني عنه بلازمه، وهو تخصيص العبادة إياه تعالى.

* * *

(١٧٣) - ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾.

* * *

(١) في النسخ عدا "د": (ولم يندرج)، والمثبت من "د". (٢) كلمة: (جميع) ليست في "ك "و"م".
(٣) في هامش "ح" و"د" "ف " و"م" (لأن مدار ذلك على التعبير باسم الله. منه).." [١]
"(١) في (د): "العارفة"، وفي (ف) و (ك) و (م): "الغارقة"، والمثبت من (ح) وهو الصواب. (٢) في هامش (د) و (ف) و (م): "من غفل عن هذا قال ما قال".

الجزء: ٢ - الصفحة: ٢٩

﴿فعدة من أيام أخر﴾ فالوجه أن يحمل ما قبله على أصل الوجوب؛ لأن الإفادة خير من الإعادة.

﴿فعدة من أيام أخر﴾ إطلاقه اقتضى التخيير بين الجمع والتفريق (١)، ولا يجوز تقييده بالتتابع بخبر الواحد؛ لأن التقييد نسخ ولا يجوز نسخ الكتاب بأخبار الآحاد.

﴿يريد الله بكم اليسر﴾ برخصته الإفطار بعذر المرض والسفر.

﴿ولا يريد بكم العسر﴾ بإيجاب القضاء متواليا وبلا (٢) تأخير عند زوال العذر (٣).

وفي عبارة ﴿يريد الله﴾ إشارة إلى أن الأحب عنده تعالى الإفطار عند أحد هذين العذرين؛ لما في مقابلة (٤) عدم قبول الإحسان والامتنان به، وقد نبه النبي ؟ على هذا بقوله: "ليس من البر الصيام في السفر" (٥) وما في الأداء في رمضان من الفضيلة لا يعارض هذا الاستحباب (٦)، والله أعلم بالصواب.

* * *

(١) في (د): (التعريف). (٢) في (ف) و (ك) و (م): "بلا" دون الواو. (٣) في هامش (ح) و (د) و (ف) و (م): "يعني أنه تعالى يريد اليسر بأصل الرخصة ولا يريد العسر بالتضييق فيها؛ لأنه لا يناسبها، ومن هنا اتضح وجه الوصل، فإنه على تقدير أن يكون الثاني تقريرا للأول حقه الفصل كما لا يخفى". (٤) في (د): "مقابله". (٥) رواه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥)، من حديث جابر ؟. (٦) في هامش

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٤٧٢/١

(ح) و (د) و (ف) و (م): "إشارة إلى وجه أصحابنا في هذه الخلافية، وهو أن رمضان أفضل الوقتين فكان الأداء فيه أولى".

الجزء: ٢ - الصفحة: ٣٠." [١]

"(١) أي: بـ (جاعل). وانظر: "تفسير البيضاوي" (٢/ ١٧٤). (٢) في (م) و (ك): "فمعنى". (٣) في (م) و (ك): "بمعنى الاستمرار". (٤) يعني: (والشمس والقمر). انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٣٩)، و"الكشاف" (٢/ ٤٩). (٥) من قوله: "دل عليه جاعل ... " إلى هنا سقط من (ف) و (ح). (٦) انظر: "الكشاف" (٢/ ٤٩)، و"البحر المحيط" (٩/ ٣٠٩). (٧) قوله: "جعلهما علمي حسبان" كذا جاءت في جميع النسخ، ولعل المعنى: جعلهما علمين على نوع من الحساب؛ لأن حساب الأوقات يعلم بحركتهما، وفي مطبوع "الكشاف" (٢/ ٥٠): =

الجزء: ٣ - الصفحة: ٣٧٥

يعلم بسيرهما ودورهما، يعني: على أدوار مختلفة تحسب بها الأوقات، ويكونان علمي (١) الحسبان، وعلى قراءة الجر نصب ﴿حسبانا﴾ بفعل مقدر؛ أي: جعلا كما مر في ﴿سكنا﴾.

والحسبان كالكفران مصدر حسب بفتح العين، وأما مصدر حسب بالكسر فالحسبان كالفقدان.

﴿ذلك﴾؛ أي: جعلهما حسبانا؛ يعني: ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿تقدير العزيز﴾ الذي قهرهما وسخرهما ﴿العليم﴾ بتدبيرهما وتدويرهما (٢) على الأدوار المختلفة.

* * *

(٩٧) - ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٤٩٧/١

* * *

(١) في (ف) و (ح): "ويكون على"، وفي (ك): "ويكونان على"، والمثبت من (م). وانظر التعليق السابق. (٢) "وتدويرهما" سقط من (ف) و (ح).

الجزء: ٣ - الصفحة: ٣٧٦

﴿وهو الذي جعل لكم النجوم﴾ إجمال؛ أي: خلقها لأجلكم (١)؛ فإن لكم فيها منافع، وهو دليل إضماره في الكل من ﴿فالق الحب﴾، و ﴿وجاعل الليل﴾ و ﴿والشمس والقمر﴾؛ لأنه في معرض الامتنان، وتعديد (٢) النعم على الإنسان.." [١]

"﴿لتهتدوا بها﴾ يتبين بإفراد بعض منافعها بالذكر إشارة إلى أنه أكثر منافعها وأجلها.

﴿في ظلمات البر والبحر﴾: في ظلمات الليل في البر والبحر، وإضافتها إليهما للملابسة، أو: في مشتبهات الطرق، وسماها ظلمات على الاستعارة.

﴿قد فصلنا الآيات﴾: بيناها فصلا فصلا، وإنما قال (٣): ﴿لقوم يعلمون﴾ لما علمت أن ذلك التفصيل في معرض الامتنان، وهو لا يكون إلا للعالم بما امتن به (٤).

* * *

(٩٨) - ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾.

﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾: هو آدم ؟.

﴿فمستقر ومستودع﴾: فلكم استقرار في الرحم أو فوق الأرض، واستيداع في الصلب أو تحت الأرض.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣/٢١٤

* * *

(١) في (ف) و (ح): "لآجالكم". (٢) في (ف) و (ح): "وتقدير ". (٣) في (م) و (ك): "وإنما قال". (٤) في (ك) و (م): "للعالم به لما امتن به".

الجزء: ٣ - الصفحة: ٣٧٧

وقال ابن الحنفية: ا\مستقر الصلب، والمستودع الرحم (١)؛ لتقدم (٢) ذكره على المستودع.

أو: فلكم محل استقرار واستيداع.

وعلى قراءة كسر القاف (٣): فمنكم مستقر؛ اسم فاعل، ومنكم مستودع اسم مفعول؛ لأن الاستقرار منا دون الاستيداع، وهو جعل (٤) الشيء في الشيء للاحتفاظ به.

قال الحسن: المستقر من مات، والمستودع أنتم (٥).

وأنشد:

فجع الأحبة بالأحبة قبلنا ... فالناس مفجوع به ومفجع

مستودع أو مستقر قد خلا (٦) ... فالمستقر يزوره المستودع

وكان يقول: يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك. وينشد (٧):

* * *." (١)

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣/٢١٥

"(١) في (م): "زمرة المؤمنين المتقربين". وفي (ف): "زمرة المتقين". (٢) تنسب للزهري والأعمش. انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٤٢). (٣) معنى الكلام أن فيه على هذه القراءة وجهين كما قال الآلوسي، ولفظه: فيه احتمالان: الأول أن يكون مخففا من المهموز بنقل حركة الهمزة إلى الساكن ثم حذفها، والثاني أن يكون من ذام بالألف كباع، وكان قياسه على هذا: مذيم كمبيع، إلا أنه أبدلت الواو من الياء على حد قولهم: مكول، في مكيل، مع أنه من الكيل. انظر: "روح المعاني" (٩/ ٥٥). (٤) رواية عصمة عن عاصم. انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٤٢).

الجزء: ٤ - الصفحة: ٢٤

﴿لأملأن جهنم﴾، على أن ﴿لأملأن جهنم﴾ في محل الابتداء و (لمن تبعك) خبره، أو على أنه علة لـ ﴿اخرج﴾، ولام ﴿لأملأن﴾ جواب قسم محذوف على الوجهين.

﴿منكم أجمعين﴾؛ أي: منك وممن تبعك؛ لقوله تعالى في موضع آخر: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: ٨٥] فغلب هنا المخاطب.

* * *

(١٩) - ﴿ويآآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

﴿ويآآدم﴾؛ أي: وقلنا: يا آدم، على ما ذكر في سورة البقرة، ولا (١) مساغ لأن يعطف على قوله: ﴿اخرج﴾؛ لأنه في معرض الاستئناف في جواب إبليس، وهذا ليس من تتمته ولا (٢) من تتمة **الامتنان**، وفي العطف على ما بعد ﴿قلنا﴾ بعد (٣).

﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ قد سبق ما يتعلق به من اللطائف.

﴿فكلا من حيث شئتما﴾ وفي سورة البقرة: ﴿وكلا﴾ [البقرة: ٣٥]، اعتبر ثمة الاستقلال في أمر الأكل تعظيما لشأن تلك النعمة الجليلة، واعتبر هنا تفرعه على الأمر الأول، وفيه زيادة التفخيم (٤) لذلك الأمر.." (١)

"﴿قال اهبطوا﴾ خطاب لهما ولذريتهما، أو لهما ولإبليس، كرر الأمر له تبعا ليعلم أنهم قرناء، أو أخبر عما قال لهم مفرقا.

﴿بعضكم لبعض عدو﴾ في موضع الحال.

﴿ولكم في الأرض مستقر﴾: استقرار، أو: موضع استقرار ﴿ومتاع﴾: تمتع ﴿إلى حين﴾ انقضاء آجالكم.

* * *

(٢٥) - ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾.

﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ يعلمهم أنهم لا يعودون إلى الجنة إلى أن يحشروا من قبورهم، ثم يصير السعيد إلى الجنة والشقي إلى النار.

* * *

* * *

(١) في هامش (ف): "كيف وموجب هذه الدلالة أن يقال: (فإن لم ..) إلى آخره، فتدبر. منه".
(٢) في (ف): "معاقب".

الجزء: ٤ - الصفحة: ٢٩

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣/٣١٧

(٢٦) - ﴿يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾.

﴿يابني آدم﴾ أراد نوع الإنسان، والتعبير بما (١) يشير إلى بدء خلقته وابتداء ولادته لتذكير خلقه عريانا، فإنه المناسب لمقام **الامتنان** بإعطاء أسباب اللباس.

﴿قد أنزلنا عليكم لباسا﴾ جعل ما في الأرض منزلا من السماء لأنه قضي وقدر ثمة وخلق (٢) بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة منها؛ كقوله ﴿وأنزلنا الحديد﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿يواري سوآتكم﴾ التي قصد الشيطان إبداءها؛ أي: يستر ما يسوؤكم انكشافه من الجسد، ويغنيكم عن خصف الورق.

﴿وريشا﴾ وقرئ: (ورياشا) (٣) جمع ريش؛ كشعب وشعاب، والريش: لباس الزينة والجمال، استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته؛ أي: أنزلنا عليكم لباسين؛ لباسا يواري سوآتكم ولباسا يجملكم ويزينكم.." (١)

"﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ لما أشار إلى علة النهي بإيراد (ما) (٢) التي لغير العقلاء، وسلب النفع والضر عن أصنامهم، وإثبات الظلم لمن عبدها، أتبعه بإيراد العلة الموجبة لتخصيص العبادة بالله تعالى؛ وهي أنه هو الضار النافع الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل قادر غيره فضلا عن الجماد الذي لا حياة له، وإن أرادك بخير لم

* * *

(١) في (ك): "إيجازا". (٢) "ما" من (ك).

الجزء: ٥ - الصفحة: ١١٠

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣/٣٢١

يرد أحد ما أراده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان؟ ليدل على أنه هو الحقيق بالعبادة دون ما عداه.

وفي ذكر المس مع الضر والإرادة مع الخير مع تلازمها إيماء إلى أن المراد بالذات هو الخير، ولهذا لا يخلو أحد منه، وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول.

وفي وضع الفضل موضع الضمير دلالة على أنه من باب الامتنان والتفضل، لا باستحقاق مِنا (١) واستيجاب كالشر، وأكد ذلك بقوله: ﴿يصيب به﴾ بالخير ﴿من يشاء من عباده﴾ وتقديم الضمير للتهديد، والإيماء إلى أن عبادة الغير توجب المس بالضر، وتعرض للعقاب لكونه ظلما.

ورجح (٢) جانب الترغيب فيه على جانب الترهيب؛ لأن المقصود الحث على لجاء (٣) الله تعالى وحده، والاعتصام به.

ولا شك أن داعي اللطف أيسر، والنفوس الكريمة إليه أميل، فأوثر في الأول لفظ المس الدال على ملاصقة الظاهر دون نفوذ، ثم في عدم التصريح بالإرادة زيادة لطف، وكذلك في قوله: ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ وكافيه من أنه يكشفه لا محالة إن لذت به (٤).

وفي الثاني لفظ الإرادة، فجعل المخاطب مرادا، والخير تابعا له، وفيه أبلغ اللطف.

* * *." (١)

"﴿تضرونه شيئا﴾ من الضرر بتوليكم؛ لاستحالة ذلك عليه.

وقرئ: (ويستخلف) بالجزم (١)، وكذلك: (ولا تضروه) بحذف النون (٢) عطفا على محل: ﴿فقد أبلغتكم﴾؛ أي: إن تتولوا يعذرني ويستخلف قوما غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣٠١/٤

﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾: رقيب مهيمن يحفظ أعمالكم ويؤاخذكم بها، أو: حافظ على الأشياء كلها، والكل محتاج إلى حفظه من الضرر، ومن كان كذلك لا يمكن أن يضره شيء.

* * *

(٥٨) - ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾.

﴿ولما جاء أمرنا﴾ في التعبير بمجيء الأمر عن نزول عذاب الاستئصال على عاد ما لا يخفى من الدلالة على العظمة والجلال في جانب الأمر، وسرعة الامتثال في جانب المأمور.

﴿نجينا هودا والذين آمنوا معه﴾ قيل: كانوا أربعة آلاف.

﴿برحمة منا﴾: من شؤم معاصي العاصين، فإنه (٣) لو لم تدركهم الرحمة من

* * *

(١) نسبت لحفص من رواية هبيرة، انظر: "المحرر الوجيز" (٣/ ١٨٢). (٢) نسبت لابن مسعود، انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٦٠). (٣) "فإنه" سقط من (ك).

الجزء: ٥ - الصفحة: ١٧٥

الرحمن لما نجوا من العذاب النازل، على ما دل عليه قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [الأنفال: ٢٥].

﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ الغلظ كناية عن الشدة.

والتنكير في ﴿عذاب﴾ و (رحمة) للتعظيم، أخبر أولا بأن الإيمان الذي وفقوا له صار سبب إنجائهم، ثم أخبر بأن ذلك الإنجاء كان من عذاب أي عذاب؛ دلالة على كمال **الامتنان**، وتحريضا على الإيمان.

أو هما متغايران: فالأول إنجاء الدنيا، والثاني إنجاء الآخرة.." (١)

"(١١) - ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن ناتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ تسليم للمماثلة في البشرية.

﴿ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ إثبات للمزية بمحض الامتنان والعناية، لا لفضل لهم يقتضي ذلك؛ تواضعا منهم وهضما لأنفسهم، فلا دلالة فيه على عدم التفاوت بين أفراد البشر في الاستعداد والاستحقاق (٢) للرسالة، وقد دل قوله تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤] على التفاوت فيه، ولا إيجاب بحسبه حتى ينافي الاختيار.

﴿وما كان﴾: وما (٣) صح ﴿لنا أن ناتيكم بسلطان إلا بإذن الله﴾: إلا بتيسيره؛ أي: ليس إلينا الإتيان بما اقترحتموه، إنما هو أمر متعلق بمشيئة الله تعالى، فيخص كل نبي بنوع من الآيات.

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ تعميم قصدوا به تخصيص أنفسهم على

* * *

(١) في (ف) و (م): "بهذه". (٢) في (ف) و (ك): "أفراد البشر في الاستحقاق". (٣) في (م) و (ك): "ما".

الجزء: ٥ - الصفحة: ٤٣٣

وجه الأولوية والأولية (١)، وإشعار بأن قضية الإيمان وجوب التوكل على الله تعالى، فأمروا المؤمنين كلهم به، والمراد أمرهم أنفسهم.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٤/٣٥٥

وفيه نزول عن حقهم وتواضع وهضم لأنفسهم، حيث نزلوا إلى مراتب آحاد المؤمنين، ومبالغة في وجوبه عليهم، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم، فإن ذلك حق كل مؤمن، فكيف بالأنبياء؟!

* * *." (١)

"﴿ومن لستم له برازقين﴾ نصب عطفا على ﴿لكم﴾، لا على الضمير المجرور، وإلا لوجب إعادة الجار؛ أي: وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين من العيال والخدم والمماليك والأنعام والدواب ممن تظنون أنكم رازقوهم ظنا كاذبا، والله يرزقكم وإياهم.

أو على ﴿معايش﴾؛ أي: وجعلنا فيها من لستم له برازقين مما ذكر؛ فإنها من معايشكم.

وفذلكة الآية: الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معين، مختلفة الأجزاء في الوضع، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، مع جواز أن لا يكون كذلك، على (٣) كمال قدرته تعالى، وتناهي حكمته، والتفرد في الألوهية، **والامتنان** على العباد بما أنعم الله عليهم في ذلك ليوحدوه ويعبدوه، ثم بالغ في ذلك فقال:

* * *

* * *

(١) في (ك) و (م): "أي ذو". (٢) انظر: "تفسير البيضاوي" (٣/ ٢٠٨١)، وفيه بعد (كلام موزون): (أو ما يوزن ويقدر أو له وزن في أبواب ال‍نعمة والمنفعة). (٣) "على" متعلق بقوله: "الاستدلال".

الجزء: ٥ - الصفحة: ٤٩٨

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥/ ٧١

(٢١) - ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴿من شيء﴾ في محل الرفع مبتدأ، خبره (١) ﴿عندنا خزائنه﴾ و ﴿من﴾ زائدة لتأكيد العموم.

الخزائن: جمع الخزانة، وهي اسم المكان الذي يخزن - أي: يحفظ - فيه نفائس الأموال.

شبه معلوماته تعالى الممكنة التي إذا تعلقت الإرادة بها وجدت بقدرته بالأشياء المخزونة في الخزائن، فهي استعارة.

وقيل: ضرب ذلك مثلا لاقتداره في كل مقدور وإيجاده وتكوينه بحسب الإرادة؛ أي: ما من شيء من الأشياء الممكنة إلا ونحن قادرون على إيجاد أضعاف ما وجد منه.

﴿وما ننزله﴾؛ أي: نكونه ونوجده في العالم السفلي.." (١)

"﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ إلا خلقا ملتبسا بالحق؛ أي: بالعدل والحكمة، لا ملتبسا بالباطل والعبث، فيهملون على فسادهم وظلمهم، ولا يؤاخذون بالعذاب؛ فإنه ينافي الحكمة والعدل.

﴿وإن الساعة لآتية﴾ فينتقم لك فيها ممن كذبك.

﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ أي: فاصفح عنهم ولا تعجل بالانتقام منهم، وعاملهم بالخلق معاملة الصفوح الحليم، وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

* * *

(٨٦) - ﴿إن ربك هو الخلاق العليم﴾.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥/١٢٥

﴿إن ربك هو الخلاق﴾ الذي خلقك وخلقهم، وبيده أمرك وأمرهم.

﴿العليم﴾ بحالك وبحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينك وبينهم، فهو يحكم بينكم ويجازيكم على أعمالكم، أو هو الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم، فأمر اليوم بالصفح لعلمه بأنه الأصلح إلى أن يكون السيف أصلح.

* * *

(٨٧) - ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم﴾.

﴿ولقد آتيناك سبعا﴾: سبع آيات، وهي الفاتحة، عںى ما نص عليه النبي ؟، وقد بيناه في تفسيرها.

الجزء: ٥ - الصفحة: ٥٣٣

وقيل: سبع سور، وهي الطوال، وسابعها الأنفال والتوبة، فإنهما في حكم سورة واحدة، ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية.

ورد بأن هذه السورة قد نزلت وما نزل من السبع الطوال شيء، والصرف عن الظاهر يأباه مقام **الامتنان**.

﴿من المثاني﴾ بيان للسبع، من التثنية، وهي التكرير، أو من الثناء؛ لاشتمالها على ما هو ثناء على الله تعالى، الواحدة مثناة؛ أي: موضع التثنية أو الثناء (١).

تنكير ﴿سبعا﴾ للتعظيم، والإبهام الذي فيه والتوضيح بقوله: ﴿من المثاني﴾ للتمكين في نفوس السامعين.." (١)

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥/١٥٢

"وقوله: ﴿والقرآن العظيم﴾ من باب عطف الكل على البعض؛ للتعميم وتكثير **الامتنان**، وتفخيم شأن البعض المعطوف عليه، كأنه المقصود بالذكر، والأصل لسائر الأبعاض، والمراد من الكل: مجموع ما نزل وقت نزول هذه الآية، لا مجموع القرآن حتى يلزم المحذور المذكور آنفا.

* * *

(٨٨) - ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

﴿لا تمدن عينيك﴾: لا تطمحن ببصرك طموح راغب.

الناظر إنما يكون مادا عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر إليه، وإدامة النظر إلى الشيء تدل على استحسانه والرغبة فيه.

* * *

(١) في (ف): "والثناء".

الجزء: ٥ - الصفحة: ٥٣٤

﴿إلى ما متعنا به أزواجا منهم﴾: أصنافا من الكفار، فإن ما أوتيته من القرآن العظيم أعظم منها؛ لأنه كمال مطلوب بالذات، موصل إلى دوام جوامع اللذات، أو ما أوتوا فهو مستحقر بالنسبة إليه أقل من لا شيء.

﴿ولا تحزن عليهم﴿ أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بهم الإسلام، أو أنهم المتمتعون به دون المؤمنين.

﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾: لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم.

خفض الجناح مجاز مرسل عن التعطف والرفق، مرتب على الكناية، وأصله: أن الطائر إذا ضم الفرخ إليه بسط جناحه له ثم قبضه على فرخه.

* * *

(٨٩) - ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾.

﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا.." (١)

"وتقديم الظرف للاختصاص؛ إشارة إلى أن الأصل المعتد به في أكل اللحم إنما هو منها، وأما الأكل من غيرها فكغير المعتد به، وكالجاري مجرى التفكه، فجعله لمجرد محافظة الفاصلة تنزيل للمنزل عن منزلته الفاضلة.

* * *

(٦) - ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾.

﴿ولكم فيها جمال﴾: زينة ﴿حين تريحون﴾: تردونها من مراعيها إلى مراوحها بالعشي ﴿وحين تسرحون﴾: تخرجونها بالغداة إلى المرعى، فإن الأفنية تزين بها، ويتجاوب [فيها] الرغاء والثغاء (١)، فيأنس أهلها ويفرح أربابها، ويجلهم في أعين الناظرين إليها (٢)، ويكسبهم الجاه والحرمة.

وتقديم الإراحة على السرح لأن الجمال فيها أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر، حاضرة لأهلها، يأنسون بها مبتهجين.

* * *

(١) تفسير ابن كمال باشا ١٥٣/٥

(١) الثغاء: صوت الغنم. والرغاء: صوت الإبل. وما بين معكوفتين من "الكشاف" (٢/ ٥٩٤)، ووقع في النسخ: "ويجاوب" والمثبت هو الأنسب بسياق الكلام. (٢) زاد في (ف): "ولا يخفى لطف موقع هذا التنبيه والتمهيد السابق بقوله: (من)، حيث تضمن الإشعار بأنهم يتدؤون أكله من البحر مبالغة في تهيئته للأكل في مقام الامتنان، وفي تخصيص أكله طريا بالذكر إشارة إلى أنه في معرض أن يسرع إليه الفساد لكمال لطافته فيسارع إلى أكله، فكأنه قيل: لتأكلوا منه لحما في غاية اللطافية". وليس هنا موضع هذا الكلام، وسيأتي في موضعه الصحيح في تفسير قوله تعالى: ﴿لتاكلوا منه لحما طريا﴾.

الجزء: ٦ - الصفحة: ١٢

وقرئ: (حينا) (١)، على أن ﴿تريحون﴾ و ﴿تسرحون﴾ كلاهما وصف لـ ﴿حين﴾؛ أي: تريحون فيه وتسرحون فيه.

* * *." (١)

"﴿وزينة﴾ انتصب بالعطف على محل ﴿لتركبوها﴾ على أنها مفعول له، وخولف بينهما لا (٢) لأن الركوب فعل المخاطبين ففقد شرط نصبه، وأما الزينة ففعل الخالق لأنه لا يأبى (٣) عن نظم الثاني في سلك الأول، بل لأن الأول مقصود بالذات والثاني بالعرض.

وقرئ: (زينة) بغير واو (٤)، فجاز أن يكون حالا عن أحد الضميرين، وأن يكون علة لـ (تركبوها).

واستدل به على حرمة لحومهن (٥)، ووجه الاستدلال: أن المقام مقام الامتنان بعد المنافع، والكلام مشتمل لنوعي المقصود استئنافا لها، فلو كان أكلها حلالا لكان أحق بالتعرض من الزينة، وأما أكل لحم الحمار وإن كان حلالا وقتئذ إلا أنه في معرض التحريم، فالامتنان به لا يليق بالحكمة (٦).

* * *

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥/١٦٢

(١) في النسخ: "بين"، ولعل الصواب المثبت. (٢) "لا" سقط من (ف). (٣) في (ف): "لا يأتي".
(٤) انظر: "المحتسب" (٢/ ٨). (٥) في (م): "لحومهما"، وفي (ف): "لحرمهن"، والمثبت من (ك).
(٦) في (م): "بالجملة"، وفي (ف): "بالحكم".

الجزء: ٦ - الصفحة: ١٤

﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ لما فصل الحيوانات المحتاج إليها غالبا احتياجا ضروريا أو غير ضروري أجمل غيرها مما لا يعلم كنهه وتفاصيله؛ أي: فيكم ولكم على سبيل **الامتنان**، أو ما لم تحصوه ولم يكن لكم به علم لكثرتها، دلالة على مزيد قدرته وحكمته، ويدخل فيه ما خلق في الجنة والنار مما لا يبلغه وهم أحد ولا خطر على قلبه.

وغير النظم إلى المضارع استحضارا لإيجاد ما لم يحط به علما من الأشياء النافعة له، والدلالة على قدرته تذكيرا للنعمة، وتعجيبا، وتقريرا لدلائل القدرة، وتعجيزا لما يشركون به من الآلهة.

* * *

(٩) - ﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين﴾.." [١]
"﴿لتاكلوا منه لحما طريا﴾ هو الحوت، وإنما عبر عنه باللحم - وهو ما يؤكل من الحيوان - تنبيها على جهة فضله وامتيازه عن سائر الحيوانات المأكولة، فإنها لا تكون لحما إلا بعد الذبح والسلخ، ولا يخفى لطف موقع هذا التنبيه، والتمهيد السابق بقوله: (من) حيث تضمن الإشعار بأنهم يبتدؤون أكله من البحر؛ مبالغة في تهيئته للأكل في مقام **الامتنان**.

وفي تخصيص أكله ﴿طريا﴾ بالذكر إشارة إلى أنه في معرض أن يسرع إليه الفساد، لكمال لطافته، فيسارع إلى أكله، فكأنه قيل: لتأكلوا منه لحما في غاية اللطافة، وهذا من ألطف الكنايات التي قلما يتنبه

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١٦٤/٥

لها، ولا بد من الحمل عليها؛ إذ على تقدير إبقائه على ظاهره يكون بيانا للواقع، خاليا عن فائدة الخبر ولازمها.

روي أن أبا حنيفة لما قال: لو حلف لا يأكل لحما فأكل لحم السمك لا يحنث؛ لأن لحم السمك ليس بلحم، سمع سفيان الثوري قوله، فأنكر عليه محتجا بهذه

الجزء: ٦ - الصفحة: ٢٠

الآية، فبعث إليه أبو حنيفة ؟ رجلا سأله عمن حلف لا يصلي على البساط فصلى على الأرض، هل يحنث أم لا؟ فقال سفيان: لا يحنث، فقال الرجل (١) أليس إن الله تعالى قال: ﴿والله جعل لكم الأرض بساطا﴾ [نوح: ١٩]، فعرف سفيان أن ذلك تلقين أبي حنيفة (٢).

وقيل في وجه قوله (٣): إن مبنى الإيمان على العادة، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه: اشتر بهذه الدراهم لحما، فجاء بالسمك كان حقيقا بالإنكار.

وهذا معارض بأنه إذا قال لغلامه: اشتر بهذه الدراهم (٤) لحما، فجاء بلحم العصفور، استحق الإنكار أيضا مع أنه يحنث بأكل لحم العصفور من حلف لا يأكل اللحم.." (١)

"لما أخرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة ونهاية اللطافة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبع، بل بقدرة الله تعالى وحكمته، حين أظهر الضد من الضد.

﴿وتستخرجوا منه حلية﴾ كاللؤلؤ والمرجان، فإن الحلية اسم لما يتحلى به، وزيادة حرف التنفيس (٥) هنا للدلالة على أن إخراجها بمشقة تقتضي المهلة.

* * *

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١٦٩/٥

(١) "الرجل" من (م). (٢) انظر: "تفسير الرازي" (٢٠/ ٦). (٣) أي: في تعليل قول أبي حنيفة بعدم الحنث، وصاحب هذا القيل هو الزمخشري. انظر: "الكشاف" (٦/ ٢). (٤) في (م): "بهذا الدرهم". (٥) حرف التنفيس: أي: السين، وحرفا التنفيس هما السين وسوف، وإنما سميتا به لأن التنفيس التأخير، =

الجزء: ٦ - الصفحة: ٢١

﴿تلبسونها﴾: تلبسها النساء، فهو من قبيل (١) إسناد فعل البعض إلى الجملة بقرينة (٢) السابق.

﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾: جواري فيه، تشقه بحيزومها مع صوت، من المخر، وهو شق الماء بصوت.

﴿ولتبتغوا﴾ عطف على محذوف تقديره: لتركبوا فيها ولتبتغوا.

﴿من فضله﴾: من سعة رزقه بركوبها للتجارة.

﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي: وتشكروا (٣) الله تعالى على هذه النعمة الجليلة؛ حيث يقطع بها المسافة البعيدة في المدة القليلة، مع ما فيها من الأحمال والأثقال، بلا مؤنة الرفع والوضع في أثناء السفر كما هو المعتاد في مسافرة البر، هذا هو الوجه بتخصيص هذه النعمة بتعقيب الشكر، وأما جعل المهالك سببا للانتفاع وتحصيل المعاش فلا يناسب مقام **الامتنان** بالإحسان، إنما يناسب مقام إظهار القدرة.

* * *

(١٥) - ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون﴾.

﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ عطف على محذوف، تقديره: والأرض مددناها." (١)

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١٧٠/٥

"﴿يخرج من بطونها﴾ التفات من خطاب النحل إلى الغيبة؛ تصريفا للخطاب إلى الناس؛ لأن الغرض الامتنان بالنعمة الجسيمة بين الغذائية والدوائية (٢) واللذة والشفاء عليهم، والاعتبار بحاله العجيبة، ولطف صنعتها التي تبهر العقول، والاستدلال بها على قدرة الصانع وكمال علمه وحكمته.

﴿شراب﴾ يعني: العسل؛ لأنه مما يشرب.

وفيه دلالة على ما هو (٣) المختار عند المحققين، من أن النحل يأكل الأزهار والأوراق العطرة، فيستحيل في باطنها، ثم يقيء ادخارا للشتاء.

ومن زعم أن العسل نباتي محض، وقال: إنها تلتقط بأفواهها أجزاء طلية (٤) حلوة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار، وتضعها في بيوتها ادخارا= لزمه أن يجعل البطون مستعارة لأفواه النحل، ويكون الأكل ترشيحا لها.

* * *

(١) "كل للتكثير" من (م). (٢) في (م): "الغداية والدوايية". (٣) في (ف) و (ك): "ما فيه". (٤) نسبة للطل. انظر: "حاشية الشهاب" (٥/ ٣٤٩).

الجزء: ٦ - الصفحة: ٦٤

﴿مختلف ألوانه﴾ أبيض وأحمر وأصفر وأزرق، بحسب لون النور أو سن النحل.

﴿فيه شفاء للناس﴾ لأنه من الأغذية الدوائية، وقل معجون لم يقع فيه.

وإنما نكر ﴿شفاء﴾ لأن فيه شفاء ما لبعض الأمراض لا لكلها (١)، أو لتعظيم الشفاء الذي فيه.

﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر علم قطعا أنه لا بد من قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه.

(٧٠) - ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير﴾.

﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم﴾ بآجال مختلفة.." (١)

"(٧٢) - ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون﴾.

﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾؛ أي: من جنسكم؛ لتأنسوا بها، وليكون أولادكم منهن أمثالكم.

﴿وجعل لكم من أزواجكم﴾ لم يقل: (منها)؛ لاحتمال العود إلى الأنفس.

* * *

(١) في (ف) و (م): "تحسبن".

الجزء: ٦ - الصفحة: ٦٧

﴿بنين وحفدة﴾: جمع حافدة، وهو الذي يسرع في الخدمة والطاعة، قيل: المراد منهم البنون أنفسهم، والعطف لتغاير الوصفين، وقيل: هم البنات، وفيه - أي: في التعبير عنهن بالحفدة دون البنات - تنصيص على وجه **الامتنان** بالبنات، وهو أنهن تخدمن في البيوت أتم خدمة.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥/٢٠٧

وقيل: هم الأختان على البنات، وحينئذ يكون إشارة إلى أن البنات من حيث أنهن وصلة بالأجانب نعمة جليلة.

وقيل: هم الربائب، وحينئذ يظهر وجه الاحتياج إلى قوله: ﴿من أزواجكم﴾.

وأما الحمل على أولاد (١) الأولاد فيأباه تخصيص البنين بالذكر، فإنه حينئذ حقه التعميم أولا أيضا.

﴿ورزقكم من الطيبات﴾: بعضها؛ لأن كلها إنما يكون في الجنة، والمراد: الأطعمة الشهية.

﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم، أو أن من الطيبات ما يحرم عليهم كالبحائر والسوائب.

﴿وبنعمت الله هم يكفرون﴾ حيث أضافوها إلى غيره تعالى، وحرموا ما أحل الله لهم.

وإقحام ﴿هم﴾ بين قوله: ﴿وبنعمت الله﴾ و ﴿يكفرون﴾ للتقوية المعاضدة للتوبيخ والإنكار بالهمزة الواردة على فاء التعقيب؛ أي: أبعد وضوح دلائل بطلان ما يعتقدونه يؤمنون بذلك الباطل؟!

* * *

(١) "أولاد" سقط (م).

الجزء: ٦ - الصفحة: ٦٨." (١)

"(٧٨) - ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾.

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥/٢١٠

ثم دل على قدرته فقال: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم﴾ بيان لعجزنا في الابتداء، يعني: لم تكونوا قادرين بأنفسكم على الخروج فأنا أخرجتكم، كما أن قوله: ﴿لا تعلمون شيئا﴾ بيان لجهلنا فيه في موضع الحال؛ أي: غير عالمين.

وفيه دلالة على أن الحركة للجنين غير إرادية.

* * *

(١) في (م): "كرجوع". (٢) "يمكن" من (م). (٣) في (ف): "أي".

الجزء: ٦ - الصفحة: ٧٤

﴿وجعل لكم السمع والأبصار﴾ خصهما بالذكر - والمراد جميع الحواس - لأنهما أشرفها، والاعتبار والاستدلال بمدركاتها أكثر، كما خص الصلاة والزكاة في مواضع من القرآن بالذكر والمراد جميع العبادات؛ لأنهما أصلها.

وتقديم ﴿السمع﴾ لأنه أعم نفعا وأتم، حيث يحصل به العلوم النقلية التي لا يتطرق فيها الغلط.

﴿والأفئدة﴾؛ أي: أنعم عليكم بهذه الآلات والقوى لتدركوا بالحواس والمشاعر (١) الجزئيات، وتتنبهوا بالأفئدة لكلياتها، فتحصل لكم العلوم البديهية، وتقدروا على اكتساب النظريات بها.

والأفئدة من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة؛ إذ لم يرد في السماع غيرها.

﴿لعلكم تشكرون﴾: إرادة أن تشكروا نعمه الظاهرة والباطنة بالعمل بتلك العلوم، فترثوا العلوم الكشفية، كما قال ؟: "من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم" (٢)، فتكملوا وتسعدوا.

وإنما ذكر (٣) آلة العلم في مقام الامتنان والحث على الشكر دون آلة القدرة

* * *." (١)

"(١) قال الزركشي في "اللآلئ المنثورة" (ص: ١٣٦): قال بعض الحفاظ: ليس هذا من كلام النبي ؟ ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف.

الجزء: ٦ - الصفحة: ٧٦

(٨٠) - ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين﴾.

﴿والله جعل لكم من بيوتكم﴾ التي تبنونها من الحجر والمدر ﴿سكنا﴾ فعل بمعنى مفعول، وهو ما يسكن فيه أو إليه من مسكن أو مالف.

﴿وجعل لكم﴾ إنما أعاده لأن **الامتنان** هنا بنوع آخر من النعمة.

﴿من جلود الأنعام بيوتا﴾ التنكير للتنويع؛ أي: نوعا غريبا منها، وهي (١) القباب المتخذة من الأدم، ولا حاجة إلى أن يتكلف في تعميمها المتخذة من الوبر والصوف والشعر؛ لاندراجها فيما يأتي بعيد هذا.

﴿تستخفونها﴾: تجدونها خفيفة، يخف عليكم حملها ونقلها.

﴿يوم ظعنكم﴾ الظعن بفتح العين وتسكينها: الارتحال.

﴿ويوم إقامتكم﴾: وقت نزولكم وإقامتكم في مسائركم، لم يثقل عليكم ضربها ونقضها، أو يوم قراركم في منازلكم، والأول أولى؛ إذ ظهور المنة في خفتها في السفر أتم وأظهر.

﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها﴾ الصوف للضأن، والوبر للإبل، والشعر للمعز، والكنايات راجعة إلى الأنعام، والفصل بما للإبل بين ما للضأن وما للمعز لأنه أكثر استعمالا في السفر والحضر.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢١٦/٥

﴿أثاثا﴾؛ أي: أمتعة وثيابا تصلح للسفر والحضر، منها ما يلبس، ومنها ما يفرش، ومنها ما ينصب كأخبية الشعر واللبد.

* * *

(١) في (ف): "وهو".

الجزء: ٦ - الصفحة: ٧٧

﴿ومتاعا﴾ المتاع: ما ينتفع به ويتجر.." (١)

"﴿إلى حين﴾: إلى أن تبلى وتفنى، أو: إلى أن تقضوا منها أوطاركم. والتنوين للتعظيم، والإشارة إلى أنها تبقى مدة مديدة، أو للإبهام لأنه غير معين؛ أي: مدة ما من الزمان غير معلومة.

(٨١) - ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم باسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾.

﴿والله جعل لكم﴾ شرع في **الامتنان** بنعمة خالصة عن شوب الكسب، ولهذا أعاد الإسناد إلى ظاهر اسم الله تعالى.

﴿مما خلق﴾ في السماء كالسحاب المظلم على ما ذكر (١) في قوله تعالى: ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ [الأعراف: ١٦٠] (٢)، أو في الأرض كالجبل والشجر.

﴿ظلالا﴾: ما يستظل، لما كانت بلاد العرب عليها الحر المفرط امتن عليهم بما يتقون به من حر الشمس، وفيه نوع تمهيد لتخصيص الحر بالذكر فيما سيأتي (٣).

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥/٢١٨

﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾: مواضع تستكنون بها، من الكهوف والغير ان.

الإنسان إما مقيم أو مسافر، والمسافر إما غني يستصحب معه ما يستظل به

* * *

(١) هنا انتهى السقط من (ك). (٢) في (ف): "وظللنا عليكم الغمام"، وهي الآية (٥٧) من سورة البقرة. (٣) في (م): "يأتي".

الجزء: ٦ - الصفحة: ٧٨

ويكن به (١)، أو فقير لا يقدر عليه، فامتن على الأول بقوله: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنا﴾، وعلى الثاني بقوله: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا﴾، وعلى الثالث بقوله: ﴿جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾.

﴿وجعل لكم سرابيل﴾ من القطن والكتان والصوف، جمع سربال.." (١)

"﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ الفاء فصيحة؛ كأنه قيل: وخالفنا بين الآيتين: فجعلنا الآية التي هي الليل لمحوه؛ أي عديم النور، والآية التي هي النهار مبصرة؛ أي: مضيئة أهله مبصرة للناس، من أبصره فبصر، فإن الإضاءة لازم الإبصار، على أن الإضافة في الآيتين للتبيين.

وقيل: آية الليل القمر، ومحوه: إخلاؤه عن (٣) النور؛ فإن ما يرى فيه نور الشمس، وآية النهار الشمس، وإبصارها: نورها الذي يقع به الإبصار.

﴿لتبتغوا﴾ تعليل لجعل آية النهار مبصرة.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢١٩/٥

﴿فضلا﴾: رزقا ﴿من ربكم﴾ والابتغاء: الطلب، والمعنى: لتقدروا في بياض النهار على تحصيل أسباب المعاش.

* * *

(١) "الحكيم" من (م). (٢) في (ف): "وآثار". (٣) في (ك): "من".

الجزء: ٦ - الصفحة: ١٣٣

وفي عبارة الفضل إشارة إلى أنه لا يجب على الله تعالى أن يرزق عباده، وإنما ذلك تفضلا، ففيه رد على المعتزلة.

﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ تعليل لمحو آية الليل؛ أي: تعلموا باختلاف الجديدين عدد السنين وجنس الحساب، وما تحتاجون إليه منه، أو: الحساب المتعلق بالأوقات، على أن (١) التعريف للعهد، بقرينة ﴿عدد السنين﴾، أو بنقص نور القمر شيئا فشيئا؛ لأن معرفة السنة القمرية المعتبرة عند العرب بذلك.

﴿وكل شيء﴾ كلمة ﴿وكل﴾ للتكثير والتفخيم، لا للتعميم والإحاطة، كما سبق إلى وهم من قال: مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم (٢).

﴿شيء فصلناه تفصيلا﴾ بيناه بيانا كافيا. والمقام مقام **الامتنان** بإتمام الإحسان، لا مقام الإلزام والإفحام (٣)، كما سبق إلى بعض الأفهام.

* * *." (١)

"﴿فتشقى﴾ أفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما (١) في الخروج اكتفاء لاستلزام شقائه شقاءها؛ لأنه القيم عليها، والمحافظ لها، مع الإيجاز والمراعاة مع الفاصلة.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢٦٢/٥

ويجوز أن يكون المراد بالشقاء: التعب في طلب المعاش، وذلك وظيفة الرجل وحده، ويعضده قوله: (١١٨ - ١١٩) - ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى (١١٨) وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾.

﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ فإنه بيان وتذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشبع والري والكسوة والكن، مستغنيا عن اكتسابها والسعي في تحصيل

* * *

(١) في (س) و (ف) و (ك): "اشتراكهما".

الجزء: ٦ - الصفحة: ٤٩٨

أعواض ما عسى ينقطع ويزول بذكر (١) نقائضها، ليطرق سمعه بأصناف الشقوة المحذر منها (٢).

وإنما عدل عن الأصل المألوف في الذكر - أي: المنزل - تنبيها على أن الأولين أصلان، وأن الأخيرين متممان على الترتيب (٣)، **فالامتنان** على هذا الوجه أظهر، ولهذا فرق بين القرينين (٤)، فقيل أولا: ﴿إن لك﴾، وثانيا: ﴿إنك﴾.

وقرئ ﴿وأنك﴾ بالفتح (٥)، عطفا على ﴿ألا تجوع﴾ وإن لم يجز دخول (إن) على (أن)؛ لأن الواو ليس حكمها حكم (إن)؛ لأنها نائبة عن كل عامل، لا عن (٦) خصوص (إن) لتعلل بامتناع توارد حرفين يعملان عملا واحدا، وكذلك لم توضع للتحقيق خاصة لتعلل بامتناع اجتماع حرفين لمعنى (٧) واحد، على أنها وإن كانت نائبة إلا أنها ليست في قوة المنوب عنه، فلذلك عومل معها ما لا يعامل معه، كقولك: ليس زيد قائما ولا قاعدا، ولا يجوز أن تقول: ليس لا قاعدا.

* * *." (١)

"(١) أي: ﴿من كل زوجين﴾ قراءة السبعة عدا حفص فقرأ بتنوين اللام. انظر: "التيسير" (ص: ١٢٤). (٢) "إلى" ليست في (ف) و (ك).

الجزء: ٧ - الصفحة: ١٨٣

﴿فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾ أمره بالحمد على نجاته ونجاة من معه؛ إشارة إلى أن نجاة أتباعه أيضا نعمة جليلة في حقه، وامتنانا بها أيضا، ولو قال: (فقولوا) لم يحصل هذا المعنى.

وأيضا كبرياء الربوبية يقتضي أن (١) لا يترقى إلى الخطاب بحضرتها إلا نبي مثله (٢)، وأن (٣) كلامه يغني عن كلامهم، ولا يستأهل الإجابة إلا مثله.

* * *

(٢٩) - ﴿وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين﴾.

﴿وقل رب﴾ لما نهاه عن الدعاء لإنجائهم أمره بدعاء هو أهم وأنفع؛ وهو أن ينزل منزلا مباركا.

﴿أنزلني﴾ في الأرض من السفينة، لا في السفينة؛ لأنه عبر عنه سابقا بعبارة تدل على الصعود، وقد حصل الفراغ عنه وعن إظهار **الامتنان** بما ترتب عليه من نعمة النجاة.

﴿منزلا مباركا﴾: يبارك لي فيه، ويتسبب لزيادة خير الدارين.

وقرئ: ﴿منزلا﴾ (٤) بمعنى إنزالا، أو موضع إنزال.

﴿وأنت خير المنزلين﴾ ثناء مطابق لمسألته، أمره بأن يشفعه بها مبالغة فيها وتوسلا

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥٩/٦

* * *

(١) في (ف): "لأن". (٢) في (ف) و (ك): "من مثله" بدل "نبي مثله". (٣) في (ف): "وإن كان". (٤) وهي قراءة أبي بكر. انظر: "التيسير" (ص: ١٥٩).

الجزء: ٧ - الصفحة: ١٨٤

به إلى الإجابة، إنما أمره بالقولين المذكورين لا بالحمد والدعاء تعليما (١) لطريقهما، وإظهارا لفضيلة الحمد والدعاء (٢) بالعبارتين المذكورتين.

* * *

(٣٠) - ﴿إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين﴾.." [(١)]

"﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴿قليلا﴾ نصب على المصدر، و ﴿ما﴾ زائدة للتوكيد بمعنى حقا؛ أي: شكرا قليلا تشكرون حقا، وإنما خص ﴿السمع والأبصار والأفئدة﴾ بالذكر في مقام الامتنان لأنها أصول المدركات المنتفع بها في المنافع الدينية والدنياوية، ولا يمكن الاستكمال إلا بها، فإنه موقوف على الاعتبار والاستماع والاستبصار بالنظر والاستدلال، فهي أصول النعم الموجبة للشكر، ولما كان العمدة في الشكر استعمالها فيما خلقت لأجله، ومقدمتها الإقرار بواهبها ومنشئها قال: (٧٩) - ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾.

﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾: خلقكم فيها بالتناسل.

﴿وإليه تحشرون﴾: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

* * *

(١) تفسير ابن كمال باشا ٦/٢١٢

(٨٠) - ﴿وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾.

﴿وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار﴾ قد سبق تفسيره؛ أي: هو المختص باعترافكم بإنشاء الجوارح المذكورة وإنشائكم، والمختص بالإحياء والإماتة، ﴿وله﴾ خاصة ﴿اختلاف الليل والنهار﴾، وهو متوليه، لا يقدر على تصريفهما (١) غيره، والاختصاص مستفاد من تقديم الضمير والظرف.

﴿أفلا تعقلون﴾: أبعد هذه الدلائل الواضحة لا تعقلون بالنظر والاستدلال

* * *

(١) في (ف) و (ك) و (م): "تصرفها"، وفي (ع): "تصريفها"، والمثبت من (ي).

الجزء: ٧ - الصفحة: ٢١١

واستعمال المدركات المذكورة أن الكل منا، وأن قدرتنا تعم الممكنات كلها، وأن البعث من جملتها، فلا تنكرونه.." [١]

"(١١٧) - ﴿قال رب إن قومي كذبون﴾.

﴿قال رب إن قومي كذبون﴾ إظهارا لما يدعو عليهم لأجله، وهو تكذيب الحق، لا تخويفهم له واستخفافهم عليه.

* * *

(١١٨) - ﴿فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين﴾.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٦/٢٣٤

﴿فافتح بيني وبينهم فتحا﴾: فاحكم بيني وبينهم حكما، من الفتاحة وهو الحكومة، والفتاح: الحاكم؛ لأنه يفتح المستغلق.

ونجني ومن معي من المؤمنين﴾: من قصدهم، أو من شؤم عملهم.

* * *

* * *

(١) في (ف) و (ك): "أما ما علي". (٢) في (ف): "عليه".

الجزء: ٧ - الصفحة: ٤٠٥

(١١٩) - ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾.

﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾: المملوء، ومنه شحنة (١) البلد؛ أي: الذي يملؤه كفاية.

كانت السفينة مملوءة من الناس وأنواع الحيوان من سباع البهائم وجوارح الطير، فكانت في قصتهم هذه نجاة في نجاة، ومن هنا اتضح وجه (٢) توصيف الفلك بالوصف المذكور في مقام **الامتنان**.

* * *

(١٢٠) - ﴿ثم أغرقنا بعد الباقين﴾.

﴿ثم أغرقنا﴾ ﴿ثم﴾ للتفاوت بين الحالين لا للتراخي، ولذلك قال:

﴿بعد﴾؛ أي: بعد إنجائه ومن معه ﴿الباقين﴾ من قومه.

* * *

(١٢١) - ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾.

﴿إن في ذلك لآية﴾ عظيمة، شاعت وتواترت ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾.

* * *

(١٢٢) - ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾: المنتقم (٣) بإهانة من جحد وأصر ﴿الرحيم﴾: المنعم بإعانة من وحد وأقر.

* * *." (١)

"(٤١) - ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾.

﴿وآية لهم أنا حملنا﴾ لم يقل: وآية لهم الفلك، كما قال: ﴿وآية لهم الليل﴾؛ لأن العجب حملهم على الفلك، لا نفس الفلك فإنه بيت مبني من الخشب.

﴿ذريتهم﴾: أولادهم ومن يهمهم حمله، وقيل: اسم الذرية يقع على النساء؛ لأنهن مزارعها، وفي الحديث: أنه ؟ نهى عن قتل الذراري (٤)،

* * *

(١) في (ف) و (ك): "إحاله"، وفي (ي): "حيدته"، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما "تفسير القرطبي" (١٧/ ٤٥٠). (٢) نسبت لعمارة بن عقيل. انظر: "مختصر في شواذ القراءات" (ص: ١٢٥). (٣) "فيه": ليست في (م). (٤) انظر: "الكشاف" (٤/ ١٨)، و"الفائق" (٢/ ٧)، ورواه بنحوه

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣٨٨/٦

النسائي في "الكبرى" (٨٥٧١) و (٨٥٧٢)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، من حديث رباح بن الربيع ؟. ورواه النسائي في =

الجزء: ٨ - الصفحة: ٤٢٠

يعني: النساء، وتخصيص الذريات لأنه لا قدرة لهم على السفر، فك١ن الامتنان في حقهم أظهر.

﴿في الفلك﴾ قيل: المراد فلك نوح ؟، قال تعالى: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ [الشعراء: ١١٩]، فعلى هذا يراد بالذرية الأسلاف؛ لأنه من الذر، أو هو (١) الخلق فيصلح الاسم للأصل والنسل؛ لأن بعضهم خلق من بعض.

ويجوز أن يكون المعنى: أنه تعالى حمل آباءهم الأقدمين وفي أصلابهم ذرياتهم، وتخصيص الذرية لأن الخطاب للكفار، ولا فائدة في وجودهم، فلم يكن الحمل حملا لهم، بل كان حملا لما في أصلابهم من المؤمنين.." (١)

"ولم يقل: على الفلك، مع أنه الأنسب للحمل؛ لأن معنى الحفظ المستفاد من حرف الظرف أدخل في الامتنان وأنسب لما قصد من توصيف الفلك بقوله: ﴿المشحون﴾ لما كانت السفينة مملوءة بأنواع المخاوف؛ من سباع البهائم وجوارح الطير وهوام الدواب، كان (٢) حفظ بني آدم فيما بينهم من آثار اللطف العظيم والقدرة الباهرة، ولولا (٣) ذلك الاعتبار اللطيف لكان التوصيف بالمشحون بمعزل عن مقام الغرابة المستفادة من عبارة الآية؛ لأن القرار على الفلك المشحون الثقيل أهون من القرار على الفلك الخالي الخفيف، ولذلك لم يوصف الفلك به في قوله: ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ [المؤمنون: ٢٢].

* * *

* * *

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣٠٢/٧

(١) في (ك): (هذا). (٢) في (م): "فكان". (٣) في (م): "لولا".

الجزء: ٨ - الصفحة: ٤٢١

(٤٢) - ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾.

﴿وخلقنا لهم من مثله﴾: جنس الفلك ﴿ما يركبون﴾ من الإبل؛ فإنها سفائن البر، أو: من مثل فلك نوح ؟ من السفن والزوارق.

* * *

(٤٣) - ﴿وإن نشا نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون﴾.

﴿وإن نشا نغرقهم فلا صريخ لهم﴾ والصريخ والصارخ بمعنى المستغيث، ويجيء بمعنى الإغاثة لأن أصله مصدر بمعنى الصراخ، وقد سبق تفسيره في السورة السابقة.

﴿ولا هم ينقذون﴾؛ أي: لا يخلصون بعد ذلك.

* * *

(٤٤) - ﴿إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين﴾.

﴿إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين﴾ إلا لرحمة منا وتمتيع بالحياة إلى زمان قدر لآجالهم.

* * *

(٤٥) - ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون﴾.." (١)

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣٠٣/٧

"(١) رواه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦)، من حديث جندب بن سفيان ؟. (٢) قرأ بها نافع وابن عامر. انظر: "التيسير" (ص: ١٨٥). (٣) في (م): "به".

(٧١) - ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون﴾.

﴿أولم يروا﴾: أيشركون ولم يروا ﴿أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا﴾ مما تولينا نحن إحداثه، لا يقدر على توليه غيرنا، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة من عمل من يعمل بالأيدي؛ للمبالغة في الاختصاص والتفرد بإحداثها.

﴿أنعاما﴾ خصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة ولطائف الحكمة وكثرة المنافع؛ جمعا بين إظهار القدرة والامتنان بتذكير النعمة المختصين به، ولهذا كمله بقوله:

﴿فهم لها مالكون﴾؛ أي: خلقناها لأجلهم، وملكناهم إياها (١)، فهم فيها متصرفون تصرف الملاك.

* * *

(٧٢) - ﴿وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها ياكلون﴾.

﴿وذللناها لهم﴾ التذليل من جملة النعم الظاهرة، لولاها لما قدر عليها أحد، ولهذا ألزم الله تعالى الراكب أن يشكر (٢) هذه النعمة ويسبح (٣) بقوله: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ [الزخرف: ١٣].

﴿فمنها ركوبهم﴾ هو ما يركب ﴿ومنها ياكلون﴾، أي: سخرناها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها (٤).

* * *

(١) في (ع) و (ي): "خلقناهم لأجلهم وملكناهم إياهم". (٢) في (م): "الراكب بشكر". (٣) في (م): "هذه وسبح". (٤) في (ك): "لكم لتركبوا ظهرها وتأكلوا لحمها".

الجزء: ٨ - الصفحة: ٤٣٨

(٧٣) - ﴿ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾.." [1]

"وإنما لم يقل: من ماء مهين، مع ما فيه من المناسبة لقرينه، رعاية لحق الكلام بتجريده لما سيق له من المرام، وذلك بحذف ما يخيل غرضا آخر، وهو **الامتنان** بالإعزاز والإكرام.

ومن لم يتنبه لهذا قال: أنا خلقناه من أمهن شيء وأقذره، وهو مع مهانة أصله وخساسة عنصره (٣)، يتصدى لمخاصمة الجبار، الذي شرفه بعد خسته، وكرمه بعد ذلته، ويقول: من يحيي العظام؟!

* * *

(١) في (م): "الإلزام". (٢) "وإفراطه في"، وقع في النسخ بدلا منه: "وإفراد"، والمثبت من "الكشاف" (٤/ ٣٠). (٣) في (ك): "وخساسته".

الجزء: ٨ - الصفحة: ٤٤١

﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ (إذا) للمفاجأة، والفاء فصيحة للعطف على مقدر تفصيله: لما بلغ مظنة (١) إظهار الشكر والحمد على آثار قدرتنا، ففاجأ بإعلان الكفران والجحد مبالغا (٢) في الخصومة، معربا عما في نفسه من الجناية، وحاله أن خصامه في ألزم (٣) وصف له، وأبلغ حجة عليه، وهو أنه منشأ من موات، والإعادة أهون من الإبداء، فخصامه محض مكابرة وصرف معاندة.

* * *

(١) تفسير ابن كمال باشا ٧/٣١٦

(٧٨) - ﴿وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم﴾.

﴿وضرب لنا مثلا﴾ إنما سمى قوله مثلا؛ لكونه أمرا عجيبا (٤) وقصة غريبة كالمثل، حيث أنكر قدرة الله تعالى على إنشاء الموات وقد أنشأه الله تعالى من الموات.

﴿ونسي﴾: ولا يتذكر ﴿خلقه﴾ وهو أقرب شيء إليه.

﴿قال من يحي العظام وهي رميم﴾ روي أن أبي بن خلف أتى النبي ؟ بعظم بال تفتت بيده، فقال: أترى أن الله يحيي هذا بعدما رم؟! فقال ؟: "نعم ويبعثك ويدخلك النار" فنزلت (٥).

* * *." (١)

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣١٩/٧